

الادب فى العصر الفاطمى

■ ٢ ■

الشعر والشعراء

دكتور

محمد زغلول سلام

الناشر // **مكتبة** دار الفكر
جلال حزى وشركاه
الاسكندرية

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية

جلال حمزى وشركاه

٤٤ ش سعد زغلول الاسكندرية تليفون /فاكس : ٤٨٣٣٣٠٣



الفصل الأول

حال الشعر والشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

حال الشعر :

يبدأ العصر الفاطمي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وهو القرن الذي ارتقى فيه الأدب العربي عامة وازدهر الشعر والنثر ، فأخرج كبار شعراء العربية أمثال أبي الطيب المتنبي والشريف الرضي ومهيار الديلمي والصنوبري وأبي العلاء المعري من شعراء الشرق والشام ، كما أظهر من شعراء الغرب ابن هاني وغيره من شعراء الأندلس .

وفضلاً عما خرج في هذا القرن من كبار الكتاب أمثال أبي هلال الصائبي ، وأبي حيان التوحيدي ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وبديع الزمان الهمذاني ، والخوازمي ، ومن الأدباء والنقاد وعلماء العربية الكبار كالآمدي ، والقاضي الجرجاني ، وأبي هلال العسكري والحاتمي .

وما تلا ذلك من القرنين الخامس والسادس كان امتداداً للقرن الرابع وما أفرزه في ميادين الحضارة والفكر والأدب . وإن اختلفت الدرجة ، وتغيرت الملامح تبعاً لتغير ظروف العصر .

وكان للشعر في القرنين الخامس والسادس دوره الكبير في الحياة الأدبية وإن نافسته الكتابة وحاولت أن تتقدم عليه ، وتدفع به إلى مكانة متأخرة ، ذلك أن الشعراء الكبار الذين كانوا يفرضون وجودهم على الرأي العام الأدنى ، بابتداعهم المتفوق ومكانتهم الفنية قد قلوا بل ندر وجودهم ، على غير الحال في القرون السابقة . ولهذا لم نجد اسماً بارزاً في هذين القرنين يستطيع أن يحتل المكانة التي احتلها المتنبي مثلاً في القرن الرابع ولا أبو تمام والبحترى وابن الرومي في القرن الثالث اللهم إلا من كان علامة ظاهرة كأبي العلاء المعري .

ومن هنا كان الشعراء في هذين القرنين من الطبقة الوسطى في فئمة الشعرى ومكانتهم الإبداعية . كان ذلك لأسباب كثيرة .

وظهر في هذين القرنين طبقات من الشعراء غير « المحترفين » — إذا صح هذا التعبير — لم يتكسبوا بالشعر ، وإن غلب على معظم الشعراء التكسب ، ومن بين غير المحترفين جماعة من الكتاب نظموا الشعر إلى جانب الكتابة ، وألحقوا هذا

النظم بكتاباتهم فاختلط فيها النثر بالشعر وكانت ظاهرة هذين القرنين التي عمت من بعد واتبعها الكتاب في العصور التالية .

وكانت الدولة الفاطمية في مصر ، وقد حكمت خلال القرون الثلاثة ما يقرب من مائتي عام — قد اهتمت بالشعر والشعراء اهتماماً فاق اهتمام الولاة والحكام السابقين في عهد الطولونيين والإخشيديين ، حتى إن عدد الشعراء الذين قيل لهم وقفوا على قبر أحد وزرائهم لرثائه وهو ابن كلس بلغ مائة شاعر^(١) .

وشجع الفاطميون الشعر والشعراء الآن خلفاءهم كانوا عرباً يتذوقون الأدب والشعر ويقولونه . وقد رويت أشعار لمعظمهم ، كما قام على تشجيع الشعر والشعراء وزراء الفاطميين الكبار أمثال يعقوب بن كلس ، والأفضل بن بدر الجمالي ، والصالح طلائع بن رزيك ، وجمع بلاط هؤلاء جماعة من الشعراء ، إلى توافد الشعراء وتكاثرهم حول بلاط الخلفاء ، وإلى مجالس الوزراء وكبار رجال الدولة من القادة ، والقضاة . وأجزل هؤلاء العطاء للشعراء . ورتبت الدولة لهم ديواناً جعلوا عليه قِيماً . وكان الوزراء والقادة يعتبرون شعر المديح ضرباً من الخدمة التي يتقدم بها الشعراء لساحتهم ، كما كان الخلفاء يعتبرونه كذلك . ولم تكن مناسبة من المناسبات دينية أو اجتماعية أو عيداً من الأعياد العامة كعيد وفاء النيل أو كسر الخليج والنيروز ، وما إليها تمر دون أن يقول الشعراء فيها . وقد خصص الخليفة الأمر في أحد مناظرة طاقات بأسماء الشعراء في خدمته منها يأجلون الجائزة المقررة وعليها صور كل منهم^(٢) .

ولما جاء الأفضل إلى الوزارة أجزل للشعراء الجائزة وفق ما يسمع منه فيطريه . قال المقرئى : « فإن جميع الشعراء لم يكن لهم في الأيام الأفضلية .. ولا فيما قبلها على الشعر جار ، وإنما كان لهم إذا اتفق طرب السلطان واستجاشه للشعر من الشعراء منهم ما يسهله الله على حكم الجائزة » .

ومما دعا إلى ازدهار الشعر أن القائمين على شئون البلاد اتخذوا منه وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية . وكانوا يشجعون الشعراء في مدائحهم على الحديث عن

(١) الخطط ٨/ ٢ .

(٢) روى المقرئى أنهم كانوا يُجرون لبعض الشعراء رواتب جارية من عشرين ديناراً إلى عشرة دنانير ، الخطط ٢٤٣/ ٢ وراجع ٤٨٦/ ١ .

المذهب وأصول الدعوة الفاطمية^(١)، وعقائدهم في الأئمة والعلم الباطن، وكما يتحدثون عن حقهم السياسي في الخلافة.

وهكذا نرى الفاطميين يولون الشعراء عنايتهم لأن الشعراء لسان من ألسن تمجيدهم والذود عنهم أمام أعداء كثيرين أقوياء، فأغداق النعم الفاطمية على الشعراء كان من أشد الأسباب التي جعلت الشعراء يحرصون على إتقان الشعر مع الأكثر من الإنشاء، فكثرت الشعراء وكثر انتاجهم^(٢).

ويقول أحمد أمين^(٣) « وفي الحق أن الشعر في العهد الفاطمي في مصر كان أول شعر مصري قيم من عهد فتح العرب لمصر، إذ كان قبل ذلك ليس له قيمة إلا للوافدين على مصر من الخارج، أما شعر المصريين أنفسهم فكان محاولات أولية، حتى إذا جاء الفاطميون جاء الشعر وجاد ».

وشعراء العصر لم يكن لهم استقلال في مواردهم المالية، أو موارد العيش غالبا، وإنما كان معظمهم يتكسب من الشعر، ولهذا كان الشعراء يلجأون إلى كسب ود ذوى النفوذ والأمر.

ومن هنا كنا نرى بين شعراء العصر من يبذل نفسه لأجل نيل الحظوة عند هذا أو ذاك من الخلفاء والوزراء والأمراء، على أساس أن المديح وقول الشعر بين يدى فلان أو فلان كان حرفتهم التي يرتزقون منها.

واتخذهم الخلفاء والولاة أدوات للمباهاة بالسلطان، فضلا عن الدعاية السياسية التي أشرنا إليها. وكان مثلهم في ذلك مثل ما تضمم مجالسهم من ألوان الترف، وما يجمعون من أسباب النعيم، فالشعراء كانوا عند هؤلاء من ضروب الزينة والمتعة والمسامرة أو التسلية، يبذلون لهم ما يريدون كي يرضوا نزعاتهم، ويشبعوا رغباتهم، ويلبوا طلباتهم فيما تهديه إليه مخارقهم وشطحاتهم.

ونجد في هذا العصر — لا في مصر وحدها — بل في سائر بلاد العرب والمسلمين ودولهم شرقا وغربا — شعراء يغفلون على قصور السادة، ويبذلون لهم — وينفذون ما يطلبون منهم، وتنقلب بهم الأهواء، فيتقلبون بتقلبهم معهم، ونسمع كثيرا عن شعراء يمدحون أناسا، ويعودون فيدعونهم، ثم يمدحون آخرين أعداء

(١) محمد كامل حسين في أدب مصر الفاطمية، ص ١٥٩.

(٢) ظهر الإسلام ٢٠٥/١.

لهم . والعكس ، قد يكون عدواً في عصر يهجوونه فيعودون لمدحه لأن المنفعة تمل عليهم وحي الشعر ونظمه .

يقول الدكتور باغى عن شعراء القيروان في العصر نفسه^(١) :

« والغراء الرخى أو الثرف المثرى يدفع بذويه إلى صنوف كثيرة من الفراغ اللاهى حين يتاح لهم أن يخلطوا إلى الفراغ ، فلم يكن يجد المعز (بن باديس) مضيقاً للوقت فى أن يعقد مجلساً يستدعى شعراء ، لا لشيء إلا لينظموا فى وصف طعام من الأطعمة أو شراب من الأشربة أو صنف من الفاكهة . وما زال يحول بين السلطان ، وبين تسخير الشعر لفراغه حين يركن إلى الفراغ ، ولطوه حين يطلب اللهو ، ولذته حين يطلب اللذة ؟ وهو الذى سخر الشعر فى شئونه السياسية وجعل من الشعراء ألسنة تلهج بالمدح الذى يجد فيه متاعاً ، وبما يصلح أن يسليه حين تنزل به نازلة أو تصيبه كارثة .

وقد كاد السلطان أن يجعل الشعراء لا يحيون إلا له ، ولا يقولون إلا فيه ، ولا يعبرون إلا عما يدور بخلد .

فكان الشعراء إذا بعض حاشية السلطان ، لا يرضيه أن يتجه الشاعر بالخدمة إلى غيره ، وهذا ما حدث لابن مكنسة الشاعر المصرى فى عصر الأفضل بن بدر الجمالى أيام الخليفة المستعلى .

فقد ذكر أن ابن مكنسة لم ينل الخطوة لدى الأفضل لأنه مدح أحد الرجال العاملين بمصر وهو أبو مليح جد الأسعد بن ممان الشاعر المشهور ، وكان أبو مليح هذا من كبار موظفى الدولة الفاطمية ، وكان نصرانياً . وأكثر فيه المديح ، وقصر شعره عليه قبل الإنصال بالأفضل ، قال أمية : « فلما أنتقل الأمر إلى الأفضل تعرض لامتداحه ، فلم يقبله ، ولم يقبل عليه ، وكان سبب حرمانه ما سبق من مديحه لأبى مليح ، ولا سيما قوله فيه :

طويست سماء المكرما	ب وكورت شمس المديح
ما كان بالنكس الذنب	سي من الرجال ولا الشجيع ^(٢)

(١) حياة القيروان ، ص ٧٩ .

(٢) الرسالة المصرية .

ويبدو أن الأفضل استكثر أن يمدح ابن مكنسة غيره بهذا القول ، لما مكن من نفسه في الدولة ، فعال الحاكم الأمر ، ولم يكن معقّب على قوله ، حجب الخليفين المستعين والأمر .

ومع ذلك فقد كان الأفضل يجمع في مجلسه كثيرا من الشعراء ، وكان يقد إليه الشعراء من المشرق والمغرب . قصده بن جَيّوس من الشام ، وأمّية بن أبي الصلت من الأندلس وغيرهما كثيرون .

يقول المقرئ (١) : « وله مروءة عظيمة ويحتذى أفعال البرامكة ، وللشعراء فيه أمدائح كثيرة ، مدحة ظافر الحداد وأمّية بن أبي الصلب وغيرهما » .

« وعرف كثير من رجال الدولة الفاطمية بتشجيع الشعراء وتقريبهم ، وإجزال العطاء لهم مثل مكين الدولة ابن أبي الحديد قاضي الإسكندرية أيام الأمر .

وكان الوزير الخطير والشاعر الأديب طلائع بن رزيك يعقد في منزله مجلسا في ليالى النجم ، يجمع بعض جلسائه من المقرئين من الأدباء والشعراء والفقهاء ، ويضم هذا المجلس كثيرا من الشعراء المصريين وغيرهم كالمهذب بن الزبير وعمارة اليمنى والقاضي الجليس ، وأسامة بن منقذ ومجبر بن محمد بن مجبر الصقلي .

(١) الخطط ١ / ٤٨٥ .

موضوعات الشعر

وخاض الشعر في كثير من قضايا العصر ومشكلاته واهتمامات الدولة فضلا عن الموضوعات السائدة والتقليدية من مديح وغزل ورثاء وهجاء ووصف ، كما كثر في هذا العصر حديث الشعراء عن صور مباحج الطبيعة ، وزينة الحياة ومسراتها من منازة وأعياد ، ووصف للروض والزهر ، والغناء والآلة ، والموسيقى والرقص ، وألوان المتعة .

وأول ما نعرض له حديث الشعراء عن الدعوة الفاطمية ، وما تناولوه في هذا الحديث من معان وتردد كثيرا في أشعار الدعاة وبعض شعر المديح لقادتهم وخلفائهم . وبعض هذه المعاني تكثر في شعر ابن هاني الأندلسي في مدائحه للخليفة المعز لدين الله قبل مجيئه إلى مصر .

فإلى جانب الصفات العامة في المديح التي مدح بها ابن هاني المعز لدين الله ونجده قد مدحه أيضا ببعض الصفات الدينية التي خلعتها الفاطميون على أئمتهم فقد سمي المعز (وصي الأوصياء) :

نَزَمَ وَصِيَّ الْأَوْصِيَاءِ وَدُونَهُ صُورُ الْقَنَا وَالْمَرْهَفَاتِ الْبَوَاتِكُ

وقد ذهب في هذا الشعر مذهبه الشعري في المبالغة — وكذلك قوله :

رَأَيْتُ أَنْ سَيُسَمَّى مَالِكُ الْأَرْضِ كُلِّهَا فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ : ذَا الصَّمَدِ الْوَتَرِ
وَأَرْجَحُ أَنَّهُ لَمْ يَأْتْ بِلَفْظِ الْوَتَرِ إِلَّا لِلْقَافِيَةِ ، وَلَوْ لَمْ تَكُنِ الْقَافِيَةُ أَتَى بِلَفْظِ الْقُرْآنِ
« الْأَحَدِ الصَّمَدِ » .

وكذلك وصّف الإمام المعز بصفات الله تعالى التي وصف بها نفسه في القرآن كقوله :

مَا شِئْتَ لَا مَا شَاءَتْ الْأَقْدَارُ فَأَحْكَمُ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ^(١)

ويقول الدكتور محمد كامل حسين : « قد يكون لابن هاني بعض الأعذار في أنه مدح الإمام بمثل هذه الصفات ، فقد ذكرنا كيف نفى الفاطميون هذه

(١) الدكتور محمد كامل حسين — ديوان داعي الدعاة ، ص ١٦٠ ، طبع دار الكتاب .

الصفات عن الله تعالى ، وقالوا أنها صفات المبدع الأول الذى هو ممثل الإمام ، وهذا مدح ابن هانىء إمامه بصفات المبدع الأول الباطنية « (١) » .

وذكر ابن هانىء كثيرا من المعانى الفاطمية ومصطلحاتهم الباطنية التى جرت بها تأويلاتهم وعقائدهم ، كالتأويل وأصحابه ووجوب ستره ، وضرورة وجود الإمام فى كل عصر ، وأن الدنيا خلقت للإمام ، كما خلق الجسم للنفس ، وأنه معصوم إلى غير ذلك من الآقاويل « (٢) » .

وقد نهض بالحديث عن تلك المعانى والتبشير بها فى الشعر جماعة من شعراء الدعوة وبخاصة « داعى الدعوة المؤيد شمس الدين » « (٣) » .

واهتم شعراء الفاطميين فى مدائحهم للخلفاء والقادة بإبراز جهادهم ضد أعداء الإسلام والملة من خوارج ، وروم وفرنجية ، وكان للعداء بين العباسيين والفاطميين دور كبير فى هذا الجدل الشعرى السياسى والدينى . يقول تميم ابن المعز ، وهو يرد على ابن المعتز فى ادعائه حق العباسيين فى الخلافة ووراثته النبى فى قيادة الأمة وهدايتها :

أتى رَسْمُ لآلِ هِنْدٍ وَدَارٍ درساَ غَيْرَ مَلْعَبٍ وَمَنَارٍ
يقول فيها ذاكراً الخليفة العزيز بالله أخاه :

هاشِمِيٌّ إِذَا نَسِبْتَ وَمَخْصُومٌ صَّ يَبِيْتُ مِنْ هَاشِمٍ غَيْرِ عَارٍ
أَحْزَلُ الْغَيْظِ فِي قُلُوبِ الْأَعَادِي وَأَحْلَى الْجَبَّارِ دَارِ الصَّغَارِ
ويقول مخاطباً العباسيين :

يَا بَنِي هَاشِمٍ وَلَسْنَا سَوَاءً فِي صِغَارٍ مِنَ الْعُلَا وَكِبَارٍ
إِنْ نَكُنْ نَنْتَمِي لَجَدِّ فَإِنَّا قَدْ نَسَبْنَاكُمْ لِكُلِّ فَخَارٍ
لَيْسَ عَبَّاسُكُمْ كَمَثَلِ عَلِيٍّ هَلْ تُقَاسُ التُّجُومُ بِالْأَقْمَارِ

وركز شعراء الفاطميين على وصاية على ، وهللوا واكثروا من الحديث عن يوم « غدير خُحَمَ » الذى يعتقدون أن النبى ﷺ أوصى فيه لعلى رضى الله عنه ،

(١) دوان داعى الدعوة ، ص ١٦١ .

(٢) المصدر نفسه وراجع له كتاب أدب مصر الفاطمية .

(٣) سيرة الحديث عنه بعد .

ونجعل له من بعده إماما ولكن أبا بكر وعمر اغتصبا حقه — فيما يدعون —
وأشادوا بفضل يوم « غدیر خم » فجعلوه عيدا كما ذكرنا وقللوا من شأن العباس ،
وأشاروا إلى أنه لم يكن سابقا إلى الإسلام كعلي ، بل جاء إسلامه متأخرا رغم ما
أشاع العباسيون من فضله ودوره .

ولا نريد الخوض في تفصيلات موضوعات هذا الشعر ، فقد سبق إلى تفضيل
الحديث فيه غيرنا .

ومن موضوعات شعر المديح للأئمة الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وقادتهم
موضوع الجهاد والحروب ، فترى ابن هانيء يشيد بحروب المعز لدين الله في
أفريقيا ضد أعدائه حتى دانت له البلاد ، كما أشاد بحربه مع الروم ومناوئيه من
الأمويين ملوك الأندلس .

وكذا فعل تميم بن المعز في مديحه لأبيه وأخيه بمصر . يقول في أخيه العزيز
مشيرا إلى تصديه لحرب الخوارج والثائرين بالشام من الأتراك والحمدانيين
والقرامطة^(١) :

نهضت بها إذا عجزت كل ناهض	ومزن رداها ينهمي ويصوب
وقد خلأت أرض الشام وقائعا	قبائل من مراقبها وشعوب

ويقول فيها :

وما حاربك الترك إلا وبينها	وبين البهذي والمكرمات حروب
وما جعلوا الحق الذي لك فضله	ولكن بهم عنه عني وهروب
ولان يصب حوائرك أو رنجأ وذيلما	فأنت إمام للنبي نسيب

وعارض تميم ابن المعتز في القصيدة التي يدعم فيها حق العباسيين في الخلافة
ويقول مطلعها^(٢) :

إلا من لنفسي وأوصابها	ومن لدموعي وتسكابها
-----------------------	---------------------

فيقول :

(١) ديوانه ص ٥٤ .

(٢) ديوان ابن المعتز .

وَرَأَى اللَّحَاقَ بِأَرْبَابِهَا
 أَرْوُسَهَا مِثْلَ أَطْرَافِهَا
 وَأَوَّلَ هَادِمِ أَنْصَابِهَا
 فَخَلَّوْا الْمَعَالِيَ لِأَصْحَابِهَا
 إِذَا أَبَدَتْ الْحَرْبُ عَنْ نَائِبِهَا
 يَذْودُ الْكَتَائِبَ عَنْ غَايِبِهَا
 بَيْنَ جِهَادٍ وَمَالِكٍ أَسْلَابِهَا
 وَمُعْطَى الرَّغَابِ لَطْلَابِهَا
 تِ وَفَتْحِ مُقْفَلِ آبِئَابِهَا
 غَيْرِ الْمَقَالَةِ كَذَابِهَا
 م ، وَيُحَكِّمُ تَنْمِيقَ أَذْهَابِهَا
 وَلَكِنْ بَنُو الْعَمِّ أَوْلَى بِهَا
 بَنُو الْعَمِّ ، أَتَى لُغْصَابِهَا
 اتَّعَمُّونَ عَنْ نَصِّ إِسْهَابِهَا
 ه ه وَقَاسَ الْمَطَايَا بِرُكَّابِهَا (١)

أَلَا قُلْ لِمَنْ ضَلَّ مِنْ هَاشِمٍ
 أَوَّسَاطُهَا مِثْلَ أَطْرَافِهَا
 وَأَوَّلُهَا مُؤْمِنًا بِالْإِلَهِ
 بَنَى هَاشِمٍ قَدْ تَعَامَيْتُمْ
 أَعْبَاسُكُمْ كَانَ سَيْفُ النَّبِيِّ
 أَعْبَاسُكُمْ كَانَ فِي بَدْرِهِ
 أَعْبَاسُكُمْ قَاتِلُ الْمُشْرِكِ
 أَعْبَاسُكُمْ كَوْصِي النَّبِيِّ
 أَعْبَاسُكُمْ شَرَحَ الْمُشْكِلَ
 عَجَبْتُ لِمُرْتَكِبِ بَقِيَّةِ
 يَقُولُ فَيَنْظِمُ زُورَ الْكَلَامِ
 (لَكُمْ حُرْمَةٌ يَا بَنِي بَنِيهِ
 وَكَيْفَ يُجُوزُ سَهَامُ الْبَنِينَ
 بَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ آيَ الْقُرْآنِ
 لَقَدْ حَارَفَ الْقَوْلَ عَبْدُ الْإِلَهِ

ويشير الشعراء إلى تحاذل العباسيين أمام أعداء الأمة الإسلامية ، وانصرافهم
 إلى ضروب اللهو والعبث ، بينما الأعداء يتكالبون عليها من كل جانب على عكس
 الفاطميين الذين نذروا أنفسهم للجهاد ، والتصدى للخارجين في كل مكان .

ويصور تميم بطولة العزيز في ميدان القتال ومناجزة الأعداء فيقول (٢) :

بَذَا لَهْمٌ دَارِعًا فِي الْعَجَاجِ	كَصْبُوحٍ بَذَا طَالِعًا مِنْ دُجَى
يَكْرُرُ وَيَسِيمُ فِي مَوْقِفٍ	مُجْبُوسِ الْكَمَاةِ بِهِ قَدْ بَذَا
وَلَمْ يَخْلُ السَّيْفُ مِنْهُ بَذَا	وَلَمْ يَسْكُنِ الرُّوْعُ مِنْهُ حَشَا
يَقُودُ إِلَى الْحَرْبِ مِنْ جُنْدِهِ	أَسْوَدَ رِجَالِ كَاسِدِ الشَّرَى

ويقول في مناسبة أحد الانتصارات بالشام مفتخرا :

(١) يقصد بعيد الإله عبد الله بن المعتز .

(٢) ديوانه ص ١٠ .

وإِنَّا لَنَقُومُ نَزْعُ الرِّمَانِ وَلَسْنَا نُرَاغُ إِذَا مَا سَطَا
وَمِنَّا الْإِمَامُ الْعَزِيزُ الَّذِي بِهِ عَادَ سَيْفُ الْهَيْدَى مُتَنَضًى
سَعَى لِلشَّامِ وَقَدْ أَصْبَحَتْ بِهَا الْحَرْبُ نَزَاعَةً لِلشُّوَى
وَلَمَّا تَقَابَلَتِ الْجَحْفَلَاتُ وَعَادَ كَجَنَاحِ الظَّلَامِ الضُّحَى
وَلَمْ يَبْقَ فِي الصِّفِّ مِنْ قَائِلٍ هَلَمَّ وَلَا مِنْ مُجِيبٍ أَنَا

ويقول ذاكرة العزيز ومننددا بالبوميين حكام بغداد (١) :

أَرَيْتُهُمْ وَقَعَاتِ تَزِيدُ عَلَى وَقَعَاتِ الدُّهُورِ الْآلَى
يَعْدَادُ مِنْ ذِكْرِهَا جَوْلَةٌ تَلُودُ عَنِ الْمَارِقِينَ الْكَرَى
فَأَنْفَسُ دَلِيلِهَا تَغْتَلِي وَتُصْبِي عَلَى مِثْلِ جَمْرِ الْعَضَا
إِذَا سَبَّحُوا بِالْإِمَامِ الْعَزِيزِ أَسَاءُوا الظُّنُونِ وَخَلَّوْا الْخَبَا
يَخَافُونَ مِنْ بَأْسِهِ وَقَعَةٌ تَلُودُ عَلَيْهِمْ بِقَطْبِ الرَّحَا
يَنَادِي بُرْيُؤُهُ بِنِيهِ بِهَا وَيَنْدُبُهُمْ وَهُوَ رَهْنُ الْبَلَا
وَقَدْ قَرَّبَ الْوَقْتُ فليَأْذِنُوا يَوْشِكُ الزُّوَالِ وَسُوءِ الْقَضَا

وكذا يتكرر هذا المعنى ، في مديح الشعراء للخلفاء الفاطميين وهذا داعي الدعاة شمس الدين وقد جاء بعد تميم بن المعز بأكثر من نصف قرن من بلاد فارس ليمدح الخليفة المستنصر بالله ، ويدور في مديحه حول معاني ابن هانيء وقيم بن المعز ، وإن أمعن في ذكر عناصر العقيدة وبيان مكان الأئمة من الأمة ، ووجوب الطاعة على الرعية ، وضلال المخالفين المعاندين ممن ينكرون دعوتهم .

ومن ذلك قوله بولاية الفاطميين (٢) :

وَهُمْ أَوَّلُوا الْأَمْرَ أئِمَّةُ الْهَيْدَى عَصَمَةٌ مِنْ لَأَذَ بِهِمْ مِنَ الرِّدَى
مَفْرُوضَةٌ طَاعَتُهُمْ عَلَى الْأَمَمِ قَاطِبَةً مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمِ
إِقْرَأْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ثُمَّ أُولَى الْأَمْرِ بِهِمْ مَوْصُولَا
ثَلَاثَ يَطَاعَاتٍ غَدَتْ مَعْلُومَةً فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْظُومَةً

وهو ترجمة لقول المعز لدين الله : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ فَضَّلَنَا وَشَرَّفَنَا وَاخْتَصَّنَا وَاصْطَفَانَا وَاقْتَرَضَ طَاعَتَنَا عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَنَا أئِمَّةً عَلَى جَمِيعِ عِبَادِهِ » .

(١) ديوانه ص ١١ .

(٢) ديوان داعي الدعاة ص ٧١ .

ومنه تأويل بعض آى القرآن لصالح عترة النبی ﷺ كتأويلهم النجوم بأنهم أهله فى قوله تعالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) (١) . فقال المؤيد بذلك فى شعره (٢) :

وبه فى القرآن قد أقسم الله هـ ، وحق بمثله الأقسام
إن معنى مواقع الأنجم الزهـ ير ، هم العترة الهداة الكرام

موضوعات الشعر التقليدية :

وطبعى أن تظل موضوعات الشعر التقليدية مجالا لقرائح الشعراء ، ويظل المديح على رأس تلك الموضوعات كثرة ، واهتماما من الشعراء ، لأن المحترفين منهم خاصة كانوا يعتمدون عليه لكسب أرزاقهم .

ومن هنا كان مديح التكسب أول درجات المديح ، وأعمه بين شعراء العصر وكل العصور المتعاقبة ، ومن بعده مديح التملق والقرى من الرؤساء ابتغاء الرضا والقبول ، ومنه مديح الصداقة والعلاقة بين الأدباء أو مديح الوفاء والرجاء .

وعلى رأس من مدحهم الشعراء خلفاء الفاطميين ، وكانوا يفهمون الشعر ويتلقونه ويميزون عليه الجوائز السنية .

ومديح الخلفاء تدور معانيه حول معانى الإمامة الدينية ، وأحقيتهم فى وراثة النبى ، ومن بعد هذه المعانى الخاصة ، تأتى المعانى العامة التى اعتادها الشعراء فى المديح من الصفات الأخلاقية ، والسداد ، وحفظ الرعية ، والدفاع عن حوزة المسلمين وحماتهم ، ومناصرة الدين والعمل على مناصرة أعدائه ، والعدل فى الرعية ورعاية شئونهم ، وتوفير أسباب الطمأنينة لهم .

ومما خص به خلفاء الفاطميين من معانى المديح بلاغة المنطق ، وإجادة الخطب كإشارة تميم بن المعز فى مديح أخيه العزيز بالله ، بقوله :

(١) سورة الواقعة آية ٦٥-٦٦ .

(٢) ديوانه ص ٧٦ .

وقمت بهم في منبر المنك خاطباً
وأفصحت حتى ليس إلاك مفصيح
نبشّر طوراً بالآله وثارة
يانا ووعظاً قد تناهيت فيهما
وأثبت في الأسماع برهان حكمة
لأنك في بحر البلاغة مغرق
بما لم يقم ملك سواك فيخطب
وأسهت حتى ليس إلاك نسهب
تخوف من عصيانه وثرهب
كأنك لم يسبقك قس ويعرب
يقصر فيها من يقول فيطنب
وفي باحتي أرض النبوة منجب

ويركز تميم في مديحه لأخيه الخليفة على عرويته ، وأنه يتصدى لغير العرب من
الزنج والترك والديلم الذين كادوا للإسلام وأضروا بما ارتكبه من فتن وثورات .
يقول :

وما حازتلك الترك إلا وبينها
وما جحدوا الحق الذي لك فضله
فإن يصبحوا تركاً وزنجياً وديلماً
وبين الهدى والمكرمات حروب
ولكن بهم عنه عني وهروب
فأنت إمام للنبي نسيب

ومدح الشعراء كبار الدولة ، وقادة جندها ووزراءها .
وكان يعقوب بن كلث من الممدحين ، مدحه كثير من شعراء العصر ، يقول
أبو الرقعمق :

لم يدع للعزیز في سائر الأرب
ولهذا اجتباہ دون سواہ
لم تُشيد له الوزارة مجداً
ض عدوا إلا وأحمد نارة
بل كساها وقد نخرمها الذهب
واصطفاه لنفسيه واختارة
هكذا كَل فاضل : يد تمس
لا ولا قبل رفعت مقداره
فاستجره فليس يأمن إلا
سر وكذ الخطوب بالبدل غارة
سي وتضجى نفاعه ضارة
من تقياً بظله واستجاره

ومن موضوعاته التقليدية الهجاء ، وتناول الشعراء بألستهم رجال الدولة الكبار
وبعض الموظفين ، والقائمين بأعمال إدارية كالقائمين على تحصيل المكوس
الخاسيين وغيرهم . كما تهاجى بعض الشعراء . من ذلك هجاء الشاعر عبد الودود
القرطبي في ابن قادوس الدمياطي (١) :

(١) خريدة القصر ١/ ٤١٥ بتحقيق عمر الدسوقي .

تسل فلأيام بشر وتعييس
فلا التعمى تدوم ولا اليوس
وهى قصيدة طويلة يقول فيها :

وقالوا ابن قادوس تقدس اسمه
ومن هو قادوس ، فلا كان قادوس
أيا من غدا ضدا لكل فضيلة
ونجمه في طالع السعد منكوس

ويعد الواساني من أشهر الشعراء الهجائيين في العصر . وهو شامي يشبه في هجائه ابن الرومي لكثرة تعريضه بالعورات ، فقد هجا الوزير المصري منشأ الذي عينه الخليفة العزيز بالله مستولاً عن أعمال دمشق والشام فضائق الناس . وكان منشأ هذا يهودياً ، كرهه أهل الشام وناولوه حتى اضطر العزيز إلى عزله ، قال الواساني (١) :

إن منشأ قد زاد في التيه
ولا ابن هند ، ولا ابن ذى يزن
وهو مغبط على الوصي ومن
يذكر أيام خيسر بهم
وزاد في شامنا تعديه
ولا ابن ماء السما يدانيه
يغزى إليه ومن يواليه
وهم قد جال في مآقيه

وهجا بعضهم القضاة لجورهم في الأحكام أو ميلهم مع الهوى ، أو تقاضهم الرشوة . قال أبو الشرف الدجرجاوى (٢) :

قاض إذا انفصل الخصمان ردّهما
يئلى الزهادة في الدنيا ورزخرفها
مهلل الدهر لا في وقت هيللة
وما أسميه لكتى نعت لكم
إلى الخصام بحكم غير منفصل
جهراً ويقبل سرّاً بعة الجمل
ويلزم الصمت وقت القول والعمل
نعتاً أدلكم فيه على الرجل

ومن الشعراء الهجائيين الحسين بن بشر (٣) :

واكثر من هجاء الوزير يعقوب بن كلس ، وعرض برفع العزيز للنصارى وأهل الكتاب بمشورة وزيره . يقول :

(١) بيتمة الدهر ١ / ٤١١ .

(٢) الخريدة ٢ / ٦٦ (قسم شعراء مصر) .

(٣) الرائق بالوفيات ١٢ / ٣٤٣ .

تَنْصَرُّ فَالتَّنَصَّرُ دِينٌ حَقٌّ عليه زماننا هذا يدل
فيعقوبُ الوزيرُ أبَّ ، وهذا الـ عزيزُ ابنِ ، وروح القدسِ فضلُ

الوصف :

والوصف هو أقرب موضوعات الشعر إلى الفن ، وإلى روح الشعر .
ففيه تتجلى أحاسيس الشاعر ، ومواقفه من الأشياء ، وتذوقه لمجالي الجمال في الطبيعة .

وحظيت بعض منارة القاهرة ومعالمها ، بل معالم مصر شمالا وجنوبا ومشاهد الطبيعة ، وعناصر حسناتها وبدائعها بقدر كبير من اهتمام الشعراء ، وتجليات قرائحهم .

يأتى النيل ومناظره ، وشواطئه ، ومهرجان وفائه وكسر الخليج في مقدمتها .
قال تميم بن المعز (١) :

نظرتُ إلى النَّيلِ في مَدَّه بموجٍ يزيدُ ولا ينقصُ
كَأَنَّ معاطِفَ أمواجِهِ معاطِفَ جاريةٍ ترقصُ
ويقول (٢) :

يَوْمَ لَنَا بِالنَّيْلِ مَخْتَصَرُ ولكلِّ يومٍ مسرةٌ قِصْرُ
وَالسَّفْنُ تَصْعَدُ كَالنُّحُولِ بِنَا فِي مَوْجِهِ وَالْمَاءُ ، يَنْحِيرُ
فَكَأَنَّمَا أَمْوَاجُهُ عَكَنُ وَكَأَنَّمَا دَارَاتُهُ سُرُرُ

وجدير بالملاحظة احساس المتعة في شعر تميم ، وربطه لذة المتعة بالنيل بلذة النساء في مجالها ، فيشبه موج النيل بمعاطف الجارية الراقصة ويجسد المرأة عارية ، وما يجتذب مرأى الرجل فيه من متعة جس ؛ عكن وسُرر .

ويصف مشاهد النيل في حلوان فيقول (٣) : (يصف نزهة في مركب نيلي بحلوان) :

(١) ديوانه ص ٢٥٥ .

(٢) ديوانه ص ٢٤١ .

(٣) ديوانه ص ٣٢٤ .

ياحبذا خلوان فالتليل
رحت ومركبي به أدهم
كأنه في النيل زنجية
والنيل في روثي شمس الضح
حتى إذا ما درجته الصبا
فهو لمن أبصره جوشن
أو حبك ترصيعها جوهر
ربع بحسن اللهب مأهول
على جناح للريح محمول
لها من الموج أكابيل
سى سيف صيقل والتن مسلول
ماج منه العرض والطول
على مهاد الأرض مسلول
مدد فيهن محلول

ومن الشعراء الوافدين من المغرب أو المشرق من وقف أمام نيل مصر معجبا
كالفقيه أبي الفضل يوسف المعروف بأبن النحوى (ولد سنة ٥١٣ هـ) .
قال (١) :

أين مصر وأين سكان مصر
حدثاني عن نيل مصر فأني
رق قلبي حتى لقد جُدت للقي
ما ترائي أبكى على كل ربع
روشن من رواشن (٢) النيل خير
ومن القصر قصر شداد ذلك المش
إن مصرا لها معان لعمري
هذه الأرض إنما هي را
بيننا شقة التوى والبياد
منذ فارقت إلى الماء صادي
ه بين أيدي الزوار والعواد
ما ترائي أهيم في كل وادي
يعد من دجلة ومن بغداد
رف المرتقى ، ومن سندان (٣)
قد تأبث على جميع البلاد
د البكا حاجتي إلى الاستعاد

ويبدو النيل أجمل وأبهى في أيام الإحتفالات والمناسبات والأعياد ، وفي يوم
الاحتفال بوفاء النيل ، وكسر الخليج والمهرجان . ووصف الشعراء هذا فقال أمة
بن أبي الصلت يوم المهرجان واحتفال الوزير الأفضل بن بدر الجمالي له فقال ،
وكتب بها إلى الوزير (٤) :

أبدعت للناس منظراً عجبا
جمعت بين الضدين مقتبرا
لازلت تُحبي السرور والطربا
فمن رأى الماء خالط اللهب

(١) خريدة القصر قسم شعراء المغرب ١/ ٤٠٦ .

(٢) الروشن : الشقة .

(٣) شداد ملك من ملوك الين بنى قصرا مشهورا في التاريخ وأما سندان فقصر عظيم كان بالكوفة .

(٤) الخريدة ١/ ٥ قسم شعراء المغرب تحقيق عمر الدسوقي وعبد العظيم .

كَأَنَّمَا النَّيْلُ وَالشَّمْعُ بِهِ أَفْقَى سَمَاءٍ تَأَلَّقَتْ شُهْبًا
قَدْ كَانَ مِنْ بُضْبَةٍ فَصِيرُهُ تَوَقَّدَ النَّارِ فَوْقَهُ ذَهَبًا

ويسجل الشاعر هنا منظر النيل وقد أوقدت على شواطئه الشموع ، واحتفى الوزير فأوقد من الشموع على شاطئه ما تلالأت أضواؤها على مياهه ، فبدت سماءا تناثرت فوقها الشهب .

وكان الخلفاء والوزراء في مصر أيام الفاطميين يحتفلون بيوم كسر الخليج . قال المقرئ (١) : « يجلس الخليفة في خيسته الكبيرة غربي النيل قرب قنطرة السكرة ويتقدم إليه أحد رجاله ويسمى النائب فيقدم الشعراء حسب منازلهم ، فالواحد يتقدم الواحد بخطوة في الإنشاد . وفي إحدى تلك المناسبات تقدم شاعر يقال له ابن جبر وأنشد :

فَتَحَّ الْخَلِيجُ فَسَالَ مِنْهُ الْمَاءُ وَعَلَتْ عَلَيْهِ الرَّأْيَةُ الْبَيْضَاءُ
وَصَفَتْ مَوَارِدُهُ لَنَا فَكَأَنَّهُ كَفَّ الْإِمَامُ فَعَرَفَهَا إِعْطَاءُ

فانتقد الناس عليه في قوله : « فسال منه الماء » ، وقالوا : أى شيء يخرج من البحر غير الماء ؟ فضيَّع ما قاله بعد هذا المطلع .

وتقدم شاعر يقال له مسعود الدولة بن جرير ، وأنشد :

بِمَا زَالَ هَذَا السَّدُّ يَنْظُرُ فَتَحُهُ إِذَنْ الْخَلِيفَةُ بِالنَّوَالِ الْمُرْسَلِ
حَتَّى إِذَا بَرَزَ الْإِمَامُ بِوَجْهِهِ وَسَطًا عَلَيْهِ كُلَّ حَامِلٍ مِعْوِلِ
فَجَرَى كَأَن قَدْ دَيْفَ فِيهِ عَنَبٌ يَعْלוهُ كَافُورٌ بِطَيْبِ الْمُنْقَلِ

فانتقدوا عليه أيضا قوله في البيت الثاني ، وقالوا أهلك وجه الإمام بسطوات المعاول عليه ، وإن كان يقصد فتح السد ، بالمعاول ، لكن نظمهم كان قلعا . ثم تقدم شاعر شاهد يقال له كافي الدولة أبو العباس أحمد وأنشد قصيدة شهد له جماعة منهم القاضي الأثير ابن سنان ، فإنه عملها بحضوره بديها :

لَمَنْ اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي ذَا الْمَشْهَدِ لِلنَّيْلِ أَمَّ لَكَ يَا ابْنَ بَنَاتِ مُحَمَّدٍ
أَمَّ لاجْتِمَاعِكُمَا مَعًا فِي مَوْطِنٍ وَافِيَتُمَا فِيهِ لِأَصْدَقِ مَوْعِدِ

(١) الخطوط ١ / ٤٧٨ .

ليس اجتماع الخلق إلا للذي
شكروا لكل منكم لوفائه
ولئن إذا اعتمد الوفاء فقبله
هذا يفي ويعود ينقص تارة
وقواه إن بلغ النهاية قصرت
فالآن قد ضاقت مسالك سعيه
فاذا أردت صلاحه فافتح له
وأمر بفصد العرق منه فمأشكا
واسلم إلى أمثال يومك هكذا
فأمر له على الفور بخمسين ديناراً ، وخلع عليه ، وزيد بجارية .

ومن مشاهد الطبيعة المصرية التي حظيت باهتمام شعراء العصر بركة الحبش (١) . وما اهتموا به بعض الأديرة ، وكان موضوع الأديرة ، وما حولها من منازة وبساتين وما فيها من شراب ، وما يدور من احتفالات دينية .

كان هذا كله يستهوى شعراء العصر كما استهوى الشعراء في بغداد وغيرها من البلاد العربية . ومن أشهر الأديرة التي نالت حظوة الشعراء واستأثرت بقصائد عبرت عن مناسبات مختلفة لهم فيها « دير القصير » بالمقطم قرب القسطة (٢) . قال الشاعر محمد بن عاصم الموقفي من شعراء اليتيمة (٣) :

إن دير القصير هاج اذكاري
وزماناً مضى حميداً سريعاً
عرفتني ربوعه بعد نكبي
ولو أن الديار تشكو اشتياقاً
ولكادت نحوى تسير لما قد
وكأني إذ زرته بعد هجر
إذ صعودي على الجياد إليه
هو أيامي الحسان القصار
وشباباً مثل الرداء المقار
فعرفت الربوع بالإنكار
لشكت جفوتي وبعد مزار
كنت فيها سيرت من أشعاري
لم يكن من منازل ودياري
وانحداري في المصعدات الجواري

(١) راجع ماجاء عنها في الجزء الأول من الكتاب .

(٢) راجع ما جاء عنه بالجزء الأول من الكتاب .

(٣) يتيمة الدهر ١/ ١٢ .

بصقورٍ إلى الدماء صَوَارٍ
 منزلاً لست محصياً ما لِقَلْبِي
 منزلاً في علوه كسَمَاءٍ
 كم خلعت العذار فيه ولم أر
 كم شربنا على التصاوير فيه
 صورة من مصوِّرٍ فيه ظلت
 أطربتنا من غير شِدْوٍ فَأَغْنَتْ
 لا وحسن العينين والشفة اللَّمْبِ
 لا تخلفت عن مزارِي دِيَرًا
 فسقى الله أرض حُلوان فالتخل
 كم تنهت من لذاذة نومي
 والنواقيس صائحات تُنادِي
 قبل أن يُبْلَى الجديدُ الجديد
 إنما هذه الحياة عَوَارٍ
 وكلابٍ على الوحوشِ ضَوَارٍ
 ولنفسِي فيه من الأوطارِ
 والمصاييح حوله كالدراري
 عَ مَشِيًّا بِمَفْرِقِ الْمُسْتَطَارِ
 بصغارٍ محنونةٍ وكِبَارِ
 فتنةً للقلوب والأبصارِ
 عن سماعِ العيذان والمزاميرِ
 ساء منها وتخذها الجُنارِ
 هي فيه ولا نأى لي مزارِ
 فديرَ القصيرِ صوبَ العشارِ
 بنعيرِ الرهبانِ في الأسفارِ
 حَيٍّ يانائماً على الابتكارِ
 سدَّ بلبلٍ مُعاقِبٍ بنهارِ
 وعلى المستعيرِ رَدُّ العَوَارِ

والقصيدة هنا حُلْمٌ يقظة يسترجع فيها الشاعر أوقاتاً سعيدة له قضاهها بدير
 القصير ، مستعرضاً مشاهد متعته به ويرحلته إليه ، وما كان يفعله من تصيد
 بالخيول والطيور الضواري وكلات الصيد في تلال المقطم ، والاندثار إلى النيل مصعداً
 إلى حلوان على الجوارى السابحات ، أو تنزه بمنازه حلوان وبساتين النخيل من
 حولها .

ونخص بالحديث الدير ، فوصف وضعه مشرفاً على مكان عالٍ : « منزلاً في
 علوه كسَمَاءٍ » .

ويستترعيه ضوء المصاييح من حوله تبدو كالدراري أو كالنجوم .

فالصورة التي يرسمها له مقبلاً عليه ، تستدعي صورة السماء بنجومها ،
 فالسَمَاءُ للعلو والرفعة ، والنجوم للمصاييح المتألثة حوله أو تطل أنوارها من
 منافذه ويستترعيه من جَنَاته وبساتينه صوت الطيور ، واعتماده أصوات الطيور
 لبعث الإحساس بالبساتين والشجر من حوله تحوّل بمخاطبة الوجدان ، أو تمثّل
 مشاهد الجمال من مدارك البصر إلى مدارك السمع ، ويستخدم اللفظ المناسب

للطير تعبيراً عن الأثر النفسى فيقول : « فطارت بفؤاد المقيم المستطار » وإن بدت في تراكيبه وأبنية لفظه بعض الكلفة .

وينتقل إلى داخل الدير ، وما كان يفعله من تحرر من قيود الحياة وتكاليف العمر ، فهو قد غادر سن الشباب ، سن المتعة ، والأخذ بأسباب الحياة ، إلا أن الدير وما فيه من مغان قد استفره ، وعاد به إلى الشباب فخرج عن ثوب الشيب ليعود من جديد إلى حياة الشباب ، اللهو ، والشراب والمتعة .

ويصف الشراب ، ويعود إلى مشاهد البصر فيسترعيه التصاویر على جدران الدير ، وتفتنه الصور ، وصنعة المصور فيقف أمامها وقفة مستمل مستمتع بهجة الجمال الذى يطرب صامتا ، وهنا يمزج بين فتنة البصر وفتنة السمع :

« أَطْرَبْتُنا مِنْ غَيْرِ شَدْوٍ فَأَغْنَتْ عَنْ سَمَاجِ الْعِيدَانِ وَالْمَزْمَرِ »

ويعضى الشاعر في وصف صور الدير :

ولا وجور العينين والشفة اللّيب ساءَ منها وخجّها الجُلناري
لا تخلفْتُ عن مزارِي ديراً هى فيه ولا نأى بى مزارِي

ويدعو لهذا الدير وما حوله من منازة حلوان بالخير ، لأنه أسعده في حياته كثيرا ، فكم تنبّه من نومه على صوت الرهبان يرتلون بالأسحار وصوت النواقيس تفرع في البكور .

ويختتم بتذكر آنية الحياة ، وقصر العمر ، وأن تعاقب الزمان بآتيه الليل والنهار سيختم هذه العارية ، وتعود الحياة إلى بارئها :

إنما هذه الحياة عوارٍ وعلى المستعير ردّ العوارِي

وهذه القصيدة الوصفية لدير القصير جنوبى الفسطاط تمثل نموذجاً فذاً في هذا اللون الوصفى ، فقد نفّض الشاعر فيها أحاسيسه واجترّ ذكرياته وانطباعاته ، ثم ارتد بعدها إلى نفسه ليعبر عن آنية الحياة ، ذلك الإحساس الذى يورّق الإنسان — كل إنسان على الأرض .

وهذا الدير قديم ، يقول عنه الشابشتى :

« دير القصر قرب حلوان ، هو على رأس جبل مشرف على النيل ، وغاية في النزاهة والحسن ، وفيه صورة السيدة مريم ، وفي حجرها المسيح ، كان خماروية بن أحمد بن طولون يكثر غشيانه للشرب على الصورة . وقد أمر الحاكم بأمر الله بهدمه لكثرة ما يقع بالدير من آثام !! » .

وصف مباهج الفاطميين وقصورهم :

ومن ذلك وصف مواكب الخلفاء في الأعياد ، وكانوا يحتفلون بها ، ويكسبون الأعياد مظاهر البهجة والأبهة تتجلى في قول تميم بن المعز يصف موكب الخليفة العزيز بالله يوم عيد الفطر من قصره إلى المسجد لصلاة العيد . يقول (١) :

هنيئاً لك العيد الذي أنت بالرضا	من الله للمرضيِّك فيه بشير
برزت كبدٍ التَّمَّ تقلَّم جَحْفلاً	تكادُ به الأرضُ الفضاءُ تمورُ
فلليضي برق في أعاليه خاطفٌ	وللأسد ركضٌ تحتها وزفير
كأنَّ الدُّرُوعَ السابغاتِ عليهمُ	لما ألقوها سُندسٌ وحرير
وقد منحوك اللِّحْظ من كلِّ جانبٍ	وكلهم صافى الضميرِ شكور
فمن مُقلَّةٍ منهم عليك حبيسة	ومن إصبعٍ منهم إليك تُشير
ولو نطقت أحجارُ أرضٍ لسلَّمتْ	عليك المصلِّي أو أثَّك تسير
فلما بلغت المنبر الطاهر الذي	له بك فضل لا يُنال كبير
تواضعت للرحمن ثم علوته	خطيباً، وكلَّ اللَّحْظ عنك حسير
وأسهبت في حمد الإله بخطبة	تفجر منها للصواب بحور

ومن الموضوعات الشائعة في الشعر وصف مظاهر الترف المادي في قصور الخلفاء ، وما على جدرانها من صور تمثل اهتمام الفنان المصري برسم وتصوير مشاهد الحياة والناس ، في تشكيل ممتع يبعث المسرة في النفوس .

يقول عمارة اليميني (٢) في وصف الصور والتماثيل ، وبديع الزخرف في قاعات أحد قصور بني رزَّيك ، مخاطباً صاحبه :

أنشأت فيها للعيون بدائعاً	رُفَّت، فأذهل حُسْنُهما من أبصر
قمن الرخام مسيراً ومُسَهَّماً	ومنمنماً ، ومدرهماً ، ومُدُنْراً

(١) ديوانه ص ١٤٣ .

(٢) النكت العصرية ص ١٠٣ .

العاج بين الآبوس كأنه
قد كان منظرها بهيجاً رائقاً
ألبستها بيض السيور وجرها
فمجالس كسيت رقيماً أبيضاً
لم يبق نوع ، صامت أو ناطق
فيها حداثي لم تجدها ديمة
والطير قد وقعت على أغصانها .
لا تعدم الأبصار بين مروجها
أنست نواقر طيرها بسياعها
وبها زرافات كأن رقابها
نوبية المنشأ ثريك من المها
جبلت على الإفعاء من إعجابها

أرض من الكافور ثبتت عثراً
فجعلتها بالوشي أبهى منظرأ
فاتت كزهر الروض أبيض أحمرأ
ومجالس كسيت طميماً أخضرأ
إلا غدا فيها الجميع مصوراً
أبدأ ، ولا ننت على وجه الثرى
وثمارها لم تستطع أن تنقرا
ليثأ ، ولا طيباً بوجرة أعرأ
فطباؤها لا تتقى أسد الشرا
في أطول ألوية ثوم العسكرا
رؤقأ ومن بزل المهاري مشقرا
فتخالها للتيه تمشي القهقرا

ويريك عمارة في هذا التسجيل الشعري لقصر آل رزيك ما جمع القصر من
حدائق وحيوان . ويستريحه الزراف بخلقته الغريبة التي تجمع بين الغزلان والثور .

وصف الغناء والموسيقى :

ولاهتمام الفاطميين بالسماع والطرب ، وإقبال الناس في أعيادهم ومناسباتهم
السارة على الموسيقى والغناء ، ترددت في الشعر صور مجالس الغناء وآلات الطرب
وصور المغنين والمغنيات . وأكثر تميم بن المعز ذكر مجالس الغناء والمغنى
(وكذلك فعل الشريف العقيلي) .

وظهر في هذا العصر الفاطمي في مصر ضرب من الغناء عُرف « بالركالش »
كان يُتغنى فيه بالنظم العامي من مثل :

فديتك أين ما قد كنت قلتي أخلتي عن مودتنا وزلتى
وقد غنى به المغنون تميم بن المعز^(١) ، كما نظم هو لهم للغناء فيه . وما قاله أحد
الشعراء في وصف غناء مغن^(٢) :

(١) ديوانه ص ٨٥ .

(٢) الخريدة : قسم شعراء المغرب : ٦٠ / ١ .

إذا غنى يُزِيلُ الهمَّ عَنَّا وَيأتينا بما نهوهُ منهُ
 له وترٌ يطالبُ كَلَّ همَّ بوترٍ ، فالهمومُ تفرُّ مِنْهُ
 ويتصل بالغناء وصف آلات الطرب كالعود ، والناي ، والمزهر ، والطبل ،
 والدَّف وما إليها .

فمما وصف به تميم العود قوله (١) :

شكا العودُ بالأوتارِ شجواً فأطربا وترجم عن معنَى الضميرِ فأعربا
 فلم أرَ شاكٍ مثله بثَّ شجوهُ فافرحَ محزوناً وفكَّ مُعذباً
 وقال أيضاً (٢) :

وقد حكى العودُ أنينَ الهوى لكنه جودَ لَمَّا حَكَى
 وقال (٣) :

فلما استوى نُطقُ أوتارِهِ حكى نقرها حسنَ لفظِ الحبيبِ
 تُجسُّ الأناملُ « دُستانه » (٤) كما جسَّ عرقَ العليلِ الطيبِ
 فيسبغُنا حركاتِ السرورِ ويكشفُ عَنَّا بناتِ الكربِ
 ومما قاله في الناي ، وهو يحاور المزهر في جوق الموسيقى (٥) :

أما ترى كيف نادى النايُ مزهرهُ وأذن الطبلُ : اللّهُو للغزلِ
 أو النايُ يشكو إلى عَجَلِكُ ضيافته شكوى المحبِّ إلى المحبُّوبِ في مهلِ
 كأنَّ ضجَّةَ صوبِ الطبلِ بينهما ضجيجُ عزَّأى المتصورِ في الثولِ

ولكلف بعض شعراء العصر بالغناء والموسيقى يكدأوا بوصف مجالسه قصائد
 المديح على غير عادة شعراء العرب ، وربما كان هذا الاتجاه منهم تطوراً لاتجاه
 بعض شعراء بغداد في عصر العباسيين من أمثال أبي نواس يبدؤ قصائدهم
 بوصف الخمر ومجالس الغناء .

(١) ديوانه ص ٤٩ .

(٢) ديوانه ص ٣٠٤ .

(٣) ديوانه ص ٧٤ .

(٤) الدسات مجتمعت أوتار العود في عنقه .

(٥) ديوانه ص ٣٢٤ ، والحنك — فارسي اسم آلة موسيقية .

ولم يتحرج تميم بن المعز وهو الأمير الشاعر من بدء قصائد المديح لوالده المعز لدين الله ، وأخيه الخليفة العزيز بالله بذكر الغناء ومجالسه . والتخلص تخلّصا لطيفا ليربط الغناء بالمديح ، كما كان يتخلص الشعراء من النسيب والغزل إلى ذكر الممدوح في المديح التقليدي .

وكما أنهم أعجبوا بالغناء الجميل ، من المطرب المجيد المتقن صاحب الصوت الطلي المعجب ، ضاقوا بغناء غير المحسن الذي يتصدى للغناء دون صوت طلي ، ولا صورة تريخ السامعين .

يقول الشاعر الصقلي (١) :

ومغنٌ لو تغنّى	لك صوتين لمّا
سمجُ الخَلْقَةِ غثٌ	ينحتُ الآذانُ نحتًا
ويُغنى ما استهأه	لا يغنى ما أردنا
كلّما قال : اقترح	قلتُ : اقتراحي لو سكنا !!

والشاعر يحيد التعبير عن جفاء غناء هذا المغنى ، وقبح وقع صوته على الآذان بقوله « ينحت الآذان نحتا » .

ويقول في مغنٌ قبيح :

غنى كمن قد صاح في خايته	لا وهب الله له العافية !
ما أحدٌ يسمعه مرة	فيشتتهى يسمعه ثانية

ويقول :

ومغنٌ نحن منه	بين أسقامٍ وكرية
يضربُ العودَ ولكن	ضربه يُوجبُ ضربة

يصف أمية بن أبى الصلت (الحكيم) أحد المغنين بمجودة الغناء وقبح الوجه فيقول :

مُسمِعُنا ما في الزمانِ له نِدْ	ولكنّه في قبحِ صورتهِ قِرْدٌ
تباينَ حالاهُ ، فهذا بيّنه	إذا ما سمّتْ حالَ تحيُّفها الضدّ

(١) هو أبو عبد الله الطوسي . الخريدة قسم شعراء المغرب ١ / ٦ وذكره المسبّحي ممن لقيهم من الشعراء بمصر .

وَيَطْرَفُ طَرْفِي حِينَ يَلْحَظُ وَجْهَهُ
لَهُ وَبِنَعْمَةٍ سَمِعِي دَوْنَهُ عِنْدَ مَا يَشْدُو
تَعَادَلُ مَرَاهُ بِإِحْسَانٍ فِعْلُهُ
كَفَاءً، فَلَا خَسْرَ يَدُومُ، وَلَا سَعْدُ

ويتصل بالغناء ، والموسيقى الرقص . يقول الشاعر في وصف راقصة (١) :

وراقصة كالغُصْنِ مِنْ فَوْقِهِ
بَذَرٌ يُنِيرُ تَحْتَ ظِلِّمَاءِ
تُلْهَبُ مِثْلَ النَّارِ فِي رَقْصِهَا
وَهِيَ مِنَ النُّعْمَةِ كَالْمَاءِ
كَأَنَّمَا فِي رِجْلِهَا عُودُهَا
وَزَامِرٌ يُبْعُ بِالنَّاءِ
سَاحِرَةُ الرَّقْصِ غَلَامِيَّةٌ
فِيهَا دَوَائِي وَبِهَا دَائِي
إِذَا بَدَتْ تَرْقُصُ مَا بَيْنَنَا
يَرْقُصُ قَلْبِي بَيْنَ أَحْشَائِي

ومن علامات الذوق المترف ، التمثلي لمعانى الحياة وزيتها الاهتمام بالزهر على اختلاف أشكاله وألوانه ، فقد عنى الشعراء بالزهر ووصفوه ، واعجبوا بحسن كل نوع منه وصوروه .

يقول تميم بن المعز يصف الزهر المتعدد الألوان من بنفسج ونرجس وورد في بستان وقت الربيع (٢) :

لعمرك إنما الدنيا عروسٌ
جلاها الغيث من تحت الثَّقابِ
بنفسجها ونرجسها ووردٌ
خَضَابٌ فِي خَضَابٍ فِي خَضَابِ

ويقول في البنفسج وقد اهدى إليه أخوه العزيز باقة منه (٣) :

مُدَّ الْعَزِيزُ يَمِينَهُ بِنَفْسَجٍ
وَبُورْدَةٍ مَقْطُوعَةٍ لَمْ تُنْهَجِ
فَكَانَ زُرْقَتَهُ عَلَى مُحَمَّرِهَا
أَثَرٌ يَحْدُ نَاعِمٍ مُتَضَرِّجِ

وقال في السوسن من أبيات بعث بها إلى أخيه العزيز ومعها سنبلة وسوسن أحمر :

إِنِّي بَعَثْتُ طَرِيفًا وَهِيَ سُنْبَلَةٌ
وَسُوسَنًا تَمَّ مَرَاهُ وَخَبِيرَةٌ
كَانَ مِعْصَمُهُ بِالْكَفِّ مُتَّصِلٌ
لَهُ بَنَانٌ مِنَ الْجَنَائِ مَحْضُوبٌ

(١) التخريلة قسم شعراء المغرب ص ٦٠ .

(٢) ديوانه ص ٥٨ .

(٣) ديوانه ص ٨٠ .

وقال يصف الياسمين والخمر^(١) :

وأصفر من ياسمين الرياض يلوح على زرقه الخمر
فشبت هذا بالسما بدت في صفار من الأنجم
أو الشرير المستتر الذي تطاير عن قس مضر
ويصف زهر النيلوفر على بركة وقد طفا يسبح مزهوا :

وبركة تزهر بنيلوفر نسيمه يشبه نشر الحبيب
مفتوح الأجفان من نومه حتى إذا الشمس دنت للمفيع
أطبق جفنيه على خده وغاص في البركة خرف الرقيب
وذكره وقد امسكت به فتاة وأشارت إليه مداعبة^(٢) :

ياحبذا ثومي بنيلوفر قد ركبته فوق غنابة
نشمه طورا وأرواحها على رياح التور غلابة
فقلت: نيلوفره هذه؟ أم بفرادي أنت لها به؟!

شعر المطاعم والدعوة إلى الطعام :

وظهر بصورة واضحة في شعر العصر الوصف للطعام بألوانه ، والدعوة للمآذب ، ويحكي الشريف العقيلي في شعره صورا لألوان من الطعام وأوصاف لمآذبه ، والدعوة إليها على نحو لا نجد في شعر من سبقوه .

وللأسافل قصيدة فكاهية طويلة نادرة يصور فيها دعوة على الطعام ، ويرسم كيف جاء المدعون في هيات مضحكة ، وكيف تناولوا طعامه ، فجاءوا على ما كان أعدده ، وكل قد بدا متحفزا للوليمة يطعم منها ، وما أعد بها من شراب ، وألوان شواء .

وكانت هذه القصيدة الفريدة بمناسبة عقد قران . يقول في ختامها :

لم يكن القران إلا على شو مي، فويل من نحس ذلك القران

(١) الخمر نبات كاللوز له ورق قبل العرض يتفجى اللون ، وله رائحة حسنة .

(٢) ديوانه ص ٤٩ .

واعجبت النعالي أيتها فقال : « قد أحسن في هذه القصيدة غاية الإحسان ، وأبان فيها عن مغزاه أحسن بيان ، وتصرف فيها وأطال وأمكنه القول فقال » (١) :

من لعيني تهبود بالهملان ولقلب مدله ولهان
ياخيللي أقصيرا عن ملامي وارثيا لي من نكيتي وارحمانني
يقول فيها :

ماالذي ساقنى الحننى إلى حتفى ؟ وما عالنى ، وماذا دهاني
من عذيري من دعوة أوهنت عظمي ، وهدت بيولها أركانني
ويقول :

كان عيشي صافيا فكدره أهـ سل صفائ بنو أبي صفوان
فارتوا لي يا مغشّر الناس من ضرّي ، ومن طول عطلتي وامتنحاني
ضرب البوق في دمشق وناذوا لشقائي في سائر البلدان
هل سمعتم بمعشر جمعوا الخيل وساروا في الرجل والفرسان
رحلوا من بيوتهم ليلة المّر فع من أجل أكلة مجان
لست أنسى مصيبتى يوم جاءوني وقد غصّ منهم الواديان
وردوا ليلة الخميس علينا في خميس ملء الربا والمخاني
يتقدم القوم هاشمي هريث الشد صدق رجب المعنى ، طويل اللسان
هو نمس الدجاج والبط والإرز ، وذئب النعاج والخرفسان
واهتم الشعر بجوانب الحياة الجادة ، وهمومها وصراعاتها .

ومن جاد الموضوعات في الشعر نقداً للحياة والمجتمع ، وتناول بعض قضايا العقيدة من الجوانب الفكرية والفلسفية . وظهر أبو العلاء المعري مبرزاً في هذا الجانب في القرن الخامس الهجري ، فكان شعره سجلاً لأفكاره وآرائه في الحياة والناس والدين والمجتمع ، والسلوك والأخلاق . ويقول محمد كامل حسين (٢) : « فالمعري في ديوان اللزوميات ليس بشاعر ، وإنما هو ناظم صاغ آرائه في قالب الشعر ،

(١) يتيمة الدهر ١ / ٤٢٤-٤٢٥ .

(٢) ديوانه المؤيد ص ١٥ المقدمة وراجع حديثنا عن أبي العلاء بعد

والتيزم فيه ألوانا من القوافي وضروب الوزن ، فكان تقيده بما لا يلزم ، وما حمل
الغناظه من آراء علمية وفلسفية سببا في أن يبعد ديوان اللزوميات عن دائرة الشعر
الخالص ويجعله أقرب إلى النظم منه إلى الشعر .

ومن موضوعات شعر العصر غير التقليدية وصف الرسائل وتقريظها فمن
ذلك قول ابن أبي الصلت في رسالة بعث بها إليه أحد أصدقائه —
أبو الضوء^(١) :

أبا الضوء وافاني كتابك يزدهي به التثر من تلك البلاغة والنظم
كتاب لو استدعى به العصم قانص لم استعصمت من أن تخبر له العصم
ولما فضضت الختم عنه تضوعت لطيمة سفير فض عن مسكها الختم
وسرحت طرفي في رياض محاسن وشاها الحيا المنهل ، بل علمك الجم

ويقول آخر :

كتاب نفيت اكتشاي به ونلت الأمانى بظل الأمان
أتى من بعيد مرامى الضمير والفكر مرهف غرب اللسان
ذرى في الترسل بابن العميد كما قد شأى في القريض ابن هانيء
فتسرب من فرجى من كل ناء وأبعد من ترجى كل ذاتي
صفى نأى ودنا ذكره فتاب السماع مناب العيان

قال الشاعر ابن البشائر البلتوني — ممن وفد على الأفضل — في وصف
كتاب^(٢) :

وصل الكتاب وكان أنس واصل عندي وأنس قادم القاه
لا شيء أنفس منه مهدي جامعا شمل المعاني للذي أهداه
ففضضته وجعلت الشم كل ما كتبه أو مرت عليه يذاه
وفهمت ودعته فرحت بقطعة جذلان مبتهجا بما أداه
وعجبت من لفظ تناسق فيه ما أعلاه ، ما أجلاه ، ما أحلاه
كالروض باكرة الحيا فتفتح أزهاره ، وتضوعت رؤياه

(١) خريدة القصر ١ / ٣٤٦ .

(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب ١ / ١٥ .

كالعقد وصل لؤلؤا وزرْجداً فتقابلت أولاد مع آخره
در ترَفَع قدره عن قيمة منظومة كبراه مع صغراه

لغة الشعر وموسيقاه :

اعتمد الشعر في هذا العصر لغة الشعر العربي في القرن الرابع ، ودخل البديع عنصرا فنيا من عناصر التعبير دون إسراف أول الأمر ، حتى كان القرن الخامس فزاد اهتمام الشعراء بالبديع ، وأسرف بعضهم فيه ، وبخاصة في بديع اللفظ من جناس ، ومقابلات ، وطباق ، وترصيع وتوشيح وتوشيع .

وظهرت في أخريات عصر الفاطميين في الشام ألوان من الشعر عرفت بالمجانس يعمد فيها الشعراء إلى التجنيس في القافية ، وهو مغالاة فيما التزمه أبو العلاء المعري في لزومياته .

وكان لوفود الشعراء إلى مصر من المشرق والمغرب أثره في ظهور ألوان فنية متعددة اختلطت وتزاوجت ، ونتج عنها ألوان من التعبير والصياغة ينتمى بعضها إلى أصول مشرقية ، وبعضها إلى أصول مغربية أو أندلسية وبدأت تظهر صور مبكرة للتوشيح أو ألوان مشابهة من النظم خارجة على نظام القصيدة منذ القرن الرابع الهجري من مثل قول تميم بن المعز :

دُمُ العُشَّاق مَطْلُولٌ ودينُ الحبيبِ مَطْلُولٌ
وسيفُ اللَّحِظِ مَسْلُولٌ ومُبِيدِي الحُبِّ مَعْدُولٌ
وإن لم يصغ للأنثى

وأحور ساحر الطرف يفوق جوامع الحب
مليح الدلَّ والظرف جنت الحَاظِه حتفى
فمن يُعدى على الظالم

يُعْتَفِنِي على حُبِّي ويهْجُرُنِي بلا ذَنْبٍ
كَأَنِّي لَسْتُ بالصَّبِّ لقهوة ريقهِ العَذْبِ
أما في الحب من رَاحِمٍ

على أن هذه الصورة المبكرة للموشح في شعر تميم بن المعز نادرة في القرن الرابع إلا أننا نعثر في القرنين الخامس والسادس من العصر الفاطمي على صور

أخرى لنظم الموشح ، ومن نظموه في القرن الخامس في آخره وأوائل السادس على
بن عباد الإسكندري : قال العماد الأصماني في ترجمته^(١) : « وقرأت له في
مجموع في مدح محمد بن أبي أسامة كلمة ذات أوزان موشحة :

يا من ألوذ بظله في كل خطب معضل
لازلت من أصحابه متماسكا بيد السلامة
آمنا من بأس
في الحوادث والظروف
وأعوذ منه لفضله في كل أمر مشكل
ما لاح فجر صوابه كالشمس من خلف الغمامة
لا تميل إلى شماس
دون موضعها الشريف

ومن نظم الموشح من المصريين في القرن الخامس أو أوائل السادس ظافر
الحداد السكندري .^(٢)

(١) الخريدة شعراء مصر ١ / ٤٤ .

(٢) راجع ذلك في موضعه من هذه الدراسة .

شعراء العصر

كثر الشعراء في العصر كثرة ملفتة ، وكان لتشجيع الفاطميين أثره في وفود كثير منهم من المشرق ومن المغرب . وما ذلك إلا باهتمام الأئمة والقادة والرؤساء بعرض افكار الدعوة الفاطمية ، واتخاذ الشعر منبرا من أهم منابر إعلامهم ، كما كان الشعر معرضا لأحوال الأئمة والرؤساء وتقريبهم من الناس ، وتوددهم إليهم بنشر محاسنهم وجليل أعمالهم .

وكان للشعراء ديوان ومسئولون يتولون أمورهم ، وكانوا يجزون الجزاء الأوفى على ما يقدمون ويعلنون ، ويزينون أحيانا .

ومع كثرة شعراء العصر إلا أن ما وصل إلينا من شعرهم قليل ، ولا تتعدى دواوينهم عدد أصابع اليدين ، وتناثرت بقية أشعارهم في الكتب والمصادر .

وهذا نذر يسير لا يشفى غلة لشعراء جاوزوا المئات في عصر دام قرنين .

ونقرأ في تلك المصادر عن مؤلفات لعدد من العلماء عن شعراء العصر ونخب من أشعارهم ، لعلها تذهب في نهجها مذهب اليتيمة والخريدة من مثل « جنان الجنان » ، و « رياض الأذهان » . وفي شعراء الفاطميين من المصريين للمهذب بن الزبير ، وقد نقل عنها كل من العماد ، وابن سعيد في كتابي الخريدة ، والمغرب^(١) . ولعل بن منجب مجموع عن شعراء عصره^(٢) .

وكتاب الحديقة لأمية بن أبى الصلت ، نقل عنه العماد ، وكتاب « المختار في النظم والنثر لأفاضل أهل العصر » لابن بشرون المهلوى^(٣) .

وتقسم الشعراء على أقاليم مصر ومدنها ، فمنهم من نشأ بصعيدها ، واشتهر ووفد إلى القاهرة والفسطاط ، فمدح الأئمة والرؤساء ، وكبار رجال الدولة وجالس العلماء والفضلاء ، وأنشدتهم من شعره ، فذكروه ، وألحوا إلى بعض أقواله .

(١) راجع الخريدة قسم شعراء مصر ص ٦١ .

(٢) الخريدة شعراء المغرب ص ٢١٠ .

(٣) راجع الخريدة شعراء المغرب ١ / ١١٤ .

وبعضهم نشأ بالإسكندرية ، أو دمياط أو غيرها من بلاد الدلتا ومنهم
القاهريون أو أبناء الفسطاط ، ومنهم الوافدون المقيمون ، ومنهم الوافدون العابرون
وعَدَّ العماد من شعراء مصر في الخريدة مائة شاعر .

ونذكر من شعراء الصعيد من تردد ذكرهم :

١ — الكاسات — وهو لقب للفقير أبي محمد عبد الله بن أبي سعد ، وترجم
له ابن سعيد في المغرب .

٢ — وأبو الرضا سالم بن علي بن أبي أسامة ، وكان بنو أسامة من أصحاب
الديوان في زمان الحافظ .

٣ — وأبو المشرف الدجرجاوي — من دجرجا أو جرجا . ذكره ياقوت في
معجم البلدان .

٤ — والقاضي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن النضر المعروف بالأديب
من صعيد مصر ذكره العماد في الخريدة ، وترجم له الأدفوي في الطالع
السعيد^(١) ، تولى القضاء باخميم زمن الأفضل الجمالي .

٥ — وأبو الغمر الإسناوي محمد بن علي الهاشمي (توفي سنة ٥٤٤ هـ)
وترجم له العماد بالخريدة ، والأدفوي^(٢) في الطالع السعيد .

٦ — وأبو الفرج سهل بن الحسن الإسناوي .

٧ — وبنو عرام وهم جماعة .

٨ — وأبو القاسم عبد الحميد بن عبد المحسن بن محمد الكتامي المقيم
بأسيوط .

٩ — وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصوفي — عرف
بابن يونس واشتهر بالتنجيم (ت ٣٩٩ هـ) .

وكان يقول الشعر ويضرب بالعود ، قال صاحب شذرات الذهب^(٣) :

(١) راجع الخريدة ٢/ ٩٠ ، والطالع السعيد ٢٢٠ ، وبغية الرعاة ٣٥٣ .

(٢) الخريدة ٢/ ١٥٨ ، والطالع السعيد ٣١٥ .

(٣) شذرات الذهب ٣/ ١٥٧ ، وراجع التهمة للثعالبي ١/ ٣٤٥ ، وابن خلكان بالوفيات ٢/ ٨٥ ،
والنفطى ص ٢١٠ .

« وله شعر حسن ، منه قوله :

أَحْمَلُ نُشْرَ الرِّيحِ عِنْدَ هَبِّهَا رِسَالَةً مُشْتَاقٍ لَوَجْهِ حَبِيبِ
وكان يحضر مجالس الحكم .

وترجم له الثعالبي ، وابن خلكان والقفطى .

ومن شعراء مصر أو الفسطاط :

١- المهر المحجوب المصرى :

ترجم له ابن سعيد ، نقل عن القُرطبيّ قوله : « إنه ممن أنبتته الفسطاط
وتفقت عنه يعضتها ، من الشعراء الذين أجادوا ، وأفرطوا في الرحلة عن أوطانهم
غاية الإفراط » . وهو من شعراء المائة الخامسة .

وترجم له الباخريزي في الدمية .

٢- ومن شعراء الفسطاط الرسيون من آل طباطبا . وكانوا بيتا علويا من
أشراف مصر الحسينيين . وعرف منهم في عصر الفاطميين جماعة أشهرهم :

* أبو عبد الله الحسيني بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن القاسم
بن إبراهيم (طباطبا) الشريف الحسيني الرسي (ت ٣٦٥ هـ) (١) .

* وكان أديبا شاعرا رقيقا . قاسم الأمير تميم بن المعز شرف النسب وعلو
الحسب ، وأمارات الفضل والأدب . وكان بينهما مودة ومراسلات شعرية راققة .
وكان أبوه نقيب الأشراف في مصر وكان جده أبو القاسم أحمد بن محمد ابن
إسماعيل نقيب الأشراف أيضا شاعرا أديبا مجيدا . (ت ٣٤٥ هـ) أو (سنة
٣٥٢ هـ) وعاصر الدولة الإخشيدية وكانت وفاته في عصر كافور وسنه آنذاك
٦٤ عاما .

وكان من السرور والنبل وجلال القدر على ما هو معروف مشهور . وله أدب
واسع وشعر في الزهر والغزل مليح .

٣- وكانت بلاطات الوزراء مجمعا لشعراء مصر والوافدين عليها وأشهر

(١) راجع ابن خلكان ، والمغرب ص ٨٥ ، وديوان تميم ص ٣٠ .

مجالسهم مجلس الوزير الأفضل ابن بدر الجمالي فقد جمع عددا من شعراء العصر أمثال ظافر الحداد السكندري، وعلى بن مُنْجَب الصيرفي الكاتب، ومسعود الدولة، ومحمد بن اسماعيل المعروف بالتاريخ، وحسن بن زيد الأنصاري .

ومن وفد إليه من المشرق ابن حيّوس ، ومن المغرب أمية بن أبي الصلت ومجير بن محمد بن مجير الصقلي (ت ٥٤٠ هـ) .

٤— كما ضمت مجالس الوزير الصالح بن رزيك جماعة من مشاهير شعراء القرن السادس الهجري في مصر وغيرها من بلاد المشرق والمغرب من بينهم القاضي الرشيد بن الزبير ، وأخوه القاضي المهذب ، والفقيه عمارة اليمنى ، والقاضي الجليس عبد العزيز بن الجباب (ت ٥٦١ هـ) وأبو محمد يحيى بن الحسن بن جبر^(١) ، وأسامة منقذ .

٥— ومن شعراء الإسكندرية ظافر الحداد ، الشاعر المبدع ، وأبو بكر الطرطوشي الفقيه الصوفي عاش زمن الأفضل وتوفي سنة ٥٢٠ هـ .

وهو محمد بن الوليد القرشي الفهري ، ونسب إلى طرطوشة بالأندلس نزل إلى الأسكندرية ، ووفد إلى القاهرة ورحل إلى المشرق فحلّ ببغداد وأخذ على علمائها .

وكان إماما زاهدا ورعا متقشفا ، متنقلا راضيا بالقليل . له شعر رواه ابن العماد وله كتاب « سراج الملوك » ألفه للوزير الفاطمي المأمون البطائحي وعاش إلى زمن الأفضل^(٢) .

ومن الأسكندرية ابن معبد القرشي الأسكندري (ت ٥٥٨ هـ)^(٣) ومنها أبو الربيع سليمان (ت ٥١٦ هـ)^(٤) .

ومنها ابن أغسّان الكاتب (ت ٥١٥ هـ)^(٥) .

(١) الخريدة ٢ / ٢٣١ .

(٢) راجع ترجمة ابن خلكان ، وشنوات الذهب ٤ / ٦٣ .

(٣) ترجمته بالخريدة ٢ / ٢٣٣ توفي الأفضل سنة ٥١٥ هـ .

(٤) الخريدة ٢ / ٢٠٠ .

(٥) الخريدة ٢ / ٢٢٧ .

وابن مكنسة الشاعر المشهور (ت فى حدود ٥٠٠ هـ) ، وترجم له أمية بن
أبى الصلت فى الرسالة المصرية ، أعجب بشعره ، وأورد مقتطفات منه . وكان قد
أنشد الأفضل إلا أنه أعرض عنه^(١) .

وابن قتادة المعدل : أبو الفتح منصور بن ابراهيم^(٢) .

ومن شعراء دمياط :

أبو الفتح محمد بن إسماعيل بن قادوس (ت ٥١١ هـ) . وابنه محمود بن
قادوس من شعراء ابن رزّيك .

وكان معظم كتاب العصر الفاطمى المشهورين ممن عرضنا لهم فيما سبق من
حديث — ينظمون الشعر .

وأما الوافدون فكثيرون من المشرق والمغرب ، وأكثرهم من المغرب والأندلس
بدأوا مع وصول ركب المعز من المهديّة إلى القاهرة ، وتعاقبت أرسالهم تطرق باب
الاسكندرية وتعرج على القاهرة .

ومن أشهر الوافدين المغاربة الرقيق القيرواني ، وأمية بن أبى الصلت ، وابن مجير
الصقلى . وابن القطاع ، والتجيبى .

كما وفد من الشام ابن حيوس أبو الفتيان ، وأسامة بن منقذ ومن قبلهما
الواساني والرقعمق والوزير المغربي ، والتهامى .

ووفد من اليمن عمارة اليمنى ، واستقر بمصر حتى مات .

(١) راجع الرسالة المصرية وابن خلكان والخريدة ٢/ ٢٠٣ ، وفيات الوفيات ١/ ٢١ .

(٢) الخريدة ٢/ ٢٢٩ .

الفصل الثاني
شعراء مصريون
في القرن الرابع

تيم بن المعز

يلدور شعر تيم بن المعز على محاور ثلاثة .

المحور الأول : الأمير وهموم الإمارة ، واهتماماتها .

المحور الثاني : الإنسان وحياته الخاصة والعامة وسلوكياته وأخلاقه .

المحور الثالث : الفنان وتذوقه للحياة والجمال .

أما الأمير

فقد ولد الشاعر للخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، وكان أكبر أبنائه ، لكن الصلة بينه ووالده لم تكن مستقرة ، وشابها كثير من الغموض ، فلم يكن الأب فيما يبدو محبا لولده كل الحب ، ولا مقدرا فيه الرجل الذي يمكنه أن يحمل أعباء الدولة كما ينبغي ، ربما لأن الأمير كان يميل إلى اللهو ، أو إلى أن يعطى نفسه قدرا من المتعة على حساب الأمور الرسمية ، أو مهام الملك والخلافة ولعل الأمير أدرك ذلك من أبيه ، وأدرك أنه لا يثق فيه كل الثقة بل لعله أدرك أنه يقدم عليه أخويه الآخرين .

ونما هذا الإحساس في قلب الأمير فأرقه ، وأقلقه ، ولعله دعاه إلى زيادة الإنغماس في همومه وملأذه ، واتخذ الشعر وسيلة للتعبير عن هذه الهموم والملأذه جميعا ، بل لعل نفسه حدثته بأن يأخذ حقه لنفسه ، وإن أغضب ذلك والده ، أو بدا لهذا الأب ومن حوله من رجال دولته ، وكأنه يحاول اغتصاب الأمر ، وربما رأى بعض شباب الدولة والطامعين الطامعين في الأمير إرعونته وأدركوا ما يكتم في نفسه فأرادوا أن يدبروا معه أمرا طائشا ممين النفس بالفوز بمنصب إن تم الأمر للأمير الخائق .

ويؤكد هذا ما ذكره الأستاذ جوذر أقرب الرجال إلى المعز كما جاء في سيرته ذكر أنه نعى إليه اتصال الأمير ببعض أمراء البيت الفاطمي ، وابن أمير صقلية ، واتفقوا على تدبير أمر ما ، فأطلع جوذر الخليفة المعز عليه وكان في المهديّة قبل مجيئه إلى القاهرة ، فكان رد المعز بحصافته ودهائه على جوذر أن اكتم الأمر ، وكتب إلى مستشاره يقول :

« يا جودر كثر الله من أوليائنا مثل أحمد — أمير صقلية وولده الأمير الشاب طاهر الذى ظن اتصاله بتميم — فوالله ما كان يثنيه عندنا ، ويصوره بغير صورته إلا بعض أتباعه الذين زينوا لهذا الصبى الشقى ولده . صجبه من كان سبب شقوته فوالله إن ترجعنا به لتوجعنا بمن لنا — يقصد ابنه تميم — لكن ابن أحمد يرجى فيما يستقبل من الزمان ، ومدبرنا نحن لا يرجى أبداً إذ كانت الخطة التى يرفع الله بها أولادنا هلى خطة الطهارة ، ومن عدمها كان كلا على مولاه . والحمد لله على ما ساء وسر . فأما ما أراد أن يفعله أحمد بولده فامنعه ، وتشفع له عنده وعرفه أن الصواب إصلاح كل فاسد من غير ظاهر شنه يلحقه عارها ، ويبقى ذكرها مع الأيام ، فما يخفى عليه أن ذلك يبقى في الأعقاب . فليمسك ، ويعجل ما يصلح فيما يستقبله فكونه بين أيدينا يصلح فساد كل فاسد كان ليسعى به بينهما » (١) .

وهذه الرسالة التى وجهها المعز إلى جودر تحمل كثيرا من المعانى التى أشرنا إليها في مقدمة حديثنا عن تميم والعلاقة بوالده .

وكان دهاء المعز وحسن تدبيره مما دفعاه إلى كتمان مثل هذا العبث الصبيانى حتى لا تصير معرة ، ولا يظهر الخلاف في البيت الفاطمى أمام الرعية . وهو أعلم بولده وطيشه وانغماسه فيما لا يطهر من ملاذ . وما لا يليق بإمام ينبغى أن يكون قدوة لشعبه ، يبعده عن كل ما يفسد المروءة ، ويشين الصورة النقية ولو في الظاهر .

وظلمت العلاقة هكذا بين الوالد وولده الأكبر تميم الذى لقب نفسه باسمه فكان يكنى المعز بأبى تميم ، ولاشك أن الخليفة كان يشعر في أعماقه بالأسى لسلوك ابنه الأكبر هذا المسلك ، وكان يحمل بين جنبيه صراعا بين الحب الأبوى لهذا الابن ، والألم والأسى لاضطراره أن يبعده عن دائرة المسئولية لأنه غير أهل لها فيما يرى من سلوكه .

وقد أداه هذا إلى أن ينحيه عن ولاية العهد مرتين ، فيزيد هذا في حرج الأمير ، وينطوى صدره على آلامه لا يجد ما يفرجها أو يخفف منها إلا المزيد من الانغماس في اللذات ، وإذابة آلامه في الشعر .

(١) من سيرة الأستاذ جودر ، ص ١٢٠ .

ويذكر بعض المؤرخين أنه نفي عن ولاية العهد لأنه لم ينجب ، ولأنه كان عقيما ، ولم يكن هذا السبب بالضرورة سببا حاسما ، بل السبب الحاسم هو ما ذكرناه .

وقد ظل الأمير يمتدُّ آلامه ، وجاء إلى مصر مع والده وإخوته ، ومات المعز بعد حضوره إلى مصر ولم يمض بها إلا ثلاثة أعوام تزيد أو تقل قليلا ، وأوصى من بعده لابنه العزيز بالله الإبن الثالث ، وتجاوز عن الأكبر الأمير تميم وتولى العزيز الخلافة ، وعرف أنه اخذ حقا لأخيه ، فكان يجزل له العطاء ، ويفدق المال ، ويدعه يغرق في النعماء ، لعله ينسى أمر الخلافة ، وينزل عن حقه فيها ، إلا أن الأمير تميم تظاهر بالزهد في الملك ، وأبدى من طرف لسانه الطاعة لوالده أولا وللخليفة العزيز بعد توليه ثانيا ، ولم يدع مناسبة إلا أبدى هذه الطاعة في قصيدة يبعث بها إلى والده أو إلى أخيه بعد توليه الأمر لكن ما كان يخفيه في نفسه لم يستطع كتمانها ، بل كان يتسرب وعيا منه أو غضبا ، كلما فاضت نفسه ، ونصت بالضييق . فلا تلبث أن تفلت منه أبيات تم عما يكم كآن يقول (١) :

سأطلب حقي إن قضى الله لي به	وأفتح منه كل ما كان مُرتجا
فلست وإن عاقرت كأمي بسالك	من الأمر فيها كل ما كان أسمى
ولا مشتر بالجد مستحسن الصبا	ولا مشتر طرق المهالك بالنجا
ولكنني مؤوف لنفسي حقوقها	ورائضا فيما استوى وتعوجا

ولكن العزيز لم يغفل عن رغبة أخيه ، وما كان يخفيه ، وكان يداريه ، ويقبل عليه ، ويقابله الشاعر بالمثل فيبدى الطاعة والولاء ، وقدم بين يدي أخيه الخليفة قصائد المدح في المناسبات . كآن يقول مادحا في مناسبة إقبال شهر رمضان ومهنتا (٢) :

يا شهر مفترضي الصوم الذي خلصت	فيه الضمائر بالإخلاص في العمل
أرمنت يا رمضان السيئات لنا	بشربنا للثقى علا على نهل
صوم وبر ونسك فيك متصل	بصالح وخشوع غير مفصل
يالي شهرك حول غير منقطع	وليست ظلك عنا غير متفصل
ما أنت في أشهر الحول التي سلفت	إلا كمثل زيار في بني الرسل

(١) ديوانه ص ٨٩ .

(٢) ديوانه ص ٣٤٠ .

ويتضح في هذه الآيات محاولته مداراة مشاعره الحقيقية والنطق بغير ما يجب ، فهو بالنسبة إلى رمضان يظهر القول بتمنى بقاءه حولا ، وهو لا يحب هذا في سريره ، لأن شهر رمضان يمنعه من ممارسة لذاته ، فهو في الحقيقة شهر غير محبوب لديه ، ونلاحظ في نهاية الآيات كيف قرن بين هذا الشهر الذى يظهر محبته ، ويخفى غير ذلك ، كيف قرن بينه وبين أخيه فجعله مثله ، وهذا ظاهر المدح ، لكنه يخفى وراءه ما يخفى !

ويقول في مناسبة العيد يصف موكب الخليفة إلى صلاته (١) :

لئن أتى العيد من لقيالك في فرج	لقد مضى الصوم من مناك في تكسّل
برزت فيه برور الشمس طالعة	وقد أعاد ضحك النقع كالطقل
والبيض ترهّر والأعلام خافقة	والأرض في رهج والجو في وجل
فليس يعرف لحظ العين مرسله	إلا إلى سابح في الأرض أو بطّل
والشمس فوق مدار الجيش قد حُجبت	في جرها بنتون البيض والأسل
حتى بلغت المصلّى خاشعاً تسكياً	خشوع جلك في أزمانه الأول
فقمّت فيهم خطيباً مصقفاً سينا	بكل منبصيل نثراً ومُتّصّل
بلاغة نبوى التّظيم مُحكمها	وخطبة لم يتلها مُهمّل الخطّل
أبنت بالحق ما قد كان مُشتبها	من الهدى فتجلى كل مُشكِّل

ولا يخفى ما في هذا الشعر من تصنع ، يقره من أن يصبح إعلاناً رسمياً في هذه المناسبة ، لا ينطق فيه عن عاطفة صادقة ، بل لعنا نحس بأنه يكاد يرض الألفاظ رصاً دون إحساس حقيقى ، فالشعرية فيه منعدمة ، والمناسبة الرسمية تملك عليه لفظه ومعانيه .

وربما كانت نغمة الشاعر في هذه المناسبات الرسمية ، وتسجيل مظاهر الخلافة وشعائرها أكثر دفقا ، وبخاصة إذا اتصل ذلك بالعقيدة ، أو مواجهة الأعداء المتربصين بالدولة ، وبالدعوة الفاطمية التى هى عصب ملكهم ، ومناط شرعيته .

وهو في مثل هذه الأمور يرى نفسه جندياً ومُسئِلاً كأخيه وغيره من أبناء البيت الفاطمى فلا بد له من الدفاع والحماس ، وإظهار القدرة والقوة أمام الطامعين المتربصين بهم جميعاً . يقول — على سبيل المثال — في مناسبة الصراع

(١) ديوانه ص ٣٤١ .

بين الدولة ممثلة في الخليفة العزيز بالله وأحد أعدائها الأقوياء بالشام القائد التركي أفتكين . ومعتزا بنصر العزيز عليه ومفتخرا :

أعدلاً وما عدلتني انتهى	ولا طرد الجلم عني الصبا
وكيف تلومين صنع المرا	م وتلجين مثلي كهل الحجا
بلوت الزمان وأحداثه	على السلم منهن لي والوغى
فما قلت حريها لي شبا	ولا ازدت بالسلم عنها رضى
إذا قلت لم أعد فصل الخطاب	وإن صلت أقطت عني الردى
أرنتي التجارب ما قد بدا	فصنت به كل ما قد تحفى
ولم يبلغ العمر من سته	ثلاثين حتى بلغت المدى

حتى يقول :

تهون على صعاب الأمور	وبصغر عني جميع الورى
أنا ابن المعز سليل الأمل	وصنو العزيز إمام الهدى
سما لي معد إلى غاية	من المجد ما فوقها مرتقى
فرحت بها فاطمي التجار	حسينيه علوى الجنى
وإننا لقوم نروع الزمان	ولسنا نراع إذا ما سطا

وروجدان الشاعر هنا هو الذى ينطق ، وضميره المكنون يكشف عن دخيلته فهو الأمير الكبير صاحب الشأن ، فاطمي انساب والأرومة ، ينتسب إلى الحسين ابن على الشهيد المناضل للحق وبالحق في مواجهة الباطل المستبد ، وفي هذه الآيات ذات القافية المطلقة والآلف المقصورة تتألف فيها موسيقى الكلمة وإيقاع السياق مع نفثة الشاعر من صدر مصدر ، تلذعه حرقه بحس بأوجاعها فيطلقها رنة تمتزج فيها اللوعة والكبرياء ، وتتلاقى فيها آلام الماضي ، وأحزان قومه من العلويين الشيعة ، بآلامه هو فيتذكر أنه فاطمي حسنى علوى ، وكما لاقت فاطمة وابنها الحسين وكما لاقى على !!

ومع ذلك فهو ينتصر على لوعته ، وعلى أحداث الزمان ، ومعاندته وحربه لآل على ، وما يحسه هو ، وشيعته من مرارة تلك المعاندة وذلك الظلم الذى يتعقبهم ، فهم صامدون رغم ذلك ، لا يستسلمون ولا يخضعون : (نروع الزمان ولسنا نراع إذا ما سطا) .

امتزجت لغة الشاعر إذا مع مخنة قومه غداة ، ولكن شئنته وإن عظمت عليه وأقضت مضجعه إلا أنه يضطر إلى كتبها ومداراتها ، لا يفرج عنها ، ولا يتنفس عن مصلوره إلا بينه وبين نفسه أو بينه وبين عشيرته الأقربين تقيّة أو تجنباً لأزمات ، ولأحداث قد تجر ويلات ، وتثير نارا يكون وقودها ، ولا يصل إلى مبتغاه .

ظل يراوده إذا حلم الخلافة والمُلْك ، وظلت تحترق في نفسه الصور وتتداعى في مخيلته الأحلام ، ويلوم زمانه ، ونفسه ، ويلوم بعض عشيرته الذين أحبههم ولا يملك في النهاية إلا أن يظهر خلاف ما يبطن ، وأن يلقي أخاه العزيز الخليفة ورمز السلطان الفاطمي بوجه الأمير الموالي ، والرعية المطيع ، والأخ الحبيب الوفي .

فيمدح العزيز ويجماله في كل مناسبة رسمية أو خاصة ، ولا يفتأ يؤكد ولاءه لأخيه ، كأنه يحس دائما بأنه متهم بعدم الولاء أو عدم الرضا مما دفع بعض الكائدين الذين أشار إليهم كثيرا في شعره ، والذين يصطادون دائما في الماء العكر ، ويتقربون إلى ذوى السلطان بالوشاية ضد من يريدون فهم كيدا بوشايتهم ، أو ذريعة يتوصلون بها إلى صاحب الأمر . فيتخذ هؤلاء الكيد لتقيم وسيلة للقرى من العزيز ، وتنطق بعض آياته بهذا فيقول (١) :

أَنْتَ إِمَامٌ لِي بَلَا تَقِيدُ	وَلَا هُمْ فَاشْهَدُ ثُمَّ لَا هُمْ أَشْهَدُ
إِنْ زَارَا غَايَتِي وَمَقْصِدِي	وَمَوْبِلِي وَمَعْقِلِي وَمُسْنِدِي
وَعُدَّتِي وَعُمْدَتِي وَمَعْنِدِي	وَأَنَا بَرَاءٌ مِنْ عَدَاكَ مُفْتَدِي
إِنْ لَمْ تَكُنْ ذِي بُيُوتِي لَمْ أَسْعِدْ	لَوْلَاكَ لَمْ أَسْمُ وَلَمْ أَسُدْ

ويقول في مناسبة أخرى مشيرا إلى أولئك الكائدين الذين يضمرون له الشحنة (٢) :

كَمْ مُضْمِرٍ لِي عُقْدُ الشَّحْنَاءِ	يَنْسُبُنِي فَيْكَ إِلَى السَّوَاءِ
جَبْهَتُهُ بِالرَّدِّ وَالْإِقْصَاءِ	وَلَمْ تَمَكَّنْهُ مِنَ الْإِصْغَاءِ
حَفْظًا لَطَاعَتِي وَالْإِنْخَاءِ	حَتَّى انشَى مُحْتَرِقَ الْأَحْشَاءِ
وَالْعَدْلُ جَبْهُ الْكَاشِحِ السَّعَاءِ	لَا ، وَالْدَّمُ الْجَارِي بَكْرُ الْبَلَاءِ

(١) ديوانه ص ١٣٧ .

(٢) ديوانه ص ١٧ .

(٣) الجبّة المقابلة بما يكره المرء أن يواجه .

ويقول :

ومن بها من دائم الشواء
بنى على وبنى الزهراء
ذوى التناهي وذوى الغلاء
ما جلت عن مستحسن الصفاء
فيك، ولا عن خالص الولاء
فى ظاهر منى ولا خفاء

وليت الأمر استقر بين الشاعر الأمير وأخيه الخليفة ، فالنفوس مهما خلصت
تزلزلها أطماع وآمال ، وترتادها نزوات ، وقد يسمع الخليفة والنفس مهيأة لأن
تتلقى قولاً عن أخيه الأكبر ، وقد تتور نفس الشاعر الأمير ، أو تحدته فينطق
علانية في مجالسه الخاصة بين شيعته وأهله ، كلمة لا تسر الخليفة عن حق
معتصب أو عن أمل يراوده ، فيختصب عند سماعها ، ولا يخفى على ذوى السلطان
خافية ، فلا يعدمون من يشئ ممن يبغي القرى على حساب اللوفاء والمروءة .

وعلى أية حال فإن الأمور لم تصف بين الأخوين ، واعتكر الماء الجارى وربما
أضمر الخليفة أمراً ، أو لعله بعث لأخيه ، من يحمله ، أو يتلوه ، ثم من ينصحه
بالابتعاد عن القاهرة ، ويختار لنفسه منفى .

ويتلقى الأمير التحذير ، فيقع من قلبه موقع المראה على لسان لم يذق إلا حلو
العيش فى بلهنية السلطان ، ورحاب القصور الخليفة ، ويساتين العز .

كان ذلك حول عام أربع وسبعين وثلاثمائة (٣٧٤ هـ) . ويخرج الشاعر
الأمير من القاهرة متجهاً شرقاً إلى سيناء ففلسطين حيث اختار الرملة بها
مقصدًا ، ويشير إلى ذلك فى قوله مسجلاً أحداث ما بين الأخوين :

رضيتُ بحكم سابقة القضاء	وإن أضحت تكدر صفو مائى
وهل يستطيع أهل الأرض حلاً	لِعقدٍ شُدَّ من فوق السماء
إلى كم نهدم الأحداث ركنى	وترمينى بجور واعتداء
يعاقبنى الزمان بغير ذنب	وتخذلى يدي وذوو اصطفايى
ويسعى لى لمن لو جاء ساع	به عتلى لخصب بالدماء

حَيَاتِي بَيْنَ وَاشٍ أَوْ حُسُودٍ وَسَاحٍ لِي يُسْرِ لَطُولَ ذَاتِي
فَإِنْ وَشَى عَلَيَّ الزُّورَ بَاغٍ فَصَبْرًا لِلْمَقَادِيرِ وَالْقَضَاءِ
وَمَا أَنَا يَا أَبَا الْمَنْصُورِ إِلَّا كَمَا تَذَرِي عَلَى مُحَضِي الْوَفَاءِ
أَتَعْلَمُ كَيْفَ كَانَ لَكَ انْعِطَافِي وَكَيْفَ رَأَيْتَ قَدَمَا فِيكَ ذَاتِي
أَحِينَ مَلَكَتْنِي وَالنَّاسَ ظَرًّا وَرُحْتَ خَلِيفَةً فِي ذَا الْفَضَاءِ
وَحِينَ رَجَوْتُ نَصْرَكَ لِي فَإِنِّي بِمُلْكِكَ بِالْبَغِ أَقْصَى رَجَائِي
يُحْيِيكَ مُبِغِضٌ لِي سَاعِيًا بِي يُرْوَمُ لَدَيْكَ تَقْضِي فِي الْخَفَاءِ
فِيئَلْبَنِي وَيَرْجِعُ سَالِمًا لَمْ تَهْجُكْ عَلَيْهِ أَسْبَابُ الْإِخَاءِ

ويظل يوالى هذا العتاب المر لسماع أخيه وشى الوشاة حتى يقول :

فقد طيبت عيشي في سرور وقد أنعمت بالي في رخاء
وعيشي زائد طيباً إذا لم يُكْثِرُهُ لَدَيْكَ بُنُو الزَّناءِ

قصيدة مفعمة بالآلم ، ينفثها قلب مزقته المعاناة في تلك العلاقة الحساسة بين
الأخوين أحدهما صاحب السلطان والكلمة المطاعة ، وكل الناس يتوددون إليها
والآخر مظلوم مهضوم الحق مع أنه الأكبر سناً ، لكنه رضى بما قسم الله له لآمور
كما يقول تجرى بعقد من السماء لا يحله أبناء آدم على الأرض ، مؤمن بالقضاء
والقدر وأن هذا قدره وهو يحس بأن الزمان يتعقبه ، على الرغم مما يعيش فيه من
نعمة ظاهرة ، لكنها نعمة حس ، تخفى شقاء للروح ، وعذابا للنفس ، وما
أشقى النفس التي تنكب فيمن تحب ، وتشقى بمن ترغى على يديه إسعادها .

ويزيد عذابه أن يرى أخاه الأصغر الذي أحبه ، وكان له فيه رأى يرتضيه يرى
هذا الأخ جلاده بعد أن ملك زمام السلطة ، وأمسك بمقاليد الأمور ولكن هكذا
الدنيا .. وهكذا السلطان لا يراعى حرمة ولا رحما . ويصدق في ذلك المثل
« السلطان من ابتعد عن السلطان » .

ويعر الأمير في طريقه إلى منفاه الذي اختاره أو اختير له ، ويعر بعين شمس
فتهجس في نفسه هاجسة رئة الشعر ، ويحوم حوله شيطانه فتدور على لسانه
أبياته (١) :

(١) ديوانه ص ١٤٧ .

ولما أثاروا البُزْلَ وهناً وأشأموا
وحالَ الآسَى دونَ البُكا فعيوننا
أعطَنَ دَمْعُ سَيِّئِ المَلا عَنْ رَوادِفِ
فلمْ تُعْصِ سُلْطانَ المَدامِجِ مُقْلَتِي
أَجْدُكَ لا أَنْفَكَ في كُلِّ لَيْلَةٍ
وحثَّ بأقمارِ الهَوادِجِ حَدِي
من اليَسَنِ حَسْرَى والتَّاسَفِ بِأَدِي
رُؤْيٍ وَلَكِنَّ الحُصُورَ صَوادِي
ولمْ يَتَحَصَّنْ بالضُّلُوعِ قُوادِي
أَراعَ بَيْنِي أو أَهيمُ بِوَادِي !!

ويذكر بلييس في طريق رحلته الشامية ، وينزل بالعباسة (١) :

هدأ الفراقُ فمَهلاً أيها الحادِي
استودعَ اللهُ من فَقْدِي لرُيتِهِم
لولا دُمُوعِي في يَوْمِ الوَداعِ إِذا
فإن قَضَى بالتَلاقِي اللهُ ثانِيَةً
لا شَيْءَ أوجَعُ من بَيْنِ وإِبعادِ
أمرٌ من فَقْدِ شَرِبِ المَاءِ لِلصَّادِي
لأَحْرَقَتْ زَفْرَتِي ثُمَّ عُوادِي
فالشُّكْرَ أَعْظَمَ ما صيرَتْهُ زَادِي

واستقر به النوى. بالرملة ، وهناك طافت برأسه رؤى الوطن وأحبابه بالقاهرة
ومنازها فكتب يتشوق (٢) :

تَغَيَّرَ بَعْدَكُمْ خالِي
ولا والله ما قَلْبِي
وِدِدْتُ لو أَنَّكُمْ تَدْرُو
وَدَمْعِي عِنْدَ ذِكْرِكُمْ
فَهَلْ تَلْقَوْنَ ما أَلْقَا
لِقائِكُمْ وَقَرْبِكُمْ
عَلَى أَنِّي وَإِنْ كُنْتُ المُـ
لَأَلِزِمُ حُبَّكُمْ قَلْبِي
فَهَلْ أَنَا شُغْلُ أَنْفُسِكُمْ
وساءَ لُبْعِدِكُمْ بِأَلِي
لَكُمْ ناسِي ولا قَالِي
نَ أَشْواقِي وتَبْلِي
وَإِطْراقِي وإِذْلالِي
هُ مِنْ وَجْدٍ وإِعْوالِ
مُنَى نَفْسِي وأَمالِي
حَبِّ السَّيِّدِ العَالِي
وأَجْعَلُ حالكُمْ خالِي
فَأَنْتُمْ كُلُّ أَشْغالِي

كتب من الرملة إلى من تخلف بالقاهرة من الأهل (٣) :

أَنْتُمْ في المَتامِ حُلُمِي وأنتم
كُلُّ عَضو مِني إِلَيْكُمْ مُشْوقِ
في انتباهي سؤلي ، وأنتم مُرادِي
زائِدُ تَوْفِهِ عَلَيَّ الإِبعادِ

(١) ديوانه ص ١٢٢ .

(٢) ديوانه ص ٣٥٢ .

(٣) ديوانه ص ١٤٨—١٤٩ .

لم أفارقكم ولكن جسمي بأن عنكم وتحل فيكم فؤادي
فهنيئاً لكم بكائي عليكم وهنيئاً للعين طول السهاد
كلما حبي اشتياقي إليكم قلت لييك أنت نعم المنادي

وبعد فتلک محنة الأمير الشاعر مع الخلافة والآب والأخ ، عبر عنها من خلال هذه النفثات الشعرية التي أطلقها وبقيت منها تلك الآيات في ديوانه ، ولعله نطق كثيرا ولم يبق لنا مما نطق إلا ذلك القدر ، وهو قدر يسمح على كل حال بأن تتصور حاله وإن لم يقفنا على تفصيلاتها ، وتقلب أمورها .

ولقد شغلت أحوال أسرة المعز قدرا من شعر تميم الأمير الشاعر ، كما شغل نفسه في شعره ، فافخر وكشف عن مخبات صدره ، وعن عقيدته وعلاقاته . بغيره ممن أحب أو كره .

وطبيعي أن يشغل شاعر أمير بأحوال قومه ، وأحوال نفسه فهو لم يتخذ الشعر وسيلة للتكسب والحصول على المال فيمدح هذا من الملوك أو الرؤساء أو ذاك من الأتراء والقادة لقاء جائزة ، فهو غنى عن هذا بما لديه ، وهو إنما يتخذ من الشعر أداة للتعبير عن مواجده ، في أفراحه وأتراحه . فهو إذا مدح فإنما يمدح الخليفة لأنه أخوه ، ولأنه رمز السلطة والدولة الفاطمية والإمام المطاع وولي الأمر ، وواجب عليه الولاء له وتقديمه هذا الولاء في كل مناسبة أحيانا من الشعر بين يديه .

وإذا مات أحد أبناء الأسرة الفاطمية رثاه كذلك وتفجع عليه ، فمراثيه كمدائحها كلها في أقربائه وأعز الناس لديه ، لا رياء ، ولا مجاملة ، ولا ابتغاء قربى من أحد .

ومن مراثيه قوله يرثي أخاه عبد الله (١) :

أي خطب أرى وأى ليالي دهم الناس صرفها المخدور
ويقول فيها :

كيف لم تسقط السماء على الأرض ، ولم تهو شمسها والبذور
يوم مات الأمير بل يوم مات الصبر فيه ، بل يوم مات السرور

(١) ديوانه ص ١٤٩ .

يَوْمَ بُلَّ الثَّرَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّمِ
يَوْمَ تَحْطَّتْ عَمَائِمُ وَأَذَاعَتْ
يَوْمَ أَبْكَى الْعَيُونَ حَتَّى بَكَاهُ
قَبَرُوا شَخْصَةً وَوَارَوْا سَنَاهُ
كَمْ نَصِيرٍ لَهُ هُنَاكَ وَلَكِنْ
حَجَّ وَقَدَّتْ عَلَى الْقَلَسُوبِ الصُّدُورُ
سِيرَهَا فِيهِ أَدُورٌ وَخُلُورُ
الْأَسَدُ الْوَرْدُ وَالْعَزَالُ الْغَرِيرُ
وَتَدَلُّوا وَالْفَائِزُ الْمَقْبُورُ
لَيْسَ مِنْ سُورَةِ الْجَمَامِ نَصِيرُ

★ ★ ★ ★ ★

يَا أَخِي ، أَيُّ عِبْرَةٍ لَيْسَ تَهْجِي
يَا أَخِي ، وَإِنْ بَكَتْ عَيْنِي فَأَتِي
يَا أَخِي عَبْدَ اللَّهِ أَيُّ مُسَاجٍ
يَا أَخِي إِنْ صَاحِبِي وَأَخِي بَعْدَ
وَفُؤَادٍ عَنِ السُّلُوكِ عَنِيدٍ
كَتَبَ مِلْءَ الْجُنُودِ نُورًا فَأَمْسَ
وَفُؤَادٍ عَلَيْكَ لَيْسَ يَطِيرُ
بِالْبُكَاءِ وَالْأَسَى عَلَيْكَ جَدِيرُ
لَمْ يَفْقَهُنَّ سَعْيَكَ الْمَبْرُورُ
كَ تَلْهَابٍ لَوْعَةٍ وَزَفِيرُ
وَمِنْ الصَّبْرِ وَالْعَزَائِمْ نَفُورُ
سَتْ مَلُوهَا مَدْمَعٌ عَلَيْكَ غَزِيرُ

هذا رثاء غير رسمي ، من أخ لأخيه ، ولوعته فيه لوعة صادقة ، ودمعه دمع
محترق بالفراق ، وشعوره بأن الدنيا ضاقت وأظلمت شمسها وتهاوت بدورها ،
شعور غير كاذب ، لأنه طبيعي من أخ نحو أخ أحبه ورافقه ، ودرج تحت
عينيه ، ولعبا معا صبيين ، أو صبيا وفتى .

ومثل لوعته ورثائه لأخيه عبد الله كانت لوعته ورثاؤه لأخيه عقيل الذي ولاه
المعز ولاية عهده ، متجاوزا الأمير الشاعر تيمما ، وحقه فيها . ومع ذلك لم يمنع
ذلك الأمير الشاعر من أن يسكب دمه ، ولا لسانه من أن يزفر هذه الزفرة
ليقول (١) :

قِسْمَةُ الْمَوْتِ قِسْمَةٌ لَا تَجُورُ
يَسْتَوِي كُلٌّ مِنْ أَذَاقَتِهِ مِنْهَا
نَحْنُ فِي غَفْلَةٍ وَلِلْمَوْتِ فِينَا
نَسْتَطِيبُ الْمَتَى وَهْنٌ غَوَاصِي
كَلَّ حَتَّى بَكَاسِيهَا مَحْمُورُ
لَا أُمِيرٌ يَبْقَى وَلَا مَأْمُورُ
طَالِبٌ مُدْرِكٌ مُجَدُّ قَلْدِيرُ
فَنُطِيلُ الْأَمَالَ وَهَى غَرُورُ

ويقول فيها :

(١) ديوانه ص ٢٢٦ .

لَمَّا مَاتَ صَفَّوْا عَيْشِي وَهَلَّ فِي الْآ
 قَدْ تَذَكَّرْتُ بِالْمَصَائِبِ قَوْمِي
 فَرَقْتِهِمْ يَدِ الْمُنُونِ فَبَادُوا
 سَلَفَ صَالِحٍ وَأَمْلَأْتُ صِدْقِ
 ثُمَّ عَيْشَنَا ثَلَاثَةَ لَفِمْ الْحَا
 فَعَمَرْنَا بِذَلِكَ مُدَّةَ دَهْرٍ
 لَمْ يَعْشُرْ لِلْمُعَزِّ نَسْلَ سِوَانَا
 فَأَصَابَتْ يَدَ الْمُنُونِ مَنَا عَقِيلًا
 حِينَ هَزَّ الشَّبَابُ أَعْطَافَهُ الْغَيْبِ
 لَمْ يُجَاوِزْ حَدَّ الثَّلَاثِينَ إِلَّا
 أَيْنَ تِلْكَ الْبَشَاشَةُ الْغَضَّةُ الطَّلَعِ

رُضِيَ عَيْشٌ مَا شَابَهُ تَكْدِيرُ
 وَجُلُودِي إِنِّي لِقَوْمِي ذَكُورُ
 وَحَوْنُهُمْ بَعْدَ الْقُصُورِ الْقُبُورُ
 بِهِمْ تَسْتَوِي وَتَلَوِي الْأُمُورُ
 سِيدَ مِنْ عَيْشِنَا الْحَصَى وَالصُّخُورُ
 كَلْنَا ظَاهِرُ الرِّضَا مَسْرُورُ
 كُلِّ مَيْتٍ بَنَجْلِهِ مَذْكُورُ
 وَهُوَ مِثْلُ الْقَضِيبِ غَضٌّ نَضِيرُ
 سَدَّ وَحِينَ اسْتَوَى لَهُ التَّعْمِيرُ
 بَلِيَالٍ لَيْسَتْ لَهَا تَكْثِيرُ
 سَةِ، وَالْمُنْظَرُ الْبَهِيُّ الْمُنِيرُ

★ ★ ★ ★ ★

صَارَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْآنَسِ وَحْشًا
 آهَ مِنْ لَوْعَةٍ لَهَا فِي سَوَادِ الْعَدِ
 كَيْفَ يَبْقَى امْرُؤٌ تَوَلَّى أَبُوهُ
 وَهُوَ فِي قَعْرِ حُفْرَةٍ مَهْجُورُ
 سَيْنِ دَمْعٍ وَفِي الْقَوَادِ زَفِيرُ
 وَأُخُوهُ فَجَلَّ لَهُ مَبْتُورُ

وظاهر من هذه الآيات أن أخاه عبد الله توفي قبل أخيه عقيل وبالضرورة قبل
 نزار العزيز بالله ، ولعل الذي تولى الأمر قبل وفاة أبيه المعز كان عبد الله بشهادة
 هذه الآيات ، فهو يذكر أن من تبقى بعد وفاة المعز ثلاثة أخوة هم على هذا ومن
 واقع هذا الشعر عقيل ، ونزار ، والشاعر تميم ، فأما نزار فقد أصبح الخليفة العزيز
 بالله بعد موت المعز لدين الله . وظل الأمير عقيل وتمام ينعمان بالعيش إلى جوار
 أخيهما الثالث الخليفة حتى اختار الله إلى جواره عقيلًا فلم يبق من الأخوة إلا تميم
 ونزار الخليفة .

وهكذا تَأْتِي هذه المراثية وقد فقد الأمير أخاه الأول عبد الله وفقد بعده أباه
 المعز ، ومن بعدهما عقيلًا ، فالموت تعاقب على أعز أهل وأحبابه ، ومن هنا كانت
 بداية الحديث أول الشعر عن الموت وقسمته ، وأن كأس المنيّة تدور وتدور ،
 ويدور كلها كل حي ، فالموت قريب منه يَخْطِفُ أعز من أحبهم ، وعائشهم ، ولا يفوته
 أمير ولا مأمور .

ويشعر بأثر الموت في عيشه ، وعيش أسرته الأقرين ، ومن سلف منهم من
الفواطم أبناء الحسين . فهم كلهم في ملحمة الموت خلف عن سلف :

فرقتهم يدُ المنونِ فبادوا وحوّثهم بعدَ القصورِ القبورُ

وتختلف هذه المراثية في تعبيراتها ومعانيها ، وفي نبضها عن مراثيته في عبد الله ،
وهو اختلاف أدى إليه السن والتجربة ، فالشاعر الأمير قد بلغ مبلغا من التجريب
والعلم ، والسن هدهد فيه من اللوعة ، فلم يكن حزنه صراخا وعويلا وبكاء فياضا
يروى الثرى ولم تهو الشمس ولا تبددت الأقمار ، ولا برزت ربات الخلود ، ومآل
الذين آوتهم القبور في ظلماتها ووحشتها .

هناك فرق لاشك بين هذه الآيات وتلك سببه السن والعلاقة الخاصة بين الأخ
المتوفى والشاعر ، وبين الأخ المتوفى والأسرة مجتمعة في الأول والأسرة وقد غاب عنها
كبيرها وأجد أفرادها ، وتعقيا الموت في الثاني .

تقيم الإنسان

في شعر تميم ملامح إنسانية ، تكشف عما في باطنه من عواطف وأحاسيس إنسانية ، ونجدها في كل إنسان مكتمل البناء ، صحيح النفس ، سليم الباطن فيه شفافية الروح التي أودعها الله إياه ، وميزه عن غيره من سائر الحيوان وتمثل تلك الشفافية فيما تعارفت عليه الإنسانية من سمو الخلق ، والترفع عن الدنيا والحب للناس والأشياء والرغبة في الخير ، والطموح إلى الجمال وإلى كل ما هو جميل .

ونذكر من قراءتنا لشعر تميم أنه رغم انشغال فكره بأحوال دنياه وصراعات الناس من حوله ، ودسائس الملك والسلطان ، وما خيم على العصر من اضطراب وخوف ، وقتال وموت ، وتساؤل عن المصير . أقول على الرغم من هذا كله نجده يكن في داخله تلك الصفات الإنسانية التي ما تلبث أن تنكشف لنا هنا وهناك في أبيات ينثرها في طيات قصائده .

وأول ما نلاحظه اهتمامه بالصدقة والعلاقات الإنسانية ، والروابط الأخوية بين الأفراد ، تلك العلاقة السامية التي تحكمها سلوكيات تزيد من وثوقها وتلاحمها . ويؤكد معنى وفائه لأصدقائه وأحبابه في قوله (١) :

لا أدعى الفضل قبل يشهد لي به آذني الدنا وأقصاهَا
ولا أرى عليّ للصديق يداً تفسد أنغامها بنعمها
من اصطفاني بوذره فله عندي يد كالجبال صغراها

وكان من بين أصدقائه الذين وفي ضم ، وتبادل وإياهم رسائل المحبة والوفاء ، شعرا صديقه الشاعر أبو عبد الله الحسيني بن إبراهيم الرسي كتب إليه مرة :

لا شيء أحسن من خليلي غبطة يتراضعان لبان كل وفاء
هذا يُناجي ذا هوى ومحبة أبداً ، ولم يستمتعاً ب لقاء

وفي الرسائل الشعرية المتبادلة بينه وبعض خلانه معان كثيرة من الود .

قال — وقد كتب بها إلى بعض أصحابه — وكان قد اعتذر هذا الصاحب عن أمر جرى منه (٢) :

(١) ديوانه ٤٣٩ .

(٢) ديوانه ص ٢٧٥ .

وقد قبلنا اعتذارك المحض لما
وصفحتنا عن زلة لم تكن من
وقد علمنا أنك الخليص الحافظ
لك عندي - ففر عينا من المكث
ليس نصري لك الغداة بناء
كم سقينا عداك عند الإمام الع
وكسونا ريشا جناحيك لما
وأنا في الجميل عنك لنفسى
إننى ناظر إليك بعينى

جئت مستجديا لغفو معافى
لك مرادا، ولا أت عن خلاف
للغيب والولي الصائى
ة ما لا تحصيه منى القوافى
عنك منى ، ولا حفاظى بعافى
ذل إذ فتلوا بسم زعاف
عريا من قوادىم وخوافى
شاكرا حامدا وجازى مكافى
من صفا وده صفاء السلاف

وتطوى هذه الآيات على معان وسلوكيات محبة فى العلاقة بين الصديقين والمحبين . معانى التواصل ، والصفح عن الزلل غير المقصود ، والتماس العذر للصديق ، وعدم تصديق ما قد يقع إلى سمعه من حاسد أو حاقد أو مبغض أو ناقم ، أو غير راضى عما بين الصديقين من تواد وتواصل ، وانتصار للصديق فى مواقف الضيق ، والوقوف إلى جانبه ومساندته عند حكم عدل كل هذا إلى الوفاء وجزاء كل عمل جميل من الصديق بما يستحقه من جزاء مقابل ، والتقرب إليه بكل ما يحفظ لتلك الصداقة متانتها ، ويشد من أزرها .

وأنا فى الجميل عنك لنفسى
إننى ناظر إليك بعينى

شاكرا حامدا وجازى مكافى -
من صفا وده صفاء السلاف

ومعان حلوة ، ليتها تكون دستورا للعلاقة بين الناس ، فتصفو لهم الدنيا ، وتحلو من الكدر كصفاء السلاف !!

ومع ذلك فالنفس الصافية قد تلقى فى الحياة نفوسا مظلمة ، وكثيرا ما هى فتعانى ضد ما ترغب فيه ، وتعتصر ألما لما تلقاه على غير ما تحب .. من قلة الوفاء والنكران . ولا أشد دلالة من هذه الصرخة (١) :

وى فتحت للناس كل غريبة
ومن كان ذا علم بأهل زمانه
وأنهم لا يسترق حفاظهم

ومحكمة ينشق منها الصفا الصلدا
تيقن أن الناس كلهم وعد
وفاء ، ولا يفتنى لهم أبدا حقد

(١) ديوانه ص ٣٤٠ .

إِذَا فَرَقُوا أَبْدُوا وَدَادًا وَذِلَّةً وَأَنْفُسُهُمْ حَرْبٌ وَأَلْسِنُهُمْ لَدًّا

أولئك الذين جمدت قلوبهم ، وخربت نفوسهم ، لا خير يدفع إليهم بنافع لديهم ولا يسترق حفاظهم وفاء ، ولا يفنى لهم أبداً حقد ، فيهم اخلاق العبيد ، إذا خافوا توددوا وأبدوا المحبة والصفاء ، وإذا أمنوا ، تنمروا ، وانقلبوا ، وغدروا ، وأوقعوا ، ووقعوا ، وسلطوا ألسنة لَدًّا !!

تميم الإنسان المعذب في سعيه ، وفي حظه ، والمعذب في علاقاته ، لاشك تمر به لحظات من الضيق ، فلا يجد غير الشكوى ؛ الشكوى من الزمان والناس ، والشكوى من هذا الحظ العاثر .. فنفسٌ شقية تنفث همومها ؛ يقول (١) :

أَقُولُ أَسْرَبُ مِنْ حَمَامٍ عَرْضَنَ لِي	يَغْرَدْنَ مِنْ فَوْقِ الْعُصُورِ وَيَنْدُبُنَا
وَيَسْكُنَنَّ فِي خَضِرَاءَ نَاعِمَةِ الرِّبَا	أَنِيقَةَ رَوْضِ الثَّيْبِ، آنِسَةِ الْمُغْنَى
بَوَارِخَ لَا يَحْشَيْنَ بَيْنًا وَلَا تَوَى	رَوَاتِجَ لَا يَعْرِفُنَّ هَمًّا وَلَا حُزْنًا
فَقُلْتُ هَنِيئًا لِلْحَمَامِ أَمَانُهُ	وَلِنْ كَانَتْ الْأَيَّامُ لَمْ تُعْطِنِي أَمْنًا
أَسْرَبُ الْحَمَامِ لَوْ لَقِيتُ بَعْضَ مَا	أَلَا قَبِي لِأَصْبَحْتُنَّ أَوَّلَ مَنْ يَضْنِي
وَلَوْ قَدْ عَلِمْتُنَّ الَّذِي أَنَا عَالِمٌ	لَمَّا نَاحَ مِنْكُمْ هَاتِفٌ، لَا، وَلَا غَنَى
وَمِنْ جَرَّبَ الْأَيَّامُ تَجَرَّبَتِي لَهَا	دَرَى أَنَّهَا لَيْسَتْ تَدُومُ عَلَى مُغْنَى
فَحَسْبُكَ يَادَهُرُ، اصْطَلَيْتُ بِنَارٍ مِنْ	لَوْ أَنَّكَ سَمٌّ فِي تَرَاقِيهِ مَا أَنَا
وَأَكْثَرُ مَا أَهْجُوكَ يَا زَمَنِي بِهِ	مِنْ الْفِعْلِ أَنِّي لَمْ أَحْسِنْ بِكَ الظَّنَّ
ذِمَّتُكَ يَا صِرْفَ الْحَوَادِثِ فَانْتَصِرْ	وَسُوْنَاكَ يَا رَبَّ الزَّمَانِ فَخُذْ مِنَّا

وتلاحمت هموم الشاعر وأحزانه مع هموم قومه وعشيرته من الشيعة الذين يحسون في أعماقهم اضطهادا وظلما، ذروته وحدثه الدامي مأساة الحسين، التي كثفت الظلم الواقع عليهم من المجتمع الإسلامي ككل .. وتراه في مناسبة هذه الذكرى الأليمة ذكرى استشهاد الحسين في كربلاء تفيض نفسه بأبيات ينوح فيها نوح الحمام ، ويثن أنه المكلوم . يقول في واحدة :

أَعَاذِلْ لِي مِنْ فَسْحَةِ الصَّبْرِ مَذْهَبٌ	وَلِلَّهِوْ غَيْرِي مَأْلَفٌ وَمَصَادُ
ثَوْتُ لِي أَسْلَافٌ كِرَامٌ بِكَرْبِلَا	هَمُّ لَشُعُورِ الْمُسْلِمِينَ سَدَادُ

(١) ديبانه ص ٤٣٧ .

أصابتهُم من عبْد شمسِ عداوة
فكيف يلدُ العيشُ عفواً وقد سطَا
بشارتِ بذرِ طالِبُوهم ومكة
فحكمتِ الأسيافُ فيهم وسلطتْ
فكم كربةً في كربلاء شديدة
وكم بأعلى كربلاء من خفاير
بها من ينسى الزهراء كلَّ سيّد نج
معفرة في ذلك الترابِ مِنْهُمْ
فلهنّ على قتلِ الحسينِ ومُسلم
ألا كيّدَ تفنّى عليهم صباة
ألا مقلّةً تهجى ، ألا أذنَ تبعى

وعاجلهم بالنّاكبين حصّاد
وجارٍ على آلِ النّبى زياد
وكادوهم والحقّ ليس يكاد
عليهم رِماحُ للتفّاق جِداد
دهأهم بها للنّاكبين كياد
بها جُثثُ الأبرارِ ليس تُعاد
جوادٍ إذا أغبى الأنهم جواد
وَجُوءُها كانَ النّجاحُ يكاد
ويجزئ لمن عاذاها وبِعاد
فيقطرُ حُزناً أو يذوبُ فؤاد
أكلَ قلوبَ العالمين جماد ١٩

والإنسان في مسيرته الدنيوية يحس بالموت كلما زال عنه رونق الشباب ، أو جافته أحداث الدهر وتصاريفه ، وليس كشاعرنا إحساسا بالموت لخصتين الأولى أنه شيعي وأن موت الحسين في مأساته إحساس دائم مسلط على نفوس الشيعة ، فهم في حزن أبدي ، والموت عندهم ملجأ ومهرب أحيانا ، ونهاية وعدمية تقلق الجسد الحى ، وإن كانت تسعد الروح لفكاكها من قيد المادة ، وظلم الطين ، وظلمته .

وأبيات تميم هذه تردد المعانى نفسها :

خليلى بي ظمأ ما أراه
فلا تستشيماً بروق السحاب
أعيناً أحمأ لكما لم يث
ولم يسترخ قلبه من أسى

يُرّدهُ عللٌ من حيا
فللرى شيمٌ بريق الطبّا
على طول مسراه يشكو الوجى
ولم تخل أحشاؤه من جوى

تميم الشاعر المستمتع الفنان

عاش تميم حياة حافلة ، جمع فيها متع الحياة ، لم يترك فرصة تفلت من بين يديه إلا واقتنصها ليتذوق جمال الدنيا ، ويعبُّ مما تحفل به من الجمال واللذة .

لذا تراه يمارس لذات الحياة بين الخمر والنساء واللهو والصيد والطرب ، والتتره في الروضات ، وأشباع العين من جمال الدنيا ومفاتيح الطبيعة .

أحب تميم الحياة وعبُّ منها ، وربما كان منشأً على ذلك طبيعة وخلقة ، وأتاحت له حياة القصر ، وثناء الإمارة كلّ ما رغب فيه فلم يغب عنه وطر ، ولم تقصر همته عن صيد لذة .

والخمر من لذات الشاعر القديم والحديث ، ألم يقل امرؤ القيس :

كأنّ لم أركب جواداً للذة ولم اتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم اسبأ الزق الروى ولم أقل لخلي كرى كرة بعد إجحاف

فاللذات الأربع التي ذكرها امرؤ القيس : المرأة والصيد والخمر والغارة ، جمع منها تميم ثلاثاً وأضاف إليها اثنتين هما حب الموسيقى والغناء ، والتلى من جمال الطبيعة ومباهج الحياة .

وشارك الشاعر في حب الخمر من سبق من رصفائه منذ امرؤ القيس وطرفة والأعشى والأخطى وأبي النواس . وهو يشربها ليتسلى ويدفع هموم النفس ، ألم يقل فيها الشعراء أنها جالبة للمسرة !! . يقول (١) :

قهوة تهزم الهموم إذا ما نازلتها وتطرب الندماء
إن دعيتها الأنوف فاحت عبيراً أو رنتها العيون لاحت ضياء
فهى كالورد حمرة وذكاء وهى كالليل جرة ولقاء

وله كأبي نواس زورات ليلية إلى دور الخمر وحاناته ، ومن ذلك قوله يصف زورة إلى خمارة امرأة شمطاء ، يقول فيها :

فأفضى بنا الإدلاج بعد تعسف إلى زولة شمطاء منزلها رخب
مؤثرة أما أبوها فقيصر وحسبك ملك جدّه قيصر حسب

(١) ديوانه ص ٢٣ .

قَصِيرِيَّةٌ دَيْرِيَّةٌ هَرَقْلِيَّةٌ تقاصر منها الخطو وأحدوذب الصلْبُ
وقالت لَنَا أَهْلًا وَسَهْلًا ومرحبًا قليل لَكُمْ مِنِّي البشاشة والرحبُ

ولكن الأمير وهوومه تمتزج بلذاته ، بل إن هموم الأمير قد تتأني على لذاته وتستعصى ، ويريد أن يصرفها بالسلى والإنغماس في ملاذ الحواس ، فتراه في ممارسته لمتعه مع من أحب ، أو وهو يحب كأس الشراب ، تقتحم عليه صفو اللحظة خواطر الإمارة ، ومرارة الذكرى لما عاناه فيما اشرنا إليه ، فيقول مازجا الألم باللذة بعد حديث تنعمه بوصال الحبيب الذي بات ضجيجته (١) :

وإني لَأَلْقَى كُلَّ خَطْبٍ بِمُهْجَةٍ يَهُونُ عَلَيْهَا مِنْهُ مَا يَتَصَعَّبُ
وَاسْتَصْعَبُ الْأَهْوَالُ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ وَيُمَزِّجُ لِي السُّمَّ الرَّعَافَ فَأُشْرَبُ
وَأَغْضِي عَلَى بَثْلِ الْأَسْنَةِ صَابِرًا وَلَوْ شِئْتُ لَمْ أَصْبِرْ وَلِلسَيْفِ مَضْرِبُ
وَلَسْتُ بِإِقْبَالٍ وَإِنْ سِرَ فَارِحًا وَلَا مِنْ عَجِيبٍ يَعْجِبُ النَّاسَ أَعْجَبُ

والخمر في زحمة تلك الهموم لا تقوى على مغالبتها ، فيقول :

تَحْلِيلِي مَا فِي أَكُوسِ الرَّاحِ رَاحَتِي وَلَا فِي الْمَثَانِي رَاحَتِي حِينَ تُطْرَبُ (٢)
وَلَكِنِّي لِلْمَجْدِ أُرَاحُ وَالْعَلَا وَلِلْجُودِ وَالْإِعْطَاءِ أَصْبِرُ وَأُطْرَبُ

ومع هذا فهو لا يقوى على ترك لذاته ، فهي تشده إليها وكأنه خلق لها وخلقت له ، يجمع إلى الخمر المرأة ، وله معها جولات .

تقيم والمرأة :

والمرأة في شعر تميم ليست صاحبة ، ولا زوجا ، بل هي غالبا غانية أو قينة ، من نساء المتعة ، تمتعه حسا ، بمتع الجسد ، وصوتا ، بلذة الغناء . وغزله عامة يدور في هذا المجال ، وهو رقيق مناسب لموضوعه . يقول (٣) :

وَأَبَايَ الظُّبْيُ الَّذِي لَوْ بَدَا لِلْبِدْرِ قَالَ الْبِدْرُ وَأُظْلِمَتَا
أَثَرُ الْأَلْحَاطِ فِي خَلْدِهِ فَانْتَصَفَتْ مِنِّي لَهُ مُقْلَتَا
ثُمَّ رَمَى قَلْبِي بِالْحَاطِظَةِ وَأَبَايَ الْحَاطِظَةِ مِنْ رُمَا
كَمْ سَفَكْتُ أَجْفَانَهُ مِنْ دَمٍ نَمَتْ عَلَيْهِنَّ بِهِ وَجَّتَا

(١) ديوانه ص ٤١ .

(٢) وتروى « تُضْرِبُ » والمثنى الأثر الثاني بعد الأول في النعير .

(٣) ديوانه ص ٣٩ .

يا قوم ما بآل ظلاماتنا
فتمنع المحبوب من زهده
لا تطلبوا خلقاً يقتلى سيوى
لو قيل لى ما تشتهى لم أقل
يا من برانى حبه وانتهى
منعتنى الطيف بمنع الكرى
والله لا أنسى لها قولها
متى استوث في الحب أقدارنا
فى الحب لا ينظر فيها القضاء؟
وتنصف العاشق ممن جفاه
فواتر اللحظ وورد الشفاه
شفاً سيوى قلع عيون الوشا
لى العنا من هجره منتهاه
منى فكدرت على الحياه
من تخلف سيجف الستر واضيعته
حتى أوتيه وأبغى رضا 11

غزل رقيق ، فى بسيط من اللفظ ، وتدله ظريف ، مع عبارات جارية من متداول الحديث ، عامية ، لكنها تطرف فى سياق هذا الخطاب 1

والشاعر كغيره من الغزلين يكثر من حديث أحواله مع المرأة ، وتقلبها بين اللقاء والفرق ، والشوق ولواعجه ، واللقاء ومتعة بين تقيل وعناق ودمع بحرى حُرقة أحياناً ، وسعادة أحياناً ، يقول فى وصف الفرق فى تعبير رقيق لا كتعبيرات غيره مما ألفناه (١) :

ما ذم يوم الفرق إلا
أولهُ أنا وقوف
لا تنقى فيه عين واشى
إن هاج حرّ الوداع شوقى
لولا الفرق الذى دهانا
من غاب عن موقف الفرق
للثم والضم والعناق
ولا نذارى ذوى التفاق
فبالوداع اشتفى اشتياقى
والبين ما أمكن التلاقي

ويردد هذه المعانى نفسها فى موقف الفرق ، وإن بدت متعارضة فيقول :

يوم الفرق أهاج لى حرقاً
قبلت من أهوى برغمهم
واريتهم أنى أودعهم
لولا الوداع يا مليحة ما
وشفى القواد وسكن الأرقا
فى الجهر لا خلساً ولا سرقا
وشربت قهوة خدهم دققا
قبلت وجهك خمسة نسقا

أرأيت هذا الظرف النواسى ، وكيف جمع بين لوعة الفرق ، ولذة العناق .

(١) ديوانه ص ٣٠١ .

وهكذا حديث تميم في غزله عندما تصفو نفسه من كدر الملك وأعبائه وهمومه
ويخلو إلى نفسه ، ويرق ويعذب قولاً عن المرأة حين^(١) يودّعها فيقول :

قالت وقد نالها للبين أوجعه والبين صعب على الأحباب موقعه
إجعل يدك على قلبي فقد ضعفت قواه عن حمل مما فيه أضلعه
كأنني يوم ولت حسرة وأسى غريق بحر يرى الشاطئ ويمنعه
ويخاورها تارة فيلطف ، ويقول في دل عمري :

قالت: أغدراً بنسافي الحب! قلت لها لا نال غاية ما يرجوه من غدرا
قالت : فلم لم تزرنا؟ قال: زاركم قلبي ، ولم يدرى جسمي ولا شعرا
قالت : كذا يكم العشاق حبهمو فينعمون ويحنون الهوى نضرا ؟
قلت : اسمحي لي بتقبيل أعيش به قالت : وأي محب قبل القمرا ؟
ويقول وفي قوله سمة الحضارة والامارة^(٢) :

رأنتني وفي كفي ورد أشمّه وأرفعه جبا على العيني والخد
فقلت: تذكّره وجنتي باحمراره فقلت: ولم لا؟ يذكّر الورد بالورد
وينظر كذلك في رواية حديث دها تياهة ليقول :

شبهتها بالبدر فاستضحكت وقابلت قولي بالنكر
وسفّهت قولي وقالت متى سمجت حتى صيرت كالبنر
البنر لا يرئو بعين كما أرئو ولا يسيّم عن نكر
ولا يميّط المرط عن تاهيد ولا يشدّ العقد في نحر
من قاس بالبدر صفتي فلا زال أسيراً في يدى هجر

ويمزج تميم في شعره بين المرأة ومفاتها ومتعته بجمالها ، وبين الموسيقى والغناء ،
فيجمع بين لذة الحس والنظر ولذة السمع والطرب ، ويرى أن الغناء جالب له
السرور :

ليس إلا الغناء يظهر بشي ويقوى على جيش السرور

(١) ديوانه ص ٣٠١ .

(٢) ديوانه ص ١٣٠ .

يا نديمي اُنْخِذْ سِوَايَ فَإِنِّي لَسْتُ أَخِيَّ يَلُونِ مَشَى وَزِيرِ
سِمْأَ إِذَا بَدَأَ بِلَفْظِ رَجِيمِ وَتَرَوَى بِلَحْظِ طَرْفِ سَحُورِ

ويكشف عن متعة السمع ، وما يحدث الغناء من لذة فيقول (١) :

أَلَسْتُ تَرَى سَحَابَ اللَّهِوِيْهِمِى عَلَى اللَّذَاتِ أَمْطَارَ السُّرُورِ
وَرَجَعَ الزَّمَرُ يَشْكُو مَا أَلْفَى إِلَى الْأَوْتَارِ مِنْ أَلَمِ الزَّفِيرِ
وَصَوْتُ الطَّيْلِ بَيْنَهُمَا يَتَأَذَى أَلَا هُبُوا إِلَى شَرْبِ الْكَبِيرِ
فَيَأْلُكُ مِنْ مُشَاهَدَةِ تَجَلَّى بِظَاهِرِ حُسْنِهَا هَمُّ الصُّلُورِ

فالغناء ، والموسيقى بآلاتها بين مزمار وعود ، ويربط وجنك ، وطبل تطهر صدره من عناء الهم .

ويتذكر الحبيب في مجلس الغناء بين الكأس والزهر ، لا كذكرى عترة لعبلة وسط المعركة وبين قتام العجاج حين تلمع فيها السيوف كبارق ثغرها المتبسم ؛ يقول تميم في مجلس أنسه وطربه متذكرا محبوبه :

ذَكَرْتُكَ مَا بَيْنَ كَرِّ الْكُؤُوسِ وَقَدْ أَقْبَلَ اللَّهُوْ مُرْجَى الْعَيْنِ
وَقَدْ جَاوَبَ الزَّمَرُ فِي جَذْبِهِ مَعَ الْبَمِّ تَرْجِيْعَ صَوْتِ الْمُثَانِي
وَجَاوَبَ قُمْرَيْسَةَ فَاجْتِ وَعَالَتْهُمَا نَعَمَاتُ الْقِيَانِ

والزمر ونز العود الرقيق ، وهو أحد الأوتار نغما ، والبم ، وتره الغليظ والشاعر في هذا الحفل الموسيقى الغنائى وسط الطبيعة ، بهج والدنيا كلها فرحة من حوله تتجاوب أغاني القيان مع نغمات العود ، وترانيم أوتاره مع شدة الطير بين أغصان الروضة ، ألا ترى كيف أحس الشاعر في أعماقه بالطرب ، وبأن الحياة كلها من حوله في وحدة حسية ، وسبحة وجدانية يخلق فيها ، بعيدا عن واقعة في أفاق من المتعة والرواء !

ومثله يقول في مقطوعة :

كُتِبَتْ يَا وَاحِدَ الْأَمْلَاقِ وَالْبَشَرِ وَالرَّاحُ لَمْ تُبْقِ لِي لَبًّا وَلَمْ تَدْرِ
وَقَدْ بَدَأَ النَّائِي فِي شَكْوَى صَبَابَتِهِ مُجَاوِبًا لِأَنْبِيِ الطَّيْلِ وَالْوَرِيرِ

(١) ديوانه ص ١٤٧ .

وَنَحْنُ فِي طَرَبٍ مَا مِثْلُهُ طَرَبٌ يَسْتَصْجِبُ اللَّهْوَ فِي مُسْتَقْبَلِ الْعُمُرِ
وَفِي غِنَاءٍ إِذَا حَثَّ أَوَائِلُهُ أَغْنَى التَّنَادِمَى عَنِ الْأَنْوَارِ وَالزَّهْرِ

ويؤله أن يفقد من كان يغنيه ويشجيه ، ويذكر بفقده مجلس غناؤه ومتعته ويرى
في فقده ضياع دنياه ولذته ، ألا يقول في رثاء قينة مغنية (١) :

ذَكَرْتُكَ بِالرِّيحَانِ ذِكْرَةً مُرَدَّدَةً كَادَتْ لَهَا النَّفْسُ تُرْهِقُ
فَلَمَّا تَنَاوَلْنَ الْغِنَاءَ شَوَادِيَا وَاتَّبَعَ مَزْمُومًا مِنَ الضَّرْبِ مُطْلَقُ
تَتَبَعْتُ الْعَيْنَانِ شَخْصَكَ فِيهِمْ فَلَمَّا نَأَى ظَلَّتْ دُمُوعِي تَرَقُّقُ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو فَقَدْ هَمَلْتُ مَاشِكَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ أَلَمَاءُ عَطَشَانُ مُوْتَقُ
كَأَنَّ قَوَادِي مُنَذَّ بِأَنَّ بِهَا الرَّدَى جَنَاحٌ وَهَتْ أَجْرَاؤُهُ فَهُوَ يَخْفِقُ

صورة واقعية شجية ، رسمها الشاعر بكلماته الصادقة يعبر عن فقده لهذه
المغنية التي غيبتها الموت فجأة ، لقد اعتاد التطلع إليها وسط رفيقاتها في جوقة
الغناء ، فيحظى طرفه باستجلاء جمالها ، ويحظى سمعه ، بعذب غنائها وغابت
فتطلع الطرف يبحث عنها في لهفة وقد تردد صوت الغناء وارتفع الضرب وحلجل
اللحن ، فلم نزها العينان ، وأحس الشاعر بالفقد فجرت دموعه وغاب عن
مجلسه ليحس بأن الردى اختطف منه أنسه فاقتص من جناحه المحلق في فضاء
المتعة ، فهو .

والطبيعة مكملة دائما للمرأة والخمر والغناء والموسيقى وكان غرامه بالطبيعة
كغرامه بغيرها مما يحس فيه بأنس اللقاء ، ومتعة الاندماج والتسامى بوجوداته
وأحاسيسه ، يستمع إلى الناعورة تن في حقول القسطاط أو حولها في حلوان وعلى
شاطئ نيل القاهرة ، تلور ويتدفق الماء من أضلاعها فيقول :

وَنَاطِقَةٌ كُلَّمَا حُرِّكَتْ وَلَيْسَتْ بِنَاطِقَةٍ فِي السُّكُونِ
يَمِينُ إِذَا دَارَ دَوْلَابُهَا فَتَطْرِبُ سَامِعَهَا بِالْأَنِينِ
وَتَبْكِي وَلَيْسَتْ بِمَحْزُونَةٍ بِكَاءِ الْمَحَبِّ الْكَثِيبِ الْحَزِينِ
وَتَنْطِقُ بِالصَّوْتِ لَا مِنْ فَمٍ وَتَذِرُفُ بِاللَّمْعِ لَا مِنْ جُفُونِ
كَأَنَّ لَهَا مَيْتًا فِي الثَّرَى فَأَدْمُعُهَا هُمُوعُ كُلِّ حَزِينِ
إِذَا زَمَرْتَ أَطْرَبْتَ نَفْسَهَا فَعَنَّتْ بِمُخْتَلِفَاتِ اللَّحُونِ

(١) ديوانه ص ١٥٠ .

غَنَاءٌ يُرْقِصُ كِيَزَانَهُ
وَتَهَيَّيْ فَوَارِعَ وَ بَرِّهَ
وَيُظْهِرُ فِيهِمْ وَثْبَ الْمُحْجُونِ
وَتَصْعَدُ مِنْهَا مَلَأَ الْعَيْنِ
ويقول فيها مرة أخرى :

ناعورة أُنْتُ أَيْنَ الْهَيَّيْ
أَيْنُهَا صَرَّةٌ تَدِيرُهَا
كَأَنَّمَا الْكِيَزَانُ فِي بَرِّهَا
تَقْدِفُ بِالْمَاءِ إِلَى رَوْضَةٍ
كَأَنَّمَا السَّرُّ بِهَا نِسْوَةٌ
وَيُحْسِبُ الْحَشْحَاشُ مِنْ حَوْلِهَا
وَانْفَتَحَ النَّرْجِسُ عَنْ أَعْيُنِ
وَأَقْحَوَانِ كَثُغُورِ الْمَهَا
وَسُوسِنَ كَالْقَرْصِ لَمَّا بَدَتْ
لَمَّا شَكَّتْ حَرٌّ وَسَوَاسِيهَا
وَدَمَعُهَا مَاءٌ قَوَادِيسِيهَا
هَامٌ مُلُوكٌ فِي نَوَافِيسِيهَا
كَأَنَّمَا رِيَشُ طَوَائِيسِيهَا
قَامَتْ إِلَى قَرَعِ نَوَافِيسِيهَا
أَيْدٍ أَشَارَتْ بِدَائِيسِيهَا
مُضْفَرَّةُ الْأَحْدَاقِ مِنْ يُونِيسِيهَا
مُفْتَرَّةٌ بَعْدَ تَغْيِيسِيهَا
آثَارُهُ فِي لَيْلِ نَامُوسِيهَا

وفي الناعورة يقرأ الشاعر أشياء في صوتها ، ويسبح مع خيالاته مستلهما المعاني وناثما من صدره تَحْيِيَّاتِهِ . والناعورة تسكن وجدان كل مصري فلاح أو من يمر بالحقول ويعيش في طبيعتها ومروجها الخضراء .

والشاعر كثير الخروج إلى المروج والبساتين فسكنت الناعورة وجدانه واستلهمها بعض المعاني ومزج في الناعورة صوت الطرب بالآتين ، أنين الشكوى من الزمن وأنين الشقاء في الهوى ، وتلمس في شعره عن الناعورة هذا الدفق الغريب لأحاسيسه المتعارضة كأنما عقله الباطن ينفذ من بين الكلمات ليعبر عن مواجهته ومواجهته وأفراحه وأتراحه فيمزج الآتين بالطرب ، وينثر ألفاظ الحزن والأسى من بكاء وحزن وكآبة ودمع مع الزمر والطبل وألفاظ الغناء والموت موت الملوك مع اصفرار الأحداق ورقص الكيزان وتفتح النرجس وثغور الأقحوان المبتسم كل هذه الأحاسيس المتعارضة المتضاربة ينفثها في هذا الكلم ويتخذ من الناعورة مادة لنفثاته ، ومعرضاً لمشاعره ومجلى لتجربته النفسية ، وتراه يكرر هذا الشجى الممزوج بالشجن ، والألم الممزوج باللذة ، والحياة الممزوجة بالعدم في حديث عن الشمعة من نفثة شعيرة يقول فيها^(١)

(١) ديوانه ص ٢٥١ .

وَقَاتِقَةٍ ظَلَمَةَ الْجُنْدِي إِذَا نَعَسَ النَّاسُ لَمْ تَنَعَسِ
مُتَوَجِّةٍ فَوْقَ يَا فُوحِهَا بَتَاجٍ مِنَ اللَّهَبِ الْمَشِيشِ
إِذَا أَوْقَدْتَ نَثْرْتَ أَدْمَعًا عَلَيْهِ مِنَ الذَّهَبِ الْأَمْلَسِ
وَإِنْ نَامَ جُلَاسُهَا لَمْ تَنَمْ وَإِنْ جَلَسَ الْعَبْدُ لَمْ تَجْلِسِ

ويقول فيها مرة أخرى :

وصَفْرَاءَ تُكْثِرُ إِيْنَاسَهَا تَعِيشُ إِذَا قَطَعُوا رَأْسَهَا
تُغَازِلُهَا الرِّيحُ فِي مَرِّهَا وَلَكِنْ تُقَطِّعُ أَنْفَاسَهَا
وَلَمْ أَرْ مَنْ قَتَلَتْ نَفْسَهَا سِوَاهَا لَتُسْعِدَ جُلَاسَهَا

ولذة الصيد والطَّرادِ هي من ملاهي الملوك والسَّادة ، منذ الجاهلية الأولى جمعها امرؤ القيس إلى متع الخمر والنساء . كذلك فعل غيره من مرفهى الشعراء بعده على اختلاف العصور ، واتخذوا للطرد وزن الرجز ليتلاءم الإيقاع مع المضمون . ونذكر بهذا طرديات أبي نواس وما جمعه كشاجم في المصايد والمطارد . يقول تميم يصف فرسه في طرده للصيد :

مُسْتَكْمَلُ التَّحْجِيلِ مُسْتَوْفَاهُ
أَدِيمُهُ وَبَطْنُهُ أَشْبَاهُ
مُخَالَفٍ أَسْفَلُهُ أَعْلَاهُ
بُدْهَمَةٍ قَدْ مَلَأَتْ قِرَاهُ (١)
وَانصَبْتُ مِنْهُ أَلْيَتَاهُ
فَهُوَ دُجِّي يَحْمِلُهُ ضَحَاهُ
تَسْبِقُ أَقْصَى لَحْظِهِ خُطَاهُ
لَا يَطَأُ التُّرْبَ وَلَا تَلْقَاهُ
رِجْلَاهُ فِي الْعَدُوِّ وَلَا يَدَاهُ
كَأَنَّهُ يَطِيرُ فِي مَجْرَاهُ
إِذَا دَعَا لَيْثَ الْقَلَابَةِ
أَسْرَعُ لِلشَّيْءِ إِذَا ابْتَعَاهُ

(١) قراء : ظهرو .

مِنْ مِيلِجِ السَّهْمِ لِمُنْتَهَاهُ
 مُرْتَبِطُ الرَّجْلِ بِمَا يَرَاهُ
 بِاللَّفْظِ مُلْتَفًا بِهِ مَعْنَاهُ
 تَحَسُّدٌ مِنْهُ يَكْدُهُ رِجْلَاهُ
 يَسْبِقُ أَخْرَاهُ بِهِ أَوْلَاهُ

وهو وإن كان قد فصل معنى امرئ القيس في وصف فرسه حين قال :
 مَكْرٌ مِقْرٌ مِقْبِلٌ مَدِيرٌ مَعَا كَجُلُودِ صَخْرٍ حَطَّةُ السَّيْلِ مِنْ عِلٍ
 ووصفه بأنه قيد الأوابد ، إلا أن إيقاع الرجز وتفصيلات الحركة السريعة التي
 تتبعها مع أعضاء جواده أرجله وبطنه ، اكتسبت أبيات تميم إيقاع الطرد وثبت فيها
 حيويته الأقبال والادبار وسرعة العدو . ويتصل بهذا الموضوع الصيد حديثه عن
 البازي من طيور القنص حيث يقول (١) :

وَأَشْهَبُ غُلْبُهُ شَبَاهُ
 كُلِّ ذَوَاتِ الرِّيشِ مِنْ عِدَاهُ
 بَاتَ يَهِيْجُ جَوْعَهُ غَدَاهُ
 كَأَنَّ فَصِّي ذَهَبَ عَيْنَاهُ
 يَكَادُ أَنْ يَحْرِقَهُ ذَكَاهُ
 لَوْ طَلَبَ الْكُوكَبَ لَالْتِقَاهُ
 بَيْنَاهُ يَبْغِي جَائِعًا قَرَاهُ
 إِذْ وَقَعَ الْحَبْرُجُ فِي رُوَاهُ (٢)
 وَحَلَّهُ الْقَابِضُ مِنْ يُسْرَاهُ
 وَطَارَ يَهْوِي نَحْوَهُ يَغْشَاهُ
 حَتَّى إِذَا قَارَبَهُ عِلَاهُ
 بِوَقْعَةٍ هَدَّ بِهَا قَوَاهُ
 كَمَا وَهَى مِنْ شَطَنِ رَشَاهُ
 ثُمَّ بَدَأَ وَهُوَ عَلَى أَقْفَاهُ

(١) ديوانه ص ٢١ .

(٢) الحبرج : من طيور الماء .

وَيْلٌ مِنْ فَوَادِهِ حَشَاهُ
مُخَصَّبًا مِنْ دَمِهِ تَرَاهُ

وإذا كان الشاعر قد وصف البازي من طيور الصيد ، وتتبع هذا الطير الجارح يغتال فرائسه من البغاث ، فقط تعاطف مع نوع آخر من الطير اتخذه الشعراء أليفاً ونحيباً ، أعنى الحمام ذلك الوديع النائح ساكن الطلح ، أو القمرى الغرد فى الروض ، ويعرض لهذا الطير فى معرض الذكرى والنسيب والشوق إلى الحبيب كغيره من الشعراء المحبين ، والذكرى تجمع العاشقين ، فالحمامة تبكى الهدبيل النازح .

والشاعر يقول :

وَعَرَّدَ فِي أَعْلَى الْأَرَاكِ حَمَامٌ	أَنَّ نَاحَ قَمَرِيْ بَغْضَنِ بَشَامَةٍ
لَهُ بَيْنَ أَحْنَاءِ الضُّلُوعِ ضِرَامٌ	أَهَاجَ لَكَ التَّدْكَارُ شَوْقًا كَأَنَّمَا
وَهَلْ بَعْدَ تَوْدِيْعِ الْحَبِيبِ مَقَامٌ	تَحْلِيْلِيْ هَلْ بَعْدَ الْفِرَاقِ تَوَاصَلْ
عَلَى الْقَرَبِ مِنِّيْ ، وَالذَّنُوْ حَرَامٌ	دَهْتَنِيْ الثَّوِي حَتَّى كَانَ أَحْيِي
وَأَوْهَى جُمَانِ الدَّمْعِ وَهُوَ سِجَامٌ	وَمِمَّا اسْتَهَامَ الْقَلْبَ وَهُوَ مُصَدِّعٌ
وَتَسَهَّرُ فِيهِ اللَّيْلُ وَهُوَ نَمَامٌ	مُطَوَّقَةٌ وَرَقَاءُ تَنْدُبُ شَجْوَهَا
عَلَى تَوَجُّعِهَا مَشْهُورَةٌ وَغَرَامٌ	تَنُوحُ بِلا دَمْعٍ ، وَلِلْحُزَنِ آيَةٌ
كَأَنَّكَ مِمَّنْ أَسْكُرْتُهُ مُدَامٌ	أَلَا يَا حَمَامَ الْأَيْلِكَ مَا لَكَ وَالْهَآ
وَكَلَّ مُجِبُّ الْفِرَاقِ يُضَامُ	كَلَانَا مُجِبُّ صَدَّعِ الْبَيْنِ شَمْلُهُ

ويغرم الشاعر بمجال الطبيعة ، رياضها ، وأزهارها ، وهو عاشق للزهر يتوسم فيه جمال الخلقة ، وبدع الخالق ، يرى اللينوفر زهر الماء المشوب بزرقة ، والذي يفتتح للشمس بالضحى ، فيشارك الشاعر نشوة الصُّبُوح يقول (١) :

يَقْضِي بِذَلِكَ شَوَاهِدُ اللَّيْنُوفِرِ	فَضَّلَ الصُّبُوحَ عَلَى الْغُبُوقِ مُبِينٌ
زُرْقِي وَحُمْرِي كَاخْتِلَافِ الْجَوْهَرِ	يَبْنُو إِذَا انْبَسَطَ النَّهَارُ بِأَعْيُنِ
بُورُودِهِ خَوْفِ الرِّقَنِ الْمُبْصِرِ	وَيُغْوَسُ تَحْتَ الْمَاءِ إِنْ هَمَّ الدُّجَى

وإحساسٌ تقيم بالزمان ، وأنه ينقضى وينقضى معه الشباب ومجتمع اللذات

(١) ديوانه ٣٩٧ .

(١) ديوانه ص ١٧١ .

إحساس عميق ، يقتحم عليه لذاته ، وينفص متعته بنجمال الحياة لأن خيال الموت يراوده ، وهو بين الخوف منه والتعلق بأسباب الحياة في صراح محموم . يقول معللاً شدة إقباله على ملاهيته من زينة الدنيا ومفاتها (١) :

يا لائمي في أن خلعت العذار	ما ترك الحب لقلبي العذار
الصبر أولى غير أن الهوى	أحلاه ما لم يك فيه اضطراب
كم ولهي فيه وكم عبرى	ومحرق من غير نار بنار
ولو تأملت وجدت الصبا	أخف من حلم ثقل الوقار
هل بعد طي العمر إلا الليلى	وهل وراء الشيب إلا البوار
عصر شباب المرء ضيف له	يمضى وأيام التصابي قصار
فخذ من اللذة من قبل أن	ينأى بلذاتك بعد المزار

وبعد فقد عاش تميم حياته طولا وعرضا ، واتهب اللذات انتهابا ، وكأنه بهذا الصنيع يطرد هموما تطارده ، ويريد أن ينسى ثقل آنيته ، وقصر أيام العمر مهما طال ، ومحدثنا المقرئ عن حال الأمير الشاعر في موكب له ببركة الحبش أيام الأعياد فيقول (٢) : « إذا جاء الليل خرج الأمير تميم بن المعز في مائتي فارس بين عبيده بالعسس على المتنزهين بالبركة بالليل أيام الأعياد إلى أن يقضوا من اللهو والنزهة أربهم وينصرفوا فيسكرون وينامون كما ينام الانسان في بيته ، ولا يضيع لأحد منهم ما قيمته حبة واحدة .

ويركب الأمير في عشاري ويتبعه أربعة زوارق مملوءة فاكهة وطعاما وشرابا ، فإن كانت الليالى مقمرة وإلا معه من الشموع ما يعيد الليل نهارا ، فإذا مر على طائفة ، واستحسن من غنائهم صوتا أمرهم بإعادته ، وسألهم عما عز عليهم فإمر لهم به ، ويأمر لمن يغنى لهم وينتقل منهم إلى غيرهم بمثل هذا الفعل عامة ليلة ، ثم ينصرف إلى قصوره وبساتينه التي على هذه البركة ، فلا يزال على هذه الحال حتى تنقضى أيام الأعياد ويفرق الناس » .

(١) ديوانه ص ٢١٧ .

(٢) خطب المغربي ١٥٤/٢ .

تقيم وهموم الحياة والنفس :

في شعر تميم نلتقي أحيانا بقصائد ذات نغم حزين ، ينفت فيها همومه ، ولعل
أحزان الشيعة التقليدية ، تختلط بأحزانه هو فتخرج هذه الآيات المليئة
بالشجن ، ومنها هذا الرثاء لآل البيت :

أَعَاذِلْ لِي مِنْ فَسْحَةِ الصَّدْرِ مَذْهَبٌ	وَاللَّهُوْ غَيْرِي مَأْلَفٌ وَمَعَادُ
ثَوْتُ لِي أَسْلَافٌ كِرَامٌ يَكْرِبِلَا	هُمْ لَشُغُورِ الْمُسْلِمِينَ سِدَادُ
أَصَابَتْهُمْ مِنْ عَيْدِ شَمْسٍ عَدَاوَةٌ	وَعَاجَلَهُمْ بِالنَّكَثِينَ حَصَادُ
فَكَيْفَ يَلِدُ الْعَيْشُ صَفْوًا وَقَدْ سَطَا	وَجَارَ عَلَى آلِ النَّبِيِّ زِيَادُ
بَثَارَاتٍ بَذَرَ طَالِبُوهُمْ وَمَكَّةُ	وَكَادُوهُمْ وَالْحَقُّ لَيْسَ يُكَادُ
فَحُكِمَتْ الْأَسْيَافُ فِيهِمْ وَسُلْطَتْ	عَلَيْهِمْ رِمَاحٌ لِلنَّفَاقِ حِدَادُ
فَكَمْ كَرِيهَةٌ فِي كَرْبَلَاءَ شَدِيدَةٍ	دَاهَمَتْ بِهَا لِلْكَائِدِينَ كِيَادُ
وَكَمْ بَأْعَالَى كَرْبَلَاءَ خَفَائِرُ	بِهَا جُثَّتِ الْأَبْرَارُ لَيْسَ تُعَادُ
بِهَا مِنْ بَنِي الزُّهْرَاءِ كُلِّ سَمِيعٍ	جَوَادٍ إِذَا أَعْيَى الْأَتَامُ جَوَادُ
مَعْفَرَةٌ فِي ذَلِكَ التُّرْبِ مِنْهُمْ	وَجُودٌ بِهَا كَانَ التَّجَاحُ يُفَادُ
فَأَلْهَفَنِي عَلَى قَتْلِ الْجَبِينِ وَمُسْلِمٍ	وَحَزَى لِمَنْ عَادَاهُمَا وَبِعَادُ
أَلَا كَيْدٌ تَفْنَى عَلَيْهِمْ صَبَابَةٌ	فَتَقَطَّرَ حُزْنًا أَوْ يَذُوبُ قَوَادُ
أَلَا مُقَلَّةٌ تَهْجِي أَلَا أَذِنٌ تَبْعِي	أَكَلِ قُلُوبِ الْعَالَمِينَ جَمَادُ ١٩

وفي هذا المجال من تحسره على مقتل الطالبين من آبائه يعرض لزم العباسيين
فيقول موجها إليهم الإتهام بإغتصاب الخلافة :

زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ لَنَا غَضَبًا	قَمْتُمْ ، وَبِالزَّعْمِ يَخْطَلِكُمْ وَالِدَعَا
لَا نَدْعِي مَا لَيْسَ يَعْرِفُهُ الْوَرَى	مِنَّا إِذَا كَذَبَ الْمَفَاجِرُ وَادَّعَى
وَإِذَا تَصَنَّعَ لِلْعَلَا مُتَصَنِّعٌ	لَمْ نَأْتِ أَفْعَالُ الْجَبِيلِ تَصَنُّعَا
شَرَفَ نَبِيُّنَا لَنَا الْبَتُولُ وَيَعْلَاهَا	وَأَبْنَاؤُهَا ، حَتَّى رَسَا وَتَمَتَّعَا
وَاسْتَوْدَعُوهُ بَعْدَهُمْ أَبْنَاءَهُمْ	فَبَنَوْا عَلَيْهِ وَشَيَّلُوا الْمُسْتَوْدَعَا
نَحْنُ الَّذِينَ بَنَى الْكِتَابُ مُنْزَلٌ	وَبِنَا يَجِبُ اللَّهُ دَعْوَةً مِنْ دَعَا

ويقول معرضا بالأموية (١) :

(١) ديوانه ص ٤٥٩ .

إني وآبائي وقدر	في والكرام الأحمديّة
ذاقوا الردى وتجرّموا	بيد الدّعوى ابن الدّعية
بيد العوى ابن العوى	ابن العوى ابن العوى
الناقضين الناكثين	على الشريعة والبريّة
البائعين صوابهم	في كلّ أمر بالخطية

ولهموم الشاعر أسباب أخرى غير ما زرع في وجدانه بإعتباره علويًا فاطميًا من
أحزان مقاتل العلويين واغتصاب الأمويين والعباسيين لحقهم ، فنراه يذم الزمان ،
بادئًا الحديث بمناجاة الحمام ، فيقول :

أقول لسرب من حمام عرض لي	يغرّدن من فوق العُصون ويندبن
ويسكنن في حضراء ناعمة الربا	أنيقة روض التبت ، آنسة المغنى
بوارح لا يحشّين بيتاً ولا نوى	روائح لا يعرفن هماً ولا حزناً
فقلت هنيئاً للحمام أمائه	وإن كاثت الأيام لم تُعطيني أمناً
أسرب الحمام لو لقيتُ بعض ما	الاقى لأصبحن أول من يضننى
ولو قد علمتُن الذى أنا عالم	لما نأح فيكم هاتِف ، لا ولا غنى
ومن جرب الأيام تجرّبتى لها	درى أنها ليست تدوم على معنى
فحسبك ما أهجوك يا زمنى به	من الفعل أنى لم أحسن بك الظننا
ذمّناك يا صرف الحوادث فانصبر	وسؤناك يا صرف الزمان فخذ منّا

ويشكو هذا الظما النفسى ، فيقول في قصيدة يمدح أخاه العزيز تزاراً :

خليلى لى ظمأ أراه	يُرده عِلّ من حيا
فلا تستشيماً بروق السحاب	فأجدرى شيم بريق الظبا
أعينا أنا لكما لم يث	على طول مسراه يشكو الرجا
ولم ينشرح قلبه من أسى	ولم تحل أحشاؤه من جوى

كذلك وفاءه وصافى الصدق في علاقاته ، يقول (١) :

لا شىء أحسن من خليلي غبطة	يتراضعان لبان كلّ وفاء
هذا يتاجى ذا هوى وتحافظاً	أبدأ ولم يستمتعا بلفاء

(١) ديوانه ص ٣١ .

ويقول في المعنى نفسه :

لا أدعى الفضل قبلَ يشهد لي به أداني الدنا وأقصاها
ولا أرى لي على الصديق يداً تُفسد إنعامها بنعمائها
من اصطفاني بوده فله عندي يد كالجبال صغرها

وشعره المتبادل مع صديقه أبي عبد الله حسين بن إبراهيم الشريف الرّسى يكشف من صداقة وثيقة ، تبادل فيها الصديقان أجمل مشاعر المحبة والوفاء^(١) .

صنعتة الشعرية :

يبدو من شعره أنه شاعر موهوب ، أو هو شاعر بالفطرة ، يحس الجمال ويعيشه بجوارحه ، ويتعاطف مع مجاليه في كل مظهر ، في الإنسان والحيوان والطير والنبات والجماد ، ويقرأ قسماته في الشكل واللون والصوت والحركة . أحس الشاعر بموهبته ، فاقبل على الشعر ، ولم يبخل عليه الشعر بوارداته ، وأفانينه بل أعطاه ، ما فرغ له .

لاحظ النقاد في صنعتة الشعرية أشياء تتصل باللفظ ، ولم يكن متكلفاً لكلماته ، بل ساقها كيفما خطرت على باله ، لم يعن نفسه في البحث عن كلمة غريبة ، بل جاءت كلماته سهلة سلسلة ، قد تحس بأن الشاعر أحياناً لم يراجع نفسه فيها بل تركها تنفذ وتأخذ مكانها من نظمه ، فهو ليس من الشعراء الصناع المتكلفين ، ولا النظاميين المحترفين .

وقد اتهمه بعض حساده ، والحاquدين بأنه لا يصنع شعره بنفسه ، بل هناك من يرفده ، وهذه إفريّة يرمى بها كل موهوب ، وقد وهب الأمير حظين في الحياة حظ الأمانة وعيش الثراء والنعمة ، والتمتع بكل أسباب النعيم ، وحظ الشعر فكان هدفاً لحسد الحساد وحقد الحاقدين .

ونجد في شعره رداً على هؤلاء ، ونفياً لاتهمهم إياه بالاعتماد على غيره . يقول :

أرى أناساً ساءَ بي ظنُّهم في كلّ ما قلت من الشعرِ
فقد تطاطا بهم علمُهم قاسوا بأقدارهم قدرِي

(١) راجع ذلك فيما يلي من شعر الحسين الرّسى .

قالوا : سواء صانع كل ما
لو فهموا أو عقلوا لاستحووا
قيسوا بشعري شيعهم تعلموا
من بطل الحق هجا نفسه
فناظروني فيه أو فاشروا
أولا فقولوا : حسد قاتل
يأتى فى السر والجهر
أن يجعلوا المريح كالبدري
تضائق النهر عن البحر
بجهله من حيث لا يدري
شعري أن أنكرتموا أمري
مستمكن فى القلب والصدر

ويقول أحد النقاد ممن درس شعره^(١) : « ولا حاجة إلى القول بأن اهتمام الشاعر تميم بن المعز كان يشاركه فى عمل شعره إنما هو اهتمام يحتاج إلى دليل وها هو ذا ديوان تميم بن المعز كله على ضخامته بين أيدينا نقرأه مرة ومرة ثم نبدي ونعيد النظر فيه ، ثم نتقل من صفحة إلى صفحة ومن قطعة إلى قطعة ومن قصيدة مطولة إلى أخرى ، فنجد النفس فيها مستويا لا دخل لنفس آخر فيه . »

ولعبت العصبية السياسية والدينية دورا فى التقليل من شأن الشاعر وشعره بل وفى إهماله ، وإهمال أخباره وأحواله ، مع إفاضتهم فى أخبار غيره ممن يقولون عنه شائنا ومكانة اجتماعية وفنية ، فلم يعره المؤرخون والمترجمون لحياة الأدباء من بعده الأهتمام الذى يستحقه لأنهم كانوا من أهل السنة ، فقد غلب هذا المذهب على مصر واضطهد علماءه كل من انتمى إلى الدولة الفاطمية أو تشيع من الشعراء والأدباء والعلماء ، وكان الإنكار والتجاهل والتخامل ديدن علماء الدولة الأيوبية التى أعقبت الدولة الفاطمية على مصر ، وجعلت همها نحو كل أثر لتلك الدولة إلا من عصم ربه من هذا التعصب من بعض الأدباء كابن سعيد المغربى الذى أشار إلى تميم فى كتاب المغرب الجزء الخاص بمصر أكثر من مرة ، ونوه ببعض شعره فى كتاب « عنوان المرقصات والمطربات » ، فاختار من شعره المرقص قوله متغزلا :

أطلع الحُسن من جبينك شمسا
فكان العذار خاف على الورد
فوق ورد من وجنتك أطلا
جفاقا فمد بالشعر ظلا
ذلك أورد له صاحب الدمية قوله :

(١) محمد عبد الغنى حسن فى كتابه الأمير الشاعر تميم بن المعز من منشورات دار الرفاعى بالرياض .

وباليلة بات فيها البدر مُعتَقِي
وأمست الشمس لي من بعضي جَلَامِي
وبت مُستَغْنِيَاً بالتَّغْرِ عن بَرْدِ
وبالحُودِ عَنْ التَّفَاحِ وَالْأَسِي
كما أورد بعضا من أبياته التَّوْنِيَةِ التي حاكى فيها عبد الله بن قيس الرقيات
وهي :

أَسْرَبَ مَهًا عَنْ أُمِّ سِرْبٍ جَنَّةِ
حَكِيَّتُهُنَّ وَلَسْتُ نَ هُنَّةِ
أَلْتَنُّ أَنْجُمُ ذَا الْجُرِّ أُمِّ
بُرُوجِ النُّجُومِ جَلَابِيْنِه
ولم أرغيدا سواكن مسن
فاشبهن في لينهن الأعنَّة

ويمكن من شعره أن ندرك حفظه لشعر كثير من الشعراء المعروفين ، وبحاول
عامدا أو غير عامد أن يستعين بصياغتهم ، أو قد تفلت على لسانه قوالب تعبيرية
لهم ، وتحس أحيانا في بعض أوزانه أنه وضع نموذجا لقصيدة شاعر بعينه أمامه
فاقتدى به أو تأثر بأسلوبه كهذه الأبيات التي اشرت إليها معتمدا قصيدة لابن
قيس الرقيات يقول فيها :

بَكَرْتُ عَلَى عَوَازِلِ يَلْحِيْتَنِي وَالْوُوهْنُ
وإن لم يماثله وزنا بل قافية .

وعارض داعي الدعاة تميما على الوزن نفسه ، كما ركبهُ أيضا أبو العلاء ، في
قوله من اللزوميات :

لَأَمْوَاهِ الشَّيْبَةِ كَيْفَ غَضْنَةُ
وَرُوضَاتِ الصَّبَا كَالْعَيْسِ إِضْنَةُ
وكا اقتدى بالمتنبي في مدحه العزيز بالله تزار إذ قال (١) :

مَا قَالَ أَوْهُ لَفَقْدِهِ وَاهَا
كُمُسْتَرِيحِ الْقَوْلِ أَوَاهَا
تَبْرُمُ النَّفْسِ مِنْ بَلَابِلِهَا
يُفْسِدُ إِقْرَارَهَا وَدَعْوَاهَا

وهما صياغة مماثلة لصياغة المتنبي في قوله : « أوه بدليل من قولتي واهاه » ، وكا
جاء في شعره يمدح أخاه العزيز كذلك :

أَرَى أَنَا سَا وَلَكِنْ جَلَّهْمُ نَعَمَ
كَثْرَ قَلِيلٍ وَمَوْجُودُونَ قَدْ عُدُّوْا

(١) ديوانه ص ٣٤ .

من قول المتنبي ووزنه :

أرى أناساً ومحصول على غنم

ونستطيع القول بأنه حين نظم هذه القصيدة كان مستحضراً في ذهنه قصيدة المتنبي الميمية هذه .

وكا يستعين بالشعر القديم ، فهو متأثر كذلك بأسلوب القرآن لفظاً وصياغة كقوله في ارجوزه مفتخراً بنسبه للنبي ﷺ (١) :

أنا ابن من شَفَعَ يومَ المحْشَرِ
وابنُ الذي خُصَّ بنهرِ الكَوْثَرِ
وابنُ المعالي والفَخارِ الأشهرِ

ويقول مادحا العزيز (٢) :

يا حُجَّةَ الله التي أشرقتَ فينا ويا صاحب كنزِ الجِدارِ

يشير إلى قوله تعالى في سورة الكهف « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما » (٣) ، ويطلق الجدار في التأويل الإسماعيلي على الدعوة ، وكنز الجدار على الإمامة ومنه قوله مادحا :

يكفني عدوك أن الله يلعبه	وأنه لا يرى إلا على حنرٍ
وإن كلَّ قوادٍ عنه منقبضٍ	وكل قلب له أقسى من الحجرِ
جئت الخلاف لما أن دعيتك كما	واقى لميقاته موسى على قدرِ
كالأرض جاد عليها الغيث منهجلاً	فزانها بضروب الرّوض والزهرِ
ما أنت دون العالمين نبوي	روح من القدس في جسم من البشرِ
نور لطيف تناهى فيك جوهره	تناهياً حاز جو الشمس والقمرِ
معنى من العلة الأولى التي سبقت	تخلق الهيكل ويسط الأرض والمدبرِ

قوله معنى من العلة الأولى يشير إلى مثل ومثوله العقل الكلي أو المبدع الأول الذي سماه هنا العلة الأولى ، وهذه كلها معانٍ من عقائد الإسماعيلية وبهنا هنا

(١) ديوانه ص ٢٤٠ .

(٢) ديوانه ص ٢١٩ .

(٣) سورة الكهف آية ٢٢ .

توظيفه لبعض عبارات القرآن الكريم في سياق معانيه التي مدح بها الخليفة كقوله : « كما وافى بميقاته موسى على قدر » وقوله روح من القدس وقد يستعمل مصطلح العقائد والمثل كقوله : (١)

تَشِيْعُ الحُسْنُ فِيهِ إِذْ أَلَمَّ بِهِ وَقَلْبُهُ نَاصِيصِي لَيْسَ يُقْتَفَرُ (٢)

ويستخدم في بعض الأحيان من قاموس الشعر العربي القديم ألفاظا لأسماء الأماكن والنبات والحيوان التي كثر دورانها فيه كقوله : (٣)

رَبْعٌ لَأَسْمَاءَ يَرْبِعُ دَارٍ بَيْنَ نَقَا الصَّمَانِ فَالضَّمَارِ (٤)
تَابَّدَتْ إِلَّا مِنَ الْإِقْفَارِ وَمِنْ شَجِيحٍ فِي الثَّرَى مَوَارٍ (٥)
وَشَطَرٍ تُؤَيِّ دَارِسِ الْأَثَارِ كَأَنَّهُ مُقْسَمُ السُّورِ
أَخْنَى عَلَيْهَا كُلِّ غَادٍ سَارٍ وَإِنِّي الرِّيَابِ شَاسِجِ الْأَقْطَارِ (٦)

فهذه الأبيات من أرجوزة بدوية الطابع ، جاهلية البناء واللفظ والأخيلة والصور يقول فيها واصفا السحاب والمطر :

وَاهِي الْكَلَى مُنْفَتِحِي الْأَزْزَارِ كَانَ لَمَعَ بَرْقِهِ الْمُتَارِ
يَفْتَرُّ مِثْلَ أَوَارٍ الثَّارِ أَوْ مُتَنَضِي سَيْفًا مِنَ الثُّنَارِ
أَوْ لَاعِبٍ فِي الْأَفْقِ بِالشَّرَارِ يَكَادُ أَنْ يَذْهَبَ بِالْأَبْصَارِ
حَتَّى إِذَا أَرْنَحَى عَلَى الْقِفَارِ هِيدْبُهُ لَيْلًا بَلَا إِنْفَجَارِ
وَكَحْلٍ الْجَوِّ بِمِثْلِ الْقَارِ وَقَامَ فِيهِ الرَّعْدُ كَالْمِزْمَارِ
غَنَتْ لَهُ الرِّيحُ بَلَا أَوْتَارِ مَا ظَلَّ فِي رَفِيعٍ وَفِي انْجِدَارِ

ويخلو له أحيانا في مثل هذا الرجز البدوي أن يمتن بعض الرجاز المعروفين من أمثال رؤية والعجاج كقوله (٧) :

(١) ديوانه ص ١٣٢ .

(٢) والناصبة عند الشيعة هم أهل السنة لأنهم نصبوا خليفة لهم من عند أنفسهم وتركوا صاحب الحق الشرعي وهو علي بن أبي طالب في رأيهم .

(٣) ديوانه ص ١٧٥ .

(٤) القمان والضمار مواضع بالجزيرة العربية .

(٥) الشجيج الورد .

(٦) الرياب السحاب .

(٧) ديوانه ص ١٨٠ .

وصامت أخو بَعْدَ الفَرْقِدِ مشتبِه الأعلام جَهَنَّمُ المَشْهَدِ
مَرَّتْ الرِّبَا عَارِي العَرَاءِ فَدَفِدِ يَحَارُ فِيهِ كُلُّ هَادٍ مُهْتَدِ
صَلَدَ السَّابِرَاتِ صَلِيبَ الْجَلَمِدِ يُمْرِضُ فِيهِ الرِّيحُ بَعْدَ الْمُقَصِدِ
والسبارت جمع سبروت وهو القفر لا نبات له .

ألا تَرَى كيف تَبْدَى تَمِيمٌ وخَلَعٌ عَنْ نَفْسِهِ ثَوْبُ الحَضَارَةِ .
وأَراجيز تَمِيمِ البَدْوِيَّةُ تَتَفَرَّدُ وحدها عَنْ قِصَائِدِهِ ولها خِصَائِصُهَا الفَنِيَّةُ المُمَيِّزَةُ .
وأَمَّا مَعَانِيهِ فَكثِيرًا مَا تَلْبِسُ ثِيَابَ القَدِيمِ ، أَوْ قُلْ هِيَ الصُّورُ التَّقْلِيدِيَّةُ للمَعَانِي
وإن كَانَ يَدْخُلُ عَلَيْهَا بَعْضُ التَّجْدِيدِ مِنْ قَامُوسِ المُحَدِّثِينَ والمُولَدِينَ .
فَمِنْ تَشْبِيهِهِ لِلرِّقِّ بِالسَّيْفِ :

يَلُوحُ وَيَخْبُو فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهُ سَيُوفٌ بِأَرْجَاءِ السَّمَاءِ تَقَلِّبُ
وهَذَا يَذْكُرُ بَيْتَ الشَّعْرِ القَدِيمِ :
يَبْدُو وَتُضْمِرُهُ التَّلَاعُ كَأَنَّهُ سَيْفٌ عَلَى شَرْفٍ يَسْلُ وَيَغْمِدُ
وكذلك مَعَانِي ذُو الرِّمَّةِ فِي تَعْبِيرِهِ عَنْ سُلُوكِهِ اللَّيْلِ فِي الصَّحْرَاءِ وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ
وَسَيْفُهُ يَقُولُ (١) :

وَلَيْلَةٌ أُسْرِيتُ فِيهَا وَلَا بَدْرٌ يَنْتِيرُ الْأَرْضَ إِلَّا سَرَارُ
كَالْمَقْلَةِ الدَّعْجَاءُ زَنْجِيَّةُ كَافِرَةٌ لَمَعَ نَجْمُ المِدَارِ
وَصَاحِبِي ذُو رَوْنَقٍ صَارِمِ مَدْرَجُ المَتْنَيْنِ مَاضِي الغَرَارِ
أُنْحَفُ مِنْ ضَعْفِ نَسِيمِ الصَّبَا حَلَا ، وَأَمْضَى مِنْ ظِلِّ الأَحْوَارِ
حَتَّى طَرَقَتْ الحَيَى مِنْ وَائِلِ وَالجَوِّ مَكْحُولِ النَّوَاحِي بِقَارِ
وَالْقَوْمِ مِنْ سَوْرِهِ كَأْسُ الكَرَى كَأَنَّمَا يَهْمَلُونَا بِصَرْفِ العَقَارِ
لَكِنِ الشَّاعِرُ هُنَا يَمْزُجُ مَا أَخَذَهُ مِنْ مَعْنَى ذِي الرِّمَّةِ بِأَخِيلَةَ جَدِيدَةٍ مِنْ عِنْدِهِ
فَهُوَ يَكْسُوهُ ثِيَابًا جَدِيدَةً فَضَّلَا عَنْ تَفْصِيلِهِ وَتَوَلَّيَهُ .

وَمِنْ صُورِهِ التَّشْبِيهِيَّةِ الَّتِي احْتَذَى فِيهَا المُحَدِّثِينَ قَوْلُهُ يَصِفُ الرُّوضُ غَبَّ
المَطَرِ (٢) :

(١) ديوانه ص ٢١٧ .

(٢) ديوانه ص ٣٠٤ .

أما ترى الرعد بكى واشتكى
فاشرب على غيم كصبغ الدجى
والبرق قد أومض فاستضحكا
أضحك وجه الأرض لما بكى

اعتمد فيه قول الشاعر العباسي :

كل يوم بأقحوان جديد
تضحك الأرض من بكاء السماء
وعلى أن بعض معانيه الغزلية تجرى كذلك في صياغات القدماء وأساليهم
المعروفة من مثل قوله :

إن الطعائن يوم رحلة عالم
أبرزن من خلل الستور محاجرا
ملكن كل حشى لكل غرام
مكحولة بملاحة وسقام
واردن تسليما وخفن مراقبا
وسمن عن كالدر ألس أشنب
وسفرن عن كالشمس تحت ظلام
حتى يقول :

لو كنت أقضى بالتناسخ في الورى
ولا نغماسه في لذة النساء والخمر تراه يشفق منها بعض تعبيراته ويشفق
استعاراته ، من مثل قوله :

كأن برد نسيم الغيم حين بدا
بردار تشاف حبيب زار في السحر
ويغرب أحيانا في خيالاته وصوره فيصور خصلة الشعر مضريا وتفتح الخد
كرة ، فيقول :

كأنما صولجان عارضيه
في الخد يهوى لضرب تقاحه
وتكثر صورته الجديدة في موضوعاته الحضرية ، في خمرياته ، وغزلياته ،
وروضياته .

يقول ذاكرة مجلس شراب وسط روضة غناء :

شرينا على نوح المطوقة الورق
معتقة أفنى الزمان وجودها
وأردية الروض المفوفة البلق
فجاءت كفوت اللحظ أورقة العشق
كأن السحاب الغرأصبحن أكؤسا
لنا ، وكأن الراح فيها سنا البرق

فبتنا نحث الكأس حثاً وإننا لنشربها بالحث صرفاً، ونستسقى
إلى أن رأيتُ النجم وهو مغرب وأقبلن رايات الصباح من الشرق

ويصف الصبح مرة أخرى وهو يذوب على الهواء ، فيقول :

والصبح قد ذاب على الهواء كالثلج أو كالفضة البيضاء

وفي مجالس الخمر والطعام صورٌ شعرية لتلك المجالس ، يفيض عليها من خياله
ضروباً من التعبيرات الاستعارية ، والتشبيهات الغريبة كأن يصف مجلساً له ويطلب
إلى الساق أو النديم أن يسقيه في وزن موافق وقافية بائية ساكنة ملائمة في إيقاعها
لصخب المجلس . يقول (١) :

فقم إلى الراح فشب	بالماء منها ما صلب
وسقني بنت العنب	واقضي من اللهو الأرب
أما ترى العود اصطخب	وقد مشى الزمر خبيب
والطبل يحبو ويشب	والراح ترمى بالحبيب
تدور في غير قطب	تقتل سكرًا من شرب
إن ترم ندمانا تصب	فعقله لها سكب
لكن يعود عن كتب	فاشرب وثب من ذى النوب
ما لأن واترك ما صعب	وعد عن ليت ورب
فالدهر قدما ذو شغب	فاقطع لياليه طرب
فكم نأى ما قد قرب	وارتد مرا ما عذب
وتعاد بالأمن الرهب	والهم عجز وتعب

فهذه الباء الساكنة مع المجزوء الدافق لهذا البحر الذى اختار لايقاعه يماثل
صوت الطبل ، وتردد ضرباته ، في صرخة وعريذته .

ويصف لنا مجلساً من مجالس العزيز بالله نزار غنى بأصناف الطعام والفاكهة
والزهر فيقول :

ومجلس قد حاز من حسنه	مثل الذى حاز من المجد
يضحكك للتفاح نارنجيه	ويغمر النرجس للورد

(١) ديوانه ص ٧٣ .

وألبس النارج ما بينها صفرة من عذب بالصيّد
وانتصب الليمون من حوله مثل انتصاب النهد للنهد

وفى صورة للطبيعة من رياض وبساتين يصور النرجس صورة خيالية فيقول ومن حوله النسر والآس :

إذا رنا نرجسك المشتبه بأعين فبهن إطراق
كأنما فاجأها كاشح بكل ما تكره سباق
فابيض منها لمناجاته محاجر واصفر أحداق
وابتسم النسر من حوله فهو صقيل الثغر براق
واستأس الآس من الملتقى فهو من الرعدة خفاق

وفى صورة الخيالية للسحاب وقد انقشع فأطلت الشمس من ورائه لتلقى بأشعتها على الروض ثم تعود فتختفى (١) :

أو ما ترى شمس النهار ودونها من مستهل الغيم ستر مسجف
ينجاب عنها تارة فيبينها وتغيب طورا في دجاء فتكسف
فكأنما لبست قباء أزرقا أو مد من خز عليها مطرف
وبدا لنشر الروض من بعد الندى ريح كريخ المسك بل هي أشرف
ورد حكى خجل الخدود ونرجس يحكى العيون بأعين لا تطرف
فعيون ذاك بعسجد مكحولة وخلود ذا من عديم تغلف

فهو ينفق فى صورة من ما عون بيته كما كان حال ابن المعتز ، فأدواته من الخز والمسجد وما إليها .

ومن غرائب خيالاته فى التشبيهات المفردة قوله يصف السماء ليلا والنجوم تتخللها :

وكان الدجى غدائر شعر وكان النجوم فيه مدارى
وهى صورة غريبة فى تركيبها ، وإن كانت جزئياتها مطروقة ، فتشبيه الليل بالشعر أو الشعر بالليل جار فى كلام الشعراء ، لكن جعل النجوم كالمدارى تتخلل ظلام الليل أو سواد السماء ، فهذا هو الخيال الغريب .

(١) ديوانه ص ٢٢٢ .

كذلك تعبيره عن زوال الليل واشراق الصباح بنوره وهم في سكرة من كؤوس
الخمر :

لم نزل فلهم الكؤوس إلى أن دفن الليل في فؤاد النهار

مرأى خيال غريب في قوله : (دفن الليل في فؤاد النهار) !

وصوره كما قلنا مأخوذة من عالمه الذى يعيش فيه ، عالم القصور بما تحوى من
فاخر الرياش وأواني الذهب والفضة ، والحلى وثياب الخز والمطارف والطرز ومن
الجواري الحسنان وصور الغلمان والعبيد من الروم والسودان ، ومن البساتين
العامرة بألوان الزهور والثمار والمياه الجارية .

كما أخذها من مختزنه الثقافي ، من صور الشعر القديم ، ومن مختزنه التاريخي
والعقيدى من سير الأسلاف ، وأحداث التاريخ ، وما اتصل منه بالأحداث التى
لحقت بأئمة الشيعة والعلويين ، ألا تراه يوظف مقتل أئمتهم في قوله متغزلا (١) :

لا تمكن لحظ عينيك من قتلى فما اللحظ فيه بالمغدور

لا تكن للنبي فيه خصيما عند رب النبي يوم النشور

فما أنه أحد أبناء الحسين حفيد النبي ﷺ ، فإن قتله يغضبه ، فيكون
خصيما يوم الحشر فلا يشفع له حين يشفع لأمة .

بناء القصيدة :

والقصيدة عند تميم عامة يتردد في بنائها بين القديم والحديث ويأخذ نفسه
أحيانا بنهج شعراء العباسيين في القرن الثالث ، ففعلت من إसार القديم حين يخلو
لأحاسيس الذاتية ، ويأدر لذاته من خمر وغزل غير رسمى في مقدمات قصائده .
وذكرنا أنه يبنى قصائده شعرا على أوزان الخليل المعروفة ، وإن كانت تروج عنده
بحور بعينها يكثر من استخدامها ، كما يكثر كالمحدثين من مجزوءات البحور .

وله بالرجز ولع خاص ، فهو غير قليل في ديوانه ، يمكن كما أشرنا أن يفرد ،
ويصنع به صنيع أبى نواس ، يستخدمه في طردياته ، وهو لائق بها إيقاعا ويصف
رحلات الصيد ، والخيال والبازى من طيور القنص .

(١) ديوانه ص ٢٢٢ .

رحلات الصيد ، والخيول والبازي من طيور القنصر ، كما يركبه أحياناً في وصف
محاسن اللهور .

وتراكيبه الشعرية يعترضها الوهن أحياناً ، وتعوزه القافية المتمكنة فيأتي بأخرى
قريبة تحس بقلقها في مواضعها ، فهو على سبيل المثال يصف جواده بالسرعة
فيقول :

يسابق البرق المثار بخطوه ويزيد فيه على الصبا والشمال

فتحس هنا بأن القافية غير موفقة في موضعها ، فالمعنى يقتضى قافية أخرى ،
فهو يريد أن يصف سرعة الجواد بسرعة الريح ، وريح الصبا ليست ريحا قوية ، بل
هي ريح رقيقة حبيبة لدى العشاق لأنها تحمل روائح الأحبة مع عطر رياض نجد ،
وتترانها بالشمال غير موفق من الشاعر ، فالشمال ريح باردة ، تلقى بيدها
يردها ، وتقذف وجوه الغادين بحاصبها .

ونثر في هذه القصيدة نفسها ببعض أبيات مختلفة التركيب كقوله :

فكأنما لبس الخدود ولاح في جلد بريعان الضحى متسرل
تغفى وراء قذاله من طوله في السرج فارسه عن المستقبل

فضلا عما في البيتين من تهافت المعنى .

وترى أن القافية أقحمت على بيته الذي يقول فيه :

وبدا لنشر الروض من بعد الندى ريح كريح المسك بل هو أشرف

فضلا عما تحسه من هلهلة في النسيج .

وقد يلجأ تميم في بناء أبياته إلى الضرورة ، من تغيير في بناء اللفظ أو تحريك
ساكن ، وتغيير لإعرابه ، أو لجوء إلى بنية شاذة ، ولفظ غريب وما إلى ذلك من
ضرورات التي يلجأ إليها الشعراء لمواءمة الوزن ، والشاعر الذي يكثر من الضرورة
غير متمكن من الصنعة ، ولا يملك زمام لفته .

ويستخدم الشاعر البديع من جناس وطباق ومزاوجة في نسيج شعره بقليل ،
ولا يسرف فيه إسراف غيره من المحدثين العباسيين ، كما يستخدم في خيالاته
تشبيه والاستعارة ، ويستعين بالتلميح والإشارة ليطلق كلامه ما يوحى به من

مختزن المعاني والصور ، وما تستدعيه من صور ربطية ، وهو لا يفرق إغراق ابن المعتز ، وإنما يأتي بالتشبيه غالباً متسقاً مع موضوعه وخیالاته التي يطلقها .

وأما بناءؤه الموضوعي للقصيدة ، فهو لا يلتزم بنسق بعينه ، وبالضرورة فهو لا يلتزم النظام التقليدي من البدء بالنسب أو الغزل ثم الخروج منه إلى الرحلة والراحلة ثم يعدل إلى الموضوع .

وقد يلزم بجزئية من هذا النظام ، في بعض قصيده بلوى الطابع أو رجزه ، ولكنه كثيراً ما يعدد مسالكه ، وصور بنائه ، فيبدأ قصيدته مفتخراً أو شاكياً ، أو متغزلاً ، أو واصفاً لمجلس خمر أو مجلس غناء أو منظر روض .

وقد بدأ قصيدة المديح بحديث عن الغناء والموسيقى كأن يقول في مديح والده المعز :

شكا العود بالأوتار شجوا فاطربا وترجم عن معنى الضمير فاطربا

وكل هذه السمات التي نلاحظها في بناء تميم لقصائد شعره ترجع إلى أنه شاعر مطبوع ، غير صاحب صنعة ، محترف ، لا يقول الشعر تكسباً يراعى فيه مملوحاً ، ويلائم بين قوله ، ومقامه ، لكنه يقول الشعر هواية يتغنى به ولا يعياً كيف جاء ، ولا يعنى نفسه بتثقيفه أو إعادة النظر فيه . ومن هنا كانت هذه التلقائية التي تغرب به أحياناً ، والتي قد توقعه في أخطاء اللغة القياسية أو بعض تجاوزات إيقاع العروض الخليلي .

—٢— الرَّسَّيُونَ

وهم جماعة من شعراء الأشراف الحسينيين ينسبون إلى الشريف الرسى أحمد بن محمد بن إسماعيل بن القاسم بن إبراهيم بن طباطبا المتوفى سنة ٣٥٢ هـ بمصر في عهد كافور الإخشيدي .

ويختلط اسمه أحيانا بالشاعر الناقد الأصفهاني محمد بن أحمد بن طباطبا المتوفى سنة ٣٢٢ هـ^(١) صاحب كتاب عيار الشعر ، وكثيرا ما تناقل الكتاب أشعارهما ، ونسبة بعضها إلى غير صاحبها من الشعراء لاشتراكهما في الكنية « ابن طباطبا » .

ورفع لى هذا الوهم ابن خلكان في ترجمته لأحمد بن محمد الرسى ، حيث يقول^(٢) : « ومن شعره المنسوب إليه في طول الليل ، وهو معنى غريب :

كأنَّ نجوم الليل سارت نهارها فوافت عشاءً، وهى أنضاء أسفار
وقد خيمت كى يستريح ركابها فلا فلك جابر ولا كوكب سارى

ثم وجدت هذين البيتين في ديوان أبى الحسن بن طباطبا من جملة قصيدة طويلة . ثم يقول بعد ذلك : « ولا أدري من هذا أبو الحسن . ولا وجه النسبة بينه وبين أبى القاسم المذكور . والله أعلم » .

ويشارك أبو القاسم الرسى هذا مع جددهما الأعلى إبراهيم المنعوت بطباطبا . فشاعرنا أبو القاسم أحمد ينتهى نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم طباطبا . وأما صاحب عيار الشعر الأصفهاني الإقامة فينتهى إلى محمد بن إبراهيم طباطبا . وكلاهما يكنى بابن طباطبا . ومن هنا جاء الخلط .

ويبدو أن آل إسماعيل غادروا أصفهان إلى مصر واستقروا بها زمن الدولة الأخشيديّة وبلغوا عند المصريين مرتبة رفيعة ، فتولى أبو القاسم أحمد نقابة الأشراف كما يقول ابن خلكان . يقول :

« الشريف الحسن الرسى المصرى . كان نقيب الطالبين بمصر ، وكان من

(١) راجع مقدمة عيار الشعر ، بتحقيق المؤلف .
(٢) وفيات الأعيان ١/ ١٣٠ ، بتحقيق د. إحسان عباس ، طبع بيروت .

أكابر رؤسائها . ونسبته إلى الرس من بطون السادة العلوية على قول ابن خلكان (١) .

قال : « وله شعر بليغ في الزهد والغزل ، وغير ذلك . وينقل عن الثعالبي في اليتيمة بعض خيره وشعره » .

وكانت له علاقة بكاتب السر الحسن بن علي الأسدي . يذكر الثعالبي أنه بعث إليه يطلب كتابه المعروف « بالأنيس » ، فأجابه الأسدي شعراً بقوله :

قد بعثنا بمونس لك في الوحش	سـة خل ، يدعى كتاب الأنيس
فيه ما يشتهي الأديب من العلم	وفيه جلاء هم النفوس
فيه ما شئت من بدور معاني	ضاحكات إلى وجوه شمس
والنفس البهي مازال يهدي	كل حين إلى البهي النفس

فلما قرأ الرس رقعة كتب على ظهرها ارجعها :

قد قرأت الكتاب يا حل نفسي	فهو لي مؤنس ، وأنت الأنيس
فهو تأليف ذي ذكاء وفهم	وهو وقف على العلوم حبيب

وما ذكره الثعالبي من شعره ، قوله يتغزل في ساق :

يا بنر بادِر إلى بالكاس	فرب خير آتى على ياس
ولا تقبل يدي فإن في	أولى بها من يدي ومن راسي
لا عاش في الناس من يلوم على	حي وعشقي لأحسن الناس

وقوله :

قل للذي حسنت منه خلائقه	باكر صبحك واسبق من تسابقه
أما ترى الغيم مجموعاً ومفتراً	يسير ، هذا إلى هذا يُعَانِقُهُ
كعاشق زار معشوقاً يودعه	قبل الفراق ، فآلى لا يفارقه

وقال في الحب والغزل :

قالت : أراك خضبت الشيب قلت لها :	سترته عنك يا سمعي ويا بصري
فاستضحكت ثم قالت من تعجبها :	تكاثر الغش حتى صار في الشعر

(١) المصدر نفسه ، ص ١٣١ .

وقال :

عُذِرْتَنِي بِالنَّوْمِ جَوْرًا وَظُلْمًا
إِسْمَعْنِي حُجَّتِي ، وَإِنْ كُنْتُ أَدْرِي
لَمْ أَنْمَ لَذَّةً ، وَلَا نَمْتُ إِلَّا
وقال مما يتغنى به :

قَالَتْ لَطِيفُ خِيَالٍ زَارَنِي وَمَضَى
قَالَ : أَبْصَرْتُهُ لَوْ مَنَاتُ مِنْ ظُلْمٍ
قَالَتْ : صَدَقْتَ ، الْوَفَاءُ فِي الْحُبِّ عَادَتُهُ

وقال :

خَلِيلِي إِنِّي لِلثَّرَا لِحَاسِدٍ
أُيَقِّى جَمِيعًا شِمْلَهَا وَهِيَ سَبْعَةٌ
كَذَلِكَ مَنْ لَمْ تُحْتَرَمْهُ مَنِيَّةٌ

ويقول :

سَأَعْتَبُهَا حَقًّا مَا اسْتَعْتَبْتُ
وَسَوْفَ أَجْرِيهَا بِالصُّدُورِ
وإن لم تكن أبدًا . مَعْتَبَةٌ
وَمَنْ يَشْرِبُ السَّمَّ بِالتَّجَرِبَةِ ؟!

وينتقى ابن سعيد من مליح شعره قوله (١) :

أَتَرَكُ الشَّرْبَ وَالْأَنْوَاءَ دَائِمَةً
وَالْغَصْنَ يَهْتَزُّ كَالنَّشْوَانِ مِنْ طَرَبٍ
لَا وَالَّتِي تَرَكْتَنِي يَوْمَ فَرَقْتِهَا
وَالطَّلَّ مِنْهَا عَلَى الْأَشْجَارِ مَشْوَرٌ
وَالْوَرْدُ فِي الْعُودِ مَطْوِيٌّ وَمَنْشُورٌ
كَأَنَّمَا الرَّمْلُ فِي عَيْنِي مَشْوَرٌ

وهكذا نجد معظم ما قال من شعر في الخمر والغزل ووصف الطبيعة كما نقل
كل من الثعالبي وابن سعيد ، ولا نجد بين تلك المختارات ما يتصل بالزهد على ما
ذكر ابن خلكان ولم يورد مثلاً عليه .

(١) المؤلف ص ٢٠٣ .

وذكر ابن سعيد أياتاً في موت الاخشيذ مطمع بعض وراثته في الملك : يقول :

مات إخشيذنا فها نحن في أمس
كلكم طالب بنجد وجرص
يا ولاة الأمور إن لم تنبؤوا
لا انتظام فقد تناثر عقد

ونقل عن المسيحي المؤرخ المصري قوله : وكان أديباً شاعراً متصرفاً في العلم .

ويضيف مختاراً من شعره في موضوعات الوصف والغزل والعتاب . يقول :

وكان الهلال لما نبذ
أو كفوس قد انخث أو كنوي
شطر ضوق المرأة للتدهيب
أو كنون في مهريق مكتوب

وكفوله : (معاتباً) :

أتكفّر بما أوليت في كل مخفي
وتأتى بذنب كلما جفت عاتبا
بغيب ، وتلقاني كأنك شاكر
فكم أنت ذو جهل وكم أنا صابر

وقال :

بنتم ونحلم أننى متغير
لا والذي جعل الدموع بمقلتي
ما اخترت تبديل المودة ساعة
أنا ذاك لا عهدى يُغير بالتوى
وإذا وثقت بود من أحبيته
فبعاذه ودنوه سيان

قال القرطبي : وكانت وفاته ببلده في مصر مدة كافور سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة
وكانت سنة يوم توفى أربعاً وستين سنة .

وترك من أبنائه الشعراء اثنين هما أبو محمد القاسم ، وإبراهيم .

وإن كان أحمد لم تتصل أسبابه بالدولة الفاطمية لوفاته قبل وفود المعز وبناء
القاهرة بسنوات قليلة إلا أن ولديه أبو محمد القاسم ، وأبا اسماعيل إبراهيم عاصراً

صدر الدولة الفاطمية كذلك فعل حفيده أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم بن أحمد (ويكنيه ابن سعيد بأبي إبراهيم)^(١) .

وكان هؤلاء الثلاثة من الشعراء ، وشعرهم أشبه بشعر الأب والجده ، إلا أن ما اختاره الثعالبي للثلاثة لا يشفى غليلاً ، وكذلك ما فعله ابن سعيد لمحمد . وربما كان ، حظ الحفيد الحسين بن إبراهيم أوفر من أبيه وعمه .

وهو في الثعالبي في اليتيمة أن أبا الرقعمق أحمد بن محمد الانطاكي ، اتصل بإبراهيم بن أحمد ومدحه بقصيدة يقول فيها^(٢) :

حَبَّذا الرِّسِّيُّ مولى	رَضِيَ النَّاسُ وِلاهُ
جَعَلَ اللهُ أَعَادِيـ	هُ مِنْ السَّوِّ فِتْنَاهُ
فَلَقَدْ أَيقِنَ بِالنُّورَةِ	مِنْ حَلِّ ذَرَاهُ
مَنْ رَقَى حَتَّى تَنَاهَى	فِي الْمَعَالِي مَرْتَفَاهُ
فَاتَّ أَنْ يَتَلَعَّ فِي السُّ	يُودِدُ وَالْمَجْدِ مَنَاهُ
مَلِكٌ مَذْكَانٌ بِالسُّ	تَطَوُّعٍ مَمْنُوعٍ جَمَاهُ
بَحْرٍ جَوْدٍ لَيْسَ يُذْرَى	أَيُّنَ مِنْهُ مُنْتَهَاهُ
لَمْ يَضُغْ مِنْ كَانَ إِبرَا	هِمٌ فِي النَّاسِ رَجَاهُ
لَا وَلَا يَفْرُقُ مِنْ صَرَفٍ	زَمَانٍ إِنْ عَرَاهُ
مَنْ بِهِ اسْتَكْفَى أذى الْآيَا	مِ وَالذَّهْرِ كَفَاهُ
كَيْفَ لَا أَمْدَحُ مَنْ لَمْ	يَخْلُ خَلْقٍ مِنْ تَنَاهُ

وكان الحسين الحفيد ، وهو أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم بن نبيه الأشراف الحسين بن عهده العزيز نزار بن المعز لدين الله ، وكان أديباً شاعراً ، وله مكانة ووجاهة في الفسطاط عصر الفاطميين ، وكان على قدر من الثراء ، لأن الفاطميين كانوا يقدِّرون على الحسين والحُسَيْنَيْنِ من الأشراف لقرايتهم ، ويجرون عليهم رواتب فكانت لهم الضياع والبساتين والقصور . وعاشوا عيشة راضية .

وجمعت الصداقة والأخاء بين الشاعر الحسين والأمير تميم بن المعز ، وكانت بينهما أشعار ومجاوبات ، يقول ابن خلكان : « كان شاعراً أديباً رقيقاً ، قاسم

(١) المقرب ص ٢٤٩ .

(٢) يتيمة الدرر ١ / ٣٩٠ .

الأمير تميم بن المعز شرف النسب وعلو الحسب ، وترث الفضل والأدب . وكان بينهما مودة ومراسلات شعرية رائقة ^(١) .

وقال ابن سعيد ^(٢) : « وهذا الشريف الرسى هو الذى كان بينه وبين تميم بن المعز مجاوريات بالنظم ، وكان يكثر التنزه معه فى بساتينه وفرجه » .
وذكر له الثعالبي أبياتاً هى قوله ^(٣) :

شَمَّ النسيمَ لذيذاً	من قبل أن لا تُشَمَّه
واصرِفَ عن القلبِ ما است	سطعت بالمسرة هَمَّة
وغالطَ الدهرَ إن كُت	تَ لستَ تملكُ حُكْمَه
وقد نصحتك جهدي	فلا تصم وتكلمه

وقوله فى الغزل :

صدفت عينا نوار	ولقد كانت تزور
ثم قالت كيف أودى	ذلك العُصْنُ التضيُر
قلت : إن أنصفت هذا	لابن خمسين كثير

وتثقل له ابن سعيد بيت يقول فيه :

لم تبت ، وهى فاقت الناس حسناً وحقيق يمثليها أن يتيها

وكان أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم صديق الأمير تميم قد عاش فى كنف أبيه ثقيناً للأشراف ثم تولى هو نقابتهم بعد وفاته ، وكان تميم على علاقة وطيدة بإبراهيم ، وكان إبراهيم هذا دائم الاتصال بالأمير يقدم له الهدايا فى المناسبات ، والأمير يبادله .

ويبدو أن دارهما كانت متجاورتين على النيل ، كما كان للرسين بساتين قرب بستان الأمير على بركة الحبش جنوبى القسطاظ وبالجيزة وغيرها .

(١) وفيات الأعيان ١ / ١٢١ .

(٢) المغرب ص ٢٤٩ / ٢٥٠ .

(٣) يتيمة الدهر ١ / ٥٠١ .

وتوطدت العلاقة بين الأمير وأبي عبد الله ، فلم يصبر أحدهما على فراق الآخر . ويشهد ديوان تميم بالمطارحات الشعرية والرسائل المتبادلة ، تحمل حرارة المودة ، ودفع الصداقة .

فمن هذه الرسائل الشعرية رد على أبي عبد الله الحسين وقد استهدى من الأمير غروساً من الزهر لبستانه فكتب إليه بعد وصولها .

وصلت هديتك التي أرسلتها	يا سيد الكبراء والأمرء
فحككت لنا طيباً خلّاتك التي	أورثتها من رابع الخلفاء
فاسلم وعش فيما تحبّ فأثّه	وقف عليك الدهر درّ ثنائى
هى جوهر فى البيت إلا أنها	تفنى ويبقى جوهر الشعراء
فأجابه الأمير بقوله :	

أما الرياض فإنها مسروقة	للبيت من ألفاظك الغراء
إني بعثت بها إليك وأثّها	لنوائك إطراق وذات حياء
كالشئ يستهديه متى رثّه	أنت الأحقّ بها وبالإهداء
منك استعاذ الحسن كلّ مُحسّن	فلك انتساب محاسن الأشياء
وظرفت حتى فقت كلّ مظرف	ولطفت حتى فقت لطف الماء
ديبايح لفظك فوق كلّ منور	لكنّ خيراً منه حسن صفاء
لا شئ أحسن من خليلي غبطة	يتراضعان لبان كل وفاء
هذا يُناجى ذا هوى وتحافظاً	أبداً ، ولم يستمتعاً بقاء

وكان الأمير تأخر عن تعزيتة في وفاة والده إبراهيم ، فكتب إليه الأمير معتذراً ، فرد الحسين على الأمير قائلاً :

يا سيّدى . وأميرى	ما إن له من تطير
إني فقدتُ بفقدى	أبى ، جميع السرور
فقدتُ منه تلاذى	فقدتُ منه نصيري
فقدتُ منه مُعِينى	فقدتُ منه مُجيرى
فصرتُ فرداً وخيلاً	والئنسى ذو عَشِير
لا أعرف السهل والوع	رَ إن قصدتُ مسيرى

قد كنت أحتس عليه
كأنما الدهر أودى
فمن عذيري من دم
هلاً بكته دماء
فكل أمر كبير
من البضعيف إذا ما
فوضت أمري إلى من

وأجابه الأمير بقوله :

بنات دهر عفور
منه بركني ثبير
حج مقلتي من عذيري
إذ ما له من نظير
يخبأ لكل كبير
أنى ، ومن للفقير
يرجى لكل الأمور

يا من صفاً وذو صدي
ومن تكدر عنيدي
ما مات ركنك لا بل
لو كنت أملك عمري
أو كنت أملك دفعاً
دافعت عنه المنايا
ما كان إلا يميني
لئن تولى حميداً
لحسبه بك فينا

له ، وسرى وجهري
لرزئه صفو دهرى
ركنى وفخرى وذخري
وهبته شطر عمري
عنه بروحى ووفرى
زكل فادح أمر
ومقلتي وأزرى
بكل مدح وشكر
نجلأ وخلفه فخر

وتبدو من القصيدتين مدى العلاقة التى ربطت بين الأمير تميم وإبراهيم وابنه الحسين على ما اشرنا إليه .

ويقول تميم ذاكراً مودته ، وحبّه للحسين وسعادته بمشاركته ملاذه وأنسه وباقتراب داره منه (١) :

زاد ربي دئو ربيعك منه
ساعة من جنى حديثك ما يـ
ومعاطاتك الكؤوس على رو
هو عندي ألد من ملك كسرى

أنساً فى القلوب والأبصار
من سماع الغنا وشرب العقار
ضى المعانى ورقة الأفكار
وافتضاض الكواعب والأبكار

(١) ديوان تميم ص ٢٠٠ .

ويقول تميم في ذكر بيته الذي بناه الحسين على النيل :

أهيج النيل ما بنيت عليه كاتهاج السماء بالآقمار
وكذاك البقاع تفخر بالأحجار ساد فخراً يحفظ كل فخار

وشارك الحسين صديقه تميمًا في معارضة أبيات لابن المعز يقول فيها :

شغلت بليدة القبل ووعد الكتب والرسل
فعارضه تميم بأبيات أولها :

شغلت بخلسة المقل ومزج الكحل بالكحل
وما اغفلت به الأحبا ظ في أجفاتها الشجل

فقال الحسين بن ابراهيم الرسي :

وحق تورذ الحجيل	وطيب تقرّب الأمل
وحق الحب إذ يأتي	بحسن تكسر المقل
وما أبداه من أهوا	ه من صد ومن عليل
وحقك يا أميرى ظل	ت في قصف وفي جدل
لشعرك مشبه الماء الـ	لذى يروى صدق الغلل
وثوب البرء يلبسه الـ	لذى أشفى على العليل
وحلته إذا نشـ	رت تضعضع سائر الخلل
فقول كله صدق	وعبد الله يشهد لبي

يريد أن يقول إن أبياته فاقت أبيات ابن المعتز ، مجاملة ، وكان كل منهما يثنى على شعر الآخر ويقرظه مجاملة .

ابن وكيع التنيسي

ولد ابن وكيع ونشأ في مدينة تنيس على بحيرة المنزلة ، وكانت تقع في شمالها الشرق قريبا من مدينة بورسعيد وشمالها الغربى مدينة دمياط .

ويصف أحد العلماء العرب ممن وفدوا إلى المدينة بحيرة المنزلة وتنيس فيقول (١) :

وبحيرتها التى هى عليها مقدار إقلاع يوم فى عرض نصف يوم ، ويكون ماؤها أكثر السنة ملحا لدخول بحر الروم إليه عند هبوب الشمال . فإذا انصرف نيل مصر فى دخول الشتاء وكثر هبوب الريح الغربية فإن أهل تنيس يحزنون الماء فى جباب ويعلمونه لستهم .

ويقول ياقوت : وهناك فوهة يدخل منها ماء البحر الأعظم إلى بحيرة تنيس ، وإذا تكاملت زيادة النيل فى الفيضان غلبت حلاوته على ماء البحر ، فصارت البحيرة حلوة ، وعندئذ يحزن أهل تنيس الماء على ما ذكر فى صهاريجهم ومصانعهم لستهم (٢) .

ويذكرها المسعودى فيقول : تنيس كانت أرضا لم يكن بمصر مثلها اسواء وطيب تربة ، وكانت جنانا وغخلا ، وكروما وشجرا ومزارع ، وكانت فيها مجار على ارتفاع من الأرض ، ولم ير الناس بلدا أحسن من هذه الأرض ، ولا أحسن اتصالا من جنتها ، وكرومها ، ولم يكن بمصر كروم يقال أنها تشبهها إلا الفيوم (٣) .

اشتهرت تنيس فى تاريخها القديم بالزرع والخمر . وقال ابن وصيف شناه « وحولها الزرع والشجر والكروم ، وقرى ، ومعاصر الخمر وعمارة لم يكن أحسن منها . وكثر بها الطير والسماك » ، ونقل ياقوت : « ولتنيس موسم يكون فيه من أنواع الطير ما لا يكون فى موضع آخر ، وهى مائة ونيف وثلاثون صنفا منها السلوى والقمرى ، والزرزور والفاختة والنواح ، ويصل إلى تانيس طير كثير لا

(١) ياقوت — معجم البلدان ١/ ٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ١/ ٨٨٤ .

(٣) خطط المقرئى ١/ ١٧٧ حسين نصار فى مقدمة ابن وكيع .

يعرف اسمه صغار وكبار ، ويعرف بها من السمك تسعة وسبعون صنفا منها
اليورى ، والبلمو ، والبرو ، واللبب^(١) .

وأما أهلها فكان بها عدد من النصارى يحترفون صناعة النسيج وقد كانت عامرة
بالسكان كثرة الكنائس ، ومع هذا الخير الوفير الذى بها إلا أن أهلها كان فيهم
فقر ، وكان النصارى منهم يتشكون من البؤس .

وقال أحد الرحالة العرب عندما ذهب إليها والتقى بهم : إني لم أر من البؤس
فى بلد أكثر من بؤس أهلها وقد سألتهم ، فأجابونى أن مدينتنا محاطة بالماء فلا
تستطيع زرعاً ولا تربية ماشية والماء الذى نشربه يجلب لنا من بعيد ، ونشتري الجرة
منه بأربع دراهم . ولا شغل لنا سوى نسيج الكتان ، فنسأؤنا تغزله ونحن ننسجه
ونعطى على ذلك نصف درهم فى اليوم من تجار الأقمشة ، ومع أن أجرتنا لا
تكفى لأطعام كلابنا ، فإن كلا منا يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنابر — كل
علم — لأنهم أهل ذمة .

ولاشك أن هذا كان حال جماعة من فقراء تيس النصارى .

وقد وصف أهلها لكثرة الغرائب بينهم بأن اخلاقهم سهلة مُقادة وطبايعهم
مائلة إى الرطوبة والأنوثة^(٢) .

وهم يحبون النظافة والدمائة والغناء واللذة ، وأكثرهم بيتون سكارى .

وقد نشأ ابن وكيع فى هذه البيئة البحرية المصرية ، وجاء شعره بكثير من
ملاحظاتها ، وتبينو منه فرحة الإقامة ، ومتعة الانتاء للبلد ، ونشوة السعادة بمَغانِها
أحياناً بين لذات الخمر والغناء فيقول :

يَصْفُرُّ من خَوْفِ المَزَاجِ لَوْنُهَا	وأشرب عقاراً طالَ فينا كَوْنُهَا
أَلْبَابُنَا فى حُسْنِهِ حَيَارَى	من كُلِّ ظَنِي من بنى النُّصَارَى
قد سَلِمَا من وَخْشَةِ التَّافِرِ	لأَسِيماً مع مُسْمِعِ وزَائِرِ
مَشْرُوحَةً فى أَحْسَنِ اليَّانِ	دُونِكَ هَذِي صِفَةُ الزَّمَانِ

(١) القهزى ٦ / ١٧٧ .

(٢) القهزى ١ / ١٧٧ .

وقد اشتهرت تنيس بثيابها الفاخرة المنسوبة اليها : فقال المقرئى :

وأكثر أهلها حاككة ، وبها تحاك ثياب لا يصنع مثلها فى الدنيا .

وقال آخر : وبها تعمل الثياب الملونة والفرش والأيقليمون وهى ثياب من الحرير متغير اللون قيل أنه يبدو فى ألوان متغيرة فى كل ساعات النهار^(١) .

وبها يصنع الدقيقى ، والمقصور الشفاف ، والأردية ، وأنواع المناديل الفاخرة والفرش المعلم ، والطرارز .. وبها خمسة آلاف منسج لنسج الأقمشة وكثيرا . نسجت كسوة الكعبة بها .

ومع هذا الاهتمام بالنسيج ، وغلبته على صناعة أهلها إلا أنهم اهتموا بالعد والعلماء ، بالأدب والشعر ، فقد نبغ فيها شاعرنا ابن وكيع .

ولم يكن ابن وكيع مصريا أبدا وجدا ، بل هو مهاجر إلى مصر ، مستوطن جاءت أسرته من الأهواز شرق العراق . وكانت تنسب إلى بنى ضبة فى أصوطة العراقية وبنو ضبة : قبيلة عربية مضرية . وربما كانت هجرة أسرة الشاعر من العراق إلى مصر بسبب ما انتاب العراق فى أوائل القرن الرابع من اضطرابات وحروب شملت أرض الجزيرة وبغداد وجنوب العراق بالبصرة والكوفة ، وكان أعنفها ثورة الزنج ، وغارات القرامطة .

ولد ابن وكيع فى تنيس من أب عرى ، ويذكر ابن خلكان أنه كانت فى لسانه عجمة لعلها لحقته من لسان أهله الذين ربما تأثروا بإقامتهم فى الأهواز فاختلط لسانهم باللسان الفارسى .

واسم ابن وكيع هو أبو محمد الحسن بن على بن أحمد بن محمد بن خلف ، وصفه الشعابى بأنه شاعر بارع ، وعالم جامع ، برع فى إبانته على أهل زمانه ، فلم يتقدمه أحد فى أوانه ، وله كل بديعة تسحر الأوهام وتستعيد الآفهام .

وقال ابن خلكان : « وله ديوان شعر جيد ، وله كتاب بين فيه سرقات أبى الطيب المتنبى سماه المنصف » . وتوفى بمدينة تنيس ودفن بها سنة ٣٩٣ هـ .

(١) ويطلق على هذا النوع حاليا التافاته . ولعله اسم عرى دخيل .

وشعره يجمع بين الظرف وخفة الروح ، ويدور معظمه في وصف الخمر
مظاهر الطبيعة والزهر .

قال في خمريته ، ويصِف فيها الزهر والساق :

اشرب فقد طابث العقارُ
من قهوة ما انبرت لهم
فما جيوثر من الملافى
لألاؤها في الدجى نهارُ
إذا استقرت في حشا ليبي
حبابها جسمه لجيني
كانها تحت كمنيت
لها لدى حزن شاريها
فالحزن عن أهلها مطارُ
فلا انتصار لذا عليها
بسمي بها جودر غرير
كان صدغاً له تراه
ميدان آس بدا جنيًا
ويست من الحسن لي إليه
بهازة البيت كل عام
فلت له إذ بدأ وقلبي
يا جامع الحسن كل حسن
ما فضل الغانيات عندي

ويقول من قصيدة أخرى :

أنظر إلى زهر الربيع وما جلت
أبدت لنا الأمطار فيه بدائعاً
ما شئت للأزهار في صخرائها
من أبيض يقق وأصفر فاقع
ناحت لنا الأطيار فيه فأرهجت

فيه عليك طرائف الأنوار
شهدت بحكمة منزل الأمطار
من درهم بهج ومن دينار
مثل الشمس قرن بالأقمار
عرس السرور وماتم الأطيار

لم يَحْفَلُوا بنعيم تلك الدَّارِ
ما زال يسكن حانة الخمارِ
يسك ثُضوعُهُ يدُ العطارِ
ذوب تحلل من عقيق جاري
يسبي العقول بطرفه السَّحارِ
عند التأمل وهو غرس الباري
حتى ظنَّاه بلا زُّنَّارِ
بالحُسن منه حُجَّة الكفارِ
ويرى فساد صنيعه في النَّارِ
أن لا تنافر رثَّة المِزمارِ

دار لو اتَّصل البقاء لأهلها
فانهض بنا نحو السُّرور فإنه
فاشرب مُعْتَقَةً كَانَ نسيَمها
وكانها والكأس ساطعة بها
لاسيما من كف أغيد شادين
فضل الغصون لأنها من غرسنا
قد غيب الزُّنَّار دقة خصره
مُتنصِّر قويث على إسلامنا
قالوا: أيصنع مثل هذا ربُّكم
مع مُسبِّح حلَّت له أوتاره

★ ★ ★ ★ ★

وسؤال رَسْم الدَّار والأحجارِ
ييكى على الأطلال والآثارِ

ذا العيش لانتع المهاميه والفلا
لا فرج الرحمن كربة جاهل

وقال في الربيع :

وبدث لنا حُلَّ الرِّبيع المزهرِ
في وصفها وتكون غير مُقَصِّرِ
يختلن بين تمايل وتبخثرِ
لو أنه يبقى بقاء الجوهرِ
فأذاعه ، فأذاع أحسن منظرِ
طيب الجنان لكان أريح متجرِ
من فوق جدول مائه المتفجرِ
أمرأ ، فبين مقلص ومشمِّرِ
خلع العذار بحسنه لم تُعذرِ
إقبال جد بعد أمر مُديرِ
وكان هذا جاء وجه مُبشِّرِ
فتراجعت تحلى بفرط تخييرِ
أكرَّحَ رطن من العقيق الأحيرِ

فرش الفضاء بأخمر وبأصفرِ
خاله تُعد إذا اجتهدت مُقَصِّرًا
هذي الرياض كأنهن عرائسُ
في جوهر فاق الجواهر قيمة
سرَّ أسرَّ به السَّحائب للثرى
زمن أغر فلو شربت بطيه
والسرو تشيه الرياح لواعبا
كالجنيد في خضر الملايس حاولوا
زمن منى أبصرته وكففت عن
وافي على أثر الشتاء كأنه
فكان ذا إذا جاء وجه مُهلِدِ
ورد كوجنة كاعب قد مُوزِحت
فكأنما النَّارِنج في أغصانه

وَكَاثُ زَهْرَ الْبَاقِلَاءِ دَرَاهِمَ	قَدْ ضُمَّخَتْ أَوْسَاطُهَا بِالْعَبِيرِ
وَكَاثُهُ مِنْ فَوْقِ خُضْرٍ غَضُونِهِ	يَرْتَوِ بِمِقْلَةٍ أَقْبَلِ أَوْ أَخَوِ
وَكَاثُهَا الْأَتْرَجُ أَكُوسُ عَسَجْدِ	وَلَهَا مَقَابِضُ مِنْ حَرِيرٍ أَخْضَرِ
وَالْتَرَجَسُ الرِيَانُ بَيْنَ رِيَاضِهِ	يَرْتَوِ بَعَيْنِ الْبَاهِتِ الْمُتَحِيرِ
وَالْجُلْنَارُ يُرِيكَ فِي أَثْنَانِهِ	نَوْعَيْنِ بَيْنَ مُزَعْفَرٍ وَمَعْفَرِ

وهكذا نلاحظ في شعر ابن وكيع اهتماما بالزهر والخمر والغناء ، وهو بهذا شبيه بالصنوبرى فى غرامه بأوصاف الروض . ولا يفوتنا ما يعمد إليه من ميل إلى التشبيه . سالكا بذلك نهج أصحاب التشبيه كابن المعتز ومن سار على منواله .

ويتبع نهج المحدثين عامة فى نبذ البناء التقليدى للشعر ، فيدعو إلى ترك البدء بتحدث الديار والأطلال ، والعدول عن وصف الصحراء والفيافي والقفار .

وشعره عامة عليه طلاوة الحضارة ، وحلاوة الروح المصرية لفظا وبناء ، ومعانى ، وصورا تخيلية .

الشريف العقيلي ، أبو الحسن

هو عليُّ بنُ الحسين بن حيدرة بن عبد الله بن محمد ينتهي نسبه إلى عقيل بن أبي طالب .

ولد ونشأ في مدينة الفسطاط ، وكان له بها منتزهات بجزيرة الفسطاط كما يقول صاحب المغرب^(١) بلجئاتها وقد تشوق إلى الفسطاط في شعره فقال :

أحزني إلى الفسطاط شوقاً وإنني لأدعو لها ألا يحل بها القطر
وهل في الحيا من حاجة لجنتها وفي كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروساً والمقطم تأجها ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

وكانت حياة الشاعر في أخريات القرن الرابع ، وامتدت حتى حكم المستنصر في القرن الخامس ، وربما امتدَّ به العمر حتى منتصفه^(٢) ، وربما عمر حتى الشيخوخة إذا تجاوزنا في تفسير بعض نصوص مما جاء في شعره مثل قوله :

لله أيام لذات قضيتُ بها حقَّ الشَّبَابِ وظلَّ العيش ممدود
مازلت ألبسها والدهر ينشرها فأسودَّ أبيضُها وأبيضَّت السُّود

كان الشريف العقيلي من الأشراف الطالبيين الذين ظلت منهم فئة تعيش في مصر ، وأقاموا لهم نقيباً منهم ، وأشهرهم بنو طباطبا ، وقد كان منهم النقيب عند مجيء المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر .

ويعتز الشاعر بنسبه إلى الأشراف في شعره كقوله :

أنا عبد لآل عبد مناف عترة النُسلِ والتقى والعقاف
ليس من أجل أن تراني شريعاً لا تراني من شبيعة الأشراف

وحاول الفاطميون عند استقرارهم بمصر أن يجتذبوا الأشراف إليها وأن يصطفوهم ، ولكنهم مع ذلك لم ينجحوا في أن يجعلوهم ممن يدينون بأرائهم ويعتقدون عقيدتهم . وشعر الشريف يخلو من الآراء والعقائد الفاطمية التي

(١) المغرب ٤/ ٥٢ .

(٢) خطط المقرئ ١٠/ ٣٤٠ .

نراها مبثوثة في شعر غيره من أبناء الفاطميين، كما في شعر تميم الذي عرضنا له وعترتهم ، وفي شعر الدعاة من أمثال القاضي النعمان وداعي الدعاة أو شعر الذين اصطفاهم الفاطميون وصاروا لسان دعوتهم مثل ابن هانيء الأندلسي شاعر المعز .

ومع هذا فإن الشريف العقيلي اتصل ببعض رجالات الفاطميين وكانت له فيهم مدائح كالحسين بن جوهر الصقلي قائد القواد في عهد الحاكم بأمر الله في قوله :

ألا هاتها راحاً لها ربيعٌ عنبر	على حسّ طُنبورٍ وأيقاعٍ مِزْهَرٍ
فللدولة الحسناء جيدٌ مُقلد	بجوهرٍ تدبير الحُسين بن جوهرٍ
أخو هِمَمٍ غُرٍّ إذا هو حَتَّها	لِتَلْحَقَ بالعلياء لَمْ تَتَعَثَّرْ
إذا قائدُ القوادِ أَعْمَلَ رَأْيُهُ	رَأَى نَفْسَهُ ما يَبِينُ مَجْدٌ وَمَقْهَرٌ

وثقف الشاعر الثقافة العربية ، وتعلم الموسيقى والغناء ، فكان يضع الألحان ويغنى ببعض أشعاره .

وكانت حياة الشريف حياة مترفة ناعمة كحياة هذه الطبقة ، فكان له من شرف الحسب ، والغنى الذي ظهر فيما اقتنى من المال والضياع ما مده بأسباب تلك الحياة . ويشهد على نفسه بالغنى حين يقول :

بى فقرٌ إلى المُدام وإن لَمْ أَكُ ممن يُعَدُّ فى الفقراءِ

وذكره ابن سعيد بين من لهم الثراء والضياع قال (١) : « كان له متزهات بجزيرة الفسطاط ، ولم يكن يشتغل بخدمة سلطان ولا مدح أحد » فلم يتكسب إذا بالشعر اكتفاء بشرفه ، وبما عنده من المال .

ويدور معظم شعره حول حياته الخاصة ، وما يعتاده من مجالس الشراب والغناء والطرب واللهو ، وما يصفه من مباهج الطبيعة والحياة ، وما يعرض له أحياناً من أحداث وهموم الحياة ، وربما عرض بالمدح لبعض خاصته ومن اتصل بهم من غلية القوم والقادة وعظماء الرجال .

(١) المغرب لابن سعيد بتحقيق د . زكى محمد حسن ود . شوق ضيف الجزء الأول من القسم الخاص بمصر ص ٣٠٥ ، طبع مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣ .

ونظوف بديوانه فنستجلى مغاني الحياة من شراب وممتعة ، وغناء وسماح
موسيقى وطرب ، وطواف بالحدائق والبساتين والبرك ، ووصف للثمار
والزهور ، والماء والجوارى الحسان والغلمان إلى غير ذلك من الصور التي يعمر
بها شعره .

ولنبدا الطواف بما قاله في منازة مصر والقاهرة في عهده .

يقول في بركة حولها بستان وزروع :

وروضة كالحلّة الخضراء	مجدقة ببركة حسناء
قد لبست عقد طيور الماء	لبس السماء أنجم الجوزاء

ويقول في بركة أخرى :

وبركة قد أفادنا عجباً	ماغاج من مائها وما انسكبنا
يدركها الورد كلما ارتعدت	منه بجمر يظل ملتهباً
من حول فؤارة مربة	قد انحنى ظهر مائها تعباً

وكان للشریف بساتين في جزيرة الروضة المقابلة للفسطاط ، وقد وصف
بستانا له فقال :

فقد دهم الفجر طرف الدجى	فصير أذهمه ألقا
وأبلى لنا الزهر ياقوته	فمن مستجاد ومن منتقى
وزخرف جنة بستاننا	والبسها منه إستبرقا
وفتحت القضب أطواقها	فزادت حدائقه رونقا
فما كان منها وقاحاً زنا	وما كان محتشماً أطرقا
ولاح الشقيق ولو لم يلح	لما نعم الترب بعد الشقا

وكان بأحد بساتينه بركة ماء ، يرعى فيها الطير ويسبح بطها ، فيتلاأ
عقودا من الدر كما شبهها في بعض شعره إذ يقول :

وعندنا طارمة رسمها	في كل يوم مثل ذا يتصب
بين يديها بركة ماوها	جار مع الأيام لا يتصب
ما حط مذ أنشأتها سالفاً	قط على سالفها طحلب

يرقصُ في جافاتها بَطْها إذا غدا بلبها يلعبُ
وربما تُطْلِعُ أمواجها كواكباً من وقتها تَغْرُبُ

وهو مغرى بأصناف الزهور ، والرياحين ، يصفها وصف محب متأمل ،
يقول :

أصبحتُ أكثرُ خلقي الله كُلِّهم عِشْقاً لروضٍ قد اهتزَّتْ جوانبُهُ
رَيَّاهُ نُكْهَتُهُ وَالْقَطَرُ مَضْحَكُهُ والوردُ وجنته والآسُ شاربُهُ

ويقول في زهر الأقاح الأبيض :

فغَدُّ العيشِ إِمَّا باغْتِياقٍ تلذُّ به وإما باصْطِياحٍ
فاحسُنْ ما تكونُ الأرضُ رِيًّا إذا انتَقَبْتُ يَفْضَى الأقاحِ

ويقول في الياسمين والأقاحي :

فأشربُ على فِضَّةٍ ودُرٍّ من ياسمينٍ ومن أقاحِ
فالأرضُ قد أَصْبَحَتْ عُرُوسًا تُجلى من الزهرِ في وشاحِ

ويقول في زهر البنفسج :

أشربُ على زهر البنفسجِ قهوةً تُهدى السُرُورُ إلى الحزينِ المَكْمَدِ
فكانه قرصٌ بخدِّ مُهْفَهِفٍ أو أعينٌ زُرْقٌ كَجَلَنٍ بِأَيْمِدِ

ويشتق من الزهر استعاراته وتشبيهاته في معان وموضوعات غير الزهر
كالغزل ووصف كاسات الخمر .

يقول متغزلاً :

يامن له خدُّ غداً حائِزاً شقائق النعمانِ من ورْدِهِ
أئن عِنانَ الهَجْرِ عن عاشِقٍ قد طالَ رَكْضُ الدَّمْعِ في خَدِّهِ

ويقول في وصف الخمر وكأسها :

جِسْمُ زجاجٍ وروحُ راحٍ كأنَّها الشَّمْسُ في الصَّبَاحِ
إن ضحكَ الجَلَناءُ منها أراكِ تُفْرَا من الأقاحِ

وأما الثمار فيستعربه حب الشمس وقد تساقط من شجره على الأرض

فيقول :

على الرياض الرياح
لناظري أمحاح

شمس نثرته
كأنه إذ تراءى

يقصد بالأمحاح صفار البيض .

ويقول في النارج وهو يترنح في أغصانه على الشجر :

ونارنجة بين الرياض نظرتها
على غصن رطب كقامة أغيد
إذا ميلتها الريح مالت كأكرة
بدت ذهباً فبى صولجان زمرّد

وكثيراً ما يمزج في قصائد وصفه بين مشاهد المياه والرياض والزهور
والحسان من الجوارى الجميلات ، أو الغلمان الصباح وكؤوس الخمر تدار .

فيقول :

بين نبت من حريز
وأقاح من ثُصور
وبروق من ثُصور
وضباب من بُخور
كان في ظل السرور

نحن في روض نُضير
وشقيق من تُحدود
بين سحب من كؤوس
وندى من ماء وزد
نزهة من كان فيها

ويقول في مجلس شراب وهو :

والزهر مفروش التمارق
منه المجالس والمرافق
مثل الترائب والمخائق
فيه الشقاء مع الشقائق
طرقاته كل الطرائق
رق الهموم بشرب عاتق
بيض النواصي والمفارق
كحلت بها حدق الحدائق

الغيم ممدود السراقد
والقاش^(١) قد فرشت لنا
أشجاره وثماره
وطن يموت مخافة
قد غنت الأطيّار في
فاعتيق فؤادك فيه من
فالأقحوان غصونه
ومراود الأمطار قد

ويجمع إلى الخمر أطايب الطعام :

فلا تله بالشغل عمن غدا
إلى الله من غيره أشوقاً

(١) والقاش روض أو بستان جهة السطاط كان يرقاه .

فقد قام طباخنا فائق
وعبأ البوارد في جونة
ووافى بعقيان سنوسج
وأبدع في سلق هليونها
وعندي فديتك من بعدها
بليل أعد لنا الفيقا
أجن من الخوف أن تُطيقا
فألبيها منه دُستيقا
لأنني أمرت بأن يُسلقا
عصير من الكرم قد عُتقا

ويقول في وصف مائدة دعا إليها أصدقاءه :

وعندي طهاجة وجدى بارد
ونقانق ما منه واحدة بدت
ومضرة كالفضة البيضاء
إلا كمثل البصرة الحمراء

وبذكرك بأى نواس حين يغدو إلى حانوت خمار ليلاً ليشرب عنده ،
مُحْتَلِب إليه أن يجلو عليه من الخمر كؤساً فيقول :

وعنار دخلت عليه وهنا
عل هوجاء تنثر في الفيافي
إذا وخذت تحال الریح تحتی
فقال : من الفتى ؟ فأجبتُ ضيف
فقال : وما تريد فذلك روجی
فقام إلى دنان مُترعات
وفض ختام أقدمها فلاح
وأبرز منه في الإبريق راخا
كان حبابها ظل تندی
وحاء بأهيف عذب الشايا
تراه يتيه من أدب وظرف
يقول إذا رآه كل لاح
هى الأيام تندرج انديراجا
فصبل قصفا بقصيف واغتباقا

ومع هذه الكثرة من الحديث عن الرياض والبرك والأنهار والأزهار ،
والخمر ، والكأس ، والطعام ، والساق ، مع هذا كله ، ومع عرضه لمعارض

الجمال فيها جميعاً ، نجده يخلطُ جمال الطبيعة بجمال الحياة مثلاً في الوجه الجميل والقوام المعتدل والتكوين البديع ، ولهذا فهو يجمع بين جمال المرأة وجمال الطبيعة ، فالتخذ يختلط بالورد ، والعين بالترجس والأسنان بالبرد والأقحوان .

وتمتزج بهذا كله لذات الحس من تمل بالنظر ، وتمتع بالدوق باللسان ونشوة اللذة بالبدن ، كما مزج الوجه الصباح والطعام بطعوم المذاق في رشفة الحمر وقبله الثغر ، ولقمة الطعام .

ولتأمل هذه الأبيات التي تعمر بالخيال العجيب الذي يمزج فيه الشاعر بين الكائنات ، بين المرأة والطبيعة والخمر والسحاب والمطر مزجاً عجيباً لا تقع عليه في شعرنا العرى . يقول :

السَّحْبُ تُرْضِعُ مِنْ ثَبَاتِ الْأَرْضِ مَا	جَعَلَ الرَّيِّعُ لَهَا الْغُصُونُ نَهْودَا
وَالرَّاحُ قَدْ نَظَّمَ الْمَزَاجَ لَجِيدَهَا	دَرِ الْحَبَابِ قَلَانِدَا وَعَقُودَا
فَاسْتَجَلْ مِنْهَا مَا إِذَا افْتَرَعْتَ غَدَا	مِنْهَا السَّرُورُ لِبَعْلِهَا مَوْلُودَا
وَأَنْعَمَ بِهَا فِي ظِلِّ صَحْتِكَ الَّتِي	أَضْحَى عَلَيْكَ رَوَاقُهَا مَمْدُودَا

ويتغزل في المرأة ، لكنه غزل يعرض فيه محاسنها من حسن وجهه ، وثغر وعين وقوام مع ما يعد له من صور الزهور وبدر السماء :

مَرِ بِنَا فِي مَوْرِدِ شَرْقٍ	كَأَنَّهُ الْبَدْرُ لَاحَ فِي الْغُسْقِ
مَنْعَمَ حَلِيهِ اللَّحَاطِ إِذَا	أَقْبَلَ تَجَرَّى إِلَيْهِ فِي طَلْقِ
كَأَنَّمَا وَجْهَهُ لِكَثْرَةِ مَا	فِيهِ مِنَ الْحَسَنِ مَوْسِمِ الْحَدَقِ

وفي البيت الأخير يمزج بين جمال الوجه وجمال الروض بما فيه من أفانين الزهر ، والزهر عروس تحلى توجهها الحبيب ، والجو كله عرس تهتف حمائمها وتغنى بلابله . وخیاله حافل حين يصف الروض والشراب يرؤى السعادة ممثلة في جلوة العرس ، ومرأى العروس .

عَرَايِسُ الرُّوْضِ تَحْلِي	عَلَى كُرَاسِي الرُّوْائِي
وَمَجْلِسُ الرُّوْضِ فِيهِ	فَرَشَ مِنَ الْعَنَائِي
فَاقْتَمَمَ وَلِذَ بِيَكْرٍ	قَدْ تَوَجَّتْ بِالْحَبَابِ

ويقول :

وأندفع الديك في الضياح	قد ضحكت غرة الصباح
رضائه فوق كل راح	وطاف بالراح كل ساق
من ياسمين ومن اقاح	فأشرب على فضة ودر
تجلى من الزهر في وشاح	فالأرض قد أصبحت عروسا

والحب علاقة الحبيب بالحب ، وما يتقلب بها بين وصل وهجران ، وفرحة لقاء ، ودمنة وداع ، تلتقي به هنا وهناك في ديوان الشاعر كأن يقول :

قلق على قلبي الوشاح	أنا في الغدو وفي الرواح
---------------------	-------------------------

ويقول :

إن التوى لقيامه الأرواح	قامت قيامه روجها لرواحي
مثل الحجاب على كؤوس الرّاح	فبكث فصارت الدمع في وجناتها

ويقول :

وصار من فراقنا في لحد	لما قضى القرب بداء البعد
لأنني فيه أصبحت وخدي	لطمت بالدمع عليه خدي

ويقول :

فألفيت منه عندها فوق ما عتدي	شكوت إليها يوم ودعتها وجدي
على خدّها طورا وطورا على خدي	وما زالت الأجنان تنثر دمعها
ليضح ماء الورد منه على الوردي	فلولا غليل الشوق ما كان طرفها

والشاعر يريد أن يعب من متاع الدنيا ولذتها قبل أن يزول رونق الشباب ويأتى خريف العمر فتذبل وردة الصبا ، وتغيب شمس اللذات فيعود التذكر وتذهب النفس حشرات :

حقّ الشباب وظلّ العيش مملود	لله أيام لذات قضيت بها
فأسودّ أبيضها وأبيضت السود	مازلت البسها والدهر ينشرها

وتلتقى في بعض أبياته الغزلية برقيق من القول مطرب مرقص كقوله :

غزال تدله دله	على قتل من هو عبد له
---------------	----------------------

وذلك أنى ملكته قيادى وملكنى وصله
كعصين فى دوحه بعضنا يمد على بعضنا ظلّه
إلى أن أمرته أفعاله ووعر إعجابه سهله
فخلصت حبلنى من حبله ومن ملّ صاحبه مله

وفى الحب والصدقة والصديق يرتبط القلب ، وكان الشريف العقلى محباً
لأصدقائه يصلهم ويصلونه ، ويدعوهم إلى مشاركته لذات مجالسه وشرابه
وطعامه بين الرياض ومجالى الطبيعة .

ألا ربّ ضيف تقصّته وجيد السماء كثير الآلى
فحضر ما كان عندى له من الزاد فعل كرام الرجال
وقدّمت راحاً سبّ عقله بلون الخلق وريح الغوالى

ويقول :

وصدق سروره بالصديق كسرور الغشيق بالمعشوق
كل يوم أروح منه وأغدو بين لفظ رطب وخلق رقيق
وخريف من الوفاء تضير وربيع من الحفاظ أنيق
فقضى الله حقه من نفيس يقتضى نفسه قضاء الحقوق

خصائص شعره :

مما سبق من نماذج لشعر الشريف تلاحظ أنه إهتم إهتماماً واضحاً بموضوعين
خصهما بمعظم شعره . وهما الروضيات والخمرة ومجالسها ، ويليها الغزل
ووصف المطاعم ولم يقل فى موضوعات الشعر الأخرى كالمديح والفخر والهجاء
إلا مقطوعات أو قصائد قصيرة قليلة العدد .

ومديحه كما أشرنا لبعض أصدقائه ، وبعض كبار رجال الدولة كقائد القواد
الحسين بن جوهر الصقلى ، وهو يضيف عليهم صفات المدح المعروفة ، وكان
فخره بنفسه منشوراً بين أبيات قصائده ، ويعتد فيه بنسبه وشاعريته ، وأما
الهجاء فكان منصباً على جماعة ممن عاصروه من ولاية الأقاليم كوالى سخا ،
وعامل دمياط الذى يقول فيه :

عاملٌ دِمِيَّاطٌ فَتَى قَلَمًا	يُحْصَلُ مِنْ رِفْدٍ عَلَى شَاكِرٍ
فَعَالُهُ تُسَخِّطُ بَعْدَ الرِّضَا	وَيُفْسِدُ الْأَوَّلُ بِالْآخِرِ
وَإِنْ وَفَى عَادَ إِلَى غَدْرِهِ	لِضَعْفِ رَأْيٍ وَعَمَى خَاطِرِهِ
لَا تَخِيرُ فِي الْمَرْءِ إِذَا لَمْ يَكُنْ	بَاطِنُهُ خَيْرًا مِنْ الظَّاهِرِ

كذلك هجا بعض موظفي الدواوين كالكتاب النصراني عيسى بن مرقس كاتب الدولة ، يتهمه بالبخل . فيقول :

جوابُ عَيْسَى لِسَائِلِيهِ	مُدَّكَانَ لَا تَطْمَعُوا بِخَيْرِي
فَأَنْتَنِي لَمْ أَزَلْ بِخَيْلَا	أَمْنَعُ دَرِي وَدَرٍ غَيْرِي

ويسخر من كاتب آخر اسمه خيرون فيقول فيه :

لَا خَيْرَ فِي خَيْرُونَ مِنْ كَاتِبٍ	يَخْتَرِقُ الْبَخْلَ بِخَطِّهِ سَرِيعٍ
إِنْ ثَلَمَ الضَّيْفَ رَغِيفًا لَهُ	بَكَى عَلَيْهِ بِأَحْرُ الدُّمُوعِ
فَلَا تَخَالَطُهُ فَإِنَّ الْفَتَى	يَفْزَعُ أَنْ يَخْرَا لَكَلَا يَجُوعُ

ومن مهجويه شاعران استأثرا بكثير من لاذع أبياته ، لأنهما تعرضا له ولشعره وانتقدها فنالهما بلسانه . يقول في أولهما واسمه أبو اسحاق إبراهيم :

أَبُو إِسْحَاقَ فِي تَعَبٍ	يَحَاوُلُ أَنْ يُشَبِّهَ بِي
وَهَلْ فِي النَّاسِ مِنْ أَحَدٍ	يَقِيسُ الرَّأْسَ بِالذَّنْبِ
فَلَا يَذْهَبُ بِهِ هَوَسٌ	فَلَيْسَ الصُّفْرُ كَالذَّهَبِ

ويقول فيه :

أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ مَمْنٌ	تَحَامَلَهُ عَلَى شِعْرِي قَدِيمٌ
أَمَّا يَخْشَى زَبَانِيَةَ الْقَوَافِي	إِذَا وَقَدَتْ لِأَفْكَارِي جَحِيمٌ
فَدَغَ شَيْطَانُ غِيْبَتِهِ وَشِعْرِي	فَإِنَّ سَمَاءَهُ فِيهَا الرُّجُومُ

والشاعر الآخر هو غياث بن جارود . يقول فيه :

يَا صَاحَ لَا تُصْغِ إِلَى لَفْظَةٍ	يَفْتَحُ عَنْهَا شَفْتِيهِ غِيَاثُ
ذُو خَاطِرٍ رَخْوٍ ضَعِيفِ الْقُوَى	يَأْتِيكَ مِنْهُ بِمَقَانِ إِنْثَاثُ

ويبدو أن غياثا هذا كان شيخاً يتكلف الشعر فيأتي به سخيفاً رديئاً ولا

يكتفى الشاعر بهجاء لفظه ، ولكنه يتعداه إلى شكله وصورته ، ويبدو أنها كانت تثيره إلى الضحك . فيقول :

شيخ إذا استدعيت ألفاظه جاءك بين الزور والإفك
مُستطول الرأس عريض القفا مضطرب الأنياب والفك
لو مات لي ألف وأبصرته لبت في ثوب من الضحك

ويمتاز شعر الشريف بالركة ورصانة السبك ، مع سهولة في اللفظ حتى إن بعض زملائه من الشعراء راجعه فيما يبدو بسبب تلك السهولة فقال : ومالي وصعبه — ويقول الدكتور زكي المحاسنى — (١) : « أما اللون الذى غلب على شعر العقيلي فهو المرح والإشراق ، ولا تجد إلا القليل في أبياته من الموعظة ، والمعاتبة والشكاية على عادة الشعراء . وما خلا من هجاء ولوم لحسود أو غزول أو لمن تتبع الشاعر بالمشاكسة كمحسن بن الملح الذى تناولته الأبيات بالذم والسخرية » .

ويقول عن عشقه للطبيعة والخمر « ... أما الشاعر العقيلي فكان تصويره مادياً ملموساً ممزوجاً بالفكاهة والملحة والدعابة ، وأنه ليعد من أبرز شعراء الطبيعة وهم قلة على اختلاف العصور ، وما أشبه العقيلي في حب الطبيعة وتعشق جمالها وفنونها بابن خفاجة الأندلسي » .

وكان من أسباب فتون العقيلي ومن قبله كل من ابن وكيع وتميم بن المعز بما كان في مصر من مباحج ومنازه ، وبخاصة في الفسطاط والجيزة وما جاورهما وقد أشاد كثير من العلماء والرحالة بهذه المباحج والمنازة .

ويقول الدكتور المحاسنى : « وكان بمصر في عصر الفاطميين تنسيق فنى مرموق يحدثنا عنه بتطويل وتفصيل المقرئى في خططه فقد جعل كتابه مقصوراً في أغلب أبوابه على الكلام في جمال مصر واقطاعها وأحياء مدنها ، ومباحج نيلها وبساتينها الخضر المونقة » (٢) .

ويقول : « هذا هو الشاعر الملهم الذى نظم الشعر على طبيعته فخالف سنة الشعراء الذين عاصروهم ، إذ كان أغلبهم خاضعاً للملق والتكسب ، فتجافى

(١ - ٢) مقدمة الديوان طبع الباي الحلبي بمصر .

عن أن ينزل إلى مطاعهم وهو الغنى بنفسه وأدبه وماله عن الحكام والخلفاء ،
ولئن لم يعكس شعره أطوار المجتمع بصورها المختلفة ، فحسبه أن يعكس صور
حياته الخاصة التي تجد فيها منازع التفرد في عصره . فهو بحق شاعر مترف
غنى على قيثار نفسه ليضطرب روحه ، ويؤنس عمره » .

وكان الشاعر يستخدم عناصر التعبير الشعرى المختلفة ، منها ما يتصل
بمخرف اللفظ ، من حيث إيقاعه وموسيقاه ، ومقابلاته ، وتجنيساته
وتوريثاته :

ومن أهم معالم صنعة الشعرية تلك الخيالات الجديدة الغريبة التي صاغها في
صور من التشبيه والاستعارة غير مألوفة عند غيره من الشعراء من مثل قوله :

ولما أقلعت سفن المطايا	يربح الوجد في لجج السراب
جرى نظري ورائهم إلى أن	تكسر بين أمواج الهضاب

ومنه قوله أيضاً :

لا تُصغين إلى العُدُولِ وسقني	مشمولة في حُمر الباثونج
أو ما ترى زهر النجوم كجواهر	نثرته غانية على فيروزج
والبدر في أفق السماء كوردة	يضاء تضحك في رياض بنفسج

ويتخذ من المرأة بمزاتها وجسدها وثيابها ملامح لبناء تشبيهاته واستعاراته
كقوله :

فأحسن ما تكون الأرض زياً	إذا انتقبت يفضي الأجاجي
--------------------------	-------------------------

وكقوله :

ضلبي رقيق حواشي نعمة الجسد	كأنما ثغره عقدان من برد
كأنما ردفه من عزّة أسفى	كأنما خصره من ذلّة جلدي

وكقوله :

فاعتق فؤادك فيه من	رقّ الهموم بعثي عائق
فالأقحوان غصونه	يضيئ النواصي والمفارق
ومراود الأمطار قد	كحلت بها حدق الحدائق

وانظر إلى رخات المطر وكيف تراءت في مخيلته مراود تكحل عيون الحداثق
وهى زهورها !!

ويولد الشاعر العقيلي من الكلمات معاني توليد ابن الرومي ، وبخاصة في
الهجاء ، ومن ذلك قوله في محسن بن الملح وإتحاذه من كلمة الملح معاني
للهجاء :

يا ابن الأجاج الملح لا تستخصم العذب الفراتا
ويقول كذلك :

أيا مُحسِنُ قُلْ لِي بما تبيهُ وتفخُرُ
هذا وجدك ملح فكيف لو كان سُكَّرُ

وتلمح في قاموس لفظه وتعبيراته مزيجاً من اللفظ البدوي والحضري ،
والمولد والعرب والدخيل ، منه بعض ألفاظ الطعام والشراب الفارسية التي
دخلت قاموس العربية في لغة العباسيين وتداولها الشعراء فيما بينهم ، كاللوزينج
والسنبوسج ، وأسماء بعض الزهور كالجلنار ، والبهار ، واللازورد .

ويستخدم في تعبيراته بعض عناصر من تراث الشعر ومن الآيات والسور
القرآنية ، ومن الأخبار والتاريخ الإسلامي والعربي القديم ، وبه تضمينات
أحياناً من بعض طقوس الدين وعباداته ، كاستخدامه للكعبة والطواف في قوله
يمدح :

يا مَنْ يطوفُ بكعبةٍ إلا حسان منه المستمِيعُ
إن ظلَّ عازرُ قصدنا ميتاً فجدواهُ المِسيحُ
أو طاف طوفانُ بنا من عُسرةٍ فنداهُ نوحُ

فيشرح هذه العبارات والإشارات الدينية في معاني المديح .

ويقول في موضع آخر مستغلاً أيضاً الكعبة والحج والطواف في الشراب :

قم فاحمر الراخ يومَ النحرِ بالماءِ ولا تُضَحَّ ضُحًى إلا بصُهْباءِ
أدرك حجيجَ الدَّامى قبلَ نفرهم إلى متى قصِفهم معَ كُلِّ هِتْفاءِ
وعُج على مكةَ الرُّوحاءِ مبتكراً فطَف بها حوْلَ ركنِ العودِ والنَّاءِ

شعراء مصريون آخرون من القرن الرابع

عرفت مصر من القرن الرابع وفي ظل الفاطميين جماعة من الشعراء قصدوا المعز لدين الله ، والعزیز عثمان والحاكم بأمر الله ووزرائهم كييعقوب بن كلس ، والقائد جواهر الصقلي .

وتذكر منهم المصادر الحسين بن بشر^(١) وابن أبي الجوع عبد الله بن محمد^(٢) وكان الحسين بن بشر على قول الصنفدي هجاء ، هجا ابن كلس وغيره من رجال الدولة ، وأمر العزیز عثمان بتعزيره ، ومات لقاء تهجمه^(٣) . قال عنه ياقوت في معجم الأدباء :

« شاعر مشهور مذكور ، جيد الشعر ، على الطبقة ، مشهود له بالفضيلة » وقال عنه عبد الحسن الصوري الشاعر : « ما رأيت فيمن شاهدته من الشعراء أعلى طبقة من ابن بشر ، ولا أحسن طريقة » .

قال الصنفدي : « وشهادة عبد الحسن له بذلك ، مع تقدمه وفضله ، والإجماع على إحسانه فضيلة له لا تجحد ، ومزية لا تدفع . وشعره نحو خمسة آلاف بيت » .

ويذكر من شعره قوله عن نفسه :

حصلتُ من الدنيا على الشعر رتبة قُضارايَ فيها أن يُقالُ مُجوّدُ
فأكرمهم من برّني باستماعه وأجودهم من قال شعرك جيّدُ

ويبدو أنه سافر من مصر إلى الشام والتقى بمدينة يافا بالشاعر عبد الحسن البصوري ولازمه زمناً أو لعله لقيه بمصر .

ويبدو أنه لم يعتمد على الشعر في رزقه ، وإن كان بعض أولى الأمر يحشونه

(١) ترجم له الصنفدي بالواق ١٢ / ٣٤٣ .

(٢) ترجم له الصنفدي بالواق ١٢ / ٥٢٧ .

(٣) الرواي بالوفيات ٢ / ٣٤٥ .

فيجزلون له العطاء. وروى الصنفدي أنه توفي الخراج في عهد العزيز بالله بإحدى النواحي فخرج إليها راجلاً وقال :

وَأُولَى الْخَرَاجِ وَكَشَفَ الضَّيَاعِ
وَذَا الزُّيِّ زَيْي وَذِي حَالَتِي
يُظَنُّونَنِي بَعْضُ رَجَائِلَتِي
وَأَحْسَى إِذَا جِئْتَهُمْ رَاجِلًا

وروى أنه كان خبيث اللسان كثير الهجاء ليعقوب بن كلس ، وكان يملغه ذلك عنه فيحقده عليه . وكان سبباً في حث العزيز على الغضب عليه وعقابه حتى مات .

-وأما ابنُ أُمي الجُوع : عبيد الله بن محمد (١)

فهو نحوى أديب وراق ، من أهل مصر . كان مليح الخط ، جيد الضبط ، وكان له تحقق باللغة والنحو والبلاغة ، وقول الشعر . وصل إليه من العزيز وابنه الحاكم جملة كبيرة على الورقة . قال الصفدى : وقد أدرك المتنبي وأيام كافور ، ومات بمصر سنة خمس وتسعين وثلاثمائة . قال الثعالبي : أحد رواة المتنبي الأدباء ، وأصحابه العلماء ، ومن تَمَّهَر في لغات العرب ، وأجاد أنواع الأدب .

قال ابن أبي الجويع : كان لي على الوزير ابن حنزابه وعد مطلني به مطلقاً
ضاق به صدرى فعملت فيه (٢) :

تاه جهلاً بالفقرات أحق ذو نزوات
قال لي أهيف عنه وهو من إحدى الثقافات
إنه يجمع بالياء ————— م ر ع و س الألفات (٣)

قال : وكتبها في رقعة وكتب في أخرى إليه أنتجزه الوعد ، وافق لقائي له على عجلة فأردت أن أعرض عليه القصة ، فدفعت إليه الأبيات غلطاً ، فلما قرأها قال : لعنك الله قد غلطت ، وأعادها إلى ، والتمس الأخرى فدفعتها إليه . وعندي من الحجل ما تقتضيه مثل تلك الحال ، فأخذها ووقع فيها بما أردت . فقلت : لك على مع ما تكرمت به من الحلم أن لا يسمعه أحد مني .

(١) الوافي ١٢ / ٥٢٧ - والتمية ١ / ٤٧٧ .

(٢) الوافي ٥٢٧ .

(۳) يلمح إلى معنى قيع .

وكان يمدح الوزير ابن كلس كما قلنا ، وروى له المقرئ أبياتاً فيه أثبتته
إياها بمناسبة ألم أحسن به الوزير في يده ، ويشير إلى الخليفة العزيز فيقول (١) :

رَأَيْتَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ذَلِكَ الْأَلَمَا	يَدُ الْوَزِيرِ هِيَ الدُّنْيَا فَإِنْ أَلَمَتْ
مِنْ أَجَلِهِ ، وَاسْأَلِ الْقِرْطَاسَ وَالْقَلَمَا	تَأْمُلُ الْمَلِكَ ، وَانْظُرْ قِرْطَ عَلَيْهِ
عَنِ الْعِدَا ، وَكَثِيراً مَا رُويَ دَمَا	وَشَاهِدُ الْبَيْضِ فِي الْأَغْمَادِ نَائِمَا
كَأَنَّمَا أُشْعِرْتُ مِنْ أَجَلِهِ سَقَمَا	وَأَنْفُسُ النَّاسِ بِالشَّكْوَى قَدْ اتَّصَلَتْ
سَاقٌ تُقَدِّمُ فِي إِنْهَاضِهِ قَدَمَا	هَلْ يَنْهَضُ الْمَجْدُ إِلَّا أَنْ يُؤَيِّدَهُ
تَحِيْفَتُنَا خَطُوبُ تَشَعُّبِ الْأُمَمَا	لَوْلَا الْعَزِيزُ وَآرَاءُ الْوَزِيرِ مَعَا
لَا أَوْهَنَ اللَّهُ رُكْنِيهِ وَلَا انْهَدَمَا	فَقُلْ لِهَذَا وَهَذَا أَنْتُمَا شَرَفٌ
مَبْسُوطَةٌ ، وَلِسَانًا نَاطِقًا وَفَمَا	كِلَاكُمَا لَمْ يَزَلْ فِي الصَّالِحَاتِ يَدَا
وَلَا طَوَى لَكُمَا مَاعِشَتُمَا عِلَمَا	وَلَا أَصَابَكُمَا أَحْدَاثُ دَهْرِكُمَا
فَقَدْ مَحَوْتُ بِمَا أَوْلَيْتَنِي الْعَدَمَا	وَلَا انْمَحَتْ عَنْكَ يَا مَوْلَايَ عَافِيَةٌ

ويذكر الثعالبي جملة من شعره . كقوله :

تَوَهَّمْتُ لِي نُبُوَّةَ الْغَايِرِ	أُظُنُّكَ يَا سَيِّدِي إِذْ جَفَوْتُ
وَلَسْتُ بِسَالٍ وَلَا صَابِرِ	وَنَحَلْتُ بِأَنْيَ مَلَالاً سَلَوْتُ
كَأَشْفَقْتُ مَتَى عَلَى نَاطِرِي	وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنِّي عَلِيٌّ

وقال في مליح يمسك بشمعة :

بِالْحَسَنِ وَالْإِشْرَاقِ وَالرَّفْعَةِ	صَالِحُ يَا مُشَبَّهَ بَدْرِ الدُّجَى
نُورًا ، فَمَا تَصْنَعُ بِالشَّمْعَةِ	وَجْهَكَ فِي اللَّيْلِ كَشَمْسِ الضُّحَى

وقال فيه :

وَأَطِيبَ النَّاسِ رَاحَا	يَا أَطِيبَ النَّاسِ رِيحاً
إِطْرَابَ وَالْأَفْرَاحَا	وَمَا بِهِ أَتَصَدَّى الْـ
فِي لَا أَعْرِفُ الْأَقْدَاحَا	هَاتِ اسْقِنِي أَوْتَرَا
أَنْ لَا يَطِيرَ ارْتِيَاخَا	وَاحْفَظْ عَلَيَّ قَوَادِي

(١) المخطوط ٧/٢ .

لو كُنْتُ كاسْمِكَ يَا صَا لَحُ اعْتَمَدْتُ الصَّلَاحَا
لَكِنْ أَيْ اللَّهَ إِلَّا أَنْ تُفْسِدَ الْأَرْوَاحَا

وكتب إلى بعض أصحابه ليستدعيه وقد أوشك شعبان على الإنقضاء
وأصبح رمضان على الأبواب :

شعبان قد صارَ نَضْوَا ولم يُفِدْ فيه لَهْوَا
وليس ذلك مَسْنَا جهلاً ، ولا كان سَهْوَا
فبِالْمُــرُودَّةِ إِلَّا بكَرْتِ لِلْقَصْفِ عَذْوَا

أبو الفتح ابن البينى :

ومن شعراء المصريين في القرن الرابع : أبو الفتح ابن البينى^(١) (ت سنة
٤١٥ هـ) واسمه منصور عاش في مصر في آخريات القرن الرابع ، ومدح
رجالها ، ومن بينهم القاضى محمد بن النعمان قال فيه مخاطباً حاجيه^(٢) :

فَقُلْ لَأَيِّ عَبِيدِ الْإِلَهِ بَأْتَنِى سَقِيمٌ إِلَى الْآسَى شَكَايَةِ دَائِهِ
وَلَيْسَ التَّشْكَى شِعْمَتِي غَيْرَ أَنَّهُ يَفِيضُ إِنَاءً زَيْدٌ فَوْقَ امْتَلَائِهِ

وَيَسُطُّ آمَالِ حَيَاءٍ بِوَجْهِهِ وَبَعْضُ حَيَاءِ الْمَرْءِ تَرَبُّ سَخَائِهِ
وَخَلَقَ كَأَمِ الزَّنِّ فِي ظِلِّ صَخْرَةٍ تَرَى فِيهِ مَا قُدَّامَهُ مِنْ وَرَائِهِ
تَرَى كُلَّ عَيْنٍ فِيهِ مَا فِي ضَمِيرِهَا كَذَلِكَ لَوْنُ الْمَاءِ لَوْنُ إِنَائِهِ
أَلَسْتُ إِلَيْهِ جُبْتُ كُلُّ تَتَوَفَةٍ يَضِلُّ بِهَا قَرْنُ الضُّحَى عَنْ دُكَائِهِ

ويذكر في أثناء وجوده بمصر أنه خرج إلى جهة المقس على شط النيل ولقى
فتاة سمراء فنظم فيها أبياتاً ، قال المسيحي : قال : خرجت إلى المقس متنزهاً ،
فلقيت جارية سوداء مليحة فتبعتها فقلت :

وَعَزَالَةَ غَاظَلْتَهَا فِي الْمَقْسِ مِنْ أَوْلَادِ حَامِ

(١) ترجم له المسيحي انظر الجزء الذى قام بتحقيقه د . حسين نصار ، والمغرب قسم مصر بتحقيق
زكى محمد حسن ود . شرق ضيف ص ٢٧٢ ، والينيمه للثعالى ١ / ٢٤٣ .
(٢) المصدر السابق ص ١٠ المسيحي طبع المعهد العلمى الفرنسى .

نَضَرْتُ بَعِينِي ضَيْيَةً وَتَسَمَّيْتُ فَكَاثُهَا
 بَرَقَ تَأَلَّقَ فِي غَمَامٍ نَمْتُ مَشَتْ مَشَى الْمَاهَا
 وَتَبَعْتُهَا رَثَكُ الثَّعَامِ حَتَّى وَصَلْنَا بَيْتَهَا
 فَحَصَلْتُ فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَجَعَلْتُ أَفْتَحَ مِمْهَاهَا
 لَمَّا جَثَوْتُ لَهَا بِلَامِي كَانَتْ — لِعُمُرِكَ — سَاعَةٌ
 جَمَعْتُ غُرَابًا مَعَ حَمَامٍ

ونلاحظ هذه التورية في غزله المكشوف أو فعله .

ومن حديث الشاعر وما ورد من أخباره القليلة ندرك أنه سافر إلى الشام ، وحل ببيعض بلاده ومدح رجلا هناك وذكر المسيحي أنه كتب إلى من يسمى أبا الحسين على بن نخوار وهو بحلب يقول :

سَرَى فِي سَبِيلِ الْقَوْمِ ظَبْيٌ مَرَبَّبٌ هَزِيْعًا، وَهَلْ لِلظَّبْيِ فِي اللَّيْلِ مَسْرَبٌ
 وَأَمَى اهْتَدَى، وَالْأَرْضُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَمِنْ فَوْقِهَا غَيْلُ الدَّجَى الْمَتَّابُ
 يَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ طَوَى النَّأْيَ فَالتَّقَى بِهِ مَشْرِقٌ حَتَّى الصَّبَاحِ وَمَغْرَبٌ
 وَمَا زِلْتُ الْعَتَمَى تَرَدَّدُ بَيْنَنَا إِلَى أَمَدٍ مَا خَلْفَهُ مُتَعَبٌ
 رَدَلِي وَعَيْنِي تُرْسِلُ الدَّمَغَ خَلْفَهُ وَقَدْ حَارَ جَفْنَيْهَا خِيَالُ مُحِبِّ
 قَضَيْتُ كَأَنْ عَلَّقْتُ قَلْبِي بِنَظَرِهِ تَهَادَى بِهَا فِي طَرَةِ الْعَرَبِ كَوَكَبٌ
 لِكُلِّ أَمْرٍ عَمْرٌ بِمَالَا يَنَالُهُ وَعُمُرٌ بِمَا قَدْ نَالَه كَيْفَ يَسْلُبُ
 وَلَيْلَةُ لَيْلِي وَالرَّقِيبُ كَأَنَّهُ عَلَى أَفْقِهَا عَيْنُ الرَّقِيبِ تَرْقُبُ
 عَمِثُ ثَرَى الْحِرْبَاءِ تَغْبِرُ فِي الدَّجَى وَتُنْشَرُ فِي صَدْرِ النَّهَارِ وَتُصَلِّبُ
 وَقَدْ مَدَّ كَفَّيْهِ إِلَى الشَّمْسِ مَا يَلَا كَمَا مَدَّ كَفَّيْهِ إِلَى اللَّهِ مُذْنِبٌ
 سَلَامٌ كَابِهَامِ الْقَطَاةِ لِبَسْتِهِ وَكَانَ كِظْلُ الرُّمَحِ مَا جِئْتُ أَطْلُبُ
 وَمَا زِلْتُ أُرْمِي بِالتَّجَنُّبِ مِنْهُمْ وَرَبَّنَا غَرَّ الرَّقِيبَ التَّجَنُّبُ
 وَمَا زُرْتُهَا إِلَّا كَخَفَقَةِ طَائِرٍ عَلَى عَجَلٍ وَاللَّيْلُ بِالصَّبْحِ أَشْيَبُ
 وَفِي ذَيْلِهِ ذَيْبٌ مِنَ الْإِنْسِ أَطْلَسِي تَوَجَّسَ لَيْثٌ مِنَ الْوَحْشِ أَغْلَبُ
 وَفِي مُنْصِلِ التَّصَلِّ الْيَمَانِي بَرَقَ إِذَا لَمَعَتْ كَانَتْ دَمًا يَتَصَبَّبُ

إذا سَلَّ خَلَّتِ الْعِمْدُ أَسْلَمَ جَدُولاً
يَقْدُ الْمَفَاضَ السَّرْدَ رَهْوا كَأَنَّهُ
فَمَا كَانَ إِلَّا ضَرْبَةُ الْعَوْلِ بَيْنَنَا
أَطَعْتُ الصَّبَاحَ حَتَّى ارْعَوْتُ فِي خَلِيقَةٍ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالنَّبَاتِ مُصَوِّحٌ
يُسْرِبُهُ مَاءُ الشُّبَابِ نَضَارَةً
دَعَانِي ابْنُ نَخْوَارٍ عَلَيَّ وَبَيْنَنَا
فَجَبْتُ عَنْ الْفَجْرِ الظَّلَامِ كَأَنَّمَا
بَعِيسٌ أَرَى مِنْ تَخَلُّفِهَا فَرَطُ خَلْقِهَا
إِلَى مَلِكٍ كَالْقَلْبِ خَلْفَ حِجَابِهِ

حتى يقول :

كَذَا تُشْرِقُ الدُّنْيَا إِذَا كَانَ رَاضِيًا
كَرِيمٌ مَتَى أَعْجَمَ أَسِيرَةً وَجْهِهِ

ويختم بقوله :

إِذَا كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَقْلٌ فَحَيْثُمَا
يَنَالُ الْفَتَى بِالْخَفْضِ بُلْغَةً عَيْشِيهِ
يُخْرَبُ مِنْ أَخْرَاهُ مَا لَيْسَ فَايِنَا
عَلَى أَنَّ فِي الْأَيَّامِ لِلْمَرْءِ وَاعْظَا

فَضِيضًا عَلَيْهِ شَعْلَةٌ تَنْلَهُبُ
يَقْدُ ثَمَالًا أَوْضِيًا حِينَ أَضْرَبُ
إِذَا كَانَ حَقًّا مَا إِلَى الْعَوْلِ يُنْسَبُ
تَنَاهَتْ ، وَفِي شَرْخِ الشَّيْبَةِ مَلْعَبُ
لِيَذْوِي ، وَمُحْضَرٌّ لِيَنُمُو وَمُعْشَبُ
وَيُنَزَّعُ عَنْهُ حُسْنُهُ حِينَ يَنْضَبُ
مِنَ الْأَلْبَحْرِ ، أَوْ مِنَ الْبَحْرِ سَبَبُ
صَدَعَتْ بِهِ عَنْ زُرْقَةِ الْمَاءِ طَحْلُبُ
تِلَالًا أَرَاهَا مِثْلَهَا حِينَ تَحْبُبُ
يَرَى خَافِيَاتِ الْغَيْبِ وَهُوَ مُغَيَّبُ

وَتَلِسُ أَثْوَابَ الدُّجَى حِينَ يَغْضَبُ
يَعْنِي تَحَلُّو فِي فَوَادِي وَتَعْدُبُ

تَوَجَّهَ لِقَائِهِ صَدِيقٌ وَمَكْسَبُ
فِيَسْتَعِي إِلَى شَيْءٍ سِوَاهَا وَيَنْصَبُ
وَيَعْمُرُ مِنْ دُنْيَاهُ مَا يَتَخَرَّبُ
بَلِغًا ، وَفِي صَرْفِ الزَّمَانِ مُؤَدَّبُ

ونلاحظ في هذه القصيدة التي رواها المسبحي ملاح من صنعة البيني الشعرية وأولها تأثيره ببعض مصطلح الشعر القديم وصياغاته دليلاً على حفظه للكثير منه ومن ذلك قوله واصفاً قصر الظلام : « ظلام كإبهام القطاة » و « كظل الرمح » و « الليل بالصبيح أشيب » .

وأنه حل أو فصل معنى لذي الرمة ، تناول الشعراء كثيراً ، وهو يصف قطعه البيداء على راحته ومعه سيفه .

ونلاحظ بناء القصيدة التي مدح بها هنا على النهج القديم بادئاً بالفرول ،

كنه صورته نسيباً بدوياً ، يرحل فيه إلى محبوبته رحلة المخاطر ، وقد أعد لها من
جرأة القلب والسلاح ما يتغلب به على صعاب الطريق .
ويختم القصيدة بأيات من الحكمة .

ونلاحظ في صناعته الشعرية غرابة بعض التشبيهات والصور على غير المؤلف
ومنها تشبيه الحرباء وقد مدت كفيها بأنها كمن يمد كفيه بالدعاء ، مبدلاً صورة
الشاعر القديم الذى شبه الحرباء فى الضحى وكأنها كمن يمسك بالقوس والرمح
مستعداً للرمى . وتشبيه الزيارة وقصرها بأنها كخفقة طائر . وتشبيه الدرع
بالبثال وهو الماء القليل فى قوله :

يَقْدُ الْمَقَاضِ السَّرْدَ وَهَوَا كَأَنَّهُ يَقْدُ ثُمَالًا ، أَوْضِيًا حِينَ يَضْرِبُ

ويعتمد فى تشبيه الناس بالزرع على القرآن الكريم فى قوله :

وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالْثَّابِتِ مَصْرُوحٍ لِيَذُوبَ وَغَضَرٌ لِيَنْمُو وَمُعْشِبُ

ومن غريب تشبيهه كذلك قوله :

إلى ملك كالقلب خلف حجابهِ يرى خافيات الغيب وهو مغيب

ومثل هذه القصيدة فى بنائها البدوى ، قصيدة أخرى أوردها له المسيحي
ق مدح محمد بن جعفر بن فلاح أحد أمراء الفاطميين ، ممن تولوا دمشق
وإمارة الشام فى عصر المعز والعزیز يقول فى مطلعها^(١) :

صُدْتُ وَمَنْزَلُهَا مِنْ مَنْزِلِ صَدْدِ^(٢) وَأَخْلَفْتُكَ عَلَى الْعَلَاتِ مَا تُعِدُّ

ويغرب فى صورها وتشبيهاتها كما فعل فى القصيدة السابقة ، كقوله :

كَأَنَّ حُخْفَى قَضِيبٌ فِي صَنْوَبَرَةٍ تُجَادِ ، فَلَمَاءٌ عَنْ أَوْرَاقِهَا يَدْدُ

ومن صورهِ التى تكررت قوله يشبه النجوم حول البدر أو الحجرة البيضاء فى
السماء المسماة بدرج التبانة بالطير تحوم على غدير الماء ، وهى صورة غريبة ،
وإن كررها فى قصيدته :

(١) تاريخ المسيحي ص ١٦ .

(٢) صدد الشيء قبالة وأمانه .

فقد ذكر في هذه القصيدة قوله (١) :

ولاح بدرُ الدجى نَهْيا وأنجمه طيراً ترفُّ حوائيه ولا تَرُدُّ (٢)

ويذكر في القصيدة نهر حلب المسمى بِقُوق ، مشبهاً البيض حف الزرد بحافته ، فصورة الماء في هذا النهر القليل الغور ، وهو ينساب حول الحصى والصخر في مجراه يشبه تلك الصورة التي رسمها من خياله وهى صورة غريبة في تركيبها ، وإن لم تكن غريبة في جزئياتها لأن تشبيه الماء المنساب في الجدول بالزرد أمر وارد متكرر في شعر القدماء .

وهو مغرم بالأمثال والحكم يسوقهما كل حين في أثناء قصيدته ، كأن يقول في القصيدة :

وما دُتُّوكَ ممن لا حِفَاطَ لَهُم على المودة إلا النأى والبعدُ
وكقوله :

دغ من قلاك وواصل من ظفرت به ما تعلم اليوم ما يقضى عليك غد
كل البرية عيمان يقودهم دهر طرائقه مجهولة قدد
ويضمن شعره أمثالا قديمة كقوله :

أبقى الزمان على لباته عدة وإنما يُنجزُ الأحرار ما وعدوا
من المثل السائر : أنجز حر ما وعد

وأورد له المسبحى أرجوزة خمرية يقول فيها :

فقلتُ قومي يا ملخ	نُبْهي ديك صدخ
في كفل الليل وضح	والصبح قد بان له
إن لم يسلم منه رشخ	والطل في ذل الدجى
كالشمس في قوس قزح	فأقبلت في خلل
من جیده حين سبخ	والبر أبدى صفحة
ملأى مُدَامًا ، وقدخ	تحيل لي رُجاجة
منها سرورا وفرخ	واندفع تسكب لي

(١) السبحى ص ١٧ .

(٢) النى الندى .

حتى يقول :

فلم نزلْ نشربُها حمراء كالْمِسْكِ نَفَحْ

ويقول فيها :

جَدَّدْ لِي عَهْدَ الْهَوَى مِنْ بَعْدِ مَا عَفَى وَمَحْ
لَسْتُ أَمْرُؤًا إِذَا اغْتَدَى يَعْرِفُ فِي الطَّيْرِ الرُّوحْ
إِذَا أَصْبَتْ فَرْحَةً سَالَمَةٌ مِنَ التَّرْحْ
فَمَا أَهْلِي فِي غَدٍ حَابٍ قَدْ جِي أَمْ نَجَحْ

وقد ذكر له ابن رشيق بيتاً في الشمعة يقول :

قد شابهتني في لونٍ وفي قصفٍ وفي اختراقٍ وفي دَمْعٍ وفي سَهَرٍ

وذكره النعالي وعلق عليه بقوله : « هذا تشبيه خمسة بخمسة ، وقد أجاد غاية الجودة » .

ومنهم :

أبو الحسين محمد بن عثمان الفصيح (١) :

يذكر له المسبحي قصيدة رائية طويلة جيدة ، مدح بها أبا محمد الحسن بن
عمار أمين الدولة وأحد وزراء الحاكم بأمر الله (قتله في شوال سنة
٣٩٠ هـ) . يقول في هذه القصيدة :

أَيَا صَاحِبِي رَحِّلِي أَجْدُ مَسِيرُ
وَقَفْنَا وَقَدْ مَالَتْ بِنَانُ شَوْءِ الْكَرَى
أَلَا فَانْظُرَانِي وَالتَّائِفُ زُورُ
وَاللُّتُومُ فِي عَيْنِ الْمَهَاةِ فُتُورُ
وَمَا زَادَ ظُظْمَ الشُّوقِ إِلَّا رَكِيَّةُ
مَرْتَهَا شَمَالُ قَرَّةٍ وَدُبُورُ

وتبدو سمات البداوة واضحة في اللفظ والأخيلة ، ويمضي ليصف التوق وقد
أجهدتها الرحلة إلى المملوح حتى بلغته :

فجاءتْكَ أَمْثَالُ الْقَطَا الْجُونِيِّ صُرْصَرَتْ
بَطَانُ تَرَى الْمِسْكِيَّ وَالرُّوضُ مُوْنِقُ
عَلَيْهِنَّ فِي الْجَوِّ الْمَنِيعِ صُقُورُ
بِهِ ، وَيَرْدُنُ الْمَاءُ وَهُوَ نَمِيرُ

ويمضي على نسق صاحبه المنصور ابن البيني في صياغة معانيه على طريقة
الأمثال والحكم يتابعها في آيات متتالية في نسق فيقول :

فلا تتأينَّ اليومَ يسلم نفسه ألا إنَّ يومَ التُّرُهَاتِ غُرُورُ
فقد تفضَّحَ النَّارُ الدُّجَى وهي جَمْرَةٌ ويقطُّعُ حَدَّ السَّيْفِ وهو قَصِيرُ
وَرَيْتَمَا هَيْبَ الْفَتَى وهو عَاجِزٌ وعُظْمُ شَأْنِ الْأَمْرِ وهو حَقِيرُ

ويشير فيها إلى أنه من رجال الحاكم ومدير عسكره إذ يقول :

وإنَّ السُّيُوفَ الْحَاكِمِيَّةَ قُطِّعَ وعند رِقَابِ الْخَالِعِينَ ثُورُ
يشقُّ الْعَصَا الْعَبْدُ اللَّئِيمَ وَإِنَّهُ إلى مِثْلَهَا فِي النَّائِبَاتِ فَقِيرُ

أتراه هنا يشير إلى عصيان أبي ركونة وثورته على الحاكم أم يذكر أمرا آخر ؟
ومعروف أن محمد بن عمار هذا مغربي من كتامة . وهي القبيلة التي عاضدت
المعز وجاءوا معه إلى مصر ، واتخذ الخلفاء منهم رجالاً في مناصب الدولة
الكبرى وخلصوا عليهم ، وقربوهم . يقول :

وهلْ أَنَجِّمُ الْعَلِيَاءَ إِلَّا كِتَامَةً فَلَيْسَتْ.. وَإِنْ غَارَ الزُّمَانُ.. تَنُورُ
وَأَيُّ وَحْزَبٍ لِلَّهِ لَا حَزَبَ غَيْرُهُ هُمْ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَمِيرُ

ومنها : ابن رشد بن أبو علي صالح^(١) :

ذكره الثعالبي في اليتيمة وقال إنه أحد أئمة الكتاب المهرة في سائر الآداب
صحب المتنبي وروى شعره . وكان جيد المعاني . وعاش حتى لحق بالدولة
الفاطمية ومدح رجالها مثل أبي الحسن علي بن جعفر بن فلاح الكتامي الذي
ولى دمشق والشام كما تولى في مصر بعض المناصب الكبرى حتى قتله الحاكم .

وكان يغشى مجلس حسين بن جوهر القائد . وعرف الشريف الرسي أبا عبد
الله محمد بن علي نقيب الطالبين بمصر ، والأمير أبا تميم سلمان بن فلاح وله في
كل هؤلاء آيات ذكرها المسبحي ، وهي من الشعر الوسط سهل اللفظ الذي
عرف به الكتاب في القرن الرابع ، وترجم له الثعالبي في اليتيمة ، وجاء ببعض
أخباره متفرقة ، كما ترجم له ابن سعيد في المغرب^(٢) .

* * *

(١) المسبحي ص ٣ .

(١) فوات ١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) المغرب ج ٣ ص ٢٥٣ .

الفصل الثالث

شعراء وافدون في القرن الرابع

- (١) أبو الرقعمق الأنطاكي (ت ٣٩٩ هـ)
- (٢) الرقيق القيرواني (ت حوالي سنة ٤٢٥ هـ)
- (٣) صريع الدلاء البغدادى (ت سنة ٤١٢ هـ)
- (٤) عبد المحسن الصوري (ت سنة ٤١٦ هـ)

أبو الرقعمق
أحمد بن محمد الإنطاكي — أبو حامد
(ت سنة ٣٩٩ هـ)

إنطاكي النشأة كما تدل نسبته ، ولم تورد المصادر شيئاً عن ولادته ، قدم إلى مصر بعد أن ثبت قدمه في الشعر .

ذكره الثعالبي في اليتيمة^(١) وقال عنه : هو نادرة الزمان وجملة الإحسان وهو أحد المداح المجيدين والشعراء المحسنين . هو بالشام كاهن الحجاج بالعراق . «
قدم مصر ، وذكر أن ذلك كان في بداية الدولة الفاطمية زمن المعز لدين الله . وأقام بها طويلاً فعاصر من الخلفاء العزيز بالله ، والحاكم بأمر الله .

قال ابن خلكان^(٢) : « إنه أقام بمصر طويلاً ، وإن معظم شعره قد نظم في مدح أمرائها ورؤسائها » ، فممن مدح المعز والعزيز والحاكم ، وجوهر الصقلي والأمير تميم بن المعز ويعقوب بن كلس .

كما اتصل ببعض الأشراف الرئسين ، ومدحهم .

وذكر أنه لقب بالرقعمق لرقاعته في شعره ومجونه^(٣) . وذلك لقوله :

ولم أكسب الحق لكنني خلقت رقيقاً كما قد ترى
لقد فقت فيه كما الفارس في الرمي فاق جميع الوري

وقوله :

قد أجمع الناس أن حمقي أحسن من عفتي وديني
قد عشت دهرأ أعول عقلي والناس إذ ذاك يعلوني
فمذ تحامقت قد كسائي حمقي ، وقد عالني جنوني

قال عنه صاحب اليتيمة إنه مع اشتغاره بالحق والمجون إلا أن له الشعر الجاد

(١) ٢٣٩٨/١ .

(٢) وفيات ٤٨/١ .

(٣) يتيمة الدمر ١/٧٩٧ .

في المديح ، قال : « ومن تصرّف بالشعر الجزل في أنواع الجّد والجزل واحرز قصب الفضل . وهو أحد المدّاح المحيدين ، والفضلاء المحسنين » .

قال ابن خلكان : وأقام بمصر طويلاً وأظنه توفي بمصر سنة ٣٩٩ هـ .

شعره :

ونبدأ الحديث بشعره الجاد في المديح . واعتبر الثعالبي وغيره قصيدته في العزيز بالله ويعقوب بن كلس الرائية من عيون شعره وغرره . قال الثعالبي : « فمن غرر بحاسته قوله بمدح من قصيدة أولها :

قد سمعنا مقالَه واعتذارَه	وأقلناه ذنبَه وعشارَه
والمعاني لمن غيبت ولكن	بك عرّضت فاسمعي يا جارة
من مراديه أنه أبد الدهر	ر تراه محلاً أزارَه
عالم أنه عذاب من الله مباح	لأعين النظارة
هتك الله سيرة فلکم هت	ك من ذي تستر استارة
سخرني الحاظه وكذا كل	مليح الحاظه سحارة
ما على مؤثر التباعد والإعرا	ض لو أثر الرضا والزارة
وعلى أنني وإن كان قد عذ	ب بالهجر مؤثر إشارَه
لم أزل لا عديمته من حبيب	أشتهى قرنه وآى نفارة

وتلك المقدمة الغزلية ، تلبو مغايرة في نهجها لما اعتدناه في الشعر العربي التقليدي . يميل فيها إلى الروح الشعبية في الحديث ، واللفظ ، ولا تخلو من روح تحامق أو عبث . ويقول في مديحها يعنى الوزير يعقوب بن كلس :

لم يدع للعزيز في سائر الأثر	ض عذوا إلا وأحمد نارة
فلهذا اجتبه دون سواه	واصطفاه لنفسه واختارة
لم تشيد له الوزارة مجداً	لا ، ولا قيل رفعت مقدارة
بل كساها وقد تخرمها الدهر	ر جلالاً وبهجة ونضارة
كل يوم له على ثوب الدهر	ر ، وكر الخطوب بالبدل غارة
ذو يد شأنها القرار من البحر	ل ، وفي حومة الوعى كرامة
هى قد قلت عن العزيز عداه	بالعطايا وكثرت أنصارة
هكذا كل فاضل يده تمسب	سى وتضجى نفاعه ضرارة

فَاسْتَجِرْهُ فَلَيْسَ يَأْمَنُ إِلَّا	مَنْ تَفِيًّا بِظِلِّهِ وَاسْتَجَارَةَ
فَإِذَا مَا رَأَيْتَهُ مَطَرًا يُعَمِّمُ	سَلَّ فِيمَا يَرِيدُهُ أَفْكَارَةَ
لَمْ يَدْعُ بِالذِّكَاةِ وَالذَّهْنِ شَيْئًا	فِي ضَمِيرِ الْغُيُوبِ إِلَّا أَنْارَةَ
لَا وَلَا مَوْضِعًا مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا كَمَا	نَ بِالرَّأْيِ مُدْرِكًا أخطَارَةَ
زَادَهُ اللَّهُ بَسْطَةً وَكَفَاهُ	خَوْفَهُ مِنْ زَمَانِهِ وَحَذَارَةَ

مديح يخرج عن طرق التقليد فيه ، فلم يحجر على ما اعتاده الشعراء من ذكر الشجاعة والكرم واستخدام العناصر التعبيرية المعتادة من اللفظ والصور اليبانية في حديث الشجاعة بالاقدام وقهر الأعداء ، وحديث السيوف والرماح ، ولا جاء في الكرم بذكر الغيث والسحاب والمطر . بل عرض معاني السماح والذكاء والحكمة ، وهي خصائص ميزت الممدوح ، فلم يكسبه صفات ليست به ، ولا بالغ مبالغته تخرج عن قبول الذوق لها ، وتصبح مجرد بطاقات يعلقها الشاعر على ممدوحه مستعارة في معظمها .

وفي حديث العباسي في معاهد التنصيص خبر غريب يخالف فيه الثعالبي وابن خلكان . إذ يشير إلى أنه لحق بعصر كافور الإخشيدي ، قبل وفود المعز إلى القاهرة .

يروى العباسي على لسان أبي الرعمق قوله (١) :

« كان لي إخوان (أربعة) ، وكنت أنادمهم أيام الأستاذ كافور الإخشيدي فجاءني رسولهم في يوم بارد ، وليست لي كسوةٌ تُحصِنُنِي من البرد ، فقال إخوانك يُقرعونك السلام ويقولون لك : قد اصطبحنا اليوم وذبحنا شاةً سمينة ، فاشتبه علينا ما نطبخُ لك منها . قال فكتبت إليهم :

إخواننا قصدوا الصَّبْوَحَ بِسَحِرَةٍ	فأتى رسولهم إليَّ خصوصاً
قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخةً	قلت اطبخوا لي جُيَّةً وقميصاً

وتشير هذه النبذة من حديث العباسي إلى وفوده لمصر قبل الفاطميين . ونعود إلى حديث المديح في شعره الجاد يمدح الوزير ابن كلثوم كذلك . يقول (٢) :

(١) معاهد التنصيص ٢/ ٢٥٢ .

(٢) بتيمة الدهر ١/ ١٨١ .

إِنْ رُبَّمَا عَرَفْتَهُ مَأْلُوفٌ
غَيَّرَتْ آيَهُ صُرُوفُ اللَّيَالِي
مَا مَرَّرْنَا عَلَيْهِ إِلَّا وَقَفْنَا
أَلْفًا فِيهِ لِلْبُكَاءِ كَأَنِّي
حَاسِدٌ لِلْجَفُونَ لَمَّا أَرَاكَ
إِنْ يَعْقُوبَ قَدْ أَفَادَ وَأَقْنَى
سَلَّ سَيْفًا مِنَ الْبَصِيرَةِ وَالرَّأْيِ
بِإِذَا لِلْعَزِيزِ دُونَ حِمَاهُ
لَمْ تَزَلْ دُونَهُ تَخُوضُ الْمَنَازِلَ
نَاصِحًا مَشْفِقًا مَحِبًّا وَدُودًا
لَيْسَ تُخْشَى فُسَادَ أَمْرِ تَوَلَّا
مَا رَأَيْنَاهُ قَطُّ إِلَّا رَأَيْنَا
وَرَأَيْنَا قِرْمًا كَبِيرًا هُمَامًا
لَكَدْ طَعِمَ الْعَطَاءَ فَهُوَ إِذَا جَا
خَلَقَ مِنْهُ مِنْذُ كَانَ كَرِيمٌ
وَيَرِيشُ الْفَقِيرَ بِالْبَذْلِ وَالْجَوِ
فَأَرَانَا الْآلِهَ صَرَفَ اللَّيَالِي

كَانَ تَلْيِيزُ مُرَبَّعًا وَمُصَيِّفًا
وَعَدَا مِنْهُ حُسْنُهُ مَصْرُوفًا
وَأَطْلَنَّا شَوْقًا إِلَيْهِ الْوَقُوفًا
لَمْ أَكُنْ فِيهِ لِلْعَوَالِي الْوَقُوفًا
فِي مَغَانِيهِ دُمَعَهَا الْمَذْرُوفًا
وَأَعَادَ التَّنْدِي وَأَغْنَى الضَّعِيفَا
يَ، فَأَعْنَاهُ أَنْ يَسْلُ السَّيُوفَا
مَهْجَةً حُرَّةً وَرَأْيَا حَصِيفَا
وَتَرَدُّ الرَّدَى وَتَلْقَى الصَّفُوفَا
قَائِمًا فِي رِضَاهُ، صَعْبًا عَسُوفًا
هُ، وَأَضْحَى بِرَأْيِهِ مَكْنُوفًا
خُلُقًا طَاهِرًا، وَفِعْلًا شَرِيفًا
مُنْعَمًا، مُفْضِلًا، رَحِيمًا، رَعُوفًا
ذَ وَأَعْطَى يَرَى الْكَثِيرَ طَفِيفًا
يَسْتَلِدُّ التَّنْدِي وَيَقْرَى الضَّيُوفَا
دَ، وَيَعْطَى وَيَسْعَفُ الْمَلْهُوفَا
أَبْدًا عَنْ فَنَائِهِ مَصْرُوفًا

وهذا المديح السهل الجارى بلغة الحديث طابعه وميزته ، ومع كل من مدح لم يتخلل عن هذا الطبع . ويقول معرضاً بهذا المسلك في مديحه :

لَمَنْ أَمْدَحُ بِالشَّعْرِ ؟	لَمَنْ أَقْصِدُ ؟ لَا أَدْرِي
إِلَى مَنْ إِنْ دَجَا خَطْبٌ	وَنَابَتْ نَوْبُ الدَّهْرِ
قَدْ - وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ	وَمَنْ أَقْسَمُ بِالْفَجْرِ
تَحَيَّرْتُ فَمَا أَدْرِي الَّذِي	أَصْنَعُ فِي أَمْرِي
عَلَى أَتَى بِاللَّهْرِ وَبِالْأَيَا	مُ ذُو خُبْرٍ
وَلَكِنِّي لِلْحَيْرَةِ سَ -	كُرَانِ بَلَا سُكْرِ
كَأَنِّي لَسْتُ مَخْلُوقًا	لِغَيْرِ الْجَهْدِ وَالضَّرِّ
وَمَنْ كُنْتُ قَمْدُفُوعٌ	إِلَى الْفَاقَةِ وَالْفَقْرِ

فما أصنع في مصر	إذا لم أحظ في مصر
وفي الآفاق أقوام	يميلون إلى شعري
ونبتئت بأن القوم	لا يخلون من ذكرى
فقيم الترك للسير ؟	وهل في ذاك من عُذر
وقد قُدمت أثقالى	وسيرى غرة الشهر
فأما أكثر الحمق	فقد سيرت في البحر
وباقية معى يذهب	في البر على ظهري
ولا أترك في مصر	لذكرى الحمق من أثر

وهذا الحديث عن حمقه أو تحامقه في مطلع قصائده يشير إلى أنه بضليعة التي يتفق بها شعره عند سامعيه بمصر ، ولهذا لا نعجب أن يبدأ بعض قصائد المديح بهذا اللون . وهذه الأبيات نفسها مقدمة لمديحة ينتقل عنها إلى موضوعه فيقول :

ألا يا مُنتهى الجود	وياذا المجد والفخر
ويا ابن السادة العُر	ويا ابن الأنجم الزهر

ومن مدائحه التي تبدأ بهذا التحامق قصيدة في الخليفة العزيز نزار . قوله :

أخذ في هَنَاتِكَ مما قد عرفت به	مما به أنت معروف ومشهور
واخلد العصفير صبي صبي صبي	إذا تجاوتني في الصبح العصفير
ففيك ما شئت من حمق ومن هوس	قليله لكثير الحمق أكسير
كم رام إدراكه قوم فأعجزهم	وكيف يدرك ما فيه قناطير
لأنك كبر حماقتي لأن بها	بلواء حمقى في الآفاق منشور
ولست أبغى بها خلا ولا بدلاً	هيات غيرى يترك الحمق معذور
أستغفر الله مما قلته عبثاً	لغير شيء ، وما في الصحف مسطور
أقول للنفس لما استشعرت جزعاً	وبات يردعها خوف وتحذير
إن الإمام نزاراً مدحه فتقى	ذخر لمثلك عند الله مذخور
هو الذي ليس بعد الله من أحد	سواه في الناس محمود ومشكور
مُسَمَّر في المعالي ذئب مجتهد	وما له في سوى العلياء تسمير

فالتحامق إذا كان مدخلة إلى مدح من مدح من الخلفاء والملوك والأمراء ، ولعلهم وجازا فيه مادة تسلية وترويح ، وتغياً عن جاري الشعر الذي ربما شعروا

بالمثل من سماعه فأحبوا أن يسمعوا مثل قول أبي الرقعمق فتأدى فيه وراج به عندهم .

ومن اتصل بهم في مصر الأمير تميم بن المعز ، وكان محباً للشعراء ممدحاً منهم ، كثير الانفاق عليهم . ويقول فيه على طريقته :

وبإحسانٍ تميم	عُدْتُ من عظم مصابي
بالأمير السيد الما	جِدِّ والقَرَمِ اللَّبابِ
والهامم المنعم المفضال	والبَحْرِ الْعُبابِ
والذي لا فرق ما بين	بَنِ جَدَّاهِ وَالسَّحَابِ
لم أزره قط إلا	عُدْتُ محمودَ الإِيَابِ
ذكره أعذب في الأنف	سِي من ذكر الشَّبابِ
ولقد رَقَّ عن الما	عِ وعن طبع الشَّرابِ
أكثم في الرأى وفي الفض	لِ وقَسَّ في الخطابِ

ومما قاله في المديح في الشاعرين الشريف الحسيني الرسي وإبراهيم الرسي . يقول في إبراهيم :

جَبَدَا الرَّسِيَّ مولى	رَضِيَ النَّاسُ وِلاهُ
جعل الله أعاديـ	لَهُ من السُّوءِ فِدَاهُ
فلقد أيقن بالثر	وَقِه من حَلِّ ذَرَاهُ
من رقى حتى تناهى	فِي المَعَالِ مَرْتَقَاهُ
لم يضع من كان إبرا	هيم في الناس رَجَاهُ
لا ولا يفرق من صرف	زَمَانٍ إن عَرَاهُ

ويقول في الحسيني متحامقاً (١) :

عجب ما مثله عجب	فعلوا بي غير ما يجب
فرقرت بطنى فواخرني	ذقن من بالسِّلحِ يختضب
هرباً من شرها هرباً	فَعَسَى أن ينفع الهرب

(١) اليتيمة ١ / ٣٨٩ .

ولكم بتنا على طرب
وكزوس الصفع دائرة
وكان الصفع بينهم
ورعوس القوم تُستلب
ملوها اللذات والطرب
شعل النيران تلتهب

ويخرج إلى المديح فيقول :

وعجيب والحسين له
أن شيربي عنده يرتق
وهو القيث الميث إذا
فإلى الرسي ملجؤنا
راحة بالجوّد تنسكب
ولديه مربى جذب
أعوزتنا درها السحب
من صروف الدهر والهرب

ولأن الرقعمق في الغزل ما رأيناه في بعض مديحه . وهو مطبوع كذلك بطابعه كما
أخنا . ومنه قوله :

أظن ودادها من غير نية
فتاة لا تمل عذاب قلبي
ولا ذنب له إلا التواني
ويعجبنى التمتع والتشاجي
فوا أسفا على حر يعزى
وهل هي فيه إلا مدعية
ولا تخلية وقتا من أذية
لمن في الحب ليست بالوفا
من الخود الممنعة الشجيرة
أخا رزء على عظيم الرزية

أعجب عبد الرحيم العباسي بشعر أبي الرقعمق ، وذكر أنه سار على طريقة ابن
الخنزاج البغدادي في التحامق ، وأورد له منظومة رائعة يقول فيها :

كتب الحصير إلى السرير
فلا تمنعن جمارتي
لا هم إلا أن تط
ولا تخبرنك قصتي
إن الذين تصافقوا
أسفوا علي لأنهم
لو كنت ثم لقلت هل
ولقد دخلت على الصديق
متشعرا متبخعرا
فأذرت حين تبادروا
أن الفصيل ابن البعر
ستين من أكل الشعر
سير من الهزال مع الطيور
فلقد سقطت على الخير
بالقرع في زمن القشور
حضرأ ولم ألك في الحضور
من أخذ بيد الضرب
البيت في اليوم المطير
للصفع بالدلو الكبير
دلوى فكان على المدير

بالرجال تصافعوا فالصَّعُ مفتاح السرور
هو في المجالس كالبحور وكالغلابيد في التحور

وهذه القصيدة أو النظم المتحاشق ، على وزن قصيدة جاهلية مشهورة
مطلعها :

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير

وهو ضرب من العبث النظمي الذي يخرج فيه الشاعر أو الناظم عن جدية
الموضوع إلى ضرب من المجون عند ابن حجاج والعبث اللامعقول عند أبي
الرقعمق وهو ضرب من النظم أرى أن مبدعه أبو الرقعمق ، وسأر على دربه جماعة
من المتحاشقين ، وقد عرف هذا الضرب من بعده بمصر وغيرها في العصور التالية
بشعر « الحماق » ظهر بصورة واضحة عند ابن دانيال وغيره من شعراء
المصريين في القرنين السابع والثامن .

وأورد له العباسي مثلاً آخر مطلعاً (١) :

وقوققى وقوققى هديّة في طبق
أما ترون بينكم تيساً تطويل العنق

ومن قوله في هذا اللون نفسه :

كفى ملامك يا ذات الملام
كانني وجنود الصقع تبغني
قيس دبر تلا مزمارة سخرأ
وقد مجنت وعلمت المجون فما
وذاك أتى رأيت العقل مطرحاً
إني سأدخل عدالي على عدلي
أفدى الدين نأوا والدار دانية
كم قد نقت سبالي في صدودهم
سقى ورعياً لأيام لنا سلفت

فما أريد بديلاً بالرقاعات
وقد تولت مزامير الرطانات
على القسوس بترجيع ورثات
أدعى بشيء سيوى رب المجانات
فيجت أهل زمانى بالحماقات
في الحب إن عدلونى في الحرامات
وشئتوا بالجفا شمل المودات
والصدأ أصعب من تنف السبالات
بالقفص قصرها طيب اللذات

(١) معاهد التنصيص ٢ / ٢٥٥ .

إِذْ لَا أَرْوَحُ وَلَا أَغْدُو إِلَى وَطَنِ
أَيَّامَ أَسْحَبُ أَذْيَالِ الْهَوَى مَرَحًا
عُوضْتُ مِنْهُمْ أَحْزَانًا تُورِقُنِي
إِلَّا إِلَى رُبْعِ خَصَائِرٍ وَخَانَتِ
مُضْرَعًا بَيْنَ سَكَرَاتٍ وَنَشَوَاتٍ
بَعْدَ السُّرُورِ وَفِرْحَانٍ بَتْرَحَاتٍ

ويعنى أبو الرقعمق في مثل هذا الشعر الذى يبدو أنه راج به عند معاصريه
فهو ملححة وسط صرامة الجذ ، وتحرر كما يقول من قيد العقل ، قد يحتاج إليه
الإنسان ، يحتاج إلى مثل هذا الجنون ، أو اللامعقول .

ونختم حديثنا عن هذا الشاعر العجيب بهذه الآيات التى نظمها فى زيارة له إلى
مدينة تبتس على بحيرة المنزلة ، وكانت مدينة عامرة ، مزدهرة بالبساتين والزهور ،
يؤمها أهل الخلاعة ، وطلاب المتعة ، للشراب ، فقد كانت مشهورة بمخمورها
لكثرة ما يزرع أهلها من الكروم ، ومنها يعصرون ويعتقون الشراب . وكان
معظمهم من النصارى . ويذكر بعض منازة النيل والجزيرة ودير القصير . يقول :

لَيْلِي بَتْبَسَ لَيْلِ الْخَائِفِ الْعَانِي
أَقُولُ إِذْ لَجَّ لَيْلِي فِي تَطَاوُلِهِ
لَمْ يَكْفِ أُنَى فِي تَبْتِسٍ مُطَرِّحٍ
حَتَّى يُبْلِثَ بِفَقْدَانِ الْمَنَامِ فَمَا
مَا صَاعِدَ الْبَرْقِ مِنْ تَلْقَاءِ أَرْضِهِمْ
وَلَا حَنَنَتْ إِلَى نَجْرَانٍ مِنْ طَرَبٍ
لَا تَكْذِبَنَّ ، فَمَا مَصْرُوًا بُعْدَتْ
لِيَالِيَّ النَّيْلِ لَا أَنْسَاكِ مَا هَتَفَتْ
أَصْبُوًا إِلَى هَفَوَاتٍ فَيْلِكَ لِي سَلَفَتْ
مَعَ سَادَةِ نَجَبٍ ، غَرٍّ ، غَطَارِقَةٍ
وَذِي دَلَالٍ إِذَا مَا شَعْتُ أَنْشَدَنِي
سَقِيَّتِهِ وَسَقَانِي فَضْلَ رَيْقَتِهِ
مَا زِلْتُ أَجْنَى بِلَحْظِي وَرَدَّوْجَتِهِ
مَا زَالَ يَأْخُذْهَا صَفَرَاءُ صَافِيَةٍ
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا لِي مِنْ صَبَابَتِهِ

تَفَنَّى اللَّيَالِي ، وَلَيْلِي لَيْسَ بِالْفَانِي
يَالَيْلُ أَنْتَ وَطُولُ الدَّهْرِ سَيَّانٍ
مُخَيِّمٌ بَيْنَ أَشْجَانٍ وَأَحْزَانٍ
لِلنَّوْمِ إِذْ بَعُدُوا عَهْدَ أَبْجَانِي
إِلَّا تَذَكَّرْتُ أَيَّامِي بِنَعْمَانٍ
إِلَّا تَكْنَفْنِي شَوْقٌ لِنَجْرَانٍ
إِلَّا مَوَاطِنُ أَطْرَانِي وَأَشْجَانِي
وَرُقُّ الْحَمَامِ عَلَى دَوْجٍ وَأَغْصَانٍ
قَطَعْتُهُنَّ وَعَيْنُ الدَّهْرِ تَرَعَانِي
فِي ذُرْوَةِ الْمَجْدِ مِنْ ذَهْلِ بْنِ شِيَّانٍ
وَإِنْ أَرَدْتُ غِنَاءَ مِنْهُ غَنَّانِي
وَجَادَ لِي طَرْفُهُ عَطْفًا وَمَتَّانِي
وَاسْتَطِيرَ عَلَى ثَفَاجِ كَيْتَانٍ
حَتَّى تَوَسَّدَ يُسْرَاهُ وَخَلَّانِي
وَمَا عَلَى جَنَاحِهِ طَرْفُهُ الْجَانِي

عني تصاحب ناياب وعيدان
بأثت تجود عليها سحب نيسان
عن أصفر فاقع، وعن قاني
كان أجفانه أجفان وسنان

كم بالجزيرة من يوم نعمت به
سقى لليلتنا بالديرين ربنا
والطل منحدراً، والروض مبتسم
والنرجس الغض منهل مداًمه

مالي وللعقل، ليس العقل من شائني
أحدوته، وبحب الحمق أغرائي
ولا له في اصطناع العرف من ثائني
رحب المكارم سمح غير مثنان

أستغفر الله من عقلي نطقت به
لا والذي دون هذا الخلق صيرني
ما للشذائي من مثل يقاس به
مهذب الرأي محمود خلائقه

الرَّقِيقُ الْقَيْرَوَانِي

إبراهيم بن القاسم أبو إسحاق (ت سنة ٤٢٥ هـ)

لقب بالرقيق (بقافين بينهما ياء مشددة) (١)، نشأ بالقيروان ، في عصر
الدولة الفاطمية بها وبلغ الشباب عند انتقال المعز من القيروان والمهدية إلى
القاهرة المعزية سنة ٣٦١ هـ .

وأخبار الرقيق شحيحة بالمصادر . وغاية ما حصلناه منها أنه تعلم بالقيروان
ونبغ في الأدب كتابة وشعراً ، وعمل كاتباً في ديوان الصنهاجين وعرف بأنه
كاتب الحضرة في الدولة الصنهاجية ، وظل بهذه الوظيفة ما يقرب من نصف
قرن ، خدم الأمير المنصور بن يوسف بن زيري ، وبأديس ابنه والمعز بن
بأديس .

وتوجه مرتين أو ثلاثة من القيروان إلى القاهرة مبعوثاً من أمراء صنهاجه
مقيروان إلى خلفاء الفاطميين أيام أن كانت إمارة الصنهاجين تابعة للدولة
الفاطمية ، في حكم المعز والعزیز والحاكم .

وأول مرة توجه فيها إلى القاهرة كانت سنة ٣٨٦ هـ مبعوثاً من الأمير
منصور لتهنئة الحاكم بأمر الله بالخلافة ، وقد حمل معه هدايا ثمينة مع سجل
التهنئة .

وأشدد الحاكم قصيدة التهنئة يقول في مطلعها :

إِذَا مَا ابْنُ شَهْرٍ قَدْ لَبَسْنَا شَبَابَهُ بَدَأَ آخِرٌ مِنْ جَانِبِ الْأَفْقِ يَطْلُعُ
إِلَى أَنْ أَقْرَتْ جِيزَةَ النَّيْلِ أَعْيُنًا كَمَا قَرَّ عَيْنًا طَاعِنٌ حِينَ يَرْجِعُ

قال عنه ابن رشيق : « الكاتب النديم ، شاعر سهل الكلام محكمه ، لطيف
الطبع قوي ، تلوح الكتابة على ألفاظه . قليل الشعر . غلب عليه رسم الكتابة
وعلم التاريخ ، وتأليف الأخبار ، وهو بذلك أحذق الناس ، وهو كاتب

(١) راجع نموذج ابن رشيق القيرواني ، ص ٢٨ ، طبع زين العابدين السنوسي دار المغرب العربي بتونس
سنة ١٩٧١ م .

الحضرة منذ نيف وعشرين سنة إلى الآن » . لعل ذلك كان في حدود سنة ٤٢٠ هـ .

قال حسن حسنى عبد الوهاب (١) : « المعروف بالرفيق وبالكاتب والنديم ، فإنه ترى في حجر البلاط الصنهاجى ، وباشر الكتابة الخاصة ، وترأس ديوان الرسائل مدة ثلث قرن ، وتردد سفيراً إلى الدولة الفاطمية أكثر من مرة » وسما ذكره في أفريقية (تونس) ومصر ، وشاعت تأليفه التاريخية والأدبية في الآفاق .

وكانت له عناية بالفنون ، لا سيما بالأنغام والألحان . وتقد. وضع كتاباً خاصاً بعنوانه « الأغاني » .

ويقول ابن رشيق : « وكان قد وفد على مصر سنة ٣٨٨ هـ أو سنة ٣٨٦ هـ على حد قول المقرئى ثمانية وثمانين وثلاثمائة بهدية من نصر الدولة باديس بن زيرى إلى الحاكم ، فقال قصيدة ذكر فيها المناهل ثم قال :

إذا ما ابن شهر قد لبسنا شبابه بدا آخر في جانب الأفق يطلُّع
إلى أن أقرت جيزة النيل أعيناً كما قرَّ عيناً ظاعين حين يرجع

يقول فيها بعد مدح كثير ووصف جميل :

هدية مأمون السرية ناجح	أمين إذا خان الأمين المضيق
وما مثل باديس ظهير خلافة	إذا اختير يوماً للظهير موضع
نصير لها من دولة حاقمية	إذا ناب خطب أو تفاقم مطمع
جسام أمير المؤمنين وسهمه	وسم دُعاف في أعاديه منقع

وانتهز الرفيق وفادته إلى القاهرة ليلتقى فيها بجماعة من الشعراء والأدباء ، ولتمتع نفسه بمنازة مصر والقاهرة ، ويرتاد الأماكن التى يعتادها هؤلاء ، ويعقدون بها مجالس الأنس والشراب ، وقد ترددت أسماؤها كثيراً في شعر العصر مثل بركة الحبش ، ودير القصير بالمقطم وشاطئ النيل بالجيزة والمقس ، والروضة .

(١) ورقات ١ / ٢١٩ .

وكان الرقيق نزها ، رقيق الروح ، مرحاً ، محباً للهو والشراب يأنس له كل من جالسه ، فلا غرو أن لقي من المصريين محبة طيبة أحبهم وأحبوه . وأوحشهم فراقه ، كما شعر هو بالشوق إليهم وإلى مغاني القاهرة ومصر عند عودته إلى تونس والقيروان .

ونظم يتذكر مشتاقاً لتلك الأوقات الطيبة الممتعة ، والصحبة السعيدة بقول (١) :

تَوَدَّى تَحِيَّاتِي إِلَى سَاكِنِي مِصْرٍ
وَحَمَلْتُهَا مَضَاقٍ عَنْ حَمَلِهِ صَدْرِي
شَمَمْتُ نَسِيمَ الْمِسْكِ مِنْ ذَلِكَ التَّشْرِ
فَلَيْسَ بِخَالٍ مِنْ ضَمِيرِي ، وَلَا فِكْرِي
فَطَابَتْ لَنَا إِذْ وَاقَفْتُ غُرَّةَ الدَّهْرِ
فَلَسْتُ بِمُعْتَدٍ سِوَاهَا مِنَ الْعُمَرِ
فَتَقَدَّرَ رُوحَ الْوَصْلِ مِنْ رَاحَةِ الْهَجْرِ
مِنَ الْهُو مَا تَنَفَّكْتُ مِنِّي عَلَى ذِكْرِ
مَصَائِدُ غَزَلَانِ الْمَطَارِدِ وَالْقَفْرِ
جَزِيرَتُهَا ذَاتُ الْمَوَاجِرِ وَالْجَسْرِ
أَتَيْتُ إِلَى شَاطِئِ الْخَلِيجِ إِلَى الْقَصْرِ
إِلَى دَيْرٍ مَرَحَتَا إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ
إِلَى الْبَرَكَةِ الزَّهْرَاءِ مِنْ زَهْرِ نَضْرِ
مِنَ السُّنْدُسِ الْمَوْشِي تَنْشُرُ لِلتَّجْرِ
نَهَارِي بَلِيلِي ، لَا أَتَيْتُ مِنَ السُّكْرِ
إِذَا هَتَفَ التَّاقُوسُ فِي غُرَّةِ الْفَجْرِ
تَشَكَّتْ أَذَى الزَّنَّارِ مِنْ دِفْعَةِ الْخَصْرِ
لِمَا نِلْتُ مِنْ لَذَائِهَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ
وَأَنْ غَنَيْتُ بِالْبَيْلِ عَنْ مُقْبِلِ الْقَطْرِ

هل الريحُ إن سارَتْ مشرقةً تُسِيرِي
فَمَا خَطَرْتُ إِلَّا بِكَيْتٍ صَبَابَةٍ
تَرَانِي إِذَا هَبَّتْ قَبُولاً بِنَشْرِهِمْ
وَمَا أَتُسُّ مِنْ شَيْءٍ خِلَا الْعَهْدِ دُونَهُ
لِيَالٍ أَيْسَنَاهَا عَلَى غُرَّةِ الصَّبَا
لِعَمْرِي لَيْتَ كَانَتْ قِصَاراً أَعْدَهَا
أُخَادِعُ دَهْرِي أَنْ يَعُودَ بِفَرْحَةٍ
وَتَرْجِعَ أَيَّامٌ تَحَلَّتْ بِمَعَاهِدِ
فَكَمْ لِي بِالْأَهْرَامِ أَوْ دَيْرِ نَهْيَةٍ
إِلَى جِيْزَةِ الدُّنْيَا وَمَا قَدْ تَضَمَّنَتْ
وَبِالْمَقْسِ وَالْبُسْتَانِ لِلْعَيْنِ مُنْظَرٌ
وَفِي سَرْقُوسٍ مُسْتَرَادٍّ وَمَلْعَبٌ
وَكَمْ بَيْنَ بُسْتَانِ الْأَمِيرِ وَقَصْرِهِ
تَرَاهَا كَمَرَاةٍ بَدَتْ فِي رَفَارِفِ
وَكَمْ بَتْ فِي دَيْرِ الْقُصَيْرِ مُوَاصِلًا
تُبَادِرُنِي بِالرَّاحِ بِكُرٍّ غَرِيرَةٍ
مَسِيحِيَّةٍ خُوطِيَّةٍ كُلَّمَا انْتَشَتْ
وَكَمْ لَيْلَةٍ لِي بِالْقَرَاةِ خِلْتُهَا
مَتَى اللَّهُ صَوَّبَ الْقَصْرَ تِلْكَ مَغَانِي

(١) راجع المخطوط للمقريزي ١/ ٣٧٠ .
ومعجم الأدباء لياقوت ١/ ٢٨٨ ، ومقدمة المختار من قطب السرور ، ص ١١ وما بعدها .

وللترقيق مقطعات ، وأجزاء من قصائد رواها ابن رشيق في الأمودج ،
تكشف إلى حد ما عن صنعته الشعرية التي رصدها ابن رشيق وهدانا إليها فيما
علق به على أبياته التي أوردتها في أغراض متعددة ، وإن كانت هذه الأبيات لا
تشفي غليلنا في زيادة التعرف على الشاعر .

ومما أوردته ابن رشيق أبيات في إخوانياته ، ورسائل شعرية تبادلها مع
أصدقائه . يقول ابن رشيق^(١) : « ومن شعره جواباً على أبيات كتبها إليه
عمار بن جميل ، وقد انقطع عن مجالس الشراب :

قريضٌ كابتسامِ الرُّو	ضِ جَمَشَه نَسِيمُ صَبَا
كعقيدٍ من جُمانِ الطَّل	لِ منظومٍ وما نُقِبا
ومشورٍ كثرِ الـدُّ	رٌ من أسلاكِهِ انْسَرِبا
فأهدى نَشْرَ زَهْرَتِهِ	فَتَيْتِ الْمِسْكِ مُتَهَبَا
إذا أَمَّارُهُ جُنَيْتِ	جَنَيْتِ الْعِلْمَ وَالْأَدْبَا
يَهْزُوكَ حِينَ تُشْبِدُهُ	كَأَنَّكَ مُنْتَشِرٌ طَرِبا
حَبَاكَ بِهِ أَخٌ يَرْعَى	لَكَ الْعَهْدَ الَّذِي وَجِبَا
صديقٌ مثلُ صفوِ الما	ءِ بالصَّهْبَاءِ قَدْ قُطِبَا ^(٢)
كَتَرَتْ مَوَدَّةٌ مِنْهُ	كَفَتْ أَنْ أَكْثَرَ الذَّهَبَا
إذا عَدَّ امْرُؤٌ حَسْبَا	فَحَسْبِي ذِكْرُهُ حَسْبَا
أَلَدُّ مِنَ الْحَيَاةِ لِلدُّ	ى ، لَكِنْ قَلْبُهُ قَلْبَا
فَهَانَ عَلَيْهِ مَا أَلْقَى	وَظَنَّ تَجَلْدِي لَعِبَا

* * *

جِفَوْتُ الرِّاحَ عَنْ سَبَبِ	وَكَانَ لَجَفَوْتِي سَيَا
فَصُرْتُ لَوْحْدَنٍ كَسَلًا	لَدَى الْإِخْوَانِ مُجْتَبَا
وَذَاكَ لَتَوْبَةٍ أُمْلَأْتُ	أَنْ أَقْضَى بِهَا أَرْبَا
فَهَا أَنَا تَائِبٌ مِنْهَا	فُزْزِنِي تُبْصِرُ الْعَجَبَا

(١) الأمودج ص ٢٨٠ ، ومقدمة جزء من تاريخ أفريقية للمنجي الكعبي ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) قطب الشراب : مزج .

أبيات إخوانية عذبة العتاب ، لا تخلو من مداعبة الصديق ، والدل عليه بما في قلبه من مودة .

ويتغزل الرقيق فيظرف ، ويرقق القول ، وإن لم يخرج في لفظه عن قاموس الغزل العربي السابق . يقول :

وَخَفَّ مِنْ فَوْقِهَا خَصِرٌ وَتَنَطَّقُ	إِذَا أَرَجَحْتُ بِمَا تَحْوِي مَازِرُهَا
عَلَى كَتِيبٍ بِهِ مِنْ دِمِهِ لَقْتُ (١)	ثَنَا الصَّبَا غُصْنًا قَدْ غَازَلْتَهُ صَبَا
وَلِلْغَزَالِ احْوَرَارُ الْعَيْنِ وَالْعَنَقِ (٢)	لِلشَّمْسِ مَا سَتَرَتْ عَنَا مَعَاجِرُهَا
وَالْبَدْرِ يَكْشِفُ أَحْيَانًا وَيَنْمَحِقُ	مَظْلُومَةً أَنْ يَقَالَ الْبَدْرُ يُشَبِّهُهَا
جَبِينُهَا تَحْتَ دَاجِي لَيْلِهَا فَلَقْتُ	يُجَلِّلُ الْمُتَنِّ وَحْفٌ مِنْ ذَوَائِهَا
بَنُورِهَا يَرْتَبِي فِي حُسْنِهَا الْحَدَقُ	كَأَنَّهَا رَوْضَةٌ زَهْرَاءُ حَالِيَةً

ومن هذا اللون من الغزل ، مما اختاره ابن رشيح قوله (٣) :

أَجَلُّهُ الْمُتَمَنَّى عَنْ أَمَانِيهِ	رِثْمٌ إِذَا مَا مَعَارِضُ الْمَنَى خَدَّارَتْ
أَمْ خَمْرُ دَارَيْنِ مَعَ مِسْلِكٍ عَلَى فِيهِ	يَا إِخْوَتِي أَفَاجِي فِي مُقْبَلِهِ
أَمْ حَسَنُ ذَاكَ التَّهَادِي فِي ثَنِيهِ	أَمْ حُسْنُ ذَاكَ التَّرَاخِي فِي تَكَلِّمِهِ
أَمْ عَطْفُهُ ، أَمْ نَوَاهُ ، أَمْ تَدَانِيهِ	أَمْ سُخْطُهُ أَمْ رِضَاؤُهُ فِي تَجَنُّبِهِ
يَا قَاتِلِي كُلِّ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهِ	نَفْسِي فِدَاؤُكَ ، مَالِي عَنْكَ مُصْطَبِرٌ

ونقف مع قوله في البيت الثاني « يا إخواني أفاجي في مقبله » فنرى كيف صاغ هذا القول السهل الجارى في عبارة شعرية أخاذة ، بها حلاوة الصدق ، ورقة التعبير .

ويعمد الرقيق إلى بدء قصائد المديح بالغزل ، وقد ينحو فيه نحو القدماء ويصطنع طرقهم ، إلا أنه يمزجها بروحه فيبدو غزلاً قديماً محدثاً كأن يقول :

يمدح محمد بن أبي العرب التميمي أحد رجالات الدولة الصنهاجية :

أَظَالِمَةُ الْعَيْنِينَ يَخْلُطُهَا السَّحَرُ	وَإِنْ ظَلَمَ الْحَدَّانَ وَاهْتَضَمَ الْخَصَرُ
أَعُوذُ بِبَرْدٍ مِنْ ثَنِيَاكَ قَدْ ثَنَى	إِلَيْكَ قُلُوباً يَلِئُ أَحْشَانُهَا جَمْرُ

(١) وروى صدر البيت : « ثنى العبر غصيناً غازلته صبا ، والثنى البذل .

(٢) العنق : طول العنق وجماله .

(٣) الأتمودج ص ٣٣ .

لقد ضمنت في الحب أن ضمانتني
وما أُم ساجي الطرف خفاقة الحشا
إذا ما رعاها نصت الجيد نحوه
بأصلح منها منظراً ومقلداً
يقول في مدحها :

تصبأه أبكار الكلاليس بينها
يُخال بأن العرض غير موفر
منعمة هيفاء أو غادة بكر
عن الدّم إلا أن يدال له الوثر
ويقول فيها يصف ممدوحه بالهمة وقيادة الجيش في النزال :

وملمومة شهباء يستعي أمامها
يزجي نبات الأعوجية شرباً
أسود وغي تحت العجاجة غابها
صيححت بها دهماء قوم أرثهم
ويصف فيها بلاغته وكتابته فيقول :

يوشح ديباج البلاغة أحرفاً
يفصح لفظاً حظاً من فصاحة
يصيب غيون المشكلات بديهية
يكاد يرى روضاً يوشحه الزهر
ويشرق من تحبير ألفاظها الحبر
وتبدى له أعقاب ما غيب الفكر

ويرى ابن رشيق جودة هذه القصيدة وأنها من أعجب ما سمع .
ومما جاء من وصفه قوله يصف واقعة حربية ، من قصيدة يمدح الأمير أبا
مناد باديس بن زيري سنة ٤٠٥ هـ :

لم أنس يوماً بشئف راع منظره
والخيل تعبر بالهَامَاتِ خائضة
والبيض في ظلمات النقع بارقة
وقد بدا معلماً باديس مُشتهراً
وآى راحته لو فاض نائلها
تجلو عمانته الحمراء غرته
لو صور الموت شخصاً ثم قيل له :
وقد تضايق فيه مُلتقى الحدق
من سافح الدّم يمرى قاني الفلق
مثل النجوم تهاوت في دجى العسق
كالشمس في الجوّ لا تخفى عن الحدق
وبأسها في الورى أشقى على الغرق
كأنه قمر في حُمرة الشفق
أبو مناد تبدي مات من إفرق

ومن قوته في الثناء (١) :

أهُونُ ما أَلْقَى وليسَ بهينَ	فإنَّ المنايا بالتَّفُوسِ رَواصِدُ
وإني وإنْ لَمْ أَلْقُكَ اليَومَ رَاحِياً	لِصِرْفِ رزاياها لقيتُكَ في غَدِ
فلا يبعِدُنكَ اللهُ ميتاً بفقرةٍ	مُغفِرٍ يَحْدُ في الثَّرى لَمْ يُوسِدِ
تَرَدَّى نَجيباً حينَ بَزَّتْ ثيابهُ	كَأَنَّ عَلَيَّ أَعْطافِهِ فَضْلَ مِجْسَدِ
مَضَاءُ سَنانٍ في سَنانٍ مُدَلَّقِ	وَفَتَّكَ حَسامٍ في حَسامٍ مُهَنَّدِ

★ ★ ★

(١) الأتمودج ، ص ٣٤ .

صريع الدلاء

أبو الحسن علي بن عبد الواحد البغدادي (ت سنة ٤١٢ هـ) (١)

لُقِّبَ بقتيل الغواشي أي ذى الرِّقاعتين .

وصف بأنه الشاعر المشهور .

نقل ابن خلكان عن القاضي الرشيد ابن الزبير ، قوله : « كان يسلك في شعره مسلك أبي الرقعمق » . قال : وله قصيدة في الجون ختمها بيت لو لم يكن له في الجد سواه لبلغ به درجة الفضل ، وأحرز معه قصب السبق . وهو قوله :

من فاته العلم وأخطاه الغنى فذاك والكلبُ على حدِّ سوا
وقال الثعالبي (٢) أن اسمه علي وقيل محمد . القصَّار . « وهو بصريُّ المولد والمنشأ ، إلا أنه استوطن بغداد ، ولما رأى سخف الزمان وأهله وميلهم من الكلام إلى هزله أخذ في طريق السَّخْف ، ونزع ثياب الجد وتلقب بصريع الدلاء ، وتشبه بابن الحجاج ، وهيئات ا » .

ويذكره صاحب تاريخ ميفارقين على أنه علي بن عبد الواحد (٣) . وينعته بأنه الفقيه البغدادي الشاعر . وأنه كان شاعراً ماجناً . ويذكر أنه مدح صاحب ميفارقين أبا منصور نصر الله بن مروان .

وربما كان ذهابه إلى ميفارقين في رحلته مغادراً بغداد والعراق في حدود سنة ٤١٠ أو ٤١١ هـ .

ومر في هذه الرحلة بالشام ، وعرَّجَ على المعرة . والتقى بأبي العلاء المعري في محبسه بيته ، وطلب من أبي العلاء نفقه ، فبعث إليه بقدر قليل واعتذر بأبيات يقول فيها :

تفهتُم يا صريع البين بُشرى أت من مُستَقِيل مُستَقِيل

(١) ترجمته — وفیات الأعيان ٣ / ٣٨٤ . وتنمية النيمة ص ٢٢ .

(٢) نعمة النيمة ص ٢٢ .

(٣) تاريخ ميفارقين ١٤٣ .

يقول فيها :

دُعيت بِصَارِعٍ فتداركته مبالغةً فَرَدُّ إلى فعيل
وانتقل صريع الدلاء إلى القاهرة ، ويقول ابن خلكان إنه جاءها سنة
٤١٢ هـ في خلافة الظاهر بن الحاكم ، وفي خبر آخر أنه لحق الحاكم قبل اختفائه
ومدحه .

ولا نعث في المصادر الشحيحة بأخباره وشعره إلا بالآيات القليلة التي لا
تشفي غليلاً .

قال الثعالبي ولما أنشد فخر الملك علي بن خلف وزير عضد الدولة
البويهى - قصيدته التي منها :

يَا إِذَا الْجَلَالَاتِ وَيَاذَا النِّعَمِ الْمُنِيقَةِ
يا نعمة الله على جميع مَنْ قد خَلَقَهُ
لو فَاخِرَ الدَّهْرِ الْوَرَى عُلُوتِ مِنْهُ عُنُقَهُ
قد وَالَّذِي يُبْقِيكَ لِي مَا انْقَطَعَتْ بِي النِّفَقَةُ
وَبَعَثَ مِنْ دِفَاتِرِي مَا كَانَ جَدَى وَرَقَهُ

وهي هزلية طويلة ، فأعطاه ما أغناه ، فنبئت ريحه ، ونفقت سوقه ودرت
الصَّلَاتُ به ، وتداول أهل بغداد قصيدته التي عارض فيها أبا العنيس في تأخير
النفقة ، وذكر التميمي أنه قالها .

وأكثر شعره في داره ، وأنه كان يسميها باديته . وأول القصيدة :
قَلَقَلْتُ أَحْشَايَ تَبَارِيحُ الْجَوَى وَبَانَ صَبْرِي حِينَ حَالَفْتُ الْأَسَى
يقول : ومنها - وهي مُطْمِئنة مؤيسة :

يا سَادَةً بَانُوا وَقَلْبِي عِنْدَهُمْ
وَسَوْفَ أُسْلِي عَنْكُمْ صَبَابِي
فِي ظَرْفِ نَظْمَتِهَا مَقْصُورَةٌ
مَنْ صَفَعَ النَّاسَ وَلَمْ يُمَكِّنْهُمْ
مَنْ مَضَعَ الْأَحْجَارَ أَدَمَتْ فَكَّهُ
مَنْ نَامَ لَمْ يُصَيِّرْ بَعْنَى رَأْسِهِ
مَذْغَبْتُ قَدْ غَابَ عَنْ عَيْنِي الْكَرَى
بِحِمَقَةٍ يَعِجِبُ مِنْهَا مَنْ وَعَى
إِذْ كُنْتُ قَصَّارًا صَرِيحًا لِلدَّلَا
أَنْ يَصْفَعُوهُ بَدَلًا قَدْ اعْتَدَى
فَالضَّرْسَ لَمْ يُخْلَقْ لِتَلِينِ الْحَصَى
وَمَنْ تَطَاطَا رَاكِعًا قَدْ انْخَبَى

من رامح الخيل كسرن ساقه
من صام أسبوعاً تماماً ليله
من قطع النخل وظل راجياً
ومن طلى بالجبر صحن وجهه
ومن حدى فى نومه فقد هذى
مع النهار لم يوافق الحوى
ثمارها ، فذاك مقطوع الرجا
حكى بما سؤد ليلاً قد دحا
قال الثعالبي وهى طويلة تُرى على المائة . وقد أعجز الشعراء أن يزيدوا فيها
بيتاً واحداً .

وأشار إليها ابن العماد بقوله : وهو صاحب المقصورة المشهورة . وقال
ابن خلكان إنه ختمها بيت لو لم يكن له فى الجد سواء لبلغ درجة الفضل
وهو :

من فاته العلم وأخطاه الغنى فذاك والكلب على حدّ سوا
وذكر أنه لم يغش طويلاً بعد حضوره إلى مصر . قال ابن خلكان « وكانت
وفاته فى سابع رجب سنة ٤١٢ هـ فجأة من شرقة لحقته عند الشريف
البطحائى » .

عبد المحسن الصوري

(ت سنة ٤١٩ هـ)^(١)

هو أبو محمد عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب بن غلبون الصوري قال عنه ابن خلكان : « الشاعر المشهور ، أحد الفضلاء المجيدين الأدباء . شعره بديع الألفاظ ، حسن المعاني ، رائق الكلام ، مليح النظام . من محاسن أهل الشام » .

وقال صاحب الشذرات : « الشاعر المشهور . أحد المتقنين الفضلاء المجيدين الأدباء . شعره بديع الألفاظ ، حسن المعاني ، رائق الكلام ، مليح النظام ، من محاسن أهل الشام » .

وهو نص كلام ابن خلكان .

وذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ، رواية عن الشاعر ابن حيّوس قال : « سمعت جدي القاضي يحيى بن علي القرشي يذكر عن أبي الفتيان ابن حيّوس أنه كان يقول : إني ليعرض لي الشيء من شعر أبي تمام والبحترى وغيرهما من المتقدمين ، فأعمل في معناه ، فأبلغ مرادى منه ، ولا أقدر من موازنة شعر عبد المحسن الصوري ما أريد لسهولة ألفاظه وعذوبة معانيه وقصر أبياته » .

ونشأ عبد المحسن بمدينة صور جنوبي لبنان الآن ، وعاش بها زمناً . وقال الشعر صبيّاً . ومن شعره في صباه قوله :

إنّ أحبّابنا الذين استقاموا في طريق الهوى سهرت وناموا
حجّبوا ، فاحتجبت عني إفمالي في عهد ولا بهم والسلام

واتصل في صور بجماعة من أعيانها وأشرافها يمدحهم ويأخذ جوائزهم ، ومنهم أبو القاسم الحسين بن علي بن كردى العامل بصور . قال فيه^(٢) :

(١) راجع ترجمته في بئيمة الدهر ١/ ٣١٢ ، وتنمى البئيمة ص ٣٥ ، وفيات الأعيان ٣/ ٢٣٢ ، شذرات الذهب ٣/ ٢١١ ، والعبر ٣/ ١٣١ ، والنجم الزاهرة ٤/ ٢٦٩ ، وراجع الأفضليات ص ١٣١ ، ص ١٣٥ ، ص ١٥٦ .
(٢) ديوانه ٢/ ٥ .

إِذَا مَا عُقِدَ الْكَاتِمُ وَحَلَّ الْمَدْمَعُ السَّاجِمُ

وفى القاضي أبو إسحاق بن وديع الحاكم بصور^(١) :

مَالِ رِيمِ الْكِسَاسِ لَيْسَ يَرِيْمُ أَثْرَاهُ مُسْتَشْعَرًا مَا يُرُومُ ؟

كما مدح بعض بن حيدرة العلويين بصور وطرابلس ، وكانوا من رجال الفاطميين المواليين .

ومدح من إمراء الجند وقادة الفاطميين الأمير بكجور قائد الخليفة العزيز بالله سنة ٣٧٤ هـ ، كذلك مدح برجوان رجل العزيز القوى ، ووزير الحاكم بأمر الله قبل أن يقتله .

ويبدو أن الصوري تنقل في بلاد الشام من صور إلى دمشق إلى طرابلس ، إلى الرملة إلى طبرية ، ولقى في كل بلد حل به جماعة من الرؤساء والقضاة ، والولاة ، والمسؤولين عن الحكم من رجال الفاطميين .

وله قصيدة في الوزير المغربي علي بن الحسين المغربي ، والد الوزير والشاعر المشهور أبي القاسم الحسين بن علي . وهي من مشهور شعره مطلعها^(٢) :

أَتَرَى بَشَارَ أُمِّ بَدِينٍ عُلِقَتْ مَحَاسِنُهَا بِعَيْنِي

وليس لدينا ما يؤكد به أو ننفي إن كان قد أنشدها إياه بمصر أيام وزارته للحاكم ، وقبل أن ينكبه سنة ٤٠٠ هـ أو سنة ٣٩٩ هـ .

ومدح الأمير بنجكتين أمير دمشق بقوله^(٣) :

تَعَوَّدَ أَنْ يَحُولَ وَأَنْ يَحُونَا إِذَا أُعْطِيَ بَزْرُوتُهُ يَمِينَا

ومدح القائد أبا الجيش حامد بن ملهم والي دمشق سنة ٣٩٩ هـ بقوله^(٤) :

أَبَا الْجَيْشِ حَسْبَ الشَّعْرِ مَا أَنْتَ صَانِعُ	فَقَدْ عَجَزْتُ عَنْ فِعْلِ ذَلِكَ الْقَصَائِدُ
أَمَّا انْصَلَحْتَ لِلْمَالِ مِنْكَ طَوِيَّةُ	فَتَصْنِئُهُ ، حَتَّى مَتَى أَنْتَ حَاقِدُ
سَبَقَتْ بَنَى الدُّنْيَا فَمَا هَبَّ قَائِمُ	سِرَاكُ إِلَى جَوْدٍ وَلَا قَامَ قَاعِدُ

(١) ديوانه ص ٧ .

(٢) ديوانه ص ٤١ .

(٣) ديوانه ص ٥٤ .

(٤) يتيمة الدهر ٣١٧٠١ .

ومدح أحد أبناء المفرج بن دغفل بن الجراح وهو عبد الله . ولعله أنشدها إياه بالرملة (١) . يقول فيها :

أنا معجبٌ بالمعجبِ التياهِ متغلبٌ في حبه متاهٍ
وفي مدحته هذه لعبد الله بن المفرج تعرض بالشكوى ، وأن الزمن الليالي
والأيام تعانده . ففيم كانت المعاندة هذه ؟. على أية حال فهو يقول :

يا ابن المفرج ، والليالي أنعمْ إلا على فإنهن دواهي
يأتين طول الدهر أن يلقينني إلا ذوات جهالة وسفاه
قصرت يداي فدق جاهي عندها طول اليدين يزيد غرض الجاه
وأراك في طلب العلا ذا قوة فأنسك بهارم الضعيف الواهي

لقد كان آل المفرج الطائيين كما أشرنا في حديثنا عن التهامي رجال الدولة
الأقوياء في جنوب الشام ، يملكون اللد والرملة ، ويتحالفون مع غيرهم من أمراء
العرب بالشام ، فيكونون تارة في طاعة الفاطميين إذا قويت شوكتهم ، ويخرجون
عليهم حيناً إذا رأوا فيهم ضعفاً ، أو في بعض خلفائهم غفلة ، أو حدثتهم النفس
مع غيرهم من القبائل العربية القوية ، بانتهاز الفرصة لافتراف جزء من الملك
لحوزتهم .

ولعل عبد المحسن آنس في عبد الله هذا قوة ، وارتجى عنده مأرباً كغيره من
الشعراء . لقد رحل من بلده صور بالشام متوجّهاً إلى الرملة جنوباً ، في رحلة من
رحلاته لطلب المال والقربى من ذوى السلطان ، وفي فلسطين أو جنوبى الشام .
ويذكر على بن ظافر أن الصورى كان يتردد على دمشق ، وأنه كان ينزل
بمسوق القمح بمنزل هناك (٢) .

وبهنا وفوده إلى مصر ، ويشير شعره ، وتنبئ أخباره أنه قصد مصر ،
ونزل بالقاهرة أو الفسطاط ، وأنشد الخليفة العزيز بالله ، كما مدح الحاكم بأمر الله
أبيه .

(١) ديوانه ١٠١/٢ .

(٢) راجع بذائع البدائنه ، وملحق الديوان ص ١٣٣ .

قيل إنه أنشده يوم عاشوراء ، وذكر وزيره ، ورجله القوى برجوان وأشار إلى هزيمة ملك الروم باسيل أو باسيليوس فقال :

إلى أن رَجَى سَهْمًا فَصَرْتُ أَسَاهِمُهُ
بِجَفْنِيهِ، أَمْ لَا يَعْدِلُ السَّقَمَ قَاسِمُهُ
فَفَى الْعَيْنِ عُنُونَاتُهُ وَتَرَاجُمُهُ
وَلَكِنْ لَأَنَّ اللَّوْمَ لَيْسَ يِلَازِمُهُ
فَمَا طَلِبْتُ حَتَّى تَجَلَّتْ غَمَائِمُهُ
مِنَ الشُّغْلِ عَنْهُ، قُلْتُ مَا قَالَ نَائِمُهُ
فَوَالَاهُ يَوْمَ شَاخِبُ الْوَجْهِ سَاهِمُهُ
خَبَا نَوْرُهُ لَمَّا اسْتُجَلَّتْ حِمَارِمُهُ
إِلَى الشَّمْسِ مِنْ طَعْنَانِهَا مُتَرَكِمُهُ
هَتَفْتُ بِمَا قَدْ كُنْتُ عَنْهَا أَكَاثِمُهُ
فَلَا تُنْكِرُوا أَنَّ قَوْمَ الدَّهْرِ قَائِمُهُ
وَحُكْمُ فِي الدِّينِ الْحَنِيفِيُّ حَاكِمُهُ
دَعُوا جَدَّهُ تَبْكِي عَلَيْهِ صَوَارِمُهُ
إِذَا هِيَ حَتَّتْ مِنْ قَتِيلٍ جَمَاجِمُهُ
فَلَا أَنْتَ مَبْقِيَةٌ وَلَا اللَّهُ رَاخِمُهُ
يَخَافُ عَلَى أَبْوَابِهَا مِنْ يَزَاجِمُهُ
إِذَا أَنْتُمْ أَرْكَأْنَهُ وَدَعَائِمُهُ
تَبَدَّلْتُ بِسَعِيدٍ، خَاتَمَ الدَّهْرِ خَاتِمُهُ
فَمِنْ جَانِبِ أَرَاوُهُ وَعِزَائِمُهُ
عَلَى النَّاسِ، إِمَّا بِأَسْئِهِ أَوْ مَكَارِمُهُ
عَلَى غَيْرِهَا مَا شَاءَ، فَالسَّيْفُ هَادِمُهُ
لَأَنَّ كَفِيلَ الشَّيْءِ إِنْ ضَاعَ غَارِمُهُ
فَانْهَضُ مَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ عِزَائِمُهُ
أَحِينَ بَدَا مِنْ كُلِّ جَيْشٍ ضَرَاعِمُهُ
يُرَوِّحُ بِهَا أَعْلَاجُهُ وَغِنَائِمُهُ

خَلَا طَرَفَهُ بِالسُّقَمِ دُونِي يُلَازِمُهُ
فَأَصْبَحَ بِي مَا لَسْتُ أَذْرَى أَمَثَلُهُ
لَئِنْ كَانَ أَخْفَى الصَّدْرُ صَدْدًا مِنَ الْجَوَى
وَلَمْ يُخْفِهِ أَنَّ الْهَوَى حَقٌّ حَمَلُهُ
وَيَارُبُّ لَيْلٍ قَصُرَ الذِّكْرُ طَوْلُهُ
وَمَا نَمْتُ فِيهِ غَيْرَ أَنْ لَوْ سَأَلْتَنِي
وَلَكِنَّهُ أَلْقَى عَلَى الصُّبْحِ لَوْنُهُ
كَمَا جَاءَ يَوْمٌ فِي الْمَجْرَمِ وَاحِدُ
طَعَتْ عَبْدُ شَمْسٍ فَاسْتَقَلَّ مُحَلَقًا
فَمَنْ مَبْلَغُ عَنِّي أُمِيَّةٌ أَنْتَنِي
مَضَتْ أَعْصَرُ مُعْجَزَةٍ بَاعَوْجَا حَكَمُ
وَجَدَّدَ عَهْدَ الْمُصْطَفَى بَعْضُ أَهْلِهِ
فِيَا أَيُّهَا الْبَاكُونَ مَصْرَعُ جَدِّهِ
أَلَا أَيُّهَا الشُّكْلَى الَّتِي مِنْ دُمُوعِهَا
لَقَدْ خَسِرَ الدَّارَيْنِ مِنْ صَدِّ وَجْهِهِ
حَرِيصًا عَلَى نَارِ الْجَحِيمِ كَأَنَّهُ
إِلَى مَنْ تَرَاهُ فَوْضَ الْأَمْرِ غَيْرِكُمْ
فِيَا لَكَ مِنْهَا دَوْلَةٌ عَلَوِيَّةٌ
إِذَا نَزَلَ الْأَسْتَادُ مِنْهَا بِجَانِبِ
وَمَهْمَا اقْتَضَى تَدْبِيرُهَا كَانَ مَاضِيًا
بَنَاهَا عَلَى مَا شَاءَ، فَلْيُبَيِّنْ غَيْرُهُ
وَكَلَّلَهَا رَأَى الرَّئِيسَ فَلَمْ تَضِيعْ
إِذَا اجْتَمَعَتْ فِي الْمَلِكِ كُلِّ عَظِيمَةٍ
وَمَا بَالُ بَاسِيلٍ تَوَلَّى مُشْمَرًا
فَالَا أَتَاهَا وَقْفَةٌ دَوْقِيسَةٌ

هذه الأبيات واضحة الدلالة على غرض الشاعر ومناسبة القول ، وهى سند تاريخى لأحداث واقعة ، كما أنها شاهد على عصر صاحبها ، وعلاقاته بالفاطمين ورجالهم ، وما شغل الناس من فكر ورجوه ، وإذاعوه ، ومن أحداث فى الدولة وحارجها ، كذلك تنبىء عن موقف الشاعر وغيره من الشعراء ، ممن جاروا البيت الفاطمى فى آرائه ومعتقداته ، أو اعتنقوا تلك الآراء والمعتقدات موقنين ، وهى أبيات تتحدث عن الصراع بين الفاطميين ودولة الإسلام عامة ، وعدوهم التغلبيد الروم البيزنطيين . وما لقيته بلاد الشام فى عصر الفاطميين ومن قبلهم من جولات ، وكر وفر ، ومشاركة المصريين بجهدهم وسلطانهم وجندهم فى معارك فرضت عليهم ، وخاضوها ذوداً عن بيضة الإسلام ، وحضارته .

وقد أحسن الشاعر بناء قصيدته ، فاختار هذا المدخل أو الاستهلال الذى شكا فيه هوى يكتمه ، ويظل ، يعضه طوال ليله ، ويقطعه بالذكر حتى تطل شمس النهار ، وقد خلع عليها أو خلع الشاعر على صبحه فتوراً مما أحسه طوال معاناته بالليل .. كلها أحاسيس يهد بها لهذا الانتقال إلى الحدث الحزين الموافق للموقف . يوم عاشوراء يوم الحزن والبكاء عند الشيعة الفاطميين ، ويفرخ عن كلمات يرضى بها غضبتهم ، ويطلب العزاء فيما سيلقى الجنة من عذاب أذخره الله لهم .

ويخرج فى المناسبة على الحاكم وقائده ، ويذكر النصر الذى تحقق على يدى برحوان ورجال الحاكم على باسيلوس ملك الروم ، ويراه علامة تأييد من الله . ولعبد المحسن قصيدة نونية عُنونت بأنها فى أهل البيت^(١) . ضمنها كثيراً من آراء الشيعة والفاطميين . يقول فيها :

جَعَلَنَ لِكُلِّ فَوَادٍ فُتُونَا	عيون منعن الرقاد العيونَا
وَكُنْ لِمَنْ رَامَهُنَّ الْمُنُونَا	فَكُنْ الْمُنَى لَجَمِيعِ الرورى
على ما تشاء شمالاً يمينا	وَقَلْبٌ ثَقْلَبُهُ الْحَادِثَاتُ
ومدمعه يستذل المصونَا	يصون هواه عن العالمين
وقد كان ما خفته أن يكونَا	فمالي وكماني داء الهوى
فلما تمكّن أنسى اجنونا	وكان ابتداء الهوى لى مجونا

(١) ديوانه ٢ ص ٦٧ .

وكنْتُ أَظُنُّ الْهَوَى هَيْنًا
فلو كنْتُ شَاهِدَ يَوْمِ الْوَدَاعِ
فَهَلْ تَرَكَ الْبَيْنُ مِنْ أَرْتَجِيهِ
سِوَى حُبِّ آلِ نَبِيِّ الْهَدَى
هُمْ عُدَّتْ لَوْفَاتِي، هُمْ
هُمْ مُورِدُ الْخَوْضِ لِلْوَارِدِينَ
هُمْ عَوْنٌ مَنْ طَلَبَ الصَّالِحَاتِ
هُمْ حِجَّةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ
هُمْ النَّاطِقُونَ، هُمْ الصَّادِقُونَ

فَلَا قَيْتُ مِنْهُ عَذَابًا مُهِينًا
رَأَيْتُ جَفُونًا تُنَاجِي جُفُونَنَا
مَنْ الْأَوَّلِينَ أَوْ الْآخِرِينَ
فَحُبُّهُمْ أَمَلُ الْأَمَلِينَا
نَجَاتِي، هُمْ الْفُوزُ لِلْفَائِزِينَا
وَهُمْ عُرْوَةُ اللَّهِ لِلْوَاتِقِينَا
فَكُنْ بِمَحَبَّتِهِمْ مُسْتَعِينَا
وإنْ جَحَدَ الْحِجَّةُ الْجَاهِلُونََا
وَأَنْتُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ كَاذِبُونََا

وفي شعره في أحد قادة العزيز نزار بن المعز والد المنصور الحاكم بأمر الله نجد النعمة نفسها ، وفيها ما يثبت حضوره إلى مصر ولقائه للعزيز ، يقول (١) :

طَالَ الزَّمَانُ فَلَا ثَنَاءَ وَلَا انْتِنَى
هَلْ اعْرِفَانِ الْبَيْنِ يَوْمَ تَعَانَقَا
كَلَّا وَفَضْلُ غِنَاكُمَا فِي عَذْلِهِ
يَا صَاحِبِي الْمُنْكَرَيْنِ مِنَ الْهَوَى
تَحْتَ السَّرَائِرِ فِي الضَّمَائِرِ لَوْعَةٌ
وَعَسَاكُمَا فِيمَا تَرِيدَانِ الْهَوَى
مَا لِلسَّقَامِ أَتَى يِعْمُ جَوَارِحِي
مِنْ كُلِّ عُصْنٍ تَجْتَنِي ثَمَرَاتِهِ
أَنَا لِلْخَطُوبِ إِذَا دَعَتْ أَقْرَانَهَا
وَلَطْلَامَا صَرَحْتَ صُرُوفَ الدَّهْرِ بِي
حَتَّى اسْتَجَرْتُ مِنَ الزَّمَانِ بِرَاحَةٍ
بَسَطَ الْعَزِيزُ بَنُ الْمَعَزِّ بِنَاءَهَا
مَوْلَى الْمَوَالِفِ وَالْمُخَالَفِ عَنَوَةٌ
وَمَحَبَّةُ اللَّهِ هَادِيَةٌ إِلَى
وَمَقِيمَهَا مِنْ بَعْدِ طَوْلِ قَعُودِهَا
يُضَاءُ بِجُلُوهَا الْوَزِيرُ بِحُلَّتِي

فَقَفَا عَلَى شَحْطِ التَّوَى وَتَبَيَّنَا
وَتَفَارَقَا إِلَّا مَسِيئًا مُحَسَّنَا
مَا زِدْتُمَاهُ بَعْدْلِهِ إِلَّا عَنَّا
مَا لَا تَذَلُّ عَلَيْهِ أَثْوَابُ الضَّنَا
لَمْ تُطْلِقِ الْعَشَّاقُ فِيهَا الْأَلْسِنَا
يَأْتِي بِهِ قَدْرٌ فَيُعْدِلُ بَيْنَنَا
جَمْعًا ، وَلَيْسَتْ لِلظُّلَعَانِ أَعْيُنَا
ثَمَرُ الْقُلُوبِ ، وَمَا أَرَاهَا تُجْتَنِي
إِذْ لَا يَقُولُ لَهَا أَنَا إِلَّا أَنَا
فَأَجَبْتُ صَارِخَهَا ذَلِيلًا مَذْعِنَا
تَرْكْتَهُ مِنْهُ يَسْتَجِيرُ الْأَرْمَنَا
فَيْنَا، فَكَانَ اللَّهُ يَرْفَعُ مَا بَنَى
مِنْ تَحْتِ شَكِّ كَانَ أَوْ مَتَّقِنَا
سُبُلُ الْهَدَى، وَضَحَتْ بِنِعْمَتِهِ لَنَا
عُلُوبَةُ الْأَنْسَابِ عَالِيَةِ السَّنَا
سُبُرُ الْبِرَاعِ وَزُرْقُ أَطْرَافِ الْقَنَا

(١) ديوانه ٢ / ٨٧ .

يَرْمِي جَوَانِبَهَا بِرَأْيِ مُهَذَّبٍ مُتَجَنِّبٍ فِيهِ الْخِيَانَةَ وَالْخِنَا
حَتَّى أَتَيْنَا وَهِيَ ذَاتُ قَلَائِدٍ جَعَلَ الْإِمَامُ فَرِيدُهُنَّ فَرِيدَنَا

ويعضى في مديح هذا القائد حتى يقول :

حصلت بمصر همتي واستوطنت وأفاد لي عذمي سواها موطننا
فغدوت للخطب الكبير مصغراً فيها وللأمر الشديد مهوئنا
وقد اعتمدت عليك إفاجمع بيننا وخذ الحوادث قبل فتكتها بنا
فلك الهناء بدون ما بلغته وبدون ما بلغته وجب الهنا

فيشير إلى مجيئه إلى مصر في هذا الوقت — خلافة العزيز — ولجوئه من أحداث لعلها التي أثارها أحد قادة الأتراك ، وكان قد استولى على بعض بلاد الشام حتى تمكن العزيز من هزيمته وأسره ، وأعانه على ذلك آل المفرج بالرملة .

هُمُ الْوَارِثُونَ عُلُومَ الرَّسُولِ فَمَا بِالْكُمْ لَكُمْ وَارِثُونَ
حَقَّقْتُمْ عَلَيْهِمْ حَقُوداً مَضَتْ وَأَنْتُمْ بِأَسْيَافِهِمْ مُسْلِمُونَ
جَعَلْتُمْ مَوَالَاةَ مَوْلَاكُمْ وَيَوْمَ الْغَدِيرِ بِهَا مُؤْمِنُونَ
وَأَنْتُمْ بِمَا قَالَهُ الْمَصْطَفَى وَمَا نَصَّ مِنْ فَضْلِهِ عَارِفُونَ
وَقَلْتُمْ رَضِينَا بِمَا قَلَّتْهُ وَقَالَتْ نَفُوسُكُمَا مَا رَضِينَا
فَأَيُّكُمْ كَانَ أَوْلَى بِهَا وَأَثَبْتَ أَمْرًا مِنَ الطَّيِّبِينَ
وَأَيُّكُمْ كَانَ بَعْدَ النَّبِيِّ وَصِيًّا، وَمَنْ كَانَ فِيكُمْ أَمِينًا
وَأَيُّكُمْ نَامَ فِي فَرْشِهِ وَأَنْتُمْ لِمَهْجَتِهِ طَالِبُونَ
وَمَنْ شَارَكَ الظُّهَرَ فِي طَائِرٍ وَأَنْتُمْ بِذَاكَ لَهُ شَاهِدُونَ
لِخَالِ اللَّهِ قَوْمًا رَأَوْا رُشْدَكُمْ مَبِينًا، فَضَلُّوا ضَلَالًا مُبِينًا

وما جاء بالقصيدة من الدفاع عن آل البيت ، والفاطميين وحقهم في الخلافة واضح ، غني عن الإشارة ، وهو يُردّد أقوال شعراء الشيعة ، ودعاتهم وسياسيهم في أحقية الإمامة بالوصاية يوم الغدير عن النبي ﷺ لعل بن أبي طالب ، فضلا عما كان لعلّي من مكانة السبق إلى الإسلام وفداء النبي بنفسه يوم الهجرة إذ نام مكانه ، وهو يعلم أن المحاصرين ممن يترصبون بالنبي من قريش يرمعون قتله بليل .

والخطاب في القصيدة موجه إلى العباسيين بالدرجة الأولى ، فهم المنافسون للفاطميين بالشام ، وكانت في عصر الشاعر في النصف الثاني من القرن الرابع مجالاً للصراع بين القوتين العباسية والفاطمية ، وكانت صور وطرابلس مؤثلاً كثير من العلوية والأشراف الحسينيين والحسينيين . وكان الشاعر قريباً منهم يتحدث بما يحبون ، ويدفع دعاوى منافسهم من العباسيين ، إلا أننا نلاحظ أنه لم يصرّح بالهجوم على العباسيين ، بل عمى القول ، مُحسباً ، وتقيةً ، فالقصيدة تعكس الجو العام بالشام ، والصراع المستتر والمعلن ، وهو صراع لم يحسم تماماً لأحد من الطرفين ، بل اعتورته موجات تحسم الأمر لهؤلاء أحياناً ، ثم تعود موجة أخرى لتغلب الفئة الأخرى . وهكذا .

لقد ظل عبد المحسن الصوري يقول الشعر ويتنقل به في ربوع الشام ومصر حتى أعيته السبعون عن الحركة ، فأقام ببلده حتى بلغ التسعين . يقول وقد بلغ السبعين :

جزاك الله عن ذا الفصح خيراً ولكن جاء في الزمن الأخير (١)
وقد حدث لي السبعون حدثاً نهى عما أمرت من المسير
ومد صارت نفوس الناس حولي قصاراً عدت بالأمل القصير

استقر الصوري إذا في بلده ، وثقل جسمه عن أن يحمله إلى البلاد كما كان حاله في شبابه وكهولته ، والآن وقد أصبح شيخاً ضعيفاً ، أثر أن يقضى ما تبقى له من العمر بين أهله في وطنه .

وقد عمّر حتى نيف على الثمانين ، وتوفي سنة ٤١٩ هـ . وكان الحاكم قد اختفى من مسرح الأحداث ذلك الاختفاء الغامض ، وأعقبه ابنه الذي عرف بالظاهر .

وعاصر الصوري في آخريات حياته بعض الأحداث العاصفة في دولة الفاطميين بالشام ، ومنها حركة التمرد التي قادها الوزير المغربي بالرملة بمشاركة حسن ابن المفرج ، وتنصيبهم خليفة جاءوا به من الحجاز .

ويبدو من حياة الرجل أنها لم تكن صاخبة كحياة الشاعر التهامي ، فلم تحدثه نفسه بعظائم الأمور ، ولم يكشف شعره عن ثورة وطموح ، بل كان مواطناً يسير في ركاب الحكام كغيره من الشعراء .

كما كان عبد المحسن شاعراً حضرياً ، يغلب عليه طبع أهل الحضرة ، ليس فيه جفاء الأعراب ، ولا عنف مشاعرهم . كذلك كان شعره سهلاً ، ليناً ، قال عنه ابن خلكان : « شعره بديع الألفاظ ، حسن المعاني ، رائق الكلام ، مليح النظام » . ويقول : « له ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان » .

وأعجب ابن خلكان ، كما أعجب من قبل الثعالبي بقصيدته النونية في مدح أبي الحسين علي بن الحسين المغربي :

الرِّي بشار أم بدين	عَلَيْتُ محاسنه بعيني
في لحظها وقوامها	ما في المهند والرديني
وبوجهها ماء الشبا	ب خليط نار الوجتين
بكرت علي وقالت اخذ	سر خصلة من خصلتين
إما البصود أو الفرا	ق ، فليس عندي غير ذين
فأجبتها ومدامي	تنهل فوق الوجتين
لا تفعلني ، إن حان صدك	أو فراقك حان حني
فكأنني قلت انهضني	فمضت مسرعة ليني

ولا حاجة إلى التنبيه على ما في هذا الشعر من سهولة ، وليونة ، هما أقرب إلى المزاج الحضري المترف في لفظه وإيقاعه وقافيته اللينة ، وحديثه الأنيق الرقيق في حكاية قول المحبوبة ، وحوارها .

وقد عقب ابن خلكان على القصيدة بقوله : « وهى قصيدة طويلة جيدة » (١) .

ويبدو أن إعجاب معاصريه ممن سمع أبياته هذه شجعه على أن يعيد النظم في وزن مشابه ، وقافية مقاربة . حيث يقول في أبيات أخرى :

بعين الله هجرك ، لا بعيني	لعل الفرق بين النظرين
تردك أو ترد علي صبري	عليك فإنها إحدى اثنين

واعجب العلماء غزله لهذه الرقة التي اكتسبها من لفظه حتى إن ابن عساكر روى عن ابن حيوس أنه قال : « يُقال إن أغزل ما قيل قول جرير :

(١) وفيات طبع إحسان ، بيروت ٢/ ٢٣٥ .

إِنَّ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ قَتَلْتَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا
يَضْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ وَهُنَّ أضعف خلق الله إنساناً
وقول عبد المحسن أغزل منه :

بِالَّذِي أَلْهَمَ تَعْذِيبي ثَنَائِكَ الْعَذَابَا
مَا الَّذِي قَالَتْهُ عَيْنَا لِي لِقَائِي فَأَجَابَا

وله في موضوعات أخرى غير المديح والغزل ، ومنها الهجاء ، وهجائه غالباً مقطعات بين بيتين وخمسة أبيات . وتعرض ببعض من كان ينال من شخصه أو شعره ، وقد يُقذع في هجائه ، وقد يكتبني بالتعريض دون التصريح بالهجاء والعورات والقبائح من اللفظ .

وتأتى بعض الموضوعات الأخرى عرضاً في قصيدة المديح ، كالوصف وذكر الخمر والشراب ، أو الغناء والمغنين ، وله في المناسبات قصائد قصيرة ومقطوعات كالتهنئة بالصيام ، أو بمولود ، أو بشفاء من مرض أو التعزية وما إلى ذلك .

وكثير من شعره يدور في هذه الدائرة من المجاملات ، والإخوانيات .

ولا نعثر في شعر الصوري على صور بارعة ، فشاعريته تتركز على سهولة اللفظ ، ورقة التعبيرات ، وخفة التراكيب والأذواق ، وقليل ما تراه يستعين بمحفوظ من الشعر القديم ، أو يعيد بعض معانيه وصوره ، كذلك قليلاً ما ترد في الفاظه ألفاظ قرآنية ، كما لا يستعين كثيراً بأبي القرآن وقصصه .

ومن حيث الصفة البديعية ، فهو غير مسرف فيها ، ولا متكلف لها إنما قد تجيء في أثناء كلامه سهلة يسيرة . كأن يقول مجانساً :

وَعَلَّقْتُهُ شَادِنًا شَادِيًا عَلَيْهِ الشَّجِي وَعَلَى الشَّجَنِ
إِذَا مَا التَّقِينَا فِيمَنْ جُدَّ وَزِدْ وَصِلْ وَتَعَطَّفْ ، وَمَنْ لَا وَلَنْ
وَمَنْ مَهْجَةٍ مُذْ نَأَتْ مَا ثَوْتُ بِأَرْضِي ، وَمَنْ سَكَنَ مَا سَكُنْ
قَفُوا تَعْرِفُوا مَا أَسْرَ الْهَوَى فَأَعْلَنْ لَمَّا أَسْرَ الْعَلَنْ

وعلى أن الصوري يملح أحياناً ، ويمترج قوله بالفكاهة في تصوير نزوله على أحد أصدقائه البخلاء . إذ يقول :

وأُخِ مَسَّهُ نَزُولِي بَقَرِجٍ مَثَلُ مَا مَسَّنِي مِنَ الْجَوْرِجِ قَرِجٍ
 قِيلَ لِي إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ وَالْفَتَى يَغْتَرِيهِ بِخَلِّ وَشُجِ
 بَتْ ضَيْفًا لَهُ كَمَا حَكَمَ الدَّهْرُ وَفِي حَكْمِهِ عَلَى الْحَرْجِ قُبُجُ
 قَالَ لِي إِذْ نَزَلْتُ وَهُوَ مِنَ السَّكِّ سَرَّةٌ وَالْهَمُّ طَامِحٌ لَيْسَ يَصْحُو
 لَمْ تَغْرَبْتُ ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : وَالْقَوْلُ مِنْهُ نُصْحٌ وَنَجْحُ
 سَافِرُوا تَغْنَمُوا . فَقَالَ : وَقَدْ قَالَ تَمَامُ الْحَدِيثِ : صُومُوا تَصِحُّوا

وهكذا فإن عبد المحسن الصوري كما رأينا إنسان شاعر عادي لا تفوق في شعره ، عاش في ظل الفاطميين وفكرهم ، وصراعاتهم مع منافسيهم وكان وجوده بصور مما أتاح له المشاركة في تلك الأحداث والصراعات التي شهدتها طوال حياته منذ منتصف القرن الرابع وحتى نهاية العقد الثاني من القرن الخامس .

ومع أنه كان إنساناً عادياً ، وشاعراً من بين شعراء عديدين عاشوا في العصر إلا أنه لم يعدم ميزة تفردة عن غيره ممن عاصروه ، أشرنا إليها ، وفي رأينا أن رأى ابن خلكان والثعالبي من قبله فيه وكذلك مواطنوه وتلاميذه من شعراء الشام في القرن الخامس كان مبالغاً فيه .

وذكره معاصره علي بن منجب في كتاب الأفضليات ، ووقف عند أبيات من شعره ، قارن بينه فيها وبين أبيات لابن رشيق^(١) ويذكر له بيتين في الخمر^(٢) ، ويذكر وصفه لحمام . يقول^(٣) :

وقال عبد المحسن في الحمام :

ومنزِلُ أَقْوَامٍ إِذَا نَزَلُوا بِهِ تَشَابَهَ فِيهِ وَغَدُهُ وَرَأْسُهُ

وهذا مما يصلح أن يوصف به قبر . وتمايم الأبيات من مستحسن ما وصف به الحمام . وهو :

يُخَفِّفُ وَجْدِي أَنْ تَزِيدَ كَرْوُهُ وَيُؤْنِسُ قَلْبِي أَنْ يَقْلَ أُنْسُهُ
 إِذَا مَا أَعْرَبَ الْجَوُّ طَرَفًا تَكَاثَرَتْ عَلَيَّ بِهِ أَقْمَارُهُ وَشُمُوسُهُ

(١) راجع الأفضليات ص ١٣٠-١٣١ .

(٢) اراجع نفسه ص ١٣٥ .

(٣) اراجع نفسه ص ١٥٦ .

الفصل الرابع

شعراء مصريون من القرن الخامس

ظافر الحداد

ابن مكنسة

ظافر الحدّاد السكندري (ت سنة ٥٢٩ هـ)

هو أبو منصور ظافر بن عبد الله الجروى الجذامى ، ينتمى إلى قبيلة جذام اليمنية ، أسّقر أهله بالإسكندرية ، واشتغل أبوه بحرفة الحدادة ، وورثها عنه ابنه ظافر ، ولكن نشأ الابن محباً للعلم والأدب ، فبدأ يرتاد مجالسهما بالإسكندرية وتعرف على كثير من أعلامهما .

كان مولد ظافر فى حوالى منتصف القرن الخامس ، ولحق أخباريات خلافة المستنصر بالله الفاطمى أطول خلفاء الفاطميين حكماً ، وآخر كبارهم حيث بلغت الدولة درجة من الأزدهار والقوة ، وإن انتابت حكمه بعض السنين العجاف ، فقد اشتدت بالناس المجاعة والشدة المستنصرية ، وكانت من أشد ما عانته مصر فى عصور ما بعد الفتح الإسلامى .

وعاصر الخليفة الأمر ، كما عاصر من الوزراء أمير الجيوش بدر الدين الجمالى وابنه الأفضل بن بدر الدين وهما من أشهر وزراء الفاطميين فى القرن الخامس ، كذلك عاصر الوزير المأمون البطائحي .

وعاش ظافر مرحلة شبابه بالإسكندرية ، وكانت له بها ذكريات جميلة ، وقد تفتحت بها شاعريته ، وطاف بمغانيها ، وسجلها فى شعره معجباً ، ومنها خليج الإسكندرية الذى يمدّها بالماء العذب .

وكانت تزدهر حوله الحقول والبساتين الغناء التى أكثر من ذكرها كقوله يتذكر أيامه بالإسكندرية :

أَسْفَى عَلَى ذَاكَ الزَّمَانِ لَوْ أَنَّهُ	بِالصَّخْرِ قُتَّتْ مِنْهُ صُمٌّ صِلَايِهِ
يَا لَيْتَنِي أَحْظَى بِشَمِّ نَسِيمِهِ	وَبَدِيعِ مَنْظَرِهِ وَلَثِمِ ثُرَايِهِ
حَيْثُ الْعُصُونُ رَوَاقِصٌ وَيَمَامُهَا	يَشْنُو لَطِيبَ الزَّمَرِ مِنْ دَوْلَايِهِ
تَعْرِثُ نَوَاعِيرُ الْمِيَاهِ وَأَتَرَعَتْ	تِلْكَ التَّرَاغُ أَوْفَضُ فَيْضِ عُبَايِهِ
كَمَا اعْتَادَ الرَّمْلُ ، وَبَسَاتِينُ التِّينِ وَالْكُثْبَانِ ، وَشَاطِئُ الْبَحْرِ وَنَسِيمِهِ .	
يَا هَلْ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ أُوْبَةٌ	فَيَسَّرُ قَبْلَ مَمَاتِهِ بِأَيَّامِهِ
فَيَرَى مَكَانَ شَبَابِهِ وَنَصَابِهِ	وَحَبَابِهِ وَصَحَابِهِ رَعَايِهِ

وندى رياض الرمل عطر ثياه

حيث النسيم الساجلى يزوره

ويقول :

فالعيش منذ رجلى عنه لم يطب
بالرمل بين عَصُونِ الثَّينِ والعَتَبِ
من حَوْثَا قُضْبِ الْأَغْصَانِ كَالطَّنْبِ
فمِنْ كَالسَّرِ بَيْنَ الرَّفْقِ وَالصَّحْبِ

هَلْ إِلَى الثَّغْرِ مِنْ عَوْدٍ وَمُنْقَلَبِ
تُرَى أَزْرُرُ الْقُصُورَ الْبَيْضَ ثَانِيَةً
وَفَوْقَنَا شَاهِقَاتُ الْكَرَمِ أُخْبِيَّةٌ
وَلِلنَّسِيمِ الْعَلِيلِ الرُّطْبِ وَسُوسَةٌ

وعن حديثه عن الإسكندرية ومعالمها وبيوتها ومساجدها ، يصورها مدينة
زاهرة تتشح منازلها بالبياض وكذا مساجدها ومنازلها ، فتبدو من بعيد تلبس
ثوب البياض وكأنها العروس على ما صورها في شعره .

يقول :

بياضاً مثلاً تزهو الكعاب
وفى فائوسها عجب عجاب
قصير طال بينهما العتاب
ودرت في مذاهبها الذهاب
حبيباً كان أبعد اجتناب
يذكرنيهِ للثَّزْرِ الذَّهَابُ
وفى أَرْجِ الرِّيحِ لَهُ اضْطِرَابُ
وللُدُولَابِ زَمْرٌ وَاصْطِحَابُ
كرقص الغيد مادبها الشراب
رَخيماً للقلوب به انجذاب
به رَشاً جَلَّتْ لَنَا الْقَبَابُ
تَحَفٌ بِهِ الْأَخْبَةُ وَالصَّحَابُ
ويُزِيدُ حِينَ يُقْلِقُهُ الْهَبَابُ
فيولاً حين يرفعها العباب

تضئُ بها المساجدُ فهي تزهو
تُجاوِرها منارُها وفيها
فَنَاءٌ غَادَةٌ بِإِزَاءِ شَيْخِ
سَقَى اللَّهَ السَّوَارِيَّ بِالسَّوَارِي
فكم عبيد بها أهدي وأذى
وفى الباب القديم قديم عهد
وسيف خليجها كالسيف حداً
وإيقاع الضفادع فيه عالٍ
وترقص في جوانبه عُصُونُ
وتشدو بينها الأطيَّارُ شدواً
وكم لى بالكَيْسَةِ مِنْ كِتَاسٍ
وكم لى بالمجالس من جلوسٍ
وبحر الملح مثل الفحل يؤغو
وتحسب سفته صفة ولونا

وأثناء تردد ظافر في شبابه بالإسكندرية على مجالس العلم والأدب تعرف على
الحافظ السلفى ، والتقى بصديقه الشاعر أمية بن أبى الصلت بها ثم عاد ليلتقى
به مرة ثانية بالفسطاط .

وقبل أن نترك الإسكندرية وحياة ظافر بها ، نحب أن نجول معه جولة في ديوانه للتعرف على بعض ما كان يرتاده من معالمها ، وكيف صورها لنا شعراً ، وما تركت له من ذكريات قبل أن يتركها في حدود سنة ٥٠٠ هـ .

ونلاحظ كثرة تردد أسماء معينة لمعالم الإسكندرية ، لخليجها أو ترعة المحمودية الآن والبحر والمنارة والرمل ، وربوة ابن العاص ، ولعلها كوم الدكة أو كوم الشقافة ، وقصر الدخان ، ويقع غرب الإسكندرية في الطريق إلى المقس ، والقليدة .

وكان يحب خليج الإسكندرية العذب الذى يحمل إليها ماء النيل فيروى رياضها وبساتينها ، كان يحلو له أن يخرج إليه مع صحبة من رفاقه ليمتعوا بالطبيعة ، وربما التقى هناك أو صاحب بعض حبيباته وأحبائه .

ولم يخل صحبته من بعض رجالات الأدب والقضاة أو العمال الذين عرفهم بشعره وأدبه ، ويروى أنه صاحب مرة القاضي أبا المكارم أحمد بن عيميد الدولة في بعض العشيات على شاطئ خليج الإسكندرية ، والنسيم قد جهش وجه الماء ، ومبادئ الكلا قد برقعت بحيا الأرض ، وطوقت أجياد النخيل بقلائد الثمار فأنشد :

وعشية أهدت لعينك منظرًا	قَدِمَ السرورُ به لقلبك وإفدًا
روضٌ كمخضر العذار وجدولٌ	نُقِشَتْ عليه يَدُ النسيمِ مبارِدًا
والنخل كالهيئ الجِسانِ تزيّنتُ	فلبسَنَ من أثمارهنَّ قلائدًا

ولعل تلك النزهة كانت في أخريات الصيف ، ومطلع الخريف ، وقد تلونت فيه ثمار النخيل .

وربما كان سكن ظافر بالإسكندرية القديمة بمكان كان يسمى بالظاهرية يقع غرب الحى الرومانى أو اليونانى أو جنوبه الغربى ، وقد جاء ذكر الحى الرومانى أو اليونانى ، وربما هو ما كان اسمه هرقله نسبة إلى قيصر هرقل . ربما كان قريباً من محطة الرمل أو ما بينها وبين حى الشاطئ ، يقول عن هذا الحى :

وفى عذباتِ الرملِ دُونُ هِرْقَلَةٍ	مَسَارُحُ نَسَعَى بَيْنَهَا وَمَرَاتِعُ
رياضُ إذا هَبَّ النسيمُ خِلَالَهَا	سَعَى وهو واهى الخطو فيهنَّ ظَالِعُ

ومن معالمها التي ذكرها الكنيسة ، ولعلها الكنيسة المرقسية قرب محطة
الرميل الآن ، يقول :

وشرق المحجة لى غزال*	تُحجِّبه الصوارمُ والجِرَابُ
وكم لى بالكنسية من كناس	به رشاً جلثته لنا القِبَابُ
وكم لى بالمجالس من جلوس	تحفُ به الأُحبةُ والصُّحَابُ
وأذكرُ قصر فارس والمعلَى	ففيه لكل موعظةٍ مناب

ولعله تعلق زمن تردده على الكنيسة بتلك الفتاة النصرانية التي ذكرها في
شعره .

ومعظم حديث ابن ظافر عن هواه كان في شبابه بالإسكندرية حيث تتوارد
عليه صور تلك الأوقات السعيدة فيقول :

ديارٌ ليستُ اللهو منها مع الصبا	فنعم الحلى فيها ونعم الملايسُ
ليالى أعطى الحبُّ فضلةً مقودى	ذلولاً، وعند العتبِ واللوم شامسُ

أصيّدُ المها فيهنّ ، ثم يصدّنينى	فكلُّ لقلبي بالشباب فرائسُ
تساوت بنا حال الصباية والصبا	فكل لكل مُشبةً ومُجالسُ
فأرشفُ ذُرّاً لم يثقبهُ ناظمٌ	ونورَ أقاح ، قد تَمَتَّهُ المغارسُ
واقطف ورد الحد والورد زاهر	والزرم غصن البان والغصن مائسُ
زمان كطيف زار وازور وشك ما	تصافح جفنا مغرم وهو ناعسُ

وكانت رياضته مع حبيبته أو أصحابه وقت الأصيل إذ كثيراً ما ينوه
بالأصال ، في نزوته تلك سواء على الخليج أو بالرميل على شاطئ البحر ، كان
يقول :

هذا الخليج فمرحباً بزمانه	يا حبذا الأصال بين جنايه
فامرُح بطرفك كيف شئت ترى به	معنى يفك القلب من أحرانه

ويقول في سرحة له على شاطئ البحر أصيلاً :

وآصالنا فى ساحل البحر نعتلى	به الرمل ما بين الكتيب إلى الوهد
نغازل من غزلانه كل سابع	له مقلّة عادائها قنص الأسد

جَكَثَ لَنَا الْأَمْوَاجُ أَثْقَالُ رِذْفِهِ فَأَوْتُهُ تُخْفِي وَأَوْتُهُ تُبْدِي
 إِذَا قَابَلَ الشَّيْأُ هَيْفَ قُدُودِهَا أَرْتَا فَعَالَ الرِّيحَ بِالْقَضْبِ الْمَلْدِ
 لِيَالٍ وَأَيَّامٍ تَقْضَتْ كَأَنَّهَا جَوَاهِرُ نَظْمٍ خَائِنَا الْعَقْدُ مِنْ عِقْدِ
 والتقى بالوزير الخطير شاهنشاه الأفضل بن بدر الجمالي بالفسطاط ،
 فحظي لديه ولزمه ونظم فيه القصائد الطوال حتى كانت مدائحه فيه ديواناً
 كاملاً .

وسجل في شعره بعض معالم الفسطاط ومصر والقاهرة وما حولها من
 الخليج المصرى أو الذى سمي بالخليج الناصرى ، والذى كان يخرج من شمال
 الفسطاط ، وتحوطه البساتين والمناظر والمتنزهات ، ومن أشهرها كما عرفنا عند
 الحديث عن تميم بن المعز والشريف العقيلي القاش ، وبركة الحبش ، وكانت
 بركة الحبش تقع جنوبى الفسطاط وكانت من منازله مصر المشهورة ، كذلك
 ذكر المقطم ، وما كان قرب الفسطاط من الأديرة التى يؤمها بعض سراة
 القوم ، للتنزه كدير القصير .

ورغم أنه نال فى الفسطاط ما تمنى ، لكنه لم يسئل عن الإسكندرية قال :
 يَا سَاحِلَ الثُّغَرِ كَمْ أَنَاى وَأَغْتَرِبُ أَمَا إِلَيْكَ مَدَى الْأَيَّامِ مُنْقَلَبُ
 وَيَا أَوَائِلَ أَيَّامِ الشَّبَابِ بِهِ هَلْ لِي إِلَيْكَ فِيهِ سَاعَةٌ سَبَبُ
 وَاللَّهِ مَا اخْتَرْتُ مَصْرًا عَنْكَ عَنْ مَقَّةٍ وَإِنْ عَدَا الْعَيْشُ لِي فِيهَا كَمَا يَجِبُ
 وَلَوْ جَرَى لِي نَيْلُهَا فِضَّةً وَغَدَا سَفْحُ الْمُقَطَّمِ مِنْهَا وَهُوَ لِي ذَهَبُ
 ومع ذلك فإن إقامته بالفسطاط ، وقربه من النيل ورؤيته له ربطته بها برباط
 عاطفى ، فكان يشدو بهما ، ويحن إلى الفسطاط إذا غاب عنها : يقول :

أَحْنُ إِلَى الْفُسْطَاطِ مَا لَمْ أَكُنْ بِهِ حَنِينَ طَلِيحِ الرِّكَبِ بَعْدَ ذَهَابِهِ
 وَأَسْتَقْبِلُ الرِّكَبَانَ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ لَعَلَّ بِمِصْرَ ذَاكِرًا فِي نِخَابِهِ
 وَأَهْجُرُ عَذْبَ الْمَاءِ مِنْ طَوْلِ غُلَّةٍ إِذَا لَمْ يُنَلَّنِي النَّيْلُ عَذْبَ رُضَابِهِ
 وَتَسْوَدُّ فِي عَيْنِي الْبِلَادُ تَذْكَرًا لِحُضْرَةِ شَطْبِهِ وَبَيْضِ قِيَابِهِ
 وَكَمْ لِي عَلَى سَفْحِ الْمُقَطَّمِ وَقْفَةٌ لَهَا أَثَرٌ فِي وَهْدِهِ وَهَضَابِهِ
 فَضَضْنَا بِهَا سَبْلَكَ الْحَدِيثِ فَخَلَّتْهُ يَمِيدُ بَنَا زَهْوًا لَطِيبِ عِتَابِهِ

ويقول في بركة الحبش :

وفي البركة الغناء للطرف مسرح
نهى ما انطوى من جفنيه من مآبه
وهكذا عاش ظافر في شبابه بالإسكندرية محدود الرزق ، وفي القاهرة على
شيء من اليسار ، ومع هذا فإنه لم يستطع أن ينسى بلدته ، وقضى حياته غريباً
في القاهرة يرضى عنها وعيه ويحرص عليها ، ويسخط عليها باطنه ويرفضها
فعاش معذباً يعاني التمزق النفسى والشعور الحاد بالغربة والحنين الجارف إلى
الإسكندرية التى مثلت له الجمال والشباب والحب فمنحنا أجمل ما صنع من
شعر بصور مشاعرة تلك^(١) . وظل بالفسطاط زمناً يعيش بالمديح ، ويلتقى
بأدباء الفسطاط والقاهرة ويعقد معهم المجالس ، حتى اشتهر وأصبح شاعراً
مرموقاً تردد ذكره فى أوساط الأدب والعلم فى مصر كلها ، واتصل بالوزير
الأفضل بن بدر .

ويبدو أنه نال حظاً من الثروة فى جنابه .

وكتب علامة الإسكندرية ومحدثها الكبير الحافظ السلفى ، وبعث إليه
قصائد من شعره ، يقول الحافظ فى معجم السفر^(٢) « كان من مقلقى شعراء
ديار مصر ، وقد كتب لى من شعره غير قصيدة بخطه ، وكتبت أنا عنه أيضاً
بخطى بمصر وقبل ذلك بالإسكندرية ، مقطعات وقصائد ، وكتبته وأجاب عنه
بشعر وهو عندى وتوفى سنة ٥٢٨ هـ فى ذى الحجة على ما كتبه إلى ابن
موهوب من مصر ، وكان قد استوطنها ، وما عرفنا له قط حربة ، أى فساداً
فى الدين — كمثل الشعراء » .

وذكره عماد الدين الأصبهاني فى خريدة القصر قال : كنت سمعت به
قديماً ، وأنشدنى له الشريف أحمد بن حيدرة الحسينى الزيدى سنة خمس
وخمسين .

قال : أنشدنى ظافر الحداد لنفسه ، وهو قريب العصر غريب النثر^(٣)

(١) الدكتور حسين نصار فى مقدمة الديوان ص ز .

(٢) معجم السلفى نسخة مصوره بدار الكتب المصرية الورقة ٩٧ .

(٣) ذكر السلفى أن وفاته كانت فى ذى الحجة سنة ٥٢٨ هـ كما ذكرنا وذكر ياقوت وابن خلكان أن
وفاته كانت سنة ٥٢٩ هـ ، وبينما ذكر ابن تفرى بردى والسيوطى وابن العماد وفاته بعد ذلك سنة
٥٦٣ هـ وهو غير صحيح ، بمراجعة ما ذكره السلفى وابن العماد وهما أقرب إليه من هؤلاء .

وشعر ظافر كما قال ابن خلكان جيد ، وهو غريب النظم على ما ذكر العماد ، وجودة شعره وغرابته معاً تتبينان فيما وفره له من سهولة الأسلوب مع تمكن من العبارة ، وشاعرية واضحة ، ومقدرة فنية على صياغة معانيه في صور جديدة ، وإن استوحى التراث في بعضها .

وكثيراً ما يبدأ قصائده بالغزل ، ولكنه ليس غزلاً كغزل القدماء بل مزج فيه باقتدار بين معاني الغزل المتداولة ، وجديد التناول والرؤية الخاصة المستوحاة من العصر والبيئة .

ونقرأ قوله في مقدمة إحدى قصائده :

هذا الفراقُ وهذه الأظعانُ	هل غير وقتك للدموع أوانُ
إن لم تُفَضِّضْها كالعقيق فكلُّ ما	تدعوه من سنن الهوى بهتانُ
هذا الغرامُ على ضميرك شاهدُ	عدل، فماذا ينفَعُ الكتمانُ
إن كنتَ تدخِرُ الدموعَ لبيّنهم	فالآنَ قد وقعَ الفراقُ وباتوا
عذرُ المتّيم أن يكونَ بقلبه	سَقَرٌ، وبينَ جفونه طوفانُ

فتحس أن الشاعر استوحى بعض معاني شعراء الغزل ، ومن قالوا في هذا المعنى ومزج بينه وبين عناصر إسلامية استقرت في ضمير العالم من مصطلح العلم الإسلامي وبعض لفظ القرآن .

ويقول في أخرى :

بمنازلِ الفُسطاطِ حلَّ فُؤادى	فارتفع على عرصاتهم ونادى
يامصرُ هل عرَضْتَ لغصنِ فوقه	قمرٌ بربعك إربةً لمعادى
انزِقْ يُمَيْلُهُ الصَّبَا مِيلَ الصَّبَا	بقوامِ خُوطِ البَاثَةِ المِيَادِ
أترى أنالَ النيلَ بعضَ رُضَايِهِ	فَعَدَبْنِ مِنْهُ مِياهَ ذاكِ الوَادِ
فأفادَ منه الطعمَ لكنْ شربَ ذا	يُروى وَذاكِ يَزِيدُ كَرْبَ الصَّادِ
واها على تلكَ الدِّيارِ فإنها	أوطانُ أَحبابى، وأهلِ ودادى
ولقد أَحْنُ لها وَلسنَ متازلى	وأودُّها شَغْفًا وَلسنَ بلادى
دمنَ لبستُ بها الشَّبَابَ ولتني	سوداءُ ترفُلٍ فى ثيابِ جَدادِ
والعيشُ أنْخَضُرُ، والدِّيارُ قريّة	وأبيثُ من أهلى على ميعادِ

والقلبُ حبُّ القلبِ رهنٌ والظُّبا خدقُ الظُّباءِ الغيدُ قيدُ العَادِي
شئتُ شِمالَ الدَّسعِ لما شئتُوا شملِي، وصيحتُ به بدادِ بدادِ

وهنا نجد الشاعر يمزج بين قديم المعنى وصنعة البديع ، والجناس منه خاصة ، مع استلهامه عناصر البيئة المحلية المصرية في التعبير ، كتشبيه رضاب الحبيبة في عذوبته بماء النيل .

واعتماد الشعراء قديماً ذكر صعوبات لقاء الحبيبة ، لما يحيطها به أهلها من حرس شديد ، ورماح ، لا يقوى على اقتحامها العاشق ، فيحتال لها أو يعد لنفسه من الشوك ما يلقي به ظبي الحى وأسنته .

وقد أبرز المتنبي هذا المعنى في صورة جميلة رائعة من قصيدته اللامية المشهورة :

ليالٍ بعد الظاعنين شكول طوال وليل العاشقين طويل
بين لى البدر الذى لا أريده ويخفين بهدرا ما إليه سبيل
وما شرق بالماء إلا تذكرنا لماء به أهل الحبيب نزول
يحرمه لمع الأسنه حوله فليس لمشتاق إليه وصول

ويتناول ظافر هذا المعنى تناولاً جديداً فيعرضه عرضاً خاصاً به ، مستخرجاً إيّاه في خيالات ورؤى معجبة ، تكشف عن مقدرة فنان وإحساس شاعر ماهر .

كم مهمم جئت من أجل الهوى فرقاً يكبو لحيفته الساعى من الرعد
وليلة مثل عين الظبي اذاجية عسفتها ونجوم الصبح لم تقيد
كأن أنجمها في الليل زاهرة نراهم والثريا كف مُنتقيد
لو هم موقد نارٍ أن يرى يده فيها ولو كانت الزرقاء لم يكيد
وفي يميني يمين الموت مائلة في صورة السيف لم تنقص ولم تزد
حتى تأملتُ حيا عز ساكنه تحفه أسد غاب من بيني أسد
من كل أزوع لا كف لمعصمه سيوى الحسام ولا جلد سيوى الزرد
غير أن يكثر سل السيف متيها من ظنه ويبع الثوم بالسهد
فجئت أخفى خطأ لو وطئت بها في جانب الجلد مما تحف لم يجد

حتى لثمت فتاةً الحى فانتبهت
فسلمت وهى ونهى من مخافتها
ففظلت ألتها طوراً وأشعرها
وقلت للقلب لما خاف بادرة
فودعتنى وقالت وهى باكية
وسرت والليل قد ولت عساكره
ترئو إلى بعينى جؤذرٍ شرد
جيرانه، تمزج الترحيب بالحد
فعل الهوى بى وقد مالت على عضدى
ذا موردٍ عز أن تعاضه فرد
إنى أنخاف عليك الموت أن تعد
والدهر يأكل كفيه من الحسد

وفى هذه المقطوعة الغزلية التى جعلها مطلعاً لمديحه ضمنها بعض المعانى التقليدية الأخرى زيادة على ذلك المعنى الرئيسى الذى أشرنا إليه ، وهو منعة الحبيبة فى أهلها ، ولا شك أنه استوفى كذلك بعض معانى الشعراء القدامى فى الليل واعتساف الطريق كقول ذى الرمة مثلاً: (١) أحم علا فى قطعه بأربعة وهو فى العين واحد .

واستوحى قصصاً شعرباً لأمرىء القيس وعمر بن ربيعة يمثل زورات العاشق الليلية للمحبة رغم منعة أهلها فى حمى قومها ، وما قاله واقتنصه معها من اللذات ، وما قاله ، وخافته وخافت عليه .

وهو مع هذا الاستيحاء لا يقلد ، ولا تحس بأنه يحتذى أو يأخذ أخذاً مباشراً ، ولا يمسخ المعنى ، ولا ينسخه ، لكنه يأتى به فى رشيح من اللفظ ، وحلو العبارة حتى يدفعك إلى الإعجاب بصنعة ، والتعجب من مقدرة وشاعريته .

وهو يرى الغزل فى مطلع قصيدة المديح ضرورة فنية يقتضيها القول الشعرى وليس مجرد تقليد للقدماء فيما أنشدوا (٢) :

الحب مذ كان معنى يصحب الأدبا
وأحسن الشعر ما أضحي تنزله
والفهم كالنار والتشبيب إن خمدت
كم فكرة أنتجت معنى للتهب
وحكمة العرب الماضين كامنة
فإن تغزلت فى مدح فلا عجباً
إلى المدائح فى انشاده سبياً
يشبها بلطيفي فكرة وصبا
بالشوق لو رامه فى غيره عزيا
فى الشعر فليقف من يعنى به العربا

(١) ديوانه ذى الرمة .

(٢) ديوانه ص ٣٤ .

فهل تعاطاه فحل في فصاحته إلا بكى سكنا أو ناج أو ندبا
والشعر تلقين شيطان الغرام فلا على غرائبه إلا لمن نسبا .

ومع ذلك فإن الشاعر يتغزل غزلا صرفا ، بعيدا عن قصائد المديح وتحس في
غزله صبرة حقيقية ، وهوى لا عجا ناش قلبه ولوحه ، وإلا لما قال مثلا (١) :

لو ذقت حين عتبت أيسر حبي لعلمتُ حلو غرامي من صبايه
ومن البلية أن يلوم أتحا الهوى من ليس يعلم سهله من صغيبه
ما أنت منه إذا تطاول ليله قلقا وكجث مقلتاؤه بشهيه
وثملتُ من كأس الهوى ، ويذلهوى تسقى جوارحه بميسم كربه
أنا بعض من سبت اللحاظ فؤاده فسرى ولم يحفل بلامه حربه

قال هذه القصيدة في هوى له بالفسطاط ، أو مصر فهل كان هواه الحقيقي
هناك ، أم أن حبه وهواه الأول كان بالإسكندرية ، ومن يتعقب أقواله وأشواقه
بالإسكندرية يحس بحقيقة هذا الهوى ، وأنه لم يفارقه أبدا حتى وإن كان قد
جدد هوى بالفسطاط ، ألا أن هوى الإسكندرية تمثل له دائما ، وفي كل
طريق يسلكه سواء أسلك إلى مصر والفسطاط أم القاهرة وقد صرح بهذا
الهوى السكندري في قصيدة يتشوق بها إلى ملاعب ذاك الهوى فقال (٢) :

يا بلدي إن يغيب معنك عن نظري فإنه في سواد القلب لم يغيب
وأها على ذلك العيش الذي ذهب أيامه فيه بين اللهو والطرب
وللشيبه شيطان يساعديني على الهوى ويؤاتيني على أرنى
فإن دعاني الهوى ليث دعوته وإن دعاني لسان العتب لم يجيب
أجر ذيل غرامي غير مكترث بالحادثات ولا بالك على الثوب

لقد امتزج هذا الحب إذا بحب بلده الإسكندرية ، وتقلبت بهما الأيام فإذا
هما هوى واحد ، إذا تذكر الإسكندرية ذكر هواه ، وإذا ما ثار في قلبه لأعج
حبه تذكر ملاعبه بالإسكندرية بين قصور الرمل ، وعلى ضفاف خليجها
وسط الزروع والبساتين ، أو على شاطئ بحرها الهادر ، يبعث بأمواجه على
الشاطئ ، ويبه نسيمه فيطوف بوجهه ، ويحييه ، بل يصافحه ويقبله .

(١) ديوانه ص ٩ ..

(٢) ديوانه ص ٢٠ .

وقد أحسن ظافر وصف مشاعر الحب ، والتعبير عن عواطفه كلما طرق هذا الموضوع حتى إذا اصطنع فيه القول ، أو قاله مبتدئاً في قصائد المديح .

مدائحه :

قال أشهر مدائحه في الأفضل بن بدر الجمالي ، ولعله نظمها في مرحلة حياته بالفسطاط ما بين عامي ٥٠٠ هـ إلى ٥١٥ هـ وقد تكون القصيدة التي مطلعها (١) .

بدا شيبه قبل ابتداء شبابه وولّى الصبا عنه غيب اغترابه
أول ما قال من مديح في الوزير ، أو من أوله لشواهد فيها تنبئ بذلك ، منها هذا المطلع الذي يشير إلى غربته عن بلده الإسكندرية الذي تعلق به وصعوبة تلك الغربة على نفسه ، وتكون الغربة شديدة على النفس في أولها وربما كان آنذاك غير مستقر بالفسطاط يتردد بينها وبين بلده ، يفهم ذلك من قوله :

ولما حبانى الدهر منه بعودة وراجع حظى بعد طول اجتياحه
وهبت لقرى سرتى بنعيمه جناية بعد ساعى بعقابه
فإن كنت في مصر غريباً فجل ما ينال الغريب العز عند اغترابه
وردت بها بحر التوال مشرقاً وغرب غبرى آملا لسرايه

وأظن هذه العودة حدثت بعد رحيل أمية بن أبى الصلت عن مصر والقاهرة ، وحدث ما حدث من سجن ، فقارق بلاط الأفضل وخلفاء الفاطميين مغاضباً إلى القيروان حيث الصنهاجيون أعداء الفاطميين أو من أصبحوا أعداءهم بعد حلف ومصاحبة ولعل التلميح إلى من يغرب من الشعراء في البيت الأخير يعنى أمية .

وتختلف مناسبات مدائحه للأفضل بين التهانى بالأعياد ، أو بمناسبة زواج ولده .

فمن تهانيه بالعيد قوله :

نهاية ما سما لعلاك أرض وأشرف ما زكا لنداك بعض

(١) ديوانه ص ٤٦ .

يقول فيها :

لَعْنَةُ وَجْهِكَ الْيَتِيمُونَ نُورٌ لَعْنَةُ الشَّمْسِ تَحْتَ سَمَاءٍ وَمُضْ
كَانَ مُلُوكُ أَهْلِ الْأَرْضِ نَقْلٌ إِذَا اعْتَمَدُوا الْفَخَّارَ وَأَنْتَ أَرْضُ
ويقول بعد عباراتٍ من الثَّناء المبالغ فيه على عادة الشعراء في مدائح أولئك
القادة والوزراء :

بِقَاوِكَ زَهْرَةُ الدُّنْيَا فَمَهْمَا بَقِيَتْ فَعِيشُنَا خِصْبٌ وَخَفْضُ

ويفسفه في مديحه بالعدل إلى صفات الشجاعة وإخافة الأعداء ، كما يشير إلى
رعايته للدين وقيامه على حمايته ، ويجدها فرصة سانحة للإشادة بعمل أبيه بدر
الجمالي في انفاذ ملك الفاطميين من أعدائهم ، يقول :

أَبُوكَ مَغِيثُ هَذَا الدِّينِ قَدْ مَأَى غَدَاةَ لَهُ مِنَ الطَّائِفِينَ دَحْضُ
تَدَارَكَ نَصْرُهُ بِدَرَاكِ ضَرْبٍ تُقَدُّ بِهِ الْجَمَاجِمُ أَوْ تُرَضُّ

حتى يصل بعد هذه المفاز والمآثر إلى التهئة بالعيد ليقول :

لَيْسَ الْعِيدُ أَنْ وَافَاكَ فِيهِ وَمُلْكُكَ زَاخِرُ الْأَكْنَافِ بَضُّ

ومما قاله في مناسبة زواج ولده :

يَا بَاسِطَ الْعُدْلِ فِي بَدْرِ وَفِي حَضَرٍ وَرَافِعَ الْجَوْرِ عَنْ أَنْتَى وَعَنْ ذَكْرِ

يقول فيها :

يَا أَفْضَلَ النَّاسِ لَمْ يُنْسَبْ إِلَى لَقَبٍ وَلَا وَفِعْلِكَ أَوْفَى مِنْهُ فَافْتَحِرِ

ويقول في مناسبة مماثلة :

عَبَقَتْ بِطَيْبِ ثَنَائِكَ الْأَقْطَارُ وَتَجَمَّلَتْ بِمَدِيحِكَ الْأَشْعَارُ
وَعَظُمَتْ صُنْعًا فِي السَّمَاعِ فَمُذَبَدَا لِلْعَيْنِ تُخْبِرُكَ هَائَتْ الْأَنْخَبَارُ

ويمضي كعادته في المديح في إفاضة صفات المديح المبالغ فيها من مثل قوله :

وَالْأَرْضُ مِلْكٌ وَالزَّمَانُ كَأَهْلِهِ خَدَمَ وَبَعْضَ جِيوشِكَ الْأَقْدَارُ

وقوله :

جِجَدَ الْكَمَالُ مِنَ الْوُجُودِ فَمَذْ بَدَا لِلنَّاسِ فَضْلُكَ أَنْكَرَ الْإِنْكَارُ
إِنْ كَانَ هَذَا الْخَلْقُ أَصْلَ وَجُودِهِ طِينَ فَأَصْلُكَ جَوْهَرٌ وَنُضَارُ

وقوله :

كَأَذِ الْمَقْطُومِ أَنْ يَمِيدَ مَسْرَةً لَوْ لَمْ يُصِيبْهُ مِنَ لَذْذِكَ وَقَارُ

وهكذا تحوى مدائحه فى الأفضلى من المبالغة التى تخرج عن جادة القول
ويبدو أن الأفضلى وغيره من الملوك آنذاك كانوا يحبون أن يبالغ الشعراء فى
صفاتهم حتى يبالغوا لهم فى العطاء ، وعرف الشعراء ذلك فىهم فكألوا لهم ما
شاءوا مما يخرج عن كل حد معقول ، ويكاد يصبح من هذر الكلام .

ومدائحه فى الأفضلى لا تجرى كلها على سنن المديح التقليدى فى بدئه
بالنسيب بل هو يبدأ أحياناً قوله مباشرة دون تمهيد ، وتقتصر قصيدة المديح
غالباً على صفات المديح وحده لا يشركه فيها شىء ، وعلل ذلك بقوله :

وَالشَّعْرُ تَلْقِينُ شَيْطَانِ الْغِرَامِ فَلَا يُعْمَلُ غَرَائِبُهُ إِلَّا لِمَنْ نَسَبًا
إِلَّا مَدَائِحَ شَاهِنشَاهٍ مَا يَرِخَتْ تُشْرِفُ اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى إِذَا اصْطَحَبَا

وانقطع للأفضلى فصار شاعره قال :

فَأَصْبَحْتُ فِيهَا خَادِمَ الْأَفْضَلِ الَّذِي زَحَمْتُ مَلُوكَ الْأَرْضِ تَحْتَ رِكَابِهِ
جَلُوتُ عَلَيْهِ كُلُّ عَذْرَاءٍ مَا ارْتَضَتْ يَبْغِلُ إِلَى أَنْ هَرُولَتْ بِجَنَابِهِ

ولأنه كان منقطعاً إلى الأفضلى ويعد من شعراء بلاطه ، فقد كان يواسيه فى
ما ينتاب أهل بيته من النوائب فيرتى من فقد له ، كما كان يهنئ بالأعياد
والأفراح ، فيقول راثياً المظفر أخا الأفضلى :

إِذَا كَانَ عُقْبَى مَا يَسُوءُ التَّصَبُّرُ فَتَعْجِلُهُ عِنْدَ الرَّزِيَّةِ أَجَلُ
وِغَايَةُ أَحْزَانِ النَّفُوسِ سَلُوهَا فَأُولَى بِهَا تَقْدِيمِهِ وَهِيَ تُوَجَّرُ

وكما هو الحال فى إغداق صفات المديح والمبالغة فيها بالنسبة إلى الأحياء
فكذلك كان حاله مع المتوفين ، كأن يقول فى هذه القصيدة :

لَقَدْ زَعَزَعْتُ شَمَّ الْعِجَالِ رَزِيَّةً أَلَمْتُ وَلَكِنِ طَوْدُ جِلْمِكَ أَوْفَرُ
وَفَضْلِكَ مِثْلُ الشَّمْسِ ثَوْرًا وَرِفْعَةً وَحَاشَاهُ بَلِ أَعْلَى ، وَأَسْنَى وَأَسِيرُ

فهكذا لا تفلت منه مناسبة الرثاء بل يقتصر الفرصة للمديح ، فتراه يراوح بين رثاء المتوفى ومدح الأفضل في القصيدة .

ومعاني مديحه ورثائه وكل قصائده التي يقدمها ليكسب أو يحصل على المال من عطايا الملوك والرؤساء يغلب عليها المبالغة ، وتردد الصفات المعروفة في مدائح الشعراء ، ويبدو التكلف والصنعة على اللفظ والأسلوب .

وقصد بالمديح جماعة من أعيان العصر كالوزير البطائحي بعد قتل الأفضل ومن يسمى بالأمير فخر الدولة ، وبعض بنى أسامة وهم من بيوتات العز في العصر الفاطمي في دولة المستنصر ومن بعده وكان أبوهم من رجال الأفضل ، يقول في أحدهم :

لعبت بالزمن الماضي فخلّفتني	من بعده في زمانٍ ظلّ يلعبُ بي
هذا بذاك ، فطبعُ الدّهر مختلف	لا بدّ من راحةٍ فيه ومن تعب
لكن تعوّضتُ بالشَّيخ الأجلّ أبي	محمدٍ خيرَ أوطانٍ وخيرَ أب
صرح منيف أسامي له ثمّر	من جوده تجنّيه الكف من كُتب
إن كان للفضل عينٌ فهو ناظرها	أو نسبةٌ فالإيه أقربُ النّسب
أعطى الجزيل بلا من ولا عِدّة	ولا سؤالي فأغنى النَّاسَ عن طلب

ومحمد بن أبي أسامة كما ذكر من رجال الأفضل ، وربما كان وسيلته إلى الوزير الخطير ، وربما كانت أيامه التي عانى فيها تلك التي سبقت معرفته بأبي أسامة ، ومن ثم قبل قبوله في بلاط الأفضل .

وكان شاعراً مهاجراً من وطنه ، مبعداً عن أهله ، تلقى من هذا الرجل اقبالاً عوضه وطنه وأهله .

ومدح بعد مقتل الأفضل الوزير البطائحي (تولى سنة ٥١٥ هـ) وللشاعر فيه أربع قصائد منها قوله :

كم قدّر ما أخفى الهوى وأصونُ والدّمع يُعربُ والسّقام يُبينُ
ونلاحظ غلوه في البناء الذي اعتاده في مدائحه للأفضل ، فقد بدأ هنا بالغزل وحديث الحب الذي أعرض عنه أحياناً بمحض إرادته ؟! فقد استطرد في هذه القصيدة الطويلة نسيباً في موضوع النسيب وذكر المحبة ، واصطنع في

ختام المقدمة الغزلية حواراً مع حبيبته أعاد فيها إلى الأذهان نهج القدماء ، وبخاصة ما استجد عند بعض العباسيين أمثال أبي نواس في مدحته للخصيب أمير مصر ، وعند أبي تمام في بعض مقدماته . وكذا عند بعض القدماء كحاتم الطائي^(١) .

يقول ظافر^(٢) :

يأربُ لائمةً شجاها أننى	سمخ بمالى ، والزمان ضنين
قالت: أضعت المال وهل لك عنه ما	تعتاض؟ قلت: الحمد وهو ثمين
قالت غنيث، فقلت: حسبك فاغلمي	إن البخيل بماله المغيون
قالت: فإن الفقر هو، قلت لم	يهن الكريم، بل اللئيم يهن
قالت: فإن المال نعم معونة ال	إنسان؛ قلت لها: الإله معين
قالت: فإن الوفريين، قلت: كس	ب الحمد يرفع أهله ويزين
والمال يذهب والثناء مخلد	يحيى به الإنسان وهو ذفين
يا هذيه ماذا أفاد بملكه	فرعون، أو بثرائه قارون
قالت: فهل لك ما يعوضك الغنى؟	قلت: الأجل السيد المأمون ^(٣)

ثم يمضى في مديحة المعهود ، والذي تكررت معانيه في مدائحه ، وإن تغير بعضها بما يناسب مقام الممدوح . فهو هنا يهتبه بالوزارة ، ويشير إلى كفاءته ، وأنه قوة للخلافة :

أصبحت سيفاً للخلافة حالياً	حيث ازدهى بك عاتق وجين
فافخر فأنت وزيرها، ومشيرها	وأمينها، وظهيرها الميمون

وفي قصيدة أخرى ربما كانت أول ما أنشده يستنجد به ويظهر كثرة عياله فيقول :

مولاي قد أوليت عبدك نعمة	فله عليك بها ثناء سمرمد ^(٤)
والآن قد أضحي حواشي حاله	هدبا، فلا تُرفى ولا هي تُعقد

(١) ديوانه ص ٣٢٠ .

(٢) نلاحظ في بعض حديثه مع صاحبه عن المال وإنفاقه صلة بما قال حاتم الطائي في قصيدته المشهورة :

أماوى إن المال غاد ورالح .

(٣) ديوانه ص ١٠٣ .

(٤) يقصد المأمون البطائحي الوزير .

فَكَأَنَّ بَعْضَ الْمَلَائِكَةِ الَّتِي لَا تَعْتَدِي، وَكَأَنَّ بَيْتِي مَسْجُودٌ
وَتَكَاثَّرَ لِبَكَائِهِمْ فِي مَأْتَمٍ طَوَّلَ الزَّمَانَ وَمَا لَنَا مِنْ تَفَقُّدٍ
وَتَعَدُّرٍ الْجَارِي أَضَرَّ بِحَالِهِمْ وَأَضْرَبَنِي وَهُوَ الْقَلِيلُ الْأَنْكَدُ
وَمِنْ مَدَائِحَةِ لَائِمَةِ الْفَاطِمِيِّينَ مَدْحَةٌ لِلْأَمِيرِ بِأَحْكَامِ اللَّهِ ، يَقُولُ (١) :

هَنَّاكَ الْفَخْرُ يَا شَهَرَ الصِّيَامِ بِقَرَبِ الْأَمْرِ الْمَلِكِ الْهُمَامِ
فَحَسْبُكَ مِنْهُ مَنْزِلَةٌ وَمَجْدًا زِيَارَةٌ مَرَّةً فِي كُلِّ عَامٍ

وبكيل له مديحاً عادياً بصفات يكيلها لغيره ممن هم أدنى منه منزلة ، وإن كانوا متملكين لمصائر الخلفاء كالأفضل ، إلا أنه يأتي هنا ببعض المعاني اللائقة بمقام الخليفة الفاطمي على ما تعارفه الإسماعيلية في خلفائهم من تأييد السماء لهم . وأنهم أوصياء وائمة بتوقيف من السماء . قال :

لَهُ جَيْشٌ سَمَاوِيٌّ خَفِيٌّ كَظَاهِرِ جَيْشِهِ اللَّجْبِ الْهُمَامِ
تُقَدُّ صَوَارِمُ الْعُلُوِّ بَدَا إِذَا الْأَرْضُ هَمٌّ بِضَرْبِ هَامٍ

كما ينوه بأبائه من آل علي رضي الله عنه ، وجدته عليها السلام ويهنئه بنصر كنصر النبي يوم حنين :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَنَّاكَ نَصْرٌ قَرِيبٌ جَاءَ بِالتَّحْفِ الْجِسَامِ
كَنْصَرِ أَيْلِكَ فِي يَوْمِي حُنَيْنٍ وَبَدْرٍ عِنْدَ مُعْتَرِكِ الْجَحَامِ

ويختتم قصيدة أخرى بما اعتادوه من إعتبارهم عليا وصي الرسول ، وأن الوصاية انتقلت منه إلى أبنائه من فاطمة . يقول (٢) :

فِيَا ابْنَ الْبَتُولِ سَلِيلَ الرَّسُولِ أَبُوكَ الْوَصِيُّ ، وَأَنْتَ الْإِمَامُ
وَيُضْمَنُ بَعْضُ أَلْفَاظٍ وَمَعَانِي سُوْرَةِ النَّجْمِ وَمَا أَكْرَمَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ مِنَ الْإِسْرَاءِ
بِهِ وَالْمَعْرَاجِ وَتَقْرِيبِهِ إِلَى مَقَامٍ لَمْ يَنْلَهُ نَبِيٌّ قَبْلَهُ . يَقُولُ :

أَبُوكَ الَّذِي سَارَ فَوْقَ الْبُرَاقِ وَفِي يَدِ جَبْرِيلَ مِنْهُ زِمَامُ
فَلَمَّا انْتَهَى سُدْرَةَ الْمُتَهَيَّيْ مَقَامًا لَهُ جَلٌّ ذَاكَ الْمَقَامُ
دَنَا قَابَ قَوْسَيْنِ مِنْ رَبِّهِ عَلَى يَقْظَةٍ ، لَمْ يَشْبَهْهَا مَنَامُ

(١) ديوانه ص ٢٨٩ .

(٢) ديوانه ص ٢٩١ .

فما كَذَبَ القَلْبُ مما رآه فهل حجةٌ في خِلَافِ ثِقَامِ
فضائلُ جاءَ بهنَّ الكتابُ وآيَاتُهُ المحكماتُ العِظامُ
ويختم القصيدة كما ختم الأخرى بالصلاة والسلام على الخليفة . ويقول :
وصلَّى الإلهُ ، وأهلُ السَّماءِ عليك صلاةٌ يليها سلامُ
وله مِدحةٌ أخرى في الخليفة الإمام الحافظ ، لا يبدأ بالنسيب ولا الغزل ،
ولكن بالشكوى هذه المرة من ذهاب الشباب . يقول (١) :

لا غرؤ أن رحلَ الشَّبَابُ وبَاقًا ما كانَ أولَ من صحبتَ فحَانَا
ويُتبعُ هذه الشكوى من الشيب وتولى الشباب حديثَ الذكريات عن الأيام
الحوالي أيام الصبا والصبوة يبدأ بقوله :

كم قد جريتُ مع الصِّبَا في حَلْبَةٍ ولزمتُ فيها ذلك المِيتَانَا
حتى سبقتُ السابقينَ لِشَاوَاهَا وهويتُ أوطاراً وخُزْتُ رَهَانَا

لقد بلغ الشاعر في عهد الحافظ مرحلة الكهولة ، ضعف جسده ، وأبيض شعره وسكنت فيه سورة الحياة ، وبلغ شاطئ النهاية ، وفي هذه المرحلة يحلو للإنسان أن يتذكر ، وأن يعيد إلى مخيلته شريط الذكريات ليحيها من جديد ، مادام لا يستطيع رد ما مضى من الأيام ، ولا أن يعود به القهقري ، أفلا أقل من أن يعيش ماضيه في الخيال !

ويخلص من حديث الذكريات إلى ممدوحه الحافظ . يقول :

يا من مضى فاعتضتُ عن أيامِهِ أوفى نظام المدح في مؤلاتنا
الحافظ الدين ، الذي غمر الوري عدلا وعمم جميعهم إحسانا
هو رحمة الله التي أحى بها ال ثقلين حتى الجود والإيماننا

ويردد ما يردده أتباع الإمام من مثل قوله :

يا حُجَّةَ الله التي أبدت لنا بكمالها الآياتِ والبرهانا
من كان يلتبسُ الدَّلِيلَ فقد بدت حُجَجٌ ملآن مسامعا وعيانا

ويعيد مرة أخرى قصة الإسراء والمعراج التي شرف بها الله نبيه .

والشاعر في هذه القصائد مضطر أن يسلك هذا الطريق في مديحه ، ونرى

أنه يقول بطرف اللسان ، ولم يصدر عن عقيدة صحيحة ، أو تصديق لما ينسبه إلى أولئك الأئمة والخلفاء ، لكنه مضطر إليه كما قلت والمضطر يركب الصعب ، والصعب هو هذا الذى يقوله ولا يعتقده .

* * *

الوصف فى شعره :

يتنوع موضوع الوصف فى شعر ظافر ، وتنوع طرائقه ، فهو إما وصف مباشر لمشهد رآه ، أو تسجيل لبعض ما يمر به ويعبر من الرؤى فى مناسبة ، أو قد يحمى الوصف فى سياق حديث آخر كالغزل والمدح ، والقول فى الخمر والشراب ، أو قد يكون استعادة لذكرىات الأيام الخوالى ومشاهده أو نزهاته فى الروضات وشاطئ البحر ، وأماكن النزهة واللهو كالأديرة وغيرها من مظاهر الطبيعة المصرية كالنيل ، أو الآثار والأبنية كالمنار والأهرام .

وتحمى أوصافه للرياض ، وأماكن البحر والرمل والساحين والساحات فيه بالإسكندرية ، على رأس أوصافه ، وفى مقدمتها ، بل وأجملها وأعذبها نفساً وتلمح هذه أوصاف جزئية للزهر ، والنواير ، والطير والكؤوس والشراب ، والأطعمة ، والرسائل .

ولأنه لظافر إهتماماً بمجالس الغناء والموسيقى ، فلم ترد فى شعره أوصاف لآلات الطرب ، ولا القينات كما فعل غيره من شعراء عصره أو من سبقوه ممن عرضنا لهم ولا شك أنه شهد مجالس الطرب والغناء فى قصور من يغشى دورهم من الوزراء والأعيان أمثال الأفضل ، وغيره بالفسطاط ، وكانت آنذاك عامرة بهذه الملاهى ، وإن لم يشهدا فى تلك المجالس الخاصة ، فلعله وقف عليها فى الأعياد والمواسم التى كثرت واهتم بها الناس فى مصر الفاطمية ، واتخذوا من الغناء ومن الموسيقى ، والطرب عامة ، مظهرًا من مظاهر تعبيرهم عن الفرح والسعادة بمناسبة تلك الأعياد .

ونبدأ حديث الأوصاف عنده بتلك الصور المشرقة التى رسمها لمنازه الإسكندرية والقاهرة أو الفسطاط ، ومطارج اللهو بهما ، ونبدأ بالبحر وشاطئه بحر الإسكندرية وشاطئ الرمل :

يصف البحر فيقول :

وبحر الملح مثل الفحل يرغو ويزيد حين يقلقه الهباب
وتحسب سفنه صفة ولونا فيولا حين يرفعها الهباب

ويقول في وصف البحر والسباحات الحسنات :

وآصلنا في ساحل البحر نعتلى به الرمل ما بين الكثيب إلى الوهد
نُغازِلُ من غزلانهِ كُلِّ سابع له مقلةٌ عاداتها قنصُ الأسد
حكّت بيننا الأمواج أثقال رذفه فأونةٌ تحقّى، وأونةٌ تليد
هو الماء فوق الماء: هذا نعاقة أجاجاً، وهذا فيه أحلي من الشهيد
إذا قابل التيار هيف قُدودها أرّتنا فعّال الرّيح بالقضب المديد

وصور خليج الإسكندرية والرياض حوله ، والزهور والطيور .

ولظافر في هذا المجال إبداعات فنية ، وصور بهجة ، لهذه المنازة الجميلة
بشاطيء خليج الإسكندرية في عصره ، تجعل القارئ لشعره يستعيد تلك
الصور ، ويحس بما أحس به الشاعر من سعادة وبهجة وسط تلك المجال :

يا ليتنى أحظى بشم نسيجه وبديع منظره ولثم ثرايه
ويعلّنى ذاك الخليج بشربة سيما إذا انتسجت دروغ حبايه
وصفاً وزاق وعادَ مدّ زلاله كالسيف جرد من خلال قرايه
فكأنّه والريّح تنقشُ منته حرزٌ عليه يدق خطّ كتابيه
كالمرّد المنقوش نقشاً خففت آثارَ موقعه يدا ضرايه
كضفيرة الخواص أمكنه لها سعف ضفّرن قرّق ضفّر لباه
حيث الغصون رواقص ويمامها يشدو يطيب الزمر من دولايه
نعرث نواعير المياه وترعت تلك التراعّ وقضّ فيض غمايه
حتى يُجرّد سيفه أسياها بجداول جُدّلن في أعشاياه

نلاحظ بعض تشبيهاته التي عرض فيها ملاح من حقله الشعبي كالإيراد
وصانع الخوص في هذه المقطوعة التي رسم بها الشاعر صورة للخليج وقد
امتد ولمغ ماؤه الأبيض ، وتفرعت منه قنوات وترع تسقى الزرع ، وشبهها
بالسيوف المصلطة المسلولة ، وهي صور وقع فيها الشاعر في أسر القوالب

التقليدية لتشبيه الجداول ، ولم يبدع فيها ، بل لم يوفق في نقل الصور التقليدية غير الموافقة لمشهد المسرة في الخليج والمروج من حوله .

ويكرر هذه الصورة أو هذا التشبيه للخليج أكثر من مرة فيقول :

وسيفُ خليجها كالسيفِ حِداً وفي أرج الرياحِ لهُ اضطرابُ

ويرشح حديث سيف الجوشن والدرع والميرد وكل هذه المصطلحات البيانية في وصف المياه التي تدرجها الرياح ولا تجد مبرراً واضحاً لهذا القالب التشبيهي عند شعراء العرب في جملتهم .

إلا أنه على الرغم من هذا المصطلح والقوالب التخيلية المتداولة لا نعدم تشكيلاً مبدعاً لعناصر الطبيعة في صور الشاعر للخليج الإسكندري ومزوجه فهو يدخل أصوات الحمام ، والضفادع ، وزمر الدولاب ، ورقص الغصون لتعبر هذه العناصر عن أحاسيس الفرحة والسعادة إلى جانب مشاهد السيوف والمدى والجواشن وما إليها التي تثير خيال الحرب المنفزع الخفيف وسط هذا الجو المليء بالمتعة والنعيم ، ولعله تنبه إلى أن هذا الوصف الإصطلاحي يفعل ذلك دون إرادة منه ، إنما هو كما قلت قد وقع فيه أسر التراث التعبيري في الشعر ، يقول :

وتكسره الرياحُ دروعَ حرب ولا طعنَ هُناكَ ولا ضرابُ

ولولا هذه العناصر المقحمة لثم للصورة الشعرية تماسكها وتناسقها . يقول :

وترقصُ في جوانبه غُصُونُ كرقصِ الغيدِ مَادِبِها الشَّرَابُ
وتشَلُّوْا بينها الأَطْيَارُ شَنُوءاً رَضِيئاً للقلوبِ به انجِدَابُ

وفي صور الإسكندرية الرَّمْلُ ، وقصورُ الرملِ وكرومُه وزهورُه البريَّة كالشقائق الحمراء ، والأقحوان الأبيض ، يقول :

وكم يوم لنا بالرَّمْلِ فيه حديثٌ مثل ما نثر السحاب
حديثٌ كاسمِه فينا حديثٌ كما يَسْقِي أَخْظَمُ ثَغَابُ^(١)
جلسنا والرَّمالُ لنا حشايَا وأوراقُ الكرومِ لنا حجابُ

(١) الثغاب ما بقى من الماء في بطن الوادي .

على الكُثبانِ أَكْثَبُ سِمَانٍ وفي الأَغْصَانِ أَغْصَانُ رَطَابٍ
 به القصرانِ كالرُّجُلَيْنِ لَاحَا على بَعْدِ يُقْلِلُهُمَا السَّرَابُ
 أَقَامَا صَاحِبَيْنِ مَعَ اللَّيَالِي ولم يَنْعَبْ بَيْنَهُمَا الْغُرَابُ
 ويذكر قصرى فارس والمعلّى ، وكانا من القصور الأثرية الشاهنصية في أيامه على ما يبدو :

وأذكرُ قصرَ فارسَ والمعلّى ففيه لكلِّ موعظةٍ مَنَابُ
 وهى من بَعْدِ قُوَّتِهِ فَاضْحَى كما بَرَكْتَ على الغبراءِ نَابُ
 وَأَفْنَتْ مَلِكًا سَاكِنَهُ اللَّيَالِي وكم فَاضَتْ بِعسكرِهِ الشُّعَابُ
 فَأَصْبَحَ دِمْنَةُ تَغْلُو السَّوَابِي عليه وَقصرُهُ قَقْرُ يَبَابُ
 تَنَوَّحَ الْهَاتِفَاتُ عَلَى ذُرَاهُ وتُعْشِبُ فِي أَسَافِلِهِ الرُّحَابُ
 ففى تلكَ الشَّقَائِقِ مِنْهُ شَاقَتْ شَقَائِقُ شَقَقَتْ مِنْهَا الثِّيَابُ
 تَرَامَتْ مِنْ كَمَائِمِهِ فَكَانَتْ كَحُمِرِ اللَّاذِ أَيْدَتُهَا الْعِيَابُ
 تَحَرَّكُهَا الصُّبَا فَتُخَالُ فِيهَا بِحَارِ دَمٍ يُمَوِّجُهَا انْصِيَابُ
 كَانَ الْخَمْرَةُ الْحَمْرَاءُ رَاقَتْ وَأوراقُ الشَّقِيقِ لَهَا قَعَابُ
 وَتَحْسِبُ فَحْمَةً فِي كُلِّ سَاقٍ أَحَاطَ سِوَى الْيَسِيرِ بِهَا الْتِهَابُ
 كَانَ الْأَقْحَوَانُ بِهِ ثُغُورٌ مَفْلَجَسَةٌ مُؤَشِّرَةٌ عَذَابُ
 وَقَدْ بَهَرَتْ دَنَائِيرٌ دَعَاوَهَا بِهَارًا كَثَرَتْهَا ذَاكَ الْحَبَابُ

فراها هنا يلجأ إلى تصوير الزهور التشبيهات المعتادة والصيغ المتوارثة في الشعر العربى ، وبخاصة تشبيه المعتاد عند القدامى في بادية العرب من الزهور البرية كالشقائق والأقحوان غير أنه تَلَفَّتْنَا في أول الأبيات صورة غريبة إذ يشبه القصر بناق عجوز باركة .

وإذا ما انتقلنا من مشاهد الطبيعة بالإسكندرية وموجها وبحرها ورمليها وخليجها وبساتينها إلى القاهرة والقسطاط فأكثر ما حدثنا عنه النيل ، وقد جاء ذكره في مدائحه للخلفاء والوزراء بمناسبة فيضه ومواسم الأعياد وما إلى ذلك .

إلا أنه يخص بركة الحبش التي كانت تستمد ماءها من النيل شرقى جزيرة الروضة قرب القسطاط بوصفه فيقول :

تَأْمَلْتُ بَحْرَ النَّيْلِ طَوَّالاً وَخَلْفَهُ من اِثْرِ كَيْةِ الْغَنَاءِ شَكْلٌ مُدَوَّرٌ
فَكَانَ وَقْدَ لَاحَتْ بِشَطِئِهِ خَضْرَاءُ وَكَانَتْ فِيهَا الْمَاءُ بَاقِي مُوقَرٌ
عِمَامَةٌ شَرِبَ فِي حَوَاشِرِهَا خَضْرَاءُ أَضِيفَ إِلَيْهَا طِيلَسَانٌ مُقَوَّرٌ

صورة غريبة قصد فيها إلى التشبيه المستمد من بيئة أصحاب العمام الخضر
والطيلسان من أعيان القاهرة . ويصف الأهرام على الشاطئ الغربي للنيل أمام
القسطاط وبالجيزة الفيحاء كما كان يسميها الشعراء . يقول :

تَأْمَلْ هَيَاةَ الْهَرَمَيْنِ وَانْظُرْ وَبَيْنَهُمَا أَبُو الْهَوَلِ الْعَجِيبُ
كَعَمَارَتَيْنِ عَلَى رَحِيلِ بِمَجْبُوسٍ بَيْنَهُمَا رَقِيبُ
وَمَاءُ النَّيْلِ تَحْتَهُمَا دُمُوعٌ وَصَوْتُ الرِّيحِ عِنْدَهُمَا نَجِيبُ
وَذَا هَرَسَجْنِ يُوسِفُ مِثْلُ صَبٍّ تَخْلَفُ فَهُوَ مَحْزُونٌ كَيْبُ

ويبدو أن سجن يوسف هذا — على عرف القدماء من العرب — هو معبد
الوادي بجوار أبي الهول والصورة هنا غريبة نبعت من خيال بدوي ، وهي
صورة رسمتها ذاكرة الشاعر من حصيلة ما حفظ من الشعر لا ما عاين من
الواقع ، مع قدر غير قليل من المبالغة .

وله في دير القصير ، ما يبارى فيه شعراء الخمريات الذين جعلوا هذا
الموضوع من عناصر قصائد الخمر ، وأكثر فيه وأبدع شاعر الخمر الأول في
العصر العباسي أبو نواس وأبياته في دير حنا وغيره من أديرة الحيرة متداولة
مشهورة .

كذلك لظافر ديرية في دير القصير يحاكي فيها أبا نواس .

وله غير حديث الوصف للمنازة ، وأماكن اللهو والمرح ، ومسارح المتعة
حديث عن الربيع كقوله (١) :

جاء الربيع أخو حياة الأنفس وَجَمَلُ الدُّنْيَا بِأَفْخَرِ مَلْبَسٍ
فَاغْنَمْنَا بِنَا مُلْحَ الزَّمَانِ مَبَادِرَا وَتَمَلَّ مِنْهَا حَظٌّ مِنْ لَمْ يُتَحَسَّرِ
وَاسْتَقْبَلَ الْأَرْجَ الْمَعْطَرُ كُلُّمَا مَرَّتْ عَلَيْهِ الرِّيحُ كَالْمَتْنَفَسِ
فَكَانَمَا زَهْرُ النَّبَاتِ قَلَائِدُ تُبْرِثُ عَلَى صَفْحَاتِ بُسْطِ السُّنْدُسِ

(١) ديوانه ص ٣٣٩ .

(٢) ديوانه ١٦٥ .

والوردُ يَخْجَلُ حينَ قَبْلَ خَدُّه
فَكَأَنَّهُ غَيْرَانِ أَدْهَشَهُ الْهَوَى
وَكأَنَّمَا الْأَغْصَانُ تَطْرَبُ كُلَّمَا
وَكأن هَتَفَ الْوَرْقِ فِي أَغْصَانِهَا
وَالْمَاءُ قَدْ عَبَثَ بِهِ أَيْدَى الصَّبَا
وَكأَنَّمَا حُبَكَ الرِّيحُ عَلَى الثَّقَا
وَالطَّيْرُ تَسْرَحُ فِي الرِّيَاضِ غَوَادِيَا
وَالْوَحْشُ بَيْنَ سَوَاحِجِ وَبَوَارِحِ
تَرُدُّ الْعَدِيرَ وَرُودَ مَنْ لَا يَشْتَقِي
وَالشَّمْسُ تَجَلِي فِي مَطَالِيعِ شَرْقِهَا

صور جديدة متتابعة من خيال يختلط فيه صور تراث العربية في يديها ،
ومشاهد الحضارة بمصر والإسكندرية .

وفيه يقول (١) :

هذا الربيع أتى بأحسن منظر
فانهض إلى داعي السرور واخلنى
واسرق بنا خلس الزمان مبادرا
والروض يقلقه الصبا فيثير من
وكان مصفر الأصيل بخلاؤه
والشمس قد حوت المغارب شطرها
والجو من شفق الغروب مفروّز
وبدا الهلال لليلتين كأنه
والماء يبدى للتسيم تلقاً
والطير يطرب شجوها أغصانها
والليل يختلس النهار كعصية

ونلاحظ بعض أوجه الشبه بين رؤى الشاعر في القصيدتين مع أن الأولى
يصف مشهداً في الصباح ، والثانية وقت الأصيل قرب الغروب ، وتشابهان

(١) ديوانه ١٣١ .

كذلك في امتزاج صور الموروث الشعري بالحديد من حقل تجاربه ومشاهداته .

أوصاف أخرى

وهناك أوصافه لأشياء متنوعة كالحمامات والأطعمة ، وكقوله في فقاع (١) :

وَأَفَى بِفَقَاعٍ أُرِخَ	يُحْيِي بِنُكْهَتِهِ الْمَهْجَ
شَيْخٌ مَضَتْ مِنْ عَمْرِهِ	فِي ذَلِكَ الْمَعْنَى جَجَجَ
مَرْجَتْ يَدَاهُ الطَّيْبَ فِيهِ	فَكَانَ أَظْرَفَ مِنْ مَرْجَ
وَحَشَا قُلُوبَ سَدَابِهِ	مَنْهُ بِكُلِّ فَمٍ حَرَجَ
فَكَائِهِ يَحْشُو بِهِ	قَطَعَ الزُّمْرُدُ فِي السَّبِيحِ

ومن السوق يصور ظافر أصحاب الصنائع فيقول في حلاق :

لَا أَسْعِدُ اللَّهَ مَسْعُوداً فَصَنَعْتُهُ	كَوَجْهِهِ كُلُّ مَتِجٍ مِنْهُ مُحْتَصِرٌ
لَا يَخْلُقُ الرَّأْسَ إِلَّا مَرَّةً وَبِهَا	تَغْنِيهِ عَنْ عَوْدَةٍ مَا مَدَّهُ الْعِمْرُ
لَأَنْ أَلْطَفَ لِمَسْرٍ مِنْ أَنْامِلِهِ	سَلَخَ، وَهَلْ بَعْدَ سَلَخٍ يَنْبِتُ الشَّعْرُ
فَلَوْ ثَوَى خَلَقَ شَعْرٍ فِي ضَمَائِرِهِ	بِفِطْنَةٍ كَادَمَتَهُ الْمَخُّ يَنْشُرُ

وقال في صانع كثافة :

وَحَازِقٍ مُحْكِمٍ كَنَافَتِهِ	لَا تَشْبَعُ الْعَيْنُ مِنْهُ بِالنَّظَرِ
كَأَنَّمَا بَسِطَتِ الْعُجَيْنُ عَلَى	أَكْرَاهُ لَمَّا حَفَّتْ بِمُسْتَعْرِ
يَنْسَجُ غَيْثاً مِنَ السَّحَابِ عَلَى	وَامْضُ بَرَقَ يَكْتَنُّ بِالْمَطَرِ
كَأَنَّهُ يَفْتَحُ الْفَوَاقِعَ ذَارَاتٍ	عَلَى رَاكِدٍ مِنَ الْقُنُورِ

وقد ألم بتشبيه ابن الرومي في صانع رفاق .

وله في الشكوى ، وأحوال الحياة والناس قصائد يقف فيها متأملاً ناصحاً وكأنه في أخريات حياته يستعرض ما مر به من أحداث تتقلب به بين المرارة والحلاوة وتخوض به أيامها في سهل وصعب . يقول :

خَانَ الشَّبَابُ وَمَا وَفَّى بِمَا وَعَدَا فَلَا تَتَّقِ بِحَبِيبٍ بَعْدَهُ أَبَدَا

(١) الفقاع شراب يتخذ من الشعير ، وسمى كذلك لما يعلوه من الزبد والفقاقيع ويبدو أنه قريب مما كان يعرف في أوساطنا الشعبية بـ « السوياب » .

(٢) ديوانه ص ٣٤ .

قد كُنتُ أعقدُ عزمي في أوامره
حتى رأى من جنود الشيب بادرة
فكلما رُمْتُ نصرًا منه يخذلني
فبُلتُ أعيبُ نفسي في محبته
ويقول ناصحاً :

لا تفرحن برتبة أعطاك —————
في الناس جدك
وانظر مكانك في الفضاء
أنت الفقير مع الغني
هبك اقتدرت على الظوا
لا يغرر لك من يها
فمن البلية أن تزر
فاذا بليت بفقده
وقال في شكوى الدنيا :

أف لها دنيا فلا تستقر
جملة المنظر لكنها
قد دخل العالم في سجنها
فقيرها يطلب نيل الغنى
فذاك للإملاق في حسرة
والزاهد العابد في كلفة
وخوف ما يلقاه من ربه
وهو في القوت من حله
والفاسق المذنب في وضمة
ليس بمأمون ولا آمن
وعيشها بالطبع مرّ كثير
أقبح شيء عند من يختار
فكل جنس تحت بوس وضّر
وذو الغنى يجمع كنى يذخر
وذاك خوف الفقر عبد الحذر
من شعث الصوم وطول السهر
في آخر الأمر إذا ما خسر
صعب شديد مستحيل غير
مُسَقَّة الرأي قبيح الأثر
مذمّم في قومه مُحْتَقَر

وهكذا يمضي في القصيدة مُستعرضاً أحوال الدنيا وما فيها من العجائب
والمتناقضات والمسرّات والمنغصات .

ولظافر في ديوانه رسائل شعرية إلى أصدقائه من الشعراء والأدباء وغيرهم ،
منه رسالته إلى أمية بن أبي الصلت الشاعر القيرواني الوافد إلى مصر .

يقول فيها : (وكتب بها إليه بعد مغادرته مصر إلى القيروان) (١) :

ألا هل لدائي من فراقك إفراف
فيا شمسَ فضلٍ غربتَ ولضوئها
سقى العهد عهداً منك عمر عهده
يُجدده ذكرٌ يطيبُ كما شئتَ
لك الخلقُ الجزلُ الرُفيعُ طرازه
لقد صاولتني ياباً الصلّتْ مُذْ نأتَ
إذا عزّني إطفأوها بمدايعي
سحائبُ يحلوها زفيرٌ يجره
وقد كان لي كنزٌ من الصبرِ واقعٌ
وسيفٌ إذا جردتُ بعضَ غراره
إلى أن أبانَ البينُ أنْ غرّاره
أخى سيدي مولاي دعوةً من صفا
لئن بُعدتُ ما بيننا شقّةُ النوى
وبيدٌ إذا كلفتها العيسَ قصرتُ
فعندي لك الودُ الملازمُ مثلما
ألا هل لآيامي بك الغرُّ عودةٌ
ليالي يُذنينَا جوارِ أعادنا
وما يتنا من حسنٍ لفظك روضةٌ
حديثٌ حديثٌ كلما طال موجزٌ
يُزجيه بحرٌ من علومك زاخرٌ
معانٍ كأطوادِ الشواغحِ جزلةٌ
به حُكمٌ مستنبطاتٌ غرائبُ
فلو عاشَ رَسْطاليسُ كانَ له بها
فيا واحدَ الفضلِ الذي العلمُ قوتهُ
لئن قصرتُ كسبي فلا غرو أنّه
كتبْتُ وأفاتُ البحارَ تردّها

(١) ديوانه ص ٢٢٦ .

بحارٌ بأحكامِ الرياحِ فإنَّها مفاتيحُ في أبوابهنَّ وأغلاقُ
ومن لي بأنَّ أحظى إليك بنظرة فيسكنَ مِقْلَاقُ ، ويرقاً مُهْرَاقُ

وهي قصيدة تنبض بما كان بين الشعاعين من ود وميثاق .
ولظافر في ديوانه موشحات ، لعله عالجها في محاولات أولى ليحرب هذا
اللون الوافد من النظم وربما تعرف عليه من ابن أبى الصلت الوافد من بلاد
الأندلس ، أو غيره ممن التقى بهم بالإسكندرية والفسطاط والقاهرة وكانوا كثرا
في أيامه ومن قبله .

فمن موشحة قوله (١) :

ثغر لاح	يستأثر الأرواح	لما فاح	ما الخمر ؟ ما التفاح
	أجاني		ذا التائه الجاني
	أنساني		نظرة إنساني
	أفاني		طير بأفاني
	أحياني		في بعض أحياني
لما صاح	ما خلته ياصاح	للأرواح	ذا نشوة من راح
	قلبي مال		فيه إلى الآمال
	مالي حال		يا قوم لما حال
	لولا الخال		ما كنت إلا خال
	لما غال		قلبي فصبري غال
ذا المزاح	عاتبته مازاح	والإصلاح	أن أترك الإصلاح
	أعلى لى		موقى بأعلال
	أوصالى		نيران أوصالى
	بل بالى		أولى يلبالى
	ياحالى		أنظر إلى حالى
قد ساح من مقلتي ساح	ذو إفصاح	بالسر ، بالإفصاح	
بدر بان	في مثل خوط البان		
وجه زان	قدا كعود زان		
فالإخوان	في اللوم لى خوان		
والعينان	لما جفا عينان		

جسم راح	يدميه لمس الراح	لما لاح لم أحتفل باللاح
يا فثاك		بالقتل من أثناسك
ما أسراك		ليلا إلى أسسراك
ما أحلاك		سبعان من أحلاك
ما أسناك		وجها، وما أسناك
كالمصباح	نورا، بل الإصباح	كم ارتاح للقرب لوترتاح

ونلاحظ على هذا الموشح أنه مركب القفل ، ولم يلتزم الخرجة في آخره ونظامها على عادة أكثر الوشاحين الأندلسيين ومن سار على نهجهم ، وهو غير معرب في معظمه ، أو لا يلتزم الإعراب ، يعتمد فيه إلى صنعة الجناس في القفل والغصن ، ويربط في الغصن بين جناس أول البيت وقافيته ... فهو يمزج فني التوشيع والجناس وإن جعل صدر الغصن أقصر من عجزه .

وله موشحة أخرى تجارى فيها صنعته هنا .

وسار على النوال يقول . فيها^(١) :

بالاح في سمر	كالسمر	مهلافان صبرى	كالصبر
لم تغمض مذجفانى		أجفانى	
وصار دمعى شانى		فى شانى	
والحب مذ بلانى		أبلانى	

فالقفل متعدد البناء ويجرى على نفس النهج فى قفل الموشح الأول مع اختلاف القافية بالطبع لكن الأوزان والتفعيلات واحدة ، والتغير فى الغصن إذ يبدأ على عكس الموشح السابق بالمقطع الأطول فيجعله صدر البيت ويجعل المقطع الصغير من كلمة واحدة مجانسة لآخر كلمة فى المقطع الأول وهكذا فى بقية الأغصان مع تغير القوافى ... ويزيد فى هذا الموشح أنه يأتى بخرجة محكمة على تقليد الوشاحين فى التمهيد للخرجة فى آخر قفل .

يقول فى الغصن الأخير بهذا الموشح :

أنظر لسوء حالى	ياحالى
ملكتنى بخالى	ياخالى
ها فاسمع مقالى	ياقالى
دق عليك كالشعر	موشح يزهر كالزهر

فجاء بالخرجة القفل الأخير ، ومهد لها في البيت الأخير من الغصن بقوله
« ها فاسمع مقالى يا قالى » .

وبعد فإن نظم ظافر في القصيد هو عماد فنه الأول ، وإن حاول الموشح
وكان له من النثر في الرسائل والمقامة محاولات كذلك على ما سنورده بعد
قليل .

وكما رأينا فإن شعره جيد بصورة عامة ، ترتفع شاعريته في الحنين والغربة
وتذكر وطنه الإسكندرية ووصف مجاليها ، وأيام صباه ، وصنوته ، وأماكن
طرحه ولحوه على الخليج وفوق رمال الشاطئ ، وقرب السوارى ، والظاهرية
وما إلى ذلك مما كرر ذكره من معالم الثغر .

وبناء القصيدة عنده متغير ، فهو يعمد أحياناً في مديحة إلى البناء التقليدى
حيث يبدأ بالغزل ويتبعه الرحلة في أفراد من القصائد ، ثم يجيء بالمدح ، لكنه
أحياناً يبدأ مديحة للخلفاء والوزراء والأعيان من الأمراء والولاة والقادة بالموضوع
مباشرة عن طريق الاشادة بالمدح كأن يقول في الأمير القائد أبى عبد الله
محمد بن أبى شجاع فأتك :

رجاؤك فى نيل السعادة باب وما دون من يغبى نذاك حجاب

ولغته الشعرية ومصطلحة التعبيرى ، وقوالبه التركيبية كلها من تراث
الشعر القديم ، ونحس في شعره بمحفوظه الواسع من هذا الشعر . يستوحيه
معانيه في كل موضوع ، فتراه في المدح يرتاد أبا تمام والبحتري والمنتبي ، وفي
الوصف أبا نواس ومسلم بن الوليد وابن الرومى ، ويعتمد كثيراً على أبى نواس
كلما طرق موضوع الخمر والشراب ، أو تحدث عن الدير ، وما يلقاه فيه ،
ومن يحل به من الرهبان والشماميس . أنظر إلى قوله (١) :

قم تصطبّخ عند نقرات النواقيس واشرب على حُسن الحان الشّماميس
ويولع بالجناس أحياناً ، ويسوقه في تراكيب مُتقابلة ، أو مترادفة كصنعة
حبيب كقوله :

فدِيرُ شَهوانٍ مشهورُ الجمالِ على ما فيه من عِظيمِ تقدّيسٍ وتشكيسٍ

(١) ديوانه ص ٣٣٨ .

وكقوله يقلد إسراف أئى تمام والمتنبى أحيانا :
سقى العهد عهدا منك عمر عهده بقلبي ، عهد لا يضيع وميثاق
ويشبه ما جرى فيه المتنبى حبيبا في هذا البناء المتجانس المعيب في قوله :
وقلقت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل عيش كلهن قلاقل
ويردّد في بعض ألفاظه من ألفاظ القرآن والحديث ، لكنه غير مكثّر ، كما
يردد بعض ألفاظ الحضارة ، وأسماء الفلاسفة كأرسطاليس .
وتراه يعمد إلى التشبيه ، فيحلّوله في الوصف استخدامه ، في صور متتابعة
كما يلجأ إلى الاستعارة والكناية ، كقوله :

أأيماننا بالشجر هل لك عودة	إلى حافظ للعهد لم يتغير
وهل أتملى من نسيمك سحرة	يصافح مطلول البنات المنور
وأرقل في ثوبى صبا وصباية	وأسحب ذئلى مشية المتبحر
ودمع الندى في وجنة الورد خائر	كجام عقيق تحت در مؤثر
ونور الأقاج العضر يحكي إذا بدا	تبسم خوود عن شتيت مؤثر
كان يياض الماء في كل جلول	إذا لاح في غصن من الروض أخضر
غلالة شرب ضمها فوق لابس	رشيق قباء أخضر لم يزور

* * *

كان غصون المائسات رواقص
تثنت على إيقاع دُف ومزهر
وخيالاته مستمدة من جوه العام ، ومن بيئته التى طوّف في جنباتها
بالإسكندرية والقاهرة ، وتراه يشبه كثيرا بأشياء من مكتسبات حضارة
عصره ، وآنية القصور وأدواتها . وللبحر في صوره وخیالاته نصيب ، كذلك
للنيل ، والنار والفحم ، وكلها في الجديد من صوره فضلا عما أعاد عرضه من
الصور التقليدية .

نثر ظافر الحداد

ولظافر نثر جميل اللفظ والعبارة ، حسن المعاني ، شبيه بشعره . كتب إلى صديق له يقول من رسالة (١) .

« وصلت رقعته — أدام الله رفعتَه — مضمّنة من خطه ولفظه ما كان به قبل اليوم كمال الأنس ، وقوام النفس ، مذكرة ودادا قد درّس ، وحظاً فيه قد تعس لا لقلّة وفاء مني ، ولا لجناء صدر عني ، لكن أنخلقتُه أخلاقه القيحة ، وأهذمتُه عدمُ موَدّته الصّحيحة . وفي ذلك أقولُ متشلاً :

لا تشكون إليّ وجداً . بعدما هذا الذي جرّث عليك يداكا

وأظنه لما أنهج قشيبه ، وصوّح رطيبه ، أخذ يلاطفني بزخارف مكائبه ، وأما حيل مدهنته لكي يعود ما مضى ، أو يرجع ما قد انقضى ، وهيهات هيهات أن يعود ما فات ، فبحقّ الإسلام تأمن ترك السلام . والسلام » .

وله مقامة يقول فيها (٢) « أصبحت ذات يوم في منزلي ، وقد كل بناني وجناني ، ولساني وإنساني من الدأب في الطلب ، والإكباب على الكتاب ، ومتابعة المراجعة في التّسريح والمطالعة ، بين معنى أحكمه أو لفظ أنظمه ، أو بخط أرقمه ، فتأثقت النفس إلى الإحماض بمفاكهة أديب والارتياض بمذاكرة لبيب .

وإذا الغلام قد دخل وأسرع ، وقال : الباب يُقرع ، فقلتُ له : ما الشأن ؟ فقال : جماعة من الإخوان ؛ منهم فلان وفلان . فذكر لي كل صديق صدوق ، ورفيق رفيق ، وشقيق شقيق ، وقد اختلفت بينهم الموارد ، واتفقت منهم المقاصد ، فكأثروا كسيهام التبع إذا سددها النزغ ، فوافقت البرجاس ، ولم تحط القرطاس . فقلتُ : ويحك ! . عجل بفتح الباب ، وأذن للأحباب ، فهم نزهة النفس وثمرّة الأنس .

ثم استنهضني السرور إلى تلقيمهم بالبشر والحيور ، وقلت لهم : ما نظم لي هذا العقد إلا الجدد ولا تتم لي هذه الإرادة إلا السعادة . ثم أنشدتهم من

ساعتي :

(١) ديوانه ٢٣٥ .

(٢) ديوانه ٢٤٩ .

يا سادة قد كملوا	خُلِقُوا وَخُلِقُوا وَشَرَفُوا
أظنُّ دهرى نادمًا	على الذى كان اقترَفَ
رأى عظيمَ ذنبه	عِنْدِي فَتَابَ واعترفَ
وقد حَبَلَنِي بِكُمْ	كفارةً لما سَلَفَ
ولو دَرَى مِقْدَارَ ما	أَهْدَيْتُ مِنْ هَذِهِ التُّخَفِ
لانتَقَضَتْ قُوَّتُهُ	ومَاتَ غَيْظًا وَأُسَفَ

ثم رقمنا برود المحاضرة ، بالحكايات المختصرة ، ونظمنا عقود المذاكرة
بمعاني الأبيات المبتكرة ، كما قيل :

حديثٌ إذا تمَّ استُعِيدَ كأنَّهُ لذاذَةٌ عَذِبِ الْمَاءِ فِي فَمِ صَائِمٍ

فما هو إلا أن استقت الآذان مُجَاجات جرياله ، وترشفت الأذهان
مُجَاجات سلساله إذا الغلام يُومى إلى بخفيف الغمز ، ويُنجى إلى بخفي
الرَّمز ، فخرجت من بينهم خُروجُ الحوت من البحر في الشبك ، والظبي من
الرياض في الشرك . فقلت له : ويلك ! مالك ؟ وما غيرُ حالِك ؟ دع ناظري
يرتفع في هذى الرياض ، وخاطري يكرع من هذى الحياض فاستدنانى إلى
الدهليز ، وأسر إلى بلفظ وجيز ، وقال : يا مولاي ، ما عندنا اليوم للإنتاق
إلا الإملاق ، وما نُضيف به الناس إلا الإفلاس ، فدبر عما يُقترض ، أو يُباع
من العرض ، إلا إن عَوَّثْتُمْ عَلَى الصَّيَامِ ، فلا كلام

فبينما نحن نتجاذب في الوسيلة ، وتعامل في إعمال الجيلة ، وإذا بالبَاب قد
قَرِعَ فقلت له : أجب ، لعله ضيف مُنتاب بعين الأصحاب على أَكُلِ ذَلِكَ .

الطعام البائر ، والمأكول الحاضر . فخرج وجلا ثم جاء باسمًا جَدِلا ،
وقال : يا ملأى ! رسولُ صاحبنا الشَّواء الذى تَحْلُصْنَاهُ بِالْأَمْسِ مِنْ تِلْكَ
الْوَرِطَةِ ، وانقذناه من تلك الضَّغْطَةِ ، واستخرجناه من حبسِ الشَّرْطَةِ ، ومعه
سطل به جُودَايَةٌ^(١) يجذب الأنف أرجها ، ويعجب النفس بهجها ، عَطْرِيَّةُ
الأنفاس ، هشة بين الضَّرَاس ، تتبرج من حُسْنِهَا ، وتترجرج في دُهنِهَا ،
تحفها عِدَّة من الرُّغْفَان ، زاهرات الألوان ، صافية تفور ، ببخارِ التُّور ،
كأنَّهَا أوجهُ الحَرَّادِ البَيض ، إذا أَحْجَلَهَا التَّقْبِيلُ والتَّعْضِيضُ .

(١) الجودابة طعام يتخذ من سكر وأرر ولحم .

قلت : وينحك بالكع ! ما أقبح ما صنع ، وأفضح ما بكع^(١) ، أف لهذا الخلق ! ، أنبيع جاهنا بيع الخلق ؟ أرُدُّد على هذا السُّفساف متاعه ، ونُرْهنا عن هذه الشُّناعة .

فقال : يا مولاي ! ، أمّا ما ذهبت إليه ، وعوّلت عليه فهو الذى تقتضيه المروعة ، وترتضيه الفتوة وتعتقده الهمم الشريفة ، وتنقده الشيم الطريفة ، لكن إفلات ما تحصّل ، وفوات ما توصّل مع ما نحن فيه من حضور الضيفان ، وفُصُور الإمكان ، وفوات هذه الفرصة أعظم غُصّة . بل من الرأى الصواب ، أن تُجَمِّل للرجل الخطاب ، وتأخذ ما حضر ، وتقبل ما تيسر . فإذا أيسرنا وفينا فكافأناه ، فنكون قد بلغنا أغراضنا ، وطهرنا أغراضنا . ونبرأ من وصمة ما أبدى بأضعاف ما أهدى :

فقلت : يا فريد ، فى الأمثال السائرة عن أئى عبيد : تجوع الحرّة ولا تأكل بشديها . قال : يا مولاي ! الضرورة تُحسن ما قُبِح من هذه الصورة .

فقلت : اللهم غفرا ، فقد أبلت عذرا . يا غلام ! اصرف الرسول ، وتسلم المأكول . فلما حاز الجودابة ، وأغلق بابّه قال : يا مولاي : إنك عودت زوّارنا الضيفان ، وطراق المكان من سماحتك ، إذا نزلوا بساحتك الأكل ، فلا أقل من البقل والحلّ .

قلت : دعنى من الهذر . شرط الكرم لضيفة ما حضر . وما القبيح إلا مذهب الشحيح . قدّم الإخوان للإخوان ، وجملهُ بالزعران ، واحضِر السطل ، واحذر المطل .

فلما حضرت المائدة ، وظهرت التحفة الوافدة ، ظن القوم أنه اهتمام قد قصِد وإكرام قد نُضيد ، وصنيع مُحمل ، ودست مُكْمَل ، فجعل كلّ منهم يأكل ويقصر ، لكى يتظهر ، إلى ما يصحب الجذائب فى الترائب من جملان الشواء وجامات الحلواء ، فتم لى بذلك لسان الفراسة وإدمان السياسة ، فتزاوريت فى زاوية البيت ، واستخرجت جاما من زجاج — كان عندى — من

(١) بكع استقبل بما يكره .

غشائه وكتبْتُ في سوائِهِ^(٢) على الاستعْجَالِ ، بقضيَّةِ الحال ، وقلتهُ نظماً ،
وأثبتتهُ فهماً :

يا سادةَ حازُوا المناصبَ	والمراتبَ والمناقبَ
وتحصَّنوا بالمكرماتِ	من المعايِبِ والمثالبِ
فاقبوا البريَّةَ مثملاً	فاقتُ على التَّربِ الكواكبَ
لا تحسبوا أنَّي جهلْتُ	الحُكْمَ في سننِ الجدائِبِ
فلها شروطُ كُلِّ شَرٍّ	طِ شائعٍ في الناسِ دائِبِ
طوراً تكونُ بسُكْرِ	في اللُّوزِ تحتَ الدُّهنِ راسِبِ
زهراءُ قد سترَ الرُّجا	جَ شعاعُها من كُلِّ جانبِ
والطَّيبُ يُفشي سِرَّها	بينَ الأبايدِ والأقاربِ
والرَّبةُ الوسطى يقدِّ	مها تبايعةً وحاجِبِ
مثلُ الحروفِ وجامِةِ الـ	حلواءِ تأتي في العواقِبِ
وأقلُّ ما تأتي إذا	حضرتُ بعصيانِ أطايبِ
إلا جذابتنا فقدْ	جاءتْ مُخالفةَ المذاهِبِ

★ ★ ★

لم نتخذ في وقتها	شيئاً سوى الأثنانِ صاحبِ
فكلوا فليس بحازمِ	من باع موجوداً بغائبِ
فلنا حديث باطن	لم تعلموه من الغرائبِ

ثم غطيت الجلام ، وقلت للغلام : ويحك ! أكمل هذه الدُّعَايةَ ، واجعل
الجلام موضع الجُودَايةَ .

فلما كشف ما حجب ، وقرىء ما كُتب ، وفهم القومُ القريض ، وما فيه
من التَّصريحِ والتَّعريضِ ، استفزَّهم الضَّحِكُ والطَّرَبُ ، واستهزَّهم العُجبُ
والعَجَبُ ، واستعادوا السَّطْلَ واستجأوا الأكلَ باسترسالٍ وبشر صُراح ،
وبشاشةِ الإرتياحِ للأرواحِ .

فلما أخذوا من الطعامِ حدَّ الكِفايةِ ، وأمدَّ التَّهْايةَ ، وامتلاً جناني بهم

(١) التراثِ الصدر .

مُسْرَةً ، وإنساني بهم قُرَّة ، قالوا . هاتِ الأَشْئَانِ الذِي انفردتْ به الجُودَابَةُ
صَاحِبَا ، وإنْ لَمْ يَكُنْ هَا مَنَاسِبَا

فَمَا هُوَ : إِلَّا أَنْ غَسَلُوا أَيْدِيَهُمْ مِنْ أَثَرِ الزَّهْمِ^(١) ، حَتَّى بَادَرُوا إِلَى الْقِرْطَاسِ
وَالْقَلَمِ وَاسْتَدْرَكُوا مَا فَاتَ ، مِنْ إِثْبَاتِ الْآيَاتِ ، وَكَرَرُوا لَفْظَهَا ، حَتَّى اتَّقَنُوا
حِفْظَهَا .

ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى حَدِيثِ أَعْذَبِ مَنْ ضَمَّ الْخُلْسَ . وَلَثَمَ النَّفْسَ . فَلَمْ نَشْعُرْ إِلَّا
وَذُكَاءً قَدْ وَدَّعْتُ الْأَفْقَ ، وَتَقَنَّعْتُ بَوْرِدِي الشَّقَقِ ، وَتَصَرَّفَ النَّهَارُ ،
وَانصَرَفَ الزَّوَارُ »

★ ★ ★

(١) الزَّهْمُ : الدُّهُنُ .

ابن مكنسة (أبو طاهر إسماعيل بن محمد (ت ٥٠٠ هـ))

شاعر مصرى سكندرى عاش فى النصف الثانى للقرن الخامس الهجرى فى ظل خلافة المستنصر ، وتبخل المصادر بأخباره ، فقد ظلم فى حياته شاعراً ، فلم يبلغ ما يستحق لأن الأفضّل الجمالى الوزير الخطير غضب عليه واقضاه عن جنباه وظلم ميتاً لأن بعض ترجمته ضاع . وذكر نتفا من حياته وشعره بعض من اتصلوا به أو نقلوا عنه ترجم له . فمن اتصل به فى حياته وجالسه وأنشده شعره ، فنقل عنه الكاتب الأديب الشاعر المصرى على بن منجب الصيرفى كاتب الأفضّل الجمالى ، فقد ذكر بعضاً من أخباره . وأبياتاً من شعره فى الأفضليات^(١) .

وأمية ابن أبى الصلت فى الرسالة المصرية^(٢) ، كما نقل عماد الدين فى الحريدة عن أمية ، وعن كتاب جنان الجنان المفقود لابن الزبير وكتاب الحديقة لابن أبى الصلت^(٣) ، ونقل عنهما ابن شاعر فى فوات الوفيات^(٤) ، وما يمكن معرفته عن الشاعر لا يزيد على أنه ولد وعاش جانباً من حياته بالإسكندرية والتقى فيها بجماعة من العلماء والأدباء والشعراء ، ثم انتقل إلى القسطنطينية ، فاتصل ببعض أعيان المصريين ومدح أحدهم من كبار النصارى ورثاه وهو الخطير جد ابن ممتا .

قال ابن أبى الصلت : ومن شعراء مصر المشهورين أبو الطاهر إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكنسة وهو شاعر كثير التصرف ، قليل التكلف ، مفتن فى وشى جد القريض وهزله ، وضارب بسهم فى رقيقه ونزله .

قال : وكان فى ريعان شببته وعنفوان حدائته يعشق غلاماً من أبناء عسكرية المصريين يدعى عز الدولة فائق ، وهو الآن فى عصر المستعلى والامر

(١) راجع الأفضليات بتحقيق وليد قصاب طبع دمشق صفحات ٢٤ / ٦٩ ، ٧٠ ، ١٨٠ ، ٢٣٤ . ٢٧٩ ، ٣١٠ .

(٢) ص ٤٣ وما بعدها طبع ضمن مجموعة رسائل بتحقيق عبد السلام هارون .

(٣) الحريدة القسم المصرى ٢ / ٢٠٣ بتحقيق د . أحمد أمين وشوق ضيف .

(٤) فوات الوفيات ٢١١ بتحقيق د . إحسان عباس ونشر بيروت .

حتى عاد أمية مرة ثانية إلى مصر فتلقيه ابن مكنسة مهتأ بأبيات بعد عود الأول من المهديّة هي (١) .

وما طائرٌ قصَّ الزمانُ جناحهُ	وأعدّمةً ونكرًا ، وأفقدهُ إلّفا
تذكرُ فرحًا بين أنفانٍ بانيه	خوافي الخوافي ما يطرنُ به ضعفا
إذا التحفَ الظّلماءُ ناجى همومهُ	بترجيع نوح كاد من دقةٍ يخفى
بأشفقٍ مِنّي مذ أطاحت بك النوى	هوائية مائية تسبقُ الطرُفا
تولّت وفيها منك ما لو أقيسه	بما هي فيه كان في فضله أوفى

ومعاني الأبيات تشير إلى قوّة وحرارة العلاقة بين الشعارين .

وكان على صلة بعلامة الإسكندرية الإمام الحافظ السلفي ، ولعل ذلك كان في آخر القرن الخامس وأول السادس ، وهو ما يعنى أن تلك الصلة لم تحدث في بواكير حياته بالإسكندرية ، فالحافظ لم يكن هناك آنذاك .

وصلة ابن مكنسة بالحافظ ، تجمععه بالشاعر السكندري الآخر في هذا العصر وهو ظافر الحداد ، وقد تعاصر الشاعران بالإسكندرية ومصر ، وربما التقيا بالفسطاط ، أو جمعتهما معا مجالس الأدباء ، فقد تحدث على بن منجب الصيرفي عن كليهما في الأفضليات .

ويعجب ابن منجب بابن مكنسة وينقل بعض شعره في كتابه المذكور . ويبدو مما جاء في بعض شعره أنه سافر إلى الشام ، مصاحباً لصاحبه من قادة المعسكر وأنه أوفى على الخمسين من العمر .

ومما وقع إلينا من شعره في الكتب التي أشرنا إليها قليل نستطيع أن نلقى عليه نظرة عامة ، ليست فاحصة ولا أخيرة ، وإنما هي مجرد ملامح تراءت لنا من خلال تلك المقطعات والأبيات المفرقة ، ولم نعثر بينها على قصيدة مكتملة .

ومعظم شعره الذي اختاره أمية ، ونقل عنه العماد يدور في الغزل بنوعيه ، وفي الخمر والشراب ، وبعضه في موضوعات تتصل بالمدح والإخوانيات ، والهجاء ، وروياً أبياتاً في الوصف ، وبعض شئونه الخاصة ، كأبياته التي قالها في منزله الذي ضاق به ، وبعض أبيات في التحامق والعبث .

(١) الحريدة ٢ / ٢١٥ .

وشعره الغزلى قريب المعانى معتادها ، تتردد فيه بعض المعانى التقليدية ،
فيحتذى شعر من سبقه ، ويشير العماد إلى مأخذه منهم .

قال العماد^(١) : وله من قصيدة :

وعسكرى أبداً جيشما	تلقاهُ يلقاك بكلّ السّلاح
حاجبة قوسٍ وأجفائه	نبيلٌ، وعطفاهُ تثنى الرّماح
راح وفعل الرّاح فيه كما	يفعلُ بالعُصنِ نسيمُ الرّياح

أغار في هذا البيت على خالد الكاتب في قوله :

رأث منه عيني منظرين كما رأث	من الشمس والبدر المنير على الأرض
عشية حيائي بورٍ كأنه	خُدودٌ أضيفت بعضهنّ إلى بعض
ونالني كأساً كأنّ مزاجها	دُموعى لمّا صدعن مُقلتي غمضى
وراح وفعل الرّاح في حرّكاته	كفعلِ نسيم الرّيح في العُصنِ العُضّ

وله من أبيات يمزجُ معانى الخمر والغزل^(٢) :

يا من صفا ماء النعيم بوجهه	كم عشية كدرتها بصفائه
وزجاجة قابلتها فتبسّمت	عن ثغره ورضايه وسنائه
مُزجت فلانت مثلما مُزجت بها	أخلاقه، فأطاع بعد إبابه
مازلت أشفها ويغضب ريقه	لما جعلت الخمر من نظرائه

ويقول في الطيف :

بنفسي خيال زار وهو قريب	أحقاً عليه في المتام رقيب
سرى وغدير الليل طام جمامه	وللشّهيب فيه طفوة ورُسوب
وقد أعجلته للصباح التفاتة	فلم تلك إلا خفقة وهبوب
ولولاكم لم أرض أن تستقرّى	زخارف حلّم صدقهنّ كدوب
وكم لامة أيقظتم نفسي بها	لها بين أحناء الضّلوع ندوب
تجاوز فيها بين هام وجاجم	لِعيني وقلبي جذول ولهب

ومنها :

(١) خريدة القصر ٢ / ٢٠٦ .

(٢) الخريدة ٢ / ٢٠٧ .

أَمَسَّتْكُمْ رِيحُ الصَّبَا، إِنَّ نَشْرَهَا إِذَا هَبَّ مِنْ بَلْقَائِكُمْ لِيُطِيبُ
وَيَشْفِي غَلِيلَ أَنْ تَمُرَّ مَرِيضَةٌ وَبَرْدُ غَلِيلِي بِالْعَلِيلِ عَجِيبُ
ومن غزله الرقيق لفظاً ومعنى ، وإن أجرى فيه معاني القدماء بتصرف في
الصياغة قوله : (١)

مَدَى صَبْرِي وَإِنْ وَصَلُوا قَصِيرُ وَأَنْجُمُ لَيْلٍ شَوْقٍ مَا تَعُورُ
وَفِي أَسْرِ الْغَرَامِ إِذَا اسْتَقَلُّوا فَوَادٍ كَيْفَمَا سَارُوا يَسِيرُ
غَزَالُ الزَّمَلِ سَالِفَةٌ وَعَيْنَا وَلَكِنْ لِحَظُهُ أَسَدٌ هَاصُورُ
وَهَلْ سَوْدُ الْعَيُونِ سَوَى أَسْوَدِ تَأْمَلُ كَيْفَ يَفْتَرِسُ الْقُتُورُ
وَقَفْنَا وَالْهَوَادِجُ مَشْمَسَاتُ وَفِي الْأَحْشَاءِ بِالْهَجْرِ الْهَجِيرُ
كَأَنَّ لِكُلِّ كَوْرٍ فِي فَوَادِي إِذَا أَذْكَى لَطَى الْأَشْوَاقِ كَيْرُ

ففي هذه الآيات تنجلي بعض نماذج صناعته الشعرية ، فهو كما أشرت يعيد
صياغة بعض المعاني السابقة ، والجارية في الغزل ، فيأخذ معنى قتل العيون
الذي صاغه جرير في بيته المعروف :

إِنَّ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا (٢)
فِيصَوِّغُهُ صِيَاعَةً أَقْلَ لَفْظًا فَيَقُولُ : (وَلَكِنْ لِحَظُهُ أَسَدٌ هَاصُورٌ) وَيَتِمُّهُ بِقَوْلِهِ :
وَهَلْ سَوْدُ الْعَيُونِ سَوَى أَسْوَدِ تَأْمَلُ كَيْفَ يَفْتَرِسُ الْقُتُورُ

ويوظف المعنى للملاءمة الصنعة اللفظية من الجناس والطباق في هذا البيت
السابق ، وفي قوله في البيتين اللذين يليانه ، وهو مغرى بصنعة الجناس
والطباق ، لكنه يأتي بهما في غير إسراف يثقل الكلام .

وكغيره من شعراء العصر والمصر يستخدم قاموس الشعر من اللفظ القديم ،
كما جاء في قوله (٣) :

قُلْ لِأَيَّامِنَا الَّتِي قَدْ تَقَضَّتْ بِالْغَضَا هَلْ لَنَا إِلَيْكَ سَبِيلُ
أَتَرَى الْبَانُ فِي رِيَاضِكَ يَنَادُ إِذَا مَسَّهُ النَّسِيمُ الْعَلِيلُ
أَمْ تَرَى الشَّادِنَ الْغَرِيرَ لَهُ يَبْـ_____ كَثِيرُكَ مَسْرُحٌ وَمَقِيلُ

(١) الخريدة ٢/ ٢٠٧ .

(٢) خريدة ٢/ ٢٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢١١ .

سَلْ بُوغْسَائِهَا الْخَمَائِلَ تُجَلِّى
إِنْ يَكُنْ عَنْكَ عَزٌّ صَبْرٌ فَصَبْرًا
وَإِذَا بَانَ عَنْكَ مِنْ كُنْتَ تَهْوَا
ومما قال فى جواب رسالة :

أَسْمَالٌ تَمْسُهَا أُمُّ شَمُولٍ
إِنْ عُمَرَ الْبِكَاءُ فَيْكَ طَوِيلُ
هُ، فَغَيْرُ الْجَمِيلِ صَبْرٌ جَمِيلُ

نشرت كتابك عند الورود
ولم أر من قبله روضة
وقال فى المعنى كذلك :

أَهْلًا بِهَا جَنَّةٌ أَهْدَتْ ثَمَارَ نُهْيٍ
مَا دَارَ فِى تَخْلِيدِي لَوْلَا كِتَابُكُمْ
وَمِنْ شَعْرِهِ الْمُتَعَلِّقُ بِأَحْوَالِهِ وَحَيَاتِهِ مَا قَالَهُ حِينَ دُعِيَ لِلسَّفَرِ إِلَى الشَّامِ مَعَ
أَحَدِ الْقَوَادِمِ مِنْ أَمْرَاءِ الْعَسْكَرِ لِقِتَالِ الْغَزَا (الأكرد) . قال (١) :

غَيْرُ عَاصِرٍ عَلَيْكَ تَقْوِيمُ عُودِي
قُلْ لِمَوْلَايَ إِذَا دَعَانِي لِأَمْرٍ
ضَعُفْتُ جَيْلَتِي ، وَقُلْ غَنَائِي
أَنَا مَالِي وَلِلشَّامِ وَإِنِّي
بِلَدِّ جَنَّتِهِ عَفَارِيَةُ الْغُرِّ
وَالْجَفَارُ الَّتِي تَقُولُ إِذَا مَا
وَكَاَنَّ بِي عَلَى بَعِيرٍ تَرَانِي
أَسْوَدُ الْوَجْهِ نَاطِرًا فِى أُمُورٍ
وَإِذَا قِيلَ فِى غَدٍ يَلْتَقِي النَّاسُ
حِينَ لَا نَاطِرِي تَرَاهُ حَدِيدًا
حِينَ لَا يَتَقَى لِسَانِي وَلَا يُثْنِي
إِنْ رَأَيْتَنِي إِذَا تَسَدَّدَ نَحْوِي
وَإِذَا مَا قُتِلْتُ كُنْتُ خَلِيقًا
فَأَقْلَنِي عِثَارَهَا وَابَقِ لِلْحَمْدِ

فَانْقَضَى مِنْ مَلَامَتِي أَوْ فَرِيدِي
قَمْتُ فِيهِ لَهُ مَقَامُ الْقَبِيدِ
وَدَنْتُ غَائِتِي ، وَرَثَ جَدِيدِي
الْأَرَى نَارَ حَرِيهَا فِى وَقُودِ
وَأَرْضٍ وَحُوشُهَا مِنْ أَسْوَدِ
قِيلَ هَلَا أَمْتَلَاتِ؟ هَلْ مِنْ مَزِيدِ
آخِرَ النَّاسِ فِى لَفِيفِ الْحُشُودِ
مُعْضَلَاتٍ، مِنْ الْحَوَادِثِ سُودِ
سُ، فَلَا تُنْسَ، فَهَوِيْتُ الْقَصِيدِ
حِينَ يَلُوحُ لَهُ بَرِيقُ الْحَدِيدِ
سِ زِمَامَ الْبَعِيرِ عَنِّي تَشِيدِي
سَهْمُ رَامٍ لَغَيْرِ رَأْيٍ سَدِيدِ
بُدْخُولِي جَهَنَّمَ فِى خُلُودِ
وَكَبَتِ الْعِدَا وَغِيظَ الْحَسُودَا

(١) الرسالة المصرية لأمية بن أبى الصلت ص ٥٠ - ٥١ .

ويبدو من أبياته هلعه من الذهاب للحرب ، فهذه ليست حرفته ، إنما حرفته الكلمة والقلم ، ويخشى رهب السيف ، ورهج المعارك ، على أن كلامه في هذه الأبيات يكشف عن روح مرح وفكاهة ، ويبدو أن الشاعر كان على قدر من الدعاية ، يكشف عنها أحيانا في أبيات مفردة تغلت منه في بعض القصائد الجادة ، أو قد يخصها بأبيات وقصائد ذوات عدد . كقوله يصف قبح منزله وضيقة^(١) :

لَيْ يَيْتْ كَأَنَّهُ يَيْتْ شِعْرِي	لَا بِنَ حَجَّاجٍ مِنْ قَصِيدِ سَخِيفِ
ضَايِقَتْنِي بَنَاتُ وَرْدَانَ حَتَّى	أَنَا فِيهِ كَفَّارَةٌ فِي كَبِيفِ
أَيْنَ لِلْعَنْكَبُوتِ يَيْتْ ضَعِيفِ	مَثْلُهُ ، وَهُوَ مَثَلُ عَقِيلِ الضَّعِيفِ
وَإِذَا هَبَّ فِيهِ رِيحُ السَّرَاوِيلِ	فَسَلَّمَ عَلَى اللَّحَى وَالْأُتُوفِ
بُقْعَةٌ صَدَّ مَطْلَعُ الشَّمْسِ عَنْهَا	فَأَنَا مُذْ سَكَنْتُهَا فِي الْكُسُوفِ
وَهُوَ لَوْ كَانَ بَيْنَ حَجِّي وَنُسْكِي	صَدَّ فِي بُغْضِهِ عَنِ التَّطْوِيفِ
أَنْتَ وَسَعَتْ يَيْتْ مَالِي فَوْسَعَتْ	مَنْزِلُ فَهُوَ مَنْزِلُ الضُّيُوفِ
وَأَجَرْنِي مِنَ الضَّنَى وَأَجَرْنِي مِنْ	كَ فِي حُسْنِ خُلُقِكَ الْمَأْلُوفِ

وحين نقرأ الأبيات نحسُّ بنفس ابن الرُّومى ، ومحاولة لتأثر ابن حجاج^(٢) ، وهو يأخذ بنهجه في بعض شعره الذى يتحامق فيه . كقوله :

أَنَا الَّذِي حَدَّثْتُكُمْ	عَنْهُ أَبُو الشَّمَقْمَقِ
وَقَالَ عَنِّي إِبْنِي	كَنتُ نَدِيمَ الْمُتَّقِي
وَكنتُ كَنتُ كَنتُ	مِنْ رُمَةِ الْبُنْدَقِ
حَتَّى مَتَى أَبْقَى كَذَا	تَيْسًا طَوِيلَ الْعُنُقِ
بَلْحِيَةِ مُسْبَلَةٍ	وَشَارِبِ مُحَلَّقِ
يَا لَيْتَهَا قَدْ خُلِقَتْ	مِنْ وَجْهِ شَيْخٍ خَلَقِ

وقال في أخرى على الطريقة نفسها^(٣) :

عَشْتُ خَمْسِينَ بَلْ تَزِيدُ رَقِيعًا كَمَا تَرَى

(١) الخريدة ٢ / ٢١١ ، وابن حجاج شاعر بغدادى من القرن الرابع كان يتحامق ومكثر من السخف في شعره .

(٢) ابن حجاج شاعر بغدادى من القرن الرابع كان يتحامق ومكثر من السخف في شعره .

(٣) الخريدة ٢ / ٢١٤ .

وَكَذَا الْمَلَحْ سَكْرًا	أَحْسَبُ الْمَقْلَ بِنْدُقًا
شَيْءٌ مَسْدُورًا	وَأُظُنُّ الطَّوِيلَ مِنْ كُلِّ
تَ ، وَعَقْلِي إِلَى وَرَا	قَدْ كَبُرَ بِرِيزِ بَرِّ
أَرَاهُ تَغْيِيرًا	عَجَبًا كَيْفَ كُلِّ شَيْءٍ
كُلِّ إِلَّا مَقْشَرًا	لَا أَرَى الْبَيْضَ صَارِيؤُ
رَ ، زَجَاجَ تَكْسَرًا	وَإِذَا دَقَّ بِالْحَجَا

وهذا نهج من الشعر درج عليه جماعة من الشعراء قديماً وفي عصر الشاعر ، أما قديماً ، فأبو الشمقمق وأبو دلامة ، وابن الرومي ، وابن سكرة وابن الحجاج ، وأما في عصر الشاعر أو قبله بقليل فالرقعمق ، والواساني . وظل هذا النهج بعد ذلك ، فأخذ به بعض شعراء المصريين في القرون التالية ، مثل ابن دانيال والجزار ونقف مع الشاعر وقفة في أبيات له يصف رمدا طال بعينه ، فقال :

وما لليلي ما شقهُ الفلقُ	ما لنهارى كآثُه الغسقُ
تغرقُ في مائها وتخرقُ	وما لعيني أرى بها عجبًا
وتستغيثُ الجفونُ والحدقُ	ولي طيبٌ تشكو مرأوده
مرَّ بعيني وكحلُّهُ الأرقُ	شيفاهُ تطرُدُ الشفاءَ إذا
وقائدي العيصي والحلقُ	وإن تماذى على زرتكم
جفونٍ عيني كأنها الشفقُ	لم يبق من صبغة الرواءِ سوى
لا بدَّ منها وتركها خرقُ	ولي من الداءِ ما حكايتُه
هذا ، وهذاك ليس ينطلقُ	طبعي ووجهُ البخيل في قرن
قد نفذَ العينُ فيك والورْدُ	يا عينُ حَتَّامَ أنْتِ باكية

وللأدباء والنقاد المعاصرين واللاحقين آراء في شعر ابن مكنسة بين مقدم ومقرظ ومنتقد أو مؤاخذ . وأولهم ممن أعجب بشعره صديقه الشاعر المغربي أمية ابن أبي الصلت ، وقد أورد مختارات كما قلنا من شعره ، واختاره ، ونوه به من بين شعراء عصره ممن يقيم بالفسطاط في أخريات القرن الخامس كذلك نقل ابن الصيرفي على بن منجب بعضاً من شعره في الأفضليات مختاراً ، أو معجباً

بعض معانيه ، أو سرعة بديته . فمما أعجب به قال^(١) : وعلى ذكر العين
والحد فقد أبدع ابن مكنسة في قوله :

لم أرَ قبلَ شعرِهِ ووجهِهِ ليلاً على صُبحِ نهارِ عُسُوسَا
والسكر في وجنتِهِ وطرفِهِ يفتحُ وردًا ويغضُّ نرجسَا

على أن من تشبيهاته التي ابتكرها قوله من أبيات في الخمر :
ما لآخ وجهُكَ يُجْتَلَى في مجلس إلّا وجلّى عنه وجهُا أربدا
يكرّ إذا إفترعتُ أخذتُ شعاعها بيدي، وقلتُ لأهلها هذا الردى
وقال في تجديده للمعاني^(٢) :

« على أن ابن مكنسة ذكر الحجر الأسود غير مرصوف ، فلم يشكل المراد
فيه ، وسبب ذلك ما قرنه به رخمه إليه ، فقال من قصيدة أولها :
لمثل ذا اليوم كان السعد ينتظر

منها :

كأنك البيتُ قد طافَ الحجيحُ به وفي ركائبك حلّ الركنُ والحجرُ
وعن بديته قال ابن الصيرفي^(٣) « وحدثني ابن مكنسة قال : حضرت
جنازة أُنَى الطائي المقرئ فرأيت من إعظام الناس له — وهو محمولٌ على
نعشه — ما لم يكن له منهم في حياته فقلت بديها :

أرى ولد الطائي أصبح يومة يُعَظِّمُهُ الأقبام أكثر من أمس
وقد أكرموا في الممات تراهم يظنُّون أن الجسمَ أركى من النفس

ومما وصلنا من شعر ابن مكنسة يمكننا القول بأنه شعر متوسط الشعاعية ،
يمزج فيه بين طريقة القدماء وطريقة المحدثين ، وتبدو في ألفاظه ومعانيه سمات
مصرية ، كالإيل إلى النكتة ، وروح الفكاهة ، والتورية في القول ، ورقة اللفظ
وعذوبة البناء مع صياغات ومفردات عامية .

★ ★ ★

(١) الأفضليات ١٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٨٠ .

الفصل الخامس
شعراء وافدون من المشرق
(في القرن الخامس)

- ١- التهامي: أبو الحسن علي بن محمد بن فهد (ت ٤١٦ سنة هـ)
- ٢- أبو الفتيان ابن حيوس (ت ٤٧٣ هـ)
- ٣- داعي الدعاة (ت سنة ٥٤٧ هـ)

(التهامي) أبو الحسن علي بن محمد بن فهد

(ت ٤١٦ هـ)

يقول الصفدي^(١) : مولده ومنشؤه باليمن وهو منسوب إلى تهامة ، وتهامة هي الجزء الساحلي الجنوبي المحاذي لشاطئ البحر الأحمر من ناحية الحجاز ويفصل بين مرتفعات الحجاز والبحر ، وهو سهل زراعي في الجنوب منه ، ويقع شمالي اليمن ، وتصب إليه وديان سلسلة جبال السراة المتجهة إلى البحر غرباً . ومعظم سكانه من أصل يمني ، واختلطت بهم أصول غير يمنية من غرب الشمال ، وأشهر قبائله في العصر الجاهلي وصدر الإسلام بطون من أزد شنوءة .

وأهم مدن تهامة نجران وجيزان ، ولسنا على يقين من أصل التهامي ، أهو من إحدى القبائل اليمنية ، أم أنه ينتمي إلى قبيلة مضرية تسكن بعض أطراف تهامة .

مولده :

وقد نسب النبي ﷺ إلى تهامة أيضاً مع أنه من مكة . على أية حال ، فإن هذه الإشارة إلى مولده ونشأته باليمن لم ترد إلا عند الصفدي ، والمراجع الأخرى تنسبه إلى الحجاز أو تهامة .

وطبيعي أن ينتقل إلى الحجاز ، ويعيش بعض الوقت في مدينتيه الكبيرتين مكة والمدينة حيث الأشراف العلويون من الحسينيين والحسينيين ، وكانوا يولون أمر الحجاز في أيام الدولة الفاطمية وقبلها ، وكانوا على جانب من الثروة والجاه .

واتصل التهامي في شبابه ببعض ممن كانت لهم الصدارة ، وإمارة الحجاز أو إمارة إحدى المدينتين .

وحياته في تهامة والحجاز تركت آثارها في شعره ، فهو يحن أبداً إلى الحجاز وأهله ، ويتذكر حبيبته الحجازية التي يرتحل إليه طيفها أينما كان في غربته . ويذكر تهامة في مديحه لأحد رجالات بني عامر في الجزيرة من أرض العراق أو الشام وهو أبو الفتح المظفر بن عبد الجبار فيقول :

(١) الرواق ج ٢٢ ص ١١٦ .

لا يُطْمَعَنَّكَ نور كوكب عامر فوراءَ قرب سناه بعد سنائه
حتى سيوف رجاله وهى القضا أشوى جراحاً من عيون نسائه
لله عَزَمَ من وراء تهامة نادى فثُرْتُ ملياً لندائه

ولعلنا نزعِم أن الشاعر قال هذه القصيدة في بواكير رحلاته من تهامة والحجاز إلى الشام ليتصل برجالات العصر من شيوخ ورؤساء القبائل العربية المستقرة في بادية الشام وبلاد الجزيرة الفراتية ، في ديار بكر وديار ربيعة ، ونعلم من أحداث تاريخ العصر أن بعض بطون قبائل مضر وعامر على وجه الخصوص كانت تتنافس فيما بينها ، وتتنافس غيرها من قبائل نجد كأسد وطي على الزعامة والنفوذ ، والفوز بقسط وافر من الأرض في خلافة العباسيين التي توزعتها الخلافات والنزعات منذ القرن الرابع ، والخلافات بين الدليم والأتراك خاصة من أجل السيطرة على مقدرات الدولة الإسلامية .

وقد أذكى هذه الخلافات ذلك التنافس المرير بين الخلافتين العباسية في بغداد والفاطمية في القاهرة .

ومهما يكن من الأمر فإن الشاعر في هذه الممدحة قد ذكر هذا المملوح العامري وتقرب إليه بنجد ، لأنه موطن قبيلة المملوح ، ومنازها الأولى قبل النزوح إلى أرض العراق والشام :

أهدى لنا في النوم نجداً كَلَهُ يسوره وغصونه وظبائه
ويجد الفرصة سانحة وهو يمدح صامرا أن يلمح إلى ما أشتُهرت به من ملاحه
نسائهم وأن عيونهن تجرح قلوب العشاق أكثر من سيوف رجالهم .
حتى سيوف رجاله وهى القضا أشوى جراحاً من عيون نسائه
وإن كان وقعها أشد وأنكى .

وربما كان الشاعر قد أقام بالبحرين ردياً من الزمن قبل مجيئه إلى الشام واتصاله بآل المفرج بالرملة وبعض زعماء القبائل في البادية ، ونعلم العلاقة بين قرامطة البحرين وقبائل الشام ، وآل المفرج خاصة ، فقد تعاون الجميع على حرب المعز لدين الله الفاطمي بعد مجيئه إلى مصر ، وحاصروا القاهرة ، لولا أن المعز استطاع بمكره وذهبه أن يفرق الحلفاء ويوهن عزمهم فبنتصر عليهم .

خرج التهامي من بلاده تهامة إذا قاصداً الشام أو العراق ، ومنحدرًا إلى شاطئ الخليج يتجول هناك بين بعض الزعماء .

ويبدو أن الشاعر طوّف بأرض الجزيرة من العراق زمنًا ، ولم يظفر هناك بطائل فولى وجهه جهة المشرق لعله يلقي ما يرجي ، ويعلم آنذاك أن المشرق يحفل بمفاجآت ، بين الطامعين مختلفي الجنسيات من فرس وترك وعرب ، كل يحاول أن ينال من غنيمة الخلافة وأرضها بقدر ما يملك من قوة ومقدرة على التآمر والمناورة ، والتحالف مع القوى الغالبة .

ولعل الشاعر لم يظفر في هذه الرحلة المشرقية بما كان يرجوه ، فولى جهة مرة أخرى شطر الشام يسعى في أرجائه ، وينتقل بين ربوعه وأصقاعه .

وحياة الشاعر غامضة لا تكاد تظفر منها بقبس يضيء لنا الطريق للتعرف على وقائعها لولا ما يمكننا استشعاره والاهتداء إليه من ثنايا شعره .

وسنحاول عن طريق الديوان أن نترسم خطاه ، ونقف على بعض من لقيهم من الأمراء ، والملوك والرؤساء في الجزيرة بتهامة والحجاز وبادية الشام والشام وأرض الجزيرة بالعراق بديار ربيعة ، وديار بكر والموصل وميفارقين ونصيبين وآمد .

كما سنحاول تتبع خطاه بالشام وبلادها وثغورها في دمشق وبيروت وطرابلس وصيدا وصور والرملة ، حتى ينتهي به المطاف إلى مصر والقاهرة فالسجن بخرانة البنود وموته بها مسموماً كما يُقال سنة ٤١٦ .

قال صاحب الدمية^(١): وحدثني محمد التجاني ، قال : حدثني أبو كامل تميم بن مفرج الطائي أن التهامي هذا كان في ابتداء أمره من السوق ثم انقطع إلى بني الجراح يمتدحهم ويستعين بهم .

ويشهد على أنه كان في أول أمره من السوق كما جاء في عبارة البخارزي قوله يمدح من اسمه الحميدى^(٢) .

(١) دمية القصر ١ / ١١٠ .

(٢) ديوانه ص ٤٠٨ .

ما أنت فاعله الغداة بشاعر
قد طاف في طلب العلا وادى القرى
والى عمان وفارس ثم انتحى
وأقام في شيراز سبعة أشهر
رث الثياب مشعث القدمين
والأرض من عدن إلى السدنين
بالرى نحو جزيرة البحرين
وأثاب من كل بخف حنين

ولعل هذه الأبيات ترسم خط الرحلة منه في بادئ أمره قبل اتصاله بآل
المفرج إذا ما أخذنا في الاعتبار ترتيب الأماكن التي زارها في الأبيات وفق تعاقبها
الزمنى .

ويبدو من هذه الأبيات أنه لم يذكر الشام ، ولعل ذلك يوحي بأن ممدوحه
الذى لقيه بعد مجيئه من المشرق وأقامته في شيراز سبعة أشهر بلا جدوى ، كان
بأرض الشام قبل لقائه بآل المفرج .

ودعنا نفترض أن هذا الممدوح وهو الحميدى بن عباس هو أول ممدوح لقيه
بالشام ، وتتسم قصيدته فيه بروح بدوية غالبية ، وبخاصة في هذه المقدمة الطللية
التي يبدوها بقوله :

حَيِّتُما من دمتى طَلَلَيْنِ
عَفَى عِراضَهُما على طولِ البلى
عُطِّلَيْنِ مُوحِشُنْ مُقْفِرَيْنِ
نَوَّ الرشا وبوارح الفرعينِ
أَذْيَالُ غَادِيَتَيْنِ رَائِحَتَيْنِ
مَخَاهُما من آل مَحَوَّةَ والصَّبَا

وصل التهامي إذا إلى الشام ولا ندرى متى كان وصوله ولا مدى استقراره في
بلاده وكل ما نعلمه محققاً أو قريباً من التحقق أنه كان بالرملة عند آل الجراح في
سنوات فرار أئى القاسم الحسين بن على الوزير المغرنى إليها في حدود سنة
٣٩٠ هـ وجاء في أخباره التي ذكرها الصفدى أنه تولى بها الخطابة وتزوج .

وينفرد الصفدى^(١) بقوله إن مولده كان باليمن ، ولعل ذلك يفسر لنا ذكر
عدن في أبياته المتقدمة ، قال الصفدى : مولده ومنشؤه باليمن ، ثم قال : وطراً
على الشام وسافر منها إلى العراق والجليل ، ولقى الصاحب بن عباد وقرأ عليه ،
وانتحل مذهب الاعتزال ، وأقام ببغداد وروى بها شعره ثم عاد إلى الشام وتنقل في
بلادها وتقلد الخطابة بالرملة ، وتزوج بها .

(١) الوائى بالوفيات ج ٢٢ ص ١١٥ ترجمة رقم ٦٧ .

وفى خبر الصفدى خلاف مع كلام التهامى فى أبياته واتفاق ، فأما الخلاف فإنه ذكر أن أول خروجه من بلاده كان إلى الشام ثم اتجه مشرقاً حتى شيراز ولعله لقي بها الصاحب ، وأما الاتفاق فإنه ذكر شيراز وبعض بلاد العراق وإن لم يُحدد بغداد التى نص عليها الصفدى ، وقال إنه روى بها شعره .

وقد يفيدنا خبر الصفدى عن وفود التهامى إلى شيراز ولقائه للصاحب وقراءته عليه وانتحال مذهب الاعتزال ، فربما تأثر به ، وإن لم يرد فى الديوان ما يشير إلى مديحه للصاحب ولا ذكره تصريحاً أو تلميحاً .

وإذا صح خبر الصفدى عن لقاء الشاعر للصاحب فإنما يكون ذلك قبل سنة ٣٩٠ هـ ولنفترض : أنه كان بين سنتي ٣٨٠ ، ٣٨٥ هـ إذ توفى الصاحب سنة ٣٨٥ هـ ، ونفترض كذلك أن التهامى غادر شيراز بعد وفاة الصاحب ، فيكون قد تجول فى بلاد العراق والشام نحو من سنتين ، ربما قضاهما كلها قبل مجيئه إلى الرملة أو لعله قضى أربعاً منها متجولاً ، وقضى عاماً أو بعض العام أو ما يزيد على ذلك فى الرملة قبل مجيء أبى القاسم إليها سنة ٤٠٠ هـ .

وفى سنة ٤٠٠ هـ تحدث الفتنة التى شارك فيها الوزير المغربى وربما تورط التهامى الشاعر بحكم علاقته بآل مفرج بن الجراح وتعرفه فى صُحبتهم إلى الوزير المغربى .

يقول التويرى^(١) فى أحداث سنة ٤٠٠ هـ : « وفيها سَخِطَ الحاكمُ على وزيره ابن المغربى ، وقتله وقتل أخاه وابنه — يقصد علياً بن الحسين — ومحمد بن الحسين ، وهرب ابنه الآخر — يعنى أباً القاسم الحسين بن على — إلى الشام » .

وقال^(٢) : « ثم حَسَنَ ابن المغربى لبني الجراح أن يخرجوا عن طاعة الحاكم ، فوافقوه على ذلك ، وقتلوا بارتكبين أحد الأمراء الحاكمية المقيم بالرملة ، ثم حَسَنَ لهم أن يقيموا أباً الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى خليفة ، وهو أمير الحرمين يومئذ ، وأن يحضروه من مكة فأجابوه إلى ذلك » .

(١) نهاية الأرب ٢٨ / ١٨٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٦ .

وندع مرحلة إقامة التهامي بالرملة مع آل المفرج إلى حين لنصحبه في رحلته ببلاد الشام وقد ترددت على دمشق وطرابلس ، وأور ما نلاحظه في تلك الرحلة ، تردده على جماعة من الأشراف العلويين سواء أكانوا حسنيين أو حسينيين .

وكان ممدوحه الشريف أبو عبد الله محمد بن الحسين العلوي قاضي دمشق وخطيبها ، ونقيب الأشراف بها في مقدمتهم

ونفق من بين هؤلاء جميعا وقفة مع أحد ممدوحيه واسمه هبة الله الحسن بن علي بن حيدرة ، وكان من رجال الحاكم بالشام .

قال النويري^(١) : « فلما كان في شهر رجب سنة تسع وأربعمائة (٤٠٩ هـ) ظهر رجل يقال له الخس بن حيدرة الفرغاني الأنحرم يرى حلول الإله في الحاكم ويدعو له إلى ذلك ، ويتكلم في إبطال النبوة ، ويتأول جميع ما وردت به الشريعة ، فاستدعاه الحاكم ، وقد كثر تبعه ، وخلع عليه خلعا سنية ، وحمله على فرس بسرجه ولجامه ، وركبه في مركبه ، وذلك ثاني شهر رمضان منها ، فبينما هو يسير في بعض الأيام تقدم إليه رجل من الكرخ على جسر طريق المقسى فألقاه عن فرسه ، ووالى الضرب عليه حتى قتله » . ونقرأ قول التهامي في ذلك الرجل^(٢) :

أَذْهَبَتْ رَوْثَقَ مَاءِ الصُّبْحِ فِي الْعَذَلِ فَارْبَعٌ فَلَسَتْ بِمَعْصُومٍ مِنَ الزَّلَلِ
لِكُلِّ سَهْمٍ يُعَدُّ النَّاسُ سَابِقَةً رَدُّهُ عَنْكَ إِلَّا أَنَّهُمُ الْمَقِيلِ

حتى يقول :

قَدْ أَحْكَمَ الْحَاكِمُ الْمَعْصُومُ دَوْلَتَهُ بِآلِ حَيْدَرَةٍ فِي السَّهْلِ وَالْجَبَلِ

وكان آل حيدرة من طرابلس الشام وله يمدح آخر منهم كان قاضي طرابلس أيضا ، وتولى قضاء صور زمننا . يقول التهامي فيه^(٣) :

أَعْدَى نَدَى كَفَيْهِ صُورَ وَأَهْلَهَا وَالْبَذْرُ يَقْلِبُ طَبْعَ كُلِّ ظَلَامِ
وَلَوْ أَنَّ صُورًا جَنَّةً مَا اسْتَكْثَرَتْ وَأَيْبُكَ مِنْ غِلْمَانِيَةِ بَغْلَامِ

(١) نهاية الأرب ص ٢٨ / ١٩٧

(٢) ديوانه ص ٣١٦

(٣) ديوانه ص ٣٧٣

ويشير إلى أهل بلدهم طرابلس فيقول :

أَلْفَيْتُ مِنْهُمْ فِي طَرَابُلُسٍ نَدَى تَرَكَ الْكِرَامَ لَدَى غَيْرِ كِرَامٍ

وفي صور يمدح من يُدعى محمد بن سلامة الصوري ، والحسين بن عبد الواحد وفيه يقول ، ويذكر وقعة له مع بني كلاب بالشام (١) :

وَتَرَكْتُ أَعْيُنَهُمْ بِصُورٍ فِي الْوَعْيِ صُورًا ، وَقَدْ جَاخَ الْوَرَى مَا جَاخَا

كما يذكر حلب في هذه المناسبة فيقول :

شَاءَ الْمُهَيْمَنُ أَنْ تُصَيِّرَ مَشْرِقًا حَلَبًا فَيَقْضِي مَا جَرَى وَأَتَاخَا

ويذكر الروم فيقول :

أَتَى تَرَوْمُ الرُّومُ قَرْنَكَ بَعْدَمَا صَلَيْتَ بِحَرْبِكَ مُخْرِبًا مَلْحَاخَا
لَمْ يَزِمَ قَطَّ بَكَ الْإِمَامُ مُرَادَهُ إِلَّا جَلَوْتُ عَلَى الْفَلَاخِ فَلَاحَا

والحسين بن عبد الواحد هذا لم يذكر صراحة في مصادر التاريخ ولعله كان من رجال الحاکم كذلك . وعلاقته به كعلاقته بآل حيدرة ، تكشف عن ولاء للحاکم ورجاله ، وقد ذكر الشاعر الحاکم ولقبه الإمام ، وهذا يثير تساؤلات عن مدى ولاء التهامي للفاطمين ورجاهم ، وهل تقلبت هذه العلاقة بين الولاء والعداوة ، ومتى كان الولاء ، ومتى انتهى وبدأت العداوة ؟ . أكان الولاء قبل لقائه بالوزير المغربي ومؤامرة الرملة ضد الحاکم سنة ٤٠٠ هـ ؟ أغلب الظن أنه كان كذلك ، ولم يكشف ديوانه عن هجوم مباشر أو هجاء للفاطمين أو أحد من رجاهم ، بل ربما كان عكس ذلك صحيحا فقد كان على ولاء وعلاقة صداقة وألفه مع أكثر رجاهم بالشام والجزيرة الفراتية . وتكرار الحديث عن هزيمة بني كلاب على أيدي بعض رجال الحاکم وابنه الظاهر دلالة على هذا الولاء حتى قبيل دخوله مصر متسللاً ، أو مظاهرا .

وسأبقى الحديث عن ذلك في حينه . هكذا جاء التهامي آل المفرج وهو على ولاء للحاکم والفاطمين بمصر ولم يدر بخلفه أن يتآمر ضدهم ، وأقام بالرملة ما أقام ، وتزوج وتولى الخطابة ، ولا يكون ذلك إلا بموافقة الحاکم ثم آل المفرج لأنهم كانوا

(١) ديوانه ص ٧٨ .

يتولون الرملة بأمره قبل خروجهم عليه ، بتدبير من الوزير المغربي الحاقدا الذى وجد
فى أطماع آل المفرج ، وطموح الشاعر مشجعا على الثورة والانتقام من الحاكم .
ونعرض الآن لبعض شعره فى آل المفرج ، نستشف منه موقفه منهم وموقفهم
منه ، وموقفهم جميعا من الفاطميين .

ونرجح ذهاب التهامى إلى الرملة فى أخريات عهد العزيز عثمان ، لأنه يعرض
لحادث مناصرة آل المفرج للفاطميين ضد أفتكين أحد قادة الأتراك أعداء
الفاطميين ، يقول :

نَصَرْتُ ابن النبی كما نصرْتُم أباهُ لقد حَدَوْتُ على مِثَالِ
يقصد أن بنى الجراح من طى وهم من عرب اليمن نصرُوا العزيز بالله الفاطمى
كُنُصْرَةَ الأنصار من عرب اليمن كذلك للنبي فى الهجرة ويوم بدر .
وجدير بالذكر أن هذه المأثرة ظلت متوارثة فى عرب اليمن القحطانية عبر
العصور واستغلها الشيعة والعلوية ، فانتصروا بالقبائل اليمنية على بعض المضربة من
ناصرُوا الأمرين والعباسيين .

ومدح ال مفرج كذلك بقوله فى هذه المناسبة نفسها وهى قَهْرُ أفتكين ونُصْرَةُ
العزيز عثمان على عدوه التركى ، قائلا أنه بهذه النصرة علا نجم الدين ، يقول :

علا بك نجمُ الدين فاشتدَّ ناصِرُهُ ورَفَرَفَ بالتَّوفيقِ واليَمينِ طائِرُهُ
تسايرك العلياءُ والمجد مثلما يصاحبُ شخصاً ظلَّه ويُسايِرُهُ

ولكن هذا التاريخ متقدم ، وهو يطرح تساؤلا هل كانت هذه القصيدة فى
مرحلة سابقة على سفره إلى المشرق ، أم أنها قيلت فى هذه المرحلة نفسها أعنى فى
حدود سنوات من ٣٩٨ إلى ٤٠١ هـ .

والقصيدة على أية حال لا تكشف عن إقتدار شعرى ، وكونه قالها فى المفرج
بن دغفل ربّ هذه الأسرة الطائية تجعل احتمال قولها فى مرحلة متقدمة من إقامته
بالرملة أمرا وارداً ، لأن أشهر أبناء المفرج وأكثرهم مشاركة فى أحداث العصر
الحاكمى وهو حسان كان قد غلب على والده وإخوته فى اتخاذ القرار والمبادرة ،
وكانت له اليد الطولى فى أحداث المؤامرة المشهورة وانقلاب أبى الفتح أمير
مكة ، ثم عودته مرة ثانية إلى طاعة الحاكم بأمر الله .

إلا أنه في قصيدة بائية في مدح المفرج بن دغفل يشير إلى طيء ومصر وإلى
نصرة الطائيين للإمام وهو العزيز أو الحاكم ، ضد التغلبيين وهم آل حمدان ،
وكانت بين الخليفتين وبينهم وقائع بالشام للسيطرة على دمشق وحلب زمنًا .
يقول التهامي :

به طالت على مُضَيَّرٍ وَلَنْ تَقُومَ لها في الحَرْبِ تغلبها الغلبُ

حتى يقول مشيرا إلى إمام الدين خليفة مصر الفاطمي :

يَسْرِي بهم زحف السَّراةِ وَقَدْ طَعَنُوا	وسادُوا، إمامُ الدين وهو لَهْمُ قُطْبُ
وَصَبَّحَهُمْ في دارِهِمْ شَرٌّ صَبْحَةٍ	عَلَيْهِمْ وَقَدْ وَا لَاهُمُ الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ
أَبَادَ حُمَاةَ القُومِ واجْتَنَحَ أرضَهُمْ وَلَوْ	لَا لم يَطْرُقَ لِمَغْلَقِهِمْ خَطْبُ
وَقَدْ عَلِمَ المولى الإمامُ بَأَنَّهُ	أَخُو عَزَمَةٍ تُحَدِّثُهَا السَّبْعَةُ الشُّهُبُ

ولعله يشير بالسبعة الشهب هنا إلى أبناء الذؤاد السبعة الذين سادُوا في حياته
ومدح بعضهم الشاعر .

ويشير في هذه القصيدة نفسها إلى أنه جاء آل المفرج فقيرا فأغنوه ، الأمر
الذي يُرجَّح أنها من بَنَوَ كَبِيرٍ قصائده بالشام .

ممدوحوه من رؤساء دمشق :

حيدرة بن عجلول :

وهو من رجال الفاطميين ، ويبدو أنه ممن شارك في التصدي للكلبيين من
بنى مرداس في عصر الحاكم ، وكانوا يثيرون القلاقل بنواحي الشام .

وفي مديحه لحيدرة هذا يقول مشيرا إلى الإمام — الخليفة الفاطمي :

أما الإمام فإنه لك شاكر والله أرضى منه عنك وأشكر

ويقول :

بالنصح قدمك الإمام على البرى ومن الفعال مقدم لا ينكر

أما توليه بدمشق فيشير إليه بقوله :

فدمشق قد ضاعت بحسن رياضها إذ كان فيها منك سعد نير

والشريف أبو الحسن عباس بن غياث .

وفي دمشق يتصل أيضا بأحد الأشراف من الرؤساء ، ويبدو أن له مكانة كبيرة بين أهلها ، وكان له من نفوذه وعلمه وجاهه ما يدفع الشاعر إلى قصده وإلى أن يقول فيه :

إقدام حيدرة وبأس محمد	فيه أن يعدوها أبواه
نسبا ترى عنوانه في وجهه	فلو أن أميا يراه قراه
اشبهت في العلياء جدك أحدا	إن المكارم في العلا أشباه

ويغلب أنه شريف علوى للتنويه بذكر الإمام على هنا ، اللافت للنظر أن معظم من قصدهم التهامي كان شريفا علويا من بنى الحسن أو الحسين ، أو من يدينون بالولاء للعلويين والفاطميين ، وهذا يدفعنا إلى السؤال عن مدى موقفه من الفاطميين خاصة ، وهل كان نصيرا لهم ؟

وإذا فلم اشترك في التآمر ضدهم ؟ وعلى أية حال فالرجل لم يصرح بدم أو قدح ولم يلمح بشيء يسئ إلى دولة الفواطم في ديوانه .

وفي القصيدة ما يشير إلى جاهه ، فقد لقبه بلقب ملك ، ولا ينعى بهذا إلا من ولي ولاية وأماره ، يقول :

ملك يقر بفضلِهِ وَيَبْدِلِهِ	ويعدله أحبابُهُ. وعسده
يُجِيلُ الأَنام على الخِلافِ ولا أرى	رجلين يختلفان في علياه

ويشير إلى غربته عن وطنه تهامة ، وهجوم الشتاء — الشامى — ولم يعتده في بلده فيلوذ بالمملوح لينقذه من بأسه ، كما اعتاد شعراء العرب اعتقاد الأجواد وقت الشتاء خاصة ، يقول :

ولقد علمت بأن موتى عنده	عز يفوق العيش عند سواه
لكننا هجم الشتاء وعنده	ممن تكون تهامة مشواه
يا أيها الملك الذى لم أغترب	عن أرض قومى خطوة لولاه
أيجوز أن أشكوك ضيقة عيشة	والمال عندك راهن والجاه

ترى هل كان هذا حكاية صادقة لحال الشاعر ، أم أنه مجرد خطاب شعري لحض المدحوح على العطاء ؟

فإذا كان الأمر ما قاله حقيقة ، فإننا نظن بأن الرجل كان أول من قصد بالشام ، أو لعله كان من أولهم ، قبل التحاقه بآل المفرج ونزوله في كنفهم ، يؤيد هذا الظن شكواه من الفقر الذي فارقه بعد مكثه بالشام وتولييه خطابة الرملة واستقراره وزواجه وحصوله على المال مما أعطاه آل المفرج وغيرهم .

مع بعض الأشراف والرؤساء في الشام ومصر :

ونجد بالديوان مدائح لجماعة من الأشراف والرؤساء بالشام ومصر لا نستطيع على وجه التحديد أن نُعيّن زمن لقائه لهم ، وربما بعث إليهم بمدائحهم ولم يلقيهم .

ومن لقيهم بالشام من الرؤساء وقدم مدائحهم جعفر بن علي بن الحسين المغربي ، واسمه ينم عن صلته بآل المغربي ، وربما كان ابن عم الوزير أبي القاسم ، ولا ندرى هل لقيه قبل محنة آل المغربي ومقتلهم بمصر وهل قتل معهم أم أنه لم يرحل إلى مصر مع أبيه الذي قال المؤرخون إنه قتل بين من فتك بهم الحاكم ؟ ونجد ابنه أبا الفرج بين من تولى الوزارة بمصر أيام الظاهر .

كذلك من بين ممدوحيه الفضل بن أبي الفضل جعفر بن الفرات ، وهو كما يبدو من اسمه ابن الوزير الخطير أبي الفضل بن الفرات والمشهور بابن حترابة الذي تولى الوزارة للاخشيد ، وكان من رجال كافور ، وعاصر المتنبى عند وفوده إلى مصر ، وكان من أعدائه .

وقد تولى ابن الفرات الأب الوزارة للفاطمين بعد ابن العداس زمن العزيز عثمان سنة ٣٨٢ هـ ، كما تولى ابنه من بعده أيام الحاكم في اخريات عهده سنة ٤٠٥ هـ وكان والده توفي قبل ذلك سنة ٣٩١ هـ .

ومما نلاحظه وكما يشير التهامي في قصيدته التي مدحه بها أنه التقى به في الرملة ، ولعل ذلك كان قبل اختفاء الحاكم وكان مبعوثا له إلى آل المفرج للصالح والعودة إلى الولاء بعد فتنة أبي الفتوح والوزير المغربي .

ونقف عند قوله في القصيدة^(١) :

(١) ديوانه ص ٣٨٨ .

للووزير ابن الفرات ولم تنزل
 إن صدني عنك الزمان فأنثى
 إن ينسأ عنك فرب نأى حسنت
 أوعدت بالصبر الجميل فإنه
 فبأى وجه اشتكى الزمن الذى
 ووحق ودك وهو أبعد غاية
 ما حال قلبسى عن هواك ولا جرى
 إنى وإن عاد الزمان إلى الذى
 لا أشكر المعروف إلا منك أو
 أو حيث لا يجب الثناء بغيرها

تتوكف الآمال صوب غمامه
 حب أرى لقياك فى أحلامه
 عقباه للمشتاق قرب حمامه
 صد الجفون عن الكرى ولمامه
 أيام قريبك كن من أيامه
 يجرى إليها البر فى أقسامه
 حسن التصبر عنك فى أوهامه
 أهواه بعد جماحه وعرامه
 ما قربت كفاك بعد مرامه
 أولى الوزير القرب من إنعامه

وفى الديوان قصيدة أخرى^(١) غير معنونة بمن مدح بها من الرجال ، إلا أن مضمونها يرجح أنها فى الفضل بن الفرات بعد توليه الوزارة ، وربما صرح باسمه فى أحد أبياتها إذ يقول :

فضل لو أن الدهر قدم عصره
 لأبان نقص زياده وهشامه
 والقصيدة على وزن وقافية القصيدة الأولى ، إلا أنا تقول أن هذه القصيدة التى مطلعها :

ذكر الحمى فبكى لسجع حمامه
 وغدا غريما للنوى بفرامه
 يسابقة على الأخرى ، ويبدو أنه هنا بها الفضل بعد توليه الوزارة ، ثم اتبعها الثانية، يعرض حاله، ويمد يده إليه يرجوه أن يناله منه عون من مال أو جاه وهو فى منأى بعيد لعله كان بالرملة أو خارجها متجولا بين بلاد جزيرة الفرات .
 إلا أن فرحة التهامى بتولى صاحبه الفضل الوزارة لم تتم ، فسرعان ما خاب أمله ، فقد غضب الحاكم فى ثورة من ثوراته على ابن الفرات وقتله سنة ٤٠٥ هـ .
 ومقتل ابن الفرات فى هذه المرحلة من مراحل الخلاف المحتوم بين الحاكم واخته يثير الشك .

(١) ديوانه ص ٣٩١ .

ومن ممدوحيه بالشام أو العراق الأمير أبو سنان غريب بن محمد بن تعن من أمراء العقيليين ولعله جد الأمير عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي العقيلي الأمير الشاعر الأديب أبو محمد وقد كان من أمراء الخفاجيين أصحاب الحديث ، وكان أمير خفاجة في زمنه سنة ٤١١ سلطان بن الحسين بن ثمال (١) .

وقصيدته في غريب بن معن الخفاجي التي نرجح أن تكون سنة ٤١١ هـ وهي السنة التي قصد فيها قرواشا العقيلي مع الأمير نور الدولة ديبس بن مزيد الأسدي فقاتلوا قرواشا فانهزم ومن معه وأسر في المعركة ونهبت خزائنه واثقاله .

وتمكن قرواش من الخلاص من الأسر ، وعاد لمقاتلة غريب بن معين مستعينا هذه المرة بأحد أمراء خفاجة وهو سلطان بن الحسين بن ثمال ، وكانت وقعة غري الفرات بين الفريقين انهزم فيها قرواش مرة ثانية ، وفي هذه المرة مد نواب السلطان البيهقي أيديهم إلى أعمال قرواش في الموصل وما حولها ، فأرسل إلى بغداد يسأل الصفح عنه ويبدل الطاعة فرفع السلطان أيدي عماله عن قرواش وأعماله .

ويشير التهامي الذي زامن هذه الأحداث جميعا في مديحه لغريب بشجاعته وفروسيته فيقول (٢) :

فلقي سلمت لأقضي لباتني	بذميل كل شهيلة مذعان
أرمى الفعجاج بها لألقى رحلها	في حيث تلقى أرحل الفتيان
عند الأمير غريب بن محمد	ملك الملوك وفارس الفرسان

ويمضي في مديحه التقليدي حتى يقول :

لله در يد الخطوب فإنها	صدء اللثام وصيقل الفتيان
جردن مثل أبي سنان صارما	في كل ناحية له حدان
كالليث إلا أن جارك آمن	والليث ليس بأمن الجيران

حتى يقول ، وربما ألمح بالأحداث التي أشرت إليها :

يارب جيش قد كفت بمثله والخليل تعثر في النجيع القاني

(١) راجع الكامل لابن الأثير ص ٨ ، ١٣٣ .

(٢) ديوانه ص ٤٠١ .

التهامى وقرواش

قصد الشاعر قرواش بالموصل ، ولعل ذلك كان بعد ذهابه إلى ميفارقين ،
وبقائه زمنا عند نصر بن أحمد ، وكانت العلاقة بين الأمير الكردي ، والأمير العربي
العقيلي العامري تجمع بين التنافس والتحالف ، وصارت بينهما مصاهرة .

ونعلم أن الوزير المغربي انتقل من ميفارقين إلى الموصل كذلك حيث وزر
لقرواش سنوات عاد بعدها إلى ميفارقين لبقى بها حتى توفي سنة ٤١٨ هـ .
جاء التهامى إذا إلى الموصل مادحا ، ومتطلعا ، وليحصل على المال والتأييد
ليدفع، فيما يبدو بطموحه الذى يحبسه فى حناياه إلى أمل التحقق لكنه، فيما
يبدو لم يجد من قرواش استجابة ، أو قبولا ولعله لم يترح له الشاعر ، أو أن الأمير
لم يرع للشاعر حقا كان يرجوه .

فلم يلبث هناك طويلا ، ولا نجد فى ديوانه إلا قصيدة واحدة يمدحه ، عادية ،
باردة الاحساس فى المديح ، لا تجد فيها شيئا جديدا ، بل لعله تكلفه فبدت
الصفات مرصوفة رصا، كأن يقول :

له يد محسن وحياء جان	وجود مبذر وعلا جموح
ورأى مجرب وقتال غر	وذمة حافظ وندى مضيع
إذا ذكر النوال اهتز شوقا	إليه كهزة السيف الصنيع
يحن إلى العطاء خنين قيس	إلى ليلي لعرفان الربوع

أرأيت إلى هذا التكلف والبرود !

ومع هذا فالمقدمة الغزلية، قد اشفى فيها الشاعر شاعريته وهموم نفسه مع
خيال حبيته ، فبدأ بقوله :

ألم خيالها بعد الهجوع فعادت إذ رأت سيفى ضجيعى

نعجب لهذا المطلع الغريب ، والمعنى الغريب كذلك ، الذى لا نلقاه فى
مطالعه الأخرى ، وهو يلقي الحبيبة فى المنام ، ترى أهنالك أمر ما غير من
أحاسيسه ، أو أن شيئا ما أصبح يساوره ويختزنه فى عقله الباطن نمت عليه هذه
الرؤيا الغريبة ؟!

ويعتني الشاعر لينتفح أحاسيسه في هذه الرؤيا ليقول بعد الاستهلال :

وهاجت نى يزورته زفيرا	يكاد يقيم معوج الضلوع
فبات بين أعناق المطايا	تردد فى المجيء وفى الرجوع
فقت مناديا فإذا سهيل	من الخفقان كالقلب المروع
كأن نجوم ليلى حتى ألقى	مراسيه مسامير الدروع

وأقول هذه رؤية أو رؤيا كشفت مخزننا فى مكنون الضمير ولم تفصح عنه كل الأنصاح ، بل رمزت إليه ، وجدير بالقول أن شعر هذه المرحلة من حياة الشاعر كان حافلا بمثل هذا الرمز التى عدل إليه عن التصريح الذى صاحبه فى الرملة ومع آل الجراح .

كأن الشاعر كان يهيج نفسه لأمر ما ، ودور خطير يقوم به ويتم حبك خطوطه ، وكانت أيام الحاكم فى مصر قد ولت ، وشمسه قد أفلت ، ولعل رغبة الانتقام قد عاودت الوزير المغربى بعد موت الحاكم ، فأغرى صاحبه على أن يفعل شيئا ما ، أو لعل رغبة الشاعر فى أن يحصل على غنيمة كما يحصل غيره بالمغامرة ، هى التى دفعته إلى أن يبحث عن تلك الغنيمة ويعد لها عدتها بالمال الذى صرح أكثر من مرة بأنه يجمعه لأمر قرره فى نفسه .

وهكذا اختفى الحاكم بأمر الله من مسرح الحياة الصاخبة فى هذه المنطقة ، وتأهبت الأعداء للوثوب ، ليروا ملكه ، وقد كان الأمراء يخشونه ، بعد أن تمكن من القضاء على المؤامرات التى حيكت ضده منذ قيام أى ركة بثورته العارمة فى يرقه وصعيد مصر سنة ٣٩٧ هـ وانتهائها بالقضاء عليه قضاء وحشيا بعد تعذيبه وإذلاله ليكون عبرة لكل من تحدته نفسه بالخروج .

كذلك انتهت مؤامرة آل المفرج أى الفتوح بال فشل ، وأمسك الحاكم بزمام الأمر بعدها بإحكام وخشيته البلاد الشامية ، وأذعن له الأمراء ورؤساء العشائر وخطبوا له حتى فى بعض الإمارات التى كانت تحت حكم العباسيين فى العراق كإمارة الموصل وميافارقين .

عاودت الآمال إذا الأعداء والطامعين بعد اختفاء الحاكم وفى هذه المرة وعدت الشاعر نفسه بانتهاز الفرصة ، وهكذا عاد من ربوع العراق إلى الشام ليدبر أمرا مع من يعد للانقضاض ليشاركه فيفوز بنصيب .

حتى يقول :

فرب صب تمنى أنه حجر في البيت حين أكتبت تلثم الحجر
إن الحجاز — سقاه الله غادية أرضى مولدة في الأعين الحورا

وفي قصيدته الثانية الميمية يقول مفتتحا :

أخذت زمام الدمع خوف انسجامه فلما استقلوا حل عقد زمامه

وبلغت نظرنا في المقدمة الغزلية لهذه القصيدة أنه جعل محبوبته من هلال بنى عامر بن صعصعة النجديين ، ولما كنا نرجح أن الشاعر اعتاد على التغزل بمحوبات من قبائل المدوحين في مهد العروبة بالجزيرة ، فإننا نظن بأن صاحب آمد هذا كان عامريا ، وكان لبنى عامر من الرجال جماعة في أرض الجزيرة ، وكان لبطلتها شأن في أحداثها ، ويكرر التهامي في هذه القصيدة حديث السعى للمجد بغيرا القلم والشعر ، يقول :

ومن فاته نيل العلا بعلومه وأقلامه فليغتها بحسامه
صيرير شبا الإقلام عند كلامها فداء صليل السف عند كلامه
ورأيك في الريح المقوم إنما قوام العلا مستودع في قوامه
وجدرا جعلنا أمدًا أمدًا لها ببذاء يوم المرء فيها كعامه
يلوك بهيم الخيل فيها لجامة إلى أن تراه أرثما بلغامه
يذرن حجام الماء من كل منهل ليكرعن مشرب العلا في حجامه

وهذه الشنشنة عهدنا عند أى الطيب وتذكرنا بشعره له كثير تتقلب فيه هذه المعاني نفسها بل والألفاظ والعبارات ، ومنها قوله :

حتى رجعت وأقلامى قوائلى المجد لل سيف ليس المجد للقلم
أكتب بنا أبدا بعد الكتاب به فإنما نخنى للأسياف كالخندم ؟

ويشير في هذه القصيدة إلى ما يحاك حوله من مؤامرات ومكائد ، يحوكها بعض أعدائه من منافسيه وأصحاب صهره الذى قتله واغتصب الامارة منه :

وكم غادر قد شب نار عداوة له قد حاه كيده في ضرامه
فصفحا فما زال الزمان كما ترى أكارمه جريمة بلقامه

وربما حدثته نفسه بأن يفعل كما فعل ابن دمنة وامثاله مما اغتصب الامارة تأمرا
وغلبة في ذلك الزمان الذى تكررت فيه أحداث الغفلة والانقلاب والاستيلاء على
الملك بالسيف، كعادة العرب فى بداوتهم، الغلبة للقوى، كأن الإسلام لم يهذب
من هذه الطبيعة المتأصلة ، وهى خلق لازم للبدواة .

وما كانت نفس التهامى الشاعر البدوى لتحذنه بالملك كما حدثت نفس المتنبي
صاحبها به لولا أن رأى ذلك شريعة عصره .

وكانت تجربته مع الوزير المغربى وآل المفرج والانقلاب الذى دبروه ضد الحاكم
والذى كاد أن يكتب له النجاح ، كانت هذه التجربة حافزا له على أن يكرر
المحاولة ، وقد اختصر هذا الخاطر فى قلبه ، وظل يراوده طوال بقائه متنقلا بين مدن
الجزيرة الفراتية بالشام قبل عودته إلى الرملة ليعيد نفسه للقيام بدور له فى مصر ،
وينتهر الفرصة المواتية للوثوب .

التهامى والأمير نصر بن مروان صاحب ميافارقين :

اتجه التهامى شرقا إلى ميافارقين بأرض الاكراد شمالى شرق الجزيرة العراق
وصاحبها آنذاك نصر بن مروان، وكان كُردياً، غلب على ميافارقين بعد فصل
أميرها، من صاحب آمد، وكان رجلا عاقلا على علاقات طيبة بجيرانه من أمراء
الجزيرة والموصل، وبديولتى العباسيين والفاطميين وصاحب الموصل كذلك. يقول
الفارقى^(١): وقصده التهامى الشاعر وامتدحه وامتدحه وزيره المغربى. وهذا الخبر يؤيد
ما قلناه من أن رحلته هذه إلى البلاد الشرقية وجزيرة الفرات كانت مع الوزير
المغربى أو فى وقت ذهابه من الرحلة إلى تلك البلاد ، وكان الأمير ناصر الدولة
نصر بن مروان هذا قد ولى الامارة سنة ٤٠١ هـ يقول فى مستهل مديحه :

عيسن من شعر بالرأس مبتسم مانفر البيض مثل البيض فى اللمم

ولا ينهج فى القصيدة نهجه فى غيرها من مدائحه لأمرء العرب ، من ذكر نجد
والحجاز واعتساف الأرض فى الرحلة والتغزل بالفتاة البدوية من الحجاز أو من بنى
عامر فى نجد . ولا يذكر الشيخ والعرار والخزاعى وما إلى ذلك مما يشताقه عرب
البادية وإنما يعرض للحديث عن موضوعات عامة فى النسيب بذكر الطيف

(١) تاريخه ص ١٤٤ وراجع وفيات الأعيان ٧٨-٧٧/٢ والشذرات ٣/ ٢٩٠ .

ومحاسن المحبوبة انتى تزوره فى المنام حتى يتخلص من انضيف إلى شكوى الدهر
قائلا :

وصل الخيال ووصل الخود إن سمحت سيان ما أشبه الوجدان بالعدم
قل نصر دولة دين الله نى أمل قولاً وقد نلت أقصى غاية التهم
لا تحمد الدهر فى بأساء يكشفها فلو أردت دوام البؤس لم يدم

ويخاطب نصر الدولة مؤملاً عنده الفضل والسؤدد والمجد :

يا طالب المجد فى الأفاق مجتهدا والمجد أقرب من ساقى إلى قدم
قل نصر دولة دين الله نى أمل قولاً وقد نلت أقصى غاية الهمم

ويشير إلى مناصرته لقرؤاش على بعض عشيرته من عقيل العامرين :

قد عظم الله أملاكاً ملكت بها بنى عقيل وما يحوون من نعم
لو لم تُجرّها أباً نصر لما وجدت كفّاً يشاكل فى شكل ولا كرم
زادت إلى عزّها عزا به مضر وربما صيلات العلياء بالحرم

يذكر الفارق أن التهامى التقى بالوزير المغربى ، فى بلاط نصر الدولة هذا
ومدحه وفى الديوان قصيدتان فى مدح أى القاسم إحداهما قالها وقد استبطأه
الوزير فى مديحه ، وربما كانت هذه بداية التثام الشمل بعد فراق الرحلة ، وقد
أحسن الوزير بأن الشاعر أغفله ومدح الأمير ، وكان ما بينهما من قديم أصرة
يسمح له بهذا العتاب ، فما كان من الشاعر إلا أن نظم أبياتاً قدمها معتذراً بين
يدى قصيدة مدح انشدها بعد ذلك ، يقول الشاعر معتذراً :

أتانى عن تاج الزمان تعبت يضيق وسع الأرض فضلاً عن الصدر
ولم أمتدحه آخراً لجهالة وهل للذى لا يعرف الشمس من عذر
ولكننى لما رأيت صفاته ختمن العلاطرا ختمت به شهرى
وقد أحر الله النبى لفضله وقدمه فى رتبة الفضل والأجر

وفى ديوانه قصيدة حائية فى مدح الوزير أى القاسم ، لا نجد ما يؤكد أو ينقض
إنشادها إياه فى ميافارقين ، وإنما نحس حدساً ، ونظن — وقد لا يصدق الظن
أنه قالها آنذاك لبعض المعانى التى وردت فيها ، ربما كانت من وحى الظروف التى
مر بها الوزير فى محنته مع الحاكم ، وفراره ولجؤه إلى آل المفرج بالرملة ثم ما حدث

هناك من فشل التآمر ضد الحاكم واضطرار الوزير إلى الخروج إلى الجزيرة واللجوء إلى ميفارقين والموصل وبغداد والتنقل بينهما :

يقول بعد المقدمة :

وللمعالي ربّ في العلا	الرأى ثم الكيد ثم الكفاح
وليس بعد الحرب من غاية	هن حظوظ مثل ضرب القдах
ولا يُلِيّ عند قُلّ العدى	أهيبة فلتهم أم جراح
حامى عن الملك فأضحى حمى	من بعد أن شارف أن يستباح
فصار عرينا لليث الثرى	وكان مرعى للسوام المراح

ونتوقف عند قوله : « حامى عن الملك ... إلخ »

حتى يقول :

تُوفِّرُ الأمر ألا إنّما رأسان في تاجٍ خلاف الصّلاح

ونقول هل يقصد بذلك الإشارة إلى محاولة ابن المغربى أن يقيم خلافة أخرى في ولة الفاطميين بمبايعة أبى الفتوح شريف مكة إلى جانب الحاكم خليفة مصر يؤيد هذا الظن ما قاله في البيت التالى :

ثم انتهى إذ كفروا سعيه	لكل مطواع ذلول جهاح
ذو سحب تنبت أعداءه .	وحاسديه فى جميع النواح

المرحلة الأخيرة من حياة الشاعر (٤١١-٤١٦) :

سمع الشاعر باختفاء الحاكم بأمر الله وتولى ابنه الصبى الظاهر على بوصاية عمته ست الملك الفاطمية ، فحدثت كل طامع نفسه بأن يرث من خلافة الفاطميين ما يستطيع قهراً أو تدبيراً وتآمراً ، ولم يكن بلاط الفاطميين ولا القصر خالصاً في الولاء للظاهر على ، بل كان ولاء رجال القصر موزعاً شيعاً ، بين ست الملك الحاكماً الحقيقي للخلافة وبين الصبى ومن والاه من رجالات القصر .

وكانت الدسائس بين الفريقين ، ما تفتأ تثور ليتولى رجال ويسقط آخرون ، ويتعدد الوزراء والقادة والأمراء ، ويتدخل خدم القصر ونسائه فيمن يتولى ومن يعزل .

في هذا الجو المضطرب انتهز أمراء العشائر العربية بالشام الفرصة للانقضاض على الخلافة الفاطمية في القاهرة ووراثتها سلطاتها ، وكان أقوى تلك الأحلاف الحلف البني بين الطائيين بزعامة آل الجراح أصحاب الرملة ، يقدمهم هذه المرة حسان بن المفرج ، فقد توفي أبوه المفرج سنة ٤٠٤ هـ ، وبعضه بتوكلاب الجنيون يتزعمهم المرداسيون ويقدمهم صالح بن مرداس ، وكانوا يسيطرون على جزء كبير من شمالي الشام ، وكانت صراعاتهم مع الحمدانيين للسيطرة على الشام أيام سيف الدولة وخلفائه قائمة لا تهدأ .

في هذا الجو بدأ التهامي يتحضر للقيام بدور ، والفوز بمغنم واختار لنفسه مصر للقيام بدور فيها ، ويبدو أنه رجع إلى حسان بن المفرج وعاهده على أن يعمل عملاً ما بمصر ، وكان أن اختار قبائل بني قرة في الغرب والصعيد ، بإقليم البحيرة وبرقة والفيوم وكانت بينهم وبين الحاكم محن وصراعات ، لا تزال جراحها دامية .

وكما اختار المتنبى من قبل الكلايين ليثور بهم ضد الانخشيدي في مصر والعباسيين في بغداد في أوائل القرن الرابع ، كذلك فعل التهامي حين اختار بني قرة ، ويعيد التاريخ نفسه في أوائل القرن الخامس ، يقول الباخرزي^(١) : « رحل إلى مصر بكتب من حسان بن المفرج الطائي إلى بني قرة فاعتقل في مصر وحبس ثم قتل سرا في سجنه » .

(١) دمية القصر ١/ ١١٠ .

ويقول ابن خلكان (١) : « وكان التهامي المذكور قد وصل إلى الديار المصرية متخفيا ومعه كتب كثيرة من حسان بن الفرّج بن دغفل البدوي ، وهو متوجه إلى بنى قرة فظفروا به ، فقال : أنا من بنى تميم ، فلما انكشف حاله ، عرف أنه التهامي الشاعر ، فاعتقل في خزانة البنود وذلك لأربع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ٤١٦ هـ ، ثم قتل سرا في سجنه في تاسع جمادى الأولى من السنة المذكورة » .

ويقول النويري (٢) : « ووصل الخبر من جهة بنى قرة في البحيرة أنهم أقاموا عليهم إنسانا بريقة ولقبوه أمير المؤمنين » . هكذا جاء الخبر وكان ذلك عام ٤١٥ هـ ويتفق هذا مع ملابسات مجيء التهامي إلى مصر ، فهل وفد سنة ٤١٥ هـ قبل القبض عليه بعام أو جاء قبل ذلك وأعد العدة سرا للدعوة لنفسه ويكون بذلك قد اتخذ من حسان سلما لبلوغ غايته .

ويقول الصفدي : « وكانت نفسه تحدّثه بمعالى الأمور ، وكان يكتم نسبه ، فيقول تارة أنه من الطالبين ، وتارة من بنى أمية ، ولا يتظاهر بشيء من الأمرين ، وكان متورعا صلف النفس » ، ويقول : « وكان قد وصل إلى الديار المصرية مستخفيا ، ومعه كتب كثيرة من حسان بن مفرّج بن دغفل البدوي ، وهو متوجه إلى بنى قرة فظفروا به ، فقال : أنا من تميم . ويزيد الصفدي في خبر التهامي معلومات ربما كشفت لنا عن بعض أمره ، وعن سر رحلته المثيرة إلى مصر متخفيا ، فأما المعلومة الأولى فهي قوله : أن نفسه كانت تحدّثه بمعالى الأمور ، وهذا ما كشفنا عنه في شعره ، وقت إقامته مع آل المفرّج ، وفي أثناء تجواله بالجزيرة والموصل وديار بكر وديار ربيعة حتى عاد إلى آل المفرّج في سنوات ما بعد اختفاء الحاكم سنة ٤١٤ أو سنة ٤١٥ هـ .

وأما المعلومة الثانية فهي أنه كان يتكتم نفسه ولا ندرى أتبع في ذلك قرينة المتنبئ الذي أخفى نسبه كذلك ليوهم الناس بأنه علوي وربما الإمام المنتظر أو شيئا من هذا القبيل .

(١) وفیات الأعيان ٣ / ٣٨١ طبع دار الثقافة بيروت بتحقيق د. إحسان عباس .

(٢) نهاية الأرب ٢٨ / ٢٠٥ طبع الهيئة العامة للكتاب بمصر .

فتارة كما يسئ الصفدى يدعى أنه من الطالبيين حتى يرى أن هذا النسب يشفع له ويقربه من الاشراف والعلميين ، خاجة وأنا عنمنا من مدائح أنه اتصل بكثير منهم ، ومنهم من غالى فى غلوته كآل حيدرة ، ومنهم من اعتدل .

وتارة يدعى أنه من بنى أمية ، ولعل هذا الادعاء الأخير كان فى مصر حين حل بنى قره ، ونعلم أن بنى قره كانوا أنصار أبى ركة الذى ادعى الأموية ، ودعا إلى خلافة سنية وحارب الخلافة الشيعية الفاطمية إلا أن امره انتهى إلى الفشل والهزيمة والقتل .

أترى ادعى بين بنى قره ما ادعاه أبو ركة ليحظى بتأييدهم ؟ ثم ما علاقة هؤلاء بنى الجراح ، وهل كانت هؤلاء الطائين ميول أموية ؟! ثم نتسائل ، لم ادعى نسبا تيميا عند القبض عليه ؟ أليبعد عن نفسه شبه الدعوة للأموية ؟

وهل كان يدعو لنفسه بإمارة المؤمنين حقا وهى دعوة سنية تقابلها دعوة الإمامة ، عند الشيعة ، أكان يريد لها خلافة سنية يكون هو أمير المؤمنين فيها ، وأن يعيد إلى الدولة العربية مجدها الأموى القديم بعد أن تهاوت الدولة العباسية ومزقتها الخلافات والصراعات وتغلبت الديلم والأتراك ، أتراه ندب نفسه ليعيد إلى الدولة العربية مجدها القديم ، ويعيد للعرب ، والعروبة هيبتها ؟ ربما طاف هذا كله فى مخيلته ، وتأتى الرياح بما لا تشتهى السفن .

والآن دعنا نقرأ شعره فى هذه المرحلة لنستشف منه ما يمكن أن يجلى لنا حقيقة أمره .

يقول فى قصيدة له بعث بها من سجنه إلى صديق له (١) :

لنفسك لم لاعز قد نفذ العذر	بنا حكّم المقلور إذ قضى الأمر
لقد لفظتني كلّ أرض وبلدة	وما لفظتني عن مواطنها مصر
لعمري لقد طوفت فى طلب العلا	وحالفنى بر وحالفنى بحر
فشرقت حتى لم أجد لى مشرقا	وغربت حتى قيل هذا هو الخضر
أروم جسبات الأمور وإنما	قصارى أن أبقي إذا بقى الدهر
ولو كنت أرضى بالكثير وجدته	ولكن فى نفسى أمورا لها أمر
ظللت بمصر فى السجون مخلدا	ولّى لسيف جفنه فوقه ستر

(١) نهاية العرب ٢٨ / ٢٠٥ طبع الهيئة المصرية للكتاب بمصر ، وراجع ديوانه ص ٤٢٦ .

من تراه هذا الصديق ؟ أظنه ليس من الفاطميين ، بل لعله من أصحابه ،
وقد يكون فيمن أيد دعوته .

ويقول في القصيدة نفسها شارحا بعض ما يظن أنه أدى به إلى السجن :

جنيت على نفسى بسعى إليهم وحظي من أوفى موافقهم غدر
من هم هؤلاء الذين سعى إليهم وغدروا به ؟ أهم بنو قرة الذين أسلموه
للفاطميين ولم يدفعوا عنه خشية أن يلقوا ما لقوا من فعل على يد الحاكم ، وبخاصة
أن الظاهر استعداد قبضته على الأمور ، وبدأ يعد العدة بالاستعانة ببعض كبار
دولته وقادته المظفرين من الأتراك كالكائد أمير الجيوش بوشتكين الذى أعده
لاستعادة هبة الدولة .

ويتناول التهامي أن ينفى عن نفسه القيام بعمل ضد الدولة ، معتذرا بأن ما
أخذ عليه لم يكن سوى القول وبما جاء على لسانه في الشعر وفرق بين القول
والفعل كما قال المتنبي من قبل ، ويقول التهامي :

ومالى من ذنب سوى الشعر إنسى لأعلم أن الذنب فى نكبتى الشعر
لعل اللبالي منصفات أخا النوى بأحشائه من فرط حسرتة جمر
أسير لدى قوم بغير جنابة ألا فى سبيل الله ما صنع الدهر

أتراه إذا صدقنا قوله هم ولم يفعل ؟ أم نصدق قول التاريخ بأنه هم وفعل لكنه
لم يوفق ونحاب سعيه فكان ندمه وحرقتة ، لقد كان شعره دليل الاتهام ضده فهو
ثابت عليه ، إذا لم يجد محاكموه دليلا على ادعائه الخروج والثورة .

ويقول من قصيدة أخرى فى سجنه (١) :

وضاعف وجدى لما سجننت مقالة من غاب من طرفه
يقول ، وبعض مقال السفية يقتل إن هو لم يخفه
أهذا التهامي من مكة برجيله يسعى إلى حتفه
ألم يكفه أن ثوب الحياة ضاق عليه ، ألم يكفه
أراد يطير مطار الملوك وظن الاسنة من زفه

(١) قصيدته ص ٤٣٠ من الديوان المطبوع .

وَكَانَ كَفَائِدَ جَيْشِ الضَّلَالِ	عَيْنَ جَبْرِيلَ فِي صَفِهِ
أَصِيفَرُ يَعْرِفُ مِنْ نَحْرِهِ	إِذَا رَعَفَ الْمَرْءُ مِنْ أَنْفِهِ
وَأَحْسَبُ سَيْفَ ابْنِ بَنْتِ النَّبِيِّ	يَخْضِبُ خَدَيْهِ مِنْ عَرَفِهِ
أَرَى مَلِكَ الْمَوْتِ يَدْنُو إِلَيْهِ	وَهُوَ يَعْضُ عَلَى كَفِهِ
أَبَا لَشَعْرٍ وَيَحْكُ تَبْغَى الْفَلَا	حَ وَأَنْتَ تَقْصُرُ عَنْ وَصْفِهِ
وَلَمْ تَكْ أَهْلًا لِأَنْ تَسْتَقِرَّ	عَلَى خَسَةِ الشَّعْرِ مَعَ ضَعْفِهِ
أَرَقْتَ دَمًا بَعْدَمَا صَنَنْتَهُ	وَأَشْفَيْتَ مَنَظَرًا لِلْبُورِ
وَأَشْفَيْتَ مَنَظَرًا لِلْبُورِ	لَعَمْرِكَ إِنْ لَبِيبُ الرِّجَالِ
لَعَمْرِكَ إِنْ لَبِيبُ الرِّجَالِ	إِلَى اللَّهِ أَشْكُو أُمُورًا جَرَتْ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو أُمُورًا جَرَتْ	وَكَمْ قَائِلُ سَجْنِهِ عَلَى
وَكَمْ قَائِلُ سَجْنِهِ عَلَى	أَيَطْلُبُ الْمَلِكُ مِنْ لَيْسَ مِنْهُ
أَيَطْلُبُ الْمَلِكُ مِنْ لَيْسَ مِنْهُ	وَمَنْ كَانَ ذَا حَنْكَةٍ بِالْعُلُومِ
وَمَنْ كَانَ ذَا حَنْكَةٍ بِالْعُلُومِ	إِذَا نَشَفَ الْعُودَ مِنْ أَصْلِهِ
إِذَا نَشَفَ الْعُودَ مِنْ أَصْلِهِ	

هذه القصيدة كافية شافية في أمر التهامي واسباب سجنه ، فهو يعترف اعترافا واضحا وصريحا ، لا مواربة فيه ، كاعتراف المحكوم عليه بالموت وهو يحس بالسيف يقترب من عنقه ليقضى على حياة هذه النفس الأمارة التي زينت له طريق الضلال على حد قوله ، ومتمته بآمال عراض ، وحدثته حديث الملك دون أن يكون من جنسه ولا ابنائه ولا كان مؤهلا له ، وندم لأنه صدق أوهامه بأن الشعر كفيل بأن يصنع منه إماما ، أو ملكا ، وما هو الا سراب زينه الوهم فظنه ماء ، فإذا ما جاءه لم يجده شيئا ووجد الموت عنده .

ومن قصائده في السجن هذه القصيدة اللامية التي حاكى بها قصيدة مشابهة للمتنبي يقول (١) :

هبوا أن سجنى مانع لوصاله فما الخطب أيضا في امتناع خياله

وقدم هذه القصيدة لمن يدعى أحمد بن سعد بن سيرين ، فيذكره بقوله :

(١) ديوانه ٣١١ .

كذلك ابن سيرين بنفثة يوسف تكلم في الرؤيا بمثل مقاله
وأنتم أناس فضلهم غامر الورى فما بال مثلى دائرا في انخماله
أبصرتمونى شافعا بسواكم وأنتم بعيد وهو في ضيق جاله
وإذ صار سعد وابنه معقلا له فما العذر من إطلاق من عقاله

ولم تسعفه شفاعه ابن سيرين ، فلم يستطع أن يمد إليه يدا لإخراجه من
السجن فمضى حسيرا كسيفا يجتر آلامه ، ويعصره الندم ، حتى لقي ربه ألما
وكمدا أو غيلة وغدرا .

شعر التهامي

يبدو على شعر التهامي بصفة عامة طابع التقليد وهو بدوى النهج والصياغة
وموضوعاته غالبا المديح ، وقليل منه في الغزل ، والوصف ، والعتاب ، والثناء ،
ومديحه يبدو في معظم القصائد بالنسيب والغزل والرحلة ووصف بعض مشاهد
الطبيعة بالحجاز ونجد أو بالشام .

وقصائده في المديح لا تطول كثيرا ، فهي متوسطة تتراوح بين ثمانية أبيات
 وخمسين بيتا .

وله مقطعات قليلة قالها في مناسبات يتبادل فيها النظم مع بعض رفاقه أو
مدحويه ممن قصدهم من الأمراء والوزراء والرؤساء والقضاة .

وقد يبدأ قصيدة المديح مباشرة دون التمهيد بالنسيب والرحلة ، كذلك التي قالها
في أبي العلاء المطهر بن عطاء كاتب ابن حميد . قال مباشرة (١) :

لأبي العلاء فواضل مشهورة حلت محل الفرقدن علاء

ومعاني المديح عنده محدودة تكاد تكون محصورة في صفات الكرم ، والجود
والشجاعة والإقدام والهمة ، وهذا طبيعي ، لأنه شاعر متكسب يسأل بشعره ،
أو هو شاعر محترف يستخدم الشعر كغيره من الشعراء المحترفين وسيلة لكسب
العيش . ومن هنا كانت مبالغته في صفات كرم مدحوه ، وكان اسرافه في إضفاء
الثناء حتى إنه ليخرج كثيرا عن حدود المعقول والمقبول إلى مستوى من الملق
والتزلف المجوج المسترذل .

(١) ديوانه المطبوع ص ٢٥ .

على أن الظواهر الواضحة في شعر التهامي مزج صفات البلاغة ، والخطابة
بالسياسة والشجاعة والكرم وبعد الهمة ، وذلك لأن كثيرا من ممدوحيه كانوا إما
من الوزراء الكتاب أصحاب القلم ، أو من القضاة والعلماء ، كما كان بعضهم
يجمع بين الرئاسة أو الإمارة والشعر كالأمير قرواش بن المقلد العقيلي صاحب
الموصل .

كأن يقول في أحدهم^(١) :

لولاه لم يقضي في أعدائه قلم ومخلب الليث لولا الليث كالظفر
فيه المنى والمنايا كالشجاع به ال درياق ، والسهم جم النفع والضرر

وأما معاني المديح التقليدية وأولها الكرم فقد أدارها التهامي في شعره مكرره
أحيانا بلفظها ، وأحيانا بقوالها التعبيرية المعتادة عند غيره ، وقد يلجأ إلى التغيير
والإغراب في عرضه كأن يشبه الطعنات وأثرها في الأعداء بالأعكان المحيطة
بالسرر .

ما ضر إلا وضلت بيض أنصله في الام أو سمر الأرماع في الثغر
وغادرت في العدى طعنا يحف به ضرب ، كما حفت الأعكان بالسرر

وهو إغراب عجيب ، وتشبيه لا يتوقع في هذا المعنى ، وهو تشبيه جنسى في
موضع الحرب ولكن متعة الجنس تقترب أو تقترب في الوقع عند بعض البدو
والمحاريين بمتعة الجنس .

ويبدو لعين الناقد أنه وضع اللفظ في غير موضعه كوضع السيف في غير
موضعه في (الندى) كقول الشاعر :

ووضع الندى في موضع السيف في الوغى مضر كوضع السيف في موضع الندى

وأشار هو نفسه إلى هذا العمد إلى الأغراب حيث قال^(٢) :

يارب معنى بعيد الشاؤ أسلكه في سلك لفظ قريب الفهم مختصر
لفظا يكون لعقد القول واسطة ما بين منزلة الإسهاب والخصر

(١) ديوانه ص ١٨٧ .

(٢) ديوانه ص ١٨٧ .

وفي معانيه الجديدة قوله مادحاً ، واكثر من ترديده :

وما تنجح الأقلام إلا بكفه ومخلب غير الليث في كفه ظفر
يعيده مرة أخرى فيقول :

لولاه لم يقض في أعدائه قلم ومخلب الليث لولا الليث كالظفر
ومن تلك المعاني ما يدور حول السيادة ، والخطابة والإمامة وسداد الرأي وما
إلى ذلك ، كأن يقول :

يغضى لهيبته الزمان إذا انتضى غضب المناير باتر الحدين
متقلد من رأيه وحسامه سيفين قد نيطا إلى كتفين
وفي الكبرياء — جر الرداء كقوله :

لا زلت في رتب المعالي ساحبا ذيل المكارم مسبل الكمين
ويذكر القتال من عمل الرماح معنى جدد في صورته ، فالحق دامى قالوا إن
الممدوح يسلك في ريمه الرؤوس وغير ذلك ولكنه يعدل فيه فيقول :

كأن سنان الرمح سلك لناظم غداة الرغى ، والدارعون جواهر
ترد أنابيب الرماح سواعد ومن زرد الماذى فيها أساور
ومن معانيه الجديدة في المديح التي ذكرها الصنفى قوله في مديح ابن المفرج :
تلبية من آل المفرج إن دعا أسود لها بيض السيوف أظافر
تراه لقرع البيض في البيض مصغيا كأن صليل الباترات مزاهر
وحفت به الآمال من كل جانب كما حف أرجاء العيون الخاجر

ويتعقب كثيرا من الشعراء السابقين ، وعلى رأسهم أبو الطيب المتنبي ، فقد
اكثر الاعتماد عليه ، وربما كان ذلك لتقارب طبع الشاعرين ، واتفاقهما في بعض
هموم الحياة .

يقول :

أكلف أقلامي تبغنى المنى وقد عجزت عنه الرديئة السمر
وإن لم تل بالبيض تخضبها الدما فأهون بأقلام يخضبها الخبر

وهو من قول المتنبي :

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي المجد نسيف ليس المجد للقلم
وإن كان أصله عند أبي تمام في قوله :
السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
ويقول التهامي :

فلا يغرر الأعداء منه ابتسامه فإن قصب السيف عند ابتسامه
وهو من قول أبي الطيب :

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظن أن الليث مبتسم
وينظر إلى معاني أبي تمام في مثل قوله :
قري الين جفنيها على الخد فالتقى بأدمعها والمبسم الدر والدر
وفي قوله :

ذريني أهب للمجد شرخ شبيبي فإن لم أبادرها استبد بها العمر
فقد ألم يقول الطائي :

عَدْتُ تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتادا عندها كل مرقد
وأجرى لها الإشفاق دمعا موردا من الدم يجري فوق خد مورد
ويقول أبي نواس :

ذريني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير
وفي غزله يبتكر كذلك بعض المعاني ، ويلتقى مع سابقه في كثير منها ، وتراه
يتبدى أحيانا ، فيقول (١) :

ريانة الخلخال ظامئة الحشا هر كولة خرعوبة الساقين
ويسلك طريقة المحدثين وأهل الحضر فيقول :

(١) ديوانه ص ٤٠٦ .

قلت لخلي وزهور الربا مبتسمات ، وثغور الملاح
أيهما أحلى ترى منظرا فقال : لا أعلم كل أقاح

ويعيد صياغة هذا المعنى في معرض آخر ليقول :

وضاحكن نور الأقحوان فقال لي خليلي أي الأقحوانين أعجب ؟
فقلت له لا فرق عندي وإنما ثغور الغواني في المذاقة أعذب

ويعيد معاني القدامى في لفظ جديد ، كأن يقول في المعنى القديم لعمل عيون
المرأة في العاشق :

قالوا: قتلت بصارم من طرفه فيما زعمت ، وما نراه بقان
فأجبت: خير البيض ما سفك الدما فمضى ولم يتخضب الغريان
وغربا السيف جانباه .

ويتأثر بالمتنبى في هذه المعاني الغزلية كما تعقبه في معاني المديح فيقول في دموع
الفراق على خدى المرأة :

لم أنسها تشكو الفراق بأدمع ما اعتدن بالخد الأسيل مسيلا
وهو من قول المتنبى :

بكت غير أنسة باليكا ترى الدمع في مقلتها غربا
ويقول (١) :

كيف السبيل إلى لقائك في الدجى والليل حيث حللت منه مقمر
من قول أبي الطيب :

أمن ازديارك في الدجى الرقباء إذ حيث أنت من الظلام ضياء
ويكرر هذا المعنى التهامي في قوله بصياغة مغايرة وإن كانت تلم بعناصر من
صياغة المتنبى في قوله (٢) :

الليل حيث حللن فيه نهار فلذا ليالي وصلهن قصار

(١) ديوانه ص ٢٢٨ .

(٢) ديوانه ص ٢٠٨ .

ويركز التهامي في غزله على الطيف ، ويأتي فيه بكثير من المعاني الجيدة ، وقد اختار الصفدي من معانيه في الطيف قوله :

خاليلي هل من رقدة أستعيها لعل بأحلام الكرى أستزيها
ولو علمت بالطيف عاقنه دوننا لقد أفرطت بخلا بما لا يضيرها^(١)
ومن شعره في الطيف قوله :

زارني في دمشق من أرض نجد لك طيف أسرى ففكك أسرى
فاجتني يدور نجد بأرض الشام بعد المندو بدرا فبدرا
وأراد الخيال - ثقيمي فصيرت للثقيمي دون المرافش ستر
فأصرف الكأس من رضا بك عنى حاش لله أن أرشف خمرا
ولو أن الرضاب غير مدام لم تكوني في حالة الصحو سكري
قد كفانا الخيال منك ولو زرت لأصبحت مثل طيفك ذكرى

وفي غزله غزل رقيق ، وفيه شكوى انصراف الملاح عند طلوع الشيب من مثل قوله :

صددت إذ عاد روض الرأس ذا زهر الشيب عندك ذنب غير مغتفر
لا در در بياض الشيب إن له في أعين الغيد مثل الوقر بالإبر
سواد رأسك عند الهائمين به مُعَادِلٌ لسواد القلب والبصر
قد كان مغفر رأسي لا قدير له فصيرته قتيلا صبغة الكبير

وللتهامي في شكوى الزمان والكبر أبيات كثيرة جيدة ، وعلى أن وجيعته التي خلدها شعره فقد له لابنه ، وقد أعجب بها العلماء وردوها في كتبهم ، وذكرها الصفدي من بين ما ذكر من عيون شعره كاملة وهي رأيته التي يقول عنها : وله القصيدة الرائية المشهورة التي رثى بها ابنه ، وقد سارت مسير الشمس وهي الكامل^(٢) :

حكم المنية في البرية جار ما هذه الدنيا بدار قرار
بيننا يرى الانسان فيها مخيرا حتى يرى خيرا من الاخبار

(١) الواقي بالوفيات ٢٢ / ١٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ١٢١ .

طبعت على كدر وأنت تريدها صَفَوْا من الأقداء والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار
وإذا رجوت المستحيل فإنما تبني الرجاء على شفير هار
العيش نوم ، والمنية يقظة والمرء بينهما خيال سار
فاقضوا ما ربكم عجلا إنما أعماركم سفر من الأسفار

ويروى الصفدى كما روى غيره من قبل أنه رثى بعد موته في المنام ، فقيل له :
ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي . قيل له بأى الأعمال ؟ ، قال : بقولى في مرثية
ولد لي صغير وهو :

جاورت أعدائى وجاور ربه شتان بين جواره وجوارى

ألفاظه وتعبيراته وصوره :

قلنا إن شعر التهامي يتردد بين روح البداوة والحضر وقد كانت البداوة غالبية
عليه أول الأمر ، حين وفد من البادية أو تهامة ، لكن هذه البداوة خفت حدتها ،
وقلت آثارها في شعره بعد إقامته في الشام وحواضر العراق زمنا ، وخالط من فيها
من الأدباء والشعراء فرقت ألفاظه ، وتشكلت تعبيراته وصوره بألوان حضرية ،
وإن عاودته من حين إلى آخر بداوته .

ومن الصور البدوية في لفظ بدوى قوله مرتجزا :

وَعِيرَانِيَّةٌ زِيَاةٌ تَحْذِفُ الْحَصَى غُرَيْرِيَّةٌ يَغْتَالِهَا الْقَيْدُ وَاللَّصْبُ (١)
طَوَاهَا النُّوَى وَاجْتَا حَهَا لَازِمَ السَّرَى فلم يبق منها لا عنيق ولا جذب
قَطَعَتْ عَلَيْهَا بِالْدِيَا جِىً وَبِالضُّحَى وفى حومة التهجير والآل منصب
إِلَى بِلَدٍ ذَلَّتْ لِعَزِّ مَلُوكِهِ ملوك البرايا والأعاجم والعرب

وكذا في قوله من غزل يذكر بنسيب القدامى في الجاهلية :

سَقَى الْعَهْدَ مِنْ هَنْدٍ عَهَادَ مَنْ الْحَيَا ضَحُوكُ ثَنَائِ الْبَرِّقِ مَتَحِبِّ الرِّعْدِ
يَحُلُّ عَقُودَ الْقَطْرِ بَيْنَ مَعَاهِدِ تحل بها من قبل درية العقد
فَتَاةٌ أَرَى الدُّنْيَا بِمَا فِي نَقَابِهَا وألقى بما في مرطها جنة الخلد
هِيَ الشَّمْسُ تَحْفَى الشَّمْسُ عَنْهَا إِذَا انْتَحَتْ قضاعية الأحوال مَهْرِيَّةُ الْجَدِ

(١) العيرانة : الناقة الشطة — وغُرَيْرِيَّةٌ نسبة إلى غُرَيْر فعل من الإبل ، اللَّصْبُ : الجلد اللاصق باللحم من
المزال .

وتراه يستخدم في أساليبه التصويرية عناصر من طبيعة الصحراء ، في وهادها وحيوانها ونباتها كعادة الشعراء القدامى من ساكنى البادية ومن شاكلهم أو سار على طريقتهم . ومن صورهِ الملمحظة التى تتردد فى قصائده صورة السماء بنجومها ، يقول من قصيدة :

فسرت أعر في ذيل الدجى ولها	والجو روض وزهر الليل كالزهر
وللمجرة فوق الأفق معترض	كأنها حبيب يطفو على نهر
وللثريا ركود فوق أرحلنا	كأنها قطعة من فروة الثمر
وأدهم الليل نحو الغرب منهزم	وأشقر الفجر يتلوه على الأثر
كأن أنجمه والصبح يغمضها	قسراعيون غفت من شدة السَّهر
فروع السرب لما ابتل أكرعه	فى جدول من خليج الفجر منفجر

فهذه الخيالات البدوية الغريبة التى خيلت له من نظره للسماء سمة واضحة من سمات شاعريته ، نقف أمام تشبيهه للثريا بفروة الثمر ، وصور النجوم فى ضوء الصباح المثل من المشرق آخر الليل بالسرب الذى ابتلت أكارعه — أرجله — فى جدول الماء .

وإذا كان قاموسه اللغوى قد حوى كثيرا من لفظ القدامى ، فهو يستخدم أحيانا بعض التعبيرات القرآنية والإسلامية مثل قوله :

إذا أنشدت فى ناد قوم أكارم
يخرون للأذقان إن ذكر الرب
قوله ويذكر الخضر العبد الصالح :

وشرقت حتى لم أجدل مشرقا
وغربت حتى قيل هذا هو الخضر
يحلّو له أحيانا استخدام بعض صور البديع كالجناس على طريقة أى تمام من مثل قوله :

وتركت أعينهم بصور فى الوغى
صورا، وقد جآخ الورى ما جاحا
وكقوله :

أنى تروم الروم حريك بعدما
لم يترّم قط بك الإمام مراده
صليت بحريك محربا ملحاحا
إلا جلوت عن الفلاح فلاحا

وَقَوْلُهُ :

وَإِذَا هَزَكَ الْإِمَامُ الْحَرْبَ أَوْ لَسَلِمَ ، فَأَنْتَ نَصْرٌ وَنَصْلٌ

وَقَوْلُهُ :

وَهَذَا ابْنُ يَحْيَى إِلَى فَضْلِهِ تَنْضَى الرِّكَابَ ، وَتَنْضَى الْمَطَى

* * *

المؤيد في الدين داعي الدعوة^(١) (ت سنة ٤٧٠ هـ)

هبة الله بن موسى بن عمران الشيرازي
نشأ في بلده ، من أسرة اعتنقت الإسماعيلية مذهباً ، ودانت للفاطميين ولاء
وكانت شيراز موطن الأسرة ، وإليها نسب الداعية الشاعر ، وبها عرف . ونبغ
وتفقه في الدعوة ، وكانت به موهبة الشعر والجدل ، عرف بقوة العارضة
والذكاء وحسن البيان .

ولما بلغ مبلغ الشباب طمحت نفسه إلى أن يجد له مكاناً بين الدعوة ،
واتصل بأبي كاليبج السلجوقي وعاشه زمناً حتى طلب إليه مغادرة البلاد .
وكانت سنة آنذاك تسعاً وعشرين عاماً . وكانت تهمته محاولة الدعوة
للمستنصر الفاطمي . .

وجاء إلى مصر سنة ٤٣٨ هـ بعد أن تجول زمناً في العراق والشام .

قال الدكتور محمد كامل حسين : « سار المؤيد إلى مصر وهو بين عاملين ، كان
عنده أمل فيما سيلقاه من نعيم وتقديم ، إذ كان وحيداً في علمه وحجته ، خدم
الدعوة وأيدها بمنطقه وبيانه ، وكان بجانب أملة هذا يائساً أشد اليأس لأن
إمامه غير متصرف في شئون بلاده ، وأن قوة أخرى كانت تدير البلاد ، هي أم
الخليفة المستنصر »^(٢) .

وعند وصوله إلى مصر كان متولى الوزارة القلاحي فخر الملك صدقة بن
يوسف (قتل سنة ٤٤٠ هـ) ، فأكرمه الوزير ، وأمر بأن تجهز له دار . قال
عنها : « دويرة فرشت لي هي من الكرامة في الدرجة الوسطى من الحال » .

(١) قام الدكتور محمد كامل حسين بدراسة جامعة والية له ولشعره في مقدمة ديوانه ونقّس هنا من
هذه الدراسة ما يعرف بهما .

راجع ديوان المؤيد بتحقيق وتقديم الدكتور محمد كامل حسين طبع دار الكاتب المصري سنة
١٩٤٩ م .

(٢) مقدمة الديوان ص ٣٥ .

وكان يتولى الدعوة أو منصب داعي الدعاة أهو حفدة القاضي النعمان الداعية ، واسمه القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان . كان يتولى القضاء والدعوة معاً ، وخشى من منافسة هبة الله له ، فعمل على إبعاده من مصر . وكان قد عزم على الرحيل لما أحس بضيق الناس من حوله ، ومنعهم له من الاتصال بالخليفة المستنصر .

وتمكن من الوصول إلى الخليفة في شعبان سنة ٤٣٩ هـ ، وسجد عنه رؤيته تحية له ، وألجم عن الكلام وانعقد لسانه قال يحكى ذلك : « ولما رفعت رأسي من السجود ، وجمعت على ثوبي للعود رأيت بنائاً يشير إليّ بالقيام لبعض الحاضرين في ذلك المقام ، فقطب أمير المؤمنين — يعنى المستنصر — خلد الله ملكه — وجهه عليه زجراً ... ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لسانى بتلقى ، ولا يهتدى لقول . » .

وعين أستاذاً بدار الخلافة ، وقويت علاقته بأمر المستنصر ذات النفوذ وعين في الوزارة الجرجاني فاليانورى . وكانت بينه وبينهما أحداث . وتولى دار الإنشاء . وكان يطمع في مرتبة داعي الدعاة ، ومازال يسعى لها حتى بلغها واشترك في مؤامرة البساسيرى للدعوة للفاطميين بالعراق سنة ٤٤٦ هـ ، ولكن المؤامرة فشلت ، واستعاد طغرل بك السيطرة على بغداد وشمال العراق . ولم يجد المؤيد يداً من الهرب فغادر العراق بعد مقتل البساسيرى إلى حلب ثم عاد إلى مصر ، وعين داعياً للدعاة سنة ٤٥٠ هـ ، وظل كذلك حتى توفى سنة ٤٧٠ هـ وصلى عليه المستنصر ودفن بدار العلم بالقاهرة .

شعره

هذا عن حياة المؤيد ، واجتهاده في الدعوة للفاطميين ، وأما شعره فقد نبض بحماسة للإسماعيلية كمجالسه ، وكان خطاباً ينفث من خلاله تعاليمهم واعتقاداتهم . ولا نقف طويلاً عند هذه المعاني فقد وفاها غيرنا^(١) والمجال لا يتسع للحديث فيها . ويهنا بالدرجة الأولى شعره الخالص الذى لا يستهدف الدعوة ، وليس بوقاً خالصاً لها ، وإن لم يحل شعر له من ذلك .

(١) ذلك الدكتور محمد كامل حسين في دراسته التى أشرنا إليها .

وكان لألامه بالديانات والمذاهب أثره في شعره ، كما كان لسعة اطلاعه في العلوم العقلية والنقلية آثارها كذلك ، ويشبهه الدكتور محمد كامل حسين بأبي العلاء في ذلك . يقول : فأبو العلاء والمؤيد هما الشاعران اللذان استطاعا أن يصفيا في شعرهما اختلاف عقائد الناس في عصرهما ، وأن يتحدثا عن الفرق الدينية والآراء الفلسفية ، وغير الفلسفية ، وعن الحياة وعن الموت ، وعن دقائق الكائنات العلوية والسفلية .

ولتمكن هبة الله من البيان ، ولما وهب من شاعرية ، اكتسب قوله الشعرى جمالاً ، ورونقاً ، ولم تؤثر فيه القضايا العقلية والمذهبية ، بحيث تذهب برونقه جميعاً ، ويصبح مجرد صحائف دعوة وحجاج .

ونعثر بكثير من قصائده التي يخلو فيها إلى نفسه ويتحدث عن هموم ذاته وعواطفه ومواجهه ، آماله وآلامه ، وأحاسيسه بالحياة والناس من حوله . ومعظم شعره في هذا الجانب غير العقائدى يدور حول ذاته ، ولم يهتم بما حوله من صور الحياة والطبيعة ، فلم يتحدث عن النيل ومصر ومتنزهاتها وبساتينها وأديرتها كما فعل غيره من الشعراء من السابقين أمثال تميم والعقيلي ، ومن عاصره كذلك قبل جماعة الأفضل .

وكان إحساسه بالذات متضخماً ، فانعكس على قوله بالمبالغة في الاعتداد وقد يتصاغر أمام الأحداث ، فتهزه بداخله ، وتذعره ، فيقول :

فالطير إن طار صرث مرتجفاً والطيף إن طاف أنزوي أماً
على جراته واقتداره في اقتحام الأخطار ومواجهة الأحداث في حياته .
وفي شعره رنة أسمى حزين ، وصوفية تتردد أصداؤها هنا وهناك أحياناً ، فيخبر عن رغبته في الموت للخلاص من عناء الجسد وحياة المادة إلى دنيا الروح ، ويتمثل الجسد سجناً كالصوفية :

ريحانتي الموت وباب أمني إذ كنت أرجو نخلصي من سجنى
ولا شك أن هبة الله قد حفظ كثيراً من الشعر العربى القديم وتأثر به ، فأثار ذلك بادية في مواضع كثيرة من قوله . وكان للمتنبى نصيب وافر من شعره في

اللفظ والمعنى ، وقد أشرنا في مواضع من كتابنا هذا إلى ما كان للمتنبي من أثر على شعراء العصر . وقد يضمن من قوله كما قال :

فغفلت بالآلَاءِ مفصوم العُرى من طول ما تعتادنى الآلَاءُ
مترنماً دهرى بييت قاله من ليس ينكر فضله الشعراءُ
« وشكيتى فقد السقام لأئه قد كان لما كان لى أعضاء »

ويستعين بالقرآن الكريم ، فيضمن آياته ، ويشير إلى قصصه وأخباره ويوظفها في معانيه . كقوله :

فلما طفى الماءُ أُجْرِى به سفينته ربه فى العباب
مستعيناً بالآية : (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ) .

ونمثل ببعض شعره ليقفنا نصه على مضامينه وفنه . ونقتبس من أول شعره فى الديوان قوله فى وزن الرجز على شكل الشعر التعليمى . يقول :

حَمَدًا لربِّ قاهر السلطان فردِّ عليك باهر البرهان
أتقن كلَّ صنعةٍ وأحكمًا من ذا يرُدُّ ما به قد حكما
حكمتُه خافقةُ الأعلام تريك وجه الحقِّ ذا ابتسام
ويقول فيها :

كم ناظر بعقله لا يُبْصِرُ ومبصر بالقلب لا يستبْصِرُ
ونظُرُ المرءِ له شرائطُ تاركها فى الظلماتِ خابطُ
كذلك العقلُ لدى التبصُرِ بذاته فى حيزِ التحيرِ
إلا بنورٍ عاضِدٍ من خارجِ فعنده يعرجُ فى المعارجِ
ولمَّا أمتنا تفرَّقوا إذ بينَ ذا وبينَ ذاكِ فرَّقوا
وأصبحت عقولهم مختلة سقيمةً ، نفوسهم مُعتلة
فسلبوا سداد قول وعملِ وعرضوا لكلِّ خطيئٍ وخطلِ
ونقضوا قواعدَ الشريعةِ كلَّ له مقالةٍ شنيعةٍ

وهى أرجوزة طويلة تعليمية كما قلنا ضمنها أصول العقيدة ، وأراد بها الدعوة لمذهبه .

ويقول في مدح الفاطميين والأمة الإسلامية :

فديت خير أمة قد أخرجت للناس تنفى الريب عنا والخلل
الراكعون الساجدون في الدجى والطيبون الطاهرون والشبل
الفاطميون الصناديد الأولى هم من جبال الفضل والفخر القل

ويوجه حديثه إلى الخليفة الفاطمي :

بك اعتلى في الأفق نجم للهدى ومنك حقاً ناجم الكفر أقل
يا قبلّة الأزواح يا من نحوه توجّهت في الشرق والغرب قبل

ونلاحظ أنه كثيراً ما يعتمد في مدائحه للأئمة إلى البدء مباشرة في الموضوع ، وإلا فيبدأ بالشكوى ، فمما بدأ به مباشرة قوله :

الله ينشر راية المستنصر بالله ، مولانا الإمام الأطهر
ويتم نور أي تميم حالياً بسناه أعناق الظلام الأكر
ويديم دولته ويجبر كسرنا في «الظاهر» العنصر الرطب الأخضر

ومما بدأ به بالشكوى قصيدة يستهلها بالحديث عن الغربة ، ولعله يقصد الغريتين الجسدية والنفسية حيث يقول : (ولعله قالها بمصر أيام أزمته مع داعي الدعاة واليازوري) .

يا للغرّب أنت بئس الداء فغناك فقر ، والعطاء عناء
والعزّ ذل ، والسعادة شقوة واليسر عسر ، والبقاء فناء
والعرف منك التكر إن يوماً أتى أئى وحالك كلها نكراء
يا غربة أغربت منها في مدى من دونه قد أغربت عقاء
ومسافة عرض البسيطة كونها قطعها فرئت لي البيداء
أضللتني في الأرض بل القيتني في اليم ما لي في النجاء رجاء
وسفحت ماء العين إذ فوئتني روق الشباب فمنه غيض الماء
مزقتني بالذل كل ممزق والذل يصلي ناره الغرباء
قد كنت أفرس الأسود بفارس فالآن تنهض لاقتراسي الشاء

ويمضي في هذه الشكوى من الغربة. حتى يصل إلى ممدوحه المستنصر فيقول :

قَطُّعُ الزَّمَانِ بِحُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ وَصَلْ ، وَدَاءُ الثَّائِبَاتِ دَوَاءُ
وَلِقَاءُ كُلِّ شَدِيدَةٍ مُسْتَسْهَلُ وَالسَّعْدُ فِي أَيَّامِنَا تَلْقَاءُ
خَيْرِ الْأَنَامِ أَيْ تَمِيمٍ ، مِنْ لَهُ كُلُّ الْبَرِيَّةِ أَغْبَدُ وَإِمَاءُ
مُسْتَنْصَرٌ بِاللَّهِ أَيْدُ نَصْرُهُ رَبُّ لَهُ الْإِيلَاءُ وَالْإِنْشَاءُ

ويستنجد به ليرفع عنه الضر فيقول :

إِنِّي أَتَيْتُكَ يَا ابْنَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ مُسْتَعْدِيًّا مَسْتَيْئِي الضَّرَاءُ
أَتَيْتُ فِي الْبَلَدِ الْأَمِينِ مُرَوَّعًا وَحِمَاكَ مِنْ صَرَفِ الزَّمَانِ وَقَاءُ؟

وله في التشويق والحب في مطلع مديحة أخرى :

غدا البينُ من حُبِّنا مستحيلا يَشْدُ الرَّحَالَ يَرِيدُ الرَحِيلَا
فلهفي على مهجة بينها وَبَيْنَ الْمَسْرَةِ مُذْ حَالِ حِيلَا
فديت الذي بكمال الجمال تَمْلِكُ قَلْبِي قَلِيلًا قَلِيلًا
فلما رَأَيْتُ مُسْتَأْسِرًا غدا بِاللِّقَاءِ عَلَيْنَا بِخِيلَا

ويستخدم بعض العبارات القرآنية :

وقلبي على النار ذات الوقود وَنُومِي قَلِيلًا وَلَيْلِي طَوِيلًا
سلاهُ لِمَاذَا اسْتَحَبَّ الْبِعَادَ فَصَبُّ عَلَيَّ الْعَذَابِ الْوَيْلَا
فلو حَمَلْتُ بَعْضَ مَا بِي الْجِبَالِ رَأَيْتُ الْجِبَالَ كَثِيرًا مَهِيلًا
ويذكر بثينة وجميلاً :

وكان وكنت بفرط الهوى بِحَاكِي بُثَيْنَ ، وَأُخْكِي جَمِيلَا
وهو في شعره لا يتعمد التصنع ، وأسلوبه جار ، نثرى التركيب والأداء لا
يلقى بالاً إلى رصانة البناء ، وانظر إلى قوله (١) :

أَهْلًا بِأَهْلٍ وَدَادَنَا أَهْلًا بِذِكْرِهِمْ وَسَهْلًا
أَهْلًا بَيْنَ قَلْبِي لَهُمْ بَيْتٌ وَقَدْ سَكُنُوهُ أَهْلًا
فَرَّقْتُ شَمْلِي يَا فِرَا قُ وَخَائِنِي جَلْدِي فَمَهْلًا
مَا كُنْتُ أَرْضَى عَيْشَةً فِي فِرْقَةِ الْأَحْبَابِ كَلَّا

(١) ديوانه ص ٢٢٨ .

ويميل كثيراً إلى الصنعة البديعية ، وبخاصة الطباق والمقابلة والجناس ، ويوظفها جميعاً لمعانيه ولا يتكلفها كأن يقول^(١) :

يا أنيسَ الفؤادِ بُعداً وقرباً لم يَدْرَ لى الفِراقِ عقلاً وقلْباً
كانَ حَرُّ الأهوازِ عندى برداً وشراباً ، عذابه لى عذبا

ويجانب في هذه القصيدة نفسها .
فيقول :

شُقْ مِنى الفؤادُ شقاً وأشقى بالضَّئِنا شيقاً إلى الوصل صَباً
وصنيعه هنا شبيه بصنيع المتنبي في قوله :

وقلقلْتُ بالهمّ الذى قلقل الحشا قلاقل عَيْشِ كُلِّهِنَّ قلاقلُ
وهو قريب الخيال والصورة ، لا يغرُبُ ، ويتناول الجارى القريب كقوله
في مديح الفاطمى :

قل لابن عباسٍ ليهنك إنَّي حيث اعتزرت به أذلُّ ذليل
ولطالما رهقتك منى ذلة من قبل تدنى للحمولِ حُمُولي
ورما بنا قوسُ الثوى عن عهدكم كم لى هنا لك من أخٍ وعديل
أسرى ، وأسرى مركبى وندامتى زَادى ، وخوفى فى الفلاة دليلى
وشققت جيبَ الأرضِ شقاً نحو من وقفت لديه ركائبُ التأمل
فرايتُ نيلاً فائضاً تمساحه مُتَشَمِّراً يحمى حَرِيمَ التَّيْلِ
وقد وظف صورة البيئة المصرية فى النيل وتماسيحه .

ويستعير بعض خياله الدينى من القرآن فيقول :

ونفسٌ حُلَاهَا نقشُ توحيد ربِّها فنعم الحلَى التاجُ والقرطُ والشَّنْفُ
ثُضِيءَ كمصباحٍ بدا فى زجاجةٍ خلافاً لأقوامِ قلوبُهُم غُلْفُ
وآلِ النبىِّ المصطفى كهفها الأولى لها بالولا فى طودِ مجدهم كهفُ

وشعره عامة لا يرقى إلى مرتبة المحترفين ، وربما غلب عليه ، وعلى قريحته
أفكاره الدينية ، وعمله كداعية ، ومرشد يعلم الناس أصول العقيدة ومن هنا
كانت بساطته وتسهيله فى العبارة وقرب المورد وكثرة الاستعانة بالقرآن الكريم لفظاً
ومعنى ، وكثرة الاستعانة بمصطلح علوم الدين .

ابن حيّوس (محمد بن سلطان)

(ت ٤٧٣ هـ) (١)

هو أبو الفتيان محمد بن حيّوس الشاعر الشامي الأمير الدمشقي الموطن والنسبة ، أحد الشعراء المعروفين في القرن الخامس ، بل لعله أشهر شعراء الشام في النصف الثاني من هذا القرن . له ديوان شعر كبير . وقد اهتم بجمع ديوانه جماعة من رواة وتلاميذه .

وأجوده ما جمعه ابن البرين المعري نزيل مصر . فهو أكبرها وأجمعها . ولد ابن حيّوس سنة ٣٩٤ هـ بدمشق ، وتنقل في ربوع الشام بين دمشق وحلب وقصد القاهرة فمدح بعض خلفائها الفاطميين ، وكان ذلك في عصر المستنصر وابنه الأمر . وقصد الوزير الخطير الأفضل بن بدر الجمالي ، والتقى في قصره ببعض شعراء المصريين وغيرهم .

ومدح من قادة الفاطميين الأمير المطفر أنوشكين الدزيري البربري أمير الجيوش ومن كبار قادة المستنصر بالله .

وشارك بشعره في تسجيل أحداث العصر الفاطمي في هذه المرحلة الخطيرة من مراحل الصراع بين الفاطمية والعباسية ، والفاطمية والأتراك السلاجقة وما خلده ، وقعة البساسيري في سنجار وانتصاره على طغرل بك السلجوقي سنة ٤٥٠ هـ وإقامته الخطبة للخليفة الناصر ببغداد . يقول :

عجبتُ لِنُدْعَى الآفاقُ مُلكاً	وغايتهُ ببغداد الرُّكودُ
وَمِنْ مُستَخْلِفٍ بِالهُونِ يَرْضَى	يُذادُ عَنِ الحِياضِ ولا يذودُ
وأعجبُ منهما سيفٌ بمصر	تُقامُ به بسنجارُ الخلودُ

وكان ابن حيّوس منذ شبابه متعلقاً بالقائد الدزيري رجل الفاطميين القوي بدمشق وأميرهم بالشام ، والذي مكن لملكهم بقهر كثير من أعدائهم من أمراء العرب وقادة السلاجقة . وبخاصة هزيمته للمرداسيين الكلايين بحلب .

لقد عاش ابن حيّوس بدمشق إلى جوار أميره المفضل الدزيري ، ومدحه بالقصائد الطوال ، ويزود عن الفاطميين بشعره ، ويهاجم أعداءهم من العباسيين

والمرداسيين والسلاجقة . وبعد وفاة الدزيرى مدح خليفته ، وبعض أمراء دمشق من قبل الفاطميين ، واتجه بهيمته إلى القاهرة قَصْبَةُ الملك ومركز الخلافة . وكان اتصاله بالوزير المثقف القوي اليازورى ، وبعض الوزراء من بعده .

وتعددت رحلات ابن حيّوس إلى القاهرة بمدح اليازورى وغيره من وزراء المصريين حتى تغيرت أحوال الدولة في حكم المستنصر وتآلب الأعداء على القصر من الداخل والخارج ، وعمت الفوضى الشام ومصر وتدخل بعض الثوار بالشام في شئون الدولة ، وعصى بعضهم واستقل بأجزاء من الشام .

وعانت دمشق من الفوضى والاضطراب . وطردت أميرها الأرمنى بدر الجمالى ، وعاد هذا القائد إلى مصر فاستنصره المستنصر ، وتمكن من اخماد الفتنة ، واستعادة الأمن والانضباط .

وخلفه بعد وفاته ابنه الأفضل ، فسار على سياسة والده ، بقية خلافة المستنصر بالله .

ولم يجد ابن حيّوس بداً من مغادرة دمشق بعد أن نهبت داره وأخذت أمواله . وعاد لا يملك ما يكفل له الحياة الكريمة التى كان يحياها من قبل في صحبة الدزيرى .

فغادر دمشق كسيف البال ليجول جولة في بلاد الشام وتغورها قاصداً بعض القضاة ذوى النفوذ في طرابلس وصور .

ويلتقى بابن منقذ جدّ الشاعر أسامة ، فيصل بينه وأمير حلب من المرنداسيين ويظل ابن حيّوس بحلب حتى وفاته .

وفى حلب ، وهو يخدم آل مرداس الكلايين العامريين ، أعداء الفاطميين يضطر إلى أن يغير من أقواله ، وأن يعتذر أحياناً عما كان قاله من قبل في هجائهم وهو بدمشق أيام كانت علاقته بأنوشتكين الدزيرى قوية ، وكان شعره عندئذ مليئاً بالحماس والتأييد له وللفاطميين . والهجوم على أعدائهم عباسيين وسلاجقة وغيرهم .

عاصر ابن حيّوس إذاً من خلفاء الفاطميين الظاهر ابن الحاكم والمستنصر وعرف من كبار وزرائهم أبا الفرج البابل واليازورى الوزير الخطير ، وبدر الجمالى .

ودار معظم شعره في المديح ، واضطر إلى الدفاع عن عقائد الاسماعيلية
وسلطان الفاطميين على غير عقيدته السنية .

وهكذا كان ابن حيوس في حياته وشعره دائراً في فلك الدولة وامرائها منجذباً
إليهم ، تابعاً ، ليست له شخصية مستقلة واضحة المعالم ، يختلف في ذلك عن
الشاعر التهامي الذي عمل زمناً مع الفاطميين لكن كانت له طموحاته ،
وشخصيته المتميزة في شعره .

وشعر ابن حيوس يمثل هذه المرحلة بعينها ، وهو في أسلوبه وبنائه يتطبع
بالطابع التقليدي ، يميل إلى طريقة أبي تمام ، لكنه بعيد عن ابداعه وصياغته
الفذة ، فهو يحوم حول حماءه ، ويحكي لكن فاته الشنب كما قال الشاعر المتأخر .

ومن الملاحظات التي أشار إليها محقق الديوان طول نفس الشاعر في قصائده .
يقول : « وهو من أطول الشعراء نفساً ، تتراوح أبيات قصائده بين السبعين
والمائة ، وقد تزيد ، وليس له من المقطعات إلا مقدار يسير ، يشابه في طول نفسه
ابن الرومي ومهيار الديلمي ، ويقصر عن الأول في ابتكار المعاني وتعدد
المناحي » (١) .

وليس في شعره ألمعية تميزه ، وهو صائغ للكلام ، غير مبدع للمعاني . له قاموس
لفظي يتردد في قصائده ، حصله من محفوظ كثير للشعر العربي وقراءات متعدد
لجوانب من التراث الديني واللغوي والتاريخي .

وكل شعره على تعدد مراحل حياته لا تتفاوت جودته بصورة مميزة وإن بدا في
آخريات حياته أجزل صياغة ، وأكثر اقتداراً على امتلاك وسائل التعبير .

ونسوق أمثلة من مراحل حياته المميزة في شبابه ، وكهولته وهرمه منها ما قاله في
دمشق في ممدوحه الذي استغرق معظم شعره في مراحل الشباب وأعنى أنوشتكين
القائد التركي وإلى الشام .

يقول فيه : (سنة ٤٢٨ هـ) ، ويذكر هزيمته مع الروم :

عَادَ بِالصَّفْحِ مِنْ أَحَبِّ الْبَقَاءِ	وَاحْتَمَى جَاعِلَ الْخُضُوعِ وَقَاءَ
فَلْتَنَمْ أُمَّةُ الْمَسِيحِ طَوِيلًا	كَفَّ مِنْ يَمْنَعِ الْعَدَى الْإِغْنَاءَ

(١) مقدمة الديوان ص ٣٢ .

مَلِكٌ بَطَلَبُ الْمَلُوكِ رِضَاهُ
قَسَمْتُ رَاحَتَهُ جَوْدًا وَفَتْكَأَ
مَا بَهَرَتْ الْعُقُولُ يَا مُعْجِزَ الْآيَا
هُدْنَةُ بَقَتْ النُّفُوسَ عَلَى الرُّو
وَلِنْ اسْتَعْجَمَ الْمُقَالَ فَدَى الْأَفْعَالِ
حَتَّى يَقُولَ :

لَوْ تِيَمَّمْتَ أَرْضَ خُفَّانَ يَوْمًا
لَأَحَلَّتْ الزُّبَيْرَ فِيهَا عَوَاءَ

* * * * *

أَيُّ خَيْفٍ وَلِلْخَلَاةِ سَيْفٌ
فَلْتَفَاخِرْ بِحَدِّهِ بَعْدَ عِلْمٍ
مَا تَخَلَّفَتْ عَنْ صِلَاحٍ لِهَذَا الدَّيْبِ
رُقَّتُهُمْ بِالْأَبَاءِ وَالنُّصُجِ ، فَالَا
وَأَبْنَتْ الْغَنَى لَهُمْ عَنْ جَمِيعِ الدِّ
ثُوقُ الدَّارِ فِي الظَّلَامِ وَلَكِنْ
وَيَقُولُ :

لَمْ تَزَلْ مُبِيدَعًا ، فَلَمْ أَذِرْ إِلَهًا
أَمْ أَصَارَ السُّمُوءُ قَسَمَكَ مِنْ

وقال يمدح الوزير اليازوري : (في حلود سنة ٤٤٢ هـ) : ويذكر مشاركته
وتدبيره مع البساسيري في الخروج على الخلافة ببغداد والدعوة للفاطميين :

لِيَهَيْئَكَ مَا أَنَا لَكَ الْجُلُودُ
مَرَامٌ شَطَطٌ مَرَمَى الْعَزْمِ فِيهِ
وَأَمْرٌ قَمَتَ فِيهِ بِلَا ظَهِيرٍ
وَمِثْلَكَ لَا يَضِلُّ الْحَزْمُ عَنْهُ
أَبَيْتَ فَلَمْ تَنْمُ نَوْمَ ابْنِ هِنْدٍ
وَأَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ
فَلْيَوْنَ مَدَاهُ يَبِيدُ لَا تَبِيدُ
وَأَهْلُ الْأَرْضِ مِنْ فَشَلٍ قَعُودُ
فَهَلْ أَنْبَاكَ بِالصُّنْدُرِ الْوَرُودُ
عَلَى حَقِّ قَبْنَهُ وَلِيدُ

(١) ابن ذكاء يقصد الصبح ، وذكاء الشمس .

وأعفيت المسامح من حديث	يعن فتشعر له الجلود
نبأ ضاقت بينون خثور	له ونبت بأطفال مهرد
فكذب ظن من عاداك صدق	تساوى فيه وعذك والوعيد
وعيد غادر المراق صرعى	وعيد ما أتى مائاه غيد
فلولا كونه مع يوم بدر	لقلنا إنه اليوم الوحيد

ويشير في هذه القصيدة السياسية التاريخية كمعظم قصائده إلى التاريخ السياسي للمرحلة التي اشتد فيها الصراع بين الخلافة الفاطمية في القاهرة والخلافة العباسية في بغداد واستعانة العباسيين بالسلاجقة الأتراك لدعم ملكهم ، وتثبيت أركان خلافتهم التي اهتزت بضربات الفاطميين ورجالهم طوال قرن من الزمان منذ استقرار المعز لدين الله بمصر سنة ٣٦١ هـ . فيقول معرضاً يطغريك السلاجوق :

لقد طاح الرجاء بطغلبك ولم أمل إلى أجل يقود

ويشير إلى الخليفة العباسي الذي لا حول له ولا قوة في هذا الصراع بين الأتراك :

عجبتُ للمدعى الآفاق مُلكاً	وغايته ببغداد الركود
يصول على رعاياها اعتداء	ويحجم كلما صل الحديد
ومن مستخلف بالهون راض	يُنادُ عن الحياضي ولا ينود
له حرم هنالك لم يُحرّم	به إلا السلامة والهجوّد
ثلاه خوفه بأشد منه	ولولا الجذب ما أكل الهبيد ^(١)

وحتى يقول منوهاً بالمستنصر الفاطمي :

وما البطش الشديد مفيد عز	إذا لم يُمضيه الرأي السديد
وأعجبُ منهما سيف بمصر	تقام به بسنجر الخلود

ويلمح في هذه الأبيات إلى ما كان يروجه الفاطميون عن انغماس الخلافة في بغداد في الملامى وانشغالها عن 'رعاية مصالح الرعية' ، وإيكالها إلى هؤلاء القادة من الترك يعثون بها كيف شاءوا . يقول مخاطباً البازورى وزير المستنصر :

(١) الهبيد الحنظل وكأنه يضرب مثلاً بأن الضرورة تبيح المحظورات .

رَمَيْتَهُمْ بِكُلِّ سَلِيلٍ غَابٍ يَعِيشُ بِفَرْسِهِ ضَبْعٌ وَذَيْبٌ
يُرْوِقُ فَوَادَهُ نَائِيَّ وَعُودٌ يُغِيدُ السَّيْرَ لَا نَائِيَّ وَعُودٌ
وَيَعْجِبُهُ النُّهْدُ إِلَى الْأَعَادَى مُشِيحًا لَا الْقُدُودُ وَلَا النُّهْدُ
وَيَطْرِبُهُ صَلِيلُ الْبَيْضِ فَوْقَ الْقَلَا نَسِينِ لَا الْبَسِيطُ وَلَا النُّشِيدُ

ونلاحظ اعتماد الجناس والطباق ، كفعل أئى تمام فى صنعتة الشعرية وقدمنا اقتداءه به ، واهتدائه بصباغته . وترددت شواهد فى شعره على هذا التأثير يصرح فيها أحيانا كقوله (١) :

وشبه عن جهل حبيب ، ولورأى زمانك لم يعدل به زمن الوردي

يريد بحبيب أبا تمام ، ويشير إلى قوله فى موسى بن ابراهيم الراقى :

ومن زمن ألبستيه كأنه إذا ذكرت أيامه زمن الوردي

وقال فى الوزير الفاطمى أبى الفرج البابلي سنة ٤٥٢ هـ (٢) :

أما الزمان فقد ألبسته الجدا والمكرماث فقد أنشأتها جددا

والتابع لهذه القصائد التى صاغها فى مديح وزراء مصر فى المرحلة الوسطى من حياته يلاحظ فى شعره استواء ورصانة أكثر من تلك التى صاغها بالشام قبل ذلك فى شبابه ، ولاشك أن مرور ربع قرن من الزمان زادت الشاعر تجربة ، وعركته الأيام ، ووسعت معرفته برجال الدولة ، ومجالسته للعلماء والأدباء من معارفه ، فترى ثراء قصائده بالمعلومات وذكر الأحداث والأنساب ووقائع التاريخ التى يستغلها فى معانى مديحه .

ونأتى المرحلة الثالثة من حياته وشعره فى كنف المرداسيين بحلب فى الستينات من المائة الرابعة ، ومن ذلك قوله يمدح نصر بن محمود ويرثى والده سنة ٤٦٧ هـ وأنشدها إياه فى عيد الفطر (٣) :

كفى الدين عزاما قضاة لك الدهر فمن كان ذا نذر فقد وجب النذر
لقد ظلت هذى البلاد سحابة بوارقها بشر وإيماضها تير

(١) ديوانه ص ١/ ١٩٥ .

(٢) ديوانه ص ١/ ١٩٨ .

(٣) ديوانه ص ١/ ٢٤٢ .

إذا ما غمامٌ حصَّ أرضاً بغيتةً هَمَى هاطلاً في كلِّ قطرٍ لها قطرٌ
ثمانيةً لم تفرق إذ جمعتها فلا افترقَتْ ماذبٌ عن ناظرٍ شفرٌ
يقينك والتقوى، وجودك والغنى ولفظك والمعنى، وعزمك والنصر
بك انجابت اللأواء، وامتدَّت المنسى وضوعفت الآلاء، وافتخر العصر

ويشير إلى رحلة والده محمود إلى مصر وزواجه من إحدى عقيلاتهما بقوله :
فيا طيب ما حيث به مصرَ بابلٍ ويا حُسن ما أهدت إلى حلبٍ مصرُ
وكانت تلك العقيلة بنت الوزير البابلي ، ويشير إلى هذه الرحلة إلى مصر
وزواجه بها ومغادرة حلب بقوله :

ولم يترك تلك البلادَ لأنها بَعَثَ بدلاً منه، ولا أن نبأ دهرُ
ولكنه كالسيف فارقَ غمده ليشهدَ حداهُ بما خيّر الأثر

وبعد فإن شعر ابن حيوس في معظمه مديح لرجال العصر وقادته ، ومنه
نستشف بعض الأحداث ، وهو في جملة موضوعي تسجيلي ، يهتم بالمناسبة التي
ينشد فيها ، والاشادة بالمآثر ، والأعمال التي يُبلى فيها الممدوح أو أُنبلَى ، فضلاً
عن التنويه به وبقومه ، وبمواليه من الخلفاء إن كان أميراً أو وزيراً ، كما يعرج على
المعارضين والأعداء فيزري بهم ، ويقلل من شأنهم ، ويوظف الأحداث التاريخية
لأغراضه ومراميه الشعرية مديحاً أو هجاء .

ومن هنا كان الجانب الذاتي الابداعي في شعر ابن حيوس متواضعاً شديداً
التواضع والمباشرة والموضوعية غالبية ، والخطابية طابعه العام .

على أن بعض معاصريه أعجب بما جاء في شعره من الصنعة البديعية . وتذكر
منهم علي بن منجب الصيرفي . فقد أعجب بحسن التقسيم في قوله ؛ قال (١) :
« ومن مليح التقسيم قول ابن حيوس :

لعمري لقد آيَّدَ الملوك جميعهم بأربعة في غيره لن تالفا
بأمن لمن يخشى، وقهر لمن طغى وسبق لمن جازى، وعفو لمن هفأ

وقوله أيضاً :

(١) الأنصليات ٤٦ .

قَصَّرَ السَّابِقُونَ دُونَ مَدَاهَا وَتَمَلَّكَتْهَا بَسَتْ خِصَالُ
مَكْرَمَاتٍ مَعَ اعْتِدَارٍ وَعَفْوٍ بِاِقْتِدَارٍ ، وَعَفْفَةٍ فِي حِجَالِ

وقال (١): « ومن البديع قول ابن حَيُّوس :

قَدَّتْ الْجَحَافِلُ لَمْ يَقْدُ مَعَاشِرَهَا كَسَرَى الْمُلُوكُ ، وَلَا رَأَى تَبَعُ
قَوْمٌ إِذَا رَامُوا مِمَّا لَكَ غَيْرَهُمْ خَصَّصُوا بِيِضِ الْهِنْدِ مَا لَمْ يَزْرَعُوا

(١) المصدر نفسه ص ٦٥ .

الفصل السادس

شعراء معاصرون بالشام

- ١ - أبو العلاء المعرى
- ٢ - ابن سنان الخفاجى
- ٣ - ابن الخياط

أبو العلاء المعري
حيرة العقل — ولغز البيان
(٣٦٣ — ٤٤٩ هـ)

أحمد بن عبد الله بن سليمان التتوخي حكيم المعرة الشاعر الفيلسوف عین هذا العصر ونجمه الطالع . الذى اختصم حوله الناس فى شعره وكتابته وفى عقيدته وفكره ، وظل مع هذا الخلاف علماً بارزاً لا تأخذ منه الأقاويل ولا تحط من قدره الادعاءات والافتراءات .

ظل أبو العلاء المعري بهذا الشموخ دلالة على حرية الفكر العربى والإسلامى فى القرنين الرابع والخامس ، وسعة عطاءه ، وتنوعه ، كما ظل أبو العلاء علامة وسمة بارزة على العصر ، تجمع فى إنتاجه الأدبى والشعرى معارف العصر ، وإنتاجاته السياسية والدينية والثقافية والأدبية والفكرية ، فكان دائرة معارف شاملة جامعة ، ومراة ، يرى فيها الباحثون ملامح عصره ، عصر الدولة الفاطمية ، ونافذة يُطل منها على آفاق الحياة العربية والإسلامية فى تلك المرحلة من مراحل التاريخ الإسلامى والحضارة العربية الإسلامية .

وسبقت أشارتنا عابرة إلى بعض مواقفه فى رسائله من مشكلات عصره وما دار بينه وبعض أعلام الزمن من جدل حول قضايا عقدية وأدبية ، ولغوية .

والآن جاء الدور للحديث عنه شاعراً فحلاً ، ومفكراً عملاقاً من خلال هذا الشعر ، لم يكتف بيت خاطراته حول قضايا عصره ، بل وقف موقف المصلح المجدد الحر الفكر دون خشية الجريء دون تطاول على أحد ، مع الاعتداد بالرأى يلقبه إذا اقتنع به فيما بينه وبين نفسه ، غير عانى بمن يعارض ، ولا منافق لحاكم أو صاحب سلطان أو مال ، فقد زهد فى قرى أصحاب السلطان وأصحاب المال جميعاً ، وارتضى لنفسه حياة سهلة هنية ، بسيطة ، توفر له حرية الفكر ، دون ضغيط من ظروف الحياة ، وأطماعها .

لقد احتبس أبو العلاء نفسه فى داره ، بعد أن قضى الله عليه ، وشاءت مشيئته أن يُحبس نظره عن رؤية الناس ، والدنيا باصرته ، ولكن البارئ

عوضه عن رؤية البصر ، رؤية السمع ، وجلوة الفكر والنفس ، فألقى إليه السمع بما يعوضه النظر ، وأتاحت له جلوة الفكر في ظلمة الجسد سبحات في آفاق العقل ، وتأملات حرة دون قيود متطلبات الجسد وهمومه اليومية .

لقد أتاحت محابس أبنى العلاء المعرى الثلاثة : فقدان البصر ، والخلوة ، وحبس النفس في هذا الجسد ، أو إلزام الجسد بقيد الرغبة . أتاحت له هذا التفرغ العظيم للدرس والاطلاع ، والتأمل ، والتأليف ، والنظم ، والتعليم .

عاش أبو العلاء في أسرة تجمعها المحبة ويظهرها العلم ، وكان يكنى لوالديه عاطفة عميقة في قلبه ، وتعلق بأمه خاصة ، وكان لوفاتها أثرها البالغ في نفسه . خرج أبو العلاء إلى الحياة والقرن الرابع يؤذن بنهايته ، وكان أول ما رأى نور الدنيا ببلدة المعرة بالشام ، في هذا الوقت الذى تنازعتها الأحداث وتعاقب عليها الغزاة والمغيرون بين شرق وغرب وجنوب . وكانت الحياة السياسية على ما عرضنا له في مقدمة حديثنا ، كما كانت الحياة الاجتماعية كذلك في المجتمع الإسلامى شرقاً وغرباً تضطرب بكثير من التيارات والتغيرات فلم يكن هذا المجتمع على ما عرفناه في أول عصر الدولة العربية الإسلامية ولا في عصر الأمويين وصدر عصر العباسيين من حفاظ على القيم الإسلامية وبعض القيم العربية المثلث التى حافظ العرب في أول عهدهم بالحياة خارج بلادهم بعد الفتوح والهجرة من الجزيرة عليها ، ولم يفرطوا فيها . وظل مجتمع تلك العصور الأولى متماسك الأواصر ، تسوده فلسفة واحدة ، ويستظل بظل العقيدة الإسلامية بقيمها النقية حتى رانت على تلك الفلسفة الواحدة للحياة فلسفات ، اكتسبها المجتمع العربى الإسلامى من آثار الحضارات القديمة التى نزع إليها المسلمون والعرب ، فخالطت أفكارهم ، وتمشت في تراثهم العربى والإسلامى بصور متعددة ، كان نتائجها تلك الحركات الفكرية والثقافية والاجتماعية والمذهبية العريضة التى شملت العالم العربى والإسلامى من مشرقه إلى مغربه طوال القرنين الرابع والخامس .

وقد أدت تلك التيارات والحركات التى اضطربت بها الحياة العربية الإسلامية طوال هذين القرنين إلى تغيرات كثيرة ، بل وتحولات شاملة في العقيدة والنظرة إلى بعض أصولها ، فنجم ما نعرفه ويعرفه تاريخ الفكر

والحضارة الإسلامية من شطحات أو خروج عن الخطّ الواضح الذى توارثته الأجيال للحياة العربية والعقيدة الإسلامية ، وتطبيقاتها فى المجتمع ، على تلك الصورة التى احتازتها الشريعة ، وحدد معالمها الأئمة المجتهدون من زعماء المذاهب وكبار علمائها وفقهائها .

ولكن هذه التغيرات التى أدّت إلى الخروج عن ذلك الخط كانت من القوة والتعدد والكثرة فى مشرق العالم العربى والإسلامى بحيث بدت فى هذا القرن الخامس وكأنها تغالب الخط المتوارث وتقتحم عليه مجاله ، وتكاد تحجبه عن الظهور فى أوساط كثير من المثقفين ، وبخاصة من أئمّ منهم بعلوم الأوائل ، أو بعلم خارج عن نطاق العلم الشرعى من علوم الأمم الأخرى يونان وهنود وفرس وغيرهم ، وما يضم من عقائدهم وعاداتهم ، وفلسفاتهم ، ورؤيتهم للكون والإنسان ، فظهر فى أفق الفكر الإسلامى آراء ، واجتهادات اعتبرت عند المحافظين على الخط الموروث من الإلحاد ، والزندقة ، والخروج عن جادة العقيدة والدين الصحيح .

جاء أبو العلاء المعرى إذا إلى الحياة والمجتمع العربى الإسلامى يضطرب بهذا كله قال ابن الجوزى^(١) :

« ... ولد يوم الجمعة عند غروب الشمس لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة . وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وله أشعار كثيرة . وسمع اللغة ، وأملئ فيها كتباً ، وله بها معرفة تامة ، ودخل بغداد سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وأقام بها سنة وسبعة أشهر ثم عاد إلى وطنه ، فلزم منزله ، وسمى نفسه « رهين المحبين » لذلك ولذهاب بصره . وبقي خمساً وأربعين سنة لا يأكل اللحم ولا البيض ولا اللبن ، ويحرم إيلام الحيوان ، ويقتصر على ما تنبت الأرض ، ويلبس خشن الثياب ، ويظهر دوام الصوم . »

ولقيه رجل فقال : لم لا تأكل اللحم ؟ فقال : أرحم الحيوان . قال : فما تقول فى السباع التى لا طعام لها إلا لحوم الحيوان ؟ . فإن كان الخالق الذى دبر ذلك فما أنت بأرأف منه ، وإن كانت الطباع المحدثه لذلك ، فما أنت بأحذق منها ، ولا هى أنقص عملاً منك^(٢) .

(١) خلاصة كلام داعى الدعاة المؤيد شمس فى رسائله إليه كما سبق أن عرضاه فى الجزء الأول .

(٢) المنتظم نقله ص ١٩ من تعريف القدماء .

قال المصنف رحمه الله^(١) : وقد كان يمكنه ألا يذبح رحمة ، فأما ما قد ذبحه غيره ، فأى رحمة بقيت في ترك أكله ؟
وكانت أحواله تدل على إختلاف عقيدته .
وقد حكى لنا عن أبى زكريا أنه قال : قال لى المعرى : ما الذى تحقّد ؟ —
فقلْتُ في نفسى اليوم أعرف اعتقاده — . فقلْتُ : ما أنا إلا شاكُّ ! فقال :
هكذا شيخك .

وكان ظاهر أمره يدلُّ على أنه يميل إلى مذهب البراهمة (الهنود) ، فإنهم لا يهرون ذبح الحيوان ، ويوجدون الرسل . قال ابن الجوزى :
وقد رماه جماعة من العلماء بالزندقة والإلحاد . وذلك أمره ظاهر في كلامه وأشعاره ، وأنه يرد على الرسل ، ويعيب الشرائع ويوجد البعث . » .

قال ابن الجوزى^(٢) : « ونقلت من خط أبى الوفاء ابن عقيل قال : من العجائب أن المعرى أظهر ما أظهر من الكفر البارد الذى لا يبلغ منه مبلغ شبهات الملحدين ، بل قصر فيه كل التقصير ، وسقط من عيون الكل ، ثم اعتذر بأن لقوله باطنا ، وأنه مسلم في الباطن ، فلا عقل له ولا دين ، لأنه تظاهر بالكفر وزعم أنه مسلم في الباطن . وهذا عكس قضايا المنافقين والزنادقة ، حيث تظاهروا بالإسلام وأبطنوا الكفر . فهل كان في بلاد الكفار حتى يحتاج إلى أن يبطن الإسلام ؟! . » .

قال المصنف (ابن الجوزى) رحمه الله : وقد رأيت للمعرى كتاباً سمّاه « الفصول والغايات » يعارض به السور والآيات . وهو كلام في غاية الرّكة . والبرودة . فسبحان من أعمى بصره وبصيرته . وقد ذكره على حروف المعجم في آخر كلماته . فمما هو على حرف الألف :

« طوبى لركبان النعال ، المعتمدين على عصا الطلح ، يعارضون الركائب في الهواجر والظلمات ، يستغفر لهم فحش القمر وضياء الشمس . وهنيئاً لتاركى التوق في غيطان الفلا ، يحوم عليها ابن دأية ، ويطيف بها السرحان . وشتان أوارك ثرة الألبان ، وأخرى لبنها أفقد من لبن العطاء . » .

(١) ابن الجوزى .

(٢) عن المنتظم ، ص ١٩ — تعريف القدماء بأبى العلاء .

قال ابن الجوزى : وكله على هذا النمط الباردا^(١) .

قال ابن الجوزى : وقد نظرت فى كتابه المسمى لزوم ما لا يلزم وهو عشرة مجلدات وحدثنى ابن ناصر عن أبى زكريا عنه بأشعار كثيرة . فمن أشعاره :
إذا كان لا يحظى برزقك عاقلٌ وترزق مجنونا وترزق عاقلا
فلا ذنب يارب السماء على امرئٍ رأى منك ما لا يشتهى فترندقا »

والبيتان المذكوران ليسا فى ديوانيه سقط الزند واللزوميات ، وربما سقطا من نسخهما أو إنتحلا عليه لتثبيت اتهام الكفر والزندقة . وقد أورد ابن الجوزى أبياتا أخرى غير واردة فى الديوان كقول ابن الجوزى : وله :

فلا تحسب مقال الرسل حقاً ولكن قول زور سطره
وكان الناس فى عيش رغيد فجاءوا بالحال فكثروه
حقاً لقد جاء فى اللزوميات بعض أبيات يقترب معناها من هذا القول من
مثل^(١) :

هفت الخيفة والنصارى ما احدث ويهود حارث والجوس مضلل
اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا دين ، ودين لا عقل له
ولكن شتان بين مضمون هذين البيتين والبيتين السابقين ، فالأخيران لا يفهم منهما هذا التصريح الذى يتضمنه البيتان السابقان . ويمكن تأويل البيتين الأخيرين بما لا يخرج الرجل من دينه أو يدينه بالإنكار .

ومعلوم أن الشيخ ابن الجوزى واعظ سنّى محدث ، وأن شيخه ابن ناصر السلامى محدث ، وأبو زكريا التبريزى كذلك ، وقد التقى بأبى العلاء ، ومعلوم كذلك عداوة المحدثين والفقهاء للفلاسفة ومناهجهم منذ ظهور حركة المعتزلة والمعركة التى دامت بين الفريقين طوال القرنين الثالث والرابع .

وربما كان القفطى أكثر اعتدالاً فى الحديث عن أبى العلاء ، وإن ساق ما رُمى به من زندقة وإلحاد ، ولم يسلبه قدره فى الأدب والشعر فقال : « كان حسن الشعر جزل الكلام ، فصيح اللسان ، غزير الأدب ، عالماً باللغة حافظاً

(١) التعريف ص ٢١ .

خا . ويذكر له من بديع شعره رثاءه لأحد أقاربه من فقهاء الحنفية والتي اشتهرت له :

غير مجيد في ملتى واعتقادي نوح بك ولا ترثم شاد

وقال فيما نقل عنه في عبارات معتدلة : « وكان يترهد ، ولا يأكل اللحم ويلبس خشن الثياب . وصنف كتابا في اللغة ، وعارض سوراً من القرآن وحكى عنه حكايات مختلفة في اعتقاده حتى رماه بعض الناس بالإلحاد . »

ومهما يكن موقف العلماء على اختلاف اتجاهاتهم من فكر أنى العلاء وشعره وما يتضمنه ذلك الشعر أو أدبه بصفة عامة من آراء واتجاهات تدل على سعة علم وتبحر فإن الرجل يظلّ علماً من أعلام الأدب العربي عامة وفى هذا القرن الخامس عصر الدولة الفاطمية خاصة .

وقد أهله دراسته للتزود بالعلوم، فقد روى أنه «عندما بلغ سن الطلب أخذ العربية عن قوم من بلده ، كبنى كوثر أو من يجرى مجراهم من أصحاب ابن خالويه وطبقته . وقيد اللغة عن أصحاب ابن خالويه أيضاً ، وطمحت نفسه إلى الاستكثار من ذلك فرحل إلى طرابلس الشام ، وكانت بها خزائن كتب قد وقفها ذوو اليسار من أهلها ، فاجتاز باللاذقية ، ونزل دير الفاروس وكان به راهب يشدو شيئاً من علوم الأوائل ، فسمع منه أبو العلاء كلاماً من أوائل أقوال الفلاسفة ، حصل له به شكوك لم يكن عنده ما يدفعها به ، فعلق بخاطره ما حصل به بعض الانحلال ، وضاق عطفه عن كتمان ما تحمله من ذلك حتى فاه به فى أول عمره ، وأودعه أشعراً له ، ثم ارعوى ورجع ، واستغفر واعتذر ووجه لأقواله وجوهاً احتملها التأويل . » (١) .

ذكر هذا القفطى ، وحكاية الراهب وأثره فى فكر أنى العلاء حملها بعض الدارسين كثيراً ، وبالغوا فيما أخذه أبو العلاء عن الراهب النصرانى باللاذقية ، ولم يكن لقاء العلماء المسلمين والأدباء غربياً فى العالم الإسلامى الذى انتشرت فيه الرهبة ، وتعددت الأديرة فى بلاد المشرق ومصر على السواء ، وليس خافياً ما كان يحتفظ أولئك الرهبان من كتب الأوائل من فلاسفة اليونان

(١) أنباء الرواه — عن التعريف بأبى العلاء . ص ٣٠ — ٣١ .

وعلمائهم . وقد أفادوا من تلك الكتب والفلسفات في علوم اللاهوت عندهم . وكانت هناك لقاءات ومحاورات في هذا العصر الفاطمي بين بعض رهبان النصارى وعلماء المسلمين على ما بينا من ذلك الحوار الذي حدث بين أبي القاسم الحسين بن علي الوزير المغربي والمطران النصراني . وعلمنا ما كان في عصر الفاطميين وفي ظل دولتهم من حرية الأديان والسماح للنصارى واليهود بممارسة شعائهم والمشاركة في الحياة العامة على قدم المساواة مع المسلمين حتى إن كثيراً منهم قد ولي مناصب هامة في الدولة .

وفي ظل تلك الحرية الدينية لا نعجب من حدوث لقاءات فكرية ، وتأثير وتأثر من كلا الجانبين إيجاباً أو سلباً . ولا شك أن في أدب المعري آثاراً واضحة على معرفته بكثير من أقوال النصارى واعتقاداتهم إلى جانب إلمامه الواضح بعلوم الفلسفات المشرقية والغربية على سواء . وليس ذلك بمستغرب على أبي العلاء ذي العقل الطليعة إلى العلم ، والذي لم يشغله عن المعرفة مشاغل السعي للحصول على العيش أو بلوغ منصب أو جاه ، بل تفرغ تماماً لتحصيل المعرفة من كل مورد ، ومنهل .

عرف أبو العلاء بقوة العارضة والمقدرة الفائقة على الحفظ ، مع الذكاء المفرط ، ودقة الملاحظة لما ينمى إلى سمعه من قول أو حركة . وقد ساعده هذا كله على استيعاب ما حوله والإحاطة بما يدور في الحياة والمجتمع في عصره .

ويحكى السمعاني عن مقدرته على الاستيعاب لما يسمع رغم عدم معرفته بلغة المتكلم نادرة تقول إنه سمع اثنين يتكلمان بلغة أذربيجان ، منهما واحد من جلسائه ، فلما فرغا من الحديث سأل المعري صاحبه : أى لسان هذا ؟ قال : هذا لسان أهل أذربيجان . فقال : ما عرفت اللسان ، ولا فهمته غير أنى حفظت ما قلتما . قال الرجل : ثم أعاد لفظنا بلفظ ما قلنا^(١) .

ويروى من قوة ذاكرته إلمامه بأسماء ما قرأ واطلع عليه من الكتب ووعيه بمحتوياتها . روى القفطي أنه « حضر خزانة الكتب التي بيد عبد السلام البصري ، وعرض عليه أسماءها فلم يستغرب فيها شيئاً لم يره بدور العلم بطرابلس سوى ديوان « تيم اللات »^(٢) .

(١) الأنساب للسمعاني — نقله التعريف ، ص ١٤ .

(٢) التعريف ص ٣٣

وروى كذلك أن رجلاً منهم وقع إليه كتاب في اللغة سقط أوله ، وأعجبه جمعه وترتيبه ، فكان يحملها معه ، ويحج ، فإذا اجتمع بمن فيه أدب أراه إياه ، وسأله عن اسمه واسم مصنفه ، فلا يجد أحداً يخبره بأمره . واتفق أن وجد من يعلم حال أبي العلاء ، فدلّه عليه ، فخرج الرجل بالكتاب إلى الشام ، ووصل إلى المعرة ، واجتمع بأبي العلاء ، وعرفه ما حاله ، وأحضر الكتاب ، وهو مقطوع الأول ، فقال له أبو العلاء : إقرأ منه شيئاً ، فقرأه عليه . فقال له أبو العلاء : هذا الكتاب اسمه كذا ، ووضعته فلان . ثم قرأ عليه من أول الكتاب إلى أن وصل إلى ما هو عند الرجل . فنقل عنه النص ، وأكمل عليه تصحيح النسخة . وانفصل إلى اليمن فأخبر الأدباء بذلك . وقد قيل إن هذا الكتاب هو « ديوان الأدب » للفارابي اللغوي ^(١) .

واتصل أبو العلاء المعري ببعض علماء عصره ، وكبار أدبائه ، فذهب إلى بغداد عاصمة الفكر سنة ٣٩٨ هـ وهي مركز الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ولقى بها الربيعي اللغوي ، ولم يلق منه قبلاً ، فتركه ، واتصل بالشريف الرضي وجرى ذكر المتنبي في مجلس من مجالسه ، وكان الشريف لا يجب المتنبي على عكس أبي العلاء الذي كان يقدمه ويجلّه ، واختلفا حوله ، ولم تطل صحبة أبي العلاء للرضي على ما كان يعرف عنه من حبه للعلم والعلماء ، والأدب والأدباء .

واستقر أبو العلاء في المعرة منذ سنة ٤٠٠ هـ . قال (٢) : « لزمْتُ مسكني منذ سنة أربعمائة ، واجتهدت أن أتوفر على تسييح الله وتحميده ، إلا أن اضطُر إلى غير ذلك فأملت أشياء ، وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن هاشم — أحسن الله معونته ، فألزمني بذلك حقوقاً جمّة ، وأيادي يضاء ، لأنه أفتى فيّ زمنه ، ولم يأخذ عمّا صنّع ثمنه ، والله يحسن له الجزاء ، وبكفيه حوادث الزمن والأرزاء » .

وظل في معرة النعمان يملئ كتبه ، ويدرس ، وينظم الشعر ، حتى علا صيته وسار في الآفاق ذكره ، وقصده الطلاب من المشرق والمغرب ، وكان من

(١) التعريف ص ٣٤ .

(٢) إرشاد الأدب — التعريف ص ١٠١ .

تلاميذه جماعة من مشهورى العلماء والأدباء من أمثال أبى زكريا التبريزى ، وابن سنان الخفاجى الحلبى . وأجله أمراء المنطقة وحكامها ، وتقربوا إليه ، وبعث إليه المستنصر الخليفة الفاطمى فى مصر ليقدم إليه المال ليعينه على الحياة ، وعلى نفقاته .

روى ياقوت (١) : أن المستنصر صاحب مصر بذل لأبى العلاء ما يبيت المال بالمعرة من الحلال فلم يقبل منه شيئاً ، وقال :

كأنما غانة لى من غنى فعذ عن معدن أسوان
سرت برغمى عن زمان الصبا يُعجلنى وقتى وأكوانى
صد أبى الطيب لما غدا منصرفاً عن شعب برّان

وأشار إلى بلاد غانة فى أفريقيا لشهرتها بكثرة معدن الذهب بها فى زمانه وكذلك أسوان بوجود معادن الزمرد والذهب ، وكان الفاطميون يستغلون مناجمها فى الحصول على حاجتهم من هذين المعدنين النفيسين فيما شيدوا من قصور ، وتزينوا به من حلى ، وما جمعوا من أموال وكنوز .

وعزف أبو العلاء عما قدّم إليه وعرضه المستنصر لزهده وإعراضه عن مباحج الحياة ، فقد كان الزهد فى الدنيا فلسفة ارتضاها لنفسه حتى إنه حرّم عليها ما أحل الله من متع وزينة ، ومطاعم .

مؤلفات المعرى :

أتاح تفرغ المعرى له الوقت للدرس والتأليف ، فأخرج عديداً من المؤلفات تنوع بين الرسائل ، والكتب الأدبية الجامعة ، وكتب النقد والتراجم الشعرية ، والكتب اللغوية ، والشعر الوجدانى ، وشعر المناسبات ، والشعر الفلسفى .

ويذكر ياقوت فهرست كتبه ، وأولها الفصول والغايات ، وهو من شعر (٢) الزهد . قال : « فمن ذلك الكتاب المعروف بالفصول والغايات ، والمراد بالغايات القوافى ، لأن القافية غاية البيت ، أى متناه . وهو كتاب موضوع

(١) المصدر نفسه ٩٩ .

(٢) الكتاب مجموعة من الخواطر والنظرات ، مسجوعة فيها الزهد والآداب والمواعظ والفلسفة والدين .

على حروف المعجم ما حلا الألف . وفيه فنون كثيرة من هذا النوع .
وقيل إنه بدأ بهذا الكتاب قبل رحلته إلى بغداد . وأتمه بعد عودته إلى المعرة «
وكتاب « السادن »^(١) : وهو في ذكر غريب هذا الكتاب ، وما فيه من
اللغز .

وكتاب « إقليد الغايات » : لطيف مقصور على تفسير اللغز . مقداره عشر
كراريس .

والكتاب المعروف « بالأليك والغصون » . وهو كتاب الهمزة والردف ،
يبنى على إحدى عشرة حالة الهمزة على حال افرادها و اضافتها .
والكتاب المعروف بـ « تضمين الآي » .

وكتاب « سيف الخطبة » : جزآن يشتمل على خطب السنة ، فيه خطب
للجمع والعديد ، والخسوف والكسوف ، والاستسقاء ، وعقد النكاح .
وهي مؤلفة على حرف من حروف المعجم ، فمنها خطب عمادها الهمزة ،
وخطب بنيت على الباء ، وخطب على الدال ... وهكذا .

ومن مؤلفاته : « سجع الحمام » ، يتكلم فيه على لسان حمام أربع . وكان
بعض الرؤساء سألوه أن يصنف له تصنيفاً يذكره فيه ، فأنشأ هذا الكتاب ،
وجعل ما يقوله على لسان الحمامة في العظة والحث على الزهد . قال غيره : هو
أربعة أجزاء ، مقداره ثلاثون كراسة^(٢) .

وديان « لزوم ما لا يلزم » ، وهو في المنظوم . بنى على حروف المعجم ،
يذكر كل حرف سوى الألف بوجوه الأربعة ، وهي الضمة والفتحة
والكسرة ، والوقف . ومعنى لزوم ما لا يلزم أن القافية يُردد فيها حرف لو غيّر
لم يكن مغلاً بالنظم ، كما قال كثير :

خليليّ هذا ربعُ عزةٍ فاعقلا قلو صيكنما ثم انزلا حيثُ حلّت
فلزم اللام قبل التاء ، وذلك لا يلزمه .

(١) التعريف ص ١٠٢

(٢) ياقوت — نقله بالتعريف ، ص ٤ .

ويحتوى على أحد عشر ألف بيت من الشعر^(١) .

وكتاب : « زجر النابح » يتعلق بلزوم مالا يلزم . وذلك « أن بعض الجهال مَهَكُّمٌ على أبيات من « لزوم مالا يلزم » ، يريد بها التَّشْرِيرَ والأذْيَةَ ، فالزُّمُ أبا العلاء أصدقاؤه أن ينشئ هذا فأنشأ هذا الكتاب وهو كاره .

وكتاب : « ملقى السيل » صغير فيه نظم ونثر .

وديان « سقط الزند » قاله في مطلع حياته ، وأبياته ثلاثة آلاف بيت وكتاب يعرف بـ « جامع الأوزان » فيه شعر منظوم على معنى اللُّغزِ يَعُمُّ الأوزان الخمسة عشر التي ذكرها الخليل بجميع ضروبها ، ويذكر قوافي كل ضرب من ذلك^(٢) .

وكتاب يعرف بـ « السجع السلطاني » يشتمل على مخاطبات للجنود والوزراء وغيرهم من الولاة . وكان بعض من خدم السلطان وارتفعت طبقته ، ولا قدم له في الكتابة سأل أن يُنشأ له كتاب مسجوع من أوله إلى آخره ، وهو لا يشعر بما يريد ، لقلة خبرته بالأدب ؛ فألف له هذا الكتاب . وهو أربعة أجزاء .

وكتاب يعرف « بذكرى حبيب » في غريب شعر ألى تمام ، سأل فيه صديق لأبى العلاء من الكتاب . وهو أربعة أجزاء .

وكتاب « عبث ، الوليد » فيما يتصل بشعر البحرى . وكان سبب إنشائه أن بعض الرؤساء أنفذ نسخة ليقابل له بها ، فأثبت ما جرى له من الغلط ، ليعرض ذلك عليه . وهو جزء واحد .

وكتاب يعرف بـ « الرياشى المصطنعى » في شرح مواضع من الحماسة الرياشية عمل لرجل يلقب بمصطنع الدولة ، ويخاطب بالإمرة واسمه كليب بن على ، ويكنى أبا غالب . أنفذ نسخة من الحماسة الرياشية ، وسأله أن يخرج على حواشيها شيئاً لم يذكره أبو رياش مما يحتاج إلى تفسيره ، فخشى أن تضيق

(١) المصدر نفسه ص ١٠٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٦ .

الحواشي عن ذلك ، فألف هذا الكتاب ، وجمع فيه ما سنع مما لم يفسره أبو رياش^(١) .

وكتاب « شرف السيف » عمل للقائد أنوشتكين اللزهرى أمير الجيوش حاكم الشام في عصر الظاهر ابن الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ٤١٩ هـ والمتوفى بحلب سنة ٤٣٣ هـ . وكان السبب في عمله أنه كان يوجه إلى أبي العلاء بالسلام ويخفي المسألة عنه ، فأراد جزاءه على ما فعل^(٢) .

وله مجموعة من الكتب المتعلقة باللغة والنحو هي :

« تعليق الجليس » يتصل بكتاب الجمل للزجاجي ، وكتاب « اسعاف الصديق » متعلق به كذلك

وكتاب « قاضي الحق » على كتاب أبي جعفر النحاس المعروف بـ « الكافي » .

وكتاب « الخير النافع » مختصر في النحو . وكتاب آخر في النحو متعلق به يعرف بـ « الطلّ الطاهري » ألفه لمن يعرف بأبي طاهر الحلبي . وكتاب في النحو يتصل بكتاب الظهير العضدى .

وكتاب في الرسائل الطوال فيها « رسالة الغفران » .

وكتاب « خطب الخيل » يتكلم فيها على ألفتها ، ومقداره عشرة كراريس .

وديان رسائل . وهو ثلاثة أقسام : الأول رسائل طوال تجرى مجرى الكتب المصنفة مثل كتاب « رسالة الملائكة » ، و « كتاب الرسائل السندية » . وكتاب « رسالة الغفران » ، وكتاب « رسالة الغرض » ونحو ذلك .

والثاني رسائل دون هذه في الطول مثل كتاب « رسالة المنيع » وكتاب « رسالة الإغريض » والثالث كتاب « الرسائل القصار كنحو ما يجرى به العادة في المكاتبة قيل إنه أربعون جزءاً »^(٣) .

(١) المصدر نفسه ص ١٠٨ .

(٢) التعريف بأبي العلاء ص ١٠٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ١١١ .

وكتاب « خادِم الرِسا ئِل » فى تفسير ما تضمنته هذه الرِسا ئِل مما يَحتاج إليه المبتدئون فى الأدب .

وكتاب « اللامع العزى » فى تفسير شعر المتنبى عمل للأمير عزيز الدولة وغرسها ابن تاج الأمراء أبى الدوام ثابت بن ثمال بن صالح بن مرداس . من أمراء بنى مرداس أصحاب حلب فى القرن الخامس فى عصره .

وهذا بعض ما اشتهر من كتبه ، وهو قليل من كثير (١) .

وما يهمنى هنا هو أبو العلاء الشاعر ، وما قاله من الشعر . وشاعرية أبى العلاء لأمرء فيها ، فقد اعترف بها العلماء قديماً وحديثاً ، ووجدوا فى شعره شيئاً جديداً لم يكن عند غيره من الشعراء من حيث البناء والصور والأخيلة والأساليب والموسيقى ، واستخدامات الألفاظ ، وفى المضامين ، وما احتواه من المعانى الجديدة الجريئة ، التى قد تبلغ حد الشطط والخروج عن المتعارف والمألوف .

ولم يذهب أبو العلاء بشعره مذاهب غيره من الشعراء ، فلم يجعله وسيلة للكسب ولا أداة للحصول على الماء من أصحاب السلطان والجاه ، فلم يقصد به واحداً من هؤلاء ولم يسترشد خليفة أو أميراً . قال الذهبى (٢) : « لو تكسب بالشعر والمدح لنال دنيا ورئاسة » .

وقال ابن النديم : « ذكر أبو العلاء فى مقدمة « سقط الزند » أنه لم يكن من طلاب الرفد والصلة ولم يمدح إلا اليسير من الناس فى صدر عمره ، قبل انقطاعه عن الناس ، ولم يمدح لعطاء ولا نائل ولم يقبل هدية ولا صلة من شريف ولا وضيع » (٣) .

وذكر أبو العلاء صراحة فى شعره أنه لم يندس نفسه بالاستجداء (٤) ، قال :

أَخَوَانَا بَيْنَ الْفِرَاتِ وَجَلَّقِ يَدَ اللَّهِ لَا خَيْرَ ثَكْمٍ بِمَحَالٍ
أَنْبِئْكُمْ أَنِّي عَلَى الْعَهْدِ سَالِمٌ وَوَجْهِي لِمَا يُبْتَلَى بِسَوَالٍ

(١) راجع بمجل فهرست كتبه فى ترجمة ياقوت له بمعجم الأدباء .

(٢) سقط الزند ١ / ٢١ — وتاريخ ابن النديم ٤ / ١٥٣ .

(٣) راجع أبو العلاء ولزمياته للدكتور كمال اليازجى ص ٢٨ .

وبهذا فقد تخلص شعر أبي العلاء من آفة من آفات الشعر العربي ، وبخاصة في تلك العصور أعنى آفة التكبُّب بالشعر ، لأنها تُدخل على هذا الفن كثيراً من الزيف ، والتدني بالفكر والفن والروح الإنسانية الرفيعة التي كرمها الله لتبدع . ومن هنا خلا شعره من كثير من أصداف القول وبهرجه مما يتعلق بالملق ، وكيال الصفات لغير موصوف بها ، والتعريض بالطلب وبذل ماء الوجه ، والتدني ، وتحقير الذات بذكر الحاجة واستجداء المال لسد الرمي ، والتغلب على عناء الفقر . أو الرغبة والطمع ، والجري وراء زخرف الحياة ، وطلب الاستمتاع بملاذها في كنف من يملكون الدنيا ، غصباً ، أو سعيًا غير محرر من دنيا وأثام ، وسلوك دروب تأبأها الشيم الكريمة وتعف عنها النفوس الأبية .

واستعاض أبو العلاء عن رفق المال برفد العلم ، فاستزاد منه ورحل في سبيل تحصيله ، وقصده بشعره ، وجعله موضوعه الذي يشغل ألبابه وقوافيه على اختلاف أنواعه ودرجاته .

وهكذا كانت رحلاته كما يقول في سبيل المعرفة لا لطلب المال قال : « وأحلف ما سافرتُ أستاذك من النشب ، ولا أتكثّر بقاء الرجال ، ولكن آثرت الإقامة بدار العلم » وذلك في تبرير رحلته إلى بغداد ، وجاء في رسالة بعث بها إلى أهل المعرة إثر عودته إلى بلده من بغداد (١) .

والتأمل في شعره عامة وفي « سقط الزند » و « اللزوميات » خاصة يلاحظ غلبة الموضوعات التقليدية على ديوان « سقط الزند » الذي نظمته في مطلع حياته ، ففيه مدح بعض السادة ، وأعيان القوم وبعض الشيوخ من العلماء ، ومن عقدت بينه وبينهم أواصر ما ، كما نلمح بعض صور حياته ووصف أحواله وتقلباته ، ورثاء بعض أقربائه ومعارفه ، وهو في هذا الديوان يتناول معاني موضوعات الشعر تناولاً تقليدياً أحياناً ، يسترجع كثيراً من صياغات القدماء وتعبيراتهم ، فيوردها أحياناً سافرة ، وأحياناً يلفها بخمار من اللفظ الغريب ، أو يدخل عليها بعض حلي البديع ومحسناته . وأما في اللزوميات فقد اتخذ لنفسه نهجاً آخر حيث نظم قصائده في محبسه وقد اعتكف ، واعتزل

(١) رسائل أبي العلاء ص ٣٤ .

الناس ، وألزم نفسه في الشعر ما ألزم جسده في الحياة من نظام قاسر ، صارم . وقد غلب عليه المفكر المجرد في قضايا الحياة والموت ، والكون والفساد ، والعقائد والديانات . كما ألزم نفسه اجتهادات في الصياغة والتعبير يصعب على القارئ العادى فهم معانيها .

ديوان سقط الزند :

ذكر الرواة والعلماء الذين أرخوا له أنه نظم الشعر حدثاً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره^(١) . « ومهما يكن فقد نظم الشعر في سنّ الحداثة ، ولم ينقطع عن النظم أثناء رحلاته العلمية ولكنه نظم أكثر شعر شبابه في الفترة التي قضاها في المعرفة بين رحلتيه الشامية والعراقية . وهو جلّ ما في (سقط الزند) »^(٢) .

وعده كثير من العلماء والنقاد بارعاً في الشعر . وتتجلى براعته في هذا الديوان فيما تمثله من الشعر القديم ، والمعارف اللغوية ، والتاريخية والدينية ، وحفظه للقرآن الكريم ، وتوظيف هذا كله في فنه الشعري من حيث بناء القصيدة ، وصياغة المعاني ، وبناء عباراته ، وتشكيله للفظ في مقدرة قد تبدو للقارئ إغراباً وخروجاً على نهج الشعراء السابقين .

بناء القصيدة :

وينبئ أبو العلاء قصيدته الشعرية في « سقط الزند » البناء التقليدي في شكله العام أى يبدأ القصيدة بالغزل ، لكن هذا الغزل ليس كغزل الجاهليين ، ولا الإسلاميين ولا حتى المحدثين أصحاب البديع ، أو أصحاب طريقة العرب . بل يبدو في غزله صاحب اتجاه جديد في معانيه وأبنيته ، وإن لم يخرج عن الإطار العام ، أو عمود المعاني في الغزل . ونضرب مثلاً بقصيدته الثانية في الديوان . يقول :

يا ساهِرَ البرقِ أيقظ راقِدَ السَّهْرِ لعلَّ بالجزعِ أعوانا على السَّهْرِ
وإنْ بَخَلتْ عن الأحياء كلهم فاستقِ المَواطِرَ حياً من بَنى مَطَرِ

(١) راجع التعريف فيما جاء من ترجمته عن ياقوت ٣/ ١٠٨ ، والنهبي ١٣٠ ، وابن خلكان ٤٧/ ١ .

(٢) راجع كتاب « أبو العلاء ولزمياته » للدكتور كمال اليازجي ، ص ٥٦ ، طبع دار الجيل ببيروت .

ويا أسيرة حجلها أرى سَفَهَا
 ما سرتُ إلا وطيف منك يصحيني
 لو حطَّ رحلي فوق النجم رافِعُهُ
 يودُّ أن ظلامَ الليل دام له
 لو اختصرتم من الإحسان زرتكم
 أبعد حول تناجي الشوق ناجية
 كم باتَ حولك من ريم وجازية
 فما وهبت الذي يعرفن من خلقي
 وما تركت بذات الضال عاطلة
 قلدت كل مهابة عقد غانية
 ورب ساحب شيء من جازرها
 حسنت نظم كلام توصفين به
 فالحسن يظهر في شئين رونقه

حمل الحلي لمن أعيا عن النظر
 سرى أمانى وثأوريا على أثري
 ألفت ثم خيالا منك منتظري
 وزيد فيه سواد القلب والبصر
 والعذب يهجر للإفراط في الحصر
 حملا وتحن على عشر من العشر
 يستجديانك حسن الدل والحور
 لكن سمحت بما ينكرن من دُر
 من الطباء ولا عار من البقر
 وفزت بالشكر في الآرام والعفر
 وكان يرقل في ثوب من التبر
 ومنزلا بك معمورا من الحفر
 بيت من الشعر أو بيت من الشعر

وهذا المطلع الغزلي كما نرى مصنوع صنعة عقلية ؛ استن فيه أبو العلاء سنة
 بعض من سبقوه من الشعراء ، واستخدم أساليبهم الفنية ، وأضاف إليها ميلا
 ذاتيا إلى قدر من رياضة العقل في التعبير عن المعنى بترويض اللغة أو محاولة
 إخضاع اللغة لهذا اللون من اللغز التعبيري إذا صح التعبير .

وبمراجعة معاني أبي العلاء في هذه الأبيات نجد أنه لا يخرج تقريبا عن معاني
 الغزل التقليدية ، أو المعروفة المتداولة بين الشعراء منذ القدم . فالحديث عن
 سهر الليل ، والشوق والتفكير في المحبوبة ، والدعاء للأيام الجميلة الماضية التي
 قضياها في مكان المنزل ، الدعاء لها بالخير والسقيا ، والتذكر للحبيبة على
 البعد ، ومصاحبة طيفها للمحب الشاعر. أينما ذهب ، وتمنيه أن يطول الليل
 حتى تطول ملازمة الطيف ، ولا يفارقه بطلوع النهار ويقظته . وتذكر هذا
 كله بعد مرور حول من الزمان .

ووصف المحبوبة بالريم ، والبقرة الوحشية في الدل ، وجمال العيون .
 ولكن هذه المعاني القديمة الجارية في الغزل ، ظهرت في صياغة أبي العلاء ،
 وكأنها معاني جديدة لما أدخل عليها من ضروب اللغز في التعبير ، والتعقيد الذي

يجرى فيه على طريقة أئى تمام من الإيغال فى الاستعارة ، وتداخل التراكيب
بحيث تتعاضل المعانى . فأى معاطلة أكثر من قوله فى هذا المطلع :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر لعلّ بالجزع أعوانا على السهر
وإن بخلت عن الأحياء كلهم فاسق المواطر حياً من بنى مطر

فهو يريد أن يقرن بين السهر والدعاء بالسقى ، أى بين معاناة الحب
بالسهر من فرط التفكير والشوق ، والدعاء لأهل المحبوب وحيه بالخير . ساق
هذين المعنيين أو سلكتهما معاً مسلكاً متراكباً ، أو متراكماً ، أو متولداً بعضه
من بعض .

واستخدم « الجزع » وهو اسم لمكان يكثر فى شعر الجاهلين ومن تبعهم ،
وبنى مطر إسم حى ، وهو اسم رمزى ، وليس اسماً حقيقياً ، فاستخدم اسم
المكان ، واسم الحى رمزى على ما تعارف عليه الأقدمون ، أو هو استخدم
هذين اللفظين ليشير معنى ما أراده القدماء ، ولم يأت هو بمجديد ، فهو مجتزئ
مختزنة من الشعر فى هذا التعبير ، ويخرجه فى صورة من هذه الصياغة أو
المعرض العلائى .

والأشدُّ معاطلة هذا البيت الثالث الذى يريد ببساطة أن يعبر عن معنى
جمال حجلها فى ساقها فجاء بهذه الصياغة :

ويا أسيرة حجلها أرى سفها حمل الحلى لمن أعيا عن النظر

وقد اعتاد الشعراء وصف ساق المرأة بالامتلاء ، حتى يضيق عنها الحجل
فعبّر عن ذلك بأن ساق الحبيبة أسرتا حجلها ، ورمى من لا يقدر جمال الحجل
فى الساق بأنه عيب النظر لا يقدر الجمال ، فيصبح من قبيل الشفه التجميل
بالحجل لمن لا يقدر قيمة جماله بالنظر .

أرأيت كيف شق أبو العلاء على نفسه ، وشق بالضرورة على الناس ؟ فى
تذوق شعره فضلاً عن فهمه .

ومن لوازمه فى هذا المطلع ما يغلب عليه من المبالغة ، والشطط فى الخيال فى
قوله :

لو حطّ رحلى فوق النجم رافعه ألفتُ ثم خيالاً منك متظري

وهي مبالغة لا تجدى في إضافة لمحة من الجمال ، بل قد تزدري بالمعنى ولا
تجمله .

وكذلك قوله :

يودُّ أن ظلام الليل دام له وزيد فيه سوادُ القلب والبصر
وأين هذا من قول بشار الذى أحسب أنه أراد الاستعانة به ، وتقليده ولكنه
جاء تقليداً نائياً ، ومجازة غير مقبولة ولا مستباعدة ، فسواد القلب ، ليس مما
يزيد الليل طولاً ، وهو نقطة سوداء أو حبة سوداء فيما يعتقد القدماء ، ولا
وجود لها في حقيقة الأمر ، وسواد البصر إنسان العين . يقول بشار :
وودَّ الليلَ زِيدَ إليه ليلٌ ولم يُخلق له أيداً نهارٌ
جفت عَينى عن التغميض حتى كان جفونها عنها قصار
وأراد أبو العلاء أن يُغرب فوقه في المحال ، أو في اللغز المعصي . وأين من
هذا بيان بشار ، وجمال تعبيره ووضوحه .

وهكذا يمضى أبو العلاء في سائر القصيدة مُعمِّياً في لفظه وصوره باعثاً قارئه
إلى الحيرة فيمن يتغزل بها ، يومه أول الأمر بأنه يتغزل في موجود شاخص ،
فإذا به يكتشف أن أبا العلاء غرَّر به ، يدينه من هذا الوهم الذى لفه فيه . من
بداية القصيدة ، ويبعده عنه كلما مضى مسترسلاً في قراءة أبياتها .

فإذا هذه التى يتغزل بها قريحته ، أو موهبته الشعرية التى تجسد له الجمال في
بيت من الشعر ، يدينه منك بيتٌ من الشعر .

بعد هذه المقدمة التى وضعها على الطريقة التقليدية ، إلا أنه صاغها
بطريقته ، وسواء أكانت غزلاً أو نسيباً ، أو شيئاً آخر عمّا عنا ، فإنه ينتقل
منه إلى المدح العادى في معانيه لكنه علائى الصياغة . حتى في هذه المرحلة
المتقدمة من شعره في سقط الزند .

فقصائد سقط الزند ، وإن كانت سابقة على قصائده اللزوميات إلا أنها
حوّت كلَّ خصائص شعر أبى العلاء ؛ صنعته الشعرية ، وأفكاره ، وعقائده
وسلوكياته ، ومواقفه من الناس والحياة والكون والخلق .

حتى يصل إلى من رثى فيقول :

قَصَدَ الدَّهْرُ مِنْ أُنَى حَمَزَةِ الْأَوَّلِ بِ مَوْلَى حَجْبِي وَخَذَنَ اقْتِصَادِ
وَفَقِيهًا أَفْكَارُهُ شِدْنَ لِلتُّعْمَا ن مَا لَمْ يَشِدَّهُ شِعْرُ زِيَادِ
فَالْعِرَاقِيُّ بَعْدَهُ لِلحِجَازِيِّ قَلِيلٌ لُ الْخِلَافِ سَهْلُ الْقِيَادِ
وَخَطِيبًا لَوْ قَامَ لَبْنٌ وَحَوْشٌ عَلَّمَ الضَّارِيَاتِ بَرُّ النَّقَادِ (١)
رَاوِيًا لِلْحَدِيثِ لَمْ يَخُوجِ الْعَصْرُ رُوفٌ مِنْ صِدْقِهِ إِلَى الْإِسْنَادِ

لقد جعل المعري من مناسبة رثاء الفقيه الحنفى موقفاً يبوح فيه بما يحمله في نفسه من أحاسيس تجاه العالم المحسوس والغيبى ، أو عالم الشهادة وعالم الغيب ، وأعمل فكره في الحياة والموت ، واتخذ من عناصر الوجود الحى رمز الحماة التى تبكى الهديل ، وهى تتزنى للحياة ، فالحياة والموت يتعاقبان في المخلوقات ، يستقبل الخلق الجديد — الولادة — بالمسرة والفرحة ، ويودع الموت باللوعة والحسرة ، وساعة الفراق أشد وأكثر لذعاً في النفس لأن الوليد مقبل جديد لم تمكن له العشرة والمعايشة والتآلف في النفوس وموت العزيز من الأحياء بعد إلف ومعايشة السنين حقيق بأن تجزع النفس له وتحسُّ بالفقد .

لقد كرس المعري سقط الزند لموضوعاتٍ جارية في الشعر العربى إلا أنه عاجلها من منظوره هو ، ورؤيته هو ، فبدت فيها ملامح العلائقية واضحة في اللفظ والتراكيب والصور ، قد يلجأ إلى المعانى التقليدية أو يستعيد معانى شعر القدماء ، ومحفوظة منه كثير وفير ولكنه ينجح إلى الشعراء أصحاب المعانى ، يستعيد معانيهم وصنعتهم ويضيف إليها من معرفته وثقافته وفكره .

ومن هنا قد تلتقى في قراءتك لذهر سقط الزند بمعانٍ لأبى تمام والمنبى وهما الأيتريين لديه ، لكن هذه المعانى تبدو أطيافاً ، بعد أن أعاد المعري صياغتها بطريقته .

واستمد المعري الرمز والتشابه في اللفظ في إلغازه العقدي على ما سنبينه بعد .

(١) النقاد ضعاف الغنم .

حفل عصر أئى العلاء بقدر من الصراع السياسى والعسكرى جنباً إلى جنب مع الصراع الفكرى والدينى بين العرب المسلمين ، وبين العرب والعرب ، وبين المسلمين العرب والمسلمين الترك والروم وبين الفاطميين والعباسيين ، وبين المسلمين والروم .

وكانت الشام مسرحاً لمعظم هذه الصراعات .

وأدى هذا الصراع المتلاحم بين الديانات الإسلام والمسيحية ، بين المسلمين والروم والذى استعرت حذته فى عصره أدى به التساؤل عما فى هذا الصراع من دوافع ، ولم يقتل الانسان أخاه لعقيدته ، والأدبان إنما كانت لتأخى أبناء البشر والتراحم بينهم . فيقف هذا الموقف المتعادل بين الديانات الثلاث . هذا الموقف الذى بدا فى آراء مفكرى العصر واتجاهاتهم ، واتجاه بعضهم إلى التوحيد بينها كما رأينا عند رجال الصوفية ومفكرهم ، وإلى التسامح الفكرى والدينى عند الفاطميين وتعرف أن هذا التسامح بين الديانات الثلاث : الإسلام والمسيحية واليهودية كان إتجاهاً واضحاً فى سياسة الفاطميين . يقول أبو العلاء :

يا آل إسرائيل هل يُرجى مسيحكم
قلنا: أتاناً، ولم يُصلَّب. وقولكم
هيهات قد ميَّز الأشياء من خُلْبنا
ما جاءَ بعد . وقالت أمة صُلْبنا

فيعرض لشخص المسيح بين الديانات الثلاث ، وينتظر إلى ما سواها من القصائد وينظر فى أمر الخلاف بينهما نظر العقل ، فلا يفرق بينها ، ويراها عقائد متوارثة وشرائع فرضت على الأجيال عن الآباء والأجداد . يقول :

العقل يعجبُ والشرائعُ كلُّها
مُتمجِّسونَ ومُسلمونَ ، ومعشِرُ
خَيْرٌ يُقَلَّدُ ، لم يقسَهُ قياسُ
متنصِّرونَ ، وهائلِدونَ رَسائِسُ
ومساجِدُ معمُورةٌ وكنائِسُ
وييوتُ نيرانُ تَزَارُ تَعْبُداً
والصَّابِثونَ يعظُمونَ كواكباً
وطباغُ كلِّ فى الشُّرورِ حبايسُ

ويقول مرة أخرى :

دينٌ . وكفرٌ ، وأنباءٌ تُقصُّ وفُرُ
فى كلِّ جيلٍ أباطيلُ يُدانُ بها
قانٌ يُنصُّ ، وتُوراَةٌ ، وإنجيلُ
فهلُ تفرَّدَ يوماً بالهُدى جيلُ

وَيَرى بالتعطيل ، ويرى في الفروض الإسلامية مما ينفع الناس أولى بالاهتمام كالزكاة والعمل الصالح والسلوك الخير لا في العبادات كالصوم والصلاة :
 ما الخَيْرُ صَوْمٌ يَذُوبُ الصَّائِمُونَ بِهِ ولا صلاةً ، ولا صَوْفَ عَلَى الْجَسَدِ
 وإنما هو ترك الشرِّ مطرَحاً ونفَضْتُ الصَّدْرَ مِنْ غُلٍّ وَمِنْ حَسَدِ
 فالشر هو الذي ينبغي أن يقاوم ، ويقاوم بالدعوة إلى تخليص النفوس من
 الحقد والحسد والدعوة إلى التآخي والمحبة .

ومن هنا ما لم تنه العبادات عن الشرِّ ، ولم تدع إلى الخير فلا جدوى منها :
 ويقف موقفاً معتدلاً من عقائد الفرق الإسلامية ، فلا يرى رأى غلاة
 الشيعة ويستنكر الخلاف بينهم وبين السنة المعتدلين ، ويأسف لانقسام العلويين
 وظهور الخوارج ، ويحمل على مذهبهم الذي يتخذ العنف طريقاً إلى تحقيق
 عقيدتهم ، ويعرض لشطحات الصوفية ، وممارساتهم فيسخر من حلقات
 الذكر التي يعتقدونها منشدين راقصين . ولا يرى مبرراً للخلاف بين مذاهب
 السنة الأربعة التي بلغ العداء بين أتباعها مبلغاً يثير التساؤل والاستنكار .
 يقول :

أَجَارَ الشَّافِعِيُّ فَقَالَ شَيْئاً وقال أبو حنيفة لا يجوزُ
 فَضَلَ الشَّيْبُ وَالشَّبَابُ مِنَّا وما اهدت الفتاة ولا العجوزُ
 وعنده أن رجال الدين هم أصل الخلاف وهم مُشعلوه ومؤججوه ،
 فيحمل عليهم متهماً إياهم بالكذب والمراعاة ، وأنهم يصطنعون القراءة والوعظ
 احتيالاً على الرزق ، ومن هنا بدعو الناس إلى عدم الركون إليهم ولا الثقة
 بهم .

ويتناول بعض ما تحفل به عقول الناس من أساطير وخرافات أسسها أقوال
 أنصاف العلماء في كتبهم عن جهل أو غفلة . ويحذر من الإسراف في الغيبيات
 التي لا يملكون لها تحقيقاً . كأن يقول :

فَانْخَشِ الْمَلِيكَ ، وَلَا تَوْجِدْ عَلَى رَهَبٍ إِنَّ أَثَرَ الْجِنِّ فِي الظُّلُمَاءِ خُشْيَتَا
 فَإِنَّمَا تِلْكَ أَخْبَارُ مُلَفَّقَةٍ لخدعة الغافل الحشوي حوشيتا

في كل من الحروف بالحركات الثلاث والسكون ، ولزوم بعض الحركات والحروف مع الروى .

ونظمه بعد عودته من بغداد أى بعد سنة ٤٠٠ هـ .

وأشار في المقدمة إلى الغايات التى استهدفها في الديوان قائلاً :

« وبعضها تذكير للناسكين ، وتنبيه للغافلين ، وتحذير من الدنيا » .

ويلمح إلى هذه الغايات حيث يبرر عودته إلى النظم بعد إعراضه عنه بقوله : « لكثرة ما شاع في المجتمع من الكذب والسخف » .

وعليه فيكون قصده التحذير من شر الدنيا والحث على فعل الخير ، التماساً لثواب الآخرة^(١) .

هذا من حيث المضمون ، ومن حيث الشكل فقد نعى على شعراء العصر مناهجهم وما أرتادوه من المعانى . قال في المقدمة : « وقد وجدنا الشعراء توصلوا إلى تحسين المنطق بالكذب ، وهو من القبائح ، وزينوا ما نظموه بالغزل وصفة النساء ، ونعوت الخيل والإبل وأوصاف الخمرة ، ونسبوه إلى الجزالة بذكر الحروب ، واحتلبوا أخلاف الفكر ، وهم أهل مقام وخفض في معنى ما ، يدعون أنهم يعانون من حث الركائب ، وقطع المفاوز ، ومراسي الشقاء » .

فهذه التقاليد الشعرية التى اعتنتها معاصروه صارت في رأيه أموراً لا ينبغي الأخذ بها ، والشعر أسمى من ذلك مكانة ، فقد اتخذ لنفسه نهجاً يخالف مناهجهم وبخاصة في هذه المرحلة المتأخرة من حياته بعد بلوغه سن الأربعين وتجاوزها .

كان المعرى في الشباب وحتى الكهولة قبل عودته من بغداد إلى بلده يجرى على طريقة شعراء العصر بالقصد إلى المديح ، واتخاذ ما يتخذونه وسائق لارضاء الممدوح واحتلاب أخلافه — كما يقول — ليجود بأكثر ما يستطيع بعد هذا الإساس من كسب وده ، والتقرب إليه بالغزل ، وكيل صفات المدح نفاقاً ،

(١) راجع أبو العلاء ولزومياته للدكتور كمال اليازجى ، ص ٨٨ .

وذكر ما يلقاه في الوصول إليه من مشاق . وقد يعرض بالسؤال أحياناً يقول كمال اليازجي^(١) :

« وقد جرى المعري هذا المجرى في شعر شبابه إلا أنه تحوّل عنه في عهد نضجه والذي حمّله على أن يعود إلى النظم اعتقاده أنه يستطيع أن يحرر شعره من التقليد المبتذل ، وينزّهه من الرذل الساقط ، ويظهره من الكذب الممقوت ، ولذلك جعل منه هدفاً أسمى ، جعله عظة للسامع ، وتنبيه للغافل ، وتحذيراً من الدنيا كي يهتدى به الضالون ويسترشد به المترددون » .

فهل كان شعره في اللزوميات مجرد موعظة فيها تنبيه للغافل ، وتحذيراً من الدنيا ... إلخ كما جاء في قول الدكتور اليازجي ؟

الحق أن خطاب المعري الشعري في اللزوميات لم يكن مجرد موعظة ، بل كان إفضاءً بموقف اتخذه المعري من الحياة والناس بعد عودته من بغداد مركز الفكر والأدب والتوجه الحضاري والسياسي .

وعلى اختلاف الرأي في أسباب عودته من بغداد إلى المعرفة بعد أن لقي فيها ما لقي من مواجهة مع بعض رجالاتها وعلمائها ، وما شهدته فيها من أمور لم تقع في نفسه موقفاً مريحاً . يقول في رسالته إلى أهل المعرفة عن أسباب العودة : « وهو أمر سرى عليه بليل ... ليس بنتيج الساعة ، ولا ريب الشهر والسنة ولكنه غدئ الحقب المتقدمة ، وسليل الفكر الطويل » .

يقول في الرسالة المذكورة :

« ... أما الآن فهذه مُناجاتي إياهم منصرفي عن العراق مجتمع أهل الجدل ، وموطن بقية السلف ، بعد أن قضيت الحداثة فأنقضت ، وودعت الشبيبة فمضت ، وحلبت الدهر أشطره ، وجربت خيره وشره ، فوجدت أوفق ما أصنعه في أيام الحياة عزلة تجعلني من الناس كبارح الأروى من سائح النعام ، وما آلت نصيحة لنفسي ولا قصرت في اجتذاب المنفعة إلى حيزي ، فأجمعت على ذلك ، واستخرت الله فيه بعد جلّائه على نفر يوثق بخصائلهم ، فكلهم رآه حزماً . وعدّه إذا تم رشداً . وهو أمر سرى عليه بليل ... وأحلف ما

(١) أبو العلاء ولزومياته .

سافرتُ أَسْتَكْثَرُ من النشِب ، ولا أَتَكْثَرُ بِلِقَاء الرجال ، ولكنْ آثَرْتُ الإِقَامَةَ بدار العلم ، فشاهدْتُ أنْفُسَ مَكَانٍ لم يسعِفَ الزمانُ بِإِقَامَتِي فيه ، والجَاهِلُ مغالبُ القدر ، فلهيتُ عما استأثَّرَ به الزمان ... » حتى يقول : « ويَحْسُنُ اللهُ جَزَاءَ البَغْدَادِيِّينَ ، فَلَقَدْ وَصَفُونِي بِمَا لَا أَسْتَحِقُّ ، وشَهِدُوا لِي بِالْفَضِيلَةِ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ ، وعَرَضُوا عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ عَرَضَ الْجَدِّ ، فصَارَفُونِي غَيْرَ جَذَلٍ بِالصَّفَاتِ وَلَا هَشٍّ إِلَى مَعْرِوْفِ الْأَقْوَامِ ، وَرَحَلْتُ وَهُمْ لِرَحِيلِي كَارْهُونَ ... » .

وتعلق الدكتور بنت الشاطيء على الرسالة قائلة^(١) :

« والرسالةُ صريحةٌ » في الكشف عن مطاردة من نفسه لا من فقهاء بغداد أو غيرهم — طال عناؤه بها ، وتفكيره فيها حتى انسحب والقوم لرحيله كارهون » .

هذه الهموم النفسية هي التي أشرنا إليها من ممارسته عن قرب لصور الحياة ، وأحوال الناس في عاصمة الدولة ، ومركز الخلافة ، ولا شك أنه رأى على مستوى القيادتين السياسية والدينية ما لا يرضى عنه ، كما رأى من أحوال الناس واختلاط المفاهيم بينهم ما رأى ، وتملك الجهالة والشُّبُه لكثير من عقول العلماء مما لم يرض عنه ، كذلك رأى أحوال الناس وانصرافهم إلى متع الحياة والتمسك بالدنيا دون القيم الرفيعة التي أرساها الإسلام وجاءت بها رسالة محمد بن عبد الله . يقول مخاطباً أهل بغداد :

وكان اختياري أن أموت لديكم	حميداً ، فما أَلْفَيْتُ ذلك في الوسع
فليت جِمامي حُمَّ لي في بلادكم	وجالَتْ رِمَامِي في رِياحِكم المُسْنَعِ
أَفْدُونَكُمْ خَفْضَ الحَيَاةِ فَإِنَّا	نصَبْنَا المِطَايَا بِالْفَلَاةِ عَلَى القُطْعِ

ألا نجد في هذا القول ترديداً لقول المتنبي في رفض الحياة الحضرية التي رأى فيها المتنبي خروجاً على التقاليد والقيم العربية التي أرساها الإسلام وثبتها ، ودعوة إلى العودة للبدواة .

وهكذا ما أن استقر المعري في حلب حتى بدأ يسترجع ما لم يرض عنه مما

(١) أبو العلاء المعري من سلسلة الأعلام ، طبع الطبعة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٥ * ص ١٢٥ .

سمع إولامسَ في تلك المرحلة البغدادية خاصة ، والتي أوقعت في يقينه أن عصره شر العصور . يقول :

هل يغسل الناسَ عن وجه الثَّرى مطرٌ فما بقوا لم يُبارحْ وجهه دَنَسُ
والأرضُ ليسَ بمرجٍ طهارتها إلا إذا زالَ عن آفاقها الأَنَسُ
تناسلوا فمنا سرٌّ بنسَلِهِم وكم فجورٍ إذا شبَّاهم عَسُوا

ومن هنا وقف أبو العلاء من الحياة والناس والدين والفكر موقف الشك والحيرة أهو شكٌ فلسفى ؟ ، أهو شكٌ وجودى ؟ ، أهو شكٌ عَبتى ؟ ، أم هو مجرد احتجاج وغضب لما رآه ولمسه من فسادٍ واختلاط ، أدى به إلى اليأس فى الإصلاح والنظرة المتشائمة للحياة والناس .

ورأى الدكتور طه حسين لتعاطفه مع أبى العلاء ولحاولته الدفاع عنه من وجهة نظره هو وقناعاته هو أن شكَّ أبى العلاء كان شكًا إيجابيًا . يقول (١) :

« إن أبى العلاء يصوّر فى شعره شكًا مَهْمًا يعنفُ فهو لا ينتهى بصاحبه إلى هذا التمرد الوقح الذى نجده عند كثير من الذين أسرفوا فى الثقة بعقولهم ، وإنما ينتهى به إلى الخوف والإشفاق ، والغلو فى الحذر ، والاحتياط للنفس ، والاجتهاد فى الخير » .

ولعل طه حسين كان يستحضر صور بعض المتمردين من الشعراء والعلماء ممن دعاهم بأصحاب التمرد الوقح ، وربما كان بين هؤلاء بشار بن برد وأبو نواس وابن الراوندى ونعرف موقفه من بشار ، وأنه كان موقف غير الراضى .

ونلتقى فى ديوان اللزوميات بهذه الرؤية الشاملة التى آرتها أبو الطيب فى عصره قبل عصر أبى العلاء بقرن من الزمان إذ يقول :

أتى الزمانَ بنوه فى شببته فسرَّهم وأتيناؤه على الهرم
ويقول :

أنا فى أمة تداركها الله كصالح فى ثمود

(١) مع أبى العلاء ص ١٨١ .

شعر اللزوميات :

وديوان اللزوميات يلي ديوان سقط الزند ، وهو في مرحلة اعتزاله ، ونضجه يث فيه في هدوء فلسفته ويعرض موقفه من عصره ومجتمعه . لقد أقام في محبسه بالمعرة سنوات ، يعتزل الناس والناس لا يعتزلونه ، التقى به نفر من علماء القرن الخامس في نصفه الأول ، وجمعت الصداقة بينه وبين جماعة من الأعلام في السياسة والعلم والأدب ، أمثال الوزير المغربي أبي القاسم الحسين بن علي ووالده ، وشمس الدين الشيرازي داعي الدعاة ، وابن سنان الخفاجي تلميذه والشاعر الشامي المشهور ، ولقى الشاعر المعروف الدمشقي ابن حيوس وناظره في محسن الصوري والمتنبي ، وكان ابن حيوس يعرف كلف المعري بالمتنبي .

ومر به جماعة من العراق كالشاعر صريع الدلاء .

وراسل المصريين ، واتصل بجماعة من رجال الفاطميين ، فقد كان قريباً منهم ، ودعى إلى مصر ، ولم تمكنه الرغبة في العزلة من الرحلة إلى مصر . ولا نستطيع أن نغفل علاقة المعري بالفاطميين على الرغم من عدم لقائه بهم ، ولكنه التقى برجالهم . وظهرت آثار الإسماعيلية واضحة في كثير من شعره وكتابات . لربما لم يصرح تماماً بفكره الإسماعيلي ، لأنه لم يعتقد فكراً معيناً ، إلا أنه كان يميل إليه ويتعاطف معه وأعجب لعبارة الدكتور طه حسين التي تقول :

« ولم يكن أبو العلاء يحب الفاطميين ، ولا يرضى عنهم ، بل لم يكن أبو العلاء يحب الشيعة عامة ، ولا من يتصل بهم من قريب أو بعيد ، فهو يعرض بالفاطميين ويهاجم الإسماعيلية والإمامية » .

ولا يأتي لنا بنص صريح في هذا التعريض أو الهجوم .

ولكننا نثبت لأبي العلاء قربه الفكري من الفاطميين وفكرهم الإسماعيلي ، والفكر الشيعي عامة بما روى عن حديث عن لقائه لأبي يوسف القزويني .

فقد حكى أنه قال يوماً لأبي يوسف : ما رأيت شعراً من مرثية الحسين بن علي يساوي أن يخط ، فقال القزويني : بلى فقد قال بعض أهل سوادنا :

رَأْسُ ابْنِ بَنْتِ مُحَمَّدٍ وَوَضِيئِهِ
وَالْمُسْلِمُونَ يَنْظُرُونَ وَيَسْمَعُونَ
لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى فَنَاءِ يُرْفَعُ
لَا جَارِعَ مِنْهُمْ وَلَا مُتَفَجِّعُ
إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْآيَاتِ .

فقيم يكون سؤال المعري واستنكاره ؟ لو أنه لم يكن من شيعة الحسين ابن
على ، أو من يحبونه ويجلونه ويرفعونه إلى مقام رفيع لا يرى أحداً من الشعراء
أقرب من الفجيعة عليه بما ينبغي من القول .

ولقد اهتدى أبو العلاء بالعقل في نظره إلى الحياة والناس ، وإلى العقائد
والتقاليد والعادات ، وبدأت في أشعاره روح صوفية ، وإن لم يتصوف عملاً
وهو يعارض أهل الظاهر ، ومن يعتمدون النقل ، ويقدمونه على العقل .
يقول :

لَقَدْ صَدَّئْتُ أَفْهَامَ قَوْمٍ فَهَلْ لَهَا
وَكَمْ غَرَّتْ الدُّنْيَا نَبِيَّهَا وَسَاءَ نِي
صَقَالٌ ، وَيَحْتَاجُ الْحَسَامُ إِلَى صَقْلٍ
مِنَ النَّاسِ خَيْفٌ فِي الْأَحَادِيثِ وَالنَّقْلِ
وَأَرْحَلُ عَنْهَا ، مَا إِمَامِي سِوَى الْعَقْلِ
سَاتَّبَعُ مَنْ يَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ جَاهِدًا
وَلَقَدْ تَمَرَّدَ عَلَى عَقَائِدِ عَصْرِهِ ، وَقَالَ فِي لَحْظَةٍ مِنْ لَحْظَاتِ تَمَرُّدِهِ مَخَاطِبًا لِنَاسٍ
عَصْرِهِ :

تُحِلِّقْتُ مَرِيضَ الْعَقْلِ وَالِدِينَ فَالْقَنَى
لَتَسْمَعَ أَنْبَاءَ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ
وربما كان من شبه حبه لكل ما هو مفكر علوى النهج شيعي المذهب ميله
الشديد إلى تقديم كل من ألى تمام والمنتبي ، ونعلم ما قيل من ارتباطهما بالشيعة
أو القرامطة بالنسبة إلى المنتبي ، بل ولعله بالفكر الإسماعيلي أيضاً على ما يرى
بعض الباحثين .

وعلى أية حال فالمعري عاش في ظل الدولة الفاطمية ، والفكر الشيعي عامة
والإسماعيلي خاصة توج به آفاق البلاد في مصر والشام ، ومن لم يكن شيعياً
بالانتماء فقد تكلم بكلام الشيعة والفاطمية ، أو انتحل رموزهم ومعانيهم بحجارة
ومحابة .

ويقع ديوان اللزوميات في نحو ثمانمائة صفحة ، وسماه لزوم ما لا يلزم لأنه
الترم فيه ثلاثة أشياء : بناء القصائد على جميع حروف المعجم ، وإيراد الروى

كما يقول عن الملائكة والشياطين :

قد عشتُ عمراً طويلاً ما عَلِمْتُ به
جساً بحسٍّ لَجَنِي ولا مَلَكٍ
ومنه ما زعموا من أساطير اعتقد فيها العرب ورويت عنهم وعن كهانهم
مثل شق وسطيح :

وجدتُ الغيبَ تجهله البرايا فما شقُّ هديت ولا سطيحُ
والوعاظ الذين يفرغون فأذان الناس فيضاً من هذه الأشياء مسرفون
مغررون بالناس. يقول مخاطباً المواطن المعاصر :

رُؤْيُكَ قد غُرِّتَ ، وأنتَ حُرٌّ بصاحبِ حيلةٍ يعظُ النَّساءَ
يُحرِّمُ فيكم الصَّهْبَاءَ صُبْحاً ويشربُها على عميدِ مساءٍ
يقول لكم غدوتُ بلا كِسَاءٍ وفي لذاتها رهنَ الكِسَاءِ
إذا فعل الفتى ما عنه يَنْهَى فمن جهتين لا جهةٍ أساءَ

ونقف مع طه حسين وقفة لنستطلع رأيه في هذا الموقف من أبنى العللاء حيال
قضايا الدين ورجاله . يقول (١) :

« ... ولكن أبا العللاء معذورٌ بعضُ العذر فيما تورط فيه ، ودفع
إليه من ألوان الجدل في الدين والفلسفة ، فهو إذا مضطر إلى أن يُثبت ويتفق ،
وإلى أن يُعرِّف وينكّر ، وإلى أن يقبل ويرفض . وليس هو الذي ابتكر هذه
المشكلات التي عرضت له أو عرض لها ، وإنما أقبل إلى الحياة ، وبلغ الشباب
فوجد هذه المشكلات قد وضعت موضع البحث منذ أقدم العصور ، وكثر
فيها الاختلاف ، واشتد فيها الأحاد والرّد ... ونشأ عن ذلك شرٌّ عظيم في حياة
الناس ، وفسادٌ منكر في أمورهم ، فلم يكن له بدٌّ من أن يستعرض ما
استعرض الناس من قبله ، ويستقبل ما استقبلوا . ويقول فيه مثل ما قالوا ، أو
غير ما قالوا . وقد فعل ، وانتهى به هذا كله إلى هذه الحيرة المؤلمة المهلكة » .

ويعرض طه حسين لوجوه التشابه في أفكار أبنى العللاء التي بثها في
اللزوميات وتلك التي ترددت في كتابه المتهم به في تقليد القرآن وهو
« الفصول والغايات » (٢) .

(١) مع أبنى العللاء ص ١٨٠ .

(٢) مع أبنى العللاء ص ٢٠٧ ، و ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

ويقول عن إيمان أنى العلاء إنه كان يؤمن بالله فى كليهما فى الفصول
واللزميات ويؤمن بحكمته ، وانقطاع الصلة بين الله والناس إلا عن طريق
العقل .

وإذا فهو غير مطمئن إلى النبوات ، وهو محتاط فى إعلان شكه بالنبوات
وهو ينكر فى اللزميات من أمر الحج كما أنكره فى الفصول والغايات ، ويثبت
وجوب الطاعة والتقوى وإقامة الصلاة والبر بالفقراء ، ورياضة النفس وأخذها
بما تكره من الشدائد .

ومن قضايا اللزميات الفوضى السياسية وطغيان الحكام فى العراق والشام :
يقول :

إنَّ العراقَ وإنَّ الشامَ من زَمَنِ صِفْرانِ ما بهما للملِكِ سُلطانُ
سائِ الأَنامِ شياطينُ مُسلَّطَةٌ فى كلِّ مَصرٍ من الوالِينَ شيطانُ
من ليسَ يَخفَلُ خَمَصَ الناسِ كلِّهم إن باتَ يشربُ خَمَرًا وهو مِبطانُ
وفى ظلم الحكام :

مُلُّ المَقامِ ، فكم أعاشِرُ أمةَ أُمِرَتَ بغيرِ صلاحِها حُكَّامُها
ظَلَمُوا الرِّعيَّةَ ، واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها
وفى عدم حكم الرؤساء بالعقل :

يُسوسونَ الأمورَ بغيرِ عقلٍ فينقُذُ أمرهم ويُقالُ سَاسَةٌ
فَأَفَّ من الزمانِ ، وَأَفَّ مِنِّي ومن زَمَنِ رِئاستِهِ خِساسَةٌ

ويعرض لما كان يحدث فى زمنه من غارات الجند بالجيوش المسلمة والرومية
وغارات غيرهم من الناس ممن يملكون أسباب القوة والسطوة . يقول :

والشُّرُّ جَمٌّ ومن تسَلَّمْ له إِبِلٌ من غَارَةِ الجيشِ يتركها لِحُرَابِ
وفى جشع التجار وغارات اللصوص وقطاع الطرق :

يا جِرَ المَصرِ ما أنصَفَتْ سائِمَةٌ كذَّبَتْها فى حديثِ منك مَنسُوقِ
إنْ تُشكُّ قِطْعَ طريقٍ بالفلَاقِ فكم قطعَتْ من قبل طَرِقَ النَّاسِ بالسُّوقِ

ولأنّ العلاء وثبات شعرية ، ولحاث وامضة تثير إعجاب القاريء وتقديره لشاعريته . ومن هذه اللمحات قوله على لسان طفل مات صغيراً :

تقول : حللت عاجلتى بكرهى	فَعِشْتُ ولم لِدِذْتُ ولم سَقِيتُ
رقيت الحولَ شهراً بعد شهرٍ	فَلَيْتَنِي في الأهلّة ما رَقِيتُ
فلماً صبح بي ودنا فطامى	تَتِمَّنِي الجِمامُ فما وُقِيتُ
تركتُ الدارَ خاويةً لغيرى	ولو طألَ المقامُ بها شَقِيتُ
نَقِيتُ فما دَنَسْتُ ولو تَمَادَتْ	حياةً بي دَنَسْتُ فما نَقِيتُ
رَقَتْنِي الرائياتُ وحُمَّ يومى	فَعَادَرْنِي كَأَنِّي ما رُقِيتُ
وما يَدْرِيكَ باكيَتى عَسَانِي	بِسُكْنِي الفوزَ في الأُخْرَى انْتَقِيتُ
ومن صُنْعِ المليكِ إِلَيَّ أَنِّي	تَعَجَّلْتُ الرحيلَ فما بَقِيتُ

وهى وإن تضمنت فلسفة ألى العلاء التشاؤمية ، فإنها تنبىء عن رغبة فى رحمة الطفولة من صراعات الحياة ، والخشية على أن تلوث براءتها ، وما غرس الله فيها فطرة بشور الناس بعد أن يشبوا عن الطوق ، وتباین رغباتهم ، وتشابك أطماعهم .

ومن شعر اللزوميات ذى المذاق الخاص ، قوله من أبيات يخاطب فيها الديك (١) :

عليك ثياب خاطها الله قادراً	بها رثمتك العاطفات الروائم
وتأجلك معقود كأنك هُرمزٌ	يُبَاهِي به أملاكه ويوائم
وعينك سقط ما خبا عند قرّة	كلمعة برقي ما لها الدهر شائم
ورثت هذى التذكار من قبل جرهم	أوان ترقّت في السماء النعائم
ومازلت للدين القويم دعامة	إذا قَلِقْتُ من حامله الدّعائم
ولو كنت لى ما أُرهِفْتُ لك مُدِيّة	ولا رَامَ إفطاراً بأكلِك صائِم
ولم يُغْلِ ماءً كى تُمزّق حُلّةً	حبّتك بأسناها العصور القدائم
فإن كتب الله الجرائم ساخطاً	على الخلق لم تُكْتَبْ عليك الجرائم

(١) راجع الفصول والغايات ص ٨٨ .

قته الشعرى

يتمتع المعرى بمقدرة شعرية فذة ومميزة ، وتأتي هذه المقدرة بمحصول وافر من الثقافات المتعددة ، والتمكن من اللغة والتراث الشعرى والفكرى . والإحاطة بأقوال أصحاب المذاهب والفرق وأصحاب الديانات ، بل لم يدع جانباً من جوانب المعرفة إلا وأحاط به حتى الفنون من موسيقى وغناء كشف عن معرفته بهما في أحد فصوله بالفصول والغايات ، فقد عرض لأضرب الغناء وفصلها ، وفسرها تفسيراً يعكس إلماماً وفهماً لأسرارهما^(١) .

ونرى أنه أفاد من إلمامه بالموسيقى ، في توفير قدر من الإيقاع والموسيقى التى تنسرب من سياق عباراته ، وتتجاوب إلى حد كبير مع معانيه وإيقاعاته . وقد أفاض في حديثه عن أعاريض الشعر وقوافيه .

وندرک أن عنصر الموسيقى في الشعر عنصر مؤثر فيما يوحى به من تأثير غير مباشر في النفس يشارك في وقع المعنى الشعرى مع الخيال على وجدان المتلقى .

ومما يذهب إليه من توفير أصوات متجانسة أو متألّفة تتفق وتختلف في النوع والدرجة هذا الجنس الذى يعتمد إليه في أبياته ، والطباق أو المقابلة ، والتبادل الإيقاعى في التراكيب وصنعتة في القافية ، وبخاصة في اللزوميات ، تشير إلى هذا الميل إلى اكساب هذا الصوت المتردد في آخر أبياته أبعاداً صوتية أعمق وأكثر تركيباً . وقد تبعه في هذا اللزوم بعض شعراء الشام ممن جاءوا بعده ، فأستخدموا جناس القافية وأصبح لوناً من ألوان البديع الشعرى المستحدث منذ القرن الخامس ، وصياغته الشعرية صياغة مركبة ، قد تبدو متكلفة تحسُّ بمعاناة الشاعر فيها ، لأنه يريد أن يوفق بين المعنى العقل البعيد والعبارة ، ولا يحب لهذا المعنى الذى ينشده أن يفرغ مدلوله في سهل من اللفظ ، بل يعتمد إلى تعقيده بتلك الصياغة الصعبة .

ويعلق طه حسين على عمل أبى العلاء هذا بقوله :

(١) راجع الفصول والغايات ص ٨٨ .

« وفي آثار أئى العلاء شدة على الناس ، شدة في ألفاظها ، وشدة في معانيها ، وشدة في أساليبها أيضاً ، ولكن في هذه الآثار شدة على أئى العلاء نفسه ، فقد لقي في إنشائها عناءً وجهداً »^(١) .

وهو يعتمد إلى الإغراب في اللغة ، ويساعده على ذلك معرفته الواسعة بها ، يقول طه حسين^(١) : « فما أعرف أحداً وعى اللغة العربية كما وعها أبو العلاء ، وما أعرف أن أحداً صرّف هذه اللغة في أغراضه وحاجاته الفنية كما صرّفها أبو العلاء » .

ومن عناصر الغموض الذى يقرب إلى اللغز في شعره ميله إلى أن يعبر عن معناه بأكثر من صورة من صور التعبير كالمثالة والمغايرة ، والتفصيل ، والتلميح .

ومن ضروب المماثلة التشبيه ، والإستعارة ، ومراعاة النظر والتشيل والتوجيه .

وقد يعتمد إلى التعميه ، بأن يوهم من ظاهر الكلام بمعنى غير ما يخفى من حقيقته . وهو واع لهذا ويعتمده . يقول في أحد أبياته :

لا تُقَيّد علىّ لفظى فإننى مثلُ غيرة ، تكلّمنى بالمجاز
ويخبرنا في غير موضع ، وفي أكثر من عمل من أعماله بأنه يؤثر الرمز ويصطنع الإلغاز ، ولا يكره التحرّز بالتقيّة .

وقد صرح بميله للغز في كتاب « زجر النابح »^(٢) .

وقال يوسف البديعى^(٣) : « وإن أبا العلاء ألف كتاباً في اللغز لشدة ولعه به سماه « كتاب الألفاز » . يقول البديعى : وكتاب الألفاز كبير الحجم ، رتبه على جميع حروف الهجاء ، مشتمل على كلّ بحور الشعر ، وأعلىضه ، وضروبه » .

(١) مع أئى العلاء ص ٢٠٧ .

(٢) زجر النابح ، تحقيق الدكتور أنجد الطرابلسى ، ص ٤٥ .

(٣) أوج التحرى عن حيشة المعرى ، بتحقيق إبراهيم الكيلانى ، ص ١٠٤ .

كذلك أشار بعض شراحه إلى هذه الظاهرة في شعره عامة . فقال البطليوسي تعليقا على قوله :

فهل حَدَّثَ بالحرباءِ يَلْقَى برأس الغَيْرِ موضحة الشَّجَاجِ
« وأبو العلاء يُلَغِّزُ كثيراً بالأسماء المشتركة ، فيوهم أنه يريد معنى ، وهو يريد معنى آخر ، ويصف أحد الإسمين المشتركين بصفة الآخر » (١) .

وذكر صاحب جوهر الكنز جملة من ألغازه ، منها قوله (٢) :
أَحَبُّ مُحَمَّدًا وَهَوَايَ فِيهِ وَمَا صَلَّيْتُ قَطُّ عَلَى النَّبِيِّ
وَأَهْرَبُ مَا اسْتَطَعْتُ مِنَ الدُّنْيَا فِرَارَ الشَّيْخِ مِنْ رَهَبِ الصَّبِيِّ
وَالنَّبِيُّ اسْمُ مَوْضِعٍ ، وَالصَّبِيُّ هُوَ السَّيْفُ .
وقال أيضاً :

إِذَا مَا صَادَفْتُ زَيْدًا وَعَمَرًا أَتَاهَا بَعْدَهُ أُوسٌ وَنَصْرٌ
بَقْفَرٍ لَا تَزَالُ تَرُودُ فِيهِ وَيَجْمَعُهَا وَسِرْبُ الْوَحْشِ قَصْرٌ
فَزِيدَ مِنَ الزِّيَادَةِ ، وَعَمَرُو مِنَ الْعَمْرِ ، وَأُوسٌ أَى عَوْضٍ ، وَنَصْرٌ مِنَ نَصْرِ
الغَيْثِ إِذَا أَتَاهُ ، وَالْقَصْرُ آخِرُ النَّهَارِ .
وقال :

رَأَيْتُ يَهُودَ وَافَقْتُ النَّصَارَى عَلَى بُغْضِ الْمَسِيحِ فَلَمْ يُلَابُوا
وَالْمَسِيحُ : الْعِرْقُ مِنَ اللَّحْمِ .
وقال :

لَقَدْ عَايَنْتُ مَرْتَجِزًا بِشِغَمٍ تَمْنَى مِثْلَهُ أَهْلُ الْعُرُوضِ
يَعِيشُ بِهِ الْفَقِيرُ وَكَمَ فَقِيرٌ أَبَى إِلَّا الْمَعِيشَةَ بِالْقَرِيضِ
فَقَوْلُهُ : مَرْتَجِزًا يَعْنِي السَّحَابَ الَّذِي فِيهِ رَعْدٌ ، وَالشَّعْرُ اسْمُ جَبَلٍ ، وَالْفَقِيرُ
الْفَحْلُ مِنَ الْإِبِلِ ، وَالْقَرِيضُ الْجُزْءُ .

(١) شروح سقط الزند ، ص ١٧٢٣ .

(٢) جوهر الكنز ، ص ١١٣ .

وقال :

تُؤَدُّونَ النَوَافِلَ كُلَّ يَوْمٍ وَضَاعَتْ فِي دِيَارِكُمُ الْفُرُوضُ
الفروض : جمع فرض ، وهو نوعٌ من الشعر .

وقال :

دَعَا قَاضِيَكُمْ يَوْمًا شُهُودًا فَمَالَ بِهِمُ عَنِ الدِّينِ الشُّهُودُ
فالشهود جمع شهد ، وهو العسل .

وقال :

لَقَدْ سُرُّوا وَحَقَّ لَهُمْ سُرُورٌ إِذَا بَالَ الْهَزَبُ عَلَى الصَّرِيرِ
وَكَمْ بَعَثُوا ضَرِيرًا مِنْ عَوَالٍ وَأَيْدِيهِمْ مَعَاوِيَةُ الصَّرِيرِ
لَهُمْ فِي السَّبَبِ وَالتَّوْرَةِ تَحْطُ إِذَا عَزَمَ الْمَقِيمُ عَلَى الْمَسِيرِ
وَمَا عِيدَ الْفَطِيرِ لَهُمْ بَعِيدٌ وَهُمْ وَالْهَائِدُونَ مِنَ الْفَطِيرِ
جُنُوبُهُمْ عَلَى عُفْرِ الْمَوَاسِي وَأَيْتَقُهُمْ تَزُودٌ عَلَى السَّرِيرِ

الهزبر : الأسد، وهو من الكواكب الذى تقول العرب مطرنا بنوء كذا تعنى بذلك الكوكب الغارب وقت طلوع الفجر فى ذلك الوقت . والضرير جانب الوادى ، والضرير المال المصروع ، وضربٌ من الصَّير ، والتوراة مثل التورية وهى التغطية ، والفطير مصدر الفطرة وهى الحلقة ، والسريز أكرم مكان بالوادى .

وقال :

رَأَيْتُ الْبَدَرَ أَذْرَكَه مَشِيْبٌ وَأَصْبَحَ طَالِبًا قُوْتَ الْعِيَالِ
وَكَمْ أَرَوَى الْأَهْلَةَ مِنْ نَجِيعٍ وَزَادَ الْمَغْرِبِينَ مِنَ الْهَلَالِ

وتكفى هذه الأمثلة للدلالة على ما أشار إليه كل من طه حسين والبطليوسى من مقدرة على اللغة ، واللعب على التشابه اللفظى والاختلاف المعنوى والمعرفة بأسرار اللغة ، والاشتقاقات والصياغات المجهولة والمهجورة ، أو ما يسمى بحوشى اللغة وغيرها .

ومع اقتدار أبى العلاء على اللغة ، وغزارة محصله فيها ، وقوة ذهنه وذكائه

مما مكنته من هذا التشكيل المملغز نجدته كذلك يملك قدرةً على تعريف التراث والتعامل معه بشئى مجالاته من معارف ونصوص دينية قرآن أو حديث ، وسيرة وتاريخ ، وأنساب وقبائل وشعر ... إلخ .

وتراه يعتمد إلى الأسلوب المملغز فى توظيف بعض أسماء القبائل كأسد وهى قبيلة معروفة ، وأسم أحد شعراء هذيل الكبار وهو أبو ذؤيب فيقول :

ليالٍ ما تُفِيقُ من الرِّزَايَا فوَيْحِي من عَجَائِبِهَا وَوَيْبِي
أَعَادَتِ أَسَدَهَا أَسَدًا أَكِيلاً وَأَوْدَى ذُنْبُهَا بَأْنَى ذُؤَيْبِ

والأسد الأولى لليالى ، وأسد الثانية القبيلة ، وذئب الليالى جانس بينه وبين اسم الشاعر أبى ذؤيب ، كما جانس بين أسد الليالى وأسد القبيلة . ملمحاً ومشيراً إلى قصة أبى ذؤيب وقد أودى الطّاعونُ بأولاده الأربعة ، فرتاهم بقصيدته المشهورة .

ويلعب بالجناس كما قلنا فى هوايته العقلية المملغز فى شعره بديوان اللزوميات .

ومن استعانت به آيات القرآن قوله :

انفرد الله بسلطانه فما له فى كلِّ حالٍ كفاء
وضمَّن ألفاظ الآيّة (ولم يكنْ له كفواً أحد) .

وفى قوله :

ألم ترَ للدُّنيا وسوءَ صَنِيعِهَا وَلَيْسَ سِوَى وَجْهِ الْمُهَيْمِنِ ثَابِتٌ
من قوله تعالى (ويبقى وجه ربك ذى الجلال والإكرام) .

ويقول :

ويظُنُّهَا نَارَ الْخَلِيلِ سَلَامَةً وَيَكَادُ يَأْخُذُ مِنْ سَنَاهَا الْقَابِسُ
يشير إلى قوله تعالى : (يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) .

ويقول :

ويَدَايَ فى دُنْيَايَ وهى حَبِيبَةٌ كَيْدَى أبى هُب غدا فى الآجَلِ

يشير إلى قوله تعالى : (تبت يدا أبنى هب وتب) مشيراً إلى أن ذلك سيكون مصيره في الآخرة .

ويقول :

وما ليس الإنسان أبهى من التقى وإن هو غالى في حسان الملايس
من قوله تعالى : (ولباس التقوى ذلك خير) .

وأمثلة استعانته بالشعر القديم نذكر منها إشارته لأرجوزة رؤية القافية :

وقاتم الأعماق تحاوى المخترق
مشتبه الأعلام لَمَاع الحفق

فيقول أبو العلاء :

مالى غدوت كفاف روبة قيدت في الدهر لم يقدر لها إجراؤها
ومنه قوله :

أين امرؤ القيس والعدارى إن مال من تحته الغيظ
مشيراً إلى قول امرئ القيس :
تقول وقد مال الغيظ بنا معاً عقرت بعيرى يا امرأ القيس فأنزل
ويقول المعرى :

وما جبل الرّيان عندى بطائل وما أنا عن تحود الحسان برّيان
يريد نقض معنى جرير في قوله :

يا حبذا جبل الرّيان من جبل وحبذا ساكن الرّيان من كانا
وتوظيف محفوظ المعرى للشعر القديم ، جاهلياً كان أو إسلامياً أو عباسياً
على مستويات متعددة ، كما نلاحظ في الأمثلة التي سقناها . واهتم الباحثون
بتتبع هذا الموضوع في شعره^(١) .

(١) راجع على سبيل المثال « أبو العلاء ولزومياته » للدكتور كمال اليازجى ، طبع ونشر دار الجيل ببيروت سنة ١٩٨٨ م .

وكم ورد في شعره من توظيف لأحداث التاريخ ، وصراع الفرق والمذاهب منذ الجاهلية وطوال عصور الإسلام حتى عصره .

يتحدث عن الأنبياء ، فعن سليمان الحكيم وقصة استكثاره من النساء ونزاع قاييل وهابيل ، وحديث العرب البائدة عاد وثمود وجرحهم ، وهلاك عاد بريح صرصر .

وأيام العرب كيوم داحس والغبراء ، ويوم حليلة ، ويوم النصار ، ومقتل كليب .

ومن أحداث السيرة ذكر النبي ﷺ وما لقيه من أكلة خبير المسمومة ، ومواقع أحد وبدر ، ويوم غدير خُمْ وحديث « من كنت مولاه فعلى مولاه » . ويشير إلى اختلاف الأخذ بهذا الحديث بين الشيعة وأهل السنة : شيعٌ أجَلَّتْ يوم خُمْ واثنت أخرى تعارضُها يوم الغار وهو ينبذ التعصب ولا يتعصب لواحد من الفريقين :

ضمنتُ فؤادي للمعاشير كُلِّهم وأمسكتُ لَمَّا عَظُمُوا الغارَ أوْخُماً

ويجري حديثه عن أحداث المسلمين بعد وفاة النبي كحديث السقيفة والنزاع بين المهاجرين والأنصار ، وفتنة عبد الله بن الزبير ، واغتيال عبد الرحمن بن ملجم لعل بن أبي طالب ، وقتل الحسين ، وحروب الشام والعراق ، واختلاف طارق بن زياد وموسى بن نصير ، ومقتل مروان بن محمد بمصر وانتهاء الدولة الأموية .

وثورة الزنج بالبصرة والقرامطة بالكوفة والأحساء .

كما يشير إلى بعض ما حدث للشعراء جاهليين ومحدثين ، فيعرض لامرئ القيس ويوم دارة جلجل ، وليلى والمجنون ، ولبنى وابن دُرَيْج ، وعن أبي العتاهية وجه لعتبة ، وتوبته ونسكه .

إلى غير ذلك مما حفل به ديوانه ووظفه فيما إستهدفه من معانيه ومضامينه على صورة صريحة ، أو بطريق الإيحاء والإشارة .

ويبقى بعد هذا حديثنا عن خيالات المعرى ، فنرى أنه مغربٌ في خيالاته
وصوره إغرابُهُ في ألفاظه وصياغاته .
وصوره البيانية غالباً ما تكون صوراً مجنحة ، فيها غموضٌ ، أو تحجبها
حجبٌ يريد لها أن تبقى مغلفةً بها ، وقد يرمى بهذه الصور غير واضحة المعالم
إلى الإيحاء بمعان لا يرغب في الكشف عن مستورها .

ابن سنان الخفاجي

عبد الله بن محمد بن سنان (ت سنة ٤٦٦ هـ)

ولد بحلب ونشأ وتعلم بها ، ورحل إلى المعرة فأخذ الأدب عن أبي العلاء المعري ، وتنقل بين بعض بلاد الشام ، ولقى جماعة من الفضلاء بها . وكان يرى رأى الشيعة الإمامية .

وقصد بشعره بعض رؤساء الشام مادحاً ، ومنهم جد أسامة بن منقذ مخلص الدولة مقلد بن نصر بن منقذ الكنتاني^(٢) ورثاه بعد وفاته وكان بينه وبين أبي نصر بن النحاس وزير محمود بن صالح المرداس مودة مؤكدة . وكان الخفاجي قد خرج من حلب ، وبينه وبين أميرها المرداسي أمور . وأراد الأمير أن يستدرجه للعودة إلى حلب ، فكتب إليه ابن النحاس رسالة يستدعيه بأمر محمود بن صالح ، وكان قد نَمَّ في كتابته عما يوحى بتأمر القوم عليه ليقتلوه . وفي أثناء طريقه إلى حلب عاود ابن سنان الفكر في رسالة صديقه ابن النحاس ، فرجع^(٣) .

ورد على أبي نصر ابن النحاس بخطاب ملغز كذلك يشير إلى أنه لن يدخل حلب ماداموا فيها يعني أعداءه .

وكتب إليه صديقه يستصوب رأيه فكتب إليه الخفاجي :

خُفَّ من أمنت ولا تركزن إلى أحدٍ فما نصحتك إلا بعد تجريب
إن كانت الترك فيهم غير وافيةٍ فما تزيد على غدر الأعراب
تمسكوا بوصايا اللؤم بينهم وكاذ أن يدرسوا في المحاريب

ولا نعلم أسباب هذه العداوة بين الشاعر وأمير حلب المرداسي، وإن كان يلوح إلى غدر الأعراب ، وهم من أعداء الفاطميين ، وهم من السنة وسبق أن ذكرنا ما وقع بينهم وبين الفاطميين من وقائع ، وما كان من علاقة الشاعر ابن حيوس بهم في هذه المرحلة من ستينات القرن الخامس .

(١) ترجمته في الرواق للصفي ووفيات الأعيان ، والأفضليات لابن منجب .

(٢) راجع وفيات الأعيان ٥ / ٢٧٠ ، حامد عباس .

(٣) راجع انواق ، وفوات الوفيات ٢ / ٢٢١ .

والغريب أن ابن النحاس عاد فغدر بصديقه الخفاجي ، وكان رسول الموت إليه ، بعد أن هدده محمود بن نصر ، فأمره بأن يحمل إليه طعاماً مسموماً ، لأنه يأمنه .

وهكذا كانت مئة ابن سنان على يد صديقة^(١) .

وهكذا مات ابن سنان مسموماً على يد هذا الصديق سنة ٤٦٦ هـ وحمل إلى حلب فدفن بها .

وللخفاجي ديوان شعر ، ومجموعة مصنفات في الأدب والبلاغة أشهرها « سر الفصاحة » .

وفي شعره بعض معاني الشيعة وأقوالهم . من ذلك قوله في علي بن أبي طالب :

وقالوا قد تغيّرت الليالي	وضيعت المنازل والحقوق
فأقسم ما استجدّ الدهر خُلُقاً	ولا عدوانه إلاّ عقوق
أليس يُردُّ عن فديك عليّ	ويملك أكثر الدنيا عتيق

يشير إلى عدم اشراك أبي بكر لعلي بن أبي طالب في غزوة فديك . ويعرض في الأبيات لما قد يكون وقع عليه من الظلم في حلب فاضطر إلى مغادرة دياره خشية اغتياله .

واختار صلاح الصفدي مجموعة من شعره اقتطعها من قصائده أو مقطعات مفردة . ومما أختاره قوله :

سلاطينة الدغساء هل فقدت خشفاً	فإنّا لحنا من مرابعها طرفاً
وقولا لخرط البان فليمسك الصبا	عليها ، فإنّا قد عرفنا بها عرفاً
سرت من هضاب الشام وهي مريضة	فما ظهرت إلاّ وقد كاد أن تخفى
عليه أنفاس تدأوى بها الجوى	وضغفى ولكن قد وجدنا بها ضغفى
وهاتف بالبان ثمل فراقها	وتتلو علينا من صابتها صُحفاً
عجبت لها تشكو الفراق جهالة	وقد جاوبت من كل ناحية إلها

(١) راجع القصة كاملة في فوات الوفيات ٢ / ٢٢١

ويشجى قلوبَ العاشقين حينها
ولو صدقت فيما تقول من الأسى
أجارتنا أذكرت من كان ناسياً
وفي جانب الماء الذى تردينه
ومهزوزة اللبان فيها تمایل
لبسنا عليها بالثنية ليلة
لعمري لئن طالت علينا فإننا
رمينا بها فى الغرب وهى ضعيفة
كأن الدجى لما تولت نجومه
كأن عليه للمجرة روضة
كأننا وقد ألقى إلينا هلاله
كأن السها إنسان عين غريقة
كأن سهيلاً فارس عابن الوغى
كأن سنا المریخ شعله قابس
كأن أفول السر طرف تعلق

وما فهموا مما تغث به حرفاً
لما لبست طوقاً ، ولا تحضبت كفاً
وأضربت ناراً للصبابة لأطفأ
مواعيد لا ينكرن لياً ولا لحلفاً
جعلن لها فى كل قافية وصفاً
من السود لم يطو الصباح لها سجعاً
بحكم الثريا قد قطعنا لها كفاً
ولم نبق للجوزاء عقداً ولا شيفاً
مدبر حرب قد هزمناه صفاً
مفتحة الأنوار أو نثرة زغفاً
سليناه جأماً أو فصمنا له وقفاً
من الدمع يبدو كلما ذرفت ذرفاً
فقر ولم يشهد طراداً ولا زحفاً
تخطفها عجلان يقذفها قذفاً
به سينة ما هب منها ولا أغفى

وصفها الصفى بأنها من الطنانات (١) .

وهى قصيدة فريدة . فيها تأمل ، وخیال ، وسبح مع السماء ونجومها
وانطباعات ورؤى وصور مما يخیل له وجدانه ، وكثيرون وصفوا السماء
ونجومها ليلاً ، ولكن ابن خفاجة تفرد من بينهم بهذه التشبيهات التى أبدع فى
أكثرها ، وشارك فى جزئيات منها من سبقوه .

ونلاحظ تأثره الواضح بأستاذه أنى العلاء فى وصف المطوقة . بقصيدته الرائية
فى قوله : « عجبت لها تشكو الفراق » حتى قوله :

ولو صدقت فيما تقول من الأسى لما لبست طوقاً ، ولا تحضبت كفاً
ويقول أبو العلاء مخاطباً بنات الحديد الحمايم ذوات الأطواق :

ما نسيئن هالكا فى الأوان الحما لى أودى من قبل هلك إباید
بيد أنى لا أرتضي ما فعلتُ ————— ن ، وأطواقكن فى الأجياد

(١) الوالى ٥٠٧ .

وفيما لاحظناه من شعر الخفاجي أَسَى وشكوى من الزمان والناس يديه
أحياناً ، ويستره أحياناً في أشواقه وحنينه ونسييه . ومنه قوله (١) :

بقيت وقد شطّط بكم غربة الثوى
وعلمتموني كيف أصير عنكم
فما قلت يوماً للبكاء عليكم
وما الحب إلا أن أعد قيسحكم
وقوله :

هل تسمعون شكاية من عاتب
أما الوشاة فقد أصابوا عندكم
فمليتكم من صابر ورقدتكم
وأقل ما حكم الملأل عليكم
وقال :

ما على مُحسِنكم لو أَحسَبنا
قد شجانا اليأس من بعدكم
وعُدوا بالوصل من طيفكم
لا وسخر بين أجفانكم
وحديث من مواعيدكم
ما رحلت العيس عن أرضكم
وقال في أبيات :

وعلى العضا إن كنت من جيرانه
ومحلّون عن المناهل بعدما
ومشتت العزمات ينفق عمره
أمل يلوح اليأس في أثنائه
يمري غفافة ثروة لو أنها
نار تقسم حرها العشاق
شرق بجمّة مائها الطراق
خيران لا ظفر ولا إخفاق
وغنى يشف وراءه الإملاق
نوم لما شعرت به الأخداق

(١) فوات الوفيات ٢ / ٢٢٢ .

وقال (١) :

عَطِرَ الشَّاءَ تَعَطَّرَتْ أَوْصَافُهُ وَحَلَّتْ فَكُلُّ فَمٍ بِهَا مَشْغُولُ
مَا كَانَ يَعْلَمُ قَبْلَ صَوْبِ ثَنَائِهِ أَنَّ الْغَمَامَ الْمُسْتَهْلِيَّ بَخِيلُ
وَلَوْ أَنَّ لِلْأَيَّامِ نَارَ ذَكَابِهِ مَا كَانَ فِيهَا بَكْرَةٌ وَأَصِيلُ

وقال :

مَلَالَةٌ ضَيَّعَتْ وَدَى بَعْدَهَا وَجِبَتْ عَلَيْكَ حَقُوقُهُ الْأَسْلَافُ
أَمْ شِئْتَ تَعْلَمُ أَنَّ جُودَكَ لَمْ يَذْءُ شَيْئاً ، وَأَنَّ طِبَاعَكَ الْإِتْلَافُ

وقال :

إِذَا مَجُورَتُكُمْ لَمْ أَحْشَ سَطَوَاتُكُمْ وَإِنْ مَدَحْتُ فَمَا حَظِّي سِوَى الثَّعِيبِ
فَحِينَ لَمْ يَكْ لَا خَوْفٌ وَلَا طَمَعٌ رَغِبْتُ فِي الصَّمْتِ إِشْفَاقاً عَلَى الْكَيْدِ

وفي هذه المختارات من شعر ابن سنان آثار واضحة لصنعة الشعرية فالرجل ، لا يهتم بالبديع ، ولا يتكلفه تكلف غيره من شعراء الشام المعاصرين ، وقد أشرنا من بينهم إلى ابن حيوس ، وأبي العلاء . وإن كان لكل منهم وجهته في استخدام البديع . كذلك تحس في شعر ابن سنان شاعرية صادقة وعاطفة غالبية على صنعة الكلام ، وتنميق القول وأحياناً تغلب على تأملاته روح صوفية علوية .

وقد أورد له ابن منجب مختارات من شعره ، وعلق عليها ، منها قوله (٢)

قال عبد الله بن محمد بن سنان بن سبيد الخفاجي الحلبي :

لَا يَدْعَى الْفَصْحَاءُ فِيكَ غَرِيْبَةً وَالْبَيْضُ تَنَثَّرُ ، وَالْأَسْنَةُ تَنْظُمُ
إِنْ أَحْسَنُوا عَنْكَ الشَّاءَ فَأَنْهَا نَطَقَتْ بِمَدْحِكَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمُوا
عَجَباً لَوَجْهِكَ كَيْفَ بَارَقَ بِشَرِّهِ تَهَيَّئِ سَحَابَتَهُ ، وَلَا يَتَّقِيْمُ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّ يِضْ سَيُوفِهِ تَبْكِي دُمّاً ، وَكَأَنَّهَا تَبْسُمُ

فأما الأول فمن مليح التورية . وقد أتى بها في قوله :

وَصَفُّوا بِيَاضَ يَدِ الْكَلِيمِ بِمَعْجَزِ فِيهِ ، وَكَمْ لَكَ مِنْ يَدٍ يَبْضَاءِ
وَأَسْتَطَفُوا إِحْيَاءَ عَيْسَى مَيِّتاً فَرْداً وَجُودَكَ بَاعَثَ الْفُقَرَاءِ

(١) الروابي للصندي - ج ١ ، ص ٥٠٧ .

(٢) الأفضليات ص ٤٠ - ٤١ .

وقال (١) :

من القوم صال الدهر إلا عليهم وصالوا بيض الهند حتى على الدهر
أشد احتقاراً بالردي من حساميه وأدنى إلى سير الأعادي على الدغر
له خلقت في المخيل غيث وفي الصبا نسيم، وفي جُحج الدجى غرة البدر

وقد استعمل تركيب هذا البيت في موضع آخر فقال :

ما هزة طرب العُقار وإنما أغطته نشوة كاسها الأخلاق
هي في الهوى وغد الوصال وفي الكرى طيف الخيال، وفي الوداع عتاق
وهو من قول ابن نباته :

إنها في السحاب وبُل، وفي الر يج نسيم، ونشوة في الشراب
وأما قوله :

أشد احتقاراً بالردي من حساميه
فهذا الصدر يصلح أن يعجز بقول أبي الطيب :
وأقدم بين الجحفلين من الثبل
على أن صدر بيت أبي الطيب مناسب للعجز المذكور ؛ لأنه قال :
أقل بلاء بالزايا من القتا
فيصير هذا العجز مع صدرين . (٢)

وبقارن بين أبيات لابن عمار الوزير الشاعر الأندلسي في مدح المعتمد بن
عباد ، وأبيات لابن سنان . يقول في ذكر بلدة افتتحها ابن عباد وأحرقها :
فأرملتها بالسيف ثم أعزتها من الثار أثواب الجداد على القفد
فها حسن ذلك السيف في راحة الهدي ويأترد تلك الثار في كيد المجيد

(١) في مدح محمود بن نصر صاحب حلب .

(٢) الأفضليات ص ٤٢ - ٤٣ .

يقول ابن منجب : « فقولهُ أَرَمَلَتْهَا بالسيف ، وألبستها حداداً بالنار من أحسن تركيب ، وأبدع تشبيه . ولقد ذكر عبد الله بن محمد (بن سنان الخفاجي) مثل وهو وأبو بكر متقاربا الزمن متباينا الوطن ، فهذا بالعدوة الدنيا ، وهَذَا بالعدوة القصوى فقال وأحسن ما شاء :

غَادَرَتْهَا دِمْنًا عَلَى أَطْلَالِهَا يَبْكِي الْخَلِيطُ ، وَتُذَكِّرُ الْأَشْوَاقُ
وَشَرَعَتْ دِينَ قِرَاكَ فِي عِرْصَاتِهَا فَالْتَأَرُ تُضْرَمُ ، وَالْدَّمَاءُ تُرَاقُ
قال ابن منجب : « وعلى البيت من البهجة وحسن الديباجة مالا أعلم لأحد مثله . » (١) .

وذكر له بيتين نظر فيهما إلى العلوم الشرعية ، وهما قوله (٢) :

وَأَمْسَتْ صِبَاهُ تَبْتُ الْحَدِيثِ ————— وَتُسْنِدُ عَنْ بَائِةِ الْأَجْرَعِ
وَتَقْسِمُ أَلَى أَهْبَاكُمُ وَلَيْسَ الْيَمِينُ عَلَى الْمُدْعَى
يريد أنه وظف في هذين البيتين علم الحديث والشرعة .

ويشير إلى أخذه معنى بيت المتنبي :

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاعَنِي نَحْبَرٌ فَرِغْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ
قال ابن منجب (٣) : « وقد أخذه ابن سعيد الحلبي (ابن سنان) ، فقال وأحسن :

أَتَانِي وَعَرَضَ الْيَدَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ حَدِيثٌ لِأَسْرَارِ الدُّمُوعِ مُذِيعٌ
تَصَامَمْتُ عَنْ رَأْيِهِ حَتَّى أَرَبْتُهُ وَلَأْنِي عَلَى مَا غَالَنِي لَسِيعٌ
ويذكر أخذه معنى لمهيار (٤) .

(١) الأفضليات ٥٦ .

(٢) المصدر نفسه ١٦٨ .

(٣) المصدر نفسه ٣١٠ .

(٤) المصدر نفسه ٣١٤ .

ابن الخياط الدمشقي

(أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي (ت سنة ٥١٧ هـ)

ولد بدمشق سنة ٤٥٠ هـ في عهد الخليفة المستنصر ، وكان أبوه خياطاً فاشتهر بالنسبة إليه . وكانت داره قريبة من دار الشاعر الدمشقي الكبير ابن حيوس والملقب بأبي الفتيان .

وربطت بين الشاعر الفتي محمد بن الخياط وجاره أبي الفتيان وشائج الشعر وحبه ، وقد رأى تقلب أبي الفتيان في النعمة ، واهتمام الناس به وارتفاع منزلته عندهم بسبب الشعر ، فامتلاً قلبه طموحاً بالنبوغ فيه وبلوغ مرتبة تقرب من مرتبة الشاعر الكبير .

وحفظ ابن الخياط كثيراً من أشعار الأقدمين ليُدرب قريحته ، ويهذب طبعه ، ويثري مادته .

وكانت أحوال دمشق في صبي الشاعر غير مستقرة تحت حكم الفاطميين ، فثاروا سنة ٤٦٠ هـ بوالى الشام أنفذ بدر الجمالي ، واحرقت بعض دور دمشق ، واصطدم أهل دمشق بجند الفاطميين ودامت تلك الأحداث حتى سنة ٤٦١ هـ .

ثم كانت بعد ذلك مسرحاً للصراع بين جند الفاطميين والسلاجقة الأتراك الذين بدعوا الاغارة على أملاك الفاطميين بالشام ، فهاجمها أتسر السلجوقي من قبل ملكشاه حتى استولى عليها سنة ٤٦٨ هـ كما عرفنا بعد مقاومة عنيفة من أهلها أدت إلى انتقامه منهم باعتقال وجوههم وترحيلهم إلى طرابلس .

وظلت دمشق في شباب الشاعر تعاني من الجور والفاقة ، واضطراب الأحوال وكانت الأمور كذلك في مصر والقاهرة في الشدة العظمى ، فاضطر الشاعر إلى أن يغادر بلده في ظل تلك الظروف القاسية متوجهاً إلى بلد آخر بالشام حيث القى عصاه بمدينة حمّاه ، فأوى إلى أمير هناك ، سكن إليه بعضاً من الوقت ، وعمل بالكتابة له وخدمته ونظم الشعر في مديحه ومنه قصيدته التي مطلعها :

سَقَوْهُ كَأْسَ فِرْقَتِهِمْ دِهَاقًا وَأَسْكَرَهُ الْوَدَاعُ فَمَا أَفَاقًا

وكان الشاعر ابن حيوس قد غادر دمشق كذلك قاصداً حلب حيث رحب به أمراؤها بنو مرداس الكلايين ، وأجزلوا له العطاء . وسمع ابن الخياط باستقرار ابن حيوس هناك وبسماحة آل مرداس ، فحدثه نفسه بزيارة جاره ، وأستاذه في الشعر .

وفي حلب التقى بأبي الفتيان ، فعرض عليه بعضاً من شعره فقال : قد نعانى هذا الشاب إلى نفسى . وكان ما انشده قوله :

لم يبقَ عندى ما يباعُ بدرهم وكفأكْ مِنى منظرٌ عن مَخْبِرٍ
إلاَّ صُبابَةٌ ماءٍ وجهِ صُنَّتْها عن أنْ تُبَاعَ وأينَ أينَ المشتري

فقال له ابن حيوس : لو قلت « وأنت نعم المشتري » . لكان أحسن . لقد كرمْتُ عندى ونعيت إلى نفسى ، وكان الشاعر الكبير أبو الفتيان قد أسنَّ ، ونصحه بقصد بنى عمار بطرابلس لأنهم يحبون الشعر وبذل له الثياب والمال .

وتقلب بين أمراء الشام فمدح بعضهم كالأمير وثاب بن محمود بن نصر بحماه ، والأمير سديد الملك أبى الحسن على بن مقلد بن نصر بن منقذ صاحب قلعة شيزر سنة ٤٧٦ هـ وجلال الملك من بنى عمار فى طرابلس ، والأمير فخر الملك .

وكان أبو الفتيان قد توفى سنة ٤٧٤ هـ ، وصحت نبوءته فى ابن الخياط ، فأصبح شاعر الشام من بعده .

استقر ابن الخياط إذا فى طرابلس ، وأحسن الصلة بأمرائها من بنى عمار فأحسنوا صلته ، واكرموا وفادته ، ومدحهم بقصائد تعد من أجود شعره ، منها قوله فى فخر الملك :

أعطى الشباب من الآراب ما طلبا وراح يكتال فى ثوبى هوى وصيّا

وكانت حياته بطرابلس حافلة ، التقى فيها بالعلماء ، وجالس الأدباء ، وخالط عليه القوم ، ومدح بعضهم ، وتطارح الشعر مع آخرين .

وقضى ما قضى بطرابلس من الزمن ، فعاوده الحنين إلى بلده دمشق ، وكانت فى أيدي السلاجقة ، يحكمها الأمير تاج الملك تتش بن ألب أرسلان ، ووزيره

هبة الله الأصفهاني ، فلقى الشاعر عنده ما كفاه إذ وقع له بصلة جزلة ،
وصحبه زمناً ومدحه بقصائد ، وسافر معه إلى الرى ، وقال فيه :

وما كان لى لولاك بالرى منزل وإن شَعَفْتُ غَيْرِي وَتَيْمُ حُبِّهَا

وجال جولة فى بلاد العجم ، ولم تطل هناك رحلته ، فعاد إلى بلده دمشق .
فأتصل ببعض أمراء العرب من الكلبيين ، ومدحهم ، كما مدح غيرهم من
الأمراء ، والوجهاء ، واختص منهم بأحدهم واسمه غضب الدولة وصحبه فى
مجالسه ومسرّاته ، حتى توفى هذا الأمير . فرثاه .

واتصل من بعده بضاحب دمشق آتذ من السلاجقة وهو تاج الملوك بورى بن
طغتكين . وحسنت أحواله بدمشق حتى توفى سنة ٥١٧ هـ .

وكان ابن الخياط شاعراً مطبوعاً يقول الشعر ، لا عن درس ، بل عن هواية
وطبع وقلنا إنه حفظ كثيراً من الشعر القديم ، فنظم على سننه ، وراض قريحته
على منهجه فجاء شعره ، وقد حفل بملايح شعر بعض من حفظ لهم ، تسميه
سمات التعبيرات التقليدية ، والصور الجارية فى معظم الشعر القديم ، كذلك
صيغه وتراكيبه وإن كان يدخل عليه أحيانا بعض الصنعة مما ساد فى عصره ،
وعند من سبقه من أصحاب البديع من مثل قوله مجانسا :

يَقِينِي يَقِينِي حَادِثَاتِ النَّوَائِبِ وَخَزَمِي خَزَمِي فِي ظُهُورِ النَّجَائِبِ

وقوله :

لَقَدْ وَجَدْتُ وَجْدِي الدِّيارَ بِأَهْلِهَا وَلَوْلَمْ تَجِدْ وَجْدِي لِمَا سَقَمْتُ مَقْمِي

وأغرم بغريب الاستعارة متأسياً أحيانا بأبى تمام كقوله فى التهئة بمولود :

أَطْلَعْتُ بَدْرًا فِي سَمَاءِ مَمَالِكِ سَهَرِ الْجَمَالِ وَتَأَمَّ فِي تَلَوْنِهِ

وفى قوله مادحاً :

هَرَبْتُ مِنْ ارْتِيَاكِ حِينَ أَتَحَى عَلَى حَمْدِي بَعْضُ نَدَى ثَقِيلِ
وَلَمَّا عَذْتُ بِالْعَلِيَاءِ قَالَتْ لَعَلَّكَ صَاحِبُ الشُّكْرِ الْقَتِيلِ

فسهّر الجمال ونومه وعضب الندى الثقيل ، والشكر القليل ، كلها من
الاستعارات الغريبة التى كان أبو تمام مُغرّى بها كمثّل قوله « ماء الملام » وغيره .

كما أن نفس المتنبي بدا في أكثر من قصيدة ، وقد فرض هذا الشاعر الكبير أسلوبه على العصر كله طوال القرنين الخامس والسادس . ومنه قوله :

وهل من ضَمَّرَ الجرد المذاكى كمن جعل الطراد لها ضِمَارًا
وكقوله^(١) :

إذا ما النار كان لها اضطرامٌ فما الداعى إلى قَدْج الزنادِ
رجوتُ فما تجاوزهُ رجائي وكان الماء غايةً كل صاِدِ
إذا ما رُوِّضت أرضي وساحتُ فما معنى انتجاعِي وارثيادِي

ولغة ابن الخياط تمتاز بالجزالة ، وإن خالف أحياناً بعض ما يجرى على ألسنة المتقنين من صحيح اللفظ ، وقويمه ، وقد أخذ عليه ذلك ، وأرجع إلى قلة اتقانه لعلوم اللغة ، وإن حاول استدراك ذلك في أخريات حياته ، فاعتدلت لغته وصحت موازينه .

ولاحظ خليل مردم ترديده لبعض الألفاظ التي أغرم بها ، كاستخدامه للفظ أم في كل ما يريد توضيحه ، وتفخيمه من مثل قوله :

لقد طرقت بك أم العلاء بيوم له كل يوم حَسُودُ
وكقوله :

بَصُرْتُ بِأَمَاتِ الْحَيَا فَظَنَنْتُهَا أَنَامِلُهُ. إِنَّ السَّحَابَ أَشْبَاهُ
وباعتباره شاعراً مسلماً ، والقرآن من أخص ما يحفظه المسلم ويتمثل به ، ويتأثر بلفظه ومعانيه ، فالشاعر ابن الخياط ، لا يفتأ يقبس من القرآن الكريم بعض لفظه كقوله^(١) :

إذا ما الكأسُ لم تَكُ كأسَ بين فليست بالحميم ولا الغساقَا
وقوله :

يطبَّقُ غَيْثُهُ أَرْضَ الْأَمَانِي وَيَسْمُو سَعْدَهُ السَّبْعَ الطَّبَاقَا

(١) ديوانه ص ٧ من قصيدة يمدح الأمير أبا الفوارس محمد بن مالك بحماسة .

وبين قصائده في المديح أحيانا بناء الأقدمين إذ يبدأ بالغزل ، ويخلص منه إلى المديح ، وقد يذكر الرحلة ويتخلص إلى الممدوح ومنه قوله :

هَبْوَاطِيكُمْ أَعْدَى عَلَى النَّأْيِ مَسْرَاهُ فَمَنْ لِمَشُوقٍ أَنْ يُهَوِّمَ جَفْنَاهُ
وَهَلْ يَهْتَدَى طَيْفُ الْخَيَالِ لِلنَّاحِلِ إِذَا السَّقَمَ عَنْ لِحْظِ الْعَوَائِدِ أَخْفَاهُ

* * * * *

أَحْنُ إِذَا هَبَّتْ صَبَا مُطْمَئِنَّةً حَتَّيْنِ مَطَايَا الرِّكَبِ أَوْشَكَبَ مَقْدَاهُ
خَوَامِسَ حَلَاهَا عَنِ الْوَرْدِ مُطْلَبَ بَعِيدَ عَلَى الْبَزْلِ الْمَصَاعِبِ مَرْمَاهُ
هَوَى كَلِمَا عَادَتْ مِنَ الشَّرْقِ نَفْحَةً أَعَادَ لِي الشَّرْقَ الَّذِي كَانَ أَبْدَاهُ
وَمَا شَعَفَنِي بِالرَّيْحِ إِلَّا لِأَنَّهَا تَمَرُّ بِحَيٍّ دُونَ رَامَةٍ مَثْوَاهُ
أَحَبُّ تُرَى الْوَادِي الَّذِي بَانَ أَهْلُهُ وَأَصْبَحُوا إِلَى الرَّبْعِ الَّذِي مَحَّ مَغْنَاهُ

* * * * *

أَلَا حَبِذَا عَهْدُ الْكَثِيبِ وَنَاعِمَ مِنَ الْعَيْشِ مَجْرُورُ الذِّيُولِ لِبَسْنَاهُ
لِيَالِي عَاطَتْنَا الصَّبَابَةَ ذُرَّهَا فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا مِنْهَلٌ مَا وَرَدَّ نَاهُ

* * * * *

وَبِالْجِزْجِ حَتَّى كَلِمًا عَنْ ذِكْرِهِمْ أَمَاتَ الْهَوَى مَنَى فَوَادَا وَأَحْيَاهُ
تَمْنِيَتِهِمْ بِالرَّقْمَتَيْنِ وَدَارُهُمْ بَوَادِي الْقَضَا يَا بَعْدَ مَا أَتَمَّنَّاهُ
وهنا يتخلص من الغزل بقوله :

سَقَى الْوَابِلَ الرَّيْعَى مَا جَلَّ رِبْعُكُمْ وَرَاوَحَهُ مَا شَاءَ رَوْحَ وَغَاذَاهُ
وَجَرَّ عَلَيْهِ ذَيْلَهُ كُلَّ مَا طَرَّ إِذَا مَا مَشَى فِي عَاطِلِ الثَّرْبِ حَلَاهُ
وَمَا كُنْتُ لَوْلَا أَنْ دَمَعِي مِنْ دَمٍ لِأَجْمَلِ مَنَّا لِلنَّسَابِ بِسَقْيَاهُ
عَلَى أَنْ فَخَّرَ الْمَلِكُ لِلْأَرْضِ كَافِلَ بِفَيْضِ نَدَى لَا يَيْلَعُ الْقَطَرُ شَرَوَاهُ

ويعضى في معاني المديح المعروفة يسوقها في ما اعتاد الشعراء التعبير عنها من معارض لفظية متعددة .

ونلاحظ فيما قدمنا من غزله سيره على غير ما اعتاد الشعراء من البدء بالوقوف أو مخاطبة الصاحب أو الصاحبين بالوقوف أو التعرّيج ، ثم الوقوف

والبكاء ، والذكرى وما إلى هذا . بل ساء متغزلاً في احبوب ، فذكر الطيف . وأنه يعود فيذكره به ، ويتذكر بالريح التي تنقل عبق هذا الحبيب ، ثم يختم بذكر الديار فيدعو لها بالسقيا .

وهو في كل هذه المعاني التي تتكرر عند الغزلين والبادئين بالنسيب من الشعراء بصطاد المعنى الذي يروقه وينسج على منوال بعض السابقين ، وإن اختلف نسيجه وتغير ألوانه . ونلاحظ أنه يكثر من استخدام الطيف ، والريح ، والنسيم كعادة الغزلين المحدثين .

وقد لا يبدأ القصيدة بهذه البداية التقليدية ، بل يدخل إلى موضوع المديح دون تمهيد .

وله في غير المديح في موضوعات شتى ، إلا أن المديح غالب ، لأنه كان شاعراً متكسباً على ما عرفنا من وقائع حياته يقصد الحكام والأمراء وعلية القوم ، وله مع هذا في تلك الموضوعات أبيات جيدة تناقلها الرواة ومؤرخو الأدب معجبين من مثل أبياته في الغزل التي يقول فيها^(١) .

خذا من صبا نجد أماناً لقلبه	فقد كاد رباها يطير بلبه
وإياكم ذاك النسيم فإنه	إذا هب كان الوجد أيسر خطبه
خليلي لو أحببتما لعلمتما	محل الهوى من مغرم القلب صبه
تذكر والذكرى تشوق ذوى الهوى	يتوق ، ومن يعلق به الحب يصبه
غرام على يأسي الهوى ورجائه	وشوق على بعد المزار وقريه
وفي الركب مطوي الضلوع على جوى	متى يدعه داغى الغرام يلبه
إذا خطرث من جانب الرمل نفحة	تضمن منها داءه دون صحبه
أغار إذا آنت في الحى أنه	حذاراً وخوفاً أن تكون لحيه

ويستخدم ابن الخطيب في غزله أسماء بعض الأماكن التي اعتاد الشعراء ذكرها في نسيبهم وهذا الاستخدام يختلف فيه المدلول والايحاء ، فالقداى الجاهليون يذكرون تلك الأماكن على أنها مواطن الأحباب والأهل وأوطان القبيلة ، ومراتب الصبا ، أما المحدثون فيذكرونها اعتماداً على ايحاءاتها في الشعر القديم ، والعربى محب للشعر يحفظ كثيراً منه ، ولهذه الأسماء ايحاءات محبة لديه مما أطلقه ، ورسخه

(١) ديوانه ص ١٧٠

الشعر القديم في وجدانه ، والشاعر هنا يستخدمها على هذا الاعتبار من مثل قوله في هذه القصيدة :

« خذا من صبا نجد » ، وقوله :

ألا ليت أتى لم تحل بين حاجري
وبينى ذرا أعلام رضوى وهضبه
وقوله :

أهيم إلى ماء بركة عاقل
وأستاف حر الرمل شوقاً إلى اللوى
وله في العتاب واسترضاء المملوح ، والتنديد بالوشاة والكاشحين (١) :

وهل يسترجع الغيث الغمام؟	متى ارتجعت مواهبها الكرام
تنزل في الوهاد به الرهام؟	أيصعد عائداً في السحب قطر
بها خجل وبالمجد احتشام	أرى العلياء من تقصير أمرى
وغيرك من تغيّره اللثام	جمال الملك غيرى منك يدهي
ومن نغمي يكدرها انتقام	أعيذك من رضى يتلوه سخط
ويخفر ذمة ذاك الذمام	أيرجع جفوة ذاك التصافى
ويحسبني ندى هولى حسام	أتبينى يد راشت جناحى
به عن مهجتي دفع الحمام	ويغرى بن الحمام أخو سماج
نقيا لا يلثم به الملام	أعرنى طرف عدلك تلق عرضاً
فغبرى عاشق ولى السقام	وحقق بالتأمل كشف خالى
تجلى الظلم عني والظلام	إذا ما افتر يرقك في سمانى
وتحرقنى ومن غيرى الضرام	أنفريقى وليس الماء منى
فأين العدل عني والكرام	وأوخذ في حمالك بذنوب غيرى
إذا حالت عن السكر المدام	وأين خلايق ستحول عنها
فإن كلام أكثرهم كلام	فلا تلقى إلى الواشين سمعاً
إذا طاونعتهم والحمد دام	وإن الود عندهم نفاق

(١) ديوانه في جمال الملك ص ١٧٨ .

وله في شكوى الزمان بمطلع قصيدة يمدح بها الأمير سديد الملك بن منقذ ،
تذكر بيائية لابن الرومي ، وتحس فيها بمصاحبه له وهو ينظمها . يقول فيها (١) :

<p>وخرمى خرمى في ظهور النجائب غلبت به الخطب الذي هو غالي قراع الليالي لا قراع الكتائب يزيد اتساعاً عند ضيق المذاهب رفعن وقد هدبتني بالتجارب وأعطين فضلاً في اللهى غير ذاهب لدى ، ولا ماء الأمانى بساكب زماناً ، ولا ديني عليها بواجب وتقضى بهالى ، عادلات ، مناصبي وأخرى ، وما من قطرة في المذانب (٢) إذا كنت ذا برق من الحظ كاذب وبالبرق عن صوب الغيوث السواكب ترهّدنى في نيل الغنى كل راغب خضوعاً ، رأيت العُذم خير مراكبي وفضل مبين كنت أول راكب وأظفر بالحاجات لست بطالب ولا كل ناءٍ عن رجاءٍ بخائب</p>	<p>يقينى يقينى حادثات التوائب سينجدنى جيش من العزم طالما ومن كان حرب الدهر عود نفسه على أنلى في مذهب الصبر مذهباً وما وضعت منى الخطوب بقدر ما أخذت ثراء غير باق على الندى فما لي ؟ لا روض المساعي بمفرج كان لم يكن وعدي لديها بخائن وحاجة نفسي تقتضيها مخايلي عددت لها برق الغمام هنيئة (٣) وهل نافعى شيم من العزم صادق وإني لأغنى بالحديث عن القرى قناعة عز ، لا طماعة ذلة إذا ما امتطى الأقوام مركب ثورة ولو ركب الناس الغنى يبراعة وقد أبلغ الغايات لست بسائر وما كل داب من مرام بظافر</p>
---	---

ويذكر في مديحه لأحد الأمراء حضه على جهاد الفرنجة من الصليبيين ، وقد
جاشت جيوشهم في بلاد الشام ، وهاجمت حملاتهم أصقاعة شمالاً وجنوباً حتى
احتلوا القدس وبعض الثغور . يقول (٤) :

<p>بسيل يهال به السيل مدداً جيوش كمثل جبال تردى</p>	<p>إلى كم وقد زخر المشركون وقد جاش من أرض إفرنجية</p>
---	---

* * * *

(١) ديوانه ص ١٢ .

(٢) هنيئة اسم للمائة من الإبل وغيرها .

(٣) والمذائب جمع مذئب وهو الجدول يسيل في الروضة بمائها إلى غيرها .

(٤) ديوانه ص ١٨٤ .

بنو الشرك لا ينكرون الفساد
ولا يردعون عن القتل نفساً
فكم من فتاة بهم أصبحت
وأم عواتق ما إن عرف
تكاد عليهم من خيفة
ولا يعرفون مع الجور قصداً
ولا يتركون من الفتك جهداً
تدق من الخوف نحرًا وخداً
من حرًا، ولا ذقن في الليل برداً
تذوب وتلف حزناً ووجداً

وفيهما يحضر على قتال الصليبيين مع بقية أمراء المسلمين مشيداً بجهاد
السلاجقة ، ومنهم ألب أرسلان يقول :

فقد أينعت أروؤس المش
فلا بد من حدهم أن يُقل
فإن ألب رسلان في مثلها
فأصبح أبقي من الفرقدين
سركين فلا تُغفلوها قطافاً وحصداً
ولا بد من ركنهم أن يهدأ
مضي وهو أمضى من السيف حداً
ذكرًا وأسنى من الشمس مجدًا

وترك ابن الخطاط ديوانه رواه تلميذه أبو عبد الله محمد بن نصر القيسرائي
(ت ٥٤٨ هـ) وقد أعجب العلماء بشعره فقرطوه وأشادوا به .

يقول خليل مردم^(١) : « أما منزلته بين الشعراء في عصره فقد اتفق على أنه
كان من المحسنين ، بشهادة معاصريه من طبقة شيوخه ومن دونهم ، فقد شهد له
شيخه ابن حيوس بالإجادة وهو في ريق الشباب ، وجعله وليّ عهده » .

وقال ابن عساكر : « ابن الخطاط ختم به ديوان الشعر بدمشق ، وكان شاعراً
مكثرًا مجيداً محسنًا » .

وقال السلفي : « كان ابن الخطاط شاعر الشام . وقد اخترت من شعره مجلدة
لطيفة ، وسمعتها منه » .

وقال أبو الفوارس نجا بن اسماعيل العمري : « ابن الخطاط في عصره أشعر
الشاميين بلا خلاف » .

وقال الذهبي : « ابن الخطاط شاعر عصره ، من كبار الأدباء ، ونظمه في
الذروة » .

(١) مقدمة ديوانه ص ٣٠ .

وقال ابن خلكان : « .. كان من الشعراء المجيدين .. وأكثر قصائده غرر » .
والذى نراه أنه ومعاصره أبا إسحاق إبراهيم الغزى طبقة واحدة ، وكلاهما محسن
ولكن الغزى رحل عن الشام ودخل بلاد العجم ، وبقي هناك بقية حياته ،
فأصبح ابن الخياط وحده شاعر الشام » .

وقال ابن العماد الكاتب فى المقارنة بينه وبين شاعر الشام الكبير آنذاك أبى
الفتيان ابن حيوس : « ابن حيوس أصنع من ابن الخياط ، لكن لشعر ابن الخياط
طلاوة ليست له » (١) .

ويقول خليل مردم (٢) : « والحسن من شعره أكثر من الوسط ، وقد يعلو
حتى يبلغ الأوج . وله قصيدة هى فى رأينا أحسن شعره ، ومن مختار الشعر فى
جميع عصوره ، سلمت جميع أبياتها ، عذبة اللفاظ ، خلاصة المعانى ، جعل
نسيها وصفاً لأرباب الشباب ، ونزعات الصبا ، ونزوات الفتوة » . يقول :

وراح يَحْتالُ فى ثوبى هوى وصبا
كما يغادر فضل الكأس من شربنا
أن الزمان سيمحو منه ما كتبنا
إلا ارتدى برداء الشيب وانتقبا
فبادر العيش بالذات وانتهبا
فليس يوم بمردود إذا ذهبنا
لم أقض من حبه قبل التوى أربنا
وجاذبته جبال الشوق فأنجذبنا
حتى إذا أدبرت حاولتها طلبنا
صم المطالب لا ورداً ولا قرباً
تألى المحل ، طريداً عنه معترباً
فكلما رضىته فى مطلب صعباً
فكلما قلقته نهضة رعباً
هولاً يرهّد فى الأيام من رعبنا

أعطى الشباب من الآراب ما طلبنا
لم يذك الشيب إلا فضل صبوته
رأى الشيبة خطأ موقفاً فذكرى
إن الثلاثين لم يسفرن عن أحد
والمرء من شئ فى الأيام غارته
ما شاء فليخذ أيامه فرصاً
هل الصبى غير محبوب ظفرت به
إني لأحسد من طاح الغرام به
والعجز أن أترك الأوطار مقيلة
مألى وللحظ لا ينفك يقذف فى
أصبح فى قبضة الأيام مرتبها
ألح دهر الجوج فى مبعائتى
كمخاضى الرجل إذ طال العناء به
لأسلكن صروف الدهر مقتحماً

(١) مقدمة ديوانه ص ٢٧ .

(٢) مقدمة الديوان ص ٢٩ .

غضبانَ للمُجِدِّ، طَلَّاباً يَثَارُ غُلَاً وَاللَّيْثُ أَفْتُكُ مَا لَاقَى إِذَا غَضِبَا
عِنْدِي عَزَائِبُكُمْ زَارِي لَوْ لَقِيتُ بِهَا صَرَفَ الزَّمَانِ لَوْلِي مَعْنَا هَرَبَا

وفي شعر ابن الخياط ذاتية واضحة ، ويختلف عن أستاذه ابن حيوس الذي تغلب عليه الموضوعية كما أشرنا . كذلك فإن صياغة ابن الخياط تختلف عن صياغة ابن حيوس لأنه يميل إلى رقة الكلام ، ولا يَجْنَحُ للجزالة والخطابية ، كما نرى الطبع والشاعرية يغلبان الصنعة والمباشرة . وهو في عمله الشعري يتبع طريقة البحرى ويتأثر به مخالفاً بذلك ابن حيوس الذى اعتمد طريقة أبى تمام .

ومعظم معانيه في موضوعات المدح الغالبة على شعره مستمدة من التراث الشعري السابق ، وما تأثر فيه بمعانى البحرى وصياغته واخيلته قوله :

يَبِضُّ تَوَقُّدٌ فِي أَيْمَانِهِمْ شُعَلٌ هِيَ الصَّوَاعِقُ إِذْ تَسْتَوِطُنُ السُّحُبَا
وَأَحْسَنُ مَا قَالَ مِنَ الشَّعْرِ كَمَا أَهْنَا لَيْسَ فِي الْمَدِخِ ، وَلَا شَعْرَ الْمُنَاسِبَةِ
وَالْتَكْسِبُ ، لَكِنْ مَا قَالَهُ فِي الشُّكُوى كَالْقَصِيدَةِ الَّتِي يَرِثُ بِهَا الشَّبَابُ ، أَوْ هَذِهِ
الْقَصِيدَةِ الَّتِي يَشْكُو فِيهَا الزَّمَنُ :

أَلَا أَفْتَى مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ يَحْمِينِى مُضَى الْكَرَامِ وَقَدْ خُلِفْتُ بَعْدَهُمْ
أَشْكُو الزَّمَانَ إِلَى مَنْ لَيْسَ يُشْكِينِى كَمْ أَسْتَفِيدُ أَخَا بَرٍّ فَيَعْجِزُنِى
وَابْتَغْنِى مَا جَدَا مَتَحَضًّا فَيُعْصِنِى أَرْجُو السَّمَاحَةَ مِمَّنْ لَيْسَ يُسْعِفُنِى
وَابْتَغْنِى الرَّفْدَ مِمَّنْ لَا يُوَاسِنِى لَوْ كُنْتُ أَقْدِرُ ، وَالْأَقْدَارُ غَالِبَةٌ
لَبَعْتُ فَضْلِي بِحَظِّي غَيْرَ مَقْبُورٍ لَوْ كَانَ فِي الْفَضْلِ مِنْ خَيْرٍ لَصَاحِبَةٌ
لَكَانَ فَضْلِي عَنْ ذِي النِّقْصِ يُغْنِينِى يَا هَذِهِ قَدْ أَصَابَ الدَّهْرُ حَاجَتَهُ
مَنْ مَنَى فَجَتَّامٌ لَا يَنْفَلِكُ بِمَرْمِينِى إِنْ كَانَ يَجْهَدُ أَنْ أَصْلَى نَوَائِبُهُ
جَمْعًا ، فَوَاجِدَةٌ مِنْهُمْ تَكْفِينِى كَأَنَّهُ لَيْسَ يَغْلُو مَرْمِيلاً يَدُهُ
بِكُلِّ مَا نَالَ مَنَى الدَّهْرُ وَيُسْلِينِى سَلَوْتُ لَا مَلِكَ عَمَّنْ كَلَفْتُ بِهِ
وَمِثْلُ مَا نَالَ مَنَى الدَّهْرُ يُسْلِينِى مَا كُنْتُ أَرْضَى الْهَوَى وَالْوَجْدُ يُنْجِلُنِى
حَتَّى بُلِيتُ فَصَارَ الْهَمُّ يُضْنِينِى مَنْ كَانَ ذَا أُسُورَةٍ مَمَّنْ بِهِ حَزَنٌ
فَالْيَوْمَ بِي يَتَأَسَّى كُلُّ مُحْزُونٍ

آيات إنسانية صادقة العاطفة ، هي نفثات المكروب تمازجها ذاتية واضحة تكشف عن معاناة الشاعر ، ويجرى فيها نفس واحد من البداية حتى النهاية

تنساق في كلمات لا تكلف فيها ، ولا صنعة خارجة على طبيعة الشكوى الصادقة .

وطبع ابن الخياط وتلقائيته واضحان كل الوضوح ، وهو وإن تتلمذ على ابن حيوس ، واعتبره هذا خليفته في الشعر على شعراء الشام إلا أن الشخصيتان اختلفتا، بل تعارضتا، كما اختلف شعرهما، فابن حيوس أمير مستغني بما كان لديه من المال عن الطلب في معظم حياته ، وهو قصير حسن المظهر على غير حال ابن الخياط وبنيته ومظهره ، فقد كان فقيراً ، يعمل في حرفة الخياطة وتكسب بالشعر الذي قاله طبعاً لا تعليماً ، وكان قوى البنية تحسبه حملاً أو جملاً لبرزته وشكله وعرضه ، كما قال العماد الكاتب .

وطبيعي أن لا نجد في شعره آثار ثقافة متعددة المصادر ، منوعة الاتجاهات اللهم إلا ما اقتضته المعرفة ، ومن هنا كان استخدامه للغة في حدود محفوظة الحدود من الشعر ، وقراءته المحدودة كذلك .

ومن هنا لا نجد توظيفاً لمعلومات ، أو نصوص شعرية أو نثرية أو معرفية عامة .

إبراهيم الغزى*

(ت سنة ٥٢٤ هـ)

أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى عثمان بن محمد الكلبي .

ولد ونشأ بغزة ، ثم انتقل إلى دمشق لطلب العلم ، وأخذ بها على جماعة من مشاهير عصره ، وكان أول دخوله دمشق سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، ولعله كان حينذاك قد ودع الشباب ودرج إلى الرجولة والكهولة . وسمع بدمشق من الفقيه نصر المقدسي .

ولما بيع في العدة مرتبة ، وفي الشعر مكانةً رحل إلى بغداد ، والتحق بالدرسة النظامية وأقام بها سنين كثيرة ، وامتدح بها جماعة من رؤسائها وانتشر شعره هناك .

وقد أشاد به الحافظ ابن عسساكر وكذلك البغدادي ومن بعدهما ابن خلكان وعماد الدين الأصبهاني وذكروا له مقطعات من شعره ز ولم يوردوا قصائد بتمامها .

قال ابن خلكان . وله ديوان شعر اختاره لنفسه ، وذكر في خطبته أنه ألف بيت .

وتم يستقر به الحال في بغداد ، بل ألقاه حب الرحلة ، والتنقل في البلاد ، فتوجه ناحية المشرق وطرق خراسان وكرمان ، ولقى بها جماعة من الفضلاء فمدحهم ، ونال رضاهم وعطاءهم .

قال ابن العماد بعد أن أثنى عليه : وتغلغل في أقطار خراسان وكرمان ، ولقى الناس ، ومدح بصر الدين مكرم بن العلاء وزير كرمان بقصيدته البائية التي يقول فيها ولقد أبدع :

راجع ترجمته في وفيات الأعيان ١ / ٥٧ بتحقيق الدكتور إحسان عباس وفريدة القصر — قسم شعراء الشام ج ١ وتاريخ بغداد . وتاريخ دمشق لابن عساكر

حسنا من الأياد مالا تُطيقه كما حمل العظم الكثير العصائب
ومنها في قصر الليل وهو معنى لطيف :
ونيل رجونا أن يدب عذاره فما اختطحتى صار بالفجر شائب
قال : وهى قصيدة طويلة .

وفيما روى مما بقى من شعره ما يوحى بأنه قاسى من العوز والحاجة ، ولم
يلق من مدائحهم لبعض وجوه عصره ما يرضيه ، فتناول بعضهم هاجياً
ومعرضاً يبخلهم ومنه قوله فى أحد الوزراء :

من آلة الدسست لم يعط الوزير سوى تحريك لحيتيه فى حال إيماء
إن الوزير ولا أزر يشد به مثل العروضي له بحر بلا ماء
وقال بزم الناس لقلّة عطائهم :

وجفّ الناس حتى لو بكينا تعذر ما تُبلى به الجفون
فما بندى لمدوح بنان ولا يندى لمهجو جبين

ويبدو أنه يش من المديح فهجر الشعر وسأله الناس عن ذلك فقال :

قالوا هجرت الشعر . قلت ضرورة . باب الدواعى والبواعث مغلق
نحلت الديار فلا كريم يرتجى منه النوال ، ولا مليح يعشق
ومن العجائب أنه لا يشتري ويخان فيه مع الكساد ويسرق

فالشاعر لا يجد ما يجيبه على مدائحه ، وقد كسدت سوق الشعر ، فلم يجد
ما يحفز على قوله ، وكأنه يسترجع ما قال به القدماء من أن الطمع كان فى
مقدمة الحوافر لصنمته . وتأق بعده العاطفة .

ولاحساس الشاعر بأزمته تلك جعلته يريق ماء الوجه فى غير طائل ، وكأنه
يتعرج المر ، ويحتمل طعان الأسنة يقول شاكياً تلك الحال :

ونخر الأسنة والخضوع لناقص أمدان فى ذوق النهى مران
والرأى أن يختار فيما فونه الـ مران ونخر أسنة المران

وتتعدد أغراض الشعر عنده ، وتتعدد معانيه ، وإن لم نخط بها علما سوى
شذرات هنا وهناك ، هي أبيات مشورة ، مفردة أو مقطوعات في بيتين أو
ثلاثة بيتين ولا تشفى غليلا . من ذلك قوله متغزلاً :

إشارة منك تغنيني وأحسن ما ردَّ السلام غداة الين بالغيم
حتى إذا طاح منها المرط من دهش وأنحل بالضم سلك العقيد في الظلم
تبسمت فأضاء الليل فالتقطت حبات منشر في ضوء منتظم

وذكر ابن خلكان أن هذه الأبيات مما تستملح الأدباء وتستظرفه ، وإن
نظر فيها إلى بعض السابقين من الشعراء .

فمن معانيه مما ارتاده من قديم الشعر كقوله :

وبورك في خيام قبيل ليل وفي تلك المضارب والججال
فما أوتأذهن سوى المواضي ولا أطنأهن سوى العوالى

ومن معاني الغزل والفراق قوله (١) :

يجمع جفنيك بين البرء السقم لا تسفكي من جفوني بالفراق دمي
إشارة منك تغنيني وأفصح ما ردَّ السلام غداة الين بالغيم
تعلق قلبي بذات القرط يؤله فليشكر القرط تعليقاً بلا ألم
تضمرت وجنة في ماء جنتها والجر في الماء خاب غير مضطرم
ماء الأسيلين يكوى برؤ ملمسه فهل سمعت بماء محرق شيم
وما نسيت ولا أنسى تحشمها وملبس الجو غفل غير ذي علم
حتى إذا طاح عنها المرط من دهش وأنحل بالضم سلك العقيد في الظلم
تبسمت فأضاء الليل فالتقطت حبات منشر في ضوء منتظم

وقال (٢) :

ومشكورة التسوييف في قدرة البغنى وخير نواي الحب ما لم يعجل
أبى صدها أن تعدم العين قرة والمبدر في إذاره حسن مقبل

(١) تأهيل الغريب ص ٢٩٨ .

(٢) تمام المتن ٧٩

وقال (١):

أَمِطْ عَنِ الدَّرِّ وَالزَّهْرِ الْيَوَاقِيتَا
فَتَغْرِكَ اللَّوْلُوَ الْمَبِيعُ لِأَلْحَجَرِ الْـ
قَابِلَتِ بِالشَّبِّ الْأَجْفَانِ مَبْتَسِمًا
وَكَانَ فُوكَ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ جَاءَ بِهَا
جَمَعَتْ ضَدَيْنِ كَانَ الْجَمْعُ بَيْنَهَا
جَسْمًا مِنَ الْمَاءِ مَشْرُوبًا بِأَعْيُنِنَا
مَسْكَأَحْسِيثُ فَوَادَى كَانَ فِيكَ دَمًا
الْمَسْكُ مِنَ سُرَّرِ الْغُرْلَانِ مَكْتَسِبُ
وَنَشْرُذَكَ أَذْكَى الطَّيِّبِ رَائِحَةً

وقال (٢):

إِذَا فَاحَ نَوَارَ الْعَقِيقِ وَرَنَدُهُ
وَكَيْفَ تُرِيحُ الرِّيحُ مِنْ كُرْبَةِ الْهَوَى
وَعِنْدَى عَهْدٍ مِنْ هَوَاكُمُ تَقَادَمْتُ
وَمُنْعُطِفِ الصَّدْعَيْنِ لَا عَطْفَ عِنْدَهُ
تَصَرَّفَ فِي مَعْنَى الْجَمَالِ وَلُطْفُهُ
جَفُونِي تَرَى هَارُوتَ مَارُوتَ بَيْنِنَا
وَتَغَرَّ حَكِي الْكَافُورِ طِيبُ رُضَايِهِ

وقال (٣):

لَيْسَتْ بِأَوْطَانِكَ اللَّائِي تَشَاتَتْ بِهَا
خَيْرُ الْمَوَاطِنِ مَا لِلنَّفْسِ فِيهِ هَوَى
كُلُّ الدِّيَارِ إِذَا فَكَّرْتَ وَاحِدَةً
أَفْدَى الَّذِينَ دَنَوْا وَالْهَجْرُ يُبْعِدُهُمْ
كُنَّا وَكَانُوا بِأَهْتَى الْعَيْشِ ثُمَّ نَاوَا

(١) تأميل الغريب ٣٩ .

(٢) تأميل الغريب ص ٩٢ .

(٣) الكشكول ١ / ٢٨٧ .

ويشكو الزمان :

لا تُعَيِّنُ الزَّمانُ إِنْ ذَهَبَتْ نِيوبُ لَيْثِ العَرِينِ مِنْ نُوبِهِ
فالحولُ لولا الجُدودُ ما قَصُرَتْ أَيْدِي جَماداهُ عَنْ عَلَا رَجَبِهِ

ويقول (١) :

لا تُشْكُ فَالْأَيَّامُ حُبْلَى رُبَّمَا جَاءَتْكَ مِنْ أَعْجُوبَةٍ بِجَنِينِ
فكذا تصاريف الزَّمانِ مَشَقَّةٌ فِي رَاحَةٍ وَخَشُونَةٍ فِي لِينِ
ما ضاعَ يُؤَسُّ بالعِراءِ مَجْرُداً فِي ظِلِّ نَابِتَةٍ مِنَ اليَقْطِينِ
وتدور بعض أياته حول تجارب الحياة والأيام ، يصوغها في قوالب الحكم
والأمثال ، فيقول (٢) :

المجد سَهْلٌ والطريقُ إِلَيْهِ بِالْإِجْمَاعِ وَغُرٌّ

ويقول (٣) :

لا تُشْكُونَنَّ مِنَ الخُمُولِ فَرَبَّمَا كَانَ الخُمُولُ إِلَى السَّلَامَةِ سُلْماً
لَوْلا كَمُونُ الدُّرِّ فِي أَصْدَافِهِ وَمَشَقَّةُ اسْتِخْرَاجِهِ مَا فُحْماً
ويقول (٤) :

قالوا بَعُدَتْ وَلَمْ تُقْرُبْ فَقُلْتُ لَهُمْ بَعْدَى عَنِ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمانِ حِجِّي
لَوْلا التَّبَاعُدُ بَيْنَ الْحَاجِّينَ بِهِ بَانَ افْتِرَاقُهُمَا لَمْ تُعْرِفِ الْبَلَجَا
ويقول (٥) :

صَقَلْتُ الْعُلا بِالْمَكْرَمَاتِ وَإِنَّمَا يَنْمُ بِأَسْرَارِ السِّیُوفِ الصِّياقِلُ

(١) النيث للصفدي ٢/ ٢٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٤٧ .

(٣) شرح اللامية ٢/ ٢٩٥ .

(٤) المصدر نفسه ٢/ ٢٩٥ .

(٥) تمام المتن ٦٨ .

وقال (١):

خلقتُ لذنب إبليسَ اعتذاراً فتاه ، وقال فُرتُ وحقَّ جيدي
إذا كانَ ابنُ آدمَ مثلَ هذا فكيفَ ألاءُ في تَركِ السُّجودِ

ويعللُ خروجه عن بغداد (الزوراء) فيقول :

مالي وللمكث في الزوراء يُجحفني من ألحاح العجز لم يفرح بما نتجنا
قلبي أظنُّ هو المعدي مساكنتها بنارِ لوعته لنا ارتقى درجاً
فالتور محترقاتُ وانجبر بها يساعِدُ الهجر فيما يسلبُ المهجاً

ويقول (٢):

من ظنَّ أنَّ القوافي لا تُشورُ لها فليذكر القاسمَ العجلى والكرخا

ويقول :

لا تحقرنَّ ضيفَ الرزقِ وأرضَ به ما العمرُ مجتمِعٌ إلا من الوشيل
وانزلْ إذا لم تجدْ للمرتقى سبباً فباسقِ العودِ يَرجو نازلَ السَّيلِ

ويقول :

لو تملكُ الدنيا يدي لأرختُ من يُمسي ويصبحُ طالباً ومُحاثاً
وقسمتها بيني وبينَ أصادق وعِداي غير مُميزٍ أثلاثاً

ويقول :

لا يُحطَّن رتبتي سوءَ حالٍ آيةُ الحسني في الجفون السقامِ
أنا كالنارِ أطفأ القطرُ منها ولها بعد أن تَفَحَّت احتدامُ

ويقول (٣):

ليت الذي بالعشقِ دونكَ تحصني يا ظالمي قَسَمَ الحبةَ بيننا
أنا في الهوى مثَلُ الخلالِ مُثَقَفٍ ولقد أضرتَ بي مناسبةُ القنأ

(١) المصدر نفسه ١١٦ .

(٢) شرح اللامية ص ١١٨ .

(٣) جواهر الكثر ٤٦٦ لابن الأثير . طبع منشأة المعارف .

وقوله :

مصاحبةً التي خطرَ وجهلٌ وكم شرقٌ تولدُ من زلالٍ

وقوله :

كم عالم لم يلج بالقرع بابٌ مني وجاهل قبل قرع الباب قد ولجا
ويستعين ببعض المعارف التاريخية والعلمية والفلكية .

ويستعين ببعض مصطلح العلوم كعادة معاصريه ، كأن يستعين بمصطلح
النحو في مثل قوله :

قالوا نزلتُ ، فقلتُ الدَّهرُ أقسمُ بي لا وَجَّةً للرفجِ في المجرور بالقسم
وكرر هذا المعنى فقال :

غيري له المجد والأيام تقسيمُ بي وهي الجديرة بالضيزي من القسم
أظنها أقسمت باسمي لتخففتني ولم يكن غير فضلي أخرف القسم
ويقع له المعنى الجيد كقوله :

كالشمع يئكي ولا يُدرى أعبرته من صُحبة النار أم من فرقة العسل
وبعد فقد كان العزى من الشعراء المحروبين القلقين ، تقلبت به صروف
الدهر ، فهاجر مغادراً بلده يلتمس حظاً من الدنيا ، فلم تعطه ما يريد وشرق
طالباً مطلع الشمس عليه يلقي في مشرقها ما لم يلقه في مغاربها ، وعمر وطال
عمره ، وعجز بعد هرمه ، وأحس بالموت يدب في أوصاله ، ففارق الحياة بعد
مرض أقعده ببلاد خراسان فلما أشرف على فراق الدنيا قال : أرجو أن الله
يفقر لي لثلاثة أشياء : لكوني من بلاد الإمام الشافعي وكوني شيخاً كبيراً ،
وكوني غريباً^(١) .

(١) الغيث المسجم — شرح لامية العجم للصفدي ١/ ١٦٧ .

الفصل السابع

شعراء وافدون من المغرب

- ١- التَّجِيبِيُّ الأندلسي (ت بعد سنة ٤٣٠ هـ)
- ٢- ابن القطاع الصقلي (ت ٥١٥ هـ)
- ٣- أمية بن أبي الصلت (ت سنة ٥٢٩ هـ)
- ٤- ابن أبي البشائر
- ٥- ابن حُيْنِش الشيباني
- ٦- محمود بن عبد الجبار الطرسوسي
- ٧- الرشيد الصقلي
- ٨- القلعي الأصم (محمد بن عبد الله)
- ٩- مجبر الصقلي (ت ٥٤٠ هـ)

التجيبى

أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التجيبى
(ت بعد سنة ٤٣٨ هـ)

من أهل القيروان ، وسكن المهديّة ، ويعرف بالبرق ، أخذ عن أبى إسحاق
الحصرى تآليفه ، وعن جماعة من العلماء والأدباء فى القيروان والاسكندرية
والقاهرة .

وكان عالماً بالآداب متبحراً ، شاعراً ، مجوّداً . من أهل التأليف والتصنيف مع
جودة الضبط وبراعة الخط .

ويؤيد أنه توجه إلى مصر فى طريق رحلته للحج فى تلك السنة ، والتقى بجماعة
من العلماء والأدباء والشعراء أخذ عنهم وأخذوا عنه ، فممن أخذ عنه أبو مروان
الطنبى ، لقيه بالإسكندرية .

ويبدو أنه تردد على مصر ، وكان حجة فيما يروى عام ٤٣٨ هـ ، ورافقه فى
رحلته أبو بكر محمد بن على بن الحسن التميمى ثم الغوثى سنة ٤١٥ هـ وانشده
أبو الحسن البصرى الشريف العباسى بمصر سنة ٤١٥ هـ كذلك .

وفى إحدى رحلات العودة من مصر سافر إلى صقلية حيث التقى بأديائها
ومن بينهم أبو الحسن على بن محمد الخياط الربعى شاعر صقلية آنئذ وجمعت
بينهما صداقة ، وتبادلا الأشعار فى الحنين والمودة .

قال ابن الأبار : « ومن جلة أصحابه المعاصرين أبو الحسن الربعى شاعر
صقلية ، وقد أكثر من إنشاد غرر شعره ومن الحنين إليه وإلى مجالس أنسه حنين
الواله إلى بكرها ، والطير إلى وكرها » ، ولا غرو فإنه كان شاعر صقلية إذ ذاك
حيث قضى التجيبى مدة غير يسيرة من كهولته بعد انفصاله عن مصر . وربما
بقى بها إلى ما بعد سنة ٤٣٠ هـ .

وفى رحلته إلى مصر صحب الشاعر أبا الحسن على بن حُيَيش الشيبانى^(١)
وبقى أبو الحسن وتختلف عن صاحبه بمصر بينما واصل التجيبى رحلته إلى تونس

(١) راجع المختار ص ١٢١ .

فصقلية — فيما يظن — ويذكر التجيبي أن أبا الحسن بعث إليه برسالة بعد افتراقهما ضمّتها نظماً ونثراً يصف فيها نزهة حضرها بعده بمصر سنة ٤١٤ هـ . واستقر التجيبي فيما يبدو كغيره من المغاربة بالاسكندرية بعض الوقت قبل أن يذهب إلى الفسطاط بالقاهرة .

وكغيره كذلك جاب في أنحاء مصر والجيزة ، ومتع بصره بمنازه النيل ومفاتيح الطبيعة الجميلة المحيطة بالقاهرة والفسطاط . ومن بين نزحاته تلك ما رواه في المختار . قال (١) : « مشيتُ أنا وأبو إسحاق إبراهيم بن يونس الأنصارى الإشبيلي رحمه الله تعالى إلى ناحية أوسيم ، قرية تشرف على جيزة مصر ، فرأينا هناك من نور الأفحوان ما لم يُر مثله قط في النضارة ، وإشراق أصفره وفقوعه في صفاء أبيضه ونصوغه ، فعملنا عدة مقاطيع فيه ، فلم يتفق لنا من ذلك العمل ما نرضى إثباته إلا بيتان قلتُهُما أنا . وهما :

كَأَنَّ الْأَفْحَوَانَ وَقَدْ تَبَدَّثَ مُحَاسِنُهُ فَرَاقَتْ كُلَّ عَيْنٍ
عِمَادُ زَبَرْجَدٍ وَقَبَابُ تَبَرٍّ تَحَفَّ بِهَا شُرَافَاتُ اللَّجَيْنِ

فرضيناه جميعاً وأعجبَ أبا الحسن (على بن حُبَيْش الشَّيْبَانِي) إعجاباً مفرطاً فأورده بعدُ في بيته ، ولم يتمكن له ذكر الزبرجد ، فذكر الخضرة في البيت الذي يليه فقال :

كَلِمَا هَبَّتِ الرِّيحُ تَمَازَيْدُ سَنَ عَلَى أَسْوَاقٍ مِنَ الرَّيِّ خُضْرُ

ومن التقى بهم في مصر وأنشدوه أبو الحسن البصري الشريف العباسي قال (١) : أنشدني أبو الحسن البصري الشريف العباسي بمصر لنفسه سنة خمس عشرة وأربعمائة :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْإِلَافَ يَعْزِمُ لِلنُّوَى عَزَمْتُ عَلَى جَفْنِي أَنْ يَتَرَقَّقَا
فَخَذْتُ جَفْنِي فِي تَرْكِ جَيْبِي سَالِمًا وَقَلْبِي فِي حَقِّيهِمَا أَنْ يُشَقَّقَا
يَدِي ضَعُفْتُ عَنْ أَنْ تُحَرِّقَ جَيْبَهَا وَلَمْ يَكْ قَلْبِي حَاضِرًا فَيَمْرَقَا

فاستغربت له هذا المعنى واستظرفته . فأنشدني بعده لنفسه من قصيدة له :

(١) المختار من شعر بشار ص ١٢٦

ولو أني جعلتُ أمير جيشٍ لما قاتلتُ إلا بالسؤالِ
لأنَّ الناسَ ينهزمون عنه وقد ثبتوا لأطرافِ العواليِ
فأظهرت استطرافاً لهذا المعنى أيضاً .

وللتجيبِ شعر ساقه في مختاره ، منه قوله زمن شبابه^(١) :

وغيداء كالبدْرِ المنيرِ تطلَّعت

(١) المختار ص ١٧٨ .

ابن القطّاع الصقلّي^(١)

(٤٣٣ — ٥١٥ هـ)

أبو القاسم علي بن جعفر بن علي السعدى^(٢)

ولد بصقلية سنة ٤٣٣ هـ . ووفد إلى مصر . قال ابن خلكان : « الصقلّي المولد ، المصرى الدار والوفاة ، اللغوى » . وهكذا فقد نشأ وتعلم بصقلية ، وقال الشعر صبيّاً فى الرابعة عشرة .

كان أحد أئمة الأدب واللغة ، وله تصانيف نافعة . منها كتاب « الأفعال » أحسن فيه كل الإحسان . قال ابن خلكان : « وهو أجود من « الأفعال لابن القوطية » . وإن كان ذاك قد سبقه إليه . وله كتاب « أبنية الأسماء » جمع فيه فأوعى ، وفيه دلالة على كثرة اطلاعه . وله عروض حسن جيد ، وكتاب « الدرّة الخطيرة فى المختار من شعراء الجزيرة »^(٣) يعنى جزيرة صقلية من مواطنيه ، وكتاب « لمح الملح » جمع فيه خلقاً من شعراء الأندلس .

وكان من أساتذته فى صقلية ابن البر اللغوى وأمثاله . وأجاد فى النحو غاية الإجادة قال ابن خلكان : ورحل عن صقلية لما أشرف على تملكها الأفرنج ، ووصل إلى مصر فى حدود سنة خمس مائة (٥٠٠ هـ) ، وبالح أهل مصر فى إكرامه . وكان أول ما نزل بالإسكندرية .

واتصل بالوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، ومدحه بمدائح ، وتردد على مجلسه وكان من شعرائه . وأقام بالفسطاط أو القاهرة حتى زمن وفاته سنة ٥١٥ هـ بعد مقتل الأفضل . ودفن بقرب ضريح الإمام الشافعى .

وعمر طويلاً فقد جاوز الثمانين . وعلم ، وتخرج على يديه جماعة من المصريين ومما مدح به الأفضل قوله فى مطلع قصيدة :

(١) راجع فى ترجمته الخريدة ٥١/١ قسم شعراء المغرب بتحقيق عمر الدسوقي وعلى عبد العظيم ، طبع دار نهضة مصر سنة ١٩٦٤ م . والخريدة طبع تونس ٥١/١ ، ووفيات الأعيان ٢/٣٢٢ إحسان عباس . وأنباء الرواة ٢/٢٣٦ وبنية الزعاة ، ومعجم الأدباء .

(٢) ذكر اسمه فى تحقيق الدسوقي وعبد العظيم على بن عبد الرحمن بن جعفر على خلاف الوفيات .

(٣) والكتاب مفقود . وله مختصر اسمه « الكتاب المتحل من الدرّة الخطيرة فى شعراء الجزيرة » للشيع

أبى اسحاق بن أغلب — منه نسخة خطية بتمورية دار الكتب المصرية رقم ٢٢١٦ تاريخ وقام بنشرها المستشرق الإيطالى أمبرتو زيريتانو .

ذی دیارها فقفا
من حدیثها طرفا

صاحبی وأسفا
واسمعا أبثكما

وقال من أخرى :

وسناؤهم من عهد ساء ساء
يحميه منه لبث غاب حام

من ذا يطيق صفات قوم مجدهم
وحماهم من عهد حام لم يزل

ويقول :

مثل ما يدرك الصباخ المساء
منك !؟. هيهات أين منك النجاء

أنت كالموت تترك الخلق طرا
كيف يرجو الذي أخفت نجا

وهو محيط بقول النابغة :

« وإنك كالليل الذي هو مُدركي » .

ومعظم ما اختاره العماذ وابن خلكان من شعره في الشراب والغزل ،
والشكوى ووصف الشيب والزهد ربما في أخريات أيامه .

يقول في الغزل :

سُموطاً من الياقوت قد رُصعت دُرّاً
ثُرْدُ عيون الناظرين لها حَسْرَى
كَأَنَّ بعينها إذا نظرت سِحْراً

إذا ابتسمت يوماً رأيت بثغرها
وإن أسفرت عاينت شمساً منيرة
وتسلب عينها العقول إذا رنت

ومنها :

ومن قبحت أفعاله استحسن العذرا
إلى البيض منها كان لو أنصفت أخرى

ألا إنما البيض الحسان غواير
يملن إلى سود القرون وميلها

ومن قوله في الشراب :

خَلَّتْ ثَغْرًا فِي كَأْسِهَا لَوْلُوِيَا
فَاصْطَبَحَهَا سُلَافَةٌ تَتْرَكَ الشَّيْخَ
وَاعْتَنِمَ غَفْلَةَ الزَّمَانِ فَإِنَّ الْمَرْءَ رَهْنٌ مَادَامَ يُوجَدُ حَيًّا
قَطَعَ الْعَذْرُ يَا عَذُولِي عِذَارَ كَهَلَالٍ أَنَارَ بُدْرًا سَوِيًّا

قهوة . إن تيسمت لمزاج
فاضطربحها سُلَافَةٌ تَتْرَكَ الشَّيْخَ
وَاعْتَنِمَ غَفْلَةَ الزَّمَانِ فَإِنَّ الْمَرْءَ رَهْنٌ مَادَامَ يُوجَدُ حَيًّا
قَطَعَ الْعَذْرُ يَا عَذُولِي عِذَارَ كَهَلَالٍ أَنَارَ بُدْرًا سَوِيًّا

وقوله :

فاسقنيها . قهوة مُنْشِقَكَة

أقبل الصبح وصباح الديكة

قهوة لو ذاقها ذو نُسك
فأهن دُنياك تُعزّرك ، ولا
واغتنم عُمرَكَ فيها طائراً
وقوله :

شَرِبْتُ دِرْيَاقَةَ لَد
دَبْتُ بِحَسَمِي فَأُزِدْتُ
قَتَلْتُهَا بِمَزَاج
كَأَنَّهَا طَلَبْتَنِي
هُمُوم إِذْ لَبِيتَنِي
هُمُومُهُ وَشَفِيتَنِي
وَبَعْدَ ذَا قَتَلْتَنِي
بِالنَّارِ إِذْ صَرَعْتَنِي

ومن أوصافه ولعله من أبيات يصف أحد أعياد المصريين بالنيل والشموع
تنعكس على صفحته كما جاء في أقوال غيره ممن أشرنا إليهم . يقول :
أَنْظُرْ إِلَى الْمَاءِ حَامِلاً لَهَا
ومن وصفه قوله في الرمان :

رُمَانَةٌ مِثْلُ هَذَا الْعَانِقِ الرَّيْمِ
كَأَنَّهَا حُقَّةٌ مِنْ عَسْجِدٍ مُلِثَ
يُزْهِى بَلَوْنٍ وَشَكْلٍ غَيْرِ مَسْمُومٍ
مِنَ الْيَوَاقِيتِ نَرّاً غَيْرِ مَنْظُومٍ
ومن أقواله في الحكمة ، والشكوى ، وذكر الشيب والزهد :

فَلَا تُنْفِدَنَّ الْعَمَرَ فِي طَلَبِ الصَّبَا
وَلَا تُتْلِبَنَّ أَطْلَالَ مَيَّةٍ بِاللَّوَى
فَإِنَّ قِصَارَى الْمَرَّةِ إِدْرَاكَ حَاجَةٍ
ويقول :

فِيَا نَفْسُ عَدِي عَنْ صَبَاكَ فَإِنَّهُ
أَفْقَى إِنَّ فِي خَمْسِينَ عَاماً لَحُجَّةً
قَبِيحٌ بِرَأْسِ الْمَشِيبِ مُعَمِّمٌ
عَلَى ذِي الْحِجَى إِنْ لَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ عَمِي

ويقول :

تَنَبَّهُ أَيُّهَا الرَّجُلُ الشُّومُ
وَقَدْ أَبْدَى ضِيَاءَ الصُّبْحِ عَمَّا
فَلَا تَغْرُوكَ يَا مَغْرُورُ دُنْيَا
وَلَا تَخْطِطُ بِمَجْوَجِ غَمُوضٍ
فَقَدْ تَجَمَّثَ بِعَارِضِكَ النَّجُومُ
أَجَنْ ظِلَامَهُ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ
غُرُورٌ لَا يَدُومُ لَهَا نَعِيمٌ
فَقَدْ وَضَحَ الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ

أمية بن أبى الصلت (ت ٥٢٩ هـ) (١)

هو أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت :

قال عنه العماد في الخريدة (٢) : « من أهل المغرب ، وسكن الإسكندرية » .

ويقول مؤرخوه إنه ولد بدانية سنة ٤٦٠ هـ — ١٠٦٨ م . وذكر ابن خلكان أن ذلك كان في فاتح المحرم أو في ذى الحجة من السنة السابقة .

وقد عاش يتيماً ، لأن والده توفي وهو صغير ، ويذكر المؤرخون أنه أصطحب أمه في رحلته الأولى إلى مصر ، ولم يذكر والده .

ولا تفصل الأنباء شيئاً عن مدة إقامته بالأندلس ، ولا عن بقائه في بلده دانيه ، ويذكر المقرئ أنه عاش عشرين سنة في أشبيلية ، أى أنه لم يغادر الأندلس إلا بعد العشرين من عمره ، وربما كان ذلك في الخامسة والعشرين أو بعد ذلك .

وآثار أمية وعلمه يدلان على أنه حصل كثيراً من العلوم فضلاً على موهبته الأدبية التي مكنته من قول الشعر وإنشاء الرسائل ، وتأليف الكتب . ويذكر المؤرخون لحياته نبوغه في علوم الطب والفلسفة والتنجيم والتاريخ والموسيقى . قال عنه العماد : « كان أوحّد زمانه وأفضل أقرانه ، متبحراً في العلوم . وأفضل فضائله المنشور والمنظوم ، وكان قدوة في علم الأوائل ذا منطق في المنطق بدسحجان وأثل » .

وكذلك قال عنه ياقوت : « كان أديباً فاضلاً ، حكيماً منجماً » .

وقال عنه ابن أبى أصيبعة : « قد بلغ في صناعة الطب مبلغاً لم يصل إليه غيره من الأطباء ، وحمل من معرفة الأدب ما لم يكن يدركه كثير من سائر

(١) راجع ترجمته في معجم الأدباء ج ٧ ص ٢٠ ، وفيات الأعيان . وخريدة القصر قسم شعراء المغرب ١ / ١٨٩ ، وعبود الأنبياء لابن أبى أصيبعة ج ٣ ص ٨٦ ، ونفع الطيب للمقرئ ٢ / ٣٠٨ ، وحسن المحاضرة للسيوطي ١ / ٥٣٩ ، شذرات الذهب لابن العماد ٤ / ٨٢ .

الأدباء . وكان أُوحد في العلم الرياضى والإلهى ، كثير التصانيف ، بديع النظم » .

وقد استزاد من العلم الذى حصله في بلده بما حصله من العلم والأدب سنوات إقامته بمصر والقاهرة والإسكندرية . ويقول المقرئ أنه أفاد كثيراً من قراءة الكتب بالمكتبة التى سجن فيها بأمر الأفضل نحو ثلاث سنوات . وألم بعلم الموسيقى والتلحين والغناء ، وأجاد العزف على العود ، وكثيراً ما كتب أشعاراً ليلحنها ويغنىها . قال المقرئ : « وأمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين ، وهو الذى لحن الأغاني الأفريقية . قال ابن سعيد : وإليه تنسب إلى الآن » (١) .

وجاء أمية إلى مصر وقد بلغ من العمر نيفاً وعشرين عاماً ، وقضى بمصر عشرين سنة على حد قول ابن سعيد (٢) . وتضطرب أخباره في مصر وتحتلط عند المؤرخين .

ولكننا نرجح أنه تردد بين مصر والمهدية ، وأنه في أول أمره جاء إلى مصر مباشرة من بلده كغيره من الأندلسيين والمغاربة ، وصحب معه في تلك المرة أمه ، وكان ذلك في حدود سنة ٤٨٥ هـ (٣) ، وأقام بالإسكندرية زمناً لا نعرفه ، وربما التقى هناك بصديقه الشاعر ظافر الحداد شاعر الإسكندرية في عصره . وربما انتقلا معاً إلى القسطنطينية حيث أقاما . فقد روى صاحب البدائع أنه سكن في منزل بدار بالخططة المعروفة بدويرة خلف بمصر (القسطنطينية) وكان مكتوباً على جدرانها بعض الشعر مما تركه بها أمية (٤) .

ونفترض أن أمية ظل بالإسكندرية ما تبقى من سنوات القرن الخامس وبضع سنوات من أول القرن السادس ، وعاش أول وفوده بضع سنوات في خلافة المستعلى ، ثم بعد في خلافة الأمر إلى سنة ٥٠٦ هـ ، ثم غادر مصر إلى المهدية في هذه السنة حيث حلّ بيلاط يحيى بن تميم بن المعز قبل وفاته سنة

(١) نفح الطيب ٢ / ٣٠٨ .

(٢) المغرب ٢ / ٢٥٦ ، بتحقيق د . شوقي ضيف .

(٣) بدائع البداية ، ص ١٨٠ — ١٨٢ .

(٤) يحدد ابن خلكان سنة ٤٨٩ هـ .

٥٠٩ هـ بثلاث سنين ، ونفترض أنه عاش بها حتى عاد مرة ثانية إلى مصر ليلقى الأفضل سنة ٥١٤ هـ ويمدحه .

وقد تكون رحلته الثانية إلى مصر بعد وفاة يحيى بن تميم سنة ٥١٠ هـ على حد قول ابن أبي أصيبعة ووافقه قدرى حافظ طوقان .

ويقول المقري أنه جاء في المرة الثانية موفداً من صاحب المهدية إلى خليفة مصر ، ولعلَّ صاحب المهدية آنذاك كان على بن يحيى بن تميم ، وأراد بهذه الوفادة أن يُصلح ما شاب العلاقة بين يحيى وخليفة مصر وحكامها من شوائب .

ومعلوم أن أمية خرج في زيارته الأولى لمصر غاضباً ، غير راضٍ لما لقيه من الأفضل الجمال من معاملة سيئة ، فقد أمر بسجنه في خزانة البنود أو في خزانة الكتب . وألف رسالته المصرية . يعبر عن هذه الغضبة ، فذم المصريين ، وقدمها ليحيى بن تميم صاحب المهدية بتونس ولولا أنه آتس في نفسه ميلاً إلى هذا الذم لما قدمها إليه على هذه الصورة .

على أية حال فإن المياه عادت إلى مجاريها مرة أخرى بعد تغير أمير المهدية ، ولعله أراد أن يكسب ودَّ الأمر ، ووزيره الخطير الأفضل . ويمكن أن يكون مديح أمية للأفضل سنة ٥١٤ هـ بأبيات يقول فيها :

نسختُ غرائب مدحك التشيبيا	وكفى به غزلاً لنا ونسبياً
لله شاهنشاه عزمتك التي	تركت لك الغرض البعيد قريباً
لا تستقرُّ ظباك في أعمادها	حتى تروّحها دماً مصبوباً

وبقى في مصر هذه الزورة الثانية وكان قد فقد أمه ، واقتربت سنه من الخمسين وتجاوزتها ولا ندرى كم مكث بمصر والإسكندرية ، وإن كنا لا نرجح سفره قبل عام ٤١٥ هـ الذي قتل فيه الأفضل وتولى البطائحي الوزارة ، واضطربت الأمور رداً من الزمن بالقاهرة .

وهكذا غادر أمية مصر للمرة الثانية إلى القيروان فالمهدية وظل هناك حتى توفي سنة ٥٢٩ هـ بعد أن قضى أربع عشرة سنة أو أقل ملازماً للأمير على بن

يحیی ، وقد وقع منه موقعاً طيباً ، ولأق من معاملة حسنة ، وأعدق عليه فرضی إلى جواره ومدحه بعدة قصائد بقى لنا منها بعضها فيما بقى من شعره .
وشعره لم يصلنا كله ، فديوانه لم يعثر عليه ، وكل ما بين أيدينا ما تفرق من شعره في مصادر متعددة ، قام أحد الدارسين بجمعه^(١) .

ويهمنا بالدرجة الأولى وفوده إلى مصر ، وعلاقاته بها ، ومن اتصل بهم من الرجال فقال فيهم شعراً ، ومن رافقهم من الشعراء والأدباء ، فكانت بينه وبينهم مودة ، وتبادلوا وإياه الرسائل والأشعار .

ومن بين الرجال المشهورين الذين لقيهم ببلاط الأفضل تاج المعالي مختار ، وهو من خواص الوزير المقربين ، كانت منزلته عنده عالية ، ومكانته بالسعد حالية على حد قول ياقوت في ترجمته . وكانت خدمة أمية له بصناعتي الطب والنجوم . ويبدو أن هذه المهنة هي التي فتحت له أبواب قصر الأفضل أولاً ، ثم تبعها المديح وربما كانت هذه المهنة أو المعرفة بالعلوم والكيمياء من أسباب محنته كذلك كما كانت من أسباب سعده .

على أية حال فقد لقي قبولاً لدى تاج المعالي هذا فقدمه إلى الأفضل فكان من جلسائه الأدباء وتعرف في مجلسه على جماعة من رجال مصر بمن فيهم الأمير أبو الثريا .

وكان أبو الثريا هذا شاعراً ، وله مع أمية محاورات شعرية ، ومدحه .
ونتساءل عما إذا كانت معرفة أبي الصلت بأبي الثريا في آخر القرن الخامس أم أوائل السادس عند عودته إلى مصر بعد غيبة ما يقرب من خمس سنوات ؟..
لأن أبا الثريا يخاطب أبا الصلت بقوله :

أبا الصلت يا قطب المكارم والفضل	وأفضل من يُنمى إلى كرم الأصل
ومن حاز أسباب الرئاسة والعلا	وبالجود وبالفعل الجميل وبالتبّل
وأصبح في كلّ العلوم ميرزا	يسابق فيها كلّ مجر على رُسُل

(١) هو محمد المرزوقي جمعه بعنوان « ديوان الحكيم أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني » نشر دار الكتب الشرقية بتونس .

ولا يبلغ أمية هذا القدر من المعرفة والرئاسة قبل الثلاثين . وقبل أن يبلغ الأربعين وتكتمل له أسباب الرئاسة والعلم بما حصل ، وما لقي من التكريم والتقدير .

والرجل الثالث من رجال العصر الذين لقيهم بمصر هو الشاعر ابن مكنسة إسماعيل بن محمد المتوفى سنة ٥١٠ هـ ، ونرى أن علاقته به تمت في رحلته الأولى وقد ذكره في رسالته المصرية التي ألفها بعد وصوله إلى المهديّة بعد سنة ٥٠٥ هـ ، وأثنى عليه من بين من لقيهم بمصر حيث ذ .

وظلت علاقة الود قائمة بين الرجلين بعد الفراق ، وتبادلا رسائل الشعر وبعد عودة أمية إلى مصر لقيه صديقه إسماعيل بهذه الأبيات (١) :

وما طائرٌ قصَّ الزمانُ جناحه	وأعدمه وكرأ وافقده إلّفا
تذكرُ فرحاً بين أفنانٍ بانيةٍ	حوافٍ الخوافٍ ما يطرنُ به ضَعْفًا
إذا التحف الظلماءُ ناجى همومه	بترجيع نوح كاد من دقة يخفى
باشفق منى مُذ أطاحت بك التوى	هوائية مائية تسبق الطرفا
ثوّلت وفيها منك ما لو أقيسُهُ	بما هي فيه كان في فضله أوفى

والصديق الآخر الإسكندريّ أيضاً والذي ربطت بينه وبين أمية روابط المحبة الشاعر ظافر الحدّاد . عقدت بينهما أواصر الصداقة منذ مجيء أمية إلى الإسكندرية وهو شاب لأول مرة مع أمه ، وظلت العلاقة بينهما وطيدة ، فانتقلا معاً إلى القسطنطينية ، وسكنّا بها وجالسّا الأفضل ومدحاه وتلازما في مجالسه حتى حدثت الجفوة بين الوزير وأمية فانفصل أمية إلى الإسكندرية ، ومنها غادر إلى القيروان فالمهديّة ، وبقي هناك ما بقي من السنين ، والملفت للنظر أن أمية على صداقته بظافر لم يذكره في الرسالة كما فعل مع صديقه الآخر ابن مكنسة .

وهذا الأمر يدعو إلى التساؤل ؟ . هل حدث شيء بين الصديقين قبل سفر أمية ، أو في أثناء أزمته مع الوزير الأفضل وحجسه ؟ . ربّما . لكن الشاعرين لم

(١) خريدة القصر ، القسم المعري ٢ / ٢٠٣ .

يفصحنا عن شيء ، بل إن ظافراً بعث بقصيدة إلى صاحبه بالمهدية يتشوق فيها إليه ، عدتها ثمان وعشرون بيتاً . يقول فيها :

ألا هل لدائ من فراقك إفرأق هو السَّم ، لكن في لقائك درياق
فيا شمس فضل غرَّبْتُ ولضوئها على كل قطر بالشارق إشراق
سَقَى العهد عهداً منك عمر عهده بقلبي عهد لا يضيع وميثاق
يجدده ذكرٌ يطيب كما شدت وُرَيْقَاءُ كَتَّتْها من الأيك أوراق
لك الخُلُقُ الجزل الرفيع طرازه وأكثر أخلاق الخليفة أخلاق
لقد ضاء لتنى يابا الصلِّتْ مُدْنَاتُ ديارك عن دارى هموم وأشواق
إذا عَزَى إطفائها بمدامعى جرت ولها ما بين جسمى إحراق
يقول فيها :

أخى ، سيدى ، مولاى دعوة من صفَا وليس له من رِقِّ ودك إعتاق
لئن بُعِدَتْ ما بيننا شُقَّةُ النوى ومطر د طامى الغوارب خفاق

وقد أشرنا فى حديثنا عن ظافر إلى هذه الصداقة وما تبادلها فيها من أشعار .
والأديب الشاعر الثالث الذى تعرف عليه ببلاط الفاضل هو الكاتب على
بن منجب الصيرفى الذى كتب للأفضل ، وتولى ديوان الإنشاء فى عهد
الآمر . وقد ربطت زمالة تحولت إلى صداقة بين أمية والصيرفى .
وقد كتب أمية للصيرفى من السجن قصائد يرجوه أن يشفع له عند الأفضل
لإطلاقه فكان ردُّ الصيرفى عليه :

لئن سترتك الجُنْدُرُ عَنَّا فرجا رأينا جلايب السَّحابِ على الشمس

ولم تكن حياة أمية فى مصر جادة كلها ، بل كان يستمتع بملاهى الحياة
وملاذها ، تجول فى أنحاء مصر القريبة من الإسكندرية والقاهرة ، وزار كثيراً
من المنازة المعروفة فى عصره وأشرنا إليها مراراً فى حديثنا السابق كبساتين بركة
الحبش ، وساحل النيل والنيل ، والجيزة والمقطم ، ومرصد المقطم ، ودير
القصير ، ودير مازحنا ، ومتع نفسه بالشراب وسماع الغناء وغيرهما من متع
الحسن .

شعره

ونبدأ حديثنا عن شعره الجاد ، وأوله المديح التقليدى .

قال يمدح الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش الأفضل الجمالى :

نسخت غرائب مدحك التشيبيا وكفى به غزلاً لنا ونسيا
وتحس وأنت تقرأ أبيات أمية فى مديح الأفضل بآثار الصنعة والتكلف وأن
الرجل إنما ينطق من طرف اللسان . يقول :

لله شاهنشاه عزمتك التى تركت لك الغرض البعيد قرينا
لا تستقر طُباك فى أعمادها حتى تُروّيها دماً مصبُوباً
والخيلُ لا تنفكُ تُعْتَسِفُ الدُجى تحبباً إلى الغارات أو تقرباً
ويَدع وصف صاحبه ومديحه ليصف الخيل فى تسعة أو عشرة أبيات حتى
يقول :

تُردى بكلّ فتى إذا شهّد الوغى نثر الرّماح على الدروع كعوبا
وتأمل معى أى تكلف فى نظم هذا البيت ؟.

ويعضى فى هذا الكلام المصنوع يلفق فيه معانى السابقين ، ويُعيد صياغتها
بلفظ لا سلاسة فيه ولا موافقة لعصره ، ولا لمصره . وانظر معى إلى هذه
المعانى المستهجنة المستهلكة فى لفظ مكرور غث الصياغة :

وبكثت فى كلّ البلاد مهابة طفق الغزال بها يُواخى الذيا
وهمت يداك بها سحائب رحمة ينهل كل بنانها شؤبوا
ونصرت دين الله حين رأته مُتخضباً بيد الردى منكوباً

وهكذا يعضى فى نظمه هذا إلى آخر القصيدة فلا نعثر بمعنى يسترعى الانتباه
أو يملك على القارىء وجدانه ، ويثير إعجابه . حتى يصل إلى ختامها ،
فيضمّنه استجداء صريحاً إذ يقول :

وأنا الغريب مكائه وبيانه فاجعل صنيعك فى الغريب غريباً

وتختلف النعمة فى مديح الصنهاجين بالمهدية ، والتعريض بمن مدح المصريين
فيقول فى مدح يحيى بن تميم الصنهاجى :

فلم أَسْتَسِيحْ إِلَّا نَدَاهُ ، ولم يَكُنْ
فما كُلُّ إنْعَامٍ يَخْفُفُ احْتِمَالُهُ
ولكنْ أَجَلَ الصَّنْعِ ما جَلَّ رَبُّهُ
وما شئت إِلَّا أَنْ أَذِلَّ عَوَازِلُ
وَأُعْلِمَ قَوْمًا خَالِفُونِي وَشَرُّوا
لِيُعْدِلَ عِنْدِي ذَا الْجَنَابِ جَنَابُ
وإنْ هَطَلَتْ مِنْهُ عَلَيَّ سَحَابُ
ولم يَأْتِ بَابَ دُونِهِ وَحِجَابُ
على أَنْ رَأَيْتُ فِي هَوَاكَ صَوَابُ
وَعَرَّبْتُ أَنِّي قَدْ ظَفَرْتُ وَخَابُوا

ونقرأ هذه الأبيات من قصيدة يمدح بها علي بن يحيى الصنهاجي لنذكر فرق
ما بين صنعته في مديح الأفضل ، وصنعتة هنا . يقول :

تَأَلَّقَ مِنْكَ لِلحُرْصَانِ شُهْبُ
على لِمِ الدُّجَى مِنْهَا مَثِيبُ
نُجُومٌ فِي الْعِجَاجِ لَهَا طُلُوعُ
وَفِي ثَغْرِ الكَمَاةِ لَهَا غُرُوبُ
وَقَدْ غَشَاكَ مِنْ سَوْدِ الْمَنَايَا
سَحَابٌ وَدَقُّهُنَّ لَهُ صَيِّبُ
فَلَا بَرَقَ سِوَى بَيَاضٍ خِفَافٍ
تَقَطُّ بِهَا الْجَمَاجِمُ وَالتَّرِيبُ
تَغَادِرُ كُلَّ سَابِغَةٍ دِلَاصٍ
كَمَا شَقَّتْ مِنَ الطَّرَبِ الْجِيُوبُ

صحيح أن هذا الشعر في مرحلة متأخرة عن شعره الذي قاله في الأفضل
وقد يكون لنضج الشاعرية أثر في الاتقان إلا أن الروح الشعرية ، وصدق
الاحساس واضحان هنا، مفقودان هناك، وذلك — كما قلت — لأنه يتحدث هنا
من قلبه، وحديثه هناك إنما كان من طرف اللسان .

ونسوق من مديحه هذه الأبيات في الحسن بن علي بن يحيى الصنهاجي :

لَمْ يَدْعُنِي الشَّوْقُ إِلَّا اقْتَادَنِي طَرِبًا
ولم يَدْعُ لِي فِي غَيْرِ الْعَسَا أَرِبًا
وَذُو الْعِلَاقَةِ مِنْ لَجِّ الْغَرَامِ بِهِ
وَكَلِمَا لَيْمٍ أَوْ سِيمِ التَّنْزُوعِ أُنْبِي
كَانَتْ لِي لِنَا وَقْفَةً بِالشَّعْبِ وَاجِدَةً
عَنْهَا تَفَرَّغَ هَذَا الْحُبُّ وَانْشَعَبَا
وَلَا هُمْ لِي لَمْ أَحْفَلْ مَلَامَتُهُ
وَلَا سَمَحَتْ لَهُ مَنَى بَمَا طَلَبَا

قال : اسأل فالحب قد غناك . قلت : أَجَلٌ حَتَّى أُرَاجِعَ مِنْ لِيّ الَّذِي عَزَبَا

طَرَفِي الَّذِي جَلَبَ الْهَلْوَى إِلَى بَدَنِي
فُلِمْتُ دَوْنِي فِي الْخُطْبِ الَّذِي جَلَبَا
هُوَ الْهَوَى ، وَهَوَانِي فِيهِ مُحْتَمَلٌ
وَرَبِّ مَرَّ عَذَابِي فِي الْهَوَى عَذَبَا
أَمَّا تَرَى ابْنَ عَلِيٍّ حِينَ تَيْمِهِ
حُبُّ الْعَلَا كَيْفَ لَا يَشْكُو لَهُ وَصَبَا
أَعْرُ مَا بَرَحَتْ تَتْنَى عِزَائِمُهُ
سَيْفُ الْهَدَى بِنَجِيعِ الشَّرْكِ مُحْتَضِبَا
قَدْ أَصْبَحَ الْمَلِكُ مِنْهُ فِي يَدَيَّ مَلِكٌ
مُرُّ الْحَفِيزَةِ يَرْضَى اللَّهُ أَنْ غَضَبَا

وهذا المدح متوسط الجودة ، بل عادى ، وقد يكون النسيب فيه أكثر قبولاً
ورُبما أدخل على الأبيات طرافة ما عرض فيها من وصف قصر الممدوح
وبساتينه حيث يقول :

إذا سقى الله أرضاً صوبَ غاديةٍ فليسقِ قَصْرَكَ صوبَ الراحِ ما شرباً
قصرٌ تقاصرت الدنيا بأجمعها عنه ، وضاق من الأقطار ما رَجَباً
يقول فيها :

وحبذا قضب النارنج مشمرةً بين الزبرجد من أوراقها ذهباً
وحبذا الورق فوق القُضْب ساجعةً والماء في خلل الأشجار مُشْرِباً
سَلْتُ سواقيه منه صارماً عَجَباً لا يأتلى الجَدب منه سمعتا هرباً
حسام ماء إذا كَف الصَّبَا انبعثت لِصَقْلِهِ تركت في مته شطباً
صَفَا ورقٌ فكاد الجوُّ يشبههُ لو أن جُرَّاجرى في الأرض وانسكبا
عقار دنٌ فهذى ترتقى شرراً فوق البنان وهذا يرتقى حَبِيباً
حتى لقد جَهِلْتُ للبعد عاصِرها وَأُلسِيْتُ لَتراخى عهدِها العنبا

ومزج وصف البستان مع وصف القصر ، وأدخل في آخر الأبيات وصف
الخمر . والمعاني دارجة ، وَيَسْمُجُ في التقليد إذ يصف جدول الماء بالسيف ،
وهو وصف مررنا به في كثير من الشعر القديم ، وتواردت عليه الشعراء ، وما
ندرى ما الملفت والمعجب بين بياض السيف وامتداده وجدول الماء ، ولا
علاقة بينهما إلا الشكل أما ما وراء الشكل من إبحاء فهما متناقضان ، فالسيف
يوحى بالموت وَالْهَلَاك والقزع والرغبة ، والجدول باعث الحياة ، والجمال
والحب ، والأنس .

لقد أحب أمية الطبيعة ، وأحب الحديث عنها في شعره ، كما عشق الخمر
وتغنى بآلائها ، وفي أعماقه رغبة الحياة والجمال والموسيقى واللهو
والاستمتاع ، وله أناشيد في الطبيعة المصرية كغيره ممن وفد من الأندلسيين
والمغاربة .

وسبق أن ذكرنا أبياته في بركة الحبش^(١) :

(١) ديوانه المجموع ص ٦١ .

عَلَّلَ فَوَازِكُ بِاللَّذَاتِ وَالطَّرِبِ
أَمَا تَرَى الْبِرَكَّةَ الْعَنَاءَ قَدْ لَبَسَتْ
وَأَصْبَحَتْ مَنْ جَدِيدِ التَّبَيُّتِ فِي حُلَلِ
مَنْ سَوَّسَ شَرْقِ بِالطَّلِّ مَحْجَرُهُ
وَانْظُرْ إِلَى الْوَرْدِ يَحْكِي نَحْدَ مُحْتَشِمِ
وَالنَّيْلُ مِنْ ذَهَبٍ يَطْفُو عَلَى وَرْقِ
وَرَبِّ يَوْمٍ نَقَعْنَا فِيهِ غُلَّتْنَا
شَمْسٌ مِنَ الرَّاحِ حَيَّانَا بِهَا قَمَرٌ
أَرْجَى ذَوَائِبَهُ وَاهْتَزَّ مِنْعُطَا
فَاطْرَبَ، وَكُونُكُهَا فَاشْرَبْ فَقَدْ نَعِبْتُ

وَبَاكَرَ الرَّاحَ بِالطَّاسَاتِ وَالتَّحْبِ
فَرَشًا مِنَ التَّوَرِّ حَاكَتُهُ يَدُ السُّحْبِ
قَدْ أَيْزَ الْقَطْرِ فِيهَا كُلُّ مُحْتَجِبِ
وَأَقْحَوَانِ شَهِيٍّ الظَّلَمِ وَالشُّنْبِ
مَنْ نَرَجَسَ ظِلٌّ يَحْكِي لِحْظَ مُرْتَقِبِ
وَالرَّاحُ مِنْ وَرْقٍ يَطْفُو عَلَى ذَهَبِ (١)
بِجَاحِهِمْ مِنْ حَشَا الْإِبْرِيقِ مُلْتَهَبِ
مَوْفٍ عَلَى غُصْنٍ يَهْتَزُّ فِي كَتَبِ
كَصْعَدَةِ الرُّمَحِ فِي مُسَوِّدَةِ الْعَذَبِ
عَلَى التَّصَايِي دَوَاعِي اللُّهُوِ وَالطَّرِبِ

وقال في الرصد (المرصد بالمقطم) الذي بظاهر القاهرة :

يَا نُزْهَةَ الرِّصْدِ الَّتِي قَدْ اشْتَمَلَتْ
فَذَا غَدِيرٌ ، وَذَا رَوْضٌ ، وَذَا جَبَلٌ

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَلَا فِي جَانِبِ الْوَادِي
وَالضُّبُّ ، وَالتُّونُ ، وَالْمَلَأُحُ وَالْحَادِي

وقال في دير مَرْحَنَّا بِمِصْرَ :

يَا دَيْرَ مَرْحَنَّا لَنَا لَيْلَةٌ
نَقَعْنَا فِي لَيْلَةٍ أَعْرَبْتُ
وَاللَّيْلُ فِي شَمْلَةٍ ظَلَمَائِهِ
نَشْرَبُهَا صَهْبَاءَ مَشْمُولَةٍ
وَهِيَ إِذَا نَفَسَ عَنْ أَذْنِهَا

لَوْ شَرِيتَ بِالنَّفْسِ لَمْ تُبْعَسِ
آدَابُهُمْ عَنْ شَرَفِ الْأَنْفُسِ
كَأَنَّهُ الرَّاهِبُ فِي الرَّئِيسِ
تُغْنِي عَنْ الْمَصْبَاحِ فِي الْجِنْدِيسِ
أَذَكَّى مِنَ الرَّيْحَانِ فِي الْمَجْلِسِ

ولأمية غير الوصف المعروف لمظاهر الطبيعة وصف للحيوان والطيور فيصف
لنا كلب الصيد على طريقة طَرْدِيَّاتِ أُمِّي نَوَاسٍ وَغَيْرِهِ مِمَّنْ أَجَادَ فِيهِ ، يَقُولُ (١) :

على وزن الرجز :

خَيْرُ مَعَدٍّ مُتَّخِذُ
مُنْفَرِدٌ بِالْحُسْنِ قَدْ
سَبَقَ التَّنْصُولِ لِلْقَذْدِ
لَا رَأْيَ حَتَّى أُتَّخَذَ

لِيَوْمٍ عَيْشٍ مُسْتَلَذٍّ
سَوْبَقَهُ بِالْعُجْرَدِ قَبْدٌ
فَمَا انْصَرَفَ إِلَّا مُعَذَّ

(١) الورق : القصة .

وقال يصف الطاووس :

أهلاً به لما بدا في مشيه	يختال في حلال من الخلاء
كالرؤضة الغناء أشرف فوقه	ذنب له كاللدوحة الغناء
ناديته لو كان يفهم منطقي	أو يستطيع إجابة لندائي
يا زافعا قوس السماء ولايساً	للحسن روض الحزن غب سماء
أيقنت أنك في الطيور مملك	لما رأيتك منه تحت لواء

ووصف كثيراً من مظاهر الحضارة الزاهرة في القاهرة والقيروان . فيقول
مُصَوِّراً مجلس يحيى بن تميم الصنهاجي صاحب القيروان والمهدية ، وما فيه
من فخامة وجمال :

لله مجلسك المنيف قباه	بموطد فوق السماك مؤسس
موف على حبلك الحجر ثلثي	فيه الجوارى بالجوارى الخس
تقابل الأنوار في جنباته	فالليل فيه كالنهار المشمس
عطفت حناياه دوين سمائه	عطف الأهلة والحواجب والقسي
واستشرفت غمد الرخام وظهوره	بأجل من زهر الربيع وأنفس
فهواؤه من كل قد أغيد	وقراره من كل خد أملس
فلك تحير فيه كل منجم	وأقر بالتقصير كل مهندس
فبدا للحظ العين أحسن منظر	وغدا لطيب العيش خير معرس

وهكذا فإن شعره يعكس صوراً من حضارة الإسلام الزاهرة في عصره ،
ويرسم صوراً من صور الترف الذي عاشه الحكام وسراة القوم ، ونلاحظ
عامّة أن الشعراء حين يصفون مظاهر النعيم والترف التي عاشها الأغنياء
والقادرون ، فإنما يستدعون صور الجنة في أوصافهم لأن أولئك المملكون
حاولوا أن يحققوا في حياتهم ، ما وقر في خلدتهم من صور نعيم النعيم في الآخرة
بما فيها من حور عین ، وبساتين ونخل ورومان ، وكؤوس شراب يطوف بها
ولدان ، وهم متكئون على فرش من حرير ، ويلبسون أساور الذهب والفضة .

وتمر في شعره على كلام فيما لقيه في حياته من سفر وركوب للبحر ، وما
عاشه من تجارب الحياة والناس بما فيها من فرح وتوخر ، ووفاء وجحود .
ولفظه من ثروة معلوماته وعلمه ، وفيها من مصطلح علوم الطب والفلك
وغيرها من العلوم التي برع فيها .

ابن أبى البشائر

أبو الحسن على بن عبد الرحمن الكاتب الصقلى الشاعر :
عاصِرَ أُمِيَّةِ بن أبى الصلت ، وأورد له شعراً بالرسالة المصرية^(١) ، واصفاً
إياه بالبلاغة . قال أُمِيَّة : وقد تعاوَرَ الشعراء وصف وقوع الشعاع على
صفحات الماء . ومن مليح ما قيل قول بعض أهل العصر وهو أبو الحسن على
بن أبى البشائر الكاتب :

شربنا مع غروبِ الشمسِ شمساً مشعّشَةً إلى وقتِ الطُّلوعِ
وضوءُ الشمسِ فوقَ التَّيْلِ بَادٍ كأطرافِ الأُسنةِ فى الدُّرُوعِ
وذكر العماد^(٢) أنه قرأ فى مجموع شعره نظماً جيداً يفوق ياقوتاً ودُّراً — .
مشتملاً على المغانى العُزِّ ، فمن ذلك قوله فى راقصة :

هيفاءُ إن رقصتْ فى مجلسِ رقصتْ قلوبُ من حَوَّلَها من جَذَقِها طَرَباً
خفيفةُ الوَطءِ لو جَالَتْ بِحُطُوتِها فى جَفْنِ ذى رَمَدٍ لم يشتكِ الوَصَبَا
وشعره كشعر الكتّاب من حيث الخفة وسلاسة تدفق اللفظ ، ورقيق المعنى
ومما اختاره له مقطوعاتٌ وأبياتٌ تدور فى موضوع الغزل ، والوصف
وشكوى الشيب .

ولكن معظم ما جاء به فى الغزل والشوق وذكر الفراق ، ورسائل المحبوب
من مثل قوله :

لنا فى كُلِّ مُقْتَرَحٍ وَصَوِّبٍ مُفَاجِئَةٌ بِأَسْرَارِ الْقُلُوبِ
فنفهَمُ بالتشاكى ما نُلاقى بلا واشٍ تخافُ ولا رَقِيبِ
وقوله :

وساقِ كمثل الغزالِ الريبِ بصيرِ اللَّحَاطِ بصيرِ القلوبِ
جَسَرْتُ عليه فقَبَّلْتُه مجاهرةً فى جفونِ الرَّقِيبِ

(١) راجع الرسالة المصرية .

(٢) خريدة القصر .

وأَهْدَاهُ لى سَكْرُهُ من قَرِيبٍ
ولَكِنَّهُ من مَلِيحِ الذُّنُوبِ !؟

فَلَمَّا تَوَسَّدَ كَفُّ الْكَرَى
تَعَجَّلْتُ ذَنْباً بِفَتَاكِي بِهِ

وفى شكوى البعاد :

نَازِحٌ لَمْ يَدْعُ لِعَيْنِي هُجُودًا
كَانَ يَوْمِي بِهِ مِنَ الدَّهْرِ عِيدًا
بِوَالآنِ قَدِ اسْتَفْرَقَ الْبَعَادُ الصُّدُودًا
لَقَسْتَنِي الْوُشَاةُ فِيكَ الْجُمُودًا

أَتَرَانِي أُخَيِّى إِلَى أَنْ يَعُودًا
كَيْفَ أَرْجُو الْحَيَاةَ بَعْدَ حَبِيبٍ
كُنْتُ أَشْكُو الصُّدُودَ فِي الْقُرَى
أَشْتَهِي أَنْ أَبْرَحَ بِاسْمِكَ لَكِنْ

وقال :

فليس على البعدِ عندى جَلْدٌ
فَكَيْفَ أَكُونُ إِذَا مَا بَعْدُ

إلى الله أشكو دَخِيلَ الْكَمَدِ
ومن كنت فى القربِ أَشْتَاقُهُ

وقال :

فِيضِي فَقَدْ فَضَحْتَنِي بَيْنَ جُلَاسِي
إِلَّا وَقَدْ رَقُّ لى من قَلْبِكَ الْقَاسِي
أَهْلًا بِذَلِكَ عَلَى الْعَيْنِينَ وَالرَّاسِ

إِلَيْكَ أَشْكُو عِيُونًا أَنْتَ قُلْتَ لَهَا
وَمَا تَرَكْتُ عُدُونًا لى عَلِمْتُ بِهِ
فَإِنْ رَضِيتَ بَأَنْ أَلْقَى الْحَمَامَ فَيَا

ونلاحظ هذا الكلام الذى يجرى على السنة الناس بلا تكلف ولا تقعر .

وقال :

وَلِيَّ طَوِيلٌ بِالْهُمُومِ عَرِيضُ
إِلَى عَزَمَاتٍ مَا لَهْنُ نَهْوِضُ
إِذَا لَاحَ مِنْ بَرْقِ الْعِشَاءِ وَمِيزُ
وَعَظْمُ بَرَاهِ الشُّوقِ فَهُوَ مَهِيضُ
فليس له حتى الوصالِ غَمُوضُ

تَوَلَّوْا وَأَسْرَابُ الدُّمُوعِ تَفِيضُ
وَلَمَّا اسْتَقَلُّوا أَسْلَمَ الْوَجْدُ مُهْجَتِي
تَوَقَّدُ نِيرَانُ الْجُودَى بَيْنَ أَضْلَعِي
وَلَمْ تَبَقْ لى إِلَّا جَفُونُ قَرِيحَةٍ
فَجَحْنُ لِحْزُونٍ جَفَا النَّوْمُ جَفَنَهُ

ويقول فى الطيف :

وَأَنْ يَطْرِقَ الْهَائِمِ الْمَذَنَّا
وَحُلْفَ عِنْدِي مَا تَخَلَّفَا
لَذَلِكَ يَنَاجِيكَ مُسْتَغِظَا
إِلَيْكَ مَحَا دَمْعُهُ أَحْرَفَا

أَلَمْ يَأْنِ لِلطَّيْفِ أَنْ يَعْطِفَا
جَفَا بَعْدَ مَا كَانَ لى وَاصِلَا
أَمَا تَعْطِفِينَ عَلَى خَاضِعٍ
إِذَا كَتَبَتْ يَدُهُ أَحْرَفَا

ولو نُكِّتُ أَمْلِكُ غَرَبَ الدَّمْعِ
غَرَاماً بِاشْعَالِ نَارِ الْغَرَامِ

وقال :

قَدْ أَنْصَفَ السَّقَمُ مِنْ عَيْنِكَ وَأَنْتَصَفَا
يَا سَاهِرَ الطَّرْفِ قَدْ أَغْرَيْتَ بِي كَلْفاً
أَظُنُّ خَدَّيْكَ مِنْ جَارِي دَمِي اخْتَضَبَا
وقال مُلْفِزاً فِي اسْمِ حَبِيبِهِ (١) :

إِثْمُ الَّذِي صَيَّرَنِي مُدْنَفَا
يَلْعَبُ إِنْ رُحِّمَ مَعْكُوسُهُ
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ غَدَا ثَلَاثُهُ
قَدْ غَلَبَ الْقَلْبَ عَلَى صَبْرِهِ
ويقول في رسائل الحب :

كَيْفَ لَمْ يَشْتَغِلْ بِنَارِ اشْتِيَاقِ
كَانَ حُلُوَ الْمَذَاقِ عَيْشِي لِلْقَرِ
فَوْصَبْرِي لَأَخَذَنَّ بَشَارِي

مَنْعَتْ جُفُونِي أَنْ تَذَرَفَا
وَمَا عُذْرُ صَبٍّ بَكَى وَاشْتَفَى

فَهَا هُمَا بِحِكْيَانِ الْعَاشِقِ الدَّنِفَا
بَرْحَا، وَصَيَّرْتَنِي أَسْتَحْسَنُ الْكَلْفَا
لَقَدْ تَنَاهَيْتَ فِي قَتْلِي، وَقَدْ ظُرِفَا

لَمَّا انْتَضَى مِنْ جَفْنِهِ مُرْهَفَا
لَأَنَّهُ قَدْ تَسَقَّى الْأَحْرَفَا
جَذْرًا لثَلَاثِيهِ إِذَا أَلْفَا
وَهَكَذَا يَخْرُجُ إِنْ صُحِّفَا

قَلَمٌ لِي أَبْلُغُهُ مَا الْآفِي
بِ، فَأُضْحِي لِلْبَعْدِ مَرَّ الْمَذَاقِ
مِنْ لِيَالِ الْفِرَاقِ يَوْمَ التَّلَاقِ

ومن رسائله الشعرية ما ردَّ به على رسالة حيث يقول (٢) :

وَصَلَّى الْكِتَابُ وَكَانَ آتَسَ وَاصِلِ
لَا شَيْءَ أَنْفَسَ مِنْهُ مُهْدَى جَامِعَا
فَقَضَضْتُهُ وَجَعَلْتُ أَلْثَمُ كُلِّ مَا
وَفَهِمْتُ مُودَعُهُ، فَرَحْتُ بِغَبْطَةٍ
وَعَجِبْتُ مِنْ لَفْظٍ تَنَاسَقَ فِيهِ مَا
وَلَقَدْ غَبَطْتُ عَلَيْهِ عِلْقَ مَضِيَّةٍ
كَالْزَوْجِ بِأَكْرَهُ الْحَيَا، فَتَفَتَّحَتْ
كَالْعَقْدِ فَصَلَّ لَوْلَا وَزَبْرَجَدَا
دُرٌّ تَرْفَعُ قَدْرُهُ عَنْ قِيَمَةِ

عِنْدِي وَأُحْسَنَ قَادِمِ الْقَاهِ
شَمْلُ الْمَعَانِي لِلَّذِي أَهْدَاهُ
كُتِبَتْهُ أَوْ صَرَّتْ عَلَيْهِ يَدَاهُ
جَذْلَانِ مُبْتَهَجَا بِمَا أَذَاهُ
أَعْلَاهُ، مَا أَحْلَاهُ، مَا أَجْلَاهُ
عُدِمَتْ لَهُ الْأَشْكَالُ، وَالْأَشْبَاهُ
أَزْهَارُهُ، وَتَضَوَّعَتْ رِيَّاهُ
فَتَقَابَلَتْ أَوْلَاهُ مَعَ أُخْرَاهُ
مَنْظُومَةٌ كُبْرَاهُ مَعَ صُغْرَاهُ

(١) واسم الحبيب ذكر وهو « علي » .

(٢) الحريدة ١/ ١٥ قسم شعراء المغرب ، بتحقيق عمر الدسوقي وعلى عبد العظيم .

وفيما اختاره العماد شعرٌ يتلاعبُ فيه بأوزانه ، فيخرج عن تقليد الشعراء .
من ذلك ما يقرأ على خمسة أوزان . وهو قوله :

وَعَزَالِ مُشْتَفٍ قد رثا لي بعد بُعْدِي
لما رأى ما لقيتُ
مثل روضٍ مَفُوفٍ لا أبالي وهو عندي
في حُبِّهِ إِذْ ضَنَيْتُ
وجههُ البدرُ طالعاً تاهَ لَمَّا حَارَ وَدَى
فإنني قد شقيتُ
في قضيبٍ مُهْفَفٍ لَدَّ فِيهِ طُولٌ وَجِدِي
جفا فكدتُ أموتُ
مانعٌ غير مُعْصِفٍ ليس يَأْبَى نَقْضَ عَهْدِي
وليسَ إِلَّا السَّكُوثُ
جائرٌ غير مُنْصِفٍ حَالٌ عَمَّا كَانَ يُبْدَى
إِنَّ الْوَصَالَ بُخُوثُ

وفيه هذا التغير في الأوزان شبيه بنظم الموشح .

ويمكن قراءته على صورة أخرى ليصبح على وزن « بحر الحفيف » .

وَعَزَالِ مُشْتَفٍ قد رَثَى لِي بعد بُعْدِي لما رَأَى مَا لَقِيْتُ
مِثْلَ رَوْضٍ مَفُوفٍ لَا أَبَالِي وَهُوَ عِنْدِي فِي حُبِّهِ إِذْ ضَنَيْتُ
وَجْهَهُ الْبَدْرُ طَالِعاً تَاهَ لَمَّا حَارَ وَدَى ، فَإِنِّي قَدْ شَقِيْتُ
..... إلخ

ويمكن قراءته على وزن مجزوء الحفيف هكذا :

وَعَزَالِ مُشْتَفٍ مِثْلَ رَوْضٍ مَفُوفٍ
وَجْهَهُ الْبَدْرُ طَالِعاً فِي قَضِيْبٍ مُهْفَفٍ
مَانِعٌ غَيْرُ مُسْعِفٍ جَائِرٌ غَيْرُ مَنْصِفٍ
وقراءته على بحر الجثث هكذا :
لَمَّا رَأَى مَا لَقِيْتُ فِي حُبِّهِ إِذْ ضَنَيْتُ

فإِئْنِي قَدْ شَقِيتُ جَفَاً فَكِدْتُ أَمُوتُ
وَلَيْسَ إِلَّا السُّكُوتُ إِنَّ الرِّصَالَ بَخُوتُ

والوزن الرابع مجزوء الرمل هكذا :

قَدْ رَأَى لِي بَعْدُ بُعْدِي لَا أَبَالِي وَهُوَ عِنْدِي
تَاهَ لَمَّا حَازَ وَدَى لَدُّ فِيهِ طُولٌ وَجِدِي
لَيْسَ يَأْتِي نَقْضُ عَهْدِي مَالٌ عَمَّا كَانَ يُبْدِي

وأما الخامس فهو منهوك الرمل — ولم يستعمله العرب . واستعمله المحدثون . يقول :

قَدْ رَأَى لِي بَعْدُ بُعْدِي
لَا أَبَالِي وَهُوَ عِنْدِي
تَاهَ لَمَّا حَازَ وَدَى
لَدُّ فِيهِ طُولٌ وَجِدِي
لَيْسَ يَأْتِي نَقْضُ عَهْدِي
مَالٌ عَمَّا كَانَ يُبْدِي

وهكذا يمكن أن يكون رائداً لهذا اللون من النظم الذي عرف عند بعضهم بالقصيدة ذات الأوزان . وكل هذه محاولات للخروج على الإيقاع التقليدي إلى إيقاعات أخرى متنوعة تناسب تنوع الحياة الحضرية ، وما تسمعه الأذن من تعدد الألحان .

وربما كان ذلك أثراً من آثار انتشار الموسيقى والغناء وتعدد مصادرهما من المشرق والمغرب ، مما جعل الأذن العربية تعتاد هذا التنوع ، وتملّ رتبة إيقاع البحور المعروفة في الشعر العربي .

ولم يكن الأندلسيون ولا المغاربة أول من حاول تلك المحاولات في الشعر العربي بل سبقهم شعراء عباسيون في القرن الثالث ومحاولات أبي نواس وأبي العتاهية واردة في كثير من كتب الأدب ... كما أشار مؤرخو الأدب إلى محاولات شعراء آخرين في هذا السبيل .

ومن مجزواته المطربة المرقصة قوله :

يا ذا الذى كلّ يوم يزيد عقلي خبالاً
دلّهتني بك حتّى رأيت رشدى ضلالاً
أدعو عليك وقلبي يقول: ياربّ لا، لا

وهو فى شعره خفيف الظلّ ، أما ترى كيف نعت مغنياً لم يُعجبه فقال :

ولنا مُعَنَّ لا يزا ل يغيطنا ما يفعل
صَلَفٌ وتيه زائد وتبظّرّم وتمحل
غنّى ثقيلاً أولاً وهو الثقيل الأول

وكُنّا نأمل أن نمضى مع شاعرنا لو أسعفنا الحظ بديوانه أو عثرنا على قدر
أوفرٍ من شعره .

شعراء وافدون آخرون

لقد توافد على مصر من صقلية والمغرب والأندلس جماعة من الشعراء في هذه المرحلة من منتصف القرن الخامس وحتى منتصف القرن السادس بلغ عددهم كثرة ما يفوق الحضر ، فقد ذكر الحافظ السلفي جماعة منهم في معجمه ، كما ذكر العماد جماعة نقلًا عن ابن الزبير والقاضي الفاضل وأمية ابن أبى الصلت كما ذكر ابن سعيد المغربي جماعة في المغرب .

ولا يسعنا الحديث عن هؤلاء جميعاً ، فقد يتعذر ذلك لقلة حديث المؤرخين عن حياتهم ، وشجعهم كذلك فيما يذكرون من أشعارهم .

ومن ذكرهم العماد^(١) : محمود بن عبد الجبار الأندلسي الطرسوسي ، وأبا الحسن عبد الودود بن عبد القدوس القرطبي — قال : أورده ابن الزبير في كتابه من الطائرين على مصر . قال ابن الزبير :

« كان انتجع مصر معتقداً أنه يُحمَدُ بها المرادُ ، ويُنالُ المرادُ ، فاتفق لنكد الزمان ، وخط الحُرمان أن ورد بعض ثغور مصر ، وبها رجل يُعرف بإسماعيل بن حميد النبوذ بابن قادوس ، وكان ممن يهتم بالجمع والأدب ، ويدين بعبادة الدرهم والدينار ، لا تندی حصائمه ، ولا يظفر بغير الحبة عُفائمه ، ولا يرشحُ له كَفٌّ ، ولا يُعرف له عرف ، إلا أن له رِواءً وجِدةً ، وبينَ وحفدةً ، يُطِمِعُ الغِرَّ في نواله ، ومنال النجم دون مناله ؛ فقصدَه عبدُ الودودِ بمدايح أرق سلكها ، وأجاد سبكها ، وتأنق في وشيها وحبكها ، وظنَّ أنَّ سَهْمَه قد أصاب الغرض وقرطس ، وأنه يفوزُ بأكثر ما التمس ، فكانَ بارقه خُلْباً لا يَجُودُ بقطرة ، وشرابه سراباً بقررة . ولما تحقَّقَ إكداؤه كدّه ، وصلود قَدْحِه في مدجّه . قال :

شَقِيَّ رِجَالٍ وَيَشْقَى آخَرُونَ بِهِمْ	وَيَسْعُدُ اللَّهُ أَقْوَاماً بِأَقْوَامٍ
وَلَيْسَ رِزْقُ الْفَتَى مِنْ حَسَنِ حِيلَتِهِ	لَكِنْ جُدُودٌ بِأَرْزَاقٍ وَأَقْسَامٍ
كَالْصَيْدِ بِجَرْمِهِ الرَّائِي الْمَجِيدُ وَقَدْ	يَرْمِي فَيَرْزُقُهُ مَنْ لَيْسَ بِالرَّائِي

(١) الخزينة قسم شعراء المغرب ١ / ٣٣١ طبع الدار التونسية سنة ١٩٦٦ م .

وقال في هجو ابن قادوس :

تسلّ فللاًيام بشرّ وتعبس
صدئت على قرب وتخلقت عسجد

ومنها :

ترحل إذا ما دئس العزّ ملبس
وما ضناقت الدنيا على ذى عزيمة
وكم من أنخى عزم جفته سعوده
ثقل السيوف البيض وهى صوارم
ولولا أناس زينوا بسعادة
ولكن فى الأفلاك سير حكومة
أفاضت سعوداً بالحجارة دونها
وصار فلاناً كل من كان لم يكن
فحقق ولا يغرك قول مدلس
أفيقوا بنى الأيام من سينة الكرى
فى القسمة الشيزى يحول جاهل
فلرضاء ذى جهل، واستخاط ذى حجى
نخذ العلم قنطاراً بفلس سعادة
ومذ لقب القرد القصير موقفا
وقالوا: سديد الدولة السيد الرضى
وأعجب من ذا أن يلقب قاضياً
وأكثر ما نصر الحديث فكاذب
وأعرف منه بالفرائض راهب
وما النين إلا أن تحكم نعمة
ومالى فوق الأرض ميرز إبرة
مصائب من يسكت لها مائت حسرة

وأيقن، فلا التعمى تدوم ولا البوس
وملت إلى لغو ولفظك تقديس

وغيرك من يرضى به وهو ملبوس
ولا غرقت فلك، ولا نفقت عيس
يموت احتراقاً وهو فى الماء مغموس
ويرجع صدر الرمح، والرمح دغيس^(١)
لما ضرّ ترييح، ولا مرّ تسديس
تخير بطليموس فيها وإدريس
يطاف سبوعاً حولها الغلب والشوس
ودان له بالرق قوم مناجيس
فأكثر ما يدعو إليه نوايس
وسيروا بسير الدهر، فالدهر معكوس
وذو العلم فى انشوطه الدهر محبوس
نعاج مياسير، وأسد مفاليس
عسى العلم يقنى فيمتلىء الكيس
هذى الدهر واستولت عليه الوساويس
فأكثر حجاب، وشدد ناموس
وأكثر ما يجرى من الحكم تليس
وأظهر ما صلى الصلاة فمنجوس
وأفقه منه فى الحكومة قسيس
ونرغام أسد الغاب فى الغيل مفروس
وتحمل دمياط إليه وتيس
ومن ثقلها بقاء يموت وهو منحوس

(١) دغيس : طمان .

(٢) يقصد بذلك مهجوه ابن قادوس .

وفي جور هذا الدهر ما بأقله
ويبتاع مسكاً بالخرأ مذلس
وقالوا: ابن قاثوس تقدس كاسمه
أيا من غدا ضدا لكل فضيلة
وسنضرب في أرجاء مكة ناقوس
ويبعث خنزير ، ويرسل جاموس
ومن هو قاثوس؟ ، فلا كان قاثوس
ومن نجمه في طالع السعيد منكوس
ومنها :

وقد قلتها هجوا ، وأثفك راغم
أبا الفضل إن أصبحت قاضي أمة
فإن قريضي بين أذنيك ذرة
تجمع في الخير والشر جملة
قال العماد : أطاعه في هذه القصيدة الطبع الجافي ، وجاد بالكدر خاطره
الصافي . وأبان فيها عن رقة دينه وتهلهله ، وعدم عبوس يؤسه بشر الفضل في
تهلهله .
ومنها :

القاضي الرشيد أحمد بن قاسم الصقلي :

قال ابن العماد^(١) : من الطارئین على مصر القاضي الرشيد ، وكان قاضي
قضايتها في أيام الأفضل ، فدخل يوماً إلى الأفضل وبين يديه دواة من عاج
محلقة بمرجان فقال :

ألين لداوود الحديد بقدرة
ولأن لك المرجان وهو حجارة
يقدره بالسرد كيف يُريد
على أنه صعب المرام شديد
وكان الأفضل قد أجرى الماء إلى قرافة مصر ، فكتب إليه يرجو إجراء الماء
إلى دار له بها :

أيا مؤلى الأنام بلا احتشام
لعبدك بالقرافة دار نزل
لموجود يعيش بها لوقت
وفي أرجائها شجر ظماء
وسيدهم على رغم الحسود
لموجود الحياة أو الفقيد
ومفقود يوارى في الصعيد
عديم الحسن من ورق وعود

فَمُذْ غَدَتْ الْمَصَانِعُ مَمْتَعَاتٍ
يَقْلُنْ إِذَا سَمِعْنَ شَجَى السَّوَاقِي
أَرَى مَاءً وَبَى عَطَشٌ شَدِيدٌ
وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوُرُودِ
وَلَهُ فِي الْغَزْلِ :

إِنْ لَمْ أَزُرْكَ وَلَمْ أَفْتَحْ بُرُوكَ
يَا ظَلِيَّةَ ظَلْتُ مِنْ أَشْرَاكِهَا عِلْقًا
رَعِيَتْ قَلْبِي وَمَا رَاعَيْتِ حَرَمَتَهُ
أَتَحْرِقِينَ قَوَادًا قَدْ حَلَلَتْ بِهِ
مَا نَفَحَهُ الرِّيحُ مِنْ أَرْضٍ بِهَا شَجْنِي
فَلِفَقُودِ طَوَافٍ حَوْلَ مَعْنَاكِ
يَوْمَ الْوَدَاعِ وَلَمْ تَعْلُقِي بِأَشْرَاكِ
يَا هَذِهِ كَيْفَ مَا رَاعَيْتِ مَرْعَاكِ
بِنَارِ حُبِّكَ عَمْدًا وَهُوَ مَأْوَاكِ
هَلْ لِلْمَحَبِّ حَيَاةٌ غَيْرُ ذِكْرَاكِ

وَوَاضِحٌ مُمَاتِنْتُهُ لِلرَّضَى فِي قَصِيدَتِهِ « يَا ظَلِيَّةَ الْبَانِ » .

وَمِنْهُمْ :

أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَكَرِيَّا الْقَلْعِيُّ الْأَصَمُ (١) :

وَهُوَ مِنْ ذَكَرَهُمُ ابْنُ الزَّيْرِ فَقَالَ : كَانَ جَيِّدَ الشَّعْرِ ، وَارَى زِنَادَ الْفِكْرِ
لَكِنَّهُ مَنَحُوسُ الْجَدِّ . وَرَدَ إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ وَمِصْرَ ، وَأَقَامَ بِهَا زَمَانًا لَا يَجِدُ مِنْ
يُرَوِّى ظَمَأَتَهُ ، وَلَا يَسُدُّ حَاجَتَهُ ، وَعَادَ إِلَى الْمَغْرِبِ فِي غَيْرِ أَوَانٍ سَفَرِ الْمَرْكَبِ ،
فَسَارَ رَاجِلًا نَعْلُهُ مَطِيئَتُهُ ، وَزَادَهُ كَذِبُهُ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى قَوْمٍ يَعْرِفُونَ بَيْنِي
الْأَشْقَرِ فِي طَرَابِلِسِ الْغَرْبِ ، فَامْتَدَحَهُمْ بِالْقَصِيدَةِ الْمِمْيَةِ الَّتِي أَوَّلَهَا :

« تَرَى فَاضَ شَوْبُوبٍ مِنَ الْغَيْمِ سَاجِمٍ »

فَأَحْسَنُوا صِلَتَهُ ، وَعَظُمُوا جَائِزَتَهُ . وَلَمْ أَدْرِ مَا فَعَلَ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ .

فَمِنْ قَصِيدَتِهِ الْمِمْيَةِ تِلْكَ :

تَرَى فَاضَ شَوْبُوبٍ مِنَ الْغَيْمِ سَاجِمٍ
وَمَاذَا التَّنْدَى وَالرَّقْتُ بِالصَّيْفِ حَائِمٍ
فَمَا هَذِهِ مُزْنٌ ، وَمَا ذِي بَوَارِقٍ
بَنُو الْأَشْقَرِ اسْتَعْلَوْا بِحَقِّ عَلَى الْوَرَى
وَأَوْمَضَ مَشْبُوبٌ مِنَ الْبَرْقِ جَاحِمٍ
وَمَاذَا السَّنَى وَالْجُوُّ بِاللَّيْلِ فَاحِمٍ
وَلَكِنَّهَا أَيْمَانُكُمْ وَالصُّوَارِمُ
كَمَا لَمْ يَزَلْ فَوْقَ الْكُعُوبِ اللَّهَازِمُ

(١) الخريدة ١ / ٣٣٧ قسم شعراء المغرب .

وهكذا يمتحن في مديحه التقليدي^(١) .

ويبدو أنه قصد الأفضل بن بدر الجمالي ، لكنه لم يحظ عنده بما أراد ،
فغادره وغادر البلاد ناعياً حظه ، وقلة سعيه . ويورد له العماديين في الأفضل
يقول فيهما :

مَلِكٌ أَنْتَ أَمْ مَلِكٌ	حَارَ طَرَفٌ ثَأْمَلَكُ
أَنْتَ إِنْ أَسْعَدَ الزَّرَى	فَلَكَ مَسْعَدٌ فَلَكُ

ومن غزله قوله :

لَمَّا اسْتَرْقَتْهُ مِنْ عَيْونِكَ بِأَبْلُ	بِمَا عَلَّمْتَ مِنْ مُقْلَتِكَ الْمَنَاصِلُ
بِوَجْهِكَ مَاءَ الْحَسَنِ فِي صَفْحَاتِهِ	كَذَكَرِكَ مِنِّي فِي الضَّمَائِرِ جَائِلُ
خَذُونِي عَلَى التَّجْرِبِ عَبْدًا فَإِنْ أَكُنْ	أُخَالِفُ أَمْرًا فَاطْرَاحَ مِعَاجِلُ
فَمَا طَوَيْتُ إِلَّا عَلَيْكُمْ جَوَائِحُ	وَلَا بُسِطْتُ إِلَّا عَلَيْكُمْ أَنْامِلُ

وله بشكو حاله وقلة ذات يده^(٢) :

مَضَى النَّاسُ يَسْتَسْقُونَ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ	إِلَى كُلِّ مَسْمُوعِ الدُّعَاءِ مُجَابِ
فَوَافَاهُمْ الْغَيْثُ الَّذِي سَمَحَتْ بِهِ	لَهُمْ بَعْدَ طُولِ الْمَنْعِ كُلِّ سَحَابِ
وَفِي ظَنِّهِمْ أَنْ قَدْ أَجِيبَ دُعَاؤُهُمْ	وَمَا عَلِمُوا أَنِّي قَدْ غَسَلْتُ ثِيَابِي

على بن إسماعيل القلعي :

ومن مواطني أبي عبد الله المذكور علي بن إسماعيل القلعي أيضاً ويلقب
بالطَّمِيش من الواردين على مصر كذلك في القرن السادس . وقد عاصر
أحداث مقتل أحمد بن الأفضل الجمالي أيام الحافظ .

قال ابن الزبير — فيما نقله عنه العماد^(٣) — : « من الواردين على مصر من
أهل العصر وله حين قتل ابن الأفضل أبو علي بعد حبسه الحافظ ، وإلقائه في
نفوس شيعته بذور الحفائظ ... واستيلائه على المملكة سنة يدعو إلى القائم

(١) المصدر نفسه ص ٣٣٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٩ .

(٣) الخريدة ١ / ٣٤١ قسم شعراء المغرب .

المنتظر ، ونقش اسمه على الذهب الأحمر ، ثم احتيل عليه فاغتيل وجان القليل ، فكان القتل ، وأعيد الحافظ بعد ضياعه ، وأذن ذلك بتأهيل رابعه ، وتطويل باعه فنظم (الطميش — لقب الشاعر) فيه قصيدة منها^(١) — قال :

ولا بد من عزم يُخِيلُ أني	قدحْتُ على الظلماء من بَدْرِهِ فجرا
يحبُّ ظلاماً كالظلم إذا سرى	إذا جَنَّ جَوْنُ كان يبيضته البُdra
وليل صحبت السيف يرعد حده	وقد شاب فيه مفرق الصعدة السُمرا
حملت به درعي وسيفي وإنما	حملت غدير الماء والعصن والتَهرا
وأشقرَّ ورد اللون لولا انتسابه	إلى البرق سيرا خلّقه المسك والحجرا
إلى أن بدا وجه الصباح كأثّه	لحافظ دين الله آيته الكبرى ^(٢)

ومنها :

وقد كان دين الله بالأمس عابساً	لجراه حتى لاح في وجهه بشراً
وكان علياً حين كان الذي طغى	معاوية والحارثي له عمراً

يشير إلى مقتل عليّ ابن أبي طالب ونجاة معاوية وعمرو بن العاص من القتل في الفتنة الكبرى بعد صيفين .

ومنهم الفقيه أبو محمد عبد الله بن سلامة .

أصله من بجاية ، وكان مقامه بالإسكندرية ، ثم مصر والصعيد والريف وهو القائل :

لِخُرْمَةِ الضَّيْفِ لو كُنْتُمْ ذَوِي كَرَمٍ	وخرمة الجار لو كنتم ذوى حسَبٍ
لكنكم يابنى اللّخناء ليس لَكُمْ	فَضْلٌ ولا أَنْتُمْ من طينة العرب
كَمْ لا أزال على حال أساء بها	منكم وأغضى على الفحشاء والريب
لأتركَنَّ لكم أرضاً بكم عُرِفَتْ	فأخبثُ اليوم يأوي أخبثُ الحَرِبِ
وما مقامى بأرض تسكنون بها	مِنِّي يَطِيبُ. ولكن حرفة الأدبِ

(١) ذكر العماد أن ابن الزبير قال هي منسوبة إليه مما ادّعاها .

(٢) وعلق العماد على الأبيات بقوله : استغفر الله من ذلك ، فإنه لم يكن حافظاً وإنما كان ضيقاً — ومعلوم أن العماد كان سنياً مخالفاً في مذهبه للفاطميين .

ومنهم على بن يقظان السبتي^(١) .

من مدينة سبته ، قال عنه العماد : شاعرٌ أديبٌ ، متطبِّبٌ . ذكره بعض أهل الأدب بمصر ، وقال : ورد إلى البلاد المصرية سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، ومضى منها إلى اليمن ، وسافر إلى المشرق في طلب الرزق ، وزار العراق ودار الآفاق .

ومن سبته وفد إلى مصر ابن شقرق السبتي .

ومن شعره وقد كتب به إلى صديق :

دُعْنِي أَطِيلُ تَأْسِفِي . وَتَفْجِئِي	قَلْبِي غَدَاةَ النَّيْنِ جِدُّ مُودِّعٍ
ذَهَبَتْ بَيْنَهُمُ الْقَطَارُ فَأَصْبَحْتُ	كَيْدِي وَقَلْبِي يَجْرِيَانِ بِأُدْمَعِي
أَسْفَى عَلَى زَمَنِ الْوَصَالِ كَأَنِّي	لَمْ أُسْتَظِلْ بِظِلِّهِ فِي مَرْبَعٍ
فَلَا مَنَعَ الْجَفْنَ مِنْ طَعْمِ الْكَرَرِي	أَسْفَاً عَلَى ذَاكَ الزَّمَانِ الْمَرْعِ
وَلَا حَفَظْنَ الْعَهْدَ مِنْ خِلِّ نَائِي	بَعْدَ التَّائِلِفِ وَالْوَدَادِ الْمَتِّعِ

ومنها يصف السفينة :

فَارَكَبْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ مَتْنِي رَكُوبِي	خَضِرَاءَ تَسْبِيحُ فَوْقَ لُجٍّ مُتْرَعٍ
تَخَذْتُ جَنَاحاً مِثْلَ قَلْبِي خَافِقاً	وَحَوْتُ قَوَادِمَ كُلِّ طَيْرٍ مُسْرِعٍ
تَسْرِي وَتَرْجِيهِا الرِّيحُ إِذَا سَرَتْ	وَعَمُرُ مَرِّ الْعَارِضِ الْمُتَقَشِّعِ
تَسْتَعْذِبُ الْمَلَحَ الْأَجَا جَ لَدَى الظُّمَأِ	مَهْمَا الْعَطَاشُ وَرَدَّنْ عَذْبَ الْمَشْرِعِ
وَكَأَنَّمَا رُكْبَانُهَا أَبْنَاؤُهَا	تُخَنُّوْهُمْ عَلَيْهِمْ رَافَةً بِالْأَضْلَعِ
وَكَأَنَّمَا الْمَلَأُحُ فِيهَا أَمِيرٌ	يُمِضِي أَوَامِرَهُ لِأَوَّلِ مَوْقِعِ

(١) الخريدة ١ / ٣٤٤ .

مجير الصقلي (توفي قبل سنة ٥٤٠ هـ)

هو مجير بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن مجير الصقلي .
الصقلي المولد ومن الوافدين إلى مصر بعد الأحداث التي مرت بها صقلية
بين النورمان والعرب والعرب أنفسهم .

وفد إلى الإسكندرية كغيره من المغاربة والصقليين بحراً ، والتقى ببعض
علمائها ، وجلس إلى محدثها السلفي الحافظ ، وترجم له هذا في معجمه قال :
إنه من أهل الأدب البارع والشعر الرائع .

وكان انتقله إلى مصر سنة ٤٨١ هـ في خلافة المستنصر ، وكانت سنة
السابعة عشرة . وذكر السلفي أنه كان يحضر عليه ويأخذ عنه . وينشده مجير
بعضاً من شعره ، فيقيده السلفي عنه .

وشهد السلفي له وهو شاب بأنه كان صائناً لنفسه غير متبدّل ووصفه بأنه
من فحول الشعراء .

وذكر العماد أن القاضي الفاضل ذكره بين شعراء المغرب والأندلس
الوافدين إلى مصر ، وأنه « قُرْظه بالفضائل » .

قال العماد^(١) : « وهو صِقلِيُّ التُّجَّار ، مصريُّ الدار ، وهو قريب
العصر ، توفي قبل الأربعين والخمسمائة . قال : قال ابن الزبير : يُنقل إلى
المصريين بحكم أن نشوءه واشتهاره بمصر . غزير موارد الفكر ، وارى زناد
القريحة » .

ولا ندرى كم مكث بالإسكندرية ، ولنفترض أنه أتم بها القرن الخامس
وانتقل إلى القسطنطينية والقاهرة في أوائل القرن السادس ، وكان سلطان الأفضل
قد بلغ قمته ، فقد ولّى المستعلي ابن أخته الخلافة ، وحارب نزاراً بن المستنصر
حتى اختفى من مسرح النزاع . وظل اتباعه النزارية يتعقبون الوزير الأفضل
حتى قُتِل بيد أحدهم .

(١) خريدة القصر ٢ / ٨٣ قسم شعراء مصر .

وفي هذه الفترة من استبداد الأفضل بأمر السلطنة كان بلاطه مآلاً لكثير من الشعراء مصريين ووافدين ، وهكذا انضم مجير إلى ركبهم في رحاب الأفضل قال الصيرفي (١) : « أحد شعراء المجلس العالى المالكي ثبت الله سلطانه » يعنى مجلس الأفضل .

وبعد مقتل الأفضل سنة ٥١٥ هـ اتصل بالوزير الذى جاء بعده وهو المأمون البطائحي ومدحه .

واتصل ببعض كتاب المصريين ومدحهم (٢) .

ومن مدائحه فى الأفضل التى رواها الصيرفي (٣) :

شعرٌ أرقُّ من التَّسِيمِ حواشياً	لم تَرَوْ حوشىَّ الكلامِ رِواثاً
نُظِمْتُ لشاهنشاهٍ منه قصائدٌ	قصيْدَتْ مدائِحُه بها وصفائهُ
فأتى بديعاً فى بديعٍ أطمعت	ألفاظُهُ ، وتمتعت طُرُقائهُ
كالرُّوح يُدْرِكُ بالحقيقة فعله	وتغيب عن أهل البصائر ذاته

ويقول فى وصف خيمة الفرج التى أقامها فى مناسبة وفاء النيل وكسر الجسر :

وبيض خيام يهتدى الركب فى الدجى	بها حين تخفى النيرات وتحجب
تبوأَتْ منها خيمة الفرج التى	لِراجيك قال فى اسمها لا يكذب
فتاة على إيوانٍ كسرى وتاجه	رواق لها فى ظلِّ مُلكِكَ يُضربُ
علاً وعَلَتْ ، فاستوفت الجؤ هالة	بها منك بدرٌ بالبهاء مُعجِبُ
يكاد من الإحكام صافين خيلها	يجول وساجى وخشيها يتوثب
ويوم كيوم الجسرِ هولاً وشدة	يرى الطفل فيه خيفة وهو أشيب
سقرت به عن وجهه جذلان ضاحك	وللشمس وجهٌ بالعجاج مُنقب
وأسمَرَ عسَّال الأنابيب قد سطا	على الأسد منه فى يمينك نعلب
أخو الصلِّ شينها ماله الدهر مذناى	عن الثرب إلا فى الترائب مشرب

(١) الأفضليات ١٠٩ .

(٢) الذخيرة ٨٣/ ٢ .

(٣) الأفضليات ١٨٠ ، والذخيرة ٨٦/ ٢ .

ومنها قصيدة لم يذكر العماد — متعمداً غالباً — الممدوح ، لكن القول
يرشح أنها في الأفضل ، وقد جاء ذكره تلميحاً في أثنائها . وبدأها بذكر
الشراب مقتفياً صنيع ألى نواس ، يعقبه بالغزل ثم المديح فيقول :

إملاً كؤوسك بالمدام وهاتها
أصرف عن المشتاق صيرف مدامة
وأحل أشربتي وأحلاها التي
ومريضة الأجفان رامت في الهوى
مازلت أصفح في القلي عن جزمها
حتى توهمت الصلود زيادة
يقول فيها :

ما خلعت أن النفس ينكد عيشها
أستودع الله القباب وأوجها
والورد يخسد نرجساً وبنفسجاً
تلك الرياض اللاء ما برحت يدي
ولرب قافية شروء شردت
حتى وردت من التأسف بعدها
مازلت أنظم طيب ذكرك عنبراً
حتى إذا نشر الصباح رداءه
وتثلت عقداً تؤد كواكب الجو
أعددتها للقاء مجدك سبحة
ومدائح الكرماء خير وسيلة
وأحقها بالثجح مدحك إنه
فالיום أنثرها جواهر حكمة
فالبس بها حلل الناء فائها
وأفصح لنا في لثم بسطك إن أبث
قسماً بمن قسم الحظوظ فلت
وبنى العلاء ربياً فكنت بفضل
حتى يكون الموت من شهواتها
فيهن كالأقمار في هالاتها
في شهل أعينها ولعس لثاتها
تجني ثمار الوصل من وجناتها
نومي فبت أجول في ألياتها
ثاراً دموعي الحمر من جمراتها
أرجاً خلال الدر من كلماتها
عن مثل نفع المسك من نفحاتها
زاء عقدته على لباتها
أدعو بها لأنال من بركاتها
شفعت بها الآمال في حاجاتها
للنفس عند الله من قرباتها
عقمت عذارى الشعر عن أخواتها
حلل تروق علاك في بدنائها
يملك إلا شغلها بيناتها
أولى من استولى على غاياتها

لَوْلَا وُجُودُكَ فِي الزَّمَانِ وَجُودُكَ الْحَيِّ الْمَكَارِمَ بَعْدَ بُعْدِ وَفَاتِهَا
 لَمْ يُعْرِفِ الْمَعْرُوفُ فِي الدُّنْيَا وَلَوْ طُفْنَا عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ جِهَاتِهَا
 وَقَدْ شَكِيَ فِي هَذَا الْجُزْءِ أَوَّلُ الْأَمْرِ مِنْ ضَيْقِ الْعَيْشِ ، عَرْضًا ، وَجَاءَ بِهِ فِي
 أَثْنَاءِ الْغَزْلِ وَالنَّسِيبِ ، وَغَزَلَهُ هُنَا غَزْلَ حَضْرَى ، وَإِنْ مَازَجْتَهُ بَعْضَ الْعِبَارَاتِ
 وَالْأَلْفَافِ الْبَدْوِيَّةِ ، وَهَذَا طَبِيعِي فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، يَجْرِي عَلَى لِسَانِ الشَّاعِرِ مِنْ
 مَحْفُوظِهِ .

وَحَدِيثُ التَّشْبِيهِ بِالْأَزْهَارِ فِي الْغَزْلِ حَدِيثٌ حَضْرَى ، وَرَثَهُ عَنْ مَبْدَعِي
 بَغْدَادٍ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ ، وَعَنْ شُعْرَاءِ الْأَنْدَلُسِ الَّذِينَ أُغْرِمُوا بِالطَّبِيعَةِ وَوَرُودِهَا
 وَنُورِهَا وَزَهْرِهَا . وَكَذَا مَا اعْتَادَهُ الْمَصْرِيُّونَ مِنَ الْإِكْثَارِ فِي شُعْرِهِمْ عَنِ الطَّبِيعَةِ
 مِنْ ذِكْرِ الزَّهْرِ وَالنُّورِ .

وَأُظْنِتُهُ اسْتَحْضَرَ ابْنَ الرُّومِيِّ فِي بَعْضِ أَيْيَاتِهِ الَّتِي مَزَجَ فِيهَا بَيْنَ الْمَرْأَةِ
 وَالرُّوضِ .

وَيَهْمُ الشَّاعِرُ بِوَصْفِ قَصِيدَتِهِ بِأَنَّهَا عَذْرَاءٌ ، وَأَنَّهَا شَرُودٌ ، غَرِيبَةٌ ، لَا يَمِثِّلُهَا
 شَعْرٌ فِي غَرَائِبِهَا ، وَهِيَ عَقْدٌ يَنْتَظِمُ جَوْهَرُ الْمَعَانِي فِي مَدِيحِ الْمَمْدُوحِ ، وَتَوَدُّ
 الْكَوَاكِبُ أَنْ تَكُونَ خُرَزَاتِ هَذَا الْعَقْدِ . وَكُلُّهَا مَعَانٍ تَدَاوَلَهَا الشُّعْرَاءُ وَخَاصَّةً
 أَبُو تَمَامٍ ، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ أَغْرَبَ هُنَا فِي وَصْفِ قَصِيدَتِهِ بِالسُّبْحَةِ يَدْعُو بِهَا لِيَنَالَ
 مِنْ بَرَكَاتِهَا . وَبَرَكَاتُهَا بِالطَّبِيعِ مَا يَجُودُ بِهِ الْمَمْدُوحُ مِنْ عَطَاءٍ ! .

وَيُرْوَى الْعِمَادُ مِنْ شَعْرِهِ هَذِهِ الْأَيْيَاتُ اللَّامِيَّةُ عَنْ مَجْمُوعِ ابْنِ الزُّبَيْرِ (١) :

أَثَرِي يُضَيِّقُ مِنَ الصَّبَابَةِ عَاشِقٌ	قَذَفْتُ بِهِ الْأَهْوَاءَ فِي الْأَهْوَالِ
مُعْرِى بِحَبِّ الْغَانِيَاتِ ، هَفَّتْ بِهِ	هَيْفُ الْخُصُورِ ، وَرُجُحُ الْأَكْفَالِ
غَرَسَ الْقَضِيبَ عَلَى الْكَثِيبِ بِقَدِّهَا	فَأَثَتْ بِمِيَادٍ عَلَى مُنْهَالِ
تَتَرَدَّدُ الْأَبْصَارُ فِيهَا حَيْرَةً	فِي الْحَسَنِ بَيْنَ الْحَالِ وَالْخُلْخَالِ
غَرَاءُ غَرْنِهَا الشَّبِيبَةُ فَاكْتَسَتْ	تِيَّةَ الدَّلَالِ وَعِزَّةَ الْإِذْلَالِ
مَمْكُورَةٌ مَكْرَثٌ بَقْلِي وَالْهَوَى	يَسْتَضْعِفُ الْمُحْتَالَ لِلْمُحْتَالَ

(١) الخريدة ٢ / ٨٢ .

حَلَّتْ مَوَاشِيَّ الرِّفَاءِ وَحَلَّتْ
 قَالُوا تَسَلْ ، وَفَسْ مَا أَمُرُوا بِهِ
 قَلْبِي مِنَ الْأَجْوَادِ إِلَّا أَنَّهُ
 سَقَيْتَ لِيَالَيْنَا بَرَامَةً ، وَالْهَوَى
 وَلَجْدَةَ الْعِشْرِينَ عِنْدَى ثَرَوَةٌ
 فِي الْحَبِّ قَتَلِي ، وَهُوَ غَيْرَ خَلَالٍ
 بُوسُ الْحَبِّ ، وَلَا نَعِيمُ السَّالِي
 فِي الْحَبِّ مَعْدُودٌ مِنَ الْبَحَالِ
 حُلُّوْ ، وَأَيَّامُ الشُّبَابِ حَوَالِي
 تُغْنِي هُنَيْدَةً عَنْ هُنَيْدَةٍ مَالِي^(١)
 يَقُولُ فِيهَا ؛ مِنَ الْمَدِيحِ :

غَيْثٌ مِنَ الْإِحْسَانِ مَا يَنْفُكُ مِنْ
 وَسَحَابُ جَوْدٍ كُلَّمَا ضَنَّ الْحَيَا
 نَادَى بِحَيٍّ عَلَى النَّدَى ، فَأَجَابَهُ
 وَأَقْرَرَ مُعْتَرِفًا بِثَابِتِ فَضْلِهِ
 مَعْرُوفِهِ فِي وَابِلِ هَطَالٍ
 بِالْمَاءِ جَادَتْ كَفَّهُ بِالْمَالِ
 بِالْحَمْدِ كُلِّ مُخَالِفٍ وَمُوَالِي
 مِنْ لَا يُقَرُّ بِمُبْدِعِ الْأَشْكَالِ

وصنعة البديع في هذه الأبيات واضحة ، وغرامه بالتجنيس لا يحتاج إلى
 تنبيه وإشارة ، وقد لاحظ هذا الغرام ابن الصيرفي عندما عرض لقوله^(٢) :

غَارُوا فَعَارَ الْحَيْنَى فِيهِمْ قَمَرٌ هَوَيْتُهُ ، أَفَلَا أَبْكِي وَقَدْ أَفَلَا
 قَالَ ابْنُ الصَّيْرَفِيِّ : وَالْمُتَقَدِّمُونَ يَسْمُونُ هَذَا تَجْنِيسَ الْمِثَالَةِ ، وَقَوْمٌ يَعْبُرُونَ
 عَنْهُ بِتَجْنِيسِ اللَّفْظِ وَالْخَطِّ .

ويبدو أن مجر قد حاذى أبا تمام في صنعة التجنيس ، وأراد تقليده ، وبخاصة
 عندما لقي هذا اللون من الصنعة ترحيباً في عصره ، وآثره بعض شعراء المرحلة
 وبخاصة شعراء الشام على ما أشرنا .

وجمع إلى التجنيس التورية ، وكان بعض شعراء المصريين قد أولع بها ونقل
 هذا القاضى الفاضل ، وصارت التورية فناً بديعياً غلب على المصريين خاصة ،
 كما غلب الجناس على الشوام خاصة .

ويشير ابن الصيرفي إلى التورية في قوله :

فَسَقَى مَحَلَّ الْجَزْعِ مِنْ مَحَلٍّ بِهِ غَيْثٌ تَدَوَّرَ عَلَى الرُّبَا كَأَسَاثِهِ
 سَفَحَ سَفْحَتٍ عَلَيْهِ دَمْعِي فِي ثَرَى كَالْمِسْكَ ضَاعَ مِنَ الْفَتَاةِ فُتَاةٌ

(١) هنيذة الأولى تصغير هند من أسماء النساء ، وهنيذة الثانية اسم يطلق على المائة من الإبل .

(٢) الأفضليات ص ١١٠ .

قال ابن الصيرفي^(١) : فقد ورى بضاع من الضياع عن ضاع من التضرع
وإلى هذه التورية ، فاستخدامه الجنس واضح في محل ومحل ، وسفح
وسفحت ، والفتاة والفتات .

ويروى له كذلك بيتاً من أبيات قالها بمناسبة زيارة ملك غانة لمصر في
طريقه إلى الحج ، واستقبال الأفضل له واحتفائه به . قال :

كذا يجيب دعاء الله من عرفه من غانة غاية الدنيا إلى عرفه
فانظر كيف جالس بين عرفه الفعل وعرفه اسم الجبل ، وبين غانة وغاية .
ومن مديحه في الأفضل :

بأى لسان من معاليك أعرب وفي كل إحسان في معانيك تُعرب
يقول فيها :

هصور له السرود المضاعف لئدة لدى الحرب ، والعضب اليماني مخلص
وهي التي وصف فيها خيمة الفرج كما أشرنا . وفيها تشبيهات مجددة لآلة
الحرب .

ويعجب ابن العماد بقوله في أول قصيدة مشبها البرق :

أترى السحاب الجون بات مشوقاً يكي الثوى ويعاتب التفرقا
فالبرق يلمع في حشاه كأنه قلب الحب تلهباً وخفوقاً
وعلى ذكر البرق ، فإنه كرر ذكره في قصيدة أخرى ، وصوره صورة
مخالفة بل صوراً متعددة متتابعة حيث يقول^(٢) :

أرأيت برقاً بالأبارق قد بدا كيف اكتسى ثوب السحاب ممسكاً
وكأنما في الجو كأس كلما أو مرهف كشفت مداوس صيقل
كلحب أو رق اللجين يسيل من وكلؤلؤ للغيث يأخذ الثرى
في أفعيه متبسماً متوقدا وأحاله شفق الرداء موردا
فأث غير البرق صاح وغربدا عن متبه صدعا لكي يروى الصدى
أفقي أحالته البوارق عسجدنا فيعيده . نبأ يخال زبرجدنا

(١) الأفضليات ص ١١٣ .

(٢) الخريدة ٢ / ٨٦ .

ويستحضر بهذه التشبيهات بعض التشبيهات المتوارثة في الشعر القديم تقول
الشاعر يصف البرق :

يدو وتجبّه التلاع كأنه سيفٌ يُسَلُّ على الظلام ويُعمدُ
وفي معاني الحب والتشوق نجد له ما يعجب من التصرف المبدع كأن
يقول :

لَوْلَا الهَوَى ما عُبِرَتْ عِبْرَاتُهُ عَنْ وَجْدِهِ وَتَصَاعَدَتْ زَفْرَاتُهُ
فَرَقُ الْفِرَاقِ أَطَارَ حَبَّةَ قَلْبِهِ فَتَقَطَّعَتْ بِمُدَى النَّوَى عِزَمَاتُهُ
مَنْ كَانَ وَخَى الْحُبِّ بَيْنَ ضُلُوعِهِ نَزَلَتْ بِفَيْضِ دَمُوعِهِ آيَاتُهُ
لَا تَنْكُرُوا حَمْرَ الدَّمُوعِ فَإِنَّهُ جَمْرُ الْأَسَى وَتَنْفُسِي نَفْحَاتُهُ

وله أبيات رقيقة في وزنٍ وإيقاع خفيفين ، وقافية تنتهي بياءٍ مفتوحة وهاء
ساكنة . يقول فيها^(١) :

طَرَقَتْكَ غَيْرَ مُخْتَفِيَةٍ	غَادَةً بِالْحَسَنِ مُرْتَدِيَةٍ
وَوَشَى طَيْبُ النِّسِيمِ بِهَا	قَبْلَ أَنْ تَبْدُو قُلْتُ هَيَّةَ
ثُمَّ لَمَّا أَقْبَلْتَ طَلَعَتْ	مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ مُعْتَلِيَةٍ
يَا لَقَوْمِي مِنْ لَوَاحِظِهَا	إِنَّهَا بُرَى وَعِلَّتِيَةٍ
وَأَصَلْتُ لَيْلٍ وَتَقَرَّهَا	أَنْ رَأَتْ صَبْحاً بَوَفَرَتِيَةٍ
إِنْ صَبَحَ الشَّيْبُ أَيْقَظَنِي	مَنْ كَرَى عَيْنِي وَغَفَلَتِيَةٍ

وهكذا ، فإن ما وصلنا من شعر مُجَبِّر القليل ينبئ عن شاعر مجيد ، نشأ
على فن الشعر في الأندلس ، ومزج بينه وبين فنونه بالشرق ، وتحلى بركة
المصريين وإبداعهم .

(١) الخريدة ٢ ص ٨٧ .

ملاح شعر الوافدين المغاربة والأندلسيين :

لشعر الوافدين من المغرب ملاح عامة تكاد تتكرر في كل أشعارهم ، ومن أظهرها الإحساس بالغربة ، وألم الفقر والحاجة ، والشعور بالآلام الاضطراب للسؤال وطلب الجدوى .

ومنها وصف الرحلة ، والبحر ، والسفن وهول ركوب البحر ، وشكوى الزمان ، والشعور بعدم الاطمئنان إلى الحياة والناس ، وربما كان ذلك راجعاً إلى ما أصاب بلادهم من اضطراب ، واضطهاد وحروب وغارات للفرنجية والنصارى والنورمان في صقلية . وما أرتكب في المعارك من قتل وتعذيب وتشريد .

وقد استقبلت مصر منهم أعداداً كبيرة خلال القرون من الخامس إلى السابع . وجاءوا معهم بكثير من علوم الأندلس وآدابها ، كما جاءوا بفنونهم ، وبعض عقائدهم . وكان من بين ما جاءوا به إلى مصر التصوف المغربي .

كذلك وقد معهم الموشح ، وتأثر المصريون بموشح الأندلسيين فنظموا على شاكلته . وبدأ الموشح المصرى يأخذ طريقه إلى النظم منذ آخريات القرن الخامس ، وطوال القرنين السادس والسابع . وقد وقفنا على صور للموشح عند ظافر الحداد ، وهو سكندري ، اختلط بالأندلسيين والمغاربة الذين كثروا بالإسكندرية على عصره ، وربطت بينه وبينهم روابط أدب وعلم .

وكان من بين من تعرف عليهم وتأثر بهم أمية بن أبى الصلت ، وكان لأمية تلاميذ آخرون من الإسكندرية أخذوا عنه .

ومن ملاح شعر الوافدين التجديد في الصياغة ، على نحو يبدو غريباً في بناء الصورة على غير المعهود في الشعر العربى المشرقى ، والذي كانت تقاليده الفنية سائدة في الشعر المصرى إلى القرن الرابع .

وكثرت في تعبيراتهم الألفاظ والتراكيب العامية أو غير الفصحى . ربما كان ذلك تأثراً بالموشح والزجل . كما حاول بعضهم إيقاعات جديدة تخرج عن نمط العروض العربى المعروف بأوزانه وضوابطه التى حافظ عليها المشارقة .

وكثر تشبيههم بمظاهر الطبيعة من شجر وماء وزهر ونجوم وسماء وإن كانوا يتصرفون في تشبيهات القدماء واستعاراتهم الجارية في الشعر حتى تلبس ثياباً جديدة من اللفظ تخرج بها عن معتاد الصياغة في شعر المشاركة .

وقد أثرى الوافدون المغاربة الشعر المصري في هذه المرحلة ، بما أشاعوه فيه من هذه العناصر التجديدية في اللفظ والمعاني ، والأخيلة والتراكيب .

وأضافوا إلى التجارب الفنية في شعر المشاركة والمصريين تجاربهم الخاصة التي عاشوها في بلادهم الغنية بالثقافات والتي تغاير إلى حد كبير ثقافات المشرق ، واستطاعوا أن يصوغوا هذه التجارب في القوالب التقليدية للشعر وإن حاولوا أن يخرجوا على الأطر الموروثة من حيث التمسك الصارم بشكل القصيدة ، وإيقاعاتها ، وقواعد الوزن والقافية .

كذلك حاولوا الإفلات من أسر التجارب المشرقية التي غلب عليها الشعر الجاهلي بصياغاته ، وصوره الصحرائية وأخيلته وتراكيبه .

وكان أثر هذا كله واضحاً على الشعر المصري في القرون السادس والسابع والثامن .

الفصل الثامن

شعراء مصريون من القرن السادس

- ١- حسن بن زيد الأنصارى
- ٢- ابن النضر
- ٣- داود بن مقدام المحلى
- ٤- ابن الضيف
- ٥- ابن الكيزانى

بدأ القرن السادس باضطراب أحوال الخلافة الفاطمية ، والذي بدأت أسبابه تظهر في آخريات القرن الخامس . وكان من عوامله الدسائس المتبادلة بين أنصار العباسيين والفاطميين ، وضغط الروم ، والصليبيين على الدولتين ، والخلل السياسى والإدارى الذى أصاب الخلافة بالضعف ، وأطمع كثيرين من المتطلعين للسلطة . وكان لبدر الجمالى وابنه الأفضل — على قدر ما سيطرا على مقاليد الحكم دور فى هذا الاضطراب الذى أصيبت به الخلافة الفاطمية ، لما أبدياه من المظالم والاستبداد ، والميل إلى الانفراد بالسلطة ، والتقليل من دور الخلفاء ، مما أطمع فيهم كل مغامر يقتنص الفرصة للظفر بالسلطة .

لقد قتل الأفضل بتدبير من الأمر كما يقال ، أو بتأمر النزارية انتقاماً . ومن بعده اضطراب الأمر وتعاقب الوزراء والقادة على السلطة ، وصار الخلفاء لعبة فى أيديهم كما كان الحال فى بغداد .

وكانت قوة السلاجقة وأتباعهم من آل زنكى قد بدأت تظهر بشكل واضح بالعراق والشام . حتى انتهى الأمر بمقتل زنكى وتولى السلطان محمود ، وفى عهده انتهت الخلافة الفاطمية بعد هزيمة أسد الدين شيركوه للصليبيين فى مصر واستيلائه عليها تحت إمرة نور الدين محمود . ومن بعده خلصت لصالح الدين .

وقد شهد القرن الخامس كثيراً من الشعراء المقيمين بمصر والوافدين ، بعضهم شارك فى الأحداث ، كابن منقذ وعمارة اليمنى ، وابن رزّيك . وقد سجّل شعر هذا القرن بعض أحداثه فى مصر وخارجها ، فضلاً عن الموضوعات التقليدية من مدح وهجاء ووصف وغزل .

وعرف فى هذا القرن كالقرنين السابقين جماعة ممن نظموا الشعر من كُتّاب الدولة، ولم يقتصر قول الشعر على المحترفين المجتدين . فقد كان من الشعراء فرسان كابن منقذ ووزراء كبار كابن رزّيك .

واستمر الشعراء الوافدون من المشرق والمغرب فى وفادتهم إلى مصر قاصدى الحج راغبين فى نيل الجائزة ، وكان أصحاب السلطة والجاه فى الدولة ، جنباً إلى جنب مع الخلفاء ينعمون على الشعراء ، ويجزلون العطاء ،

لأن الشعر كما قلنا كان أداة إعلام واسعة الانتشار ، يحرص كل صاحب مصلحة أو نفوذ على أن يلهج الشعراء يذكره فيسير في الآفاق مشرقاً ومغرباً .

ولما كان القرن السادس قسمة بين الفاطميين والأيوبيين في مصر والشام ، فقد كان الشعر والشعراء كذلك قسمة بين الدولتين ، بعضهم خلص للفاطميين ، وبعضهم الآخر خلص للأيوبيين ، وبعض ثالث شارك في الدولتين ومدح الحكام والقادة فيهما ، واضطر بعضهم أو رغب تقريباً أن يغير اتجاهه ، ويعارض أقواله وينكب عن ولاء كان قد أبداه للفاطميين فعاد منقلبا عليهم ، موالياً للحكام الجدد من الأيوبيين ونذكر من هؤلاء القاضي الفاضل ، وابن عنين .

إلا أن بعض شعراء المرحلة ممن ذاق أنعام الفاطميين حفظ الجميل ، ولم يتخل عن ولاءه لهم في محتهم ، ولقى في سبيل هذا الحفاظ على الجميل والوفاء نهايته مصلوباً كالشاعر الفقيه عمارة اليمني .

وعلى هذا التغير الذي حدث في ولاء الشعراء وتغير خطاب المديح بأشخاصه وقيمه ومعانيه ، لم تتغير أشكال الشعر تغيراً واضحاً في أخريات القرن ، وظل التطور التدريجي يعمل بفضل اجتهاد الشعراء والتفاعل بين جماعات الوافدين من المشرق والمغرب والمصريين المقيمين .

حسن بن زيد الأنصارى^(١)

شاعر من بيت مصرى عريق ، جدّه لأمه المجيد ابن أبى الشخباء العسقلانى من مقدمى الكتاب فى عصر المستنصر بالله .

وقد عمل حسن بالكتابة كجده لأمه ، قال ابن العماد : كان من المقدمين فى ديوان الإنشاء بمصر . وصفه القاضى الفاضل وأثنى على فضله ، وأنه فى فنه لم يسمح الدهر بمثله .

كان من شعراء الأفضل بن بدر الجمالى .

قتله حسن بن الحافظ الخليفة الفاطمى لدسياسة رتبها له ابن قادوس إذ نظم على لسانه أبياتاً هجا فيها الحسن . وشعره رصين الصياغة يذهب فيه مذهب مقدمى الشعراء العباسيين فى القرن الثالث . ومن ذلك قصيدته يمدح الأفضل ويصف خيمة الفرج التى سبق أن ذكرنا بعض من وصفها من شعراء . يقول :

وأبدت العجز منها هذه الهمم
ويقظة ما نراه منك أم حلم
تسمو علواً على أفق السها الحيم
فى مارن الدهر من تيه بها شمم
أن احتوتك وأنت الناس كلهم
حتى ليصير علماً أنها علم
أضحت تجاورها الآساد والأجم
لما تحققت منها أنها حرم
مصور ، وكلا الجيشين مزدحم
فمقدم منهم فيها ومنهزم
فليس تترغ عنها الحزم واللجم
فكلهم لغمار الحرب مقتحم
فقد تسالمت الأسياف واللمم

مجداً فقد قصرت فى شأرك الأمم
أخيمة ما نصبت الآن أم فلك
ما كان يحظر فى الأفكار قبلك أن
حتى أتيت بها شماء شاهقة
إن الدليل على تكوينها فلكاً
يمد من فى بلاد الصين ناظره
ترى الكناس وآرام الأطباء بها
والطير قد لزم فيها مواضعها
لذلك جيش ، وجيش فى جوانبها
إذا الصبا حركتها ما ج موكبها
أنجلها خيلك اللاتى تغير بها
علمت أبطالها أن يقدموا أبداً
أمنتهم أن يخافوا سطوة لردى

(١) ترجمته فى خريدة القصر قسم شعراء مصر .

كَأَنَّهَا جَنَّةٌ فَالْقَاطِنُونَ بِهَا
عَلَّتْ فَخِلْنَا لَهَا سِرًّا تُحَدِّثُهُ
إِنْ أَنْبَتَتْ أَرْضُهَا زَهْرًا فَلَا عَجَبُ
يَا نَحِيمَةَ الْفَرَجِ الْمَيْمُونُ طَائِرُهَا
وَمِنْهَا :

لَا يَسْتَطِيعُ عَلَى أَعْمَارِهِمْ هَرَمُ
لِلْفَرَقْدِينَ، وَفِي سَمْعَيْهِمَا صَمَمُ
وَقَدْ هَمَّتْ فَوْقَهَا مِنْ كَفْكَ الدَّيْمُ
أَصْبَحَتْ فَأَلَّا بِهِ تَسْتَبْشِرُ الْأُمَمُ

مَا قَالَ لَا قَطُّ مَذْ شُدَّتْ ثَمَائِمُهُ
لَوْ كُنْتَ شَاهِدَ شِعْرِي حِينَ أَنْظِمُهُ
أَزْرَتْكَ الْيَوْمَ مِنْ فِكْرِي مَحْبِرَةٌ
تَرَى النُّجُومَ لِلْفُظَى فِيكَ حَاسِدَةٌ
وَمِنْ قَصِيدَةِ أُخْرَى يَمْدَحُهُ :

زَكَمَ لَهُ نَقَمٌ فِي طَيْهَا نِعَمُ
إِذَنْ رَأَيْتَ الْمَعَالِي فِيكَ تَخْتَصِمُ
فِي نَاضِرِ الشَّمْسِ مِنْ لَأَلِهَا سَقَمُ
تَوَدُّ لَوْ أَنَّهَا فِي الْمَدْحِ تَنْتَعِمُ

أَطَارِقُ طَيْفِ أُمِّ خِيَالٍ مُرْجَمُ
سَرَى وَكَأَنَّ الْأَفَقَ صَفْحَةً لُجَّةُ
وَكَمْ لِلْكَرَى مِنْ مِثْلٍ قَبْلَ هَذِهِ
وَمَا شَيْئُ الْأَيَّامِ أَنْ تَمْنَحَ الْمُنَى
وَلَكِنْ رَأَتْ نَعْمَى شَهْنَشَاةٍ فِي الْوَرَى
وَمِنْهَا :

أَرَاكَ بِهِ مَرَأَى الْيَقِينِ التَّوَهُمُ
كَوَاكِبُهُ فِيهَا سَفَائِنُ عُومُ
أَضَاءَ بِهَا وَجْهُ الدُّجَى وَهُوَ أَسْحَمُ
وَيَنْسِيمُ مِنْهَا الْكَالِخُ الْمُتَجَهَّمُ
فَقَدْ أَصْبَحَتْ مِنْ جَوْدِهِ تَعْلَمُ

إِذَا كُسِفَتْ شَمْسُ النَّهَارِ فَإِنَّهَا
وَمَا أَطْلَعَ الْأَفَقُ النُّجُومَ لَرِيَّةُ
وَلَيْسَ صَلِيلُ الْبَيْضِ إِلَّا لِأَنَّهُ
وَمَا غَرَّدَ ابْنُ الْأَيْلِكِ إِلَّا بِمَدْحِهِ

لَخَجَلَتْهَا مِنْ نُورِهِ تَتَلَقَّمُ
وَلَكِنَّهُ عَجَبًا بِهَا يَتَبَسَّمُ
بُنْصُرَتِهِ يَوْمَ الْوَعَى يَتَرْتَّمُ
لَوْ أَنَّ غَنَاءَ ابْنِ الْأَرَاكِةِ يُفْهَمُ

ومدائحه للأفضل فيها ترديد لبأسه وصولاته في الحرب ، وقد يكون هذا
منطقياً في هذا العصر الذي شغل فيه القادة بمصر بغارات الصليبيين بالشام ،
وتعدتها إلى الغارة على مصر سنة ٥١١ بقيادة بلدوين صاحب بيت المقدس .

ومحاولات بعض فرسان الصليبيين المهجوم على الثغور الشامية وبها حاميات
مصرية . لقد استعرت حرب الحياة أو الموت بين المسلمين والصليبيين في
خلال هذا القرن السادس وأحس الناس في كل مكان وبخاصة في مصر بخطرورة

الهجمة الشرسة التي يشنها الصليبيون من أوروبا على سائر البلاد الإسلامية في المشرق والمغرب .

ومن هنا لم يكن غريباً الإكثار من الحديث عن الجهاد والقتال ، وشحنهم لصد الأعداء وهم ذوو بأس شديد ويجوسون خلال الديار يهددون مصائر الناس وحيواتهم .

ولم يعدم المسلمون في ذلك الوقت أبطالاً يخوضون المعارك ويصطنون المغيرين ، ويقاومون الغزاة بكل ما يحملون في صدورهم من حقد وطمع في حضارة المسلمين الزاهرة وأرضهم العامرة .

ولم تقتصر مدائح الأنصارى على الأفضل بل مدح من رجالات مصر أبا محمد بن أبى أسامة أحد كبار القادة ، من رجال الأفضل . يقول فيه من أبيات :

لعل سنا البارق المتجيد	يُخبر عن ساكني تهجد
ويا حبذا خطرة للنسيم	تجدد من لوعة المكيد
وفي ذلك الحى تحصانة	لها عنق الشاين الأغيد
ثبته لفرقة بذر التمام	وسالفة الرشا الأغيد
وتلحف عطف قضيب الأراك	رداء من الأسحم الأجد
أعاذل أتحيت لوماً على	يروح بعذلك أو يفتلي
تلوم زمانى على صمته	وصوتى من ضربه المعيد
ففضلى ييكى على نفسه	بكاء لبيد على أريد ^(١)
ولو كان حظى لون الشباب	لما حال عن صيغه الأسود
قلا تأيسن لمطل الزمان	فأنى منه على موعيد
ولا تشك دهرك إلا إليك	فما فى البرية من مُسيد
ولا تغترز بعطايا اللثام	فقد ينضح الماء من جلميد

وعجيب أن يرد فى شعر مديحه البيتان الأخيران ، لكن أحوال الزمان السيئة أجرت على لسانه هذا الكلام ، كما أجرى عليه كلاماً آخر فى مناسبات وأشعار أخرى يشكو ويلوم الزمان ، وينظر إلى الناس والدهر نظرة سوداء متشائمة .

(١) أريد هو أخو لبيد الذى أكثر من رثائه .

وتلتقى في شعر الأنصارى الذى اختاره العماد بأبيات يتّمرّد فيها على الحياة وأوضاعها ، ونحس وهو يذكر القتل والقتال أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش في عصر اللثام إلا إذا تسلّح ، وقاتل ، واعتصب حقّه بالسيف .

يقول على سبيل المثال :

منال الثريا دون ما أنا طالبُ	فلا لومَ إن عاصت على المطالبُ
وإني وإن لم يسمَح الدهر بالمنى	فلى فى كفالات الرماح مآربُ
تقربُ لى مستبعداتِ مطالبي	جياذرى، وعزمى والقنأ والقواضبُ
فما أنا ممن يقبض العجزُ خطوهُ	وتعمى عليه فى البلادِ المذاهبُ
إذا ما كسناك الدهرُ ثوباً من الغنى	فعجلُ بلاهُ، فالليالي سوّالبُ
ولا تغترّرِ ممّن صفا لك ودّه	فكم غصّ بالماء المصفقِ شاربُ
نلوّم على الغدير الزمان ضلالةً	وقد سنّه أحبابنا والحبايبُ

ويقول :

أطلب الرزق لا أنضى الرّكّاب له	لا تفرسُ الأسدُ أو تنأى عن الأجم
وكيف أغضى على ضمّ وما رويث	منى السيوف ولم تسق الصّعادُ دمي
من لى يعود زمان كنتُ أكرهه	وكيف للميت بالرجعى إلى الألم

ونحس أحياناً ونحن نقرأ بعض شعر الأنصارى روح المتنبى فى تمرده وضيقة بالبشر والعصر ، وبالحياة أحياناً . بل إنه قد يصطنع صياغته وخطابه الشعرى .

والأنصارى مثال من الشعراء المتمردين على العصر وأمله وهو يمثل هذا الإنسان الغاضب المتمثل لنفسه الطامع إلى أمل أبعد من قدرته ، فى عصر يظن أن الغالب فيه بالغ ما يريد . ولم يزوده الله إلا بقدرة البيان ، والغلبة لصاحب السيف والسلطان .

ابن النضر — الأديب^(١)

القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن النضر
من شعراء الصعيد في عصر المستعين والآخر — وقد اتصل بالأفضل
شاهنشاه بن بدر الجمالي .

تولى قضاء الصعيد زمناً بإخميم . ذكره أمية بن أبي الصلت في الرسالة
المصرية وأشاد به . وقال عنه العماد : من أهل صعيد مصر . من الأفاضل
المعروفين من حسنات الزمان . ذو الأدب الجم ، والعلم الواسع ، والفضل
الباهر ، والنثر الرائع والنظم البارع . وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى .
نشأ بالصعيد ، وتلقى به العلم ، وكان يحفظ كتاب سيبويه ، وكان
متصرفاً في علوم كثيرة ، وله في الأدب مادة غزيرة .

قال صاحب الطالع السعيد : وأكثر شعره في تشكّي الزمان والإخوان .
وله مدائح في الأعيان ، وفي جماعة من بني الكنز أعيان أسوان .
وقال عنه ابن حجر : أحد قضاة الصعيد . كان نحويّاً أديباً . روى عنه ابن
برى النحوى من رجال القرن السادس وغيره .

قال ابن أبي الصلت والعماد : وقد كان ورد الفسطاط يلتبس من وزيرها
الملقب بالأفضل نصره أو خدمة ، فخاب فيه أمله ، وضاع رجاؤه ، وأخفق
سعيه ، فقال من قصيدة يعاتب فيها الزمان ، ويشكو الحية والحرمان :

بين التعزّز والتذلّل مسلكٌ	بادى المنار لعين كلّ مُوفّقٍ
فاسلكهُ في كلّ المواطن واجتنب	كبر الأبى وذلة المتملّق
ولقد جئتُ من البضائع خيرها	لأجل مُختار ، وأكرم مُتّقٍ
ورجوتُ خفض العيش تحت رواقه	لأبْد إن نفقت وإن لم تُتّق
ظنّاً شبيهاً باليقين ولم أُخل	أن الزمان بما سقاني مُشْرِقٍ

(١) راجع في ترجمته الرسالة المصرية في مجموعة نوادر المخطوطات بتحقيق عبد السلام هارون ص ٤٠ .
والخريدة ٩٠/٢ شعراء مصر والطالع السعيد وبغية الوعاة للسيوطي .

ولعائبي بالجرصي قول بين
ما ارتدت إلا خير مرتاد ولم
وإذا أبى الرزق القضاء على امرئ
ولعمر عادية الخطوب وإن رمت
لأقار عن الدهر دون مروءتي

لو كنت شئت سبحانه لم يطرق
أصل الرجاء بخيل غير الأوتق
لم تُغن فيه حيلة المستزق
شعلى بسهم تشئت وتفرق
وحربت غزى النصر إن لم أصدق

قال : وله في سفرته هذه ، وقد قوى بأسه من بلوغ أملة ، ونيل بغيته ،
وعزم على الصّدر عن الفسطاط إلى مُستقره ، يحضّ على الزّهادة ، ويحرّض على
القناعة ، ويدّم الضّراعة ، ويتأسّف على إذالة خده ، وإراقة ماء وجهه :

لهفى للملك قناعة لو أننى
ولكنز يأس كنت قد أحرزته
أليث أجعل ماء وجهي بعده
وأخ من الصبر الجميل قطعته
يا قاتل الله الضرورة حالة
كم بات مشكواً إليه تحيفت
وفم على قدم رمت ونواظري
ومسرّبل بالصبر والتقوى دعت
ظلت تصرّفه كتصريف العصا
لا أنشأني الحادثات لمثلها

متعت فيه بعزة المملك
لو لم تبعث فيه الخطوب وتفتك
كدم يهل به الحجيج بمنسك
في طاعة الأمل الذي لم يدرك
أي المسالك بالفتى لم تسلك
خلقاته قرعاً براحة منسك
كجالت محاجرهما بوطى سنسك
فأجابها في معرض المتسلك
رأس البعير لمبرك عن مبرك
ورميت قبل وقوعها بالمهلك

وله مرثية في الشاعر القاضي الرشيد بن الوزير جدّ اثنين من شعراء مصر
ورجالها المشهورين ممن اتصلوا بالوزير طلائع بن رزيك . ويدل ذلك على أنه
كانت تربطه به صلة ما ، والشاعران من الصعيد . يقول :

يا مزنّ ذا جدت الرشيد فمّل معي
وأمسح بأردان الصبا أركانه
فبودّ نفسي لو سقيت ثرابه

نسفح بساحته مزاد الأدمع
كي لا يلمّ به شحوب البلقع
دمّ مهجتي ، ووقته بالأضلع

ومنها يخاطب القبر :

عَلَيْتُ عَلَيْكَ مَرَحِمٌ كَفَلْتُ لِمَنْ
وَتَنَفَّسْتَ فِيكَ الصَّبَا مَفْتُوقَةً
يقول فيها :

أَوْ مَا عَجَبْتُ لَطَوْدٍ عَزُ بِإِذِخٍ
وَلَحْدٍ مِنْ وَطِيءِ الْكِرَاكِبِ رَاقِيَا
ويقول :

ولقد وقفتُ على ربوعك شاكياً
فحمدتُ طرفي كيف أُرشدني بها
وذكرتُ مُزْدَحِمَ الوفودِ بياها

ومعظم ما اختاره العماد من شعر ابن النضر من هذا اللون من الشكوى
والحكمة والسخط على الحياة والناس . كأن يقول وقد أوهنه العُمر :

يَا عَيْشُ إِنَّ لَمْ تَطْبُ فَلَا تَطُلْ
كَمْ وَلَى كَمْ نَفْسِي مُقَسِّمَةٌ
لَا حَالُ لِي تَحْمِلُ الْمَقَامَ وَلَا اسْتَطِيعُ
يَصْرِفُنِي الْيَأْسُ ثُمَّ تُعْطِفُنِي
ويا حياةُ اهجرى ولا تُصَلِّى
بَيْنَ حُلُولٍ وَبَيْنَ مُحْتَمَلٍ
عَاقِبَةُ تَسْتَعْلُ بِالرَّحْلِ
عَوَاطِفُ مِنْ كَوَاذِبِ الْأَمَلِ

وقال وقد شعر بالغربة عند فراقه وطنه بالصعيد في سفرته إلى القسطاط :

يَا دَارُ مَا أَنْتَ لِي دَاراً وَلَا وَطْناً
لَئِنْ تَنَكَّرْتَ لِي عَمَّا عَهِدْتُ لَقَدْ
أَتَشْتَكِينَ لَبِينَ حُمٍّ عَنْ بَلَدٍ
نَفْسِي، تَرَى الذَّلَّ فِي أَنْ تَسْكُنَ الْبَدْنَا
وَلَا قَطِينُكَ لِي أَهْلاً وَلَا سَكَنًا
خَرَبْتُ فِيكَ الَّذِي عَمَّرْتَهُ زَمَنًا

ومن هذا الإحساس بالغربة وفراق أهله وولده ينطلق قوله :

خَلَفْتُ خَلْفِي لِلْحَوَادِثِ صَبِيَّةً
يَعْلَقْنَ مِنْهُ بِحَبْلِ رَحْمَةٍ رَاحِمٍ
وَلَقَدْ وَجَدْتُ لَهُنَّ إِذْ وَدَّعْتَنِي
بِمَحَلٍّ لَا عَمَّ لَهُنَّ وَلَا أُخٍ
أَوْ يَعْتَصِمْنَ بِظِلِّ نَخْوَةٍ مُنْتَخِ
وَجَدَ الْقَطَاةَ بِدَامِيَاتِ الْأَفْرَخِ

(١) اليرمع الحجارة الرخوة .

ويدو أن الرجل حين ضاق بالفسطاط والعاصمة حنَّ إلى بلده شأن كثير
من أبناء الصعيد المغتربين ، فعادَ إلى بلده ليستقر ، وليقنع نفسه أن الحياة كلّها
قبض ربح ، وخيال زائل ، فارتضى لنفسه بالزهد ، وكفَّ الهمة عن التطلع
والطمع خاصة وأنه قد بلغ من العمر حدًّا لم يعد يسعفه فيه البدن على مجاهدة
الحياة والسعى في أحراشها . وحياة عصره تحكمها المغالبة ، وتسودها قوانين
الغاب ، والسيادة فيها لمن غلب قوةً واقتداراً ، أو دسيسة وغدراً وخداعاً .
فيعزى نفسه وأمثاله بأن يقول :

جهاذُ النَّفسِ مفترضٌ فخذها	بآداب القناعة والزَّهَادَة
فإن جنحتَ لذلك واستجابتْ	وخالفَتْ الهوى فهو الإرادة
وإن جمحتَ بها الشهوات فاكبتْ	شكيمتها بمقمعة العبادة
عساك تُحلُّها درج المعالي	وترفعها إلى رَبِّ السَّعَادَة

داود بن مقدم بن ظفر المحلى

ينسب إلى المحلة الكبرى .

من شعراء القرن السادس ، ذكره ابن الزبير في كتاب جنان الجنان ، ونقل عنه ابن العماد قال (١) : هو من أبناء الجند بأسفل مصر إلا أن همته سمت به من الأدب إلى دوحه يقصر عنها أمثاله ، ولا يطمع فيها أضرابه ، وأشكاله . وعرضه على ذلك جودة الطبع ونفاذ القريحة ، حتى أدرك بعفو خاطره وسرعة بديته ما لم يبلغ إليه كثرة من أبناء عصره من الدأب على اقتناء الأدب . وذكر ما معناه أنه كسدت سوقه ، وجمدت حقوقه .

وهو منحوس الحظ غير مبخوت ، منكوب الجاه بحرفة الأدب منكوت . وقال عنه القاضي الفاضل : شاعر ملء فكيه توفى في عصرنا هذا (٢) .

قال ابن الزبير : وما أنشدني لنفسه قصيدة مضمنة شرح حاله . وهى :

وقد بكرت تلوم على حُمولى	كأن الرزق يجلبه احتيالى
تقدّر أننى بالحرص أحوى الشـ	راء ، وذاكم عين الحال
تقول إذا رأيت إرشاد قولى	هليت ألا تهب إلى المعالى
(ومن لم يعشق الدنيا قديما	ولكن لا سبيل إلى الوصال)
فلو أدليت دلوك في دلاء	منحت به من الماء الزلال
وكم أدليت من دلو ولكن	بلا بلل يرد على قدالى
وكم غلقت اطماعى رجاء	يحب بأرق ووميض آل
فلا أنا بالكفاف التزير راض	ولا أنا عن طلاب الكثر سالى
ولكن ذاك من قبل اعتمادى	على عبد العزيز أنى المعالى

وهو يتخلص إلى ممدوحه لعل وعسى أن يجزل له فيرضيه ، وعبد العزيز الذى يعنيه هو القاضى الجليس بن الحباب أحد كتاب الدولة المرموقين .

وينعى على كتاب عصره ممن يقصدهم يطلب رفدهم ، فلا يجدون بشيء يرضيه فينقلب عليهم هاجياً ليقول :

(١) الخريدة ٢ / ٤٦ قسم شعراء مصر .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٥ .

وكتاب لهم أبداً خمت
وكلهم يجزئ إليه نفعاً
بأيدي تبتدرون إلى الرشاوى
ونسث أزورهم إلا بشعر
فأعشى بالمحال الصرف منه
وكم قبلت من كف ولكن
وأحضر من ركاب في ركاب
وأثرت السنايك فوق رجلى
وهذا يستطيل على زهوا
وقد علموا وإن لم يصرفوني
وحالى كل يوم في انتقاص
ويقول منها :

تعد لها الرقى مثل الصلالي
فعادته احتجاني واعتزالي
كأيدى الخيل أبصرت الخالي
أنمقه وذلك جل مالي
بجالسهم فأرجع بالمحال
يهون علي مقبلها سبالي
إلى أن خف من ثقل طحالي
بوطء نعالها مثل الهلال
وذاك يعلنى كأس المطال
بيأسر أن سيصرفنى ملالي
ومن باب التمثل قول خالي

فيا غمر الحوائج قم بأمرى
فها أنا قد رجعت إلى ذراكم
وعدت كما عهدت من اتصال
فإن أبلغ بكم أملى فإنى
وإن أحرم فقد أبلغت غدرى

فقد نبهت منك أجل كالى
فمنه نشأت وله مالى
بكم عود النصال إلى التبال
رجوت الرى من سحب ثقال
فإن الذنب للأيام لالى

وهذا النفس الشعرى صوت العامة من سواد الشعب ، لا صوت الخواص من طبقه العلماء واللائذين بأصحاب السلطة وذوى الجدد ، فصاحبه من الاجتاد أى من سواد الجنود لا الفرسان ولا القادة ، وهو صوت شعبى يشكو بنقض عامة الناس ويث ما يحسون به من استئثار السادة من الحكام والقادة ، من أصحاب السيف والقلم بكل خيرات البلاد ، ويفضلون على الأشقياء من عامة الناس بالكفاف وهم المناضلون الكادحون ، لكن عملهم وكدهم يذهب إلى غيرهم ينعمون به دونهم ، ويضطّر هذا الجندى من عوام الناس أن يسأل بشعره . وترى في قوله نعمة الشعب ، ولفظه ودارج كلامه ، وهذا اللون من الخطاب تطور في الشعر المصرى وظهر بوضوح بعد ذلك في العصر التالى عصر الأيوبيين والمماليك ، وتمثل في شعراء من أضراب الجزار ، والوراق ، والبوصيرى ، وغيرهم .

فالحلى يقول في أحد الأمراء ويدعى بابن كازوك ، وكان يلى المشاركة بالغريبة وقد تم عزله عن شُغلِهِ :

ويقول فيها :

۳۷۹

ويقول :

فأثركونا معاشر الجند واغتنوا بدرور الأرزاق كل أوان
والولايات والحمايات والغمر م وأخذ الأتخبال من كل خان
والمعاصير والسواق وتسويغ الضياع المفردات الحسنان
وارتعوا في جزور ذى الدولة الهامى نداها فى أطيب اللحمان
واشغلونا بما به يشغل الهى لرفع أو خيفة العدوان
بالطحال المستود أو طرف التريسة ، أو بالمعلاق والمصران
واغنموا هدنة كتهويمه الركب سب وقيتم بها من الحدثن

والقصيدة صارخة الشكوى من استبداد الجند وقادتهم من أرباب السيف
المتسلطين على العباد يأخذون أرزاقهم ، ويسترقونهم ، فيفوزون من جزور
الدولة بأطيب اللحمان ، وينعمون منها بالأموال والنعم والحياة الرعدة ، ولا
يدعون لعامة الشعب إلا ما فضل منهم من الذبيحة أنحس لحمها من الرقة
والمصران وهم مع هذا لا ينهضون بما ينبغي عليهم النهوض به من جهاد الأعداء
بالشام وقد تكالب الصليبيون على أرض المسلمين وسلبوا منها واقتطعوا
الامارات والاقطاعات وعاثوا . لقد تقاعس هؤلاء الجند عن الواجب المناط
بهم وبدلاً من جهاد الأعداء جاهلوا الناس واستولوا على أرزاقهم ليعيشوا فى
نعمة وترف على حساب الرعايا يتركونهم يشقون بشظف العيش ، ومكابدة
الفقر .

ابن الضيف^(١)

حيدرة بن عبد الظاهر بن الحسن بن علي الربيعي

قال عنه العماد : « كان من دعاة الأدعياء ، الغلاة لهم في الولاء . وكان في حدود خمسمائة في عهد أمرهم . وله فيه مدائح كثيرة . وقع إلى ديوانه بخطه وكنت عزمت لفرط غلوّه على خطّه ، لأنه أساء شرعاً ، وإن أحسن شعراً ، بل أظهر فيه كفرأ ، فلم يستحقّ لإساءته كفرأ ، ولا غفرأ ؛ لكنني لم أر أن أترك كتاباً منه صفراً ، لأن البحر الزاخر يركبه المؤمن والكافر ، ويقصده البر والفاجر ، يحمل الغنائ كما يحمل الدرّ ، والمركب فيه يجمع العبد والحرّ وقد أوردت من مستحسناته كلّ ما يُعفى على سيئاته ، ويُغضى به على هفواته .

فما عُتيت بإثباته من قصائده ومقطوعاته قوله من قصيدة يعارض بها ابن هانيء المغربي :

طلعت صباحاً مُشرقاً يتهلّل	ووراءها بالوَحيف ليلٌ أليلٌ
وَدَنَتْ لها شمسُ الظهيرة تُجْتَلِي	نوراً، وما للشمس طرفاً أكحلٌ
وثنت قضيبَ الخيزرانة تحته	حقف يكادُ تُسرّعاً يتهلّل
والخذ ضمخه حريقٌ مُشعلٌ	والشعرُ عطّره رحيقٌ سلسلٌ

واختار له العماد أبياتاً في الغزل تبدو فيها شاعريته ، ورقة أحاسيسه ، وبديع صوره .

قمرٌ لاثٌ عليه مُطرفاً	لازوردياً رقيق الحاشية
وعليه صبغةٌ من حُسنه	فهى في كلّ فؤادٍ سارية
يضحكُ القلبُ إذا عاينها	ولكم عينٌ عليه باكية
طرفه جنةٌ عدنٌ أزلقت	وبخذه جحيمٌ صالية
ننم الصُدغين فيها طرراً	كَيْبَتْ من ذهب في غالية
شبهته العينُ لما أن بدا	روضة ذات قطوفٍ دانية

أو يقول :

(١) ترجمته في الخريدة ١/ ٣٨٥ ، المغرب لابن سعيد .

آذن قلبي بالهوى شادين أيقظه من طرفه الثاعس
 ألبسته الحسُن رداءً له نفسى فدأء القمر اللابس
 غرستُ في وجنتيه وردةً من نظرة المسترق الخالس
 فخاف أن أقطفها خفيةً بقبلة والغرس للغارس
 فمير في ميدانه مسرعاً يا ليتنى فارسُ ذا الفارس (١)

وكم رق في تعبيره عن حمرة الخجل في الخد ، وجاء بهذا البدع في التشكيل وحلاوة الصورة .

ومن إبداعه في الوصف قوله في عازف على العود :

ومُسْمِع مبدع بصنعتيه يُريك من فضل حُسْنِه عجباً
 حرّك عوداً كالرعدِ مقترناً بالبرق في كفه إذا ضرباً
 تسرى قواه في نفس سامعه فيكتسى كل مفصل طرباً

ونستشف من شعره أنه كان من شعراء الأفضل بن بدر الجمالي إذ يقول :

وتلاف الكريم في ذلة اللوعة عز ، وراحته في كلال
 مثلما يتلف الأجل جلال الملوك أمواله بحفظ المعالي

من تخلص إلى المدح بعد مقدمة غزلية جميلة يقول فيها ، وقد جاء بالبديع من المعالي :

ذاك مغنى يغنيك مرأى عن السمع بتجديده الهوى وهو بالى
 طالما أمكنت به فرص جا ذبت فيها مغازلات الغزال
 بين ورد كوردي خديه في الحسن ورؤوس كوجهه في الجمال
 وندى كالدموع في مقل الثر جس ، أو فيض عبيرة في دلال
 يا لقومي من سيخر تفتير طرف وقعة في القلوب وقع التبال

يتجلى أعلاه عن بدر تم ويبارى ردقاه دغص رمال
 وعليه مجاسد ألبسته ال حسن من فرقه إلى الخلخال
 فإذا لاح في السواد رأينا شمس دجن أو هالة في هلال

(١) ورى بين فارس وفارس ففارس الثانية من قرس .

ويقول في وصف الشراب ومجلس طرب وأتس وهو :

بتنا بها نجلو عروس زجاجة	قد ألبست ثوب الرجيعي الذهبا
نشرت عليها بالمزاج لآلء	عامت فعادت كالبرين تسربا ^(١)
فصفاؤه يفتّر عنه ترققاً	ويزوده يزاد منه تلهباً
ومغرد لي من فتور جفونه	سكّر، وسكّر إن شدا وتطرباً
نبهته ويد النعيم تؤوده	ليناً، وتكسو وجنتيه تخضباً
لأروض روضاً بالتداني ممرعاً	وأزور مغيثي بالمغاني مغيثاً
وأشتم ريحان الشعور مطيباً	وأعلّ خمرأ بالشعور مشتباً
وأمض زمان الصدور مشرباً	وأعض تفاح الحدود مكتباً ^(٢)

(١) البرين حلقات من معدن تضعها النساء في الأنف تزيها .

(٢) المكتب المكتبة .

ابن الكيزاني
الشاعر الصوفي الواعظ صاحب الطريقة
(ت سنة ٥٦٠ هـ)

عرف ابن الكيزاني في مصر في أخريات العصر الفاطمي شاعراً واعظاً صاحب طريقة . سكن الفسطاط ، وتعبد في جبل المقطم ، وسلك في حياته مسلك الفقراء من أصحاب الطريق ، زهادة ، وبعداً من صخب الحياة وترفعاً عن نهم المال ، ورغبة في اصطناع الأولياء ، واصطحاب الرفاق .

هو أبو عبد الله محمد بن ثابت إبراهيم الكيزاني^(١) ، جمع بين علوم الشرع وعلم العقل حتى أنه عد عند بعض المؤرخين ممن أخذ بآراء المعتزلة ، ويرى بعضهم أنه كان من المشبهة المجسمة والقائلين بقدوم أفعال العباد ، وهو ما يتناقض مع القول بآراء المعتزلة ، وإن اتفق رأى بعض الصوفية في مراحل من تاريخهم مع المبادئ العامة لأراء المعتزلة ، وبخاصة متصوفة الفكر لا متصوفة الطريقة .

وعلى أية حال فإن الشيخ ابن الكيزاني قد اتخذ لنفسه مذهباً في الزهد والتصوف وعرف به وتبعه فيه جماعة من المصريين عرفوا بالكيزانية وهو في مواعظه وشعره لا يخرج في صورته العامة عن أقوال الصوفية وبخاصة من أصحاب مذهب العشق الذي كان ابن الفارض في القرن السابع شاعرهم الأكبر ، إلا أن فرقاً كبيراً . يباعد بين كل من الرجلين في الشخصية والشعر ، ومضامين كل ومعانيه ، فشعر ابن الكيزاني ومواعظه من الضرب السهل القريب إلى أفهام العامة وتعبيراتهم ، وهو أقرب إلى المنظومات الشعبية التي تنشأ في الموالد والمواسم الدينية من فرق الصوفية ورجالها .

وكان ابن الكيزاني يعظ الناس بالفسطاط والقاهرة بعد صلاة الجمعة أيام الجمع وفي المناسبات الدينية المختلفة ، فيقف بين الجمع يعظهم في خطبة أو كلمات منثورة مسجعة منمقة اللفظ ، مدعمة بآيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة للتذكير والترهيب والترغيب ، أسلوبها مسجوع مقطع

(١) راجع في ترجمته في : خريدة القصر قسم شعراء مصر ١٧/ ٢ والمغرب (قسم مصر) بتحقيق د. زكي محمد حسن ، د. شوقي ضيف ، وقد قام بدراسة حياته وشعره الدكتور علي صافي حسين

وجمع ديوانه — طبع دار المعارف بمصر .

يحرص فيه على الإيقاعات المترددة والجمال القصيرة في معظمها مع دعمها بكثير من مقاطيف القصص الديني .

وتارة يدعم مواعظه بتلك المنظومات التي تعرض صوراً منها من مثل قوله :

قِفْ عَلَى الْبَابِ طَالِباً	وَدَعْ الدَّمَعَ سَاكِباً
وَتَوَسَّلْ بِهِ إِلَيْهِ	مِنَ الذَّنْبِ تَائِباً
تَلَقَّ مِنْ حُسْنِ فَضْلِهِ	عِنْدَ ذَاكَ الْعَجَائِبِ
ثُمَّ خَفْ مِنْهُ أَنْ يَرَا	كَ عَلَى الذَّنْبِ رَاكِباً
فَهَرَّ يَجْزِي عَلَى الْيَسِيرِ	وَيُعْطَى الرِّغَائِبِ
زِينَةُ الْعَبْدِ بِالتَّقَى	فَاجْعَلْ الصَّدَقَ صَاحِباً

وشعره الصوفي الذي يدور في موضوع « الوجد » و « الحب » شعر بسيط كذلك في لفظه وتعبيره من مثل قوله :

إِذَا نَفَحَتْ رِيَّاحُ الْعَذْرِ يَوْماً	إِنِ الْدَّمَعُ يَجْجِدُنِي وَيُغْرِى
تَذَكَّرْنِي الَّذِي قَدْ غَابَ عَنِّي	فِيْلِقَانِي وَأَلْقَاهُ بِذِكْرِ
نَائِي عَنِّي وَقَلْبِي مِثْلُ بَرْقٍ	وَأَجْفَانِي سَحَابٌ ذَاتُ قَطْرِ
وَيَا لَهْفِي عَلَيْهِ ثُمَّ لَهْفِي	نَائِي بَنَوَاهُ يَوْمَ الْبَيْنِ صَبْرِي
أَيَّتْ مَعْلَلاً رُوحِي بِرُوحِ النِّسِيمِ	مِنَ أَرْضِهِ أَيَّانَ يَسْرِي
وَلَا وَاللَّهِ مَا ذَاقْتُ جُفُونِي	مَنَاماً وَلَا أُخْلِيْتُ ذِكْرِي
وَوَاسَقِي عَلَى أَنْ ذُبْتُ شَوْقاً	وَأَحْسَبُهُ بِذَلِكَ لَيْسَ يَذْرِي

قال العلماء والأدباء أقوالاً مختلفة ومتعارضة في شعر الكيزاني وقيمتة الفنية قال ابن سعيد المغربي^(١) :

وقفت على ديوانه ، وهو مشهور عند الناس ، قريب من أفهام العامة غير مُرضٍ عند صدور الشعراء ، وأصحاب عويص الكلام وفرسان النظم ولم أكتب من ديوانه ، وقد ضجرت من اختياره ومطالعه — شيئاً تهش النفس إليه ، وإنما أوردت ترجمته لشهرة ذكره وديوانه ، وكثيراً ما يباع في سوق القسطنطينية وسوق القاهرة ، وكان من لا عرف معاني الشعر المستحسنة وألفاظه

(١) المغرب قسم مصر ص ٢٦١ ، بتحقيق د . زكي محمد حسن ود . شوق صبت .

المستبدعة يحضنى على الوقوف عليه ، فلما وقفت عليه أنشدن متمثلاً : (أنا المعيدى فأستمعنى ولا تُرنى) .

وأما العماد الأصهبانى فقد أطرى شعره ، فقال (١) :

« وله ديوان شعر يتهافت الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله لما أودع فيه من المعنى الدقيق واللفظ الرشيق ، والوزن الموافق ، والنوع اللائق ، والتذكير الرائع ، والقافية آثار الحكم ، والكلمة الكاشفة أسرار الكرم » .

وكلام الأصهبانى إطراء مسجوع لا سبر لغور الشعر كما سبره ابن سعيد وليس ذوق العماد كذوقه وهيات ، ومختارات كل منهما شاهدة على ذلك ، فلم يكن الأصهبانى نقادة للكلام ولا شاعراً كابن سعيد يهتز للجمال .

ونقتبس مما اختاره العماد مقطوعات تصورات اتجاهه وصنعتة ، فمن ذلك قوله متغزلاً — لعله غزل عادى أو غزل صوفى — قال :

اصرفوا عني حبيبي	ودعوني وحبيبي
عللوا قلبي بذكرى	هـ فقد زاد ليهيبي
طاب هتكى في هواه	بين واشى ورقيب
لا أبالي بهوان النفس	ما دام نصيبي
ليس من لأم وإن أظن	ب فيه بمصيب
جسدنى راضى بسقيى	وجفونى بنجيبى

ومن مواظله قوله :

أسعد الناس من يكاتم سره	ويرى بذلك عليه معرة
إنما يعرف اللبيب إذا ما	حفظ السر عن أخيه فسرته
إن يجد مرة حلاوة شكوا	هـ سيلقى ندامة ألف مرة

ومن جيد غزله الذى تحس فيه بنفحة صوفية قوله :

أنى طريق أسلك	وأنى قلب أملىك
وأنى صبر ابتغى	وهو بكم مستهلك
أدارنسى حجبكم	كما يدور الفلك

(١) خريدة القصر — قسم شعراء مصر ١٧/ ٢ .

أَتَشَى وَكُلَّ عُضْوٍ مِمَّنْ فِيكُمْ فِيهِ شَرٌّ
أَخْلَصْتُ فِيكُمْ بَاطِنًا فِيهِ هَوًى لَا يُدْرِكُ
جَلَّ فَمَا فِي وَصْفِهِ شَوْبٌ وَلَا مُشْتَرِكُ
وَلَاؤُكُمْ لِي مَذْهَبٌ وَذِكْرُكُمْ لِي نُسْكُ
وَمُنْهَجِي مَمْلُوكَةٌ يَا حَبْدَا الْمَلِكُ
وَأَنْ أَرَدْتُمْ فَأَحْقِيقُوا إِنْ أَرَدْتُمْ فَاسْفِكُوا
مَا أَنْتُمْ مِمَّنْ يَخْشَى لِي حَبَّةً وَيَتْرَكُ

ومما هو قريب من الاتهالات قوله :

يَا مُنْصِفًا فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ لَا تَخْرُجْ إِلَّا نَصَافًا عَنْ رَسْمِهِ
هَبْ أَنَّنِي أَبْدَيْتُ جُرْمًا وَقَدْ يَعْتَذِرُ الْإِنْسَانُ عَنْ جُرْمِهِ
قَدْ كَثُرَ الْقِيلُ وَحَاشَاكَ أَنْ تَسْمَعَ قَوْلَ الْخَصْمِ فِي خَصْمِهِ
انْظُرْ إِلَى الْبَاطِنِ مِنْ أَمْرِنَا فَرَاحَةُ الْعَالَمِ فِي عِلْمِهِ
فَإِنْ رَأَيْتَ الْحَقَّ حَقًى فَلَا تَمَكِّنِ الظَّالِمَ مِنْ ظُلْمِهِ

وقيل إن صلاح الدين عندما جاء إلى مصر ومر بالفسطاط سمع بالكيواني وأشعاره وتعلق الناس به فاقتنوا ديوانه، واختار منه العماد ما ضمنه خريدة القصر في مختاره من شعراء مصر.

يقول : واستعرت من الملك الناصر صلاح الدين — وقد لقيته قبل أن ملك مصر — قطعة بها من شعره في الغزليات وغيرها والزهديات، وأثبت منها هذه المقطوعات (١).

ويقول القفطى : رأيت في بعض المجاميع أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لقي ابن الكيواني بمصر لما طلع في نصرته، وقبل أن يلى على مملكتها، واستكتبه جزءاً من شعره (٢).

ومهما يكن من أمر ابن الكيواني، فإنه شاعر له لونه الخاص الذي مزج فيه معاني التصوف بالزهد والحكمة والوعظ في لفظ سهل وتعبير شائع غير مستعصى، فراق لدى العامة وراج.

★ ★ ★

(١) خريدة القصر — شعراء — ١٨/٢.

(٢) الحمدون من الشعراء.

الفصل التاسع
شعراء نهاية العصر
ابن رزّيك وجماعته

طلّاع بن رزّيك

الوزير القائد الشاعر (ت سنة ٥٥٦ هـ)

ولد طلّاع سنة ٤٩٥ هـ بأحدى مدن أرمينيا ، وكانت خاضعة آنذاك لسلّاطين السلاجقة ، وتعلم ببلده وحفظ القرآن ، وأتقن علوم الدين واللغة والأدب على جماعة من شيوخ عصره ، كما اتصل ببعض رجال الشيعة ، فأخذ عنهم مذهبهم ، ووعاه وتمسك له ، وزار مع بعضهم النجف الأشرف ، وذكر ابن العماد الحنبلي تعصبه للمذهب بقوله « وكان في نصر التشيع كالسكة المحماة » (١) .

وذكر المقرئزي زيارته للنجف ومشهد على بن أبى طالب به فقال (٢) : « زار مهد الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه في جماعة من الفقهاء (لعله يقصد الصوفية) وأمام مشهد على رضى الله عنه يومئذ السيد ابن معصوم فزاره طلّاع وأصحابه وباتوا هناك ، فرأى السيد في منامه الإمام صلّوات الله عليه يقول له : قد ورد عليك الليلة أربعون فقيراً من جملتهم رجل يقال له طلّاع بن رزّيك من أكبر محبيننا ، فقل له اذهب ، فإننا قد وليناك مصر . فلما أصبح أمر أن ينادى : من فيكم من اسمه طلّاع بن رزّيك فليقم إلى السيد ابن معصوم ، فجاء طلّاع إلى السيد ، وسلم عليه ، فقص عليه رؤياه فرحل إلى مصر » .

وكأنّ صاحب هذه القصة أراد القول بأن ذهاب ابن رزّيك كان بناءً على توجيه غيبي من الإمام الوصي ، ليثبت لدى الرعية من الشيعة شرعية توليه الأمر في مصر دون خلفائها من الفاطميين .

وهكذا وصل طلّاع إلى مصر على تلك الصورة ، واتصل في مرحلة الشباب . وربما كانت سنة آتخذ في حدود العشرين أو تعداها بقليل ، ولعله عاصر خلافة الأمر في أخرياتهما ، والتحق بديوان الكتابة لما عرف فيه من النباهة . واتصلت أسبابه بالقصر على نحو ما ، وظلّ كذلك في خلافة الحافظ عبد

(١) شذرات الذهب ٤ / ١٧٧ .

(٢) الخطط ٤ / ٧٣ — ٨١ .

المجيد . وربما كان تعيينه لتولى إحدى ولايات الصعيد في عهد الله الخليفة ووزيره الأرمني تاج الدين بهرام شاه . الذى ذكر صاحب المختصر أنه تحكم واستعمل الأرمن على الناس . (من سنة ٥٢٩ إلى سنة ٥٣١ هـ) (١) .

ذهب طلائع إذا إلى الصعيد ، وبقي بها حتى بعد سنة ٥٣١ هـ ، وتقلب في مناصب ولايات الصعيد ، فولى قوص ، ثم أسوان ، وربما جمع بين ولاية قوص وأسوان ، وتولى الأشمونين ومنية بنى خصيب (المنيا الآن) حيث يذكر المؤرخون أنه انتقل بعدها إلى القاهرة لإنقاذ الخلافة من الفوضى التى عمت العاصمة بعد مقتل الخليفة الظافر بأيدى عباس وابنه نصر .

وعليه فيكون طلائع قد بقى بالصعيد ما يقرب من عشرين عاماً بين قوص ، وأسوان والأشمونين ، وقد مهدت له هذه الإقامة بالصعيد كى يصبح نافذ الكلمة ، ولا شك أنه خلال تلك السنين الطويلة قد مكن لنفسه بين أبناء الصعيد ، ولعله اجتذب إليه جماعة منهم ، وكان لسياسته وحسن أدائه ، وتجيئه إلى رعيته أثر واضح فى ولائهم له . فتقوى بهم جنداً ، ومناصرين ، وعرف الخلفاء ، ومن التقى بهم من رجال القصر ونسائه ، وكبار رجال الدولة بالقاهرة بقوة طلائع وقدرته . وما يملكه من جند ومال فاتجهوا إليه حين حزبهم الأمر يستجدون به ضد طغيان عباس وابنه نصر بعد مذبحة القصر التى دبرها نصر وقتل فيها الخليفة الظافر وجماعة من الأمراء .

قيل إن نساء القصر استنجدوا بطلائع ، وكتب القاضى الجليس ابن الحباب يستدعيه ، ومع الكتاب خصلة من شعر بعض نساء القصر .

فهب ابن رزيك للنجدة ، ووجدها فرصة لارضاء تطلعه والإيقاع بأعدائه من المغاربة المستوزرين من أمراء الصنهاجين الأعداء التقليديين للخلافة الفاطمية ، والذين انقلبوا عليهم فى عهد تميم بن المعز بن باديس الذى خرج على طاعة المستنصر ، وأعلن ولاءه للعباسيين ، وأعاد الخطبة لهم بالقىروان . كان

(١) راجع المختصر فى أحوال الشرق فى حوادث سنة ٥٣١ هـ حيث يقول : « وفيها عزل الحافظ وزيره بهرام شاه النصارى الأرمنى بسبب توليته الأرمن على المسلمين ، واهانتهم لهم ، فأنف من ذلك شخص يدعى رضوان وجمع جمعاً وقصد بهرام ، فهرب بهرام إلى الصعيد » .

عباس الصنهاجي إذا وابنه نصر قد ورثوا الحقد عن آبائهم على الرغم مما أبدوه من قرف منذ تولى يحيى بن تميم ، وعلي بن يحيى حكم القيروان .

لقد كان عباسُ سنياً ، ووز للفاطميين الشيعة الإسماعيلية قسراً بالغلبة لا بالرضا بعد قتل ابن السلار الذي كان عباس ربيه .

وبينما كانت هذه الأحداث كلها تدور بالقاهرة ، كان طلائع يرقبها من مكانه المكين الآمن بالصعيد . وقد عمل كما قلنا على أن يدعم مكانته حتى يتتيز الفرصة للوثوب . ولم تلبث أن واثته هذه الفرصة سنة ٥٤٩ هـ وجرت الأحداث الدامية التي أدت إلى استيلاء طلائع على زمام الأمور هكذا .

كان الظافر الذي تولى الخلافة شاباً حدثاً ، اشتغل باللهو لحداثة سنه ، وتعلق بنصر ابن عباس الصنهاجي ، وقيل إن علاقة شاذة ربطت بينهما وكان نصر هذا شاباً مستهتراً ، متهوراً ، طموحاً ، حدثته نفسه بقتل أبيه ليتولى الوزارة للظافر صديقه ، فلما علم أبوه عباس بما يفكر فيه من دس السم له للتخلص منه ، أغراه بقتل الخليفة ليطمعه في الملك . ويكون بذلك قد ضرب عصفوريين بحجر ، تخلص من الخليفة الفاطمي ، الذي كان يطمع لا شك في ملكه حتى يصبح صاحب مصر بعد أن ملك أخوه القيروان . من ناحية وليبعد ابنه عن التفكير في قتله .

وكان الظافر ينادم نصراً ، ويعاشره ، ويثق فيه ، وينزل بالليل من قصر الخلافة إلى داره بالسيوفيين بالقاهرة . وذات ليلة نزل الظافر ومعه خادم له إلى منزل نصر ، فشربا ، ونام الظافر ، فقام نصر إليه فقتله ، وألقى بجثته في بئر .

وعرف القصر بما حدث ، فثار من فيه يريدون الانتقام من القاتل فما كان من عباس إلا أن جاء بثلاثة من أمراء القصر يأخوئ الظافر وابن أخيه فقتلهم صبراً بين يديه .

وأخفى مقتل الظافر ، وتظاهر أمام أعيان الدولة ببراءته وابنه من دم الخليفة . وادعى أن الظافر ركب في مركب فانقلبت به وغرق .

ولكن هذه الخدعة لم تجز على من بالقصر ، فثار جثده وخدمه من السودان ومعهم أهل القاهرة على عباس وابنه لفعلته الشنعاء . وطالبوا برأس عباس

وابنه . وتلبث عباس قليلاً وجمع من حوله بعض أعوانه ، وأراد مواجهة
الناشرين ، ولكن الأمور تفاقمت ، وضاعت الحلقة حوله بتحريك ابن رزيك من
الأشمونين ومنية بنى خصيب في جند كثيف إلى القاهرة .

ولم يجد أسامة بن منقذ ، وكان مصاحباً آنذاك لعباس وابنه بدءاً من نصح
عباس بالتوجه إلى الشام هارباً من مصر ، ليفلت برأسه .

وهكذا خرج الثلاثة متخفين مشرقيين إلى الشام ، وقرب مدينة غزة داهتهم
جماعة من فرسان الصليبيين ، فقتلوا عباساً ، وأسروا ابنه وتمكن أسامة من
الإفلات قاصداً بلدة شيزر قرب حلب .

واختلفت المصادر في أخبار هذه الأحداث الدامية منذ شهر المحرم من سنة
٥٤٨ هـ وحتى تولى الصالح طلائع مقاليد الوزارة . فابن الأثير يقول (١) : في
هذه السنة في المحرم قتل العادل بن السلار وزير الظاهر بالله . قتله ربيبه عباس
بن أوى الفتوح يحيى الصنهاجى . أشار عليه بذلك الأمير أسامة بن منقذ ،
ووافق عليه الخليفة الظاهر بالله ؛ فأمر ولده نصراً ، فدخل على العادل وهو عند
جدته أم عباس فقتله ، وولى عباس الوزارة بعده .

قال : وكان عباس جاء مع أمه بعد وفاة والده (يحيى) وحلّ بالإسكندرية
وبها العادل بن السلار (ربما كان ذلك في حدود سنة ٥١٥ - سنة
٥١٦ هـ) فتزوج بأم عباس حتى ولى الوزارة . وكانت الوزارة بمصر لمن
غلب ، والخلفاء وراء حجاب . وقل أن ولها أحد بعد الأفضل إلا بحرب وقتل
وما شاكل ذلك .

وقال ابن القلانسي : « وكان الظاهر قد ركن إلى أخويه وابن عمه ، وأنس
بهم في وقت مسراته ، فاتفقوا عليه واغتالوه ، وذلك في يوم الخميس سلخ
صفر وحضر العادل عباس الوزير وابنه ناصر الدين نصر وجماعة من الأمراء
والمقدمين للسلام على الرسم ، فقبل لهم إن أمير المؤمنين مُلْتَأَتُ الجسم ، فطلبوا
الدخول إليه ، فمنعوا ، فالتجّوا في الدخول بسبب العيادة ، فلم يمكنوا »

(١) الكامل ٩ / ٣٨٩ .

فهبجوا ، ودخلوا القصر ، وانكشف أمره ، فقتلوا الثلاثة ، وأقاموا ولده عيسى وهو ابن ثلاث سنين ، ولقبوه بالفائز بنصر الله ، وبايعوه وعباس الوزير إليه تدبير الأمور .

ويبدو أن ابن القلانسي أراد أن يبرىء عباس وابنه نصر من قتل الخليفة الظافر .

وتعرض شهادة أحد المشاركين في الأحداث وهو أسامة بن منقذ كما دُونها بنفسه في مذكراته « الاعتبار » (٢) . قال :

وأما الفتنة التي قتل فيها الملك العادل بن السلار — رحمه الله — فإنه كان جَهْزُ عسكرياً إلى بلبس ومقدمه ابن امرأته ركن الدين عباس بن ألى الفتوح (يحيى) بن تميم ابن باديس لحفظ البلاد من الإفرنج ومعه ولده ناصر الدين نصر بن عباس ، فأقام مع أبيه في المعسكر أياماً ، ثم دخل إلى القاهرة بغير إذن من العادل ولا دستور ، فأنكر عليه ذلك وأمره بالرجوع إلى المعسكر ، وهو يظن أنه دخل القاهرة للعب والفرجة ، وللضجر من المقام في المعسكر .

وابن عباس قد رتب أمره مع الظافر ، ورُتّب معه قوماً من غلمانه يهجم بهم على العادل في داره إذا أبرَدَ في دار الحرم ونام ، فيقتله . وقرر مع أستاذ من أستاذى دار العادل أن يعلمه إذا نام ، وصاحبة الدار امرأة العادل أم عباس وجدّة نصر ، فهو يدخل إليها بغير إذن .

فلما نام العادل أعلمه ذلك الأستاذ بنومه ، فهبج عليه في البيت الذى هو نائم فيه ، ومعه ستة نفر من غلمانه فقتلوه ، رحمه الله . وقطع رأسه وحمله إلى الظافر وذلك في يوم الخميس السادس من المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة . وفى دار العادل من مماليكه وأصحاب النوبة نحو من ألف رجل . لكنهم في دار السلام . وهو قتل في دار الحرم ، فخرجوا من الدار ووقع القتال بينهم وبين أصحاب الظافر وابن عباس إلى أن رُفِعَ رأس العادل على رمح ، فساعة ما رأوه انقسموا فرقتين ، فرقة خرجت من باب القاهرة إلى عباس لخدمته وطاعته ،

(١) ذيل تاريخ دمشق ص

(٢) الاعتبار ص ٤١ وما بعدها — تحقيق الدكتور قاسم السامرائى طبع مؤسسة دار الثقافة والنشر بالرياض سنة ١٩٨٧ م .

وفرقه رمت السلاح وجاءوا إلى بين يدي نصر ابن عباس قبلوا الأرض ووقفوا في خدمته .

وأصبح والده عباس دخل القاهرة ، وجلس في دار الوزارة . وخلع عليه الظافر وفوض إليه الأمر ، وابنه نصر مخالطه ومعاشره ، وأبوه عباس كاره لذلك مستوحش من ابنه لعلمه بمذهب القوم في ضربهم بعض الناس ببعض حتى يفنواهم ويجوزوا كل ما لهم حتى يتفانوا ، فأحضراني ليلة وهما في خلوة يتعائبان ، وعباس يردد عليه الكلام وابنه مطرق كأنه نمر ، يردُّ عليه كلمة بعد كلمة يشتاظ منها عباس ، ويزيد في لومه وتأنيه . فقلت لعباس : يا مولاي الأفضل ، كم تلوم مولاي ناصر الدين وتوبخه وهو ساكت ؟ . لإجعل الملامة لي ، فأنا معه في كل ما يعمل ، وما أتبرأ من خطيئه ولا صوابه . أى شيء هو ذنبه ؟ . ما أساء إلى أحد من أصحابك ، ولا فرط في شيء من مالك ، ولا قدح في دولتك ، خاطر بنفسه حتى نلت هذه المنزلة ، فما يستوجب منك اللائمة . فأمسك عنه والده . ورعى لي ابنه ذلك .

وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على قتل أبيه ، ويصير إلى الوزارة مكانه . وواصله بالعطايا الجزيلة ، فحضرته يوماً وقد أرسل إليه عشرين صينية فضة فيها عشرون ألف دينار ، ثم أغفله أياماً وحمل إليه من الكسوات من كل نوع ما لا رأيت مثله مجتمعاً قبله . وأغفله أياماً ، وبعث إليه خمسين صينية فضة فيها خمسون ألف دينار ، وأغفله أياماً وبعث إليه ثلاثين بغلاً ، وأربعين جملًا ، بعدها وغرائرها وحبالها . وكان يتردد بينهما رجل يقال له مرتفع بن فحل ، وأنا مع ابن عباس لا يفسح لي في الغيبة عنه ليلاً ولا نهاراً . أنام ورأسى على رأس مخدته .

فكنت عنده ليلة ، وهو في دار الشابورة ، وقد جاء مرتفع بن فحل فتحدث معي إلى ثلث الليل وأنا معتزل عنهما ، ثم انصرف . فاستدعاني وقال : أين أنت ؟ قلت : عند الطاقة أقرأ القرآن ، فإني اليوم ما تفرغتُ أقرأ . فابتدأ يهاتني بشيء مما كان فيه لييصر ما عندي في ذلك ، ويريدني أقوى عزمه علي سوء ما قد حمله عليه الظافر ، فقلت : يا مولاي ، لا يستتر لك الشيطان ويتخذ لمن يفرك ، فما قتل والدك مثل قتل العادل ، فلا تفعل شيئاً تلعن عليه

إلى يوم القيامة فأتى فاطمى وقاطعنى الحديث ، ونمنا ، فأطلع والده على الأمر ، فإلفه واستأله وقرر معه قتل الظافر .

وكانا يخرجان فى الليل متنكرين ، وهما أتراب وسنهما واحد ، (يعنى الظافر ونصر) فدعاه أبى نصر إلى داره وكانت فى سوق السيوفين ، ورتب من أصحابه نفراً فى جانب الدار ، فلما استقر به المجلس خرجوا عليه فقتلوه . وذلك ليلة الخميس سلخ الحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ورماه فى جب داره .

وكان معه خادم له أسود لا يفارقه يقال له سعيد الدولة ، فقتلوه .

وأصبح عباس جاء إلى القصر كالعادة للسلام يوم الخميس فجلس فى خزانة فى مجلس الوزارة كأنه ينتظر جلوس الظافر للسلام ، فلما جاوز وقت جلوسه استدعى زمام القصر وقال : وما لولانا ما جلس للسلام ؟. فتبذل الزمام فى الجواب ، فصاح عليه وقال : مالك لا تجاوبنى ؟.

قال : يا مولاي مولانا لا ندرى أين هو ؟. قال : مثل مولانا يضيع ؟. إرجع فاكشف الحال !. فمضى ورجع وقال : ما وجدنا مولانا ، فقال عباس : ما يبقى الناس بلا خليفة إدخل إلى الموالى إخوته يخرج منهم واحد نباعه ، فمضى وعاد وقال : الموالى يقولون لك نحن مالتا فى الأمر شئ ، والده عزله عنا وجعله فى الظافر . والأمر لولده بعده . قال : اخرجوه حتى نباعه .

قال ابن منقذ : وعباس قد قتل الظافر وعزم على أن يقول : إخوته قتلوه ! ويقتلهم به ، فخرج ولد الظافر ، وهو صبي محمول على كتف أستاذ من أستاذى القصر ، فأخذه عباس فحمله . وبكى الناس . ثم دخل به وهو حامله إلى مجلس أبيه ، وفيه أولاد الحافظ ، الأمير يوسف والأمير جبريل ، وابن أخيه الأمير أبو البقاء .

ونحن فى الرواق جلوس ، وفى القصر أكثر من ألف رجل من المصريين ، فما راعنا إلا فوج قد خرج من المجلس إلى القاعة وصوت السيوف على إنسان فقلت لغلالم لى أرمنى : أبصر من هذا المقتول ؟. فمضى ثم عاد وقال : ما هؤلاء مسلمون . هذا مولاي أبو الأمانة — يعنى الأمير جبريل قد قتلوه . وواحد قد شق بطنه يجذب مصارينه .

ثم خرج عباس وقد أخذ رأس الأمير يوسف تحت إبطه ورأسه مكشوف ،
وقد ضربه بسيف والدم يفور منه . وأبو البقاء ابن أخيه مع نصر بن عباس ،
فادخلاهما في خزانة في القصر وقتلاهما ، وفي القصر ألف سيف مجرد .
وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت بى لما جرى فيه من البغى القبيح
الذى ينكره الله تعالى وجميع الخلق » .

تلك شهادة ابن منقذ وكان مخالطاً لعباس وابنه وهو شاهد عيان لما حدث ،
وقد شهد بقسوة الرجلين ووحشيتهما . والحق إن هذا الحدث من الأحداث
الدامية السوداء والتي يستحق عليها عباس وابنه كل ما لقيا من العقاب والنهاية
الدامية ، والله لا يدع الظالمين يرتعون كما يشاءون وراء أطماعهم الدموية .
لقد عبث الرجال بمصير الخلافة الفاطمية هذا العبث وكان لعباس بن يحيى
الصنهاجى البربرى على قول ابن رزّيك اليد الطولى فيما لقيه البيت الفاطمى من
التنكيل والوحشية التي لم يسمع بمثلها على هذه الصورة البشعة . ومهما تكن
الخلافات والأحقاد بين الناس ، ومهما تكن الأطماع فى السلطة ، فإنها لا
تجرد الإنسان من آدميته على هذه الصورة لتحوّله إلى حيوان ووحش ضار بل
إن من الحيوان ما يعف عن مثل هذا .

لقد فعل إذا عباس وابنه نصر فعلتهما وقد تجرد كل منهما من آدميته حتى
تآمر الابن على أبيه والأب على ابنه . وكانا يأملان الفوز بنتيجة هذه المذبحة إلا
أن القدر لم يمهلهما . فثار بهم جند القصر وعبيده ، وبعثت نساء القصر
نستغيث بالأمير القوى بالصعيد طلائع لينقذ البيت الفاطمى والخلافة
الفاطمية .

وأحسّ الرجال بالخطر فطفقا يجمعان الأموال وكل ما يستطيعان حمله
استعداداً للهروب من غضبة الناس بالقاهرة ، وزحف ابن رزّيك ورجاله من
الصعيد .

قال ابن منقذ : « وأما الفتنة التي جرت بمصر ونصر فيها عباس وابنه على
جند مصر ، فإنه لما فعل بأولاد الحافظ رحمه الله ما فعل جفت عليه قلوب
الناس وأضْمَرُوا فيها الغداوة والبغضاء . وكاتب من فى القصر من بنات الحافظ

فارس المسلمين أبا الغارات طلائع بن رزّيك — رحمه الله — يستصرخون به .
وحشّد وخرج من ولايته يريد القاهرة . فأمر عبّاسُ فعمّرت المراكب وحمل
فيها الزاد والسلاحُ والحزّانة ، وتقدم إلى العسكر بالركوب والمسير معه .
وذلك يوم الخميس العاشر من صفر سنة تسع وأربعين . وأمر ابنه ناصر الدين
بالبقاء في القاهرة . وقال لى (لابن منقذ) : تقيم معه .

فلما خرج من داره متوجّهاً إلى لقاء ابن رزّيك خامر عليه الجند وغلّقوا
أبواب القاهرة ، ووقع القتال بيننا وبينهم في الشوارع والأزقة خيالتهُم تقاتلنا في
الطريق ، ورجّالهم يرموننا بالنشّاب والحجارة من على السطوحات ، والنساء
والصبيان يرموننا بالحجارة من الطاقات .

ودام بيننا وبينهم القتال من ضحى النهار إلى العصر ، فاستظهر عليهم
عبّاس ، وفتحوا أبواب القاهرة وانهزموا ، ولحقهم عبّاسُ إلى أرض مصر فقتل
منهم من قتل وعاد إلى داره وأمره ونهيه ، وأمر بإحراق البرقية (وهى محلة
شرق القاهرة نسبت إلى جماعة من جند برقة) لأنها مجمع دور الأجناد .
فتلطفُ الأمر معه ، وقلت : يا مولاي إذا وقعت النار أحرق ما تريد ومالا
تريد ، وعجزت عن أن تطفئها ، ورددت رأيه عن ذلك . وأخذت الأمان
للأمير المؤمن بن أبى رمادة — من كبار رجال القصر — بعد أن أمر بإتلافه .
واعتذرت عنه فصفح عن جرمه .

ثم سكنت تلك الفتنة وقد ارتاع منها عبّاس ، وتحقق عداوة الجند والأمراء
وأنه لا مقام له بينهم وثبت في نفسه الخروج من مصر وقصد الشام إلى الملك
العادل نور الدين . رحمه الله . يستنجد به ، والرسل بين من في القصور وبين
ابن رزّيك مترددة .

وكان بينى وبينه — رحمه الله — مودة ومخالطة من حين دخلت ديار مصر
فانفذ إليّ رسولاً يقول لى : عبّاس ما يقدر على المقام بمصر ، بل هو يخرج منها
إلى الشام ، وأنا أملك البلاد ، وأنت تعرف ما بينى وبينك ، فلا تخرج معه ،
فهو بحاجته إليك في الشام يُرْعِبُكَ ويخرجك معه ، فالله الله لا تصحبه ، فأنت
شريكى في كل خير أنا له . فكأنّ الشياطين وسوست لعبّاس بذلك أو توهمه لما
يعلمه بينى وبين ابن رزّيك من المودة .

ويعضى ابن منقذ في ذكر حاله مع عباس وابنه وأمر خروجهم من مصر قبل وصول ابن رزيك إلى القاهرة ، فيقول :

« فأما الفتنة التي خرج فيها عباس من مصر وقتله الإفرنج ، فإنه لما توهم من أمرى وأمر ابن رزيك ما توهمه أو بلغه أحضرني واستحلفني بالأيمان المغلظة التي لا يخرج منها أني أخرج معه وأصخبه ، ولم يقنعه ذلك حتى أنفذ في الليل أستاذ داره الذي يدخل على حرمه ، أخذ أهلي ووالدتي وأولادي إلى داره وقال لي : أنا أحمل كلفتهم عنك في الطريق ، وأحملهم مع والدتي ناصر الدين . واهتمُّ بأمر مسفره بخيله وجماله وبغاله ، فكان له مائتا حصان وحجرة مجنوبة على أيدي الرِّجالة كعادتهم بمصر . ومائتا بَغْلٍ رحل ، وأربعمائة جمل تحمل أثقاله .

قال ابن منقذ : وكان عباس كثير اللهج بالنجوم ، وهو معول على المسير بالطالع يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول من السنة » .

وواضح من مجربات الأمور أنه كانت بين عباس ونور الدين محمود صاحب دمشق والشام رسائل وتفاهم ، بل ربما كانت وقعة عباس وابنه بالخليفة الفاطمي وأمرائه من وحى هذه الرسائل ، حتى يتقرب من نور الدين بالقضاء على أعدائه في المذهب والسياسة .

وواضح كذلك أنه أراد من ابن منقذ أن يلعب دوراً في التقريب بينهما وكذلك لاصراره على السفر معه إلى الشام على ما جاء من كلام ابن رزيك لابن منقذ في حثه على تركه والبقاء بمصر .

وهكذا غادر عباس وابنه نصر وابن منقذ مصر إلى الشام حيث قتل عباس وأسر ابنه كما ذكرنا وهرب ابن منقذ إلى بلده .

ولم يلبث ابن رزيك بعد توليه الأمر بالقاهرة أن اتفق مع الصليبيين على تسليمه نصر مقابل مبلغ كبير من المال فجاء نصر إلى القاهرة في قفص من الحديد لينتقم منه أولياء دم من قتلهم ، وليصلب على باب زويلة جزاء فعلته الشنعاء .

جاء إذا ابن رزيك إلى القاهرة بعد أن كتب إليه ابن الحباب رسالة جلَّها

بالسواد ومعها بعض خصلات من شعر أخوات الظافر ، وفي الرسالة قصيدة لابن الحباب يقول فيها :

دهنتى عن نظم القريض عَوَاذِي	وشفَّ فَوَاذِي شَجْوُهُ المتماذِي
وأرقَّ عيني والعيون هَوَاجِعُ	همومٌ أَقْضَتْ مضجعي ووساڤِي
بمصرع أبناء الوصي وعرة الثَّبِ	وآل الذاريات وصاڤِي
فأين بنو رَزِيكٍ عنهم ونصرهم	ومالهم من منعةٍ وزيادِ
أولئك أنصار الهدى وبنو الرُدى	وسمَّ العدى من حاضرين وباڤِي
لقد هُدَّ رُكْنُ الدين ليلة قتله	بخير دليلٍ للنجاة وهادِي
تدارك من الإيمان قبل دُثُورِهِ	حشاشة نفسٍ آذنت بنقادِ
وقد كاذَّ أن يُطْفِئ تالقي نُورِهِ	على الحقِّ عادٍ من بقيةٍ عادِ
فلو عَايَنْتَ عَيْنَاكَ بالقصرِ يومهم	ومصرعهم لم تكتحلَّ بِرُقَاڤِ

وهى من قصيدة طويلة ، كلها على هذا النمط من طلب النجدة والاستصراخ لانقاذ ما تبقى من البيت الفاطمى .

وأعدَّ ابن رَزِيكٍ عُذَّتَهُ ، وجمع جموعه ، وتحرك إلى القاهرة ليعيد إلى الدولة هيبتها بعد أن حطمتها هذه الأحداث المتتابعة ، وأدال من قدرتها عبث العابثين ، ومغامرات المغامرين ، وقد آنسوا من ضعف الخلفاء ، وصغر سبتهم ، وسيطرة نساء القصر ثغرةً ينفذون منها إلى مرادهم ، ويحققون بغيتهم .

ولما وصل ابن رَزِيكٍ استقبال المنقذ ، فتعلقوا بحباله ، وكانت للقصر ورجاله به معرفة سابقة ، لا شتغاله به زمناً عند وفوده ، كذلك كانت تربطه بكبار الكتَّاب والقادة صلات مودَّةٍ وزمالة . وكان من بين أهل مودته ابن الخلَّال ، صاحب ديوان الإنشاء ، والجلس بن الحباب القاضى وكبير الكتاب وصاحب النفوذ فى القصر .

وصل إلى القاهرة ، وكفل الخليفة الصبى « الفائز » وساس الأمور فقضى على أصول الفساد ، وأعمل السيف فى بقايا أنصار عباس وأعوانه وسار فى الناس سيرة حسنة .

وصدر له السجل بتولية الوزارة وتلقيه بالملك الصالح ، وهو أول من لقب بلقب الملك من وزراء الفاطميين الكبار .

وهذه صورة السجل — المرسوم — بتعيينه ، كتبه أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف بابن الخلّال عن الفائز الخليفة في ربيع الثاني من عام تسع وأربعين وخمسمائة يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ فالحمد لله المنعم على المخلصين من أوليائه بسوابغ الآئه ، والمتكفل لمن نصره بنصره ، وتثبيت قدمه وإعلائه ، الممهد لمن قام بحقه أرفع مراتب الدنيا والآخرة ، والموضح لمن حامى عن الدولة الفاطمية آيات التأيد الباهرة ، والجامع القلوب على طاعة من أطاعه في الدفع عن أهل بيت نبيه . والمحسن لمن أحسن إلى مهجته ، غيرة لأئمة الهدى المصطفين من عتره وصيه ، والمذلل الصعاب لمن رفع راية الإيمان ونشرها ، والميسر الطلاب لمن أحيا كلمة التوحيد ونشرها ، ممن حادّ الله ورسوله ممن اصطفاه من أبرار عباده والمأجى إساءة من أعلن ببيان الحق ، وجهر بعبادته ، والمعرض من أسعده بالسبق إلى مرضاته لنيل غايات المسنّ الجسيم ، والمرتب من جاهد في ذاته في أرفع مراتب الإجلال والتفخيم ، والموجب لمن أخلص منهم وأحسن عملاً تعجيل مقام الفخر الكريم . وتأجيل الخلود في النعيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

والحمد لله الذى أوضح أنوار الحقائق بأنيائه الهداة ، وأبان برُسله الأئمّة لعباده مناهج النجاة ، وجعل العمل بمراشدهم ذريعة الموقنين إلى أعلى المنازل ، ورفع الدرجات وختمهم بأفضلهم نفساً ومحتداً . وأحقهم بأن يكون لكفائهم سيّداً . محمد محمّدى الأنام والداعى إلى الإسلام ، والخصوص بانشقاق القمر وتظليل الغمام ، وأورث أخاه وابن عمه باهر شرفه ، وبارع علمه . وأفرده بإمامة البشر وخصّ ، وأقرّها فيه وفي عقبه إلى يوم القيامة بجلىّ النصّ . فأصبحت الإمامة للملّة الخنيفية قدماً ، ولأسباب الشريعة بأسرها نظاماً . ونقل الله نورها في أئمة الهدى من نسله ، فتناولها الآخر عن الأول . وتلقاها الأكمل عن الأكمل . فكلّمنا رام معانداً أن يحيف بنورها ، أو قصد منافق أخفاء ظهورها زاد أنوارها إشراقاً ، ووجد لبدورها كلاً واتساقاً ، وممكن

قواعد دولتها ، وإن زحزحها الغادرون ، وأحكم معاقدها ، وإن اجتهد في حلها الماكرون . (يُريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله ميتٌ نوره ولو كره الكافرون) .

والحمد لله الذي حفظ بأمر المؤمنين نظام الخلافة واتساقها ، وحمل بميامنه دوحه الأمانة ، وأبقى نُضرتها وإبراقها ، وأورث خصائص الأئمة الراشدين من آباءه وأودعه سرائر دينه المصونة في صدور أنبيائه ، وأيده بموارد الإرشاد والإلهام ، وجعل طاعته فرضاً مؤكداً على كافة الأنام . ونخصه بالتوفيق والعصمة وأفاض للأمة به سيجال الرحمة ، وأبرم بأمانته أمر الأمة ، وجعله من الهداية . قال جل وعلا : (وجعلنا منهم أئمةً يهتدون بأمرنا ، وأرسلنا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين) .

يحمده أمير المؤمنين على ما نقله إليه من خصائص آباءه الأئمة الأطهار وأيده في أنصار دعوته من العلو والاستظهار ، وانخدوه من جنود السماء والأرض وأظهر له من معجزاته وآياته ، وأظهر من مزيته من مظاهر الظفر لأثرته وراياته ، ونسأله أن يصلى على جده محمد النبي الأمين ، ورسوله المبعوث في الأميين ، الهادي إلى جنات النعيم ، والمحيطه متابعته بالفوز العظيم . الذي جلا الله ظلمات الجهالة ببعثه ، وشرف الأئمة من ذريته بمقامه ومورثه ، ورد النافر إلى الطاعة بالبر والإيناس ، وجعله خير رسول إلى خير أمة أخرجت للناس . وعلى أخيه وابن عمه أئمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قسيمه في المناسب والفضائل ، وثالثه في تشفيح الذرائع والوسائل ومفرج الكرب عنه بمؤازرته وصدق كفاحه ، وباب مدينة علمه الذي لا يوصل إليه إلا باستفتاحه . وعلى الأئمة من ذريتهما الذين بلغ الله بهم الأرب والسؤال ، وأغنى الأئمة بهداهم عن التقفية بعده برسوله ، والميزة المصطفين ، وأحد الثقلين ، وبحار العلم الذائرة والمرجوين لصالح الدنيا والآخرة . وسلم ومجد ، ووال ، وودد .

وإن أمير المؤمنين لما مهدد الله من الشرف الباذخ ، وحازة لمنصبه من الفخر الأصيل ، والمجد الشاخص ، وأفرد به خلافته على العالمين ، وحباه به من ضروب الوجافة والكرامة ، وأفاضه عليه من أنوار الإمامة ، وواصله إليه من العناية الشاملة والبر الحفي ، وجمعه له من الإحسان الجلي واللطيف الحفي ، وأقره من

مواعب الفضل والإفضال لديه ، وجعل في كل حركة وسكون دليلاً واضحاً يُشير إليه ، يُقدّر نعم الله حق قدرها ، ويواصل العكوف على الاعتداد بها ونشرها . ويبلغ في شكرها قولاً وعملاً ونية ، ويجهد نفسه في حمدتها اجتهداً يرجو به ترك الأمتية ، ويتحقق أن أسماها محلاً وقدرأ ، وأولاها على كافة البرية ثناءً وشكراً ، وأعلاها قيمة ، وأعمها نفعاً ، وأعذبها ديمة ، وأجمعها لضروب الجدل والاستبشار ، وأجدرها بأن تؤثر في الأمم أحسن الآثار . وأوسعها في مضمار الاعتداد مجالاً ، وأعظمها على الرئيس والمرعوس نفعاً وجمالاً . النعمة بك أنها السيد الأجل ، والتغوُّث والدعاء ، إذ كنت نجدة الله المذخورة لأمنائه على خلقه ، والقائم دون البرية بما افترضه عليهم من مظاهرة أمير المؤمنين ، والأخذ له بحقه . واللطف الذي كان من الإمامية ومن أعلامها حاجزاً . والنصر الذي أصبح أمير المؤمنين بعون الله به فائزاً وحزب الله القاهر الغالب ، وشهاب أمير المؤمنين الصائب الثاقب ، بقاء ظلّه الذي على العام والخاص ، ومنهل فضله الذي يصفو ويعذب لذوي الولاء والإخلاص . وسيفه الذي يستأصل شائفة ذوى الشقاق والتفاق ، ويده التي ينبعث منها ينابيع العطاء وسحائب الأرزاق . والولي الذي ارتضاه أمير المؤمنين للمصالح كفيلاً ، والصفى الذي لا تبغى دولته عن مؤازرته تبديلاً . فعلموا قدرك عند أمير المؤمنين لا ينتهى إلى أمد محدود ، وقيامك بالأخذ بحقه يتجاوز كل سعى مبرور ومقام محمود . ودعائه بنصرك الله في طاعته يصغر عنده كل عظيم في مجافاتك . وشفائك صدر أمير المؤمنين من أعدائه أعجز القدرة عما يشفى غليله في إحسان مجازاتك .

ولقد حُزبت من المآثر ما فقت به أهل عصرك تقدماً وسبقاً ، وسموت بجلالك إلى ذرى مجد لا تجد الهمم العالية إلى تمنيتها مرقى ، ومازلت في كل أزميتك سلطاناً مهيباً ، وفرداً في المجالس لا تُدرك له الأفكار ضرباً . ومقولاً تُباري ببيانه الأندية والمحافل ، وهُماماً باسمه المهاب تُذعن المحافل ، وسيداً تُلقى إليه مقاليد التقدمة والسيادة ، ومُعظماً ليس على ما خصه الله به من التعظيم موضع لزيادة . كشف الله أمرك في آلاء فدعاك لائمه ظهيرا ، وزاد في إنعامه على الأمة فارضاك لهداة أهل بيته مُعيناً ونصيراً ، ووفر نصيبك من الفضائل والمناقب فوهبك منها ما أفاضه عليك شرفاً ، وأحظى الملوك بتمكنك

وكونك لهم فخراً وشرفاً ، فلا رتبة علا إلا فرعتها منزلاً ، ولا منزلة سناً إلا وقد سموت إليها منتقلاً . ولا مزية إلا احتويت عليها وحزنتها ولا منزلة فخر إلا طلّتها بفضائلك وجزتها ، ولا مأثرة إلا وكنت فاتح بابها ، ولا منزلة خطيرة إلا وأنت مستوحياً وأولى بها ، ولا اسماء مجد إلا وخصائلك طالعة في آفاقها أقماراً ، ولا موقف فضل إلا ولك فيه تقدم لا تنازع فيه ولا ثمارى ، فما يوجد مقدّم إلا وقد فضّلته بآثارك وتقدمته ، ولا يميز إلا أسمته في جناب فضلك ورسمته .

تقلدت جلائل الأمور فلبستها نباهةً وتقويماً ، وباشرتها فاحررت مناقبك جلالةً ووجاهةً ، وتفخيماً ، تُجرّجُ بك الرُتبُ أفيال الفخر والإجلال وتزدهي بأفعالك التى يُبعثُ عليها ما أوتيته من شرف الخلال . ولم يزل تدبير أولياء الدولة ورجالها بفضائل سياستك . فتثبت لهم الأقدام ، وتكسيهم عزة النفوس . فليستينوا في حق الانتصار بك ملاقة الحمام .

ورمى الله بك طغاة الكفار لتأييد الإسلام ، واختارك للمجاهدة عن الملة فأصبحث بك مرفوعة الأعلام ...

.... فما يبلغ التعداد ما جمعته من المناقب والفضائل ، ولا يستولى الإحصاء على مالك من المفاخر التى لا يحيط بها أحد من الملوك الأوائل . فتجمع زهد الأبدال إلى همم الأكاسرة ، وتوفق في أعمالك بين ما يقتضيه صلاح الدنيا وحسن نواب الآخرة . فأنت البرّ التقيّ ، التقيّ الحسيب ، الطاهر ، المبرّ من كل دنس وعيب .

.... وحويت من الأخلاق الملوكية ما قصر بعظماء الملوك عن مجاراتك . واقتنيت من الحكم والمعارف ما جعل كافة العلماء مُعترفين بعظيم فضيلة ذاتك ...

.... ولقد كان وقع التحامل على الحضرة يبعدك عن فناؤها ... على أنك لم تحل من نصرتها على بُعد الدار ، بل نصرت الحق حيث كان ، ودُرت معه حيث دار .

وقد كان أمير المؤمنين حيث اشتدت الأمور ، وحرجت الصدور ، وحارث الألباب واستشرف للارتياح يرجو من الله أن يفجأه منك بالفرج القريب ، ويضمي أعداءه من عزمك بالسهم المصيب . واستجاب الله دُعاه . فيك بما ماثل دعاء جده رسول الله ﷺ — وضاهاه . وحصل في ذلك على معنى قوله تعالى : (قد ترى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها) . ولما أذهب الله بك أيها السيد الأجل الملك الصالح عن دولة أمير المؤمنين غايات الغي ، وأدرك بها تار أولياء الله من ذوي المباينة والبغى . وأحسن الله الصنيع بمؤازرتك ، ... فقلدك من وزارته ، وفوض إليك تدبير مملكته وكفالاته . وجعل لك إمارة جيوشه الميامين ، وكفالة قضية المسلمين ، وهداية دُعاه المؤمنين ، وتدير ما هو مردود إليهم من الصلاة والخطابة وإرشاد الأولياء المستجيبين ، والنظر في كل ما أغدقه الله من أمور أوليائه أجمعين . وجنوده وعساكره المؤيدين ، وكافة رعاياه بالحضر ، وجميع أعمال المملكة دانيها وقاصيها ، وسائر أحوال الدولة باديتها وخافيتها ، وكل ما تنفذ فيه أوامره ، ويتوج بشعاره منابر . ورد إليك تدبير ما وراء سرير خلافته ، وسياسة ما تحتوى عليه أقطار مملكته ، وألقى إليك مقاليد البسط والقبض ، والرفع والخفض ، والابرار والنقض ، والقطع والوصل ، والولاية والعزل ، والتصرف والصرف ، والإمضاء والوقف ، والغض والتنبية ، والإخمال والتنويه ، وجميع ما يقتضيه صواب التدبير من الإنعام والإرغام وما توصيه أحكام السياسة من الإبداء والإتمام تيمناً بما يحقق مبالغتك في متابعتك ، واجتهادك في إعلاء منار دعوته . وعلماً بأن التوفيق لا يعدو وراءك والسعود لا يفارق أنعمائك . »

وفصل بعد ذلك الأمور التي فوضها إليه وأوجزها من شئون الدولة الداخلية والخارجية وشئون الحرب والجيش ، والشئون المالية والاقتصادية والإدارية ، والأمور الدينية فيما يتصل بالقضاة ورجال الدين من الأئمة وخطباء المساجد ... إلخ .

وهذا تفويض كامل بالحكم وشئون سلطانه ، بحيث لا يبقى شيء بعده للخليفة ليقول كلمته فيه ، فيصبح بهذا كما قيل صورة في القصر لا تقص يد ولا إبرام .

وهذا السجل بهذا التفويض الجامع الشامل لم يحظ به أحد من وزراء الدولة الكبار من قبل ، ولا الوزير الأفضل بن بدر الجمالي على ما كان له من السلطة والاستبداد بالأمر .

وأصبح الملك الصالح طلائع بن رزيك بهذا السجل الحاكم الفعلي للبلاد . وربما استحق ذلك لأنه المنقذ للخلافة من الانهيار والضياع . وكان لإيمان طلائع بمذهب الشيعة وتحمسه له ما طمأن قصر الخلافة ورجالها ، فأودعوه ثقتهم لأن السابقين عليه ممن حاولوا التغلب على الأمر بالتطلع إلى الوزارة لم يخلصوا للمذهب بل كان منهم من كان من أعداء ممن يدين بالمذهب السني المعارض كالولكثشي وعباس ، بل وبعض أمراء البيت الفاطمي نفسه كالحسن بن الحافظ الذي قيل إنه عارض أباه ودان بالمذهب السني وأراد أن يسلب منه الخلافة .

لقد جاء طلائع إذا وصار متعصباً لإرساء قواعد المذهب مدافعاً عنه بالسيف والقلم ، وإن لم يعلن العداء للسنّة لعلمه بأنهم يملكون من القوة في الشام وبعض أنحاء مصر ما يمكنهم من حصاره ومضايقته . فآثر أن يسأهم ، ويسعى إلى التحالف معهم ، وبخاصة ملوك الشام من آل زنكي ، وأقواهم نور الدين محمود .

وهذا السجل الفريد في تعيين الوزراء ، قريب من قصيدة المديح لما يحويه من ألفاظ الإطراء على الرجل وحمته وأخلاقه . ولا شك أن كاتبه الخلّ كان يستوحى خاطره وأحاسيسه الخاصة نحو الرجل إلى جانب استشعاره الحاجة إلى هذه الشخصية القوية التي تحفظ على البلد كيانه ، وتحوطه برعايته ونكبت أعداءه وكل من يترهب به من الخارج أو الداخل .

وقد أضاف الفائز الخليفة نفسه على هامش السجل ما يفيد هذا التقدير في عبارات من التكريز والتبجيل لشخص طلائع .

ولقد قام طلائع بالدور المنوط به وأمسك بجميع الخيوط بين يديه وأعاد للحكم هيته ، وأعاد عهد الوزراء العظام ، وأجرى الدماء في عروق الدولة التي بدت قبل امساكه بالزمام وكأنها تلفظ أنفاسها ، وتمرّ بأخر أيامها .

ويبدو أن شخصية طلائع كانت شخصية محببة لخلطاءه لما كان يجمع بين جوانحه من خصائل عدة ، فهو يتمتع بلباقة النطق والذكاء ، والأدب والشعر والحزم وحسن المعاشرة والكرم ، والمقدرة على اكتساب الأعراف والأولياء .

وقد دعت هذه الشخصية من سمع عنها ولم يخالطها إلى الإعجاب بها ، فهذا عماد الدين الأصبهاني معاصره ، وإن لم يره ولم يختلط به ، بل سمع عنه وعن سجاياه ، وأدبه وشعره فكتب عنه مقررًا في أول حديثه عنه شاعراً مصرياً في خريدته ما لم يكتب عن أحد غيره ممن كتب عنهم من شعراء المصريين باستثناء القاضي الفاضل صاحبه ، علماً بأن طلائع كان مخالفاً للمذهب العماد ووزيراً لخلفاء الفاطميين ، جاء العماد كاتباً في دولة أخرى تعقبتهم ، وحاولت نحو آثارهم وقرط ابن رزيك بكلام مطنب ، في الوقت الذي سخر فيه وقلل من شأن غيره من شعراء الفاطميين .

فما قاله العماد^(١) :

« سلطان مصر في زمان الفائز ، وأول زمان العاضد . ملك مصر واستولى على صاحب القصر ، وثفق في زمانه النظم والنثر ، واسترق بإحسانه الحمد والشكر وقرب الفضلاء ، واتخذهم لنفسه جلساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وأفاض على الداني والقاصي بالعتاء .

وله قصائد كثيرة مستحسنة أنفذها إلى الشام يذكر فيها قيامه بنصر الإسلام وما يصدق أحد أن ذلك شعره لجودته ، وإحكام مباني حكمته ، وأقسام معاني بلاغته .

.... وفنك به في دهليز القصر في سنة ست وخمسين وخمسمائة بالقاهرة وانكسفت شمس الفضائل الزاهرة ، ورخص سعر الشعر ، وانخفض علم العلم ، وضاق فضاء الفضل ، واتسع جاء الجهل ، وانحل نظام أهل النظم

(١) الخريدة ١/ ١٧٣ قسم شعراء مصر .

وانتثر عِقد ذوى النثر . واستشعر الفاقة الشعراء ، وعدمَ البُلغةِ البُلغاء . وعُدَّ الفضلُ فضولاً ، والعقلُ عَقولاً ... وعمَّ الرُّزءُ ... فلم تزل مصر بعده منحوسة الحظ ، منسوخة الجَد ، منكوسة الراية ، معكوسة الآية إلى أن ملكها يوسف الثانى .

وقد أعاد دولة الشَّعر والأدب إلى زاهر عصرها أيام الأفضل ، وصار بفضل تشجيعه لهم واجتماعه بهم مناراً فى هذه السَّنوات التى قضاهما فى السلطة ، وكان يجمع الفقهاء وينظرهم على الإمامة وعلى القدر .

ويبدو أنه كان يرى رأى المعتزلة قال ابن العماد : « صنف فى ذلك كتاباً سمَّاهُ « الاجتهاد فى الردِّ على أهل العناد . قرَّر فيه قواعد التشيع » (١) .

بنى جامع الصالح خارج باب زويلة .

كان طلائع يعقد مجلساً فى منزله لىالى الجمع (٢) ، يجتمع فيه مع جلسائه من العلماء والأدباء والشعراء ، والصفوة من رجال الدولة والمجتمع وأمرائه ، لسماع قراءة مسلم والبخارى وأمثالهما من كتب الحديث . وكان من جلسائه المهذب بن الزبير ، والقاضى الجليس بن الحباب وعمارة اليمنى .

قال عنه عمارة (٣) : كان مرتاضاً قد شَمَّ أطراف المعارف ، وتميَّز عن أجلاف الملوك الذين ليس عندهم إلا خشونة مجردة . وكان شاعراً محبباً للأدب وأهله ، ويكرم جلسيه ويبسطُ أنيسه . وكان كُرمه أقرب إلى الجزيل من الهزيل .

وقال (٤) : ولم تكن مجالسُ أنسيه تقطَعُ إلا بالمذاكرة فى أنواع العلوم الشرعية والأدبية ، وفى مذاكرة مواقع الحروب مع أمراء دولته . وكانت أحواله طوراً له وتارةً عليه .

فمما هو عليه فرط العصبية فى المذهب ، ولو شرحت هذه الواحدة لكثرت

(١) شذرات الذهب ٤ / ١٧٧ .

(٢) راجع بدائع البدائه لعلى بن ظافر ١٨٥ .

(٣) النكت المصرية ص ٤٨ .

(٤) المصدر نفسه ص ٤٧ .

وطالت واتسعت وعالت . ومنها جمع المال واحتجازه . وهذه هي غرامه وأشجانه . ومنها الميل على جانب الجند وإضعافهم والقص من أطرافهم .

وكان يعرض شعره على من حضره من الشعراء ، من ذلك ما رواه عمارة قال (١) : ودخلت عليه ليلة السادس عشر من رمضان سنة ست وخمسين قبل أن يموت بثلاث ليال بعد قيامه من السباط ، ولم أكن رأيته من أول الشهر بليل ، فأمر لي بذهب وقال : لا تبرح ، ودخل ثم خرج إلّى وفي يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما في تلك الساعة وهما :

نحن في غفلة ونوم وللمو ب عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا إلى الحمام سنيئاً ليك شعري متى يكون الحمام

ثم قال لي : تأملتهما وأصلحتهما إن كان فيهما شيء . قلت : هما صالحان . وكانت دار الصالح بالفسطاط ، حيث كانت دار الوزارة ، وبها كان يجتمع بأصحابه .

وانضمّ عمارة إلى جلسائه سنة ٥٥٠ هـ بعد وفوده رسولاً من وإلى الحرمين الشريفين . وذكر من جلسائه من أصحاب القلم الشيخ المجلس ابن الحباب ، وابن الخلال ، والشاعر محمود بن قادوس ، والمهذب بن الزبير .

ومن أصحاب السيف ابنه رزّيك ، وصهره سيف الدين حسين ، وأخوه فارس المسلمين بدر الدين بن رزّيك ، وقريبه حسام . وهؤلاء من أهله ، وأما غيرهم من الأمراء فمنهم ضرغام الذي نال الوزارة من بعده ، وعلى بن الرّيد ، ويحيى بن الحياط ومحمد بن شمس الخلافة .

واتهم طلاب في شاعريته ، كما اتهم من قبله الأمير تميم بن المعز ، فقليل إن المهذب بن الزبير وابن الحباب كانا يصنعان له شعره . ودافع عنه العماد الأصمّهاني فنفي هذه الفرية وكذلك ابن خلكان قبله . وقال ابن خلكان إنه رأى ديوان شعره في مجلدين . وذكر العيني في عقد الجمان أن أكثر أشعاره في مدح أهل البيت .

(١) المصدر نفسه ص ٤٩ .

وكان ابن رزّيك ينتسب إلى غسان القبيلة العربية التي كان منها أمراء الشام قبل الإسلام . وكان الشعراء يمدحونه بذلك .

واهتم ابن رزّيك بحرب الصليبيين بالشام ، وأكثر من الغارة عليهم ولم تهدأ له عين في جهادهم ، ولقب بأبى الغارات لذلك .

ولم تدم أيام طلائع كثيراً فقد اغتيل في رمضان سنة ٥٥٦ هـ . في أيام العاضد وقيل في مقتله إنه كان بتدبير من بعض الخواص أى من رجال القصر وعلية القوم من الأعيان لأنه ضيق عليهم في المال . وقيل إنه كان بتدبير من عمّة العاضد وكان طلائع قد زوجه ابنته . وكانت هذه السيدة الشريفة تسمى ست القصور وهى أخت الحافظ . وكانت لها كلمة مسموعة في قصر الخلافة منذ عهد أخيها ، وكانت تجيز الشعراء وتبعث إليهم جوائزهم ، ووصلت الشاعر عمارة أكثر من مرة .

وروى المؤرخون حادثة قتله قالوا :

« وكان سبب قتله أنه تحكّم في الدولة التحكم العظيم ، واستبدّ بالأمر والنهى وجباية الأموال إليه لصغر العاضد ، ولأنه هو الذى ولّاه ، ووتر الناس ، فأنه أخرج كثيراً من أعيانهم ، وفرقهم في البلاد ليأمن وثوبهم عليه ، ثم إنه زوّج ابنته من العاضد فعاداه أيضاً الحرّم في القصر ، فأرسلت عمّة العاضد الأموال إلى أمراء المصريين . ودعّتهم إلى قتله . وكان أشدهم في ذلك عليه إنسان يقال له ابن الدّاعى ، فوقفوا له في دهليز القصر ، فلما دخل ضربه بالسكاكين على دهش فجرحوه جراحات مهلكة ، إلا أنه حُمِلَ إلى داره وفيه حياة ، فأرسل إلى العاضد يعاتبه على الرضا بقتله ، فأقسم العاضد أنه لا يعلم بذلك ولم يرض به . فقال : إن كنت بريئاً فسلّم عمّتك إليّ حتى أنتقم منها ، فأمر بأخذها ، فأرسل إليها فأخذها قهراً ، وأحضرت عنده فقتلها ، ووصى بالوزارة لابنه رزّيك ولقب العادل » (١) .

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٤٨٩ في حوادث سنة ٥٥٦ هـ .

شعره موضوعاته وصنعتة

وديوآن شعره مفقود ، ما بقي منه مفرق في مصادر متعددة ، ومعظمه كما ذكر يدور حول آل البيت وعلى والحسين ذكراً لمناقب أو رثاء وبكاء يليه أبيات في الحكمة والرهذ والنصح ، وقد استغرقت الرسائل بينه والشاعر الفارس أسامة بن منقذ حيزاً من شعره ، تحدث فيها عن بلائه الصليبيين ، وربما شاركه أسامة في غارة كناثبه على بعض مواقع الفرنجة بالشام .

وفي الديوان مطارحات شعرية بينه وبعض من كان يجالسهم من الشعراء أمثال الجليس بن الحباب والمهذب بن الزبير .

ونبدأ الحديث عن شعره الذي بث فيه عقيدته الشيعية وولاءه لآل البيت . من ذلك قصيدة هزمية في مدحهم ، يقول فيها (١) :

من الأحباب قرّني ولائي	ومن أعدائي برّائي برائي
ألا إني تجرّث فكان يبعي	لغير أئمتي . ولهم شرّائي
جرّث إليهم طلقاً عنائي	وخلف السوابق من ورائي
ولما صحّ لي بهم اعتقادي	بنور هداهم أستوقفت رأيي

يقول :

فيأمن قد تقدّم لي بنصح	تأخّر ، ما بجهلك من تخفاء
أأمسى في مسائل مُبهمات	وأرجع ويك عن سُني السماء
ولو أني رأيت كما تراه	وقد لمح السراب هرق مائي
وكيف سباحتي في بحر بحر	بعيد الشاطئين من الرّواء
ولو اصغيت نوحك في سبيل الـ	تجمل كان يمنعي وقائي
هديث إلى الرّشاد وأنت كايي	زناد الطرف ممتنع الحياء

حتى يقول :

ألا إني لأهل البيت عبّد	مطيع ليس يمنح للإباء
بهم نلت السعادة ياشقيّا	وكم بين السعادة والشقاء

(١) ديوان طلائع جمع وتوبيع وتقديم محمد هادي الأميني طبع النجف سنة ١٩٦٤ م .

ففى آل النبىِّ نظمتُ مدحى وشئتُ المسامحَ من ثنائى
وواضح من نظم الآيات فقرها الفنى ، ونغريتها ، وربما كان ذلك راجعاً إلى أنها
من أوائل ما صنع من الشعر ، وليست فى مرحلة نضجه . ربما كانت فى أول
حضوره إلى مصر وتوليه العمل بديوان الكتاب .

وتجىء هذه القطعة البائية الروى أجود صياغة ، وقد قالها فى مدح الإمام على
بن أبى طالب :

لذاذة سمعى فى قراع الكتائب ألدَّ وأشهى من عناق الحبايب
وأحسنُ فى عيني من البرقِ فى الدجى وميضُ المواضى فى غبُلِ المواقبِ

وفىها ما يدلُّ على أنه قالها فى توليه منصب الوزارة ، وانشغاله بمحاربة الأعداء
المرتبطين بالدين والدولة . وفىها ردُّ على أتهمه بالتهمة فى جمع المال إذ يقول :

وما شغفى بالمال أبغى بقاءه ولكن أريه حتفه بالمواهبِ
وإنى لاتفى البخل عنى لبغضه إلى كما أنفى إمام النواصبِ

وهو فى قوله الأول متعللاً فى جمعه المال برغبته فى انفاقه قريب من قول
الظفرانى :

أريد بسطة كف أستعين بها على قضاء حقوق للعلا قبل
ولا ينسى فى عجز البيت الثانى غمز الخليفة العباسى ، فهو إمام التخصب عند
الشيعة :

ومضى فى الحديث عن ولائه لآل على فيقول :

ألا إننى أمسكتُ أغصانَ دُرّجَةٍ أثتُ بأفانين الثمارِ الأطايبِ
لقد لاح لى برقُ اليقين ولم يكن ليخدعنى برقُ الأمانى الكواذبِ
ومما تنساوى الأرض فى المجد والسما وكلُّ علا تربيته فى المراتبِ
بال رسول الله ناجيتُ خالقي بصدق فأنجو من نيوب التوائبِ
قضدتُ بهم بين المسالكِ مطلباً فما جيتُ ، لكنى بلغتُ مطالبي
بهم تُبلغُ الآمال من كلِّ أمل بهم تقبلُ التوبات من كلِّ نائِبِ
أئمة حق لو يسرون فى الدجى بلا قمرٍ لاستصحبوا بالمناسِبِ

.....

.....

يُخَيَّلُ لِي لَمَّا امْتَدَحْتُهُمْ عَلَا
رَغْبَتِي إِلَى آلِ الرُّسُولِ وَإِنِّي
فَمِنْهُمْ إِمَامٌ اتَّخَذَ حَيْدَرَهُ الَّذِي
عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَاؤُهُ
عَلَيْهِ، تَرَى الْإِجْمَاعَ لَاشْتِكَ وَاقِعًا
وَزُجُجَهُ الرَّحْمَنِ بِالطَّهَرِ فَاطِمًا
عَلَيَّْ هُوَ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ فِي الضُّحَى
عَلَى الَّذِي قَدْ كَانَ إِنْ حَضَرَ الْوَعْدَى

بَأَنِّي بِهِمْ أَخْتَالُ فَوْقَ الْكَوَاكِبِ
إِلَى غَيْرِهِمْ فَلْيَعْلَمُوا غَيْرُ رَاغِبٍ
أَبَانَ غَمُوضَ الْمَشْكِلَاتِ الْغَرَائِبِ
يَرَاهُ ذَوُو الْأَحْسَابِ ضَرْبَةً لِأَرْبِ
وَلَمْ تَرَهُ بَعْدَ النَّبِيِّ لِصَاحِبِ
وَقَدْ رَدَّ عَنْهَا رَاغِمًا كُلَّ خَاطِبِ
هُوَ الْبَدْرُ تِمًا فِي سَمَاءِ الْمُنَاقِبِ
قَلِيلٌ احْتِقَاءً بِالْقَنَاءِ وَالْقَوَاضِي

حتى يقول بأحقية علي وأبنائه في الخلافة ، وأنها صُرِفَتْ عَنْهُمْ :

أَخَذْتُمْ عَلَى الْقَرَبِيِّ خِلَافَةً أَحَدٍ
وَأَيْسَرُ عَلَى الْإِنْصَافِ تَيْمُنُ بِنِ مَرَّةٍ
وَصَيَّرْتُمُوهَا بَعْدَهُ فِي الْأَجَانِبِ
لَوْ اخْتَرْتُمْ الْإِنْصَافَ مِنْ آلِ طَالِبٍ

ويعمد في هذا اللون من الشعر الشيعي إلى معارضة بعض شعراء الشيعة
السابقين من مثل السيد الحميري والكميت ودعبل بن علي الخزاعي . فهو على
سبيل المثال يعارض قصيدة دعبل البائية المشهورة :

مدارسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ
فَيَقُولُ طَلَائِعُ (١) :

وَمَنْزِلٌ وَحْيٍ مَقْفُورُ الْعَرَصَاتِ

أَلَايْمٌ، دَعِ لَوْحِي عَلَى صَبْوَانٍ
وَمَا جَزَعِي مِنْ سَيِّئَاتٍ تَقَدَّمَتْ
أَلَا إِنِّي أَقْلَعْتُ عَنْ كُلِّ شَهِيَّةٍ
شَغِلْتُ عَنْ الدُّنْيَا بُحْبُحِي لِمَعَشَرٍ
إِلَيْكَ، فَلَا أَخْشَى الضَّلَالَ لَكُونِهِمْ
أُتَمَّةٌ حَقٌّ لَا أَزَالُ بِذِكْرِهِمْ

فَمَا فَاتَ يَمَحُوهُ الَّذِي هُوَ آتٍ
ذَهَابًا إِذَا أَتْبَعْتُهَا حَسَنَاتِي
وَجَانِبْتُ غَرْقِي أَبْحَرِ الشُّبُهَاتِ
بِهِمْ يَصْفَحُ الرَّحْمَنُ عَنْ هَفَوَاتِي
هَذَا قِيَامِي، وَهُمْ فِي الْحَشْرِ سَقَنُ نَجَاتِي
مَوَاصِلَ ذِكْرِ اللَّهِ فِي صَلَوَاتِي

ويشير إلى من اغتصب حق العلويين وأنه سيلقى النبي ﷺ يوم القيامة
خجلًا حين يسألهم : لِمَ ضَيَعْتُمْ حَقَّ عِتْرَتِي :

إِذَا قَالَ: لِمَ ضَيَعْتُمُو حَقَّ عِتْرَتِي
وَكَيْفَ اتَّهَكْتُمْ جُرَاةَ حُرْمَاتِي ١٩

(١) ديوانه ص ٦٦ .

لَذَرَيْتِي حَقًّا ، وَآخِرَعَاتِ	أَسَأْتُمْ صَنِيعاً بَعْدَ مَوْتِي فَغَاصِبٌ
لَقَدْ حَلَّ فِي وَادٍ مِنَ النَّقَمَاتِ	وَمَنْ خَصَّمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْمَدُ
وَوَاحِرٌ أَحْشَاؤِي ، وَوَاحِشَاتِي	فَوَاحِزْنِي لَوْ أَنَّنِي فِي زَمَانِهِمْ
مَضَتْ حَمَلَةٌ جَاءَتْ بِمُؤْتَفَاتِ	لَأَطَعَنَ فِيهِم بِالْأَسْتَةِ كُلَّمَا
فَقَلْبِي لَا يَخْلُو مِنَ الزُّفَرَاتِ	أَقْضَى زَمَانِي زَفْرَةً بَعْدَ زَفْرَةٍ
فَلَيْسَ بِنَفْكَ عَنِ الْحَرَقَاتِ	وَصَدْرِي فِيهِ حَرَقَةٌ بَعْدَ حَرَقَةٍ

وهكذا يمضي مستشعراً الندم كغيره من الشيعة الذين يقيمون موسم عاشوراء لأظهار هذا الندم على عدم نصرة الحسين ، ويتحرقون لذلك ، فيعاقبون أنفسهم ويذرفون الدمع ، ويلبسون السواد ، ويقولون المراثي الموجهة تحفل بالنذب والبهكاء . وبشارك طلائع بشيعيته الملتبهة في مراثي آل البيت ، فيقول في رثاء الحسين من أبيات وكأنها ولولة نادب :

متضاعف الحشرات مـ	لوء الجوارح بالجراح
تغسأ لجبارين أصلاً	واخيرهم حد السلاح
حملوا رءوسهم الكريمة	فوق أطراف الرماح
.....
يا أمة غدرت وتو	ر الحق أبلج ذو التماح
وتعقبت سنن النبي	الطهر بالبدع القباح
وتأولت في محكم القر	آن بالكذب الصراح
وغدت على ظلم الو	صبي وآله ذات اصطلاح
لا تقربوا منا فاجر	ب الإبل حتف للصباح

ويرد في شعره ما يتردد في أشعار الشيعة من رموز ، وإشارات كالحديث عن غدیر خم ، والوصية يوم هذا الغدير ، فيقول :

ويوم حُجْم ، وقد قال النبي له	بين الحضور، وشالت عضدُهُ يَدُهُ
من كنت مولئ له هذا يكون له	مولئ أتاني به أمرٌ يؤكِّدُهُ
من كان يخذله فالله يخذله	أو كان يعصدهُ فالله يعصدهُ
قالوا سمعنا وفي أكبادهم حُرْقٍ	وكل مستمع للقول يمجدهُ

كما تردد في أشعاره ما اعتاد الشيعة نسبته إلى علي كرم الله وجهه من مآثر

ومن معجزات حصه الله به فيما يروون تقترب في خوارقها من معجزات
الأنبياء ومنها باب الحصن في خير ندى قيل إن عبداً اقتنعه

وَقَلَّعَ الْحَصْنَ فَارْتَأَعَ الْيَهُودُ لَهُ	وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ عَمداً يُفَنِّدُهُ
نَادَى بِأَعْلَى الْعَلَا جَبْرِيلَ مَمْتَدِحاً	هَذَا الْوَصِيَّ وَهَذَا الطَّهْرَ أَحْمَدُهُ
وَفِي الْفَرَاتِ حَدِيثٌ إِذْ طَغَى فَأَتَى	كُلَّ إِلَيْهِ لِحُوفِ الْهَلَكِ يَقْصِدُهُ
قَالُوا : أَجَزْنَا فَقَامَ الْمَرْتَضَى فَرِحاً	بِالْفَضْلِ وَاللَّهِ بِالْإِقْضَالِ مُفْرَدُهُ
وَقَالَ لِلْمَاءِ : غَرَطَوْعاً، فَبَانَ لَهُمْ	حَصْبَاؤُهُ حِينَ وَافَى يَهْدُهُ

وبعد نفسه سيف دين آل احمد

أناسيف دينكم ابن رزيك الذي يرضيكم في كل وقت يُتَنَسَّى

ولم يورد أحد من ترجم لطلائع شيئاً من هذا الشعر ، لأنه يخالف عقيدة
معظمهم فقد ضربوا عنه صفحاً ، فيما عدا من تشيع منهم . فلم يختار صاحب
معجم الأدباء ، ولا ابن خلكان ، والعماد ، وابن سعيد ، والصفدي سوى
الأشعار التي تخلو من الإشارات الشيعية ، مع أنهم اعترفوا بأنه شيعي متحمس .
واكتفوا بما جاء في شعره من غزل أو وصف للمعارك ، أو مطارحات بينه وبعض
شعراء عصره وبخاصة الشعر المتبادل مع الشاعر الفارس أسامة بن منقذ .

ومثل هذا التجنب لجانب كبير من شعر الشاعر ضرب من الرقابة يفرضه
العلماء على الشعراء . وَحُجِبَ الجانب من المعرفة عن القراء ، وهو تقصير
لاشك ، بل لعل أقول إنه مجانية للأمانة العلمية ، وتعمية ، وإخفاء للحقائق ، مما
يخفى معها ملامح الصورة ، بل ويضلل الباحث لأنه لا يملك ما يستطيع به قوله
الحق .

وهذا جانب من جوانب التراث ينبغي على كل باحث فيه أن يراعيه ، ويتنبه
لمزالقه .

وبعد أن عرضنا لهذا الجانب المهم من شعر ابن رزيك والذي يمثل غالبية ، لا
يفوتنا أن نكمل الحديث بالموضوعات الأخرى . ومنها ما يأتي بعد موضوعات
الحديث عن آل البيت من مديح ورثاء ، وإثبات حق ، ودفاع عن المذهب ، وأعني
موضوعات الزهد والحكمة ، والنصح ، وقد شغلت جانباً لا يستهان به من

شعره ، من ذلك قوله في دار الوزارة بالفسطاط يذكر من تولى عليها من الوزراء وما انتهوا إليه ، وكان بالقرب منها القرافة مدينة الأموات ، فترى الشاعر يربط ربطاً غريباً بين هذه الدار ، وهي مطمح الأحياء ، والقرافة دار الموتى وقد استحالوا إلى عظام نخرة وتراب . يقول (١) :

يا قَلْبَ كم ذا العُرُورُ	تُخدعُ المتى كَذِبٌ وزُورُ
أَوْ مَا تُرى الآمالُ يَقْضَـ	حُ طَوَّلَها العُمُرُ القَصِيرُ
وَيُمَثِّلُ ما صيرَنا إليه إلّا	نَ يَغتَبِرُ البَصِيرُ
لو دَامَ مُلْكُكُ لم يَكُنْ	بعد المَلُوكِ لنا نصيرُ
أَنظُرُ لَهذِي الدَّارِ كَمَ	قد حَلَّ ساحتَها وزيرُ
ولكم تَبَخَّرَ آمناً	بين الصُّفُوفِ بها أميرُ
ذَهَبُوا فلا والله ما	بقَى الصَّغِيرُ ولا الكَبِيرُ
حتى ولا أَضَحَتْ تُرى	بين القُبُورِ لهم قَبُورُ
ما استيقظوا من غَفْلَةٍ	إلا وأرُؤسُهُم تطيرُ
ولحومُهُم مَمْضُوعَةٌ	ومن الوري أيضاً نُسُورُ
فاصْبِرْ فلا حَزَنَ على الدُّ	نيا يَدُومُ، ولا سُرُورُ

وقد ينظم في معاني بعض السور القرآنية ، فيأتى بمطلع السورة أو آية من آياتها ويتم القصيدة أبيات في معناها . أو مولدة منها ، كأن يقول ؛ ويورد أبيات من سورة هل أتى على الإنسان حين من الدهر الآيات ٨ وما بعدها :

أَنَّ الْإِبْرَارَ يَشْرَبُونَ بِكَأْسٍ	كان حقاً . مَرَّاجُها كافُورا
وَلَهُمْ أَنْشَاءُ الْمُهَيْمِنُونَ عَيْنَنَا	فَجَرَّوها عبادَهُ تَفْجيرا
وَهَذَا هُمْ وَقَالَ: يَوْفُونَ بِالْأَنْدِ	رِ فَمَنْ مِثلهم يُوفى الثَّنُورا
وَيَخَافُونَ بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمًا	هائِلاً كان شُرُه مُسْتَطِيرا
يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ ذَا الْيَتِيمِ	وَالْمَسْكِينِ فِي حُبِّ رَبِّهِمْ وَالْأَسِيرِ :
إِنَّمَا نُطْعِمُ الطَّعَامَ لَوَجْهِ اللَّهِ	ـهـ ، لا نبتغى لِدِكم شُكُورا
غَيْرِ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنا يَوْمًا	عَبُوسًا عَصَبَصَا قَمْطِيرا
فَوْقَاهُمْ لَهُمُ ذَلِكَ الْيَوْمِ	مَ يَلْقَوْنَ نَضْرَةً وَسُورًا
وَحِزَاهُمْ بَأَنَّهُمْ صَبَرُوا فِي الْ	سُرِّ وَالْجَهْرِ جَنَّةً وَخَرِيرًا

(١) ديوانه ص ٧٦ .

في أنكائهم لا يرون لدى الجنِّ شمساً، كلاً، ولا زمهريرا
وعليهم ظلالها دانيات ذللت في قطوفها تيسيرا
وهكذا يمضي في معظم آيات هذه السورة . وله تجارب أخرى من هذا القبيل .
ومن نصائحه :

يامريض القلب بالذنِّ ب ، متى بالعفو ثبرا
كلما جدّد يوم توبةً، ضيّعت أخرى
تشهى الأجر ولا تفعل ما يكسب أجرا
أترى بعد ذهاب العم تستأنف عمرا

ويقول من آيات أخرى في الموضوع :

ياراكباً ظهر المعاصي أو ما تخاف من القصاصي
أو ما ترى أسباب عمرك في انتقاضي وانتقاصي ؟

وقال ينصح من يتصالي بعد المشيب :

مشيئك قد نضاً صبيغ الشباب وحلّ الباز في وكر الغراب
تنام ومقلّة الحدثان يقظى وما ناب النوائب عنك نايي
وكيف بقاء عمرك وهو كنز وقد انفقت منه بلا حساب

ومن الأغراض التي أكثر فيها القول حديث القتال والغارة على الأفرنج في ثغور الشام . وكان الأسطول المصري في عهده قد أغار على بعض الثغور بالشام ، ودمّر ممتلكات وتحصينات للعدو الصليبي ، ووافق ذلك زلزلة عظيمة وقعت هناك فهدمت بعض قلاعهم ، ومات منهم عدد . وكذلك في أوائل ربيع الأول من سنة ٥٥٣ هـ خرج فريق وافر من عسكر مصر إلى غزة وعسقلان ، وأغاروا على أعمالهما . قال ابن القلانسي (١) : « وخرج إليها من كان بها من الفرنج الملاعين فأظهر الله المسلمين عليهم قتلاً وأسراً بحيث لم يُفليت منهم إلا اليسير وغنموا وظفروا ، وعادوا سالمين . وقيل إن مقدم الغزاة في البحر ظفر بعدة من مراكب . وهي مشحونة بالأفرنج ، فقتل وأسر منهم العدد الكثير والجسم الغفير . وحاز من أموالهم وعُددهم وأثاثهم ما لا يكاد يحصى وعاد ظافراً غانماً » (١) .

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٥٣٧ .

وفي رمضان من نفس السنة كانت بين المصريين والفرنج وقعة قرب العريش انتصر فيها العسكر المصرى ، وظفر بمجملته وافرة من الافرنج بحيث استولى عليهم القتل والأسر والسلب (١) .

وضنع ابن رزّيك في هذه الغارات المنصورة أبياتا يفخر فيها بصنيعه وشجاعته جنده . يقول :

<p>بشائر من شرق البلاد ومن غرب وتحدث للباغين رعباً على رُعب وفي كيد أحلى من البارد العذب عليها عتاق الخيل كالتفتف السُهب (٢) سهولاً تُوطأ للفوارس والركب حبيباتاً عليها وإيلاً من دم سكب نجيعاً فأغتها العداة عن السُحب ولكن بحار ليس تصلح للشرب حيثها ، وكم خضب أضر من الجذب مراراً ، وكانت قبل أمنة السرب فعاقت نواقيس الفرنج عن الضرب بلاد الأعادي بالسومة القرب وأغناهم كسب الثناء عن الكسب يحل لدينا بالكرامة والخصب كانحن بالأعداء نفيتك في الحرب</p>	<p>توالث علينا في الكتائب والكتب بشائر تُهدى للموالى مسرة ففى كيد من حرّها النار تلتطى جعلنا جبال القدس فيها وقد حرث فقد أصبحت أوعارها وحزونها ولما غدت لا ماء في جنباتها وجادت بها سُحب الدروع من العدا وأجرت بحاراً منه فوق جبالها فقد عمها خصبها من رؤوسهم وقد روعتها خيلنا قبل هذه وأخفى صهيل الخيل أصوات أهلها وأبطال حرب من كتامة دوتخوا وعادوا إلينا بالرعوس على القتا وإنّا بنى رزّيك مازال جارنا ونفتك بالأموال في السليم دائماً</p>
---	---

وفي الرسائل الشعرية المتبادلة مع أسامة بن منقذ تسود هذه النغمة الحربية ، إلى جانب تبادل الودّ وعبارات المحبة والشوق بين الشاعرين الفارسين . كتب أسامة إلى ابن رزّيك :

وما سكنت نفسي إلى الصبر عنكم ولا رضىت بعد الديار من القرب

(١) المصدر نفسه ص ٥٤٠ .

(٢) النفيذ : المغازة : والسُهب المستوية .

فأجابه طلائع بقوله (١) :

من اليوم لا أُعْتَرَّ بِعَدِّكَ بِالْحُبِّ
ولا أَرْضَى بِالْبَعْدِ عَنْ ذِي مَوْدَةٍ
ولا سيما إن قال لي يتصنعا :
على أنني قد قلت حين أجبتُه
أخلاي لو دُمْتُمْ دُنُوًّا لِمَا أُنِي
ولكنكم بعتم وفاءً بَعْدَ رِوَةٍ
عليكم سلام الله إن بعادكم
يقول فيها :

وما روضة غنَّاء هب نسيها
سقاها الحيا من آخر الليل مُرْتَةً
ومن الرسائل بينهما الطائية التي أعجبت العماد (٢) . قال أسامة :

أجيرة قلبي تدانوا وإن شطوا
هي البذر لكن الثريا لها قرط
مشت وعليها للغمام غلايل
توم صريعا في الرجال كأنه
فما اخضر ترب الأرض إلا لأنها
ولا طاب نشر الروض إلا لأنه
حتى يقول في تخلصه :

ولما نأت عنا على كل حالة
نأذركنا ذاك البعاد معاشرًا
تساوى الرضا والسخط والقرب والشط
نأوا ، فكأننا ما لقيتناهم قط

.....
أحبابنا بالشام عفتهم جوارنا
وقد عشتم فيها زمانا ، فما اعتري
وكنتم لنا دون الأقارب أسرة
فجاوركم في أرضها الخوف والقحط
رضاكم بها ، لولا تخوفكم سخط
ونحن لكم من دون رهطكم رهط

(١) ديوان ابن رزيق ص ٥٩ .

(٢) الخريدة ، ١ / ١٧٥ - ١٧٦ ، قسم شعراء مصر .

ويخلص مرة أخرى إلى الفخر فيقول :

وإنا أناسٌ، ليس يرح جَارُنَا
وَمَتَّاحُنَا زُورُنَا، فَكَاثِمَا
وَيُصْبِحُ بَسْطُ الْمَالِ بِالْكَفِّ عِنْدَنَا
وَتَحْرِقُ شَرْقُ الْأَرْضِ وَالْغَرْبَ نَحِيلُنَا
وِظْلَمَاءُ لِلشَّهْبِ الدَّرَارِي إِذَا سَرَتْ
كَأَوَّلِ الْفَجْرِ نَسْقُطُ يُسَلُّ مِنْ
سَلَلْنَا بِهَا الْبَيْضُ السُّيُوفُ فَلَاحَ فِي
سُيُوفِهَا فِي كُلِّ دِرْعٍ وَجَنَّةٍ
ذَخَرْنَا سَطَاهَا نَلْفِرُجُ، لِأَنَّهَا
لَهُمْ قَسَطُهُمْ فِي الْحَرْبِ فِيهَا، وَمَالُهَا

.....
وَحَرْبُهَا الْأَرْوَاحُ زَاهِقَةٌ لَمَّا
إِذَا أُرْسِلَتْ فِرْعَاؤُهَا مِنَ النَّقْعِ فَاجِحًا
كَأَنَّ الْقَنَا فِيهَا أَنَامِلُ حَاسِبٍ
رَدَّذْنَاهَا ابْنَ (١) الْفِتَنِ عَنَّا وَإِنَّمَا

وفي هذه القصيدة الجيدة ، يشير إلى حقيقة موقف نور الدين من حرب الصليبيين بالشام، فقد رأى ابن رزيك أن يتعاونوا معاً على صد غارات الصليبيين، بأن يؤازر جند الشام جند مصر في هذه الحرب المقدسة ، وكرر ابن رزيك ذلك مراراً وألح على نور الدين بواسطة صديقه أسامة إلا أن نور الدين لم يستجب لإلحاح ابن رزيك لأسباب بعضها ظاهر ، وبعضها الآخر باطن مُتَّصِلٌ بأهداف نور الدين والزنكيين وأتباعهم عامة .

فأما الظاهر منها فهو ما انتاب نور الدين من متاعب صحية ، وأسرية فقد هاجمه المرض مرتين في سنوات ٥٥٢ هـ وسنة ٥٥٣ هـ ، وأوشك على الموت . وكان بينه وبين إخوته متاعب شغلته عن حشد طاقته العسكرية لمواجهة الصليبيين . كما أنه كان يتريث ولم يكن من طبعه المغامرة غير المحسوبة ولذلك كان

(١) أحد فرسان الصليبيين الذين كانوا يغيرون على الحدود المصرية .

يعقد الصلح حيناً بعد حين مع فرسان الصليبيين وقادتهم ريثما يعدُّ عُدته ، ويمكن لنفسه . وكان في طبع نور الدين ميل إلى الزهادة ، والعزوف عن الدنيا ، ولم يكن به تعطش للدماء . وكان رجلاً عابداً مجاهداً بالنفس والسيف .

والهدف البعيد الذي كان يعمل له ، ونكص به عن مؤازرة ابن رزّيك خشيته من الانتصار ، ويعتده أن تقوى شوكة ابن رزّيك ، وهو الذي يملك إمكانات منصر كلها بكل ما تدخره من غيٍّ وقوة ، فيعطى الفرصة للقوة الإسلامية الفاطمية المعارضة أن تمسك بالزمام ، وأن تستعيد سيطرتها على المنطقة بعد أن آذنت شمسها بمغيب ، وتأمل القوى الإسلامية الأخرى وهي قوة الزنكيين واتباعهم من الأكراد والسلاجقة والشوام ممن يخالفونهم في المذهب تأمل هذه القوى في التمكين لنفسها ، ولا تظهر الجفوة للفاطميين مرحلياً ، حتى تأتى الفرصة ليثبوا وثبتهم . وقد كان .

ولاشك أن نور الدين تخوّف من قدرة ابن رزّيك ، وحماسه لحرب الصليبيين وربما أشار عليه ناصحوه وأعوانه بالتريث وعدم الاستجابة لمطالبه في العون على حرب الصليبيين إلا بقدر محدود .

وهكذا يشهد التاريخ الإسلامى مرة أخرى تشزّم العصبة الإسلامية وتفرقها أمام القوى المعادية لمطامع خاصة تضع في تيارها وتفرق الأهداف العامة ومصلحة المسلمين والإسلام .

يقول ابن رزّيك :

فقولوا لنور الدين: ليس لجائف الجرا	حابت إلا الكئي في الطبّ والبطّ
وحسّم أصول الداء أولى لعاقلي	ليبي إذا استولى على المدنف الخلط
فدغ عنك ميلاً للفرنج وهذنة	بها بدا يُخطى سواهم ولم يُخطوا
تأمل فكم شرط شرطت عليهم	قدماً ، وكم غدر به نقض الشرط
وشمر فائتاً قد أعنتنا بكل ما	سألت وجهازنا الجيوش ولن يُطو

لقد اختار العماد أبياتا من هذه القصيدة ، لكنه تخاشى ما فيه ذكر نور الدين وأعجب بصنعة ابن رزّيك لا بمضمون كلامه ، ودعوته إلى وحدة جند المسلمين ، وتعجب لهذا التعصب الطائفي المذهبي الذي يغلب على الناس ، فيتناسوا أنهم شيعة وسنة مسلمون في النهاية ، وأنهم ، والخطر الذي يترصدهم لا يفرق بين

المذهبيين ، وإنما يدهمهم جميعاً ، لكنها مأساة المسلمين في التاريخ جعلتهم يفضلون العصبية المذهبية ، ويقدمونها على مصلحة الإسلام عامة ، والأوطان خاصة .

والرسائل الشعرية بين الشاعرين الكبيرين ترتفع في شعريتها إلى مستوى فنّي لا يلحق به شعرهم الآخر ، وخاصة شعر ابن رزيك ، ويكشف ذلك عن مدى الصدق في العلاقة التي ربطت بين الرجلين .

ونمثل بهاتين القصيدتين المتبادلتين على ذلك . يقول أسامة^(١) :

<p>أَذْكُرُهُمُ الْوَدَّ، إِنْ صَلُّوا، وَإِنْ صَدَّقُوا وَلَا تُرِدُّ شَافِعاً إِلَّا هَوَاكَ لَهُمْ بِهِ دَنَوْتُ، وَإِخْلَاصُ الْهَوَى نَسَبٌ رَأَى الْحَسُودَ تَدَانِي وَدَنَا فَسَعَى وَمَا الْبَعِيدُ الَّذِي تَنَائَى الدِّيَارُ بِهِ أَجِيرَةُ الْقَلْبِ، وَالْفُسْطَاطُ دَارُهُمْ أَدْنَى التَّدَانِي الْهَوَى، وَالِدَارُ نَازِحَةٌ فَارَقْتُكُمْ مَكْرَهَا، وَالْقَلْبُ يَخْبِرُنِي وَلَوْ تَعَوَّضْتُ بِالْدُّنْيَا بَغْنِيْتُ، وَهَلْ وَلَسْتُ أَنْكِرُ مَا يَأْتِي الزَّمَانُ بِهِ كَمْ فَاجَأَتْنِي اللَّيَالِي بِالْخُطُوبِ، فَمَا وَاسْتَرْجَعْتُ مَا أَعَارَتْ مِنْ مَوَاهِبِهَا وَلَا أَسِفْتُ لِأَمْرِ فَاتٍ مَطْلَبُهُ مَنْ كَانَ لِي مِنْ حِمَاهُ نَحِيسٌ ذِي لَبِيدٍ مَنْ لَمْ يَزَلْ لِي مِنْ جَذْوَى يَدَيْهِ غِنًى الْمَلِكُ الضَّالِحُ الْهَادِي الَّذِي شَهِدْتُ مَلَكٌ أَقَلَّ عَطَايَاهُ الْغِنَى، فَإِذَا أَغْرُ، أَرْوَعُ، فِي كَفِّهِ سَحَبٌ تَدْنَى</p>	<p>إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا اسْتَعْطَفْتَهُمْ عَطَفُوا يَكْفِيكَ مَا اخْتَبَرُوا مِنْهُ، وَمَا كَشَفُوا كَمَا نَأَيْتَ، وَإِفْرَاطُ الْهَوَى تَلَفٌ حَتَّى غَدَتْ بَيْنَ دَارَيْنَا نَوَى قَذْفٌ بَلْ مِنْ تَدَانِي، وَعَنْهُ الْقَلْبُ مُنْصَرِفٌ لَمْ تُصْقَبِ الدَّارُ، لَكِنْ أَصْقَبَ الْكَلِيفُ^(٢) وَأَبْعَدَ الْبُعْدَ بَيْنَ الْجِيرَةِ الشَّنْفِ^(٣) أَنْ لَيْسَ لِي عَوْضٌ مِنْكُمْ، وَلَا تُخْلَفُ يُعَوِّضُنِي مِنْ نَقِيسِ الْجَوْهَرِ الصَّدْفُ ؟ كَلَّ الْوَرَى لِرِزَايَا دَهْرِهِمْ هَدَفٌ رَأْتُ فَوَادِيَّ مِنْ رَوْعَاتِهَا يَجِفُ فَمَا هَفَا لِي عَلَى آثَارِهِ اللَّهْفُ لَكِنْ لِفَرْقَةٍ مِنْ فَارَقْتَهُ الْأَسْفُ ضَارٍ، وَلِي مِنْ نِدَائِهِ رَوْضَةٌ أَنْفُ وَفِي ذِرَاهُ مِنَ الْآيَامِ لِي كَنْفٌ بِفَضْلِ أَيَّامِهِ الْأَنْبَاءُ وَالصُّحُفُ أَدْنَاكَ مِنْهُ، فَأَدْنَى حَفْظِكَ الشَّرْفُ تَمَتَّارُ سَحَابٍ الْحَا مِنْهَا وَتَعْتَرِفُ</p>
---	--

(١) ديوان أسامة ص ٨٥ ، وديوان طلائع ص ٩٨ .

(٢) أصقبت الدار : دنت — والكلف شدة الحب .

(٣) الشنف : البغض والكراهة .

وَيَمْضِي فِي مَدْحِهِ حَتَّى يَقُول :

سَعَتْ إِلَى زُهْدِهِ الدُّنْيَا بِرَغْبَتِهَا
وَلَمْ تُزَفْ إِلَى كَفِّ سِوَاهُ، وَمَا
صَبِرَ، إِذَا اللَّيْلُ آوَاهُ بِجَنْدِسِيهِ
وَيُخَرَّبُ، مَا أَتَى الْخَرَابَ مُبْتَهلاً
مُسْتَهْلاً وَعَيُونَ الْخَلْقِ هَاجِعَةً

وَيَحْتِمُ الْآيَاتِ بِطَلَبِ الْعَوْنِ لِقَلَّةِ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَالِ، فَيَقُول :

إِلَيْكَ يَا عَادِلًا فِي حُكْمِهِ وَعَلَى
أَشْكُو زَمَانًا قَضَى بِالْجُودِ فِيَّ وَلَمْ
لَحَتْ نَوَائِبُهُ عُودِي، وَأَنْفَدَمُو
وَقَدْ دَعَوْتُكَ مَظْلُومًا وَمُرْتَجِيًا
فَاجْمَعْ بِجُودِكَ شَمَلًا كَانَ مَجْتَمِعًا
وَانْشُرْ بِمَعْرُوفِكَ الْحُرُوفَ مَيْتُهُ
فَهُوَ الْقَرِيبُ مَوَالَاةً وَمَعْتَقِدًا
وَعِشْ عَلَى رَغَمٍ مِنْ يَشْنَاكَ مَقْتَدِرًا
فَأَجَابَ الصَّالِحُ بِقَوْلِهِ :

آدَابُكَ الْغُرَّ بِحَرِّ مَالِهِ طَرَفَ
نَقُولُ لَمَّا أَتَانَا مَا بَعَثَ بِهِ
خَطًّا تَنْزَهَتْ الْأَنْظَارُ حِينَ بَدَا
إِنْ نَظَّمُهُ طَرَقَ الْأَسْمَاعُ كَانَ لَهَا
رَقَّتْ حَوَاشِي كَلَامٍ أَنْتَ نَاطِلُهُ
وَرَدَّتْ بِحَرِّ الْقَوَافِي فَاعْتَرَفَتْ كَمَا

.....
إِذَا تَطَلَّعَ فَوْقَ الْأَرْضِ ذُو أَدَبٍ
.....
حَتَّى يَقُول :

إِذَا ذَكَرْتَكَ مَجْدَ الدِّينِ، عَاوَدَنَا

فَأَنْتَ مِنْهُ عَلَى الْعَبْرِ تَشْتَرِفُ

شَوْقُ تَجَدَّدَ مِنْهُ الْوَجْدُ وَالْأَسَفُ
(١) الثُّلُفُ : جَمْعُ نَظْفَةِ الْمَاءِ الصَّافِي قُلْ أَوْ كَثُرَ .

ودون ما وجدناه لفرقتكم
ولو عرفت الذى فى القلب منك لما
ولا عجيب إذا حاف الزمان على
فلا تكن جازعاً ، إن التجاوز عن
فإن حصلت على الصبر احتوت على الأجر
يا من جفانا ، ولو قد شاء كان إلى
وحق من أمه وقد الحجاج ، ومن
إننا لنوفى على حال البعاد ، كما
ونغفر الذنب إن رام المسمى بنا
وإن جنى من رأى أننا نعاقبه
نعم وتحفظ عند الغيب صاحبنا
فما لإيعادنا يوم الوغى ميل
فعندنا جنة تدنو الثمار بها
هذى مصاحبنا ضوء النهار ، وكم
فعل إلينا بآمال محققة
كفى اغتراباً ، فعجل بالإياب لنا
وقد أجبنا إلى ما أنت طالبه
فربنا فيك قد أضحى علانية
وقدمت لك تمهيداً ، وبها
كأننا حين تجرى ذكرة لكم
فإن يبالغ أناس فى الشئ على

يعيط بالقلب من أرجائه التلّف
أن حلت عنا على الأحوال تختلف
حر ، وكلّ قضاياه بها جتف
إنفاقك الصبر فى شرع الهوى سرف
الجزيل ، وفى إحرازه شرف
جناينا دون أهل الأرض يتعطف
ظلت إلى بيته الركبان تختلف
نوفى لمن ضمه فى قرينا كف
عفواً ، ونستره فى حين ينكشف
يردنا الصفح ، أو يعتاقنا الأنف
وليس يدركنا كبير ولا صلف
ولا لموعدا يوم الندى خلف
إذا دنا مجتن منها ، ومقتطف
قد ضل من فى ظلام الليل يعتسف
وكف غرب دموع لم تزل تكف
فيمك لا عوض ، يلقى ولا خلف
فالآن كيف تروى فيه أو تقف ؟
والجند قد عرفوا منه الذى عرفوا
وحش الفلاة إذا ما روعت ألف
على اضطرام لهيب النار تعتكف
أوصافكم قصروا فى كل ما وصفوا

وهذه الآيات والآيات الأخرى التى رد بها الصالح ، أو بدأ بها صديقه
أسامه إنما سجل واضح لصداقة ومحبة بين قائدين من قادة هذه المرحلة
وفرسانها تكشف عن علاقة إنسانية حميمة فضلاً عما يربطهما من عمل على
مصلحة عامة فى ردّ عادية المعتدين من الصليبيين ، تلمح فيها الاخلاص من
الجانين وصدق الحديث . اعتذار من أسامة عما حدث من ملايسات فى
أحداث القصر التى أدت إلى مقتل الخليفة الظافر وثلاثة من أعوانه ، لم يكن له
يد فيها ، وإنما وضعته الظروف رغماً منه فى أتون الأحداث للعلاقة التى ربطت

بينه وبين القاتلين عباس وابنه . مما جرَّ عليه غضب القصر رجاله ونسائه
وغضب جند الخلافة وقد شاهدوه وعباساً ونصراً في شوارع القاهرة
يحاربونهم . فالآتهام قائم ، وإن كانت يده لم تلوث بدم ، وإنما وقع عليه الظلم
كما وقع عليه في ظروف عديدة في حياته ، ويعرف طلائع مدى ما عاناه أسامه
من جنف الحياة ، وحيف الأقارب والأصدقاء والأعوان . ويعرف ما في نفس
صديقه من عزة ومن عفة ، ويعرف براءته مما ينسب إليه ، ويدرك كذلك
موقف التردد الذى يقفه من دعوته وقبوله العودة إلى مصر ، فإن في نفس
أسامة تخوفاً ، وشكاً ، لا من ناحية صديقه طلائع ، ولكن من ناحية القصر
والجند ، فهم مهماً طمأنه ، واعتذر عنه ، وأوضح موقفه ، فإنه لا يأمل
الغيلة .

وهذه الرسائل الشعرية المتبادلة فريدة في تاريخ الشعر العربى ، لأنها حوارٌ
يحمل في طياته كثيراً من المشاعر والأحاسيس الإنسانية والمودة بين صديقين كما
تحمل سجلاً لكثير من أحداث العصر وأسراره ، لا تكشف عنها مصادر التاريخ
المعتادة والتقليدية . فضلاً عما تحمل من شاعرية متدفقة لشاعرين من رواد
الشعر في عصرهما ، وفارسين من فرسان الجهاد .

ولطلائع في هذه الحوارات الشعرية قصائد تسجل المعارك وتكشف عما قام
به جند مصر من أدوار في تلك المرحلة ، ربما أغفلها التاريخ ، أو لم يركز عليها
تركيزه على المرحلة التالية في عصر الأيوبيين والمماليك . فهذه القصائد تكشف
عما أهمله التاريخ من مواقف مُضيئة لأبطالٍ خاضوا من أجل العقيدة والوطن
معارك مهدت بعد ذلك للنصر :

فمن هذه القصائد ميمية حماسية النبوة يقول فيها طلائع (١) :

أَلَا هَكَذَا فِي اللَّهِ تَمْضِي الْعَزَائِمُ وَتَمْضِي لَدَى الْحَرْبِ السُّيُوفُ الصُّوَارِمُ
وَتُسْتَرَلُ الْأَعْدَاءُ مِنْ طَوْدٍ عِزَّهُمْ وَلَيْسَ سِوَى سَمَرِ الرَّمَاكِ سَلَالِمُ
وَتُعْرَى جِيوشُ الْكَفْرِ فِي عُقْرِ دَارِهَا وَيُوطَا حِمَاهَا ، وَالْأَنْوْفُ رَوَاغِمُ
وَيُوفَى الْكِرَامُ النَّادِرُونَ بِنَذْرِهِمْ وَإِنْ يَذَلَّتْ فِيهِ النَّفُوسُ الْكَرَائِمُ
نَذَرْنَا مَسِيرَ الْجَيْشِ فِي صَفَرٍ ، فَمَا مَضَى نَصْفُهُ ، حَتَّى انْشَى وَهُوَ غَائِمُ

(١) ديوان أسامة ص ٢٢٠ ، وديوان طلائع ص ١٣٥ .

بَعَثْنَاهُ مِنْ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ، قَاطِعاً
وَنَاهِيكَ مِنْ أَرْضِ الْجِفَارِ إِذَا التَّظَى
وَصَارَتْ عَيُونَ الْمَاءِ كَالْغَيْنِ عِزَّةً
فَمَا هَالَهُ بُعْدُ الدِّيَارِ وَلَا تَنَى
يُهَجِّرُ وَالْعَصْفُورُ فِي قَعْرِ وَكْرِهِ
إِذَا مَا طَوَى الرِّيَابِ وَقَتَ مَسِيرِهِ
تُبَارَى تُخَيَّلَا مَا تَرَالُ كَأَنَّهَا
فَإِنْ طَلَبْتَ قَصْداً تَسَاوَيْنَ سُرْعَةً
هِيَ الدَّهْمُ أَلْوَنًا وَصَيِّغٌ عَجَاجَةً
تَصَاحِبُهَا عِلْماً بَأَنْ سَوْفَ تَعْتَدِي
كَمَا أَنَّ وَحْشَ الْفَقْرِ مَازَالَ مِنْهُمْ
خَيُولَ إِذَا مَا فَارَقَتْ بِمِصْرَ تَبْتَغِي
يَسِيرَ بِهَا ضِرْغَامٌ فِي كَلِّ مَازَقِي
وَرَفَقَتُهُ عَيْنُ الزَّمَانِ وَحَاتِمِ
مَضَى طَاهِرُ الْأَثْوَابِ مِنْ كُلِّ رِيَّةٍ
هَيْثَا لَهُ يُسْقَى الرَّحِيقُ إِذَا غَدَتْ
وَلَوْ أَنَّنَا نَبْكِي عَلَى فَقْدِ هَالِكٍ
وَلَكِنَّا بَعْنَا الْإِلَهَ نَفُوسَنَا
تَهُونَ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ نَفُوسُنَا إِذَا لَمْ تُصَيَّنَا فِي الْحَيَاةِ الْمَائِمِ

ويذكر حشود فرق الجيش بأسمائها وقادتها ، ومن انضم إليهم من جند
القبائل المؤيدة للمجاهدة مثل سينيئس ، وتعلبة ، وجذام بالبحوف الشرق من مصر
وأرض سيناء . حتى يقول :

جُيُوشٌ أَفَدْنَاهَا اعْتِرَاماً وَنَجْدَةً
إِذَا مَا أَتَارُوا النَّقْعَ ، فَالْتَقُرْ عَابِسٌ
وَلَمَّا وَطُوا أَرْضَ الشَّامِ تَحَالَفَتْ
وَوَاجِهِمْ جَمْعُ الْفِرْنِجِ بِحِمْلَةٍ
فَلَقَوْهُمْ زَرْقُ الْأَسْنَةِ ، وَانْطَرَوْا
وَمَا زَالَتْ الْحَرْبُ الْعَوَانَ أَشَدَّهَا

فَطَاعِنْنَا مِنْهُمْ ، وَمَنَا ، الْعَوَائِمُ
وَأِنْ جَرَدُوا الْأَسْيَافَ فَالْتَقُرْ بَاسِمِ
فَاضْطَحَتْ جَمِيعاً ، غُرْبُهَا وَالْأَعَاجِمُ
تَهُونَ عَلَى الشَّجْعَانِ مِنْهَا الْهَزَائِمُ
عَلَيْهِمْ ، فَلَمْ يَنْجُ مِنْ الْكُفْرِ ، نَاجِمِ
إِذَا مَا تَلَقَى الْعَسْكَرُ الْمُتَصَادِمِ

يُسَبِّحُهُمْ مِنْ لَاحِ جَمْعُهُمْ لَهُ
وَحَسْبُكَ أَنْ لَمْ يَتَّقِ فِي الْقَوْمِ فَارِسٌ
وَعَادُوا إِلَى سَلِّ السَّيُوفِ فَقَطَّعَتْ
فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ يَوْمَ ذَلِكَ مُخَبِّرٌ
كَذَلِكَ مَا يَنْفُكُ تُهْدَى إِلَى الْعَدَى
وَتَسْرَى لَهُمْ أَرَاؤُنَا وَجُيُوشُنَا
نُقَتِّلُهُمْ بِالرَّأْيِ طَوْرًا ، وَتَارَةً

بَلَجَةٌ بِحَرٍّ مَوْجُهَا مُتَلَاطِمٌ
مِنْ الْجَيْشِ إِلَّا وَهُوَ لِلرَّمْحِ خَاطِمٌ
رُعُوسٌ ، وَحَزَنٌ لِلْفَرْنَجِ غَلَاصِمٌ (١)
وَلَا قِيلَ : هَذَا وَحْدَهُ الْيَوْمَ وَسَالِمٌ
وَلِلْوَحْشِ أَعْرَاسٌ بِهِمْ مَاتِمٌ
بِدَاهِيَةٍ تَبْيَضُ مِنْهَا الْمَقَادِمُ
تَدُوسُهُمْ مَنَا الْمَذَابِجِي الصَّلَادِمُ

ويشير إلى مهادة نور الدين للصليبيين ، مع احتلالهم لأرض شيزر وحصن حارم وغيرها من الثغور والحصون الإسلامية بالشام ، ويستحثه على النهوض لمناجزتهم متضافراً مع جيش مصر وأسطولها . ويقول إنه وجيشه لا يهدأون في قتال الأعداء .

فَنَحْنُ عَلَى مَا قَدْ عَهَدْتَ نَرُوْعُهُمْ
وَعَارَتْنَا لَيْسَتْ تَفْتَرُّ عَنْهُمْ
وَأَسْطُولُنَا أَضْعَافٌ مَا كَانَ سَائِرًا
وَنَرْجُو بَأْنَ نَجْتَاحَ بَاقِيَهُمْ بِهِ
عَلَى أَنَّنَا نَلْنَا مِنَ الْمَجْدِ مَا بِهِ
وَلَكُنَّا نَبْغِي الثَّوْبَةَ جُهْدَنَا
وَنَحْتَمُ بِالْحَسَنِ الْحَيَاةَ ، وَإِنَّمَا

وَنُحْلِفُ جَهْدًا أَنَّنَا لَا نَسَالِمُ
وَلَيْسَ يُنْجَى الْقَوْمُ مِنْهَا الْهَزَائِمُ
إِلَيْهِمْ فَلَا حَصَنَ لَهُمْ مِنْهُ عَاصِمٌ
وَنُحْوِي الْأَسَارَى مِنْهُمْ وَالْعَنَائِمُ
نَفَاحِرُ أَمْلَاكَ الْوَرَى وَنَقَاوِمُ
وَطَاقَتْنَا ، وَاللَّهُ مَعِي ، وَحَارِمُ
تُزَيْنُ أَعْمَالُ الرِّجَالِ الْخَوَاتِمُ

لقد خلد المتنبى معارك سيف الدولة ضد الروم ، مع أنها كانت غارات ، تبادل فيها الفريقان الكرّ والفرّ ، حتى كانت الغلبة في النهاية للروم فاصابت إمارة سيف الدولة بحلب في مقتل وزعزعت أركانها حتى جاء الفاطميون فأعادوا حلب إلى حوزة المسلمين .

وها هو طلائع يعيد وصف المعارك مع الصليبيين وإن اختلفت الدوافع والظروف ، فطلائع هنا يحس بالخطر المهدق بالآمة الإسلامية ، ويعلن دعوة الجهاد التي ينبغي أن يتضافر تحت لوائها المسلمون يبدأ واحدة ، وقوة متماسكة ليصلوا إلى غايتهم .

(١) الغلاصم : اللحم بين الرأس والعنق ، أو رأس الحلقوم .

ولكن يبدو أن دعوة طلائع ، كانت صحيحة في خلاء .. أو لم تلق الاستجابة على ما سبقت إشارتنا ، وبقي لنا بعد ذلك هذا الشعر ، الذى يكشف عن صفحة مجهولة ، ويرز جهداً كاد أن يضيع في طيات الأيام . كانت مصر قيادة وجنداً وإمكانات تعمل على بقاء الصرح . حتى أتيح لها بعد أن ترى رايات الانتصار ترتفع على بيت المقدس من جديد بقيادة صلاح الدين ، وبقوة مصر وجندها إلى جانب قوى الشام والمسلمين التى حشدتها القائد المظفر .

وقد استغرقت الموضوعات التى ذكرنا معظم ديوان ابن رزك وما دونها قليل من الغزل ، والوصف ، وأبيات في مقطعات يصنعها بين يدي موقف ، أو جلسة من جلسات سمره مع الأدباء والعلماء . قال :

وْمُهَفَّهٍ ثِجِلِ الْقَوَامِ سَرَتْ إِلَى	أَعْطَاهُ النَّشَوَاتُ مِنْ عَيْنِهِ
مَاضِيِ اللَّحَاطِ كَأَنَّمَا سَلَّتْ يَدِي	سَيْفًا غِدَاةَ الرُّوعِ مِنْ جَفْنِيهِ
النَّاسُ طَوْعُ يَدِي وَأَمْرِي نَافِدٌ .	فِيهِمْ ، وَقَلْبِي الْآنَ طَوْعُ يَدِي
فَاعْجَبْ لِسُلْطَانٍ يُعَمُّ بَعْدْلِهِ	وَيَجُورُ سُلْطَانُ الْعَرَامِ عَلَيْهِ
قَدْ قَلْتُ إِذْ كَتَبَ الْعَذَارُ بِخَدِّهِ	فِي وَرْدَةِ الْفَيْهِ لَا لَأَمِيهِ
مَا الشَّعْرُ لَاحَ بَعَارِضِهِ وَإِنَّمَا	أَصْدَاغُهُ تُفَضُّتْ عَلَى خَدِّهِ

وقال :

عَاذِلْ عَذْلَكَ سَهْمٌ فِي الْحَشَا	كَيْفَ كَيْتَانِي وَسِرِّي قَدْ فَشَا
صَارَ مَا لِي مِنْ غَرَامٍ كَامِنٍ	ظَاهِرًا يَنْقُلُهُ وَاشِي وَشَى
مَنْ رَأَى قَبْلِي يَارَيْسَ الْفَلَا	أَسَدًا يَقْنَصُهُ لِحْظَ رَشَا

ومنها

وَجْهَكَ الرُّوضَةَ آتَتْ نَرْجَسًا	وَجَنِي السَّوْدِ فِيهَا قُرْشًا
خَفْتُ أَنْ يُجَنِّي فَوَكَّلْتُ بِهَا	عَقْرَبًا طَوْرًا وَطَوْرًا حَشَا

وشعره في الغزل وسواه من الموضوعات لا يرقى إلى مستوى فخره ووصف المعارك والغارات ، وإخوانياته .

وصياغته بصفة عامة تقليدية ، ولا يميل إلى الإكثار من البديع، وصوره مشتقة أحيانا من حياته العسكرية ، ومحيطه العام . ويغرب أحيانا في بعض خيالاته .

وظلّ المتنبي يُطيف بعباراته أحيانا ومعانيه، فيحسن قارئ شعره بنفس المتنبي يسائر الكلمات . وقد بدا هذا بوضوح في بعض قصائده في الفخر ووصف المعارك .

ويرى الصفدي أنه أخذ بعض معانيه من ابن هانيء الأندلسي ومنه قوله :
ماضي اللحاظ كأنما يدي سيفي غداة الرّوع من جفنيه
أخذه — كما قال الصفدي — من قول ابن هانيء^(١) :

ما كان أفتكني لو اخترطت يدي من ناظرِك على عذولي مُرهفا

(١) الواقي بالوفيات ، ترجمته ١٢ / ٥٠٣ .

أسامة بن منقذ (٤٨٨ — ٥٨٤ هـ)

ولد في أسرة عريقة وليت اماره شيزر بالشام شمالي غرب حماة في النصف الثاني من القرن الخامس وحتى منتصف القرن السابع إذ دهمها الزلزال المدمر الذي ضرب كثيرا من مدن الشام في عامي ٥٥٢ ، ٥٥٣ هـ .

وعرفت شيزر بقلعتها الشهيرة ، وتقع على هضبة مرتفعة يحيط بها نهر العاصي ، فيجعل منها حصنا منيعا ، حاول الصليبيون والروم الاستيلاء عليه مرات .

وكان والد أسامة رجلاً صالحاً يقضي وقته في الصلاة وتلاوة القرآن ونسخه ، ويخرج أحيانا للصيد في رضى شيزر ، وكان به فيما يروى على عهد أسود^(١) .

وتربى أسامة منذ صغره على التمسك بالدين واداء العبادات وحفظ القرآن ، كما نشأ جريئاً ، شجاعاً ، لا يبالى بالأخطار ، وقد تدرب على الصيد ، ومارس صيد الأسود مع والده . وقد أعد للقتال فتدرب على أصوله ، وتعلم الفروسية ، واستخدام أدوات الحزب من سيوف ورماح ونبال .

وتدل ثقافته من شعره ، وكتابات على سعة اطلاعه ، ومعرفته بعلوم الدين من حديث وفقه ، واطقانه لعلوم اللغة والأدب والنحو وقراءته وحفظه لكثير من الشعر القديم ، ومؤثر كلام العرب في أمثالهم وخطبهم وحكمهم ، وألم بالتاريخ العربى والإسلامى ووعى وقائعه وأحداثه .

وكان عم أسامة أبو العساكر سلطاناً حاكماً أو أميراً على شيزر ، ولم يكن له ولد فأحب أسامة وتبناه وقربه ، وظل كذلك زمناً ، حتى أنجب ، فتغيرت عواطفه نحو ابن أخيه أسامة . وأحس أسامة بهذا التغير ، فأثر الابتعاد عن عمه وولده .

(١) وقد ورد حديث صيد الأسود ببعض أرض الشام في الأخبار ، ولعل مما يسجل ذلك غير ما جاء في ترجمة ابن منقذ مدح المتنبي لبدر بن عمار ووصف صيده للأسد في قصيدة مشهورة .

وحدثته نفسه بالخروج عن شيزر كلها إلى بلد آخر ، لما وجد من جفاء عمّه فقصد الموصل ، والتحق بعماد الدين زنكى وصار رجلاً من رجاله وفارساً من فرسانه وحارب الصليبيين تحت قيادته في أكثر من معركة . وظلّ يمارس صناعة الحرب في « الرها » وبعض بلاد شمالى الشام حتى هاجم الفرنج والروم بلده شيزر عام ٥٣٣ هـ ، فاسرع للمشاركة في صد الروم عنها ، وأبلى في الدفاع بلاءً حسناً .

ولمّا عاد أسامة في هذه المرة ، كان قد بلغ من الفروسية والشهرة مبلغاً في القتال ، فتعلقت به نفوس أهل شيزر ، وخشى عمّه على نفسه وإمارته أن يأخذها منه أسامة ، أو يرثها دون ولده ، فأمره وأسرته بمغادرة بلده ، وكان والد أسامة قد توفى قبل ذلك ، فخرج أسامة وأخوته وبقية أسرته من بلدهم ، وتشتتوا في البلاد ، رضوخاً لأوامر عمه .

ولم يمهل القدر عمه طويلاً ، فقد انتابت الشام هزات وزلازل كان أشدها عام ٥٥٢ هـ الذى دمرّ شيزر ، وذهب فيها عمه وأسرته فدفنوا تحت الأنقاض .

وكان أسامة قد قصد دمشق في خروجه الثانى من بلده حيث التقى بصاحبها معين الدين أنر أحد المجاهدين في حرب الصليبيين ، وعاونه أسامة في شئون السياسة والحرب ، ونجح في كل ما وكل إليه من أمورها حتى علت منزلته عند معين الدين . إلا أن الأمور لم تجر كما يهوى ، ولعله لاحظ بعض التغير من صاحبه الأمير ، فأثر كعاداته الابتعاد ، والحفاظ على النفس والكرامة . وتنطق أبياته التى بعث بها إلى أنر بما حدث من تضييع لحقه إذ يقول :

بَلِّغْ أَمِيرِى مَعِينِ الدِّينِ مَالِكَةَ مِنْ نَازِحِ الدَّارِ ، لَكِنْ وَدَّهْ أَمُّمُ

.....

تَضِيعُ وَاجِبَ حَقِّى ، بَعْدَ مَا شَهِدْتُ بِهِ النِّصِيحَةَ ، وَالْإِخْلَاصُ وَالْخِدْمُ
وَمَا ظَنَنْتُكَ تَنْسَى حَقَّ مَعْرِفَتِى إِنَّ الْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ النِّهَى ذَمُّ

ويلم في هذه الأبيات بقصيدة المتنبي في وداعه لسيف الدولة :

وَاحِرَّ قَلْبَاهُ مِنْ قَلْبِهِ شَيْبُ وَمِنْ بِجَسْمِى وَرُوحِى عِنْدَهُ سَقَمُ

وربما كانت الظروف التي حكمت على الشاعرين بالفراق واحدة ، وهي تغير الأمير بمشورة أهل السوء ، والحسد في البلاط . ولأن الظروف واحدة ، فقد استعان أسامة بأبيات للمتنبي ضمنها قصيدته . كقوله :

ولأُعتقدتُ الذي بيني وبينك من ودُّ ، وإن أُجلبَ الأعداءُ يُنصرِمُ
لكن يُفأثلك مازالوا بغشهم « حتى استوت عندك الأنوار والظلم »
والله ما نصحوا لِمَا استشرئتهم وكلهم ذو هوى في الرأي مُتهم
كم حُرِفوا من مقالٍ في سِفارِتهم وكم سَعَوْا بفسادٍ . ضلَّ سعيهم

وكانت هجرته هذه المرة إلى القاهرة بعد مغادرته لدمشق . يم نحو الجنوب كما فعل أبو الطيب من قبل . فوصل إلى عاصمة مصر في جمادى الثانية عام ٥٣٩ هـ .

وصل أسامة إذا إلى القاهرة ، والتحق ببلاط الخليفة الحافظ ، جندياً فارساً ويبدو من حديث أسامة وترحيب الحافظ به أنه كان من المقرين يقول (١) :

« .. فكان وصولي إلى مصر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ هـ فقرئني الحافظ لدين الله ساعة وصولي ، فخلع عليّ بين يديه ودفع لي تحت ثياب ومائة دينار » .

ولعله التقى بطلائع في القصر الفاطمي ، إذ كان قد سبقه هذا إلى مصر وعمل بالقصر زمناً قبل توليه إمارة قوص وأسوان بالصعيد ، وربطت صداقة ومودة بين الرجلين . وغادر طلائع صاحبه بالقاهرة إلى قوص وأسوان ، وبقي أسامة ليشهد الصراع بين القادة ورجال الحكم لتولى الوزارة بعد وفاة الحافظ ، وتولى ابنه الصبي الظافر .

فقد استوزر الحافظ في آخر أيامه نجم الدين بن مصال . وكان شيخاً كبيراً فطمع في منصب الأمير سيف الدين أبو الحسن عليّ بن السلار وإلى الاسكندرية فحشد أعوانه وتوجه إلى القاهرة يريد الوزارة . فجمع الظافر الأمراء في مجلس الوزارة وكان بينهم أسامة قال : « ونفذ إلينا زمام القصور — أي متولى شؤون القصر ، أو رئيس الديوان الخلفي — يقول : يا أمراء هلم نجم الدين وزيرى ونائبى ، فمن كان يطيعنى فليطعه ويمثل لأمره » .

(١) الاعتبار ص ٢٩ ، طبع دار الثقافة والنشر والإعلام .

قال أسامة عن سكنه بالفسطاط .

« وأنزلنى — الحافظ — فى دار من دور الأفضل ابن أمير الجيوش فى غاية الحسن ، وفيها بُسطها وفرشها ، وآلتها من النحاس ، وأقامت بها مدة إقامتى فى إكرام واحترام وإنعام متواصل وإقطاع » .

ويبدو أن الأمور لم تستقر بعد اجتماع الأمراء على إقرار ابن مصال مع رغبة الحافظ فى وزارته ، وخرج بعض الأمراء على رأى الحافظ ، وأيدوا ابن السلار مما اضطر الحافظ إلى نصيحة ابن مصال بالخروج ومعه بعض جند مصر .

واضطدم انصار ابن مصال بعبّاس ابن زوجة ابن ! لسلار وانهزموا وكان أسامة آنذاك قد لقي ابن السلار بعد استدعائه من منزله . قال : « ويبلغ الخبر إلى ابن السلار فاستدعانى فى الليل ، وأنا معه فى الدار . وقال : هؤلاء الكلاب يعنى الجند قد هاجموا عباساً ، ودخلوا القاهرة ، فقال أسامة : يامولاي نركب إليهم فى سحر ، وما يضجى النهار إلا وقد فرغنا منهم إن شاء الله تعالى (١) .

وهذا الاعتراف من أسامة يؤكد أنه اتصل بابن السلار الذى خرج على طاعة الحافظ ، وانضم إلى معسكره فى مواجهة الخليفة ووزير ابن مصال . ويؤكد تورطه فى الانحياز لأعداء القصر .

وانتهت المواجهة بين ابن مصال وابن السلار وعباس فى دِلاص حيث قتل ابن مصال الوزير وتمكّن ابن السلار من الوزارة يعضده عباس الصنهاجى ابن امرأته وابنه نصر .

وبعد هذا « لم يبق لسيف الدين بن السلار من يعانده ولا يشاقفه » على حد قول أسامة . فولى الوزارة قسراً .

وكان طلائع فى هذا الوقت على ولايته بأسوان يرقب الأحداث من بعد ، وأدرك تورط أسامة صديقه مع ابن السلار وعباس فى مواجهة الظافر . ولكن مرت الأحداث سراعاً ، ورضى الظافر والقصر بالأمر الواقع ، وخلع الظافر على ابن السلار خلع الوزارة ولقبه الملك العادل . وتولى الأمور (٢) .

(١) الاعتبار ص ٣٠ .

(٢) الاعتبار ص ٣١ .

قال أسامة : « كل ذلك والظافر منحرف عنه ، كاره له ، مضمر له الشر ، فعمل على قتله وقرر مع جماعة من صبيان الخاص (حرس الخليفة) وغيرهم ممن استألمهم ، وانفق فيهم أن يهجموا داره ، وأن يقتلوه . وكان شهر رمضان ، والقوم قد اجتمعوا في دار بالقرب من دار الملك العادل ينتظرون توسط الليل ، وافتراق أصحاب العادل ، وأنا تلك الليلة عنده » .

قال أسامة ثم إن العادل أحس بمؤامرتهم وظفر بهم ، وهرب بعض هؤلاء إلى دار أسامة ، فقام بتهمهم . وقد قتل في هذه الواقعة جماعة من المصريين والسودان ويبدو أن جند السلار كان معظمهم من المغاربة والأتراك . وكان معظم جند الخلفاء وحرس القصر من المصريين والسودان .

وفي وزارة ابن السلار قام أسامة ببعض المهام العسكرية ، منها تكليفه بقيادة كتيبة للذهاب إلى الشام ومناصرة نور الدين في حصار طبرية ومناوشة الصليبيين في بيت المقدس لينهض ابن السلار للهجوم على غزة وكانت بأيدي الصليبيين حتى لا يضايقوا عسقلان .

وفصل أسامة أخبار حملته تلك^(١) في طريقة من مصر إلى نور الدين ، ولقي نور الدين وأسد الدين شيركوه . ولم يخبرنا ماذا تم .

ولكن يبدو أن نور الدين لم يوافق على خطة ابن السلار في حصار طبرية ، فأزعم أسامة على تنفيذ البديل الذي أوصاه به وهو مناوشة الصليبيين على عسقلان وبها حامية مصرية . قال أسامة : « ولقينا الأفرنج فرددناهم ومضوا عائدين إلى بلادهم وهي قرية من عسقلان »^(٢) .

وقام هو وأخوه ، وكان فارساً من عسقلان يريدان الغارة على بيت جبيل وقتالها . قال : « فوصلناها وقتلناهم » .. وفي أثناء العودة — علموا بمحاصرة الأفرنج لعسقلان ، فتقدم أسامة ومن معه وعلم الأفرنج به فداهموه ، وقتلوا من فرقته من قتلوا ، ودافع أسامة وأخوه دفاعاً باسلاً حتى تمكنوا من النجاة . وظل بعسقلان لمحاربة الأفرنج أربعة أشهر يعد الغارات على بلاد الصليبيين المجاورة حتى استدعاه ابن السلار إلى مصر . فعاد وبقي أخوه بعسقلان ،

(١) الاعتبار ص ٣٤—٣٦ .

(٢) الاعتبار ص ٣٩ .

واستشهد في معركة بعد رحيله . قال عنه : « وكان من علماء المسلمين وفرسانهم وعُبادهم » .

وجاء أسامة إلى مصر ليجد نفسه مرة أخرى متورطاً في فتنة قتل ابن السلار مع عباس الصناجى وابنه نصر . قال أسامة إن نصر أرتب أمر مقتل ابن السلار مع الظافر وابيه عباس ، ودخل على العادل في بيته فقتله وقطع رأسه وحمله إلى الظافر . وذلك يوم الخميس السادس من المحرم سنة ٥٤٨ هـ .

وتولى عباس الوزارة . قال أسامة : وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على قتل أبيه ليصير في الوزارة مكانه ، وواصله بالعطايا الجزيلة .

وحدث ما ذكرناه من قبل في كلامنا عن المؤامرة ، وموقف طلائع وخروج ابن منقذ وعباس ونصر من القاهرة .

وهكذا خرج أسامة من القاهرة مرة أخرى هارباً هذه المرة ، وخائفاً لتورطه مع قتلة الخليفة والأمراء الفاطميين الثلاثة . ونهب الفرنج أمواله ، ولجأ إلى دمشق حيث ملكها نور الدين ، عارياً من ثروته ، وأهله . وكاتب طلائع ليعث إليه بما بقي له في مصر من ثروة مع أهله وولده . ووفى طلائع ، فبعث إلى صاحبه أمواله وأهله في مركب ، إلا أنها عند عبورها أمام ساحل غزة شعر بها الصليبيون فاستولوا عليها ونهبوها .

وكان أسامة في مصر قد امتلك ثروة طائلة ، وخيلاً ، وعبيداً .

ويذكر جانباً من ثروته التي نهبت في الفتنة فيقول :

« فلما خرجنا من باب النصر وصلوا — أى جند الخلافة — إلى الأبواب فأغلقوها وعادوا إلى دورنا نهبوها ، فأخذوا من قاعة دارى أربعين غرارة جماليةً مُحاطة فيها من الفضة والذهب والكسواتِ شيءٌ كثير ، وأخذوا من اصطبلِ ستة وثلاثين حصاناً ، وبغلةً سرّوجيةً ، نسبةً إلى سروج بديار مُضَرَ — بسروجها وعدتها كاملة ، وخمسة وعشرين جملًا . وأخذوا من إقطاعي كوم أشفين^(١) مائتي رأسٍ بقر ، ومائتين والـف شاة ، وأهراء غلة » .

(١) بلدة بالقليوبية .

وكان طلائع كما أشرنا يرغب في عودة ابن منقذ إلى مصر ، فكتب إليه وهو بدمشق يؤمنه ويعدّه بالدفاع عنه أمام القصر وأهله . قال ابن منقذ^(١) :

« وكتب إلى يقول : ترجع إلى مصر وأنت تعرف ما بيني وبينك ، وإن كنت مستوحشا من أهل القصر ، فتصل إلى مكة ، وأنفذ لك كتاباً بتسليم مدينة أسوان إليك ، وأمدك بما تنقوي به على محاربة الحبشة ، فأسوان ثغر من ثغور المسلمين ، وأسير إليك أهلك وأولادك » .

ولكن العادل نور الدين منعه عن تلبية طلب الصالح في العودة إلى مصر قال : « ففاوضتُ الملك العادل ، واستطلعتُ أمره ، فقال : يا فلان ما هددت متي تخلص من مصر وفتها ، تعود إليها ، العمر أقصر من ذلك . أنا أنفذ آخذ لأهلك الأمان من ملك الإفرنج ، وأسير من يحضرهم » .

ثم حدث ما حدث من تسيير الصالح له أهله في مركب ، نهبه الصليبيون ، وأخذوا كل ثروته وحلي نسائه ، ووصل إليه أهله . وحزن وأسف ولكن نور الدين هون عليه الأمر بسلامة أولاده وأولاد أخيه .

وحز في نفسه ذهاب المال ، وأشدّ منه ذهاب الكتب فإنها بلغت كما قال أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة^(٢) . قال : فإن لذهابها حزازة في قلبي ما عشت .

وهكذا مكث بدمشق وطلائع يوالى رسائله إليه ، ولا ندرى هل استجاب لدعواته فقد ذكر على بن ظافر في البدايه^(٣) أنه ذهب إلى مصر سنة ٥٥٢ هـ أي بعد مغادرته بثلاث سنوات أو أقل . والتقى في دار طلائع دلو الوزارة بالقاهرة بالشاعر المهذب بن الزبير . وليس في بقية المراجع ما يشير إلى هذه العودة .

وعلى أية حال فإن أسامة بعد أن قضى بدمشق عشر سنين بصحبة نور الدين شعر بوطأة السنين ، وثقل الحياة لبلوغه سنّاً متقدمة ، فقد قارب الثمانين فأثر الاعتكاف . وترك القتل والقتال ، ورحل عن دمشق إلى حصن كيفا وهناك خلا للقراءة والتأليف ، مستعيناً بما بالبلد من مكتبات عامرة بالكتب

(١) الاعتبار ص ٥٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٨ .

(٣) بدائع البدايه ص

القيمة ، وظلّ كذلك في عزله حتى عودة صلاح الدين إلى دمشق بعد استيلائه على السلطنة بمصر .

واستقبله صلاح الدين وأنس به ، وبشعره . وأعطاه داراً واقطاعاً وكان يستشير مفيداً من خبرته ومعرفته بالصليبيين ، وصحبه بعض الوقت في حله وترحاله . وعاش أسامة بقية حياته بدمشق حتى توفي في الثالث والعشرين من رمضان سنة ٥٨٤ هـ . وقد أرى على التسعين .

شعره

موضوعاته :

يغلب على شعر ابن منقذ أحداث حياته وعلاقاته بمن التقى بهم من الحلفاء والأمراء ، والقادة والوزراء ، وبذكر أحداث غربته ورحلاته بالشام ومصر ، وذكره الشكوى من الأيام وما فعلت به ، ورثاء أهله والتشوق إلى أصحابه وأحبابه . والوصف والغزل . ويخلو من الهجاء وذكر الشراب والغزل بالذكر . ولعل ما وصلنا من الديوان هو ما تبقى من شعره ، لا كل شعره فقد اختار من شعره في آخر عمره ما يرى أنه مناسب مستبعداً منه كل ما كان من إسراف الشباب وطيش الصبي ، واندفاعاته وثوراته .

وربما كان من شيم أسامة ، وترفعه عن بعض الموضوعات التي تنال من مروءة الإنسان ، وبخاصة مروءة فارس ملتزم ، ربما كان من هذه الشيم ما زجره عن الخوض في مثل تلك الموضوعات التي أكثر منها غيره من الشعراء المحترفين .

غزله :

ونبدأ حديثنا عن غزله . وهو غزل غير تقليدي في جملة ولا شبه بينه وبين النسيب القديم ، فهو أقرب إلى غزل المحدثين في نظرفه ، وإن كنا نحس في بعض أشواقه ، وعباراته الغزلية آثار حبّ قديم ، ولوعة صباية ربما عاناها رداً في شبابه أو في مرحلة من مراحل حياته .

وهو في هذا الغزل كثيراً ما يذكر الهجر ، وطيف الخيال ، وملال الحبيب كما نجد فيه رقة الخطاب والحوار ، وجمال أوصافه للحبيب والتدله في حبه

وقاموسه اللغوى فى موضوع الغزل ليس هو نفسه قاموس الغزل التقليدى بل كثيرا ما يدخل عليه عناصر تعبيرية جديدة أو مستجدة ، وإن اعتمدت على أسس تقليدية متداولة بين الشعراء .

ولم يلجأ إلى القوالب المعروفة ، ولا إلى الأشكال المصنوعة المتكلفة بل نراه يعبر عن صدق إحساس ، وعن شخصية ، شخصية الفارس التى ظهرت فى كثير من شعر الحب عند شعراء الفرسان أمثال عنترة والحمدانى أبى فراس . قوة فى الحرب وضعفاً أمام جمال المرأة وأنوثتها إلا أنه ضعف إرادى ، ولا يكون ضعف حيلة وعبث ، ولا تطلباً لرغبة ومتعة بضرب من التذلل والأذعان . لكنه ضعف إنسانى من فارس مقاتل جرىء فى الحرب ضعيف فى الحب .

وفى غزله أحياناً نلتقى بتحسره على ذهاب العمر ، وذهاب متع الحب بذهاب الشباب . ويغلب هذا على غزله فى مراحل الهرم .

ومن شعره الجيد فى الغزل قوله^(١) :

أما فى الهوى حاكمٌ يعدلُ	ولا من يكف ولا يعدلُ
ولا من يفلُ أسارى الغرامِ ،	والوجد من ثقل ما حملوا
ولا منصفٌ عالمٌ أنه	إذا قال بالظن يستجهلُ
إذا هو لم يدُر ما يلتقى	أخو الوجد من دائه يسألُ
ليعلم أن سَهَامَ الغرامِ	قبل إصابتها تقتلُ

مساكينُ أهلِ الهوى ما لهم	مُجيرٌ ، ولا لهم مؤئلُ
قتيلهم ما له وإبرُ	ومظلومهم أبداً يُخذلُ
وإعلانهم للهوى فاضحُ	قتولٌ ، وكتائبهم أقبلُ
وإن جعلوا الحبَّ خوفَ الوشا	إِ أقرتُ به أدمعُ تهملُ

إلى أن يقول :

بنفسى مُستَهترٌ بالصُّلو	د ، حازَّ الجمال ، ولا يَجْمَلُ
--------------------------	---------------------------------

(١) ديوانه ص ٣٤ .

جنونى به أند رائد
بخيل على مقتى بالرقا
وماضى غرامى مستقبل
د، ونست عليه بها أبخل

ويقول مظهراً آثار العمر في علاقة الحب وكان بلغ السبعين (١) :

سُبْحَانَ باري سهام من الواحظه
إذا رَمَيْنَ فَمَا دُونَ الْقُلُوبِ وَإِنْ
كانت وليل الصبى تُخْفِي دِجْرَهُ
أَعْصِي النَّصِيحَةَ فِيهَا غَيْرَ مُعْتَذِرٍ
وأحمل الضغن في وجدي بها وأرى
حتى إذا نادى السبعون حسبت من
من الملاحه، لا من أسهم القرب
حُرْمَنَ مِنْ جُنَنِ تَحِيٍّ وَلَا حُجُبِ
عَنِّي سَبِيلَ التَّهَيُّ، وَالرُّشْدَ مِنْ أَرْبِي
وَأَرْكَبُ الْغَىَّ عَمْدًا، غَيْرَ مُتَّكِبِ
خَمَلِ الْهَوَى مِنْ وَقَارِ الْجِلْمِ أَجْدَرُ بِي
تعليل قلبك بالآمال والكذب

لقد شعر الرجل بأن الحب وأحلامه وآلامه، وتعذيه، ولذته وآثامه كل أولئك قد انصرف عنه وهو يخطو في السبعين، فعاد يسترجع ذكرياته، ويعود بخياله بعد أن عصته قدراته إلى مجالى الصبا ونشاطه.

وهو الفارس المحارب، المصارع للأسود، لا يخشى بأسها، ويهاب الحبيب :

وكذا الصبُّ فَمَحْسُ الْجَوْرِ فِي الْحُبِّ
لا يهابُ الْأَسْوَدَ فِي حُومَةِ الْحَبِّ
ويجازى عن النفار من الأحبا
يا مليح القوام عَطْفًا فَقَدْ يَعْطُ
لَكَ قَلْبٌ أَقْسَى عَلَيْنَا مِنَ الصَّخْرِ
وَيُحَكِّمُ الْعِلْمُ تَحَكُّمَ الْحَا
بُ لَدِيهِ، وَيَعَذُّبُ التَّعْذِيبُ
رَبِّ، وَيَقْتَادُهُ الْغَزَالُ الرِّيبُ
بِ بِالْقُرْبِ إِنْ ذَا الْعَجِيبُ
فَ مِنْ لَيْنِهِ الْقَضِيبُ الرُّطِيبُ
سِرِّ، وَمَا هَكَذَا تَكُونُ الْقُلُوبُ
ظَلِّكَ فِي قَلْبِنَا، وَأَنْتَ الْحَبِيبُ !!

ومع ميله إلى التجديد في حديث الغزل إلا أنه لا يفلت كما أشرنا من الصيغ المتداولة في خطاب الغزلين ممن سبق من الشعراء، والآلفاظ والتشبيهات هي هي أحياناً. يقول :

غصنٌ ودعصٌ، فالغصن من
شمسٍ وليلٍ، فاعجب لشمس ضحى
هَيْفَ يَمِيسُ لَيْنًا، وَالْدَّعْصُ مَرْتَجٌ
تُشْرِفُ، وَاللَّيْلُ رَاكِدٌ يَذْجُو

رحيق ريق عذب، ففى كيدى منه سعيّر، وفى فمى تلج
فى وجهها كعبة الجمال للعب سين إلى حُسن وجهها حج

فالمفردات هنا معروفة ، متكررة ، ولكن فى الصياغة والتركيب ، يبدو
خارجاً على المألوف فى قوالب التشبيه ، وفى تشبيهه فى البيت الرابع عوداً إلى
تشبيهات فى المعنى مررنا بها عند بعض شعراء مصر فى القرن الماضى . وما
يتصرف فيه تصرفاً حسناً من قوالب التعبير التقليدية قوله :

نفسى فذت بذر تمام، إذا عاتبنى بالجد أو بالمزاح
سدت بالتقيل فاه على يسلك وذر، وعقيق وراخ

كذلك قوله :

مهفّف صحت على سقمها جفونه ففى مراض صبحا
لطرفه فتكة يضر الطبا وقده هزة سمر الرياح
شمس نهار ترتدى بالدجى غصن يراح، فوق ردف رداح
طاف علينا والدجى راكداً يظلنا من جنبه بالجناح

ويقول ويذكرنا بأبيات سبقت لقيم بن المعز (١) :

عقائل الحى أم سربُ المها سنا أفسدن ما كان بالسُلوان قد صلحا
برزن كالبيان فى الكثبان حاملة شمسا أضاعت، وليلاً راكداً جناحاً
فاقتدن بالحب من أعطى مقادته طوعاً، ورُضن بحسن الدل من جمحا
من كل غيداء بكسالى إذا انتهت تنفست عن نسيم الرّوضي إذ نفحا
كانت منى النفس لولاً وأعظ لسن للشيب أسمعني، ناهيه إذ نصحا

فقاموس الغزل المعروف من أسماء وأفعال تتردد ها هنا بصورة أو بأخرى ،
ويصوغها كما أشرنا صياغة يتنوع ويتفوّق فيها ، كفعل المحدثين الحضريين .
ولكن آثار الصنعة، والتقليد فى غزل أسامة لا يقللان من صدق أحاسيسه
وبخاصة عندما يتطرق للفرقة والهجران ، والرحيل ، كأن يقول :

(١) يقول غيم : « أسرب منها عن أم سرب جنة » .

حَتَّى تَمَ أَرْغَبُ فِي مَوَدَّةِ زَاهِدٍ
وَالْإِمَّ التَّزِمُ الْوَفَاءَ لِفَاضِلٍ
وَعَلَامَ أَعْمَلُ فِكْرَتِي فِي سَادِرٍ
وَأَرَوْضُ نَفْسِي فِي رِضَا مُتَجَرِّمٍ
وَأَقُولُ هَجْرَتَهُ مَخَافَةَ كَاشِحٍ
وَأُظَنُّ يُدِي الصُّلُودَ ضَرُورَةَ
مَنْ لِي بِنَيْلِ مَوَدَّةٍ مَمْدُوقَةٍ
أَرْضَى بِبَاطِلِهَا ، وَأَقْنَعُ بِالْمُنَى
يَا ظَالِمًا أَفْتَى اصْطِبَارِي هَجْرَهُ
كَيْفَ السَّيْلُ إِلَى وَصَالِكَ بَعْدَمَا
وَيَلُومُنِي فِي حَمْلِ ظَلَمِكَ جَاهِلٌ

وَأُرُومُ قَرَبَ الدَّارِ مِنْ مَتَابَعِدٍ
وَأَقْرُ بِالْعُتْبَى لِحَانِ جَاخِذٍ
سَاهٍ ، وَأَسْهَرُ مُقْلَتِي لِرَاقِدٍ
فَأَنْتَ مَوَدَّةُ طِلَابِ النَّاشِدِ
يُغْرِى بِنَا ، وَحِذَارُ وَاشِ حَاسِدِ
فَإِذَا قَطِيعَتُهُ قَطِيعَةً عَامِدِ
مَنْهُ يُبْهِرُجَهَا اخْتِبَارُ النَّاقِدِ
مِنْهَا ، وَأُدْفَعُ غِيَبَهَا بِالشَّاهِدِ
وَابْتَرُ ثَوْبَ تَمَاسُكِي وَتَجَالِدِي
عَفِيتَ بِالْهَجْرَانِ سَبِيلَ مَقَاصِدِي
يَلْقَى جَوَى قَلْبِي بِقَلْبٍ بَارِدٍ

هذا الخطاب الحوارى ، يحاور فيه نفسه ، ومحبوبه فى الهوى وما يلقاه ،
والحبيب وما يعامله به من جفاء ، وهجران ، فيه رقة ، وعذوبة ، وخروج
على النمط السردى فى الصياغة ، وفيه من المعانى والتجديد ما فيه ، كما لا يحرمه
من ملححة البديع ، وحليته ، فيأتى شية حسنة تزين الحديث ، فيكسب التقابل
والطباق معانيه حلوة ، كما يكسبها الجنس جرساً ، والأبنية المتقابلة إيقاعاً
محبياً

ولأسامة فى شعره الغزل تفتن فى الجرس والإيقاع يكسبه مذاقاً خاصاً وتراه
يتبع غيره من شعراء العصر فى هذا الوزن والجرس الذى يسود فيه صوت التون
برئاته وأثاته ، وكأنه وترٌ يحرك ، أو رَقٌّ يُدَق . يقول (١) :

مُحِيًّا مَا أَرَى أَمْ يَدْرُ دَجَنِي
وَتَغَرُّ أَمْ سَنَانُ رَكْبُوهُ
وَأَيْنَ مِنَ الظُّلْمِ الْحَاطِ ظَنِّي
وَبَارِقَ مَبِيبٍ أَمْ يَرْقَ مُزْنِي
بَأَسْمَرٍ مِنْ بَنَاتِ الْحُطَا لَدُنِي
تَنَابَى عَنْ سُلُوى بِالْشَّنَى

فِيَا مَنْ مِنْهُ قَلْبِي فِي سَعِيرٍ
حَبَاكَ هَدَاى مَبْنَى مُحْضٍ وَدٍ
وَعَيْنِي مِنْهُ فِي جَنَابِ عَذَنٍ
تَنَزَّ عَنْ مُدَاجَاةٍ وَضِغْنٍ

(١) ديوانه ص ٤٦ .

ومن مفردات معانيه في الغزل التي أكثر منها حديث الطيف ، وخيال المحبوبة فهو يشارك سابقيه البحترى والتهامى في هذا الحدث . يقول (١) :

يا ويحه من جوى يغدو عليه ومن جوى يروح ، إذا ليل الهموم دجا
أفدى خيالا سرى ليلا فاشرقت الدنيا بأنواره ، والصبح ما انبلجا
عجبت منه تخطي الهول معترضا أرض العدى ووشاة الحى ، كيف نجا؟
وقوله (٢) :

لا غرو أن هجر الخيال الزائر ما يستزير الطيف طرف ساهر
دون الكرى خطرات هم ذذته عن ناظري فهو النوار النافر
لا سورة الصباء تصرفه ولا يلهى فؤادي حين يطرق سائر
ومن مفرداته قبله الوداع ، وهى من معانى الغزل عند تميم . يقول أسامة :

نفسى الفداء لمن قبلته عجلا والين يعجب من وجدى ومن عجلي
فمال عنى بفيه ثم عرض لى تحدا جرى فيه ماء الحسنى والحجل
فأخضلت أدمعى توريد وجنته فزاد إشراق ذاك الورد بالعلل
فارتاع من حر أنفاسى وحرقة أحشائى ، ونهى فاه العذب بالقبل
ورابه ما رأى من روعتى ، فبكى وقال : لا كان ذا توديع مرنجل

وتحدث الشعراء من قبل عن دمة الفراق التي تسقط على الخد ، واقتوا فيها ونذكر أقوالا في ذلك لأبى تمام والمتنبي خاصة ، إلا أن صياغة هذين الشاعرين بما فيها من رصانة وجزالة بناء ، قللت من رقة الحديث ، وإن اكسبت الكلام روعة كأن يقول المتنبي :

في الخد أن عزم الخليط رحيلا مطر تزيد به الخلود محولا
أو قوله :

وقد صارت الأجفان قرحى من البكا وصار بهارا فى الخلود الشقائق
ويقول أبو تمام :

(١) ديوانه ص ٥٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٨ .

وأجرى لها الاشفاق دمعاً مورداً من الدَّم يَجْرِي فوق خدِّ مورِدٍ

وقوله المشهور :

أظن دموعها ستنُ الفريد وَهِيَ تَسْلُكَاهُ من نحرٍ وجيد
لها / من لوعةِ البين التدام يُعِيدُ بنفسجاً ورْدَ الخُلودِ

ومعانيه وصوره في رحلة الحبيب تقليدية في إطارها العام ، وإن غير في التعبير وتراكيب اللفظ . كأن يقول :

سَارُوا بِقَلْبٍ أَسِيرِهِمْ بَعْدَهُمْ مُتَلَدِّدٍ، فهو المقيمُ السَّائِرُ
غَاضَتْ دُمُوعِي فِي الْمَنَازِلِ وَارْعَوَى صَبْرِي، وَرَاجَعْنِي الرَّقَادُ النَّافِرُ

ومنها خطاب المطي (١) :

يا نَاقَ شَطَطٍ دَارُهُمْ فَجِنِّي وَأُعْلِنِي الْوَجْدَ الَّذِي تُجْنِي
مَا أَرَزَمْتَ وَهَذَا لِفَقْدِ الْفَهَا إِلَّا رَمَتْ جَوَارِحِي بَوَهْنِ
تَذَكَّرْتُ أَلْفَهَا فَهَيْجَتْ لَا عَجَّ شَوْقِي وَذَكَّرْتُ يَحْدِنِي
أَبْكِي اشْتِيَاقًا، وَتَحْنُ وَحِشَةً فَقَدْ شَجَانِي حُزْنُهَا وَحُزْنِي
حَسْبُكَ قَدْ طَالَ الْأَيْنُ وَالْأَسَى وَمَا أَرَى طَوْلَ الْحَنِينِ يُغْنِي
وَلَا تُمَلِّ مِنْ مَسِيرٍ وَسُرِّي فِي مَهْمَةٍ سَهْلٍ وَوَعْرِ حَزْنِ
حَتَّى تُتَاخَى تَحْتَ بَانَاتِ الْجَمَى سَقَى الْحَمَى وَالْبَانَ صَوْبَ الْمَزْنِ

ومن معانيه التقليدية الوقوف بالديار :

فاضت دُمُوعِي فِي الْمَنَازِلِ وَارْعَوَى صَبْرِي، وَرَاجَعْنِي الرَّقَادُ النَّافِرُ
إِنْ لَمْ أَسْعَ بِهَا سَحَابٌ أَدْمَعُ يَنْجَابُ خَشِيَّتَهَا الْغَمَامُ الْبَاكِرُ
أَحْمَلُ الْإِطْلَالَ بِنَّةً عَارِضِي وَسَحَابُ دَمْعِي مُسْتَهْلٌ مَاطِرُ
إِنِّي إِذَا بِشَوْنٍ ذَمَعِي بِأَخِيل وَبَعْدَ مَنْ سَكَنَ الْمَنَازِلَ غَادِرُ

فالمضمون تقليدي لكن التشكيل بتصرف من الشاعر ، وقد أدخل هذا التشكيل اللفظي على المعنى عناصر مستحدثة ، وإن ظل المعنى الأساسي قائماً .

(١) ديوانه ص ١٠١ .

وَيَصُورُ رَحْلَةَ الظَّعَائِنِ عَنِ الْبُيُوتِ فِيحَوِّرُ فِي الْمَعَانِي التَّقْلِيدِيَّةِ وَالصِّيَاغَاتِ
الَّتِي تَوَارَدَ عَلَيْهَا الشُّعْرَاءُ فَيَقُولُ (١) :

أُظْعَانُ مِنْ تَهْوَى، وَتَلْكَ دِيَارُهُ	هَذَا وَقُوفُكَ لِلدُّوَادِجِ وَهَذِهِ
بَعْدَ الْفِرَاقِ، وَإِنْ طَمَأ تَيَّارُهُ	فَاسْتَبَقِ دَمْعَكَ فَهُوَ أَوَّلُ خَاذِلٍ
إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ لَجَّةٍ تَمْتَارُهُ	مَدْدُ الدَّمْعِ يُقَلِّ مِنْ أَمَدِ التَّوْنَى
سَفَكْتُهُ يَثْقُلُ غَيْرَهَا أَوْزَارُهُ	لَيْتَ الْمَطَايَا مَا تُخْلِقُنَ فَكُمُ دَمٍ
وَجَدَّابِهِ إِلَّا لَدَيْهَا نَارُهُ	مَا مَاتَ صَبٌّ إِثَّرَ إِلْفٍ نَارِيحٍ
حَتَّى يَعَافَ دُمَاءُ هَرَمٍ غَرَارُهُ	فَلَوْ اسْتَطَعْتَ أَجَحْتَ سَيِّفِي سَوْقَهَا
مَا سَاعَى أَنْى الْغَدَاةِ قَدَارُهُ (٢)	لَوْ أَنَّ كُلَّ الْعَيْسِي نَاقَةٌ صَاخٍ
لَهُ الْحَمَامُ أَتِيحُ أَوْ إِنْذَارُهُ	مَا حَتَفَ أَنْفُسَنَا سِوَاهَا إِنِّهَا

وَنَرَى كَيْفَ دَارَ مَعَ الْمَعْنَى الْعُمُودَى أَوْ الْأَسَاسَ دَوْرَةَ، نَأَى بِهَا عَنْ صُورَتِهِ
الْأَوَّلَى الَّتِي تَرَدَّدَتْ فِي أَشْعَارِ السَّابِقِينَ، وَالَّتِي تَقْصِدُ إِلَى الْمُبَاشَرَةِ فِي السُّرْدِ .
أَوْ هُوَ حَاقِلُ التَّجْدِيدِ فِي الْعَرَضِ مَعَ الْحِفَاطِ عَلَى نَوَاةِ الْمَعْنَى .

وَهَكَذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ فِي الْقَرْنَيْنِ السَّابِقِينَ الرَّابِعِ وَالْخَامِسِ مِمَّنْ لَمْ
يَتَخَلَّصُوا تَمَامًا مِنْ أَسْرِ الْمَعَانِي الشُّعْرِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ .

وَنَدْعُ هَذَا الْحَدِيثَ عَنِ الْمَنَازِلِ وَالرَّحِيلِ أَوْ الْأُظْعَانِ، وَالْبِكَاةِ عَلَى الْبُيُوتِ،
أَوْ الْبِكَاةِ لِلْفِرَاقِ مِنَ الشَّاعِرِ أَوْ صَاحِبَتِهِ، نَدْعُ هَذَا إِلَى مَا وَظَفَهُ الشَّاعِرُ مِنْ عَنَاصِرِ
الْأَحْيَاءِ وَالْجَمَادِ كَالطَّيْرِ لِمَعَانِيهِ الْغَزَلِيَّةِ، أَوْ مَعَانِي النِّسَبِ وَنَعْرِفُ أَنَّ بَعْضَ أَثَرِ
الطَّيْرِ الْحَمَامِ، نَاجَاهُ الشُّعْرَاءُ وَحَاوَرُوهُ بِأَسْمَائِهِ، مِنْ مَطْوِقَةٍ وَهَدِيلٍ .. وَهَذَا
صَاحِبُنَا يَذْكُرُ بِكَاةَ الْحَمَامِ لِبِكَاةِهِ :

تَبْكِي لِأَثْنِكَ الْحَمَامُ، وَطَالَمَا هَاجَ الْجَوَى لِأَخِي الْهَوَى تَقْرِيدُهُ

وَيَقُولُ (٣) :

غَصْنٍ فَأَغْرَى بِالْأَسَى مِنْ فَقْدَا	يَا لَوْعَتَا لَطَائِرٍ نَاجٍ عَلَى
فَارَقْتُ، أَوْ كَمَا وَجَدْتُ وَجَدَا	أُظْظِمُهُ فَارَقَ الْأَفَا، كَمَا

(١) ديوانه ص ٧٠ .

(٢) قَدَارٌ هُوَ اسْمُ الرَّجُلِ مِنْ ثَمُودَ الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ .

(٣) ديوانه ص ٦٧ .

أدمى جراحاتٍ بقلبي للنوى
لكن يهيج للحزين بشه
وما عَلِمْتُ ناح حُزناً أم شدا
إذا رأى على الحنين مُسْعِداً
ويقول (١) :

وهاج لي الشوق القديم حمامة
دعت شجوها مُخزنة لم تَغُضْ لها
على غصنٍ في غَيضةٍ يترنم
دُمُوعٌ ففاضت أدمعى مَزْجها دُمُ
ووجدتُ لها إن كنت خنساءً لوعةً
ويقول وقد دعاها ورقاء :
ويهيئني بعد الدِّمَالِ صَبَابتي
عجماءُ تَنطِقُ بالحنين ولم يَهْجُ
في ما يها لكن كتمتُ، وأعلنتُ

ومن عناصره التعبيرية من الطبيعة « البرق » . في نار الجوى ، والمطر
للدمع :
وإذا السُّحابُ سَرى فنارُ بُروقِهِ
من زَفَرَتِي ومياهه من أدمعى
شعر المعارك والجهاد :

وقد استغرق كثيرا من قوله ، وغلب على ديوانه ، ويدخل فيه مديح قادة
عصره وفرسانه ممن أبلوا بلاء حسنا في جهاد الصليبيين من أمثال العادل بن
رزيك ، ونور الدين محمود ، ومعين الدين أنر .

وفي مديحه لهؤلاء القادة يشيد بمحاربتهم للفرنج ، ومواجهة قادة الصليبيين
وفرسانهم من استتارية ودأوية ، ونتائج المعارك من أسر لبعضهم أو قتلهم
البعض الآخر واستشهاد جند المسلمين وبعض قادتهم في سبيل الله ، وما
سَيُجْزَوْنَ عليه من جنة النعيم في الآخرة .

من ذلك هذه القصيدة الميمية التي تجمع بين مديحه للصلاح وفخره بنفسه
وأفعاله وجهاده . يقول فيها (٢) :

(١) يعنى الشاعرة الخنساء التي بكت أخاها صخرأ . ومنتم بن نورة الذي اشتهر بكلاء أخيه مالك .
(٢) ديوانه ص ١٩٥ .

لِلصَّالِحِ الْمَلِكِ الْمَيْمُونِ طَائِرُهُ

يَقُولُ فِيهِ :

مَغَامِرُ تَرْهَبُ الْأَجَالَ سَطَوْتُهُ
يَسْتَقْبِلُ الْحَرْبَ بِسَامَاءٍ، وَقَدْ كَشَرَتْ
يَلْقَى الْأَلُوفَ، وَيُحِبُّهَا، فَفِي يَدِهِ
مَا غَرَّكَ يَصُدُّوقُ الظَّنَّ يُخْبِرُهُ الرَّ
يَرَى الضَّعَّائِينَ فِي قَلْبِ الْحُسُودِ لَهُ
فَإِنْ سَطَا عَنْ يَقِينٍ، أَوْ عَقَا كَرَمًا
أَدْنَاكُمْ فَاغْتَلِبْتُمْ عَنْ ذَوِي رَحِمٍ
وَعَمَّكُمْ سَيْبُ جُودٍ مِنْهُ ثَبَّةُ ذَا الْحُمُولِ
كَمْ غَمَّةٍ كَشَفْتَ عَنْكُمْ صَوَارِمُهُ
لَوْلَا مَا زَالَ عَنْكُمْ طَلَّةٌ أَبَدًا
يَا مَالِكَا مَالِكَا رَفِي بَأَنْعَمِهِ
مَا الشُّكْرُ كَفَاءٌ لِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ نَعَمٍ
وَأَنْ أَكُنْ كَزَهْرٍ فِي الثَّنَاءِ، فَقَدْ
وَأَنْ تَكُنْ مِدْحَى وَقَفًا عَلَيْكَ فَلَا
فَقِي يَمِينِكَ مَنِي صَارِمٍ نَحِيمٍ
فِي حَذِّهِ حَتَفٌ مِنْ تَادَاكَ وَهُوَ لَنْ
فَمُرْ بِمَا شِئْتَ مَتَى، تَلَقَّ مِمَثْلًا
بِجَرِّبَا طَاعَتِي الْيَجْرِبَةُ مُخْتَبِرٍ
فَبَدَّلَ نَفْسِي عِنْدِي فِي رُضَاكَ فَلَا
صَرَفَتْ صَرْفَ اللَّيَالِي دُونَ غَشَمِهِمْ
وَأَوْصَلْتُهُمْ بِصَلَاتٍ مِنْ نَدَاكَ إِلَى

بِحَيْدِهِ طَوْقٌ مِنْ غَيْرِ مُتَقَصِّمٍ

وَتَفَرَّقَ الْأَسَدُ مِنْهُ فِي حِمَى الْأَجَمِ
بِهَا الْمَنِيَّةُ عَنْ أَنْبَاهِهَا الْأَرَمِ (١)
مِنْ الْعَطَا وَالسَّطَا بِحِرَا نَدَى وَدَمٍ
أَيُّ الصَّحِيحِ بِمَا فِي الصَّدِّ مِنْ سَقَمٍ
تَدِبُّ مِثْلَ دَيْبِ النَّارِ فِي الْقَحِمِ
فَأَنَّهُ خَيْرٌ ذِي عَفْوٍ وَمُنْتَقِمٍ
وَحَاطَكُمْ فَاغْتَدَيْتُمْ مِنْهُ فِي حَرَمٍ
مِنْكُمْ، وَأَغْنَى كُلَّ ذِي عَدَمٍ
وَلَمْ يَزَلْ كَاشَفَ اللَّأْوَاءِ وَالْغَمَمِ (٢)
عَلِمْتُمْ كَيْفَ تَأْتِي فَجَاءَةُ النَّقَمِ
وَمِثْلُكَ مِثْلِي لَا يَتَّبَعُ بِالْقِيمِ
وَأَنْ تَسَهَّلَ لِي مُسْتَوْعِرُ الْكَلِمِ
عَلَوْتُ مَجْدًا، وَجُودًا عَنْ مَدَى هَرَمٍ
تَظُنُّ أَنْ ثَنَائِي مُتَمَتَّى هِمَمِي
يَقْرِي إِذَا كُلُّ الصَّارِمِ الْخَلِيمِ
وَالَاكَ مِنْبَجَسٌ بِالْبَارِدِ الشَّيْمِ
بِهَمَّةٍ مَا أَعْتَوَزْتُهَا فَتَرَةً الْهَمِ
إِنَّ التَّجَارِبَ تَجْلُو شُبُهَةَ التَّهَمِ
حُرْمَتُهُ، بَعْضُ مَا أَتَوِيهِ مِنْ يَحْدِ مَسِي
أَوْ كَفَّ بِأَسْلِكَ عَنْهُمْ كَفَّ مُهْتَظِمِ
أَرْضِ الشَّامِ، لَقَدْ أَغْرَبْتَ فِي الْكَرَمِ

وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ يَعَدُّ أُسَامَةَ مَا اسْدَى إِلَيْهِ صَدِيقُهُ ابْنُ رَزِيكٍ مِنَ الْآيَادِي
وَكَانَ أَمَّتْهَا عِنْدَهُ وَأَسْتَاها حِفَاطُهُ عَلَى أَسْرَتِهِ بَعْدَ فَرَارِهِ، وَحَمَائِطِهَا وَأَمْوَالِهِ مِنْ

(١) الْأَرَمُ : الْفَاتِكَةُ لِلْمُهْلِكَةِ .

(٢) اللَّأْوَاءُ : الشَّقَّةُ .

أن يبطش بها أعداؤه من اتباع قصر خلافة الذين تهموه بالاشتراك مع عباس وابنه ، وإرساله أهله وولده مع ما له إليه في مركب إلى الشام .

ويصف رسائله الشعرية والنثرية التي بعث بها إليه فيقول :

لله درّ طروس ضُئِنت دُرّاً أكرمَ بمشتر منها ومُتَظيماً
أضحّت على مفرق تاجاً وفي عُقبى تيمّة من عوادي الخطب والمُدمِ
لفظ أرق من الشكوى والطف من عُتْبَى ، وأشهى من الإبلال في الألمِ
جرّت لطائفه في قلب سامعه مُجرى الهوى من فؤاد الغارم السليم (١)
فصاحة تُسمَع من كان ذا صنم وحسن معنى أفاد الفهم ذا اللّمِ
ووشى خط حكي زهر الربيع وشّت أكامه عن بديع اللفظ والحكمِ

ومما كتبه مجاباً للصالح في قصيدته الطويلة :

أبى الله إلا أن يدين لنا الدهر ويخدمنا في ملكنا العزّ والنُصر

وذكر فيها وقائعه وسراياه إلى الافرنج وتسييره الجيوش ، فاطلع عليها العادل نور الدين محمود ، وطلب إليه — إلى أسامة أن يجاوبه مبيّناً ما شارك به في حرب الصليبيين فكتب يقول :

أبى الله إلا أن يكون لنا الأمر لتحيا بنا الدنيا، ويفتخر العصر
وتخدمنا الأيام فيما نرومه ويتفاد طوعاً في أزمنا الدهر
وتخضع أعناق الملوك لعزنا ويُرهبها منا على بُعدنا الذكر
بحيث حللنا الأمن من كل حادث وفي سائر الآفاق من بأسنا دعر
بطاعتنا لله أصبح طوعنا الآ نام، فما يُغصّي لنا فيهم أمر
فأيماننا في السلم سحّب مواهب وفي الحرب سحّب ويُلهنّ دمّ همر
قضت في بنى الدنيا قضاء زمانها فسير بها شطر، وسيء بها شطر
وما في ملوك المسلمين مُجاهد سيوانا، فما يشيه حرّ ولا قر (٢)
جعلنا الجهاد همّاً واشتغلنا ولم يُلهنّا عنه السماع ولا الخمر
دماء العدا أشهى من الراح عندنا ووقع المواضى فيهمّ الناي والوتر

(١) السليم : المهموم .

(٢) ينقل هذا على لسان نور الدين محمود .

تُواصلهم وصل الخبيب وهم عدا
 وفي سجننا ابن الفئس خير ملوكهم
 أسرناه من حصن العزيمة راغما
 وسل عنهم الوادي بإقليس إنه
 هم انتشروا فيه لرد رعلنا
 ونحن أسرنا الجوسلين ولم يكن
 وكان يظن الغر أننا نبيعه
 فلما استبحنا ملكه وبلاذه
 كحلناه نبغى الأجر في فعلنا به
 ونحن كسرنا البغثوين^(١) وما لمن
 فسله اللعين الخائن الذي
 وقد ضاقت الدنيا عليه برحبها
 أفي غدره بالخيال بعدا يمينه
 دغته إلى نكت اليمين وغدره
 وقد كان لون الخيل شتى فأصبحت
 ثوهم عجزا حلمنا وأناثنا
 فلما تمادى غيه وضلاله
 وسرنا إليه حين هاب لقاءنا
 وثير حشايانا السروج وقمصنا
 ترى الأرض مثل الأفق وهي نجومه
 وهم الملوك البيض والسمر كالدمى
 صوارمنا حمر المضارب من دم
 نسير إلى الأعداء والطير فوقنا
 فباس يذوب الصخر من حر ناره
 وجيش إذا لا قوا العدو ظنتهم
 ترى كل شهيم في الوغى مثل شهيمه
 هم الأسد منبيض الصوارم والقنا

(١) هو بلدين أحد ملوك بيت المقدس الصليبيين .

(٢) يقصد بالآدم والعفر الظباء وهي من صيد الأسود .

زيارتهم ينحط عنا بها الوزر
 وإن لم يكن خير لديهم ولا ير
 وقد قتل فرسانه فهم جزر
 إلى اليوم فيه من دماهم غدر
 فمن ثربه يوم المعاد لهم نشر
 ليخشى من الأيام نائمة تعرفو
 بمال، وكل ظن به يهلك الغر
 ولم يبق مال يستباح ولا تغر
 وفي مثل ما قد ناله يحرز الأجر
 كسرناه إبلا يرعى ولا جبر
 له الغدر دين: ما به صنع الغدر،
 فلم يتجه بر، ولم يحيمه بحر
 بأنجيله بين الأنام له غدر
 بذمته النفس الخسيسة والمكر
 تعاد إلينا وهي من دهم حمر
 وما العجز إلا ما أقي الجاهل الغر
 ولم يشبه عن جهله النهى والرجز
 وبان له من بأسنا البوس والشر
 الدروع، ومنصوب الخيام لنا قصر
 وإن حسنتها عزها الأنجم الزهر
 وهمتنا البيض الصوارم والسمر
 قوائمها من جودنا نضرة خضر
 لها القوت من أعدائنا، ولنا النصر
 ولطف له بالماء ينبجس الصخر
 أسود الشرى عنت لها الآدم والعفر^(٢)
 نفوذا، فما يشبه خوف ولا كثر
 لهم في الوغى الناب الحديد والظفر

يرون لهم في القتل لحدا فكيف باللقب
 إذا نُسبوا كانوا جميعا بنى أب
 يظنون أن الكفر عصيان أمرنا
 لنا منهم إقدامهم وولاؤهم
 بنا أيد الإسلام، وازداد عزة
 قتلنا البرنس حين سار بجهله
 ولم يبق لأمن أسرنا وكيف بالبق
 فولى يبارى عاترات سيهنا
 وخلق لنا فرسانه وخمائه
 وما تنثنى عنه أسنة خيلنا
 إلى أن يزور الجوسلين مساهما
 وترتجع القدس المطهر منهم
 إذا استغلقت شمس الحصون فعندنا
 وإن بلد عز الملوك مرأه
 وأضحى عليه للسهم وللظبا
 بنا استرجع الله البلاد وأمن العباد،
 فتحنا الرهاحين استباح عدائنا
 جعلنا طلا الفرسان أعماد ييضا
 ونحن افتحننا تل باشير بعدها
 أتى ساكنوها بالمفاتيح طاعة
 وما كل ملك قادر ذو مهابة
 وتل عزازي صبحته جيوشنا
 وملنا إلى برج الرصاص (١) وإنه
 وأضحت لانطاكية حارم شجى
 وحسن كفرلاتنا، وهاب، تدانيا
 وفي حصن باسوطا، وقورص ذلت الصع
 وفامية والبارة استنقذتها

(١) مكان بالشام .

(٢) لأنوق : العقاب طير جارح .

(٣) يقصد بالفرع الدلو ، والغفر منزل من منازل القمر هو والدلو .

ساء لقوم قتلهم عندهم عمر
 فطعنهم شزر وضربهم هبر
 فما عندهم يوما لإنعامنا كفر
 ومنا لهم إكرامهم والندى العمر
 ودل لنا من بعد عزته الكفر
 تحف به الفرسان والعسكر المجر
 ساء لمن أختت عليه الظبا البتر
 وفي سمنه من وقع أسيفنا وفر
 فشطر له قتل، وشطر له أسر
 ولو طار في أفق السماء به التسر
 له في دياح، ما ليلتها فجر
 فلم يبق منها في ممالكهم شبر
 مفاتيحها بيض مضاربها خمر
 ورمناه، ذل الصعب واستسهل الوغر
 ووقع المذاكي الرعد والبرق والقطر
 فلا خوف عليهم ولا قهر
 جماها، وسنى ملكها لهم الخثر
 وملكننا أبكارها الفتكة البكر
 وقد عجزت عنه الأكاسرة العر
 إلينا، ومسرهم إلى بابنا شهر
 ولا كل ساع يستتب له الأمر
 فلم تحمه عنه الرجال ولا الجدر
 لكاسد، لكن الرصاص له قطر
 وفيها لها والساكنين بها حصر
 لنا، وذراها لأنوق به وكر (٢)
 لناهمة من دونها الفرع والقفر (٣)

ويمضى في ذكر المواقع التي نازل فيها زنكى وأبناؤه والعدل نور الدين
خاصة الفرنج وأجلاهم عن أرض الشام التي ملكوها عنوة . حتى يقول :

رددنا على أهل الشام رباعهم	وأملأهم ، فارتاح عنها بها الفقير
وجاءتهم من بعد بأس وفاقه	وقدمسهم من فقدوها البؤس والضير
ومر عليها الدهر والكفر حاكم	عليها ، وعمر من بعده عمر
فناهم من عودها الخير والغنى	كما نالنا من ردها الأجر والشكر

فهذه ملحمة من ملاحم الإسلام الكبرى صاغها الشاعر الفارس مشيداً
بأعمال نور الدين زنكى على لسان ابنه المجاهد نور الدين ليرد على طلائع اتهامه
بأنه يهادن الصليبيين وهم لا يؤمنون على ذمة ولا هدنة .

والقصيدة طويلة تظهر تمكن أسامة وشاعريته ، وقد اختار لها إيقاعاً متدفقاً
حماسياً ، جعل روية الرائ المضمومة وسناده السكون ، فتجاوبت القافية
صوتاً مع إيقاع الأبيات الحماسي .

وهذه الملحمة تسجيل شعري لكثير من معارك الشام المشهورة التي خاضها
عماد الدين زنكى وأبناؤه لتحرير الشام من مستعمرات الصليبيين ، وقلاعهم
وحصونهم المنيعه ، التي استقروا بها وضائقوا المسلمين ردحاً من الزمان .
وكان أول ما حرر على ما نعرف الرها وتلتها أماكن كثيرة .

هذه أمثلة من شعره في الفخر ووصف المعارك تتكرر في ديوانه وتستغرق
جانباً من شعره الذي اختاره لنا . ويمثل هذا الشعر مع رصيفه من شعر طلائع
جانباً مشرقاً من شعر الجهاد الإسلامي في القرن السادس .

شعره في الغربة والاعتراب :

ومن جيد شعره ما قاله في الغربة والاعتراب ، وقد عرفنا أنه تنقل من بلده
وجاب بلاد الجزيرة والشام ومصر . ويقول من قصيدة له في التشوق إلى مصر
بعد غربته عنها وقد قضى فيها ما يقرب من عشر سنين^(١) :

ما هاج هذا الشوق غير الذكر	وزورة الطيف سرى من مصر
من بعد طول جفوة وهجر	كم خاض بحراً وفلاً كبخر

(١) ديوانه ص ١٧ .

حتى أتى طلائحاً في قفر
حتى اغتدين كهلال الشهر
كأنه مُهَنَّد ذو أنبر
للجد يسبى، لا لكسب الزفر
ما كان إلا غرة في الدهر
وغاية المنية أم عمرو !
بعيدة القرط، هضم الحضر
تفعل بالآل باب فعل الخمر
كأنه لآل في نحس
تنفست عن مثل رياء الزهر

بحويه الليل خليف الذعر
قد أنطوين من سرى وضمر
يحملن كل ماجد كالصقر
بعيد مهوى همة وذكر
وإها له من زمن وعمر
إذ الصبا عند التصالي عذرى
غراء أبهى من ليالى البدر
أحسن من شمس بغب قطر
تبسم عن مثل نظيم الدر
إذا انثنت قبل نهوض الفجر

ويقول في نشوقه إلى طلائع واصدقائه بمصر (١) :

عن العيش والأيام لا تبعدوا سُخْطَ
غريق بحار ما للجتها شط
جوى الشوق لولا أن تداركه الضبط
إياب، فقد طال التفرق والشحط
لكل فراق من مدامعه قسط

أيا ساكنى مصر رضانا لبعدم
إذا عن ذكراكم ظلمت كأننى
والزيم كفى صدغ قلب أطاره
فهل لى إليكم أو لكم بعد بعدكم
أراكم على بعد الديار بناظر

ويقول للصالح (٢) :

حتى غدت بين داريتنا نوى قدف
بل من ثدائى، وعنه القلب منصرف
لم تصقب الدار، لكن أصقب الكلف
وأبعد البعد بين الجيرة الشنف
أن ليس لى عوض عنكم ولا خلف
يعوضنى من نفيس الجوهر الصدف
كل الورى لرزايا دهرهم هدف
رأت قوادى من روعاتها يجف

رأى الحسود تدانى ودنا فسقى
وما البعيد الذى تنأى الديار به
أجيرة القلب، والفسطاط دارهم
أوفى التدانى الهوى، والدار نازحة
فارقتكم مكرها، والقلب يخوننى
ولو تعوضنى الدنيا غيت وهل
ولست أنكر ما يأتى الزمان به
كم فاجأتنى الليالى بالخطوب فما

(١) ديوانه ص ٨٠ .

(٢) ديوانه ص ٨٥ .

واسترجعت ما أغارث من مواهبها فما هفا بي على اثاره اللهنف
وما أسيفت لأمر فات مطلبه لكن لفرقة من فارقت الأسف
ويشتاق لأصدقائه بالقاهرة والفسطاط غير طلائع ، مثل القاضي الرشيد بن
الزبير وأخيه المهذب .

وعند ذهابه لمصر يتشوق إلى صديقه وجاره بالموصل نقيب الطالبيين
فيقول (١) :

ضياء الدين، ما شوق دَعَانِي	فأسمعني بمصر من العراق
بمحدود فأشرحه ولا في	قوى الأقلام تسطير اشتياقي
ولكنني سأرجعه وأرجو	مشافهتي به، عند التلاقي
إذا ما كنت جارك ذا اشتياقي	إليك فكيف لي بعد الفراق

وكان القاضي الرشيد كتب إليه من مصر مشتاقا أياتا يقول في أولها :

أحبابنا ما مصر بعدكم مصر	ولكنها فقر، إليكم بها فقر
وإن تخل يوماً بقعة من شخوصكم	فلم يخل يوماً من مودتكم صدر

فكتب إليه ابن منقذ (٢) :

تذكره أحبابه الأنجم الزهر	فياويحه ماذا به صنع الذكر
هم مثلها: بعداً، ونورا، ورفعاً	ولكن لها، إذ شئت بهم الفقر
وقد كنت أشكوهم في دثوهم	فمن لي لو دام التداني لا الهجر
سقى مصر جود الصالح الملك إنه	هو الوابل المحيي البرية لا القطر
ففيها كرام أسعروا بجوانحي	يبعدهم جراً، به يحرق الجمر
ومن عادتي الصبر الجميل وليس لي	على بعدهم لا در در النوى صبر
إذا ما أمين الدين عن أذكاره	ذهلت كأتى خامرت لبي الخمر
يذكرني الفاضلون، وإن غدوا	جداول إن قيسوا به، وهو البحر
إذا حصر النادى فرضوى رجاحة	وإن قال فالثر النظم والسخر
ويعجبنى منه تدفق عليه	وأعجب منه كيف يجمعه صدر

(١) ديوانه ص ١٣٥ .

(٢) ديوانه ص ١٢١ .

تَنَاءَتْ بِنَا الدَّارَانِ وَالْوَدَّ مَصْفَتْ
كَأَنَّ اللَّيَالِي إِذَا قَضَتْ بِمِرْقَانَا
أَحْلَ بِهَا إِنْ غَابَ عَنْهَا وَإِنْ أَغْبَى
فَلَيْتَ تَلَاقِنَا وَلَوْ بَعْضَ سَاعَةٍ
لَأَحْظَى بِرُؤْيَاةٍ، وَأَشْكُرُ مَنَّهُ .
فَلِلْقَرَبِ شَطْرٌ، وَالْبَعَادُ لَهُ شَطْرٌ
فَضَى جُورُهَا أَنْ لَيْسَ تَجْمَعُنَا مِصْرٌ
يَحْلُ بِهَا، فَاعْجَبْ لِمَا صَنَعَ الدَّهْرُ
يَتَمُّ وَشَيْكَاً قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ الْعَمْرُ
وَلِنْ لَمْ يَقُمْ عَنِّي بِوَاجِبِهِ الشُّكْرُ

ترى متى كان هذا الحلول بمصر ولم ير فيه القاضي الرشيد ؟. أظنه كان في عودته التي أشار إليها على بن ظافر سنة ٥٥٢ هـ ، ولعلها كانت زيارة عاجلة لم يبق فيها ابن منقذ طويلاً ، ولا تتصور أن يكون حديثه عن مدة إقامته بمصر التي زادت على عشر سنين ، فإنه لاشك تعرف في اثناها بالرشيد ، ودامت بينهما صداقة ، وقد يكون تعرفهما بأسوان أيام كان بها طلائع أو بالقاهرة أو القسطنطية قبل تولي طلائع الوزارة .

وله من أمثال هذا الشعر الذي يشتاق فيه الأصدقاء مقطعات ، وقصائد بالديوان ومنها اشتياقه لابنه مرهف^(١) . وأبيه^(٢) وفد حديثه إليه إشارة إلى ضيقه بالمقام في شيزر ، وأنه هاجر منها لأنه لم يطق المقام لما لقي من عمه وبعض أهله المقربين . يقول :

لَا تَلْزِمْنِي بِالْهَوَانِ وَحَلِيهِ
دَعْنِي وَقَطْعَ الْأَرْضِ ذَوْنِ مَعَاشِرِ
تَغْلِي عَلَيَّ صُدُورَهُمْ مِنْ غِيْظِهِمْ
تَعْنِي إِذَا نَظَرُوا إِلَيَّ عُيُونُهُمْ
قَدْ أَفْسَدُوا عَيْشِي عَلَيَّ وَعَيْشَهُمْ
فَاسْمَحْ بِبَعْدِي عَنْهُمْ بِرِضَاكَ لِي
فَلَعَلَّ بَعْضَ الْعَمْرِ، وَهُوَ أَقَلُّهُ
فَضْلَ الْأَقَارِبِ وَدَهْمَ وَحَنُوهُمْ
إِنْ أَحْتَالِ الْهُونُ ثِقَلُ مُرْهَقِ
كَلَّ عَلَيَّ لَغِيرِ جَرْمٍ مُخْتَقِ
فَتَكَادُ مِنْ غِيْظٍ عَلَيَّ تَحْرِقُ
حَتَّى كَأَنَّ الشَّمْسَ دُونِي تُشْرِقُ
فَأَنَا الشَّقِيُّ بِهِمْ، وَبِي أَيْضاً شَقُوا
إِنْ الَّذِي تَرْضَى عَلَيْهِ مُوَفَّقُ
أَلَا يُكَلِّرُ بِالْهُمُومِ، وَيُمَدِّقُ
فَإِذَا جَفَوْنِي، فَالْأَبَاعِدُ أَرْفَقُ

وكتب إليه متشوقاً وعاتباً ومعتزلاً لسماع أبيه أقوال أقرائه فيه . يقول :
أَمَّا كِفَاهُمْ تَوَى دَارِي وَبَعْدَكَ عَنْ

(١) ديوانه ص ١٢٤ .

(٢) ديوانه ص ١٢٦ .

وموضعي منك لا تسمو الوشاة له
وإنما قاله جاءت، فضاق لها
كذبتها، ثم ناجتني الظنون، بأن
الدهر ليس بجامون، فلا تثق
وقصائده إلى والده من غربته عديدة ضمها تلك المعاني التي أوردنا أمثلة
منها فيما عرضنا من قوله .

وكذا الحال فيما كتب إلى أشقائه .

وكتب إلى الأمير معين الدين أثر يعتذر عن فراقه له ومغادرته دمشق وهي
القصيدة التي حاذى فيها المتنبي، وضمن بعض شعره من مثل قوله :
وأنت أغدِل من يُشكى إليه ، ول
شكّية ، أنت فيها الخصم والحكم
وقوله منها :

وما ظننتك تُنسى حق معرفتي إن المعارف في أهل النهى ديمم
وقوله :

لكن ثقاتك مازالوا بغشهم حتى استوت عندك الأنوار والظلم
لقد أشرنا من قبل أن ظل المتنبي ألقى بجرانه على شعراء مصر والشام من
بعده وطول القرون التالية .

ولم يكن تأثر ابن منقذ بالمتنبي وحده ، ولكنه تأثر بجماعة غيره من الشعراء
العباسيين والأمويين ، ويحظى ابن الرومي بجانب من بين هؤلاء حظوة المتنبي ،
ربما لاتفاق الحال بين الشاعرين ، والإحساس بالظلم ، ومطاردة الدنيا له ،
وضيق العيش ، ومن يقرأ قصيدته في طلائع التي يقول فيها (١) :

عَرَفْتُ لَامِيعَ السُّرَابِ وَهَذَا الْبَحْرُ دُونِي عَذْبُ الْمِيَاهِ شَرِبْتُ
سِرْتُ اسْتَقْرَىءَ الْمُحَوَّلَ ، وَفِي أَرْضِي مَرْغَى عَيْنِ وَوَادٍ قَشِيبُ
وَسِحَابٍ مِنْهُ تَعَلَّمْتُ السُّحْبُ ، وَإِنْ لَمْ تُشَبِّهْ كَيْفَ تَصُوبُ

يدرك مدى تأثره بابن الرومي ببائية مشهورة طويلة (٢) كتأثره بالمتنبي في

(١) ديوانه ص ١٦٢ .

(٢) راجع ديوان ابن الرومي .

ميميته السابقة . وهو يعنى فى القصيدة سوءَ حظه بضياح ثروته فى البحر فى طريقها من مصر بعد أن نهبا الصليبيون :

أذهبْتَ تالدى ، وطارق الطار ىءَ فضاءَ الموروث والمكسوبِ
فهو شطران بين مصر وبحر ذا غريقَ فىءَ ، وذا منهوبِ

وابن منقذ كما قلنا واسع الاطلاع على الشعر العربى قديمه وحديثه واسع الاطلاع على فنون الأدب واللغة ، وعلى التاريخ وعلوم الدين . تشهد له كتبه التى غرقت بالبحر ، ويشهد له عكوفه على الاطلاع والتحصيل وقد هرمت سنه لكنه لم يكف عن القراءة والتأليف فى حصن كيفا قبل عودته إلى دمشق للقاء صلاح الدين فى أخريات عمره .

ويوظف معارفه وثقافته فى شعره ، فترى استعائته بالقرآن والحديث والسيرة والتاريخ . وترى استعائته بمباني وألفاظ كثير من الشعراء ممن حفظ لهم أو وقف على دواوينهم فعلقت ذاكرته ببعض منها .

وابن منقذ بعد هذا شاعر متدفق الشاعرية ، لا يميل إلى التكلف فى الصنعة ، وقد تردُّ فى اثناء أبياته أصباغٌ بديعية من جناس ومقابلة وكناية وتشبيه واستعارة ومقابلة ، ولكنه لا يتكلفها ، بل تراها ترد طواعية تؤدى دورها فى سياق الكلام .

وفى شعره تدفق عاطفى إذا ما اتصل أو تأثر بموقف تراه يهدر كالسيل فتطول قصائده ، وتجرى الألفاظ منطلقة كيفما اتفق لتعبر عن المعنى بأقصر السبل دون تثقيب أو تعمد تحسين أو انتخاب . ونحن هذا ما نجد فى بعض لفظه من الغريب أحيانا ، وعدم الاختيار أو الانتقاء أحيانا ، والخروج عن أصول البناء والتركيب أحيانا أخرى . .

وبعد فهو شاعر ثرى الشعر ، ثرى العاطفة ، ثرى فى حياته وأحداثها ترى فى مؤلفاته ، ولا تقى بالإحاطة بكل جوانبه هذه الصفحات ، ويكفيها هذه المحاولة للتعريف به وبقنه .

القاضي الرشيد بن الزبير^(١)

(ت ٥٦٩ هـ)

من العصابة الصالحية ، شاعرٌ مصريٌّ صميمٌ من الصعيد ، أسوانى المولد والنشأة . من أسرة عريقة تنتمى إلى غسان اليمنية التى حكم بعض ملوكها الشام قبل الإسلام من قبل روم بيزنطة . وإن كان الأدفوى أرجعها إلى قريش .

وقد استقرت أسيرة الزبير فى أسوان منذ زمن ، وسواء أكان أصلها فرشياً أو غسانياً ، فإنها كانت ذات مكانة ، وظهر فيها جماعة من الأفاضل كان من أشهرهم آل الزبير أجداد الرشيد والمهذب أخوه وأباؤهما .

وكانت أسوان قصبة الجنوب ، تزدهر بمكانها بوابة مصر الجنوبية ، وموطناً لبعض عائلاتها العريقة كالكنوز ، والزبيريين هؤلاء ، كما نشأ بها جماعة من العلماء ، ووفد إليها آخرون .

وتولى أحد أجداد الرشيد حكم قوص ، واسمه القاضي إبراهيم بن محمد بن الحسين . تولى سنة ٤٧٢ هـ ، ورثاه الشعراء .

وكان والد الرشيد والمهذب عالماً فاضلاً هو على بن إبراهيم ، تزوج أخت ابن الخلال فأنجبت الشاعرين . ترجم له الأدفوى فى الطالع ، ونسب إليه شعراً ، وقال إنه كان شاعراً فاضلاً رئيساً . وهكذا نشأ والده أحمد ، الملقب بالرشيد ، وأخوه المهذب شاعرين .

وتنقل القاضي الرشيد فى مناصب الدولة ، وذهب إلى القاهرة ، فالتحق بقصر الخلافة وعمل فيه كأحد موظفيه 'ولقب' « سيد الدولة » فضلاً عن القاضي ، ولم يكن الرشيد ذا سمعة معجب ، ولا مظهر حسن ، فقد كان أسمر الوجه قصيراً دميماً . لا يهتم بلباسه .

(١) راجع فى ترجمته الخريدة للعماد ٢٠٠/١ ، شعراء مصر ، معجم الأدباء لياقوت ٤/ ٥١ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٧٥ ، طبع إحسان عباس ، والطالع السعيد للأدفوى ، وشذرات الذهب ٤/ ١٩٧ .

روى أنه دخل مصر بعد مقتل الظافر وتولى الفائز ، وعليه أطمأزرنة
وطيلسان صوف ، فحضر مأتم المقتول ، وأنشد شعراً في رثائه يقول في أوله :

ما للرياض تميل سكرًا هل سقيت بالمزن خمرًا (١)
حتى بلغ قوله :

أفكر بلاءً بالعرا ق ، وكربلاء بمصر أخرى

فدرفت العيون ، وضج القوم بالبكاء ، وأنهالت عليه الهبات من رجال
القصر ونشأته . ويبدو أنه نال حظوة في القصر ، ودار الوزارة التي تولاها بعد
طلائع ، وكان هو وأخوه من نجوم مجلسه .

ولثقة القصر والخلافة به عين في وظيفة هامة ، ثم تُدب لسفارة باليمن .
وبقى هناك زمناً ، وحدثت بينه وأحد دعاة الإسماعيلية جفوة ، ويبدو أن
القصر الفاطمي بعث بالقاضي الرشيد للدعوة أو الهداية ، وقال شاعر يمني
فيه :

بعثت لنا علم المهتدين ولكنه علم أسود
وفيه تعريض بالرشيد لسواد وجهه .

وقيل إنه سجن باليمن بسبب هذا الخلاف المذكور ، فبعث إليه أخوه
المهذب من مصر أياتاً يبيكه « سميت النواحة » ، وفيها يطلب من داعي الدعوة
هناك أن يعفو عنه ويطلق سراحه . يقول المهذب في هذه الأيات :

ياربع أين ترى الأحبة يَمُمُوا هل أنجدوا من بعدها أم أنهموا

ما كان بعد أخى الذى فارقت
هو ذاك لم يملك علاء مالك
أتوت معانيه ، وغطى ربه
ورمت به الأهوال همة ماجد
يا راحلاً بالمجد عنا والعلا
يَقْدِيكَ قوم كنت واسط عقدم
ليوح إلا بالشكاية لى فم
كلأ ، ولا وحدى عليه متيم
ولربما هجر العرين الضيغم
كالسيف يمضى عزمه ويصم
أترى يكون لكم إلينا مقدم
ما إن لهم مذ غبت شمل ينظم

(١) قال العماد إنها في مدح طلائع .

ورد عليه الرشيد بقوله :

رَحَلُوا فلا خَلَّتْ المنازِلُ مِنْهُمْ ونَاوَأَ، فلا سَلَّتْ الجوانِحُ عَنْهُمْ

يقول معرضاً بالشكوى وبما يقاسيه من مرارة :

ونزلت مقهورَ الفؤادِ ببلدةٍ	قلّ الصديق بها وقلّ الدرهم
في مَعَشَرٍ تُخَلِّقُوا شُخُوصَ بهائمٍ	يَصْنَعُهَا فِكْرُ اللَّيْبِ وَبَيْنَهُم
إن كورموا لم يكرموا، أو عُلِّمُوا	لم يَعْلَمُوا، أو خُوطِبُوا لم يفهموا
لا تنفُقُ الآدابُ عندهم ولا الـ	إحسانٌ يَعْرِفُ في كثيرٍ مِنْهُمْ
صُمٌّ عن المعروف حتى يسمعوا	هُجَرَ الكلامُ فيقدموا ويُقدِّموا
فإنَّه يُغْنِي عَنْهُمْ، ويزيدُ في	زُهْدِي بِهِمْ، وَيَفُكُّ أَسْرِي مِنْهُمْ

ويذكر ياقوت أنه بلغ باليمن درجة قاضي القضاة ، وأنه طمح إلى رتبة الإمامة وربما كان هذا ما أحسَّ به أهل اليمن وأعيانهم وفي مقدمتهم داعي الدعاة هناك فدرس له عند الخليفة الناطمي بعد أن حبسه . وذلك بأن بعث إليه بأبيات من الشعر رغم أنها للرشيد ينوه بالقحطانيين ، ويعرض بالمصريين .
تقول :

لئن أُجِدِّبْتُ أرضُ الصعيدِ وأقحطوا	فلسْتُ أنال القحط في أرضِ قحطانٍ
ومذ كُفِلْتُ لِي مَأْرَبٌ بِمَارِي	فلسْتُ على أسوانٍ يوماً بأسوانٍ
وإن جهَلْتُ حَقِّي زَعَانِفٌ خَنْدِفٌ	فقد عرفت فضلي أَغْطَارِفُ همدانٍ

وأرض قحطان هي أرض اليمن وحمدان قبيلة يمنية ، وأما خندف فهي مُضَرٌ وإليها تنسب قريش والفاطميون .

ولم يطل سجنه باليمن ، فقد سعى طلائع بن رزيك إلى فكِّ أسره ، وعاد إلى مصر بعد عامين والتحق بالوزير ومجلسه ، ولزمه هو وأخوه المهذب ، وشاركوا جماعة من أعيان المصريين والوافدين من الشام وغيرها . شارك القاضي الجليس بن الحباب ، والشاعر ابن قادوس ، والشاعر عمارة اليمنى ، والشاعر أسامة بن منقذ .

وتبادل الرسائل مع أسامة بعد سفره إلى الشام يتشوق أحدهما إلى الآخر . وظلَّ يرأسه زمنا . ومن رسائله الشعرية إليه قوله :

آحبابنا ما مصرُ بعدكمُ مصرُ ولكنها فقرُ ، إليكم بها فقرُ
رحلتم فعادَ الدهرُ ليلاً بأسره وليس له إلا بأوبتكم فجرُ
تُرى فاضَ ما ألقى من الهمِّ والآسى لبعدكم ، فاسودَّ من صبغهِ الدهرُ
وكيف ألوم الليلَ إن طال بعدكم وقد غاب عني منكم الشمسُ والبدرُ

ونظن أن علاقة الرشيد وأسامة بدأت قبل لقائهما في مجلس طلائع ،
ولعلهما لم يلتقيا في المجلس إلا بعد أن توثقت صلتهما ، ونعلم أن الرشيد عمل
بالقصر زمنا وكذلك كان ابن منقذ مقرباً من الحافظ قبل تولى الفائز ومقتله
على يد عباس وابنه .

ومن رد ابن منقذ على الرشيد نعلم أنه يشكره على ما أسدى إليه من يد
وهو في دمشق بعيداً عن مصر حيث يقول أسامة :

وكيف أشكر من أسدى إليّ يداً سرّث سرى الطيف من مصر وإلى الشام
رأى مكاني على بعدى وقد عَشِيتُ عني عُيونُ أخلأني وأيامي
محافظاً لعهودي حين أفردني ظلي ، وأعرض عني ظيف أخلأني
ولعل لهذه اليد صلة بما خلفه أسامة بمصر من مال وولد . فربما ساعد
الرشيد في انقاذها والحفاظ عليها من المتربصين به بعد مغادرته مصر هارباً .
وربما سعى مع الوزير الصالح طلائع في إنقاذ المال والأهل على المركب إلى
الشام .

وأشار عمارة اليمنى في النكت^(١) إلى من لقبه في مجلس طلائع من كبار
القوم ، والشعراء ومن بينهم الرشيد وأخوه المهذب .

وبعد مقتل طلائع ، وتولى ابنه من بعده لفترة قصيرة اغتصب بعدها
الوزارة شاور ، ثم ناوله ضرغام ، وحدث ما حدث من أحداث وتدخل نور
الدين محمود والصليبيين ، ووفودهما إلى مصر أكثر من مرة لم يستقر الأمر
للرشيد .

ويبدو أن الرشيد ذهب إلى الاسكندرية متولياً إحدى الوظائف هناك ،
وظل بها ، واتصل بالحافظ السلفي عالم الاسكندرية وأخذ عنه .. وساعد

(١) النكت العصرية ص

صلاح الدين عند حلوله بالاسكندرية وحصار شاور والفرنج له حتى صمد للحصار مما احفظ شاور ، وكان ذلك داعياً للانتقام منه . وهكذا انتهت حياة الرشيد بمقتله سنة ٥٦٢ هـ أو سنة ٥٦٣ هـ . ويقال إنه تشيع ، ويؤكد ذلك سفرته إلى اليمن ، ودعوته ، فلعله كان داعية إسماعيليا .

وقد أشار مؤرخوه بفضله وعلمه . قال العماد : « كان ذا علم غزير ، وفضل كثير » . وله رسالة « منية الأملعي ، وبلغه المدعى » وهي مطبوعة وتدل على معرفته بالفقه والنحو واللغة والانساب ، والمنطق والهيئة والموسيقى والطب^(١) .

قال العماد عن هذه الرسالة : « وله الرسالة التي أودعها من كل علم مشكله ومن كل فن أفضله .

وما بقي من شعره نزر يسير ، بعضه مما قاله في مجلس طائع ، والآخر في الفخر والشكوى ، والمدح ، والهجاء .

فمما قاله في مدح الاغتراب^(٢) :

فإنَّ التَّدَانِي رُبَّمَا أَخَذَتْ الْقَلَى وإنَّ التَّنَائِي رُبَّمَا زَادَ فِي الْوُدِّ
فإِنِّي رَأَيْتُ السَّهْمَ مَا زَادَ بَعْدَهُ عن القوسِ الأَزِيدِ فِي الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ
وَلَنْ يَسْتَفِيدَ الْبَدْرُ أَكْمَلَ نُورِهِ من الشَّمْسِ إِلَّا وَهُوَ فِي غَايَةِ الْبُعْدِ

وقال في الشكوى^(٣) ؛ والفخر :

جَلَّتْ لَدَى الرِّزَايَا، بَلْ جَلَّتْ، هَنَمِي وهل يَضُرُّ جَلَاءُ الصَّالِمِ الذِّكْرِ
عَمْرِي يَغْيَرُهُ عَنْ حُسْنِ شِمِيَّتِهِ صَرَفَ الزَّمَانِ، وَمَا يَأْتِي مِنَ الْغَيْرِ
لَوْ كَانَتْ النَّارُ لِلْيَاقُوتِ مُحْرِقَةً لَكَانَ يَنْشَتَبُهُ الْيَاقُوتُ بِالْحَجَرِ
لَا تُغَرَّرَنَّ بِأَطْمَارِي وَقِيمَتِهَا فَإِنَّمَا هِيَ أَصْدَافٌ عَلَى دُرِّ
وَلَا تَطْنُ خَفَاءَ النِّجْمِ مِنْ صَغِيرِ فَالذَّنْبُ فِي ذَاكَ مَحْمُولٌ عَلَى الْبَقْرِ

(١) الخريدة ١/ ٢٠٠ .

(٢) الطالع السعيد ، ص ١٠١ .

(٣) وفيات الأعيان ١/ ١٦٢ .

ويقول في الغربة :

ولما تناءت أرضنا وديارنا وجانَ زمانَ ناقضَ العهدِ غدارُ
كفانا معالي كلِّ أمرٍ أهمنا وحكمتنا فيما نحب ونختارُ
وأنزلنا من ربِّهِ الرُّحبَ حُسْنَهُ يفيضُ بها من رحبِ كفيه أنهارُ
لنعم الدرِّى يلقى به الجارُ رَحْبَهُ إذا ما تَبَّثَ بالجارِ عن أهله الدارُ
فَكُنَّا كأننا نازلونَ بأهلنا ولم تثنَا أوطانٌ علينا وأوطارُ

ومما قاله في التشوق إلى صاحب نأى ؛ وهو ابن قلاقس^(١) ، ويردُّ فيها على قصيدة بَعَثَ بها إليه :

يا مغرماً بنفيس الدرِّ يجمعه ومولعاً بجميل البرِّ يصنعه
أضحى ينافسنى في قربهِ زمنى فما يجودُ به إلا ويمنعه
ولا أقول دنت منى منازلُهُ إلا غدا وكبعد النجم موضعه
كذلك الدرِّى الأصداف محتجبٌ حيناً ، وحيناً على تاج يرصعه
إن غاب بدرُ سماءِ المجد عن نظرى ففى فؤادى أفقٌ منه مطلعُهُ
يَذوبُ قلبى من وجدٍ ومن أسفٍ شوقاً إليه ، وقد حازته أضلعه

ومن قصيدته التى أجاب بها أخاه وهو محبوس باليمن ، يشكو فيها ما يعانیه هناك — وقد أوردنا منها أبياتا . قال :

رحلوا فلا تحلَّت المنازلُ منهم ونأوا فلا سلَّت الجوانحُ عنهم
وسرَّوا ، وقد كتموا العداة مسيرهم وضيأَ نورَ الشمسِ مالا يُكتمُ
وتبدَّلوا أرضَ العقيقِ عن الحمى ردَّتْ جفونى أى أرضٍ بمموا
نزلوا العذيبَ ، وإنما فى مهجتي نزلوا ، وفى قلبِ المتيمِّ خيموا

وما وصل إلينا من شعر يسير للرشيد لا يمكننا من التعرف على صنعته . ونكتفى بحكم السابقين عليه والذين وصفوه بأنه أقل شاعرية من أخيه المهذب^(٢) . قال العماد عن المهذب : « وهو أشعر من أخيه ، وأعرف بصناعته وإحكام معانيه » .

(١) شعر الرشيد والمهذب ، ص ١١١ .

(٢) راجع الخريدة ١٠٤/١ .

ويبدو أن اشتغال الرشيد بالعلم وتأليف الكتب كان على حساب شاعريته .
وقد انجب ابناً شاعراً هو علي بن أحمد بن الزبير ، مدح السلطان صلاح الدين^(١) .

(١) المصدر نفسه ١/ ٢٠٢، ٢٠٣ .

المهذب بن الزبير^(١)

(ت سنة ٥٦١ هـ)

وهو أبو محمد الحسن بن علي ، شقيق الرشيد ، قال العماد : « هو أخو الرشيد . محكم الشعر كالبناء المشيد . وهو أشعر من أخيه ، وأعرف بصناعته وإحكام معانيه » . « ولم يكن في زمانه أشعر منه أحد . وله شعر كثير ، ومحل في الفضل أثر » . وهو وإن كان أشعر من أخيه إلا أن الرشيد كان أعلم منه في رأى المؤرخين .

ولم يذكر هؤلاء أى الأخوين كان أكبر ، وإن ظننا أن الرشيد هو الأكبر . أو لعلهما كانا توأمين ، لارتباطهما معاً في العاطفة ، وتشابههما في بناء الجسد والصورة فقد كان المهذب كذلك ضئيل الجسم أسمر اللون ، بوجهه دمامة . ولد المهذب بأسوان كأخيه ، وكانت له علاقة بأسرة الكنز المشهورة بها ، وربما كانت هذه العلاقة امتداداً لعلاقة أسرته .

وكان الكنوز من أمراء ربيعة ، أهل فتوة ومكارم ومدحين يقصدهم الشعراء من بلاد بعيدة على حد قول الأدقوى .

وكان المهذب ممن مدحهم بالشعر الكثير ، احتفظت لنا المصادر ببعضه في مدح كنز الدولة بن متوج يقول فيها :

بأى بلاد غير أرضى أجيم	وأى أناس غير أهلي أيمم
ورائى أرض ما بها متأخر	أمامى أرض ما بها متقدم
فها أنا اختار الثواء على الثوى	ويكرهه الرأى الذى هو أحزم

وقد تلقى علمه ، ونضج شعره ببلده ، ثم طمح إلى عاصمة البلاد ، ورمى ببصره وهمنه إلى القاهرة والفسطاط عله يجد هناك ما يأمله من مكانة لدى الوزراء وقصر الخليفة ، وأعيان الناس .

(١) راجع ترجمته في وفيات الأعيان ٦/ ٧٥ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٩/ ٤٧ ، والطالع السعيد .

(٢) الخريدة ١/ ٢٠٤ .

وأراد أن يقصد بشعره هؤلاء ، وأول من قصده من الوزراء على ما وصلنا من خبره رضوان بن الولحشى (تولى الوزارة من سنة ٥٣١ إلى سنة ٥٣٣ هـ) . يقول فيه :

إذا قابلته ملوك البلا دِ خَرْتُ على الأرض تيجانها
ولله في أرضه جنة بمصر ، ورضوان رضوانها

واستغل اسم الممدوح ، ووظفه في معنى مديحه .

ولما قُتل ابن الولحشى بأمر الحافظ ، رثاه المذهب بقوله :

بِنَفْسِي من أبكى السماوات مَوْتُهُ بغيثِ ظَنَنَّا نوالَ يمينه
فما استعبرت إلا أَسَى وتأسفاً وإلا فماذا القطرُ في غير حِينِه
وكانت السماء قد أمطرت ساعة مقتله على غير موعد ، فاستغل الشاعر ذلك لتوظيفه في رثاء ممدوحه .

وإلى القاهرة يفد الشاعر أسامة بن منقذ ، فيلتقى المذهب هذا الخير بسرور فيصحبه زمناً ، ويبعث إلى أسامة أبياتاً في ذكر الديار ، ولعله بعث بها بعد النكبة التي أصابت أهله في شيزر عقب الزلزال ، فيكون ذلك بعد رحيل أسامة إلى الشام ، ووقوع الزلزال هناك سنة ٥٥٢ أو سنة ٥٥٣ هـ . حيث يقول :

آحبابنا مالى إذا ما ذكرتكم وما أناس—غال صبرى غول

يقول :

لئن أقفرت منا الديار ومنكم وأمست مَعَانِيهِنَّ وهى ظَلُول
فإن لنا فى آل منقذ أسوة يهونَ لديها الخطبُ وهو جَلِيل
نبت بهم أوطانهم فترحّلوا وللمجد فى ذاك الرحيل رَحِيل

ولغة التعزية واضحة فى الآيات .

وللمذهب أبيات كثيرة ، بعث بها إلى ابن منقذ بعد رحيله إلى الشام تدل على ما كان بينهما من مودة وعلاقة وثيقة ، ونحس هذا كذلك فى أبيات أسامة التى جاوبه بها .

وقد تكون هذه العلاقة توثقت بعد وصول أسامة للقاهرة، وكان الأخوان الرشيد والمهذب قد استقروا بالقاهرة، وعمل الرشيد زمناً بقصر الخلافة على ما عرفنا . وفي هذا الوقت نفسه تعرفا على الوزير ابن السلار، وطلّاع بن رزيك وعباس الصنهاجى .

ومنها مديحه لابن السلار ولقبه سيف الدولة بمناسبة نصرته على ابن مصال بمشاركة عباس وطلّاع فى موقعة دلاص . يقول :

أبى الله إلا أن تعان وتُصْصِرَا	وتظفر حتى لقبوك المظفرا
وتصبح سيفاً مثل نعتك قاطعاً	مُحلى بأصناف الفخار مُجوهرَا
يراك حديد الهند أشرف قيمة	وأعظم آثاراً، وأكرم عُصْرَا

ودارت الأيام، وتولى ابن رزيك الوزارة بعد الأحداث التى ذكرنا، فأصبح المهذب من أقرب جلسائه إلى نفسه، وقد ذكرنا أن تعارفهما ربما تم بالقاهرة، ثم توثقت الصلة عند تولى ابن رزيك أسوان وقوص. وأصبح هو وأخوه الرشيد صاحبين ملازمين فى دار الوزارة بالقاهرة والفسطاط .

تولى المهذب بعض الوظائف فى الدولة، ولقب باللقاب أصحاب تلك الوظائف على عادة ذلك العصر مثل القاضى، وصفى الدين، وعميد الدولة .

وأهله ثقافته ومكانته، ومكانة أسرته لتولى هذه المناصب، وبلوغ مكانة خاصة فى دولة الفاطمية . وقد ساعد على ذلك شيعيته، واعتناقه مذهب الإسماعيلية، مذهب الخلفاء، أو التشيع عامة دون التزام بالإسماعيلية . وقد وردت فى شعره أقوال ترجح هذا الاعتقاد . منها ما ذكره العماد وعلق عليه مستنكراً من مثل قوله فى مديح ابن رزيك^(١) :

فلو يكون لهم أمثاله عُضْداً فيما مضى ما غدت مغصوبة فداً

قال العماد : « لقد أبطل فى هذا القول المؤتلف ، وغفل عن سير الشريعة فى فداك وفضل ممدوحه على السلف فى الشرف ، وأدت به المبالغة فى الضلال إلى السرف » . وابن العماد السننى ساءه أن يذكر المهذب هذا الحدث معرضاً بأبى بكر وعمر . فإنه يشير إلى ما كان من رأى أبى بكر وعمر فى أن فاطمة الزهراء لا ترث فداك التى تركها الرسول ﷺ — لقوله : نحن معاشر الأنبياء
(١) الخريدة — قسم شعراء مصر (ترجمته) .

لا نُورثُ ، ما تركناه صدقة . والشيعه يرون أن أبا بكر وعمر أخطأ ، وأنه كان ينبغي أن يتركها لفاطمة .

وتتردد اعتقادات الشيعة وأقوالهم كثيراً في شعره . كما قال في مدح الخليفة العاضد :

وَأَنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَذَكَرَهُ	قَرِينَانِ لِلْآيِ الْمُنَزَّلِ فِي الذِّكْرِ
لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ: تَلْقَوْنَ عِثْرَتِي	مَعاً، وَكُتِبَ اللَّهُ فِي مَوْرِدِ: الْحَشْرِ
إِذَا مَا إِمَامَ الْحَشْرِ لَاحَ لِنَظَرِي	فَوَا الْعَصْرَ إِنَّ الْجَاهِدِينَ لَفِي يُحْسِرِ

وهي تحكي ما يعتقد الشيعة من قول النبي ﷺ : « إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا : الثقلين ، وأحدهما أكبر من الآخر ؛ كُتِبَ اللَّهُ ، حَبْلُ اللَّهِ الْمَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَعِثْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي ، إِلَّا أَنْهَمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا الْحَوْضَ » .

ومن ذلك قوله في الإمام علي رضي الله عنه :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَخَيْرَ مَلْجَأٍ	يُسَارُ إِلَى حِمَاةٍ ، وَخَيْرُ حَامٍ
كَأَنِّي إِنْ جَعَلْتُ إِلَيْكَ قَصْدِي	قَصَدْتُ الرُّكْنَ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ
وَحُيِّلَ لِي بِأَنِّي فِي مَقَامِي	لَدَيْهِ بَيْنَ زَمَرٍ وَالْمَقَامِ

وقد يكون هذا التحمس للفكر الشيعي مما قربه من طلائع بن رزيك الذي عرف بتحمسه للمذهب علي ما ذكرنا . وسنرى أنه كان يدعو الشاعر عمارة اليمنى إلى مذهبه وعمارته بتمسك بسنته شافعيًا ، ولا يرى ذلك مقللاً من حبه لابن رزيك وتقديره لماثر الفاطيين . وكان لسجايه الحميدة ما ساعده على حب الناس وتقديرهم له .

نجح إذا المهذب في بلوغ ما يريد ، وأصبح نجماً في سماء الدولة ، وظل كذلك حتى قتل صديقه ، الوزير ورجل الدولة القوي طلائع . بعدها تفرقت به السبل ، فلم يعد للمهذب بعد سنة ٥٥٩ هـ شأن ، وبخاصة بعد العادل ابن رزيك ، فلم يلبث شاور أن أودى به إلى الموت سنة ٥٦١ هـ .

شعره وشاعريته :

ذكر ابن خلكان أن شاعريته تفتحت أكامها وهو في السادسة والعشرين وخمسمائة وربما كانت سنة آنذاك لم تتجاوز العشرين .
وقرظ شعره العماد ، وأشاد به قائلًا : لم يكن في زمانه أشعر منه أحد .
وكان معجباً بشعره ، يسأل عنه من يحفظه ، ويعلق عليه بما يكشف عن وقوعه من نفسه موقعاً طيباً .

فمما علق به على لاميته التي اختار معظمها وهي قوله :

أَقْصِرْ فِدَيْتَكَ عَنْ لَوْمِي وَعَنْ غَدَلِي أَوْ لَا فَخْذِلِي أَمَانًا مِنْ ظَبَا الْمُقَلِّ

« للشعراء المَهْدَبِينَ ، المَذْهَبِينَ المَذْهَبَ على هذا الوزن المعجز المعجب قصائد فرائد ، قلائد ، وهذا مَهْدَبٌ مُهْدَبُهُمْ ، إذ هو وحيد العصر مجيد النظم والنثر » (١) . وكان لاجابة به أثره في الإكثار من إختيارات شعره .

والحق أن المَهْدَبَ بن الزبير هو أمير شعراء مصر في عصره ، لما أبدى من المقدرة الشعرية التي تجلت في أكثر من جانب من جوانب قوله الشعرى .
وشعره فيما يبدو كثير ، إلا أن ديوانه ضاع فيما ضاع من آثار الفاطميين ، ذلك إذا كان له ديوان مجموع .

وما وصلنا من شعرة يدور معظمه في موضوعات المدح والثناء والوصف والشكوى والتشوق والغزل . ولم يقل في الهجاء ترفعاً ، وصيانة للسانه من أن يخوض في الأعراض . اعترف بذلك في أبيات له وجهها إلى طلائع ، وقد أغرى بعض شعراء مجلسه به . يقول :

يا أيها الملك الذي أوصافه	غَرَّرَ تَجَلَّتْ فِي الزَّمانِ الأسْفَعِ
لا تطمِئِ الشعراءَ فيَّ فَإِنِّي	لَوْ شِئْتُ لَمْ أَجُنْ وَلَمْ أَتَخَشَّعْ
فليمسِكُوا عَنِّي ، فَلَوْلَا أَنِّي	أَبْقَى عَلَى عَرْضِي إِذَا لَمْ أَجْزَعْ

ولو أنه ناجى ضميري في الكرى	طَيْفَ الخيالِ بريئة لم أهْجَعْ
وإذا بدا لي الهُجْرُ لم أرَ شَخْصَةً	وَإِذَا يُقَالُ لِي : لِحْنًا لَمْ أَسْمَعْ

(١) الخريدة ١ / ٢٠٨ .

وَالنَّاسُ قَدْ عَلِمُوا بِأَنِّي لَيْسَ لِي مَذَكَّتٌ فِي أَعْرَاضِهِمْ مِنْ مَطْمَعٍ

وظهرت خصائصه النفسية ، وملائح همته في شعره ، فقد واجه في حياته ظروفًا متنوعة ، حيث قست عليه الحياة أحياناً ، ثم عادت فسالته ، وأرخت له الزمام ، وأغدقت . لكنها لم تلبث أن عاندته في أخريات حياته ، لهذا تجد في شعره الفرحه والثرحة ، الرضا والسعادة أحياناً ، والغضب والضيق والشكوى من الزمان وأهله أحياناً أخرى .

كان المهذب ذا نفس مرهفة ، وشاعرية صادقة ، فانعكس على شعره إحساسه بأحداث قومه وعصره ، وما رآه ، وما ابتلاه ، وعبر عنه بصورة تكشف عن تلك الرهافة النفسية والصدق الفني .

وكانت لثقافته ومحفوظه الكثير والمتنوع آثارها في صياغته ، وألفاظه وصوره ومعانيه على ما سنفصله بعد .

ونمثل على قدر ما يسمح المقام بما جدد من معاني الشعر ، وما قلده فيها على اختلاف موضوعاته .

ففى المديح يطرق المعاني المعهودة من صفات الممدوح بالكرم والشجاعة ويضيف بعض المعاني المتعلقة بمنصبه أو عمله ، وقد يعرض لنسبه كما فعل في مديحه لطلائع ، فقد أشاد بنسبه في غسان . ونذكر في هذا المقام انتساب آل الزبير إلى الغساسنة كذلك . يقول في نونيته :

أَعْلَمْتُ حِينَ تَجَاوَرِ الْحَيَّانِ أَنَّ الْقُلُوبَ مَوَاقِدَ التَّيَرَانِ
مَادِحاً طَلَائِعَ وَمَشِيداً بَرَقَائِعَهُ فِي الصَّلَيبِينَ بِالشَّامِ :

يا كَاسِرَ الْأَصْنَامِ قُمْ فَانْهَضْ بِنَا	حَتَّى تَصِيرَ مُكْسِرَ الصُّلْبَانِ
الشَّامِ مُلْكَكَ قَدْ وَرَثْتَ ثَرَاءَهُ	عَنْ قَوْمِكَ الْمَاضِينَ مِنْ غَسَّانِ
فَإِذَا شَكَّكَتَ بِأَنَّهَا أَوْطَانُهُمْ	قَدِمْنَا ، فَسَلَّ عَنْ حَارِثِ الْجَوْلَانِ
أَوْرَمْتَ أَنْ تَتْلُو مَحَاسِنَ ذِكْرِهِمْ	فَاسْنَدِ رَوَايَتَهَا إِلَى حَسَّانِ

ويحسن في مديحه توظيف أسماء الممدوحين وألقابهم في سياق معانيه الشعرية كما أشرنا في مديحه لرضوان الوخشي ، وسيف الدين ابن السَّلاَر وسيف الإسلام ابن رزيك ، ومنه قوله في مدحه :

كَأَنَّ فِي سَيْفِ سَيْفِ الدِّينِ مِنْ خُجَلٍ مِنْ عَزَمِهِ مَا بِهِ مِنْ حُمْرَةِ الْحَجَلِ
هُوَ الْحَسَامُ الَّذِي يَسْمُو بِحَامِلِهِ زَهَوًا فَيَفْتَكُ بِالْأَسْيَافِ وَالْدُولِ
إِذَا بَدَأَ عَارِيًّا مِنْ غَمْدِهِ تَخَلَّعَتْ غِمْدُ الدِّمَاءِ عَلَيْهِ هَامَةٌ الْبَطْلِ
إِذَا تَقَلَّدَ بِحِرًّا مِنْ أَنَامِلِهِ رَأَيْتَ كَيْفَ اقْتَرَانُ الرِّزْقِ بِالْأَجَلِ
مِنْ السُّيُوفِ الَّتِي لَاحَتْ بِوَارِقِهَا فِي أَثْمَلِ هِيَ سَجْبُ الْعَارِضِ الْهَاطِلِ

وهو في توظيف اسم الممدوح يجارى المتنبي أحياناً في توظيفه لاسم ممدوحه
سيف الدولة ابن حمدان .

ونلاحظ هنا إلمامه بمعنى من معاني البحترى في المديح بوصفه كفه في البطش
والعطاء بالبارق والسحاب .

كذلك توظيفه لبعض الأحداث كالزلازل الذي أصاب الشام وقت غزوات
ابن رزّيك هناك . يقول :

مَا زُلْزَلَتْ أَرْضُ الْعِدَا بِلْ ذَلِكَ مَا بِقُلُوبِ أَهْلِهَا مِنْ الْخَفَقَانِ
وَأَقُولُ إِنْ حُصُونَهُمْ سَجَدَتْ لَهَا أَوْتَيْتُ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ سُلْطَانِ
وَالنَّاسُ أُولَى بِالسُّجُودِ إِذَا غَدَا لِعَلَاكَ يَسْجُدُ شَائِخُ الْبَنِيَانِ

ويسمى علماء البديع هذا اللون من التعبير « حسن التعليل » . وهو أن
يغفل الشاعر العلة الأساسية للحدث ، ويأتى بعلة من عنده توافق سياق
معانيه ، وتدعم موضوع أبياته .

ويلجأ إلى الاشتقاق والتوليد على طريقة أئى تمام أحياناً ، وابن الزومى
أحياناً ، فيقول :

وَتَلَلْتُ فِي يَوْمِ الْعَرِيشِ عُروَشَهُمْ بِشَبَا ضَرَابِ صَادِقٍ وَطَعَانِ
أَلْجَأْتُهُمُ لِلْبَحْرِ لَمَّا أَنْ جَرَى مِنْهُ وَمِنْ دَمِهِمْ مَعَا بَحْرَانِ

ويلجأ إلى التضمين من شعر القدماء أو السابقين من محدثى الدولة العباسية
ومن بعدهم كأن يقول مضمناً بشعر لامرئ القيس والمتنبي . يقول :

مِنْ كُلِّ طَرَفٍ مَرِيضَ الطَّرَفِ تَشِيدُنَا أُلْحَظُهُ « رَبِّ رَامٍ مِنْ بَنَى تَعْلٍ »
إِنْ كَانَ فِيهِ لَنَا ، وَهُوَ النَّسِيمُ شِفَاءً « فَرُبَّمَا صَحَّتْ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَالِ »
وَكُلَّ يَبِضَاءٍ لَوْ مَسَّتْ أَنَامِلُهَا قَمِيصَ يُوسُفَ يَوْمًا قَدْ مِنْ قَبْلِ

وَنُورِدُ قَصِيدَتَهُ التَّلَامِيَّةَ الَّتِي أُعْجِبْتَ الْعِمَادَ مِثَالاً لِمُدِيحِهِ ، وَفِيهِ وَصَفٌ
لِمَعَارِكِ طَلَائِعِ مَعَ الصَّلِيبِيِّينَ بِالشَّامِ . يَقُولُ :

أَقْصِرْ—فَدَيْتُكَ—عَنْ لَوْمِي وَعَنْ عَذْلِي أَوَّلَا فَخْذُلِي أَمَانًا مِنْ يَدِ الْمَقَلِّ
مِنْ كُلِّ طَرْفٍ مَرِيضٍ الْجَفْنِ تَنْشِدُنَا الْحَاطَةُ « رَبِّ رَامٍ مِنْ بَنِي ثُعَلٍ »
إِنْ كَانَ فِيهِ لَنَا ، وَهُوَ السَّقِيمُ شِفَاً فَرُبَّمَا صَحَّحْتَ الْأَجْسَامَ بِالْعِلِّ
إِنَّ الَّذِي فِي جُفُونِ الْبَيْضِ إِذْ تَنْظُرْتُ نَظِيرُ مَا فِي جُفُونِ الْبَيْضِ وَالْخِلِّ (١)
كَذَاكَ لَمْ يَشْتَبِهْ فِي الْقَوْلِ لَفْظُهُمَا إِلَّا كَمَا اشْتَبَهَا فِي الْفَعْلِ وَالْعَمَلِ
وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى الْأَطْلَالِ أَحْسَنَهَا جِسْمِي الَّذِي بَعْدَ بُعْدِ الطَّاعَتَيْنِ بَلَى
أَبْكِي عَلَى الرَّسْمِ فِي رَسْمِ الدِّيَارِ فَهَلْ عَجِبْتُ مِنْ طَلَلِي يَبْكِي عَلَى طَلَلِ
وَكُلِّ بَيْضَاءَ لَوْ مَسَتْ أَنَا مِلْهَا قَمِيصَ يُوسُفَ يَوْمًا قَدْ مِنْ قَبْلِ
يُغْنِي عَنِ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَبْسُومَهَا لِحْسِنِهَا ، فَلَهَا حَلِيٌّ مِنَ الْعَطَلِ
بِالْخُذِّ مِنِّي نَارَ الذَّمُوعِ كَمَا لَهَا عَلَى الْخُذِّ آثَارٌ مِنَ الْقَبْلِ
كَأَنَّ فِي سَيْفِ السَّيْفِ الدِّينَ مِنْ خَجَلٍ مِنْ عَزَمِهِ مَا بِهِ مِنْ حَمْرَةِ الْخَجَلِ
هُوَ الْحُسَامُ الَّذِي يَسْمُو بِحَامِلِهِ زَهْوًا فَيَفْتِكُ بِالْأَسْيَافِ وَالِدُولِ
إِذَا بَدَأَ عَارِيًّا مِنْ غِمْدِهِ خَلَعَتْ غِمْدَ الدَّمَاءِ عَلَيْهِ هَامَةُ الْبَطْلِ
وَإِنْ تَقَلَّدَ بَحْرًا مِنْ أَثَالِيلِهِ رَأَيْتَ كَيْفَ اقْتَرَانَ الرِّزْقُ بِالْأَجَلِ
مِنْ السُّيُوفِ الَّتِي لَاحَتْ بِوَارِقِهَا فِي أَنْمِلٍ هِيَ سُحْبُ الْعَارِضِ الْهَظْلِ
فَجَاءَنَا لَبَنِي رَزْزِكَ مَعْجَزُهَا بَايَةَ لَمْ تَكُنْ فِي الْأَعْصَرِ الْأَوَّلِ
تَبَدُّوْا شُمُوسًا هَمُّوْا أَقْمَارَهَا وَتَرَى شَهَبَ الْقَنَا فِي سَمَاءِ النَّفْعِ لَمْ تَقَلِّ
قَدْ بَهَّيْرَتْ فِيهِمُ السُّمُرُ الرَّفَاقَ رَفَاقَ الْبَيْضِ خَلْفَ سَجُوفِ النَّفْعِ فِي الْكِيلِ
إِنْ عَانَقُوا هَذِهِ فِي يَوْمِ مَعْرَكَةٍ لَاحَتْ لَهُمْ بَتْلَظَى تِلْكَ كَالشُّعْلِ
وَقَدْ لَقُوا كُلَّ مَنْ غَارُوا بِمِشْبِهِ حَتَّى لَقُوا النَّجْلَ عِنْدَ الْعَرْضِ بِالنُّجْلِ
وَضَارَبَ الرُّومَ رُومٌ مِنْ سَيُوفِهِمْ وَطَاعَنَ الْعَرَبُ أَعْرَابٌ مِنَ الْأَسَلِ
وَهُوَ لَصْهِيلُ الْخَيْلِ تَحْتَ صَهِيلِ الْبَيْضِ مَا هَزَّ أَعْطَافَ الْقَنَا الْخَطْلِ (٢)
فَالْدَّمُ حَمَرٌ ، وَأَصْوَاتُ الْجِيَادِ لَهُمْ أَصْوَاتُ مَعْبَدٍ ، فِي الْأَهْزَاجِ وَالرَّمْلِ
وَالْخَيْلِ قَدْ أَطْرَبَتْهَا مِثْلَ مَا طَرَبُوا

(١) يَقْصِدُ بِالْبَيْضِ السُّيُوفَ ، وَالْخِلَّ أَجْفَانَهَا .

(٢) الْخَطْلُ : الْمَضْطَرَبُ .

من كُلِّ أَجْرَدَ مُخْتَالٍ بِفَارِسِهِ
 وَكُلِّ سَلَهَبَةٍ لِلرَّيْحِ نَسَبَتُهَا
 أَفَارِسَ الْمُسْلِمِينَ أَسْمَعَ، فَلَا سَمِعَتْ
 مَقَالَ نَاءٍ غَرِيبٍ الدَّارِ قَدْ عَدِمَ الـ
 يَشْكُو مَصَائِبَ أَيَّامٍ قَدْ اتَّسَعَتْ
 يَرْجُوكَ فِي دَفْعِهَا بَعْدَ الْإِلَهِ، وَقَدْ
 وَكَيْفَ أَلْقَى عَلَى الْآيَّامِ مَرْزُوقَةً
 لَوْلَاهُمْ كُنْتُ أَفْرَى الْحَادِثَاتِ إِذَا
 وَكَيْفَ أَخْلَعُ ثَوْبَ الدَّلِّ حَيْثُ كَيْفِيلُ
 فَمَا تَخَافُ الرَّدَى نَفْسِي وَكَمْ رَضِيتُ
 إِنِّي أَمْرٌ قَدْ قَتَلْتُ الدَّهْرَ مَعْرِفَةً
 إِنْ يَزُو مَاءُ الصَّبَا عَوْدِي فَقَدْ عَجِمْتُ
 تَجَاوَزْتُ بِي مَدَى الْأَشْيَاخِ تَجَرَّبَتِي
 وَأَوَّلَ الْعَمْرِ خَيْرٌ مِنْ أَوَاخِرِهِ
 دُونِي الَّذِي ظَنُّ أَنِّي دُونَهُ فَلَهُ
 وَابْدُرْ تَعْظُمُ فِي الْأَبْصَارِ صُورَتُهُ
 مَا أَضُرَّ شَعْرِي أَنِّي مَا سَبَقْتُ إِلَى
 فَإِنْ مَدَحِي لِسَيْفِ الدِّينِ تَاهَ بِهِ
 وَاضِحٌ مِنَ الْبَيْتَيْنِ الْأَخِيرَيْنِ فِي الْقَصِيدَةِ أَنَّ الْمَهْذَبَ اسْتَدْعَى فِي ذَاكِرَتِهِ
 قَصِيدَةَ أَبِي الطَّيِّبِ الَّتِي ذَكَرَ مَطْلَعَهَا (١) :

أَجَابَ دَمْعِي وَمَا الدَّاعِي سِوَى طَلَلٍ دَعَا فَلْبَاهُ قَبْلَ الرُّكْبِ وَالْإِبِلِ
 وَكَانَتِ الْقَصِيدَةُ فِي ذَهْنِهِ وَهُوَ يَنْظُمُ قَصِيدَتَهُ ، كَذَلِكَ رُبَّمَا اسْتَدْعَى مَعَ أَبِي
 الطَّيِّبِ لَامِيَةَ الطُّغْرَانِ عَلَى الْوِزْنِ وَالرَّوْيِ ، وَمَطْلَعُهَا :
 أَصَالَةُ الرَّأْيِ صَالَتْهُنَّ مِنَ الْخَطَلِ وَزِينَةُ الْخَلْمِ زَانَتْهُنَّ لَدَى الْعَطَلِ

(١) ديوان أبي الطيب ، شرح البرقوق ٢ / ١٩٨ .

فأما قصيدة المتنبي فهي في مديح سيف الدولة، بعد أن نهض إليه، وخلع عليه، ويذكر فيها غاراته على الروم . وأما لامية الطغرائي فكانت بعد أزمته وخروجه من الوزارة وعطله .

والمهذب يلم في قصيدته بمضمون قصيدتي الشاعرين الكبيرين السابقين ، وقد ربط بينه وبينهما تشابه المواقف ، والأحاسيس ، وجارى الوزن والقافية .

وقصيدة المهذب لا تقل عن لاميتي الشاعرين صياغة ورصانة ، وإبداع معاني ، وصدق أحاسيس . وقد أجرى المهذب في قصيدته بعض ألفاظ القصيدتين ، ومعانيهما . ولعله من أجل هذا ألح العماد في تعليقه على القصيدة الذي سبق ذكره .

ومن فرائد المهذب في المديح ووصف المعارك ، عن ذكر الأسطول المصري ووقائعه في ثغور الصليبيين بالشام قوله :

أَعْلَمْتُ حِينَ تَجَاوَرِ الْحَيَّانِ	أَنَّ الْقُلُوبَ مَوَاقِدَ النَّيِّرَانِ
وَعَرَفْتُ أَنَّ صُدُورَنَا قَدْ أَصْبَحَتْ	فِي الْقَوْمِ وَهَى مَرَابِضُ الْغَزَلَانِ
وَعَيُونَنَا عَوْضَ الْعَيُونِ أَمْدَهَا	مَا غَادَرُوا فِيهَا مِنَ الْغُدْرَانِ
مَا الْوَحْدُ هَزَّ قَبَائِهِمْ بَلْ هَزَّهَا	قَلْبِي عَشِيَّةً سَارَ فِي الْأَطْعَانِ
وَبِمَهْجَتِي قَمَرٌ إِذَا مَا لَاحَ لِلسَّ	أَرَى تَضَاعَلَ دَوْنَهُ الْقَمَرَانِ
قَدْ بَانَ لِلْعُشَّاقِ أَنَّ قِوَامَهُ	سَرَقَتْ شَمَائِلُهُ غُصُونُ الْبَانِ
وَأَرَاكَ غُصْنًا فِي التَّعِيمِ يَمِيلُ إِذْ	غُصْنُ الْأَرَاكِ يَمِيدُ فِي نَعْمَانِ
لِلرَّمِجِ نَصْلٌ وَاحِدٌ وَلَقْدَهُ	مَنْ نَاطَرِيهِ إِذَا رَنَا نَصْلَانِ
وَالسِّيفِ لَيْسَ لَهُ سِوَى جَفْنٍ وَقَدْ	أَضْحَى لَصَارِمٍ طَرْفُهُ جَفْنَانِ
وَالسَّهْمُ تَكْفَى الْقَوْسُ فِيهِ وَقَدْ غَدَا	مَنْ حَاجِيهِ لِلْحِظَةِ قَوْسَانِ
وَلِرُبِّ لَيْلٍ خِلْتُ خَاطِفَ بَرْقِهِ	نَارًا تَلْفَحُ فِي الدُّجَى يَدُخَانِ
كَالْمَائِلِ الْوَسْتَانِ مِنْ طَوْلِ السُّرَى	جَوْزَاؤُهُ ، وَالرَّاقِصِ السَّكْرَانِ
مَا بَانَ فِيهِ مِنْ ثَرِيَّاتِهِ سِوَى	إِعْجَابِهَا وَالذَّلَالِ فِي الدَّيْرَانِ (١)
وَتَرَى الْجِمْرَةَ فِي النُّجُومِ كَأَنَّهَا	تَسْقَى الرِّيَاضَ بِجَدُولِ مَلَانِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ نَهْرًا لَمَا عَامَتْ بِهِ	أَبْدًا نَجُومُ الْحَوِثِ وَالسَّرَطَانِ

(١) الديوان منزل من منازل القمر .

نَادَمْتُ . فِيهِ الْفِرْقَدَيْنِ كَأَنِّي
وَتَرَفَعْتُ هِمَمِي فَمَا أَرْضَى سِوَى
وَأَنْفَقْتُ حِينَ فَجَعْتُ بِالْأَحْبَابِ أَنْ
وَاِعْتَضْتُ عَنْ جُودِ الْوَزِيرِ مُوَاهِباً
يَقُولُ فِيهَا :

—دون الوري— وَجَذِيمَةُ أَخَوَانِ (١)
شَهَبِ الدُّجَى عَوْضاً عَنِ الْخِلَائِنِ
أَلْهُو عَنْ الْإِخْوَانِ بِالْخَوَانِ
أَسَلْتُ عَنْ الْأَوْطَارِ وَالْأَوْطَانِ

مَا زِلْتُ أَرْضُ الْعِدَا بِلِ ذَاكَ مَا
وَأَقُولُ إِنَّ حَصُونَهُمْ سَجَدَتْ لِمَا
وَالنَّاسُ أَجْدَرُ بِالسُّجُودِ إِذَا عَدَا
وَلَقَدْ بَعَثْتُ إِلَى الْفَرَنْجِ كِتَاباً
لَبَسُوا الدَّرُوعَ وَلَمْ تُخَلِّ مِنْ قَبْلَهُمْ
وَتَيَمَّمُوا أَرْضَ الْعَدُوِّ بِقَفْرَةٍ
عَشْرِينَ يَوْماً فِي الْمَغَارِ وَلَيْلَةً
حَتَّى إِذَا قَطَعُوا الْجَفَارَ (٢) بِمُخْفَلٍ
أَغْرَيْتَهُمْ بِجَمِي الْعِدَا فَجَعَلْتُهُ
عَجَلْتُ فِي تَلِ الْعُجُولِ قِرَاهُمُ
لَمَّا أَبَوَا مَا فِي الْجَفَانِ قَرَيْتَهُمْ
وَتَلَّتْ فِي يَوْمِ الْعَرِيشِ عُروَشَهُمْ
أَلْجَأْتَهُمْ لِلْبَحْرِ لَمَّا لَنْ جَرَى

بِقُلُوبِ أَهْلِهَا مِنَ الْخَفَقَانِ
أَوْتَيْتُ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ سُلْطَانِ
إِلْعَلَّاكَ يَسْجُدُ شَامِخُ الْبُنْيَانِ
كَالاسِدِّ حِينَ تَصُولُ فِي خِفَانِ (٣)
أَنَّ الْبَحَارَ تَحُلُّ فِي غَدْرَانِ
جُرْدَاءَ خَالِيَةٍ مِنَ السَّكَّانِ
يَسْرُونَ تَحْتَ كَوَاكِبِ الْخَرْصَانِ (٤)
هُوَ فِي الْعَدِيدِ وَرَمْلِهِ سَيَّانِ
بِسُطَّاكَ بَعْدَ الْعِزِّ دَارَ هَوَانِ
وَهُمْ لَكَ الضَّيْفَانِ بِالذَّيْفَانِ (٥)
بِصَوَارِيمِ سَلْتُ مِنَ الْأَجْفَانِ
بَشَبَا ضَرَابٍ صَادِقٍ وَطِعَانِ
مِنْهُ وَمِنْ دَمِهِمْ مَعاً بِحِرَانِ

مُدَحِّ الْوَرَى بِالْبَاسِ إِذْ خَضِبُوا الظُّبَا
وَلَأَنْتَ تَخْضِبُ كُلَّ بَحْرِ زَاخِرٍ
حَتَّى تَرَى دَمَهُمْ وَخَضِرَةَ مَائِهِ
وَقَالَ يَصِفُ الْأَسْطُولَ :

- (١) جذيمة الأبرش ملك الحميرة ، كان لتكبره عن الناس لا ينادم إلا الفرقدين كما جاء في الأخبار .
(٢) خفان : مأسدة قرب الكوفة .
(٣) الخرصان : الرماح .
(٤) الخبار كانت تطلق على الصحراء بين العريض ومصر .
(٥) الذيفان : السم .

وكانَ بحرُ الرُّومِ خُلِقَ وجهُهُ وطَفَتْ عليه منابِثُ المَرَجَانِ
ولقد أتى الأسطُولى حينَ غزا بما لم يأتِ في جَينِ من الأحيانِ
أحبَّ إلىَّ بها شوانى أصبَحَتْ من فتكها ولها العداة شوانى (١)
شَبَّهَنَ بِالْغُرَبَانِ فِي أَلْوَانِهَا وَقَعَلَنَ فِعْلَ كَوَاسِرِ الْعُقَبَانِ
أوقرتَها عُدْدُ الْقِتَالِ فقد غَدَتْ فيها القَنَا عوضاً عن الأَشْطَانِ
فأتتكَ مُوقِرَةٌ يَسْبِي بَيْنَهُ أَسْرَاهُكُمْ مَغْلُولَةٌ الْأَذْقَانِ
حَرْبٌ عَوَانٌ حَكَمَتِكَ مِنَ الْعَدَا فِي كُلِّ بَكْرٍ عِنْدَهُمْ وَعَوَانِ
وأعدتْ رُسُلَ ابْنِ الْقَسِيمِ (٢) إِلَيْهِ فِي شَعْبَانِ، كَيْ يَتَلَاءَمَ الشَّعْبَانِ
وَالْفَالِ يَشْهَدُ بِاسْمِهِ أَنْ سَوْفَ يَغْ— لِدُو الشَّامُ وَهُوَ عَلَيْكُمَا قَسَمَانِ

ويصف مقتل البرنس — أحد قادة الصليبيين — ويصف رأسه على الرمح
بمعنى بديع — كقول العماد :

قَتَلَ الرَّئِيسَ وَمِنْ عَسَاةٍ أَعَانَهُ لَمَّا عَتَا فِي الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ
وَأَرَى الْبَرِيَّةَ حِينَ عَادَ بِرَأْسِهِ مُرَّ الْجَنَى يَيْدُو عَلَى الْمُرَانِ (٣)
وَتَعَجُّبُوا مِنْ زَرْقَةٍ فِي طَرْفِهِ وَكَانَ فَوْقَ الرَّحْمِ نَصْلاً ثَانِي
فَلْيَهْنِهِ أَنْ فَازَ مِنْكَ بِسَيْدٍ أَوْفَى بِرَتْبِهِ عَلَى كَيَوَانِ (٤)
قَدْ ضَاغَ مِنْ أُرْمَاجِهِ لِمَسَامِعِ الْأَمِّ سَلَكَ أَقْرَاطًا مِنَ الْخُرْصَانِ
وَالْخَيْلُ تَعْلَمُ فِي الْكَرْهَةِ أَنَّهُ قَدْ خَطَّ هَيْكَلَهَا عَلَى الْفَرَسَانِ
عَجَبًا لَجُودِ يَدَيْهِ إِذْ يَنْتَبِئُ الْعُلَا وَالسَّيْلُ يَهْدُمُ ثَابِتَ الْأَرْكَانِ

وغزل المهذب في معظمه نسيبٌ بدوى الطابع والروح يعتمد فيه إلى العود
للمنودج الجاهل فيقول من رائية رقيقة — على بداوتها :

هَمْ نُصَبُّ عَيْنِي، أَنْجِدُوا أَوْ غَارُوا وَمَتَى فَوَادِي، أَنْصَفُوا أَوْ جَارُوا
وَهَمْ مَكَانَ السَّرِّ فِي قَلْبِي وَإِنْ بَعُدَتْ نَوَى بِهِمْ وَشَطَّ مَزَارُ
فَارَقْتَهُمْ، وَكَأَنَّهُمْ فِي نَاطِرِي مِمَّا تَمَثَّلُهُمْ لِي الْأَفْكَارُ

(١) الشوانى الأول نوع من السفن الحربية في زمانهم ، والثانية من شتا أى حائلون .

(٢) يعنى بابن القسيم نور الدين محمود صاحب دمشق يومئذ .

(٣) المران الرماح .

(٤) كيوان هو نجم زحل عند العرب ويمثلون به في البعد .

تركوا المنازل والديار فما لهم
واستوطنوا البيد فأصبحت
فليث غدت مصر قلاة بعدهم
أو جاوروا نجداً فلي من بعدهم
ألفوا مواصلة الفلا والبيد مذ
بقلائص مثل الأهلة عندما
وكأنما الآفاق طراً أقسمت
والدهر ليل مذ تناعت دارهم

ويقول فيها :

أمنازل الأحباب غيرك البلى
سقياً لدهر كان منك تشابهت
قصرث لى الأعوام فيه فمذ ناوا
يا دهر لا يغرك ضعف تجلدى

إلا القلوب منازل وديار
منهم ديار الأنس وهى قفار
فلهم بأجواز الفلا أمصار
جاران : فيض الدمع والتذكار
هجرتهم الأوطان والأوطار
تبدو ، ولكن فوقها أعمار
ألا يقر لهم عليه قرار
عنى ، وهل بعد النهار نهار ؟

فلنا اعتبار فيك واستيعبار
أوقاته فجميعه أسخار
طالت لى الأيام وهى قصار
إتى على غير الهوى صبار

وله فى الوصف شعر جيد ، وما صور فيه بعض ملاهى عصره من
راقصات ، ومغنيات ومجالس خمر وشراب . فيقول : وقد أبدع وصف
الشموع :

حججتنا بها كعبة للسرور
فطوراً أعانق أغصانها
على عاتق إن خبت شمسنا
وإن ظهرت لك محبوبة
كميت من الراج لكنا
يطوف بها بابلى الجفون
بكأس إذا ما علاها المزاج
كان الحباب وقد قلده
وراقصة رقصها للحنون
ولما طوى الليل ثوب النهار
جلوتنا عرائس مثل اللجين

ترانا نمسح أركانها
وطوراً أنادم غزلانها
فضضنا عن الشمس أدنانها
قرأت بأنفك عنوانها
جعلنا من الروح فرسانها
تفضح خداه ألوانها
أحال إلى التبر مرجانها
در يفصل عقيانها
عروض ثقيد أوزانها
وجرت دياجيه أردادها
صنعنا من النار تيجانها

وصاغت مدامعها حلية
 رماحاً من الشمع تجلو الدجى
 بها ما بأفدة العاشقين
 وقد أشبهت رقباء الحبيب
 وفيها دليل بأن النفوس
 عليها توشح جثائها
 إذا صقل الليل خرسائها
 فليست تفارق نيرانها
 فما يدخل الغمض أجفائها
 من تبقى وتذهب أبدائها
 ومن قوله في الشمعة كذلك :

ومصفرة لا عن هوى غير أنها
 شجوناً وسقماً، واصطباراً وأدمعاً
 إذا جمشتها الريح كانت كمعصم
 وذكر العماد أن من أوصافه في الخمر ما سار واشتهر وهو قوله :

فبت منها أرى النار التي سجدت
 راح إذا سفك الندمان من دمها
 فقل لمن لام فيها إننى كلف
 لها المجوس من الإبريق تسجد لي
 ظلت تفهقه في الكاسات من جذل
 مغرى بها فعل ما أغريت بالعدل

وهو في الوصف ذو خيال مخلق يجلب الصور الغريبة غير المألوفة فيما
 جرت عليه المعاني كذلك الصور والأخيلة الكثيرة التي مرت بنا في مدائحه ،
 وغزله ، ووصفه مجالس اللهو والشراب ومن غرائبها صورة الشموع والخمر .
 فهي على غير مثال سابق . وتحسب من إبداعاته .

وشاعرية المذهب كما شاهدنا دافقة ، فطول النفس ، وانسياب القول في
 سلاسة دون تعقيد ولا تكلف . ولا يعد من أصحاب الصنعة ، وإن اتفق في
 شعره ألوان من صبغ البديع ، فهو قد يستخدم الجناس حلية ، واقتنائاً في
 عرض المعنى ، وقريب منه التوشيح ، وهو البدء بلفظ وختام البيت باللفظ
 نفسه أو مشتقه وجنسه . وهو ضرب من الرباط اللفظي ، يوقر النسق
 الصوتي ، والأحكام المعنوي . ومن هنا سمى توشيحاً لأنه يضم بالصوت
 أفراد المعنى ، كما يضم الوشاح أعضاء الجسم .

ومن أمثلة جناسه في آخر البيت :

قصرث على شكرها منطقاً رطيب اللسان ندى الندى

ولعله اقتضى آثار أُنَى تمام في صنعة الجناس هذه كما قلنا .

ومن صورهِ البديعية ومعانيهِ الطريفة قوله :

وليلةٌ كَاغْتِمَاضِ الطَّرْفِ قَصَرَهَا	وَصَلَ الحَبِيبُ ، وَلَمْ تُقْصِرْ مِنَ الأَمَلِ
بَتْنَا يُجَاذِبُ أَهْدَابَ الظَّلَامِ بِهَا	كَفَّ المَلَامَ وَذَكَرَ الصَّدَّ وَالْمَلَلِ
وَكَلَّمَا زَامَ نُطْقًا فِي مُعَاتَبَتِي	سَدَدْتُ فَأَهْ بِطَيْبِ اللِّثَمِ وَالْقَبَلِ
وَبَاتَ بَدْرٌ تَمَامَ الحَسَنِ مَعْتَنِي	وَالشَّمْسُ فِي فَلَكِ الكَاسَاتِ لَمْ تَقِلِ

ويُجمع قاموس شعرهِ بين ألفاظ الشعر القديم ، ومحدث اللفظ ، ويجرى فيه بعض أسماء النجوم ، والأحجار الكريمة ، ومصطلح العلوم كالكيمياء وغيرها . وتنوع أوزان الشعر في ديوانهِ ، فهو لم يؤثرْاً وزناً على آخر ، وينظم في مجزوءات البحور كغيرهِ أحياناً في مقطعاتهِ أو بعض موضوعات الغزل واللهو والخمر .

وقوافيه محكمة غالباً ، وقد نَبَذَ منه أحياناً إذا طالت القصيدة بعض القوافي ، فتأتى قلقة في موضعها ، أو غير مناسبة . ويعمد أحياناً إلى الضرورة فيتحول اللفظ ، أو يأتي به على غير اشتقاقهِ المعتاد . كما قد يغرب أحياناً في اختيار اللفظ إذا اضطره الوزن .

ويوفر غالباً لتنظيمهِ سِلاسة الإيقاع ، بمراعاة النسق بين أصوات الحروف ومخارجها ، وهو يجمع بين جزالة الصوت ، ورصانة البناء ، والرقّة كل في ما يناسبهِ من المعاني .

عمارة اليمنى^(١)

(ت ٥١٥ هـ — ٥٦٩ هـ)

وهو عمارة بن علي بن زيدان الفقيه .

أصله من زبيد أو مرطان باليمن ، ولد بها سنة ٥١٥ هـ ، وبه تفقه ، ودرس ، وكان شافعي المذهب ، خرج من بلده اليمن سنة ٥٤٩ هـ قاصداً الحج ، ومكث في مكة زمناً اتصل فيها بأميرها قاسم بن هاشم ، وبعثه هذا رسولاً إلى الخليفة الفاطمي الفائز بالقاهرة .

ونشأ نشأة دينية في مكانٍ من أماكن اليمن الممرعة يدعى وادي وساع . قال في النكت « بها المولد والمرنى ، وأهلها بقية العرب في تهامة لأنهم لا يسكنهم حضري ، ولا يناكحونه ، ولا يُجيزُونَ شهادته .. ولذلك سلمت لغتهم من الفساد » .

وكانت أسرة عمارة أسرة سيادة بين قومه ، فقد كان والده سيدهم بعد وفاة عمه وخاله ، وكان كذلك من السادة .

قال : « وتماسكت أحوال الناس بوالدي إلى سنة تسع وعشرين وخمسمائة (٥٢٩ هـ) وفيها أدركت الحلم . قال وخرجت عنها — أي عن بلده — سنة ٥٣٠ هـ ونحن أحسن الناس حالاً وفيها بعض التماسك بسبب مال كانت والدتي ورثته عن أبيها »^(١) .

ويقول : « وفي سنة إحدى وثلاثين دفعت لي والدتي مصوغاتها بألف دينار ، ودفع لي أبي أربعمائة دينار وسبعين ، وذهبت بالمال إلى زبيد » .

ونصحه والداه بأن يتصل في زبيد بالوزير ، ويُنفق المال على نفسه لاصلاح حاله وقال له : لا ترجع حتى تفلح ، فقد احتسبناك عند الله وصيرنا عنك .

قال : « فأنزلني الوزير مسلماً في داره مع أولاده » .

(١) راجع ترجمته في الخريدة شعراء ، ص ١٠١/٣ ، وفيات الأعيان ٤٣١/٣ ، فوات الوفيات مرآة الزمان ٣٠٢/٨ ، وحسن المحاضرة ٤٠٥/١ ، النكت العصرية .

(٢) النكت العصرية ص ٢١ .

ولازم في زبيد الطلب ، وظل أربع سنين لا يخرج من المدرسة إلا للصلاة
يوم الجمعة وفي السنة الخامسة زار والديه ، ورد المصوغ إلى والدته ، فلم يحتج
إليه .

وفي زبيد تلقى أصول الفقه الشافعي ، والفرائض والموارث .
قال : « ولى في الفرائض مُصَنَّف يُقْرَأ في اليمن » .

وفي سنة ٥٣٩ هـ زاره والده وخمسة من أخوته بزبيد ، فأنشده شيئاً من
شعره . فاستحسنه ، وكانت سنة أربعاً وعشرين سنة . وقال له أبوه بعد سماع
شعره : تعلم والله أن الأدب نعمة من نعم الله عليك ، فلا تكفرها بدم الناس .
قال : واستحلفني ألا أهجو مسلماً قط بيت شعر ، فحلفت على ذلك ،
ولطف الله بي فلم أهج أحداً والله المحمود ، ماعداً إنسان هجاني بحضرة الملك
الصالح (طلائع) بيتي شعر ، فأقسم الصالح علي أن أجيبه ففعلت ^(١) .

وعرفنا أن الصالح بن رزيك كان يغري الشعراء بعضهم ببعض في مجلسه .
وخرج عمارة من زبيد إلى مكة كما قلنا حيث أرسله أميرها في سفارة إلى
مصر يقول : « فقدنا — إلى الدولة المصرية — في شهر ربيع الأول سنة
خمسين وخمسائة والخليفة بها يومئذ الفائز بن الظافر ، والوزير له الملك الصالح
طلائع بن رزيك » .

قال : ولما أحضرت للسلام عليهما في قاعة الذهب في قصر الخليفة أنشدتهما
قصيدة أولها ^(٢) :

الحمْدُ للعِيسِ بعد العِزِّ والهِمِّ	حمداً يَقُومُ بما أَوْلَتْ من النِّعمِ
لا أَجْحَدُ الحقَّ، عِنْدِي للركابِ يَدُ	تَمَنُّتُ اللَّجْمُ فيها رُبَّةَ الحَظِّمِ
قَرَّبْنِ بَعْدَ مَزَارِ العِزِّ من نظري	حَتَّى رَأَيْتُ إِمَامَ العَصْرِ من أَمِّمِ
وَرِحْتُ من كَعْبَةِ البَطْحَاءِ والحِزْمِ	وَفَدَا إلى كَعْبَةِ المَعْرُوفِ والكَرَمِ
فَهَلْ دَرَى اليَثُ أَتَى بَعْدَ فُرْقَتِي	مَا سَبَرْتُ من حَرَمٍ إِلَّا إلى حَرَمِ

(١) النكت ص ٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢-٣٣ .

وذكر أن الصالح أعجب بالقصيدة ، واستعاد انشادها منه مراراً ،
والأستاذون ، والكبراء في المجلس يذهبون في الاستحسان كل مذهب . ودفع
الصالح له خمسمائة دينار . قال : « وإذا بعض الأستاذين قد أخرج لي من عند
السيدة الشريفة — عمة الفائز — وبنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار أخرى .

قال : وحملت المال معي إلى منزلي ، وأطلقت لي من دار الضيافة رسوم لم
تُطلق لأحد من قبلي . وتهادتني أمراء الدولة إلى منازلهم للولائم . قال :
واستحضرني الصالح للمجالسة ونظمني في سلك أهل المؤانسة ، وانتال علي
صلاته ، وغمرني بره ، ووجدت بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس
أبا المعالي ابن الجباب ، والموفق ابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء ، وأبا الفتح
محمود بن قادوس ، والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير . وما من هذه الحلقة
أحد إلا ويضرب في الفضائل النفسانية ، والرئاسة الإنسانية بأوفر نصيب .

وبعد أن مكث في صحبة ابن رزيك بقية عام ٥٥٠ هـ غادر مصر إلى مكة
في أخريات السنة إلى مكة ، فعُدن باليمن ، ثم عاد من اليمن إلى مكة مرة أخرى .
وعبر إلى مصر ، فتوقف بقوص ، ويدلو أن عبوره كان عن طريق جدة عذاب
عبر البحر الأحمر .

ومكث بقوص زمناً ، وكانت آنذاك عامرة بالعلم والعلماء . ورحل من
قوص إلى القسطاط وأذن له الملك الصالح بالمثل مرة أخرى بحضرته .

وكان ابن رزيك فيما يرويه عمارة قد غضب عليه لتأخره عنه ، وبرر ذلك
عمارة بأن الحاج المصريين نهوا ذلك العام بالحجاز بواسطة أمير مكة ، فظن
الصالح أن عمارة كان يعلم بذلك إلا أنه اعتذر بأن لا علم له ولا دخل فيما
حدث . وأنشد ابن رزيك قصيدة يبرأ فيها مما ظن به .

وكان مما أغضب الصالح منه ما نقل عن عمارة أنه طعن في مذهب
الإمامية .

ومما استعطفه به قبل أن يصفح عنه قوله في بيتين بعث بهما من قوص :

ولي تحت دار الملك يومان لم تلح	لعيني علامات الكرامة والبشر
وقد أخذت أيام قوص نصيبها	فهل ثقلت تلك السجايا إلى مصر

قال عمارة : فخرج أمره بانزالي وإكرامى . وإيصالي إليه . فأنشدته عند السلام عليه قصيدة أصف فيها وقعة العريش مع الإفريخ ، وأشرت فيها إلى البراءة مما تُسبب إلي من القول في مذهبه منها :

فاعلم وأنت بما أريد مقالة	متى ومن كل البرية أعلم
أنتي حُشدت على مقاتلك التي	من أجلبها في كل أرض أكرم
وبدون ما أسديته من نعمة	سدى الرجال الحاسدون والحموا
إن كان ما قالوا ، وليس بكائين	فأنا امرؤ ممن سعى في الأم
غدر كما اختار الحسود وموقف	ألزمت نفسي فيه ما لا يلزم
كذب وحقك ، لو حلمت بذكره	أقسمت أني بعده لا تحلم
راجع جميل الرأي في نظرة	تضحى عواطفها تسبح وتسبح
فالليل إن أقبلت صبح مُسفر	والصبح إن أعرضت ليل مُظلم
بدأت صنائعك الجميل ومثلها	بأجل من تلك البداية تختم

قال : فزال ما كان عنده ، وعاد إلى أفضل عوائده ^(١) .

وعاد إلى المجلس ، قال وأمرني الصالح بملازمة الخدمة في المجالسة ، والمواكلة والمدح له . وتأكدت الحرمة ، وتضاعفت المزية والاختصاص . وكانت تجرى بحضرته مسائل ومذكرات يأمرني بالخوض مع الجماعة فيها ، وأنا بمعزل عن ذلك لا أنطق بحرف واحد ، حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين في مجلس السمر من ذكر السلف ما اعتمدت عند ذكره وسماعه قول الله عز وجل (فلا تقعد معهم حتى يخوضوا في حديث غيره) . ونهضت فخرجت ، فأدركني الغلمان ، فقلت : حصاة يعتادني وجعها فتركوني ، وانقطعت في منزلي أياماً ثلاثة ، ورسوله كل يوم والطيب معه . ثم ركبته بالنهار فوجدته في البستان المعروف بالمختص في خلوة من الجلساء ، فاستوحش من غيبتى ، وقال : خيراً . فقلت : إنى لم يكن لي وجع ، وإنما كرهت ما جرى في حق السلف وأنا حاضر ، فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت ، وإلا فلا ، وكان لي في الأرض سعة ، وفي الملوك كثرة . فعجب من هذا وقال : سألتك بالله ما الذى تعتقد في أبى بكر وعمر ؟ قلت : أعتقد أنه لولاهما لم يبق الإسلام علينا ولا

(١) النكت ص ٤٣

عليكم . وإنه ما من مسلم إلا ومحبتها واجبة عليه ، ثم قرأت قوله تعالى :
(ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفة نفسه) فضحك . وكان مرتاضاً
حصبياً ، قد لقي في ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم .

وطابت الحياة لعمارة في رحاب الصالح ، واتصل بكثير من أعيان مصر
وأمرائها وكبار رجالها في حياة طلائع وبعد مقتله .

ومن مدحه من رجال الدولة الموفق ابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء .
قال فيه (١) :

إلا تَأَلَّقَ بَارِقٍ بِالْأَبْسَرِ	ما هاج مزنة دمه المتفرق
يَسْرَى الْهَوَى فِي ضَوِيهَا الْمَتَالِقِ	برق يذكرك وميض مباسم
عَافٍ طَرِيقُ رُضَايِهِ لَمْ يُطْرِقْ	من كل تغر منك ثغر مخافة
هَمُّ الْخِيَانَةِ عِنْدَهُ لَا يَزِيدُ	نسج الغفاف عليه ثوب صيانة
رَوْضَ الْحَيَاةِ وَزَهْرَهَا الْمُسْتَشْقِ	سقى لأيام الشباب فإنها
فِي ظِلِّ أَعْصَانِ الشَّابَابِ الْمُورِقِ	أيام يصطحب الغواني والغنى

وله مدائح كثيرة في رجال العصر غيره ، ولما استولى صلاح الدين على
الحكم ، مدحه بقصيدة طويلة يقول فيها :

لنفتة مصلور وأتة موجع	أيا أذن الأيام إن قلت فاسمعي
فلا خير في أذن تئاذي فلا تعي	وعى كل صوت تسمعين نداءة
فقصر من ذرعى ، وقصر أذرعى	تقاصر في خطو الزمان وباعه
وأنزلى بالجور في غير موضعي	وأخرجني من موضع كنت أهله
أقصر من الأوطان جنبي ومضجني	بسيف ابن مهدي ، وانباء فاتلي
ففلتتهما في ظل عيش ممتع	تيممت مصرأ أطلب الجاه والغنى
فأحمد مرتادي ، وأخصب مزبجي	وزرت ملوك النيل أرتاد نيلهم
مواهبه للصنع لا للصنع	وفزت بألف من عطية فائز
سرت بين يقظي من غيون وهجج	وكم طرقتني من يد غاضدية
بما زاد عن عزمي رجائي ومطمعي	وجاء ابن رزيك من الجاه والغنى
فخبرته متى بأكرم نودج	وأوحى إلى سمعي ودائع شيعره

(١) الوالي للصدي ٢٢ / ٣٨٨ .

وكان كما قلنا قد تعرف على جماعة من الأعيان ، مدحهم بشعره ، وذكر في النكت بعضاً ممن مدحهم من هؤلاء ، ومدائحه فيهم ، وما أعطوه من الجوائز . ومن بين هؤلاء الملك العادل رزيك ابن الصالح . وأخوه ، وصهره ، وضرغام وأهله ، وولده ، وشاور وابنه طى . وكانت له مع كل هؤلاء علاقات ، وصدقات ، وقد أولوه رعايتهم ، وأغرقوه بانعامهم من المال ، والجواري والمتاع والخيل ، والدور .

وكان من بين ما أهدى إليه دار لأحدهم على الخليج انتقل إليها بعد سكنه أول الأمر بالفسطاط ثم بدار بالقاهرة انتقل إليها بعد مقتل الصالح ، وقد احترقت داره التي على الخليج ، واحترق فيها كثير من متاعه وشعره .

وكان عمارة يخدم بشعره ، وكان له راتب معلوم على هذه الخدمة ، فطلب من شاور بعد توليه الوزارة أن يعفيه من الخدمة بالشعر . قال في النكت : « رأيته يوماً وقد انشرح صدره ، فقلت له إن لي مدة تنازعني النفس في الحديث معك في حاجة ، وقد عزمتم أن أقولها لك ، فإن قفيتها ، وإلا كنت أبليت عند نفسي عذراً . قال : وما هي ؟ . قلت : تُعفيني من عمل الشعر ، وتنقل الجارى على الخدمة راتباً على حكم الضيافة ، فإني أرى أن التكسب بالشعر والتظاهر به نقيصة في حقي . قال : فما منعك أن تستغنى في أيام الصالح وابنه ؟ . قلت : كانت لي أسوة وسلوة بالشيخ الجليس ابن الحبيب ، وبابن الزبير ، الرشيد والمهذب . وقد انقرض الجيل والنظراء .

قال : تُعفى . ثم أمر بإنشاء سجل بإعفائي ، وأخذ عليه خط الخليفة وخطه بذلك ، فقلت أشكره من قصيدة :

تغدو مهائبه حجاباً دونه ونداه عناً ليس بالمحجوب
سكنت محبته وهيبة بأسيه مناً سوادى ناظر وقلوب .

وكانت خدمته هو وشعراء عصره للخلافة ، والوزراء والكبراء شبه إجبارية لأنهم يتقاضون عليها راتباً . فكان لابد لهم من نظم الشعر في كل مناسبة ، وكان هؤلاء الرسميون في الدولة يطعمون منهم في ذلك ، بل ويتنظرونه ، ويميزون عليه فوق الراتب عطاءً . فالشعراء حينئذ أشبه بالجرائد والصحف اليومية تنشر أنباء الأحداث وأخبار الناس .

ومعظم هذا الشعر الرسمي نظم متكلف متكرر المعاني يخرج بتكلفه عن معنى الشعر والشاعرية . ولا نتوقف منه إلا عند بعض الأجزاء التي انطلقت فيها شاعريته عن إحساس صادق تلقائي ، كالشعر الذي قاله يعبر عن علاقات مودة ، أو امتنان أو وصف لما أعجبه ، وأسعده ، أو ذكر لأشجانه وآلامه وشكواه وحسرتة ويقع في هذه الدائرة مراثيه ، وبخاصة لطلائع بن رزّيك وابنه . وقد كان يكنّ لهما محبة ، ويدين لهما بالكثير مما وصل إليه من مكانة وغنى . ومنه قوله عقب مقتل الصالح :

أفئ أهلك ذا النّادى عليم أسأله	فأتى لى ذاهب اللب ذاهلة
سمعت حديثاً أحسد الصمّ عنده	ويذهل واعي ، ويخرس قائلة
فقد رابى من شاهد الحال أننى	أرى الدّست منصوباً وما فيه كافلة
وأنى أرى فوق الوجوه كآبة	تدل على أن الوجوه ثوايلة
دعوى فما هذا بوقت بكائه	سيأتىكم طل البكاء ورايلة
ولم لا نبيك ونندب فقدّه	وأولادنا أيتامه وأراملة
فيا ليت شعرى بعد حُسن فعّاله	وقد غاب عنا ما به الدهر فاعلة

ويقول :

تنكّذ بعد الصّالح الدهر فاغتدت	مجالس أيامى وهن غيوب
أيجذب خدى من ربيع مدايعى	وربعى من نغمى يديه خصيب
وهل عنده أن الدخيل من الجوى	مقيم بقلبي ما أقام عسيب
وإن برقت سننى لذكر حكاية	فإن فؤادى ما حيث كئيب

وظل كئيباً بعده ، وإن ضحكت سنه مع من لازم من الوزراء الذين تقلبوا على الوزارة في هذه المرحلة المضطربة من تاريخ الفاطميين . فقد كثر فيها الطامعون واقتل الأعوان واغتال الخدم والأصحاب بعضهم بعضاً . لقد شارك خضير غام في قتل ابن الصالح ، وكان من أقرب أعوان أبيه طمعاً في الوزارة ، وقتل ضرغام ، وتولى شاور ، وقتل ابن شاور ثم قتل شاور بعد تغلب الغر من رجال نور الدين وصلاح الدين .

واضطّر عمارة أن يجارى الأحداث ، وأن يداهن أحياناً ، لكنه ظلّ على ولائه للفاطميين ولطلائع وابنه وعشيرته حتى مقتله بأمر صلاح الدين ، وكان وفاؤه سبباً في نهايته المؤلمة .

لقد مدح صلاح الدين ، ومدح أباه نجم الدين ، وأخاه وعشيرته ، ومدح نور الدين محمود ، لكنّ هذا المديح لم يحمل حرارة الصدق ، وإن شارك هؤلاء في المذهب ، فقد كانوا شافعية سنّة ، وكان هو شافعيّاً سنّياً ، وكان ابن رزيك إمامياً متعصباً . ومع ذلك فقد كان شعره فيه وفي التحسر على الدولة بعد سقوطها وعزل الخليفة العاضد شعراً صادقاً ، لا صنعة فيه ولا تكلف . وقد ذكر له المؤرخون ذلك وأشادوا به .

قال ابن واصل (١) : « وكان عمارة شديد التعصب لهم — أى الفاطميين ، لأنه قدم عليهم من اليمن فأحسنوا إليه ، وتولّوه ، فرعى ذلك ووفى لهم ، والإنسان كما قيل صنّعة الإحسان . ولم يكن على مذهبيهم ، وإنما كان شافعيّاً سنّياً ، فلما زال أمرهم رثاهم بأحسن الشعر ، وذبح عنهم باللسان إذ لم يمكنه الذبح عنهم باليد . ثم لما تحرك جماعة في عود الأمر إليهم كان من جملة المساعدين على ذلك شكرا لهم على إحسانهم إليه ، فأدّى به ذلك إلى أن شئق .. فمن جملة قوله فيهم يرثيهم قصيدة ذكرتها بجملتها لفرط حسنها . وهي (٢) :

وَجِيده بعد حُسْنِ الحَلْيِ بالعَطَلِ	رَمَيْتْ يا ذَهْرُ كَفِّ الجَدِّ بالشَّلَلِ
قَدَرْتُ من عَثَرَاتِ الدَّهْرِ فَاسْتَقِلِ	سَعَيْتْ في مَنَهِجِ الرَّأْيِ العُثُورِ فَإِنْ
يُنْفَلُ بَيْنَ أَمْرِ الشَّيْنِ وَالْحَجَلِ	جَدَعْتَ مَارِئَكَ الآقَتِي ، فَانْفَلْ لا
سُقَيْتْ مُهْلًا ، أَمَا تَمْشِي على مَهَلِ	هَدَمْتَ قَاعِدَةَ المَعْرُوفِ عن عَجَلِ
على فَجِيعَتِها في أَكْرَمِ التَّوَلِ	لَهْفِي وَلَهْفَ بَنِي الآمالِ قاطِبَةَ
من المَكَارِمِ ما أَرَى على أَمَلِي	قَدِمْتُ مِصرَ فَأَوْلَانِي خَلائِفُها
كأَلْها أَنها جَاءَتْ وَلَمْ أَسْأَلِ	قَوْمَ عَرَفْتُ بِهِمُ كَسْبَ الأَلُوفِ وَمَنْ
رَأْسُ الحِصَانِ بهادِيهِ على الكَفَلِ	وَكُنْتُ من وَزَرِ الدَّسِيسَةِ حينَ سَمَا
وَحُلَّةَ حُرَيْسَتْ من عَارِضِ الخَلَلِ	وَنِلْتُ من عَظَمَاءِ الجَيْشِ تَكْرِمةً

(١) مفرج الكرب ١/ ٢١٢ .

(٢) مفرج الكرب ١/ ٢١٢ .

يَا عَاذِلِي فِي هَوَىٰ أَبْنَاءِ فَاطِمَةَ
 بِاللَّهِ زُرْ سَاحَةَ الْقَصْرَيْنِ وَأَبْكَ مَعِي
 وَقُلْ لِأَهْلِيهِمَا : وَاللَّهِ مَا التَّحَمُّتُ
 مَاذَا تُرَى كَانَتْ الْإِفْرَنْجُ فَاعِلَةٌ
 هَلْ كَانَ فِي الْأَمْرِ شَيْءٌ غَيْرَ قَسَمَةٍ مَا
 وَقَدْ حَصَلْتُمْ عَلَيْهَا وَاسْمُ جَدِّكُمْ
 مَرَرْتُ بِالْقَصْرِ ، وَالْأَرْكَانُ خَالِيَةٌ
 فَمَلْتُ عَنْهَا بَوَاجِهُ ، خَوْفٌ مِّنْتَقِيدٍ
 أَسْبَلْتُ مِنْ أَسْفِدٍ مَعِي غَدَاةٌ خَلَّتْ
 أَبْكَى عَلَى مَأْتِرَاتٍ مِنْ مَكَارِمِكُمْ
 دَارُ الضِّيَافَةِ كَانَتْ أَنْسَ وَإِذْكُمْ
 وَفَطْرَةَ الصَّوْمِ إِنْ أَصْنَعْتُ مَكَارِمَكُمْ
 وَكَسَوَةَ النَّاسِ فِي الْفَصْلَيْنِ قَدْ دَرَسَتْ
 وَمَوْسَمٌ كَانَ فِي يَوْمِ الْخَلِيجِ لَكُمْ
 وَأَوَّلُ الْعَامِ وَالْعِيدَيْنِ كَمْ لَكُمْ
 وَالْأَرْضُ تَهْتَرُ فِي يَوْمِ الْقَدِيرِ كَمَا
 وَالْخَيْلُ تُعْرَضُ فِي وَشَى وَفِي شَيْءٍ
 وَمَا خَمَلْتُمْ قَرَى الْأَضْيَافِ مِنْ سَعَةٍ
 وَمَا خَصَصْتُمْ بِيَرِّ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ
 كَانَتْ رَوَاتِبِكُمْ لِلْوَافِدِينَ وَلِلضَّيِّفِ
 ثُمَّ الطَّرَازُ بِنْتِيسَ الَّذِي عَظُمَتْ
 وَلِلْجَوَائِعِ مِنْ أَحْيَاسِكُمْ نَعَمْ
 وَرُبَّمَا عَادَتْ الدُّنْيَا فَمَعْقِلُهَا
 وَاللَّهُ لَا فَازَ يَوْمَ الْحَشْرِ مِبْغِضِكُمْ
 وَلَا سَقَى الْمَاءِ مِنْ حَرٍّ وَمِنْ ظَمَلٍ
 وَلَا رَأَى جَنَّةَ اللَّهِ الَّتِي خُلِقَتْ
 أُمَّتِي وَهْدَاتِي ، وَالذَّخِيرَةَ لِي
 تَاللَّهِ لَمْ أُؤْفِقْهُمْ فِي الْمَذْجِ حَقَّهُمْ
 وَلَوْ تَضَاعَفَتْ الْأَقْوَالُ وَاسْتَبَقَتْ

لَكَ الْمَلَامَةُ إِنْ قَصَّرْتَ فِي عَذْلِي
 عَلَيْهِمَا ، لَا عَلَى صَفِينِ وَالْجَمَلِ
 فَيْكُمْ جُرُوحِي ، وَلَا تَقْرَحِي بِمُنْدِيلِ
 فِي نَسْلِ آلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ ؟
 مَلَكْتُمُونِ حُكْمَ السَّيِّئِ وَالْثَغْلِ
 مُحَمَّدٌ ، وَأَبُوكُمْ خَيْرٌ مُتَّعِلِ
 مِنَ الْوَفُودِ ، وَكَانَتْ قَبْلَةَ الْقَبْلِ
 مِنَ الْأَعَادِي ، وَوَجْهُ الْوُدِّ لَمْ يَبْلِ
 رَحَابِكُمْ ، وَغَدَتْ مَهْجُورَةُ السَّيْلِ
 جَالُ الزَّمَانِ عَلَيْهَا وَهِيَ لَمْ تُحِلْ
 وَالْيَوْمَ أَوْحَشُ مِنْ رَسْمٍ وَمِنْ طَلَلِ
 تَشْكُو مِنَ الدَّهْرِ أَضْيَافًا غَيْرَ مَحْتَمِلِ
 وَرَثَ مِنْهَا جَدِيدٌ بَعْدَهُمْ وَبَلِي
 يَأْتِي تَجْمُلُكُمْ فِيهِ عَلَى الْجَمَلِ
 فَيَهِنُ مِنْ وَبْلِ جُودٍ لَيْسَ بِالْوَشْلِ
 يَهْتَرُ مَا بَيْنَ قَصَرَيْكُمْ مِنَ الْأَسْلِ
 مِثْلُ الْعَرَائِسِ فِي حَلَى وَفِي حُلَى
 الْأَطْبَاقِ إِلَّا عَلَى الْإِكْتِافِ وَالْعَجَلِ
 حَتَّى عَمِمْتُمْ بِهِ الْأَقْصَى مِنَ الْمَلَلِ
 فِي الْمَقِيمِ ، وَلِلطَّارِي مِنَ الرُّسُلِ
 مِنْهُ الصَّلَاتُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ وَاللُّوْلِ
 لِمَنْ تَصَدَّرَ فِي عِلْمٍ وَفِي عَمَلِ
 مِنْكُمْ ، وَأَضْحَتْ بِكُمْ مَحَلُولَةُ الْعَقْلِ
 وَلَا نَجَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ غَيْرُ وَلِي
 مِنْ كَفِّ خَيْرِ الْبَرَائِ خَاتَمِ الرُّسُلِ
 مِنْ خَانَ عَهْدِ الْإِمَامِ الْعَاضِدِ بْنِ عَلِي
 إِذَا ارْتَهَنْتُ بِمَا قَدَّمْتُ مِنْ عَمَلِ
 لِأَنَّ فَضْلَهُمْ كَالْوَابِلِ الْهَاطِلِ
 مَا كُنْتُ فِيهِمْ بِحَنِيدِ اللَّهِ بِالْحَاجِلِ

بَابُ النِّجَاةِ، فَهَمَّ دُنْيَا وَآخِرَةً وَحَيْثُ هُمْ فَهُوَ أَصْلُ الدِّينِ وَالْعَمَلِ
نُورُ الْهَدْيِ وَمَصَابِيحُ الدُّجَى وَمَحْ—
أُمَّةٌ خَلَقُوا نُورًا، فَنُورُهُمْ مِنْ نُورِ خَالِصِ نُورِ اللَّهِ لَمْ يَقُلْ
وَاللَّهُ لَا زِلْتُ عَنْ جَبِّي لَمْ أَبْدَأْ مَا أَثَّرَ اللَّهُ لِي فِي مُدَّةِ الْأَجَلِ

قَالَهَا عِمَارَةٌ وَهُوَ فِي دَوْلَةٍ مُعَادِيَةٍ قَامَتْ بِعِزْلِ آخِرِ خُلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ، وَيَعْلَمُ
أَنَّهُ سَيَقْتُلُ جِزَاءَ قَوْلَةِ الْوَفَاءِ. وَقَدْ أُلْحِجَ إِلَى ظُلْمِ صَلَاحِ الدِّينِ لِلْعَاضِدِ وَابْنَائِهِ
وَعَشِيرَتِهِ، وَمَا نَهَبَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَمَتَاعِهِمْ وَفَرَّقَ عَلَى أَخْوَةِ صَلَاحِ الدِّينِ
وَأَهْلِهِ، وَبَعَثَ بَعْضَهُ إِلَى نُورِ الدِّينِ.

وَهَذِهِ الْقَصِيدَةُ وَالْقَصِيدَةُ الْآخَرَى الَّتِي مَدَحَ بِهَا صَلَاحِ الدِّينِ أَوْ تَظَاهَرَ
بِمَدْحِهِ وَالَّتِي ذَكَرْنَا مِنْهَا أَيْتَاتٍ لَمْ يَخْلُهَا مِنْ غَمَزٍ وَلِزٍّ وَسَمَاهَا «شِكَايَةُ الْمُنْتَظَمِ»،
وَنَكَايَةُ الْمُنْتَظَمِ. يَقُولُ فِيهَا ذَاكِرًا فَضْلَ الْفَاطِمِيِّينَ وَرِجَالِهِمْ، وَدَاعِيَا صَلَاحِ
الدِّينِ أَنْ يَرْفُقَ بِهِمْ وَيَمْنُ لَاذِ بِهِمْ فَيَقُولُ:

مَلُوكٌ رَعَوْا إِلَى حَرَمَةٍ صَارَ نَبْتُهَا
وَرَدَّتْ بِهِمْ شَمْسُ الْعَطَايَا لَوْغَدَهُمْ
مِزَاجُهُمْ فِي الْجُودِ مَذْهَبُ سُنَّةِ
فَقُلْ لِّصَلَاحِ الدِّينِ وَالْعَدْلِ شَأْنُهُ
سَكْتُ فَقَالَتِ نَاطِقَاتُ ضُرُورَتِي
فَإِذْ لَلْتُ إِدْلَالَ الْحَبِّ وَقُلْتُ مَا
هَشِيمًا رَعَتْهُ النَّائِبَاتُ وَمَا رُغِي
كَأَنَّ قَوْمَ فِي عَلِيٍّ وَيُوشَعِ (١)
وَلَنْ خَالِفُونِي فِي اعْتِقَادِ التَّشْيِيعِ
مَنْ الْحَاكِمُ الْمُصْغِي إِلَيَّ فَادْعِي؟
إِذَا خَلَقْتُ الْبَابَ غُلَقْنِ فَاقْرَعِ
أَتَانِي بِعَفْوِ الطَّبِيعِ لَا بِالتَّطْبِيعِ

وَيَقُولُهُ مُخَاطِبًا صَلَاحِ الدِّينِ:

فِيَا رَاغِي الْإِسْلَامِ كَيْفَ تَرَكْتَنَا
دَعُونَاكَ مِنْ قَرَبٍ وَبَعِيدٍ فَهَبْ لَنَا
وَيَقُولُ:

أَلَمْ تَرَعْنِي لِلشَّافِعِيِّ فَإِنَّهُ
وَنَصْرِي لَهُ فِي حَيْثُ لَا أَنْتَ نَاصِرِي
أَجَلٌ شَفِيعٌ عِنْدَ أَعْلَى مُشَفِّعِ
بِضَرْبِ صَقِيلَاتٍ وَلَا طَعْنِ شَرِّعِ

(١) وَيُوشَعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي دَعَا رَبَّهُ أَنْ يُؤَخِّرَ غُرُوبَ الشَّمْسِ

ليالي لا وقت العراق بسجسج بمصر ، ولا ربح الشام بزعرع
كأني بها من آل فرعون مؤمن أصارع عن ديني وإن حان مصرعي
حتى ينتهي إلى هذا الرجاء الذي يطلب إليه أن يحفظ عليه نفسه ، وأن
يعامله معاملة كريمة تليق بمكائنه ، وألا تناله نغمته على الفاطميين .

فيازارع الاحسان في كل تربة ظفرت بأرض ثبت الشكر فازرع
وقد صورت في طي ذا النظم رقعة غدا طمعي فيها إلى غير مطمع
أريد بها إطلاق ديني وراتبي فاطلقهما والأمر منك فوقع
ويختمها بقوله :

إلى ها هنا أتمى حديثي وانتهى وما شئت في حق من الخير فاصنع
وكان تعليق الصفدي على هذه القصيدة التي تبدو في ظاهرها مدحاً إلا أنه
مدح مطوئ على الذم ، ورجاء مغلف بالضيق والهجاء . قال الصفدي (٢) :
« الذي أظنه وتقضى به المعيتي أن هذه القصيدة كانت أحد أسباب شنقه ،
والله أعلم ، لأن الملوك لا يخاطبون بمثل هذا الخطاب ، ولا يواجهون بهذه
الالفاظ ، وهذا الإذلال الذي يؤدي إلى الإذلال . وأظن أن هذه القصيدة ما
أجدت شيئاً .

قال الصفدي : فمال عمارة حيثذ وانحرف ، وقصد تغيير الدولة — والله
أعلم ، وكان من أمره ما كان . وعلى الجملة فقتل مثل هذا الفاضل قبيح من
الفاضل إن كان ذلك عن رأيه » .

والصفدي ينتقد صلاح الدين والقاضي الفاضل الذي أشار بقتله ولم يشفع
له وقد عرف فضله أكثر من غيره لمعرفته به في دولة الفاطميين حين كان
الفاضل يعمل في ديوان الإنشاء مع ابن الخلال .

وهكذا قضى الفقيه الشاعر نخبه مقتولاً مصلوباً جزاء وفائه ، وصراحته .

وشعر عمارة : بعد هذا لا يحتاج إلى إيضاح أو تعليق ، فهو صورة
لحياته ونفسيته ، وسجل لأحداث عصره ، يصوغه متدققاً ، لا يصنعه ، فأثار
الصنعة قليلة به .

(١) الواقي ٢٢ / ٣٩٣

ويجربى فيه على انعطاف الجزل ، لا يلين في لفظه ، ويبدع أحياناً في معانيه وإن لم يخرج به عن المعاني التقليدية . وجمال شعر عمارة في صدقه وانطلاقه وينم عن مقدرته وثقافته ، وسعة اطلاعه .

ومن بديع معانيه التي جدد فيها معاني سابقه قوله :

ما هاج مزنة دمه المتفرق	إلا تالت باري بالأبرق
برق يذكركني وميض مباسم	يسرى الهوى في ضوئها المتألق
في كل ثغر منك ثغر مخافة	عاف ، طريق رضاءه لم يطرق
نسج العفاف عليه ثوب صيانة	هم الخيانة عنده لا يرتقي

وقوله وقد أحال المعنى في الأطلال بصنعة إلى جديد طريف :

بات يرعى السهى بطرف مورق	وفؤاد من الغرام محرق
ليت أيامه السوالف يرصف	من ، ويجمعن طيب عيش مفرق
دمن أنبت الجمال ثراها	ورعى الشوق غصنها حين أورق
فتح الطلل زهرها وتولى	نشرة راحة النسيم الذي رقى

والمتبع لشعره في أوله أيام كان في بلده اليمن أو في أوليات حياته بمصر ، ثم شعره بعد أن أقام بين المصريين وطالت إقامته ، وعاش الحياة في القاهرة والفسطاط والاسكندرية وشرب من النيل ، وتنقل في ربوع مصر وخالط أهلها يجد فرقاً بين أوله وآخره ، فقد اكتسب كما قال بعضهم فيمن جاء إلى مصر حلاوة النيل ، ولطفا ورقة من شمائل المصريين .

أبو الفتح من شعراء الصحنه الصالحية ، جلساء ابن رزيك ، عمل بديوان الإنشاء وكان من كتبه المروقيين ، وقيل إن القاضي الفاضل أخذ عنه . وأصله من دمياط ، وكان أبوه يعمل بها .

وكان القاضي الفاضل يعظمه ويسميه (ذو البلاغتين) يعني في الشعر والنثر قال ابن شاعر : « وكان لا يتمكن من اقتباس فوائده غالبا إلا في ركوبه من القصر إلى منزله ، ومن منزله إلى القصر ، فيسايره ويجاريه في فنون الإنشاء والأدب » .

وفي شعر ابن قادوس الذى اختاره العماد وابن شاکر يغلب طابع شعر الكتاب ومعظمه مقطعات ، ويدور فى موضوعات الغزل ، والهجاء ، والمدح والوصف من مثل قوله فى الغزل (٢) :

دياج خذْه بسندس عارضيه مَقْرُورٌ
وبخذه خالٌ لدا ثرة الملاحة مركزُ
وكقوله :

مَنْ عَازَى مِنْ عَازِلٍ يَلُومُ فِي حُبِّ رَشَا
إِذَا حَجَّدَتْ حُبُّهُ قَالَ كَفَى بِالدمعِ شَا

يعنى كفى بالدمع شاهداً ، وهذا ضرب من البديع ابتدعه بعض الشعراء المتأخرين ويقول فى رسالة حبيب :

مِدَاوَةٌ فِي الطَّرْسِ لَمَّا بَدَا
قَبْلَهُ الصَّبُّ وَمِنْ يَرْهَدُ
كَأَنَّمَا قَدْ حُلَّ فِيهِ اللَّمَى
أَوْ ذَابَ فِيهِ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ

ويقول (٣) :

(١) ترجم له العماد بالخريذة قسم شعراء مصر ١/ ١٢٧.

واہن شاكر فى فوات الوفیات ٤ / ١٠٠ .

(٢) فوات الوفيات ٤ / ١٠١ .

(٣) الخريدة ١ / ١٢٨ .

وليلة كاعتراضي الطرف قصرها
بتنا يجاذب أطراف الظلام بها
وكلما زام نطقاً في معاتبي
وبات بدر تمام الحسن معتقى
وصل الخيب، ولم تقصّر عن الأمل
كف الملام وذكر الصد والملل
سدّدت فاه بطيب اللثم والقبل
والشمس في فلك الكاسات لم تقل (١)

وله قصيدة اختارها العماد في المديح لعلها في الأفضل أو طلائع بن رزيك ،
بدأها متغزلاً غزلاً حضرياً ، لم يذكر فيه الديار ولا الأطلال ، ولا الظعن ، ولم
يورد ألفاظاً بدوية مما اعتاده بعض الشعراء ممن ذكرنا من معاصريه ، ينتهي منه
إلى المديح ليقول :

يا من تساوت في العلا أقسامه
أرض سعت قدماك فيها لم تزل
ونذاك كل مؤمل ما أملاً
ملك يلاقي الطيف وهو مذرّع
وسما بهمه فكان الأفضل
لذوى الممالك قبله ومقبلاً
إلا تجهم للعفاة وأملاً
حزماً ، ويقتض الفوارس أغزلاً
ومن مديحه قوله :

ملك تذل الحادثات لعزه
وكم كربة يوم التزالي تكشفت
تشيد بناء الحمد والمجد بيضه
رفاق الطبا تجرى بأجال ذي الوري
يُعِدُّ ويُنْدِي والليالي زواغم
بحملاته وهي الغواشي الغواشم
وهن لآساس الهواذي هواجم
وأرزاقهم ، فهي القواسي القواسم

ومما هجا به الرشيد بن الزبير في مجلس طلائع قوله :

إن قلت من نار خلقت ، وفقت كل الناس فهما
قلنا صدقت فما الذي أطفأك حتى صيرت فجما
وقد يفحش في هجائه فيقول في أحدهم واسمه ابن العلاءي المعري وكان
شاعراً :

هذا ابن علا نيكُم شِعْرُهُ
إن لم يكن مثل امرئ القيس في
ينوب في الصيف عن الخيش
أشعاره فهو امرؤ الفيش
ويستخدم التجنيس في هذه النكتة القبيحة .

(١) سبقت سبة الأبيات للمهذب ، وربما اختلطت أشعارهما عند الرواة ، وهي بطريقة المهذب أشبه

وقال في هجاء شاعر :

لو كان يُتَصَفَّ حين يُتَشَرَّدُ شِعْرُهُ وسط القَلَا
صفعوه عِدَّةَ كُلِّ حَرْفٍ فِيهِ لَكِن جُمْلًا
أى ما يساويه كل حرف من حساب الجُمْل .

ومن تطرقه على هذا النحو :

ابن فلان رجلٌ صالحٌ فامتحنوه واقبلوا رأيي
إرموه في البحر لكي تنظروا فإِنَّه يمشى على الماءِ

وله في هجاء رجلٍ كبير الأنف متظرفا :

عليك لا لك أنْفٌ ظلَّ مشرفًا حتَّى غدا بنجوم الأفقِ مُلتصِفًا
فلا تُقَلِّ خَلْقَةَ اللَّهِ. اِرْتَدَّيْتُ بها فقد يُعَاذُ به من شرِّ ما خلَقا

فتعجب كيف وَظَّف الآيَةَ القرآنية في السخرية من أنف الرجل .

وكان يقصد زميله وجليسه الكاتب القاضي الجليس ابن الحباب ، فقد كان
معروفًا بكبر انفه مما أغرى بعض الشعراء بالسخرية منه .

القاضي الجليس ابن الجباب (ت سنة ٥٦١ هـ)

أبو نفعان عبد العزيز بن الحسين بن جباب الأغلبى السعدى التميمي من سبط الأغلبية أمراء أفريقية تولى ديوان الإنشاء للخليفة الفاتح مع ابن الخلال . وكان من جلساء طلائع بن رزيك . وكان مشهوراً بكر أنفه مما جعله مادة لتندر الشعراء . وكثيراً ما كان طلائع يُغريهم به كعادته في إغراء الشعراء بعضهم ببعض . ولقب بالجليس لمجالسته الخلفاء . والجباب لأنه كان يجلس في سوقهم (يعنى سوق الجباب) .

قال عنه العماد^(١) : « جليس صاحب مصر فضله مشهور ، وشعره منهور وقد كان أوحده عصره نظماً ونثراً ، وترسلاً وشعراً » .

وذكر عمارة أنه ذهب إلى اليمن في سفارة

قال الصفدى : وسمى الجليس لأنه كان يعلم الظافر وأخويه أولاد الخافظ القرآن الكريم والأدب ، وكان عادتهم يستنون مؤدبهم الجليس .

وشعره كشعر ابن قادوس ، وابن الخلال ، غالبه مقطعات كشعر الكتاب ويغلب عليه الصنعة ورقة اللفظ . ومن صنعته في المديح قوله :

ومن عجب أن السيوف لديهم تحيض دماء . والسيوف ذكور
وأعجب من ذا أنها في أكفهم تأجج ناراً ، والأكف بحور

ومن شعره المصنوع قوله متهمكا بطبيب :

وأضلي بليتي من قد غزاني	من السقم الملاح بعسكرين
طبيب طبه كغراب يئن	يفرق بين عاطفتي وبينى
أنى الحمى وقد شاخت وبأخت	فرد لها الشباب بنسختين
ودبرها بتدبير لطيف	حكاه عن سئين أو حنين
وكانت نوبة في كل يوم	فصيرها بحذقي نوبتين

(١) ترجمته في الخريدة ١/ ١٨٩ شعراء مصر والنك المصرية عمارة . والواق ح ١٨ ٤٧٣
نوات الوفيات لابن شاكر ٢٧٨ . النجوم الزاهرة د ٢٩٢

(٢) الخريدة ١/ ١٨٩

ومن صنعته في الغزل قوله :

رَبِّ يَبْضُ سَلَلَنَ بِاللَّحْظِ يَبْضًا مَرْهَفَاتٍ جَفَوْنَهُنَّ جُفُونُ
وخلودٍ للدمع فيها خلود وعيون قد فاضَ منها عيون
وقوله :

حَبْدًا مِيعَةً الشَّبَابِ الَّتِي يُغْف لَذَرُ فِي حُبِّهَا الْخَلِيعُ الْعِذَارِ
إِذْ بَذَاتِ الْجِمَارِ أَمْتَعُ لَيْلِي وَبَذَاتِ الْجِمَارِ أَلْهُو نَهَارِي
وَالْغَوَانِي لَا عَنْ وَصَالِي غَوَانٍ وَالْجَوَارِي إِلَى جَوَارِي جَوَارِي

قال العماد : وقال وقد جمع ثمانى تشبيهات في بيت واحد :

بدا وأرانا منظرًا جامعًا لما تفرَّق من حسن على الخلق مُوزِنًا
أَقْحًا ، وَرَاحًا تَحْتَ وَرْدٍ وَنَرَجِس وَلَيْلًا وَصَبْحًا فَوْقَ غَصْنٍ عَلَى نَقَا
لعله أراد ثمانى استعارات ، فالمشبه هنا مطوًى غير مذكور .

وربطت بينه وبعض الشعراء من أصحاب طلائع مودة . ومنهم المهذب
ونقل له العماد أبياتاً كتبها إليه مع طيب أهدها :

بَعَثْتُ عِشَاءً إِلَى سَيِّدِي بِمَا هُوَ مِنْ خَلْقِهِ مَقْتَبَسُ
هَدِيَّةَ كُلِّ صَاحِبِ الْإِخَاءِ جَرَى مِنْهُ وَدَكَ مَجْرَى النَّفْسِ
فَعَجَدُ بِالْقَبُولِ وَأَيُّقُنُ بَأَنِّ لَقَرِطِ الْحَيَاءِ أَثَثَ فِي الْقَلَسِ

كما حدثت بينه وبين بعضهم نفرة ، فقد هجأ عمارة بيتين يقول فيهما :
وَكَمْ فِي زَيْدٍ مِنْ فَقِيهِ مُصَدِّر وَفِي صَدْرِهِ بِحَرٍّ مِنَ الْجَهْلِ مُزِيدُ
إِذَا ذَابَ جِسْمِي مِنْ حَرِّ بِلَادِكُمْ عَلِقْتُ عَلَى أَشْعَارِكُمْ أَتَبَرُّدُ
يذم شعر عمارة ، ويصفها بالبرود .

وهجاه بعض الشعراء ومن بينهم من يُسَمِّي ابن الصياد ، فقد أغرى بأنفه
الكبير وأكثر من السخرية منه . ودافع عنه صاحبه ابن قادوس فقال :

يَا مَنْ يَعِيبُ أَنْوَفَنَا أَلِ شَمُّ الَّتِي - لَيْسَتْ ثُعَابُ
الْأَنْفُ خَلَقَهُ رَبُّنَا وَقَرُونُكَ الشَّمُّ اكْتَسَابُ

ونقل العماد شعراً له في طلائع بمناسبة وقعة عباس وابنه نصر في مقتل
الخليفة الظافر وبعض أخوته وعمه يستنفره . يقول :

فأين بنو رزّيك عتّا ونصرهم وما هم من منعة وزياد
فلو عايت عينك بالقصر يومهم ومصرعهم لم تكتحل برقاد
تدارك من الإيمان قبل دثوره حشاشة نفس آذنت بنقاد
فمزق جموع المارقين فإنها بقايا زروع آذنت بحصاد

وبعث بشعر له مع خصلات شعر بعض نساء القصر .

ويشير إلى نهوض ابن رزّيك من الصعيد إلى القاهرة لملاقاة عباس وابنه
وفرار هذا لعدم قدرته على المواجهة إلى الشام . قال الجليس :

ولما ترامى البربري بجهله إلى فتكة ما رامها قط رائم
ركبت إليه متن عزمك التي بأمثالها تلقى الخطوب العظام
وقدّت له الجرّد الجياد كأنما قوائمها عند الطراد قوادم
وتنصل منها والعجاج خضابها هواد لأركان البلاد هوادم
تجافت عن الماء القراح فريها دماء العدى فهي الصوادي الصوادم
وقمت بحق الطالبين طالبا وغيرك يفضي دونه ويسالم
أعدت إليهم ملكهم بعدما لوى به غاصب حق الأمانة ظالم
فما غالب إلا ونصرك غالب وما هاشم إلا وسيفك هاشم
فأذرك بثار الدين منه ولم تزل عن الحق بالبيض الرقاق ثمخاضم

وقال يمدحه :

سُيُوتُكَ لا يُقَلُّ لها غِرارُ فنوم المارقين بها غِرارُ
يُجَرِّدُهَا إذا أخرجت سُخْطُ على قوم ويغمدُها اغتفارُ
طريدك لا يفوتك منه نازر وخصمك لا يُقال له عثارُ

فمر يا صالح الأملاك فينا بما تختارُهُ ، فلَكَ الخيارُ
فقد شفعت إلى ما تبتغيه لك الأقدارُ والفلَكُ المدارُ
ولو نوث النجوم له خلافاً هَوَتْ في الجوّ يذروها انتشارُ
وله غزل حضريّ مثل قوله :

داح فجلاؤه مُحْيَاهُ
والبدْر لا يُكْتَمُ مَسْرَاهُ
كما وشى بالملك رِيَاهُ

زار وجنح الليل محلولك
مُلْتَمِثاً يَئِدِيهِ لَأَلَاؤُهُ
نَمَّ عَلَيْهِ طِيبُ أَنْفَاسِهِ

وقوله :

فكسَاهُ لَوْنُ الْحَزَنِ مِنْ أَزْهَارِهِ
خَذِيهِ لَا يُطْفِئُ تَلْهُبُ نَارِهِ
نَارِ الْحَشَاءِ وَتَزِيدُ فِي اسْتِعَارِهِ
وَإِذَا انْتَشَى فَالْطَّرْفُ فِي آثَارِهِ
وَجَوَانِحِي لِلْحَيْنِ مِنْ أَنْصَارِهِ

قد طرّزت وجنّاته بعداره
وتألّفت أضداده فالماء في
وحكيته فمدامعي تهجي على
وإذا بدا فالقلب مشغول به
فمتى أعان على هواه بنصره

ويجيد في الوصف بين وصف المعارك ووصف الرياض والزهور . يقول في

معركة :

تَنَازَرُ أحياناً ، وَإِنْ قُرْبَ النَّحْرِ
وَإِنْ لَمَعَتْ أَسْيَافُهُ طَلَعَ الْقَجَرُ
وَقَتْلَى يَعَافُ الْأَكْلُ مِنْ هَامِيهَا النَّسْرُ

تَكَادُ مِنَ التَّقَعِ المَثارِ كُمَائِهَا
عَجَاجٌ يَظُلُّ المَلْتَقَى مِنْهُ فِي دُجَى
وَحِيلَ يَلْفُ النَّشْرِ بِالتَّرِبِ عَدُوَهَا

ويصف النرجس فيقول :

يَحْكِي العُيُونُ فَقَدْ حَبَاها نَفْسُهَا
شَغْفاً إِذْ الْأَشْيَاءُ تَعشَقُ جَنْسُهَا
كَمْ مَنَّةٍ فِي أَنْسِهِ مِنْ أَنْسِهَا
وَاحْتُثَّ عَلَى حَذَقِ الحَدَائِقِ كَأْسُهَا

وَفَدَ الرِّيعِ عَلَى العُيُونِ بَنَرِجَسٍ
عَلِقَتْ عَلَى اسْتِحْسَانِهِ أَبْصَارُنَا
يُلْهِمِي وَيُؤْنِسُ مِنْ جَفَاهُ خَلِيلُهُ
فَارْضِ الرِّيَاضَ بِزُورَةٍ تَلْهُو بِهَا

ولا نستطيع مما انتقاه ابن العماد أن نلم بكل ما قال الشاعر ولا بأحسن ما قال فنحن نعرض لما اختار من خلال ذوق غير ذوقنا وموقف غير موقفنا ، فللعقاد موقف معروف يتكرر من شعراء الفاطميين ، فهو لا يختار من أقوالهم إلا ما يتفق مع عقيدته ولا يتعارض مع أهواء سادته من الأيوبيين أعداء الفاطميين التقليديين . ذلك إلى ميل العماد في حكمه على الشعر إلى الشعر الذي به صنعة البديع . ونلاحظ على كثير من اختياراته اهتمامه بهذا اللون .

وشعر الكتاب عامة في هذا العصر لا يخلو من البديع ، وهو من جنس
إنشائهم فيه الصنعة ظاهرة . وقد تعلم القاضي الفاضل في ديوان الإنشاء ،
وتأثر بهم ، وحفلت كتاباته بضروب من صنعة البديع ، افتنَّ فيها حتى
أعجبت معاصريه ومن بعدهم وكذلك كان شعره من اللون نفسه ، وهو ابن
هذه المدرسة نفسها من شعراء كتاب الفاطميين .

مصادر ومراجع

آدم متر :

١ — الحضارة العربية في القرن الرابع — ترجمة أبو رييدة ، طبع مصر .

إحسان عباس .

٢ — الوزير المغربي — طبع دار الشروق بعمان ، الأردن سنة ١٩٨٨ م .

أحمد أحمد بدوى

٣ — الحياة العقلية في عصر الحروب بمصر والشام — طبع نهضة مصر .

الأدقوى :

٣ — الطالع السعيد الجامع لأبناء أبناء الصعيد — تحقيق سعد محمد حسن ،
ومراجعة الدكتور طه الحاجرى ، طبع دار الكتب بمصر سنة

١٩٦٦ م .

أبو الفداء :

٤ — المختصر في أخبار البشر — طبع القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .

أحمد أمين :

٥ — ظهر الإسلام — طبع لجنة التأليف .

إدريس عماد الدين :

٦ — عيون الأخبار في أخبار الفاطميين — تحقيق دكتور مصطفى غالب ،
طبع دار الأندلس ببيروت سنة ١٩٨٥ م .

ابن الأثير — نجم الدين أحمد بن اسماعيل :

٧ — جوهر الكنز — تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام ، طبع منشأة
المعارف بالإسكندرية .

ابن الأثير : عز الدين على

٨ — الكامل في التاريخ .

ابن أبى أصيبعة :

٨ — عيون الأنبياء، فى طبقات الأصباة

أسامة بن منقذ :

٩ — ديوانه — تحقيق د . حامد عبد المجيد .

١٠ — الاعتبار .

١١ — المنازل والديار — طبع القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

أمية بن أبى الصلت :

١٢ — الرسالة المصرية — تحقيق محمد عبد السلام هارون — مجموعة نوادر المخطوطات .

طبع لجنة التأليف سنة ١٩٥١ م :

١٣ — شعره — جمع محمد المرزوق — طبع دار الكتب الشرقية بتونس .

الأمين العاملى : السيد محسن

١٤ — أعيان الشيعة — طبع دمشق سنة ١٩٤٦ م .

الباخرزى :

١٥ — دمية القصر وعصرة أهل العصر — طبع مصر .

ابن بسام :

١٦ — الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة — تحقيق إحسان عباس ، طبع بيروت .

التجيبى :

١٧ — المختار من شعر بشار — تحقيق لجنة وطبع لجنة التأليف بالقاهرة .

ابن تغرى بردى :

١٨ — النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة — طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة .

١٩ — المنهل الصافى — طبع دار الكتب المصرية .

٢٠ — النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة — تحقيق د . حسين نصار ،

طبع دار الكتب بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م

نعم بن المعز :

٢٠ — ديوانه — صبع دار الكتب المصرية .

التهامي : على بن محمد

٢٢ — ديوانه — تحقيق الدكتور محمد عبد الرحمن الربيع ، طبع مكتبة المعارف بالرياض سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٢ م .

ديوانه — تحقيق رسالة ماجستير مخطوطة ، بإشراف د . محمد زغلول سلام ، كلية الآداب بالإسكندرية سنة ١٩٧٨ م .

الثعالبي :

٢٣ — يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر — تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، طبع السعادة بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م .

الجاحظ : عمرو بن بحر

٢٤ — البيان والتبيين — تحقيق محمد عبد السلام هارون ، طبع لجنة التأليف سنة ١٩٤٨ م .

ابن حجة الحموى :

٢٥ — ثمرات الأوراق — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم سنة ١٤٠٠ هـ .

٢٦ — خزانة الأدب — طبع مصر سنة ١٣٠٤ هـ .

حسن إبراهيم حسن :

٢٧ — تاريخ الدولة الفاطمية — طبع القاهرة سنة ١٩٣٢ م .

الحصري القيرواني : إبراهيم بن علي (أبو اسحاق)

٢٨ — زهر الآداب — ضبطه ، دكتور زكي مبارك ، طبع مصر .

حسين نصار (دكتور)

٢٩ — ظافر الحداد .

ابن حيوس :

٣٠ — ديوانه — تحقيق خليل مردم ، طبع المجمع العلمي بدمشق سنة

١٩٥١ م .

- داعى الدعاة : هبة الله بن موسى الشيرازى
٣١ — سيرة المؤيد — تحقيق د . محمد كامل حسين ، دار الكاتب المصرى
بمصر سنة ١٩٤٩ م .
٣٢ — المجالس المؤيدية — تحقيق د . مصطفى غالب ، ط . دار الأندلس
بيروت سنة ١٩٧٤ م .

ابن دقماق

- ٣٣ — الانتصار لواسطة عقد الأمصار .
داعى الدعاة :
٣٣ — ديوان داعى الدعاة — تحقيق د . محمد كامل حسين ، ط . دار
الكاتب المصرى سنة ١٩٥٠ م .

الدينورى : أبو حنيفة — أحمد بن داود

- ٣٤ — الأخبار الطوال — تحقيق عبد المنعم عامر ، طبع القاهرة سنة
١٩٦٠ م .

الرقيق القيروانى :

- ٣٥ — تاريخ أفريقيا والمغرب — تحقيق المنجى الكعبى ، نشر وطبع تونس .
٣٦ — قطب السرور فى أوصاف الخمور — طبع المجمع العلمى بدمشق .

ابن رشيق

- ٣٧ — الأنموذج فى شعر القيروان — طبع تونس .
٣٨ — العملة فى الشعر .

ابن سعيد المغربى :

- ٣٧ — المغرب — الجزء الأول من قسم مصر — تحقيق د . زكى محمد
حسن ، د . شوق ضيف ، طبع جامعة فؤاد سنة ١٩٥٣ م .

السيوطى :

- ٣٨ — بغية الرعاة — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . طبع القاهرة سنة
١٩٦٥ م .
٣٩ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة .
٤٠ — تاريخ الخلفاء .

ابن شاكِر الكُتبي :

٤١ — عبود التواريخ — ح ١٢ ، تحقيق دكتور فيصل السامر ، ط . العراق
سنة ١٩٧٧ م .

٤٢ — فوات الوفيات — تحقيق د . إحسان عباس ، طبع بيروت سنة
١٩٧٣ م .

الشابِشتي :

٤٣ — الديارات — طبع دار الكتب بمصر .

الشرِيف العقيل :

٤٤ — ديوانه .

ابن الصيرفي :

٤٥ — الوزراء المصرية — طبع مديولى بالقاهرة .

٤٦ — الوزراء المصرية — طبعة أوروية .

٤٧ — قوانين الدواوين — طبع القاهرة .

٤٨ — قوانين الدواوين — طبع مديولى بالقاهرة .

٤٩ — الأفضليات — تحقيق د . وليد قصاب ، ود . المناع ، طبع دمشق سنة
١٩٨٢ م .

الصوري : عبد المحسن

٥٠ — ديوانه — محقق . طبع بغداد سنة

الصفدى : صلاح الدين

٥١ — الوافى بالوفيات — مجموعة أجزاء ، طبع معهد المشرقين الألماني .

٥٢ — الفيت المسجدة ، شرح لامية المعجم ، طبع بيروت .

٥٣ — نكت الهيمان —

طه حسين

مع أمى العلاء فى سجنه

طلّاع بن رزّيك :

٥٤ — ديوانه جمع د . أحمد أحمد بدوى — ط . مكتبة نهضة مصر بالقاهرة
سنة ١٩٥٨ م .

٥٤ — ديوانه جمع محمد هادي الأمين — نشر المكتبة الأهلية بالشجف بالعراق
سنة ١٩٦٤ م .

ابن الطوير :

٥٥ — نزهة المقلتين في أخبار الدولتين — حققه د . أيمن فؤاد السيد ، طبع
بمصر سنة ١٩٩٢ م .

ظافر الحداد :

٥٦ — ديوانه بتحقيق د . حسين نصار ، طبع مكتبة مصر بالفجالة سنة
١٩٦٩ م .

ابن ظهيرة :

٥٧ — الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة — تحقيق مصطفى السقا ،
ط . دار الكتب سنة ١٩٦٩ م .

عبد الرحمن ياغي :

٥٨ — حياة القيروان — طبع المكتب الإسلامي بدمشق .

عادل زعيتر (مترجم) :

٥٩ — نجالى الإسلام .

على إبراهيم أبو زيد

٦٠ — رسائل ابن أبى الشخاء — طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٩١ م .

على بن خلف :

٦٠ — مواد البيان — طبع الجامعة الليبية بطرابلس .

عبد اللطيف حمزة : دكتور :

٦١ — أدب الحروب الصليبية — طبع دار الفكر سنة ١٩٤٨ م .

٦٢ — الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي — طبع دار
الفكر سنة ١٩٦٨ م .

على بن ظافر :

٦٣ — بدائع البدائ — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبع مكتبة الأنجلو
بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م .

٦٤ — تاريخ الدولة السلجوقية .

٦٥ — أخبار الدولة الحمدانية — تحقيق نمة السروات — طبع دار حسان .

عماد الدين الأصبهاني :

٦٥ — خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء مصر — طبع القاهرة سنة ١٩٥١ م .

٦٦ — خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء الشام — طبع المجمع العلمي بدمشق .

٦٧ — خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء المغرب — طبع تونس .

أبو العلاء المعري :

٦٨ — رسالة الغفران — تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، طبع المعارف بمصر سنة ١٩٥٠ م .

٦٩ — ديوان سقط الزند .

٧٠ — ديوان اللزوميات .

ابن العماد الحنبل :

٧١ — شذرات الذهب في أخبار من ذهب .

العامل : بهاء الدين

٧٢ — الكشكول — تحقيق أحمد الزواوي ، طبع الحلبي بالقاهرة سنة

العباسي : عبد الرحيم

٧٣ — معاهد التنصيص على شواهد التلخيص — تحقيق محمد محيي الدين عبد

الحמיד ، ط . السعادة بمصر سنة ١٩٤٧ م .

عمارة اليمنى :

٧٤ — النكت العصرية في الوزراء المصرية .

الفارقي :

٧٥ — تاريخ الفارقي — تحقيق د . بدوي عبد اللطيف ، ط . دار الكتب

البنانية بيروت سنة ١٩٧٤ م .

أبو الفرج الأصبهاني :

٧٦ — الأغاني طبع دار الكتب المصرية .

القفطى : على بن يوسف

٧٧ — إثبات الرواة على أنباء النحاة — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

٧٨ — المحدثون من الشعراء — تحقيق رياض مراد ، طبع دمشق سنة

١٩٧٥ م .

القلقشندي :

٧٩ — صبح الأعشى في صناعة الإنشا — طبع دار الكتب المصرية .

محمد عبد الغنى حسن :

٨٠ — مصر الشاعرة في العصر الفاطمي — طبع مصر .

٨١ — تميم بن المعز الأمير الشاعر — طبع دار الرفاعي بالرياض سنة ١٩٨٠ .

محمد كامل حسين :

٨١ — في أدب مصر الفاطمية — ط . دار الفكر العربى سنة ١٩٧١ م .

محمد عبد الله عنان :

٨٢ — الحياة الفكرية في مصر حتى آخر الدولة الفاطمية — طبع النهضة العربية .

محمد عبد الحميد سالم . دكتور

٨٢ — شعر المهذب — تحقيق ودراسة ، طبع دار هجر بالقاهرة سنة ١٩٨٨ م .

٨٤ — الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية — نشر الخانجي سنة ١٩٨٣ .

المقريزى :

الخطط :

٨٣ — البيان والإعراب — تحقيق د . عبد المجيد عابدين ، طبع القاهرة سنة

١٩٦١ م .

٨٤ — اتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء — تحقيق ونشر د . جمال .

٨٥ — كتاب النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم — تحقيق د. حسين مؤنس — طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٩٠ .

٨٥ — الدين الشيال — ط . دار الفكر العربى سنة ١٩٤٨ م .

المقدسى : شهاب الدين

٨٦ — كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين — تحقيق د . محمد حلمى بالقاهرة سنة ١٩٦٢ م .

محمد مصطفى رضوان :

٨٧ — المهذب بن الزبير حياته وشعره — طبع دار الرسالة بالقاهرة سنة ١٩٨٤ م .

الحاسبى :

٨٨ — أخبار مصر فى سنين — طبع المجمع العلمى .

المسبحى :

٨٩ — أخبار مصر — تحقيق وليم ميلورد ، طبع الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ م .

المقرى :

٩٠ — نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب — تحقيق إحسان عباس سنة ١٩٦٨ م .

النويرى :

٩١ — نهاية الأدب — طبع دار الكتب المصرية .

النعمان القاضى : (مترجم) .

٩٢ — دعائم الإسلام — تحقيق آصف فيظى ، نشر دار المعارف بمصر .

ابن هانىء :

٩٣ — ديوانه — طبع بيروت سنة ١٩٦٤ م .

ابن واصل : جمال الدين محمد

٩٤ — مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب — تحقيق د . جمال الدين الشيال طبع مصر سنة ١٩٥٣ م .

الوطواط :

٩٥ — مناهج الفكر ومباهج العير — تحقيق عبد العال الشامي ، طبع الكويت
سنة ١٩٨١ م .

اليافعي :

٩٦ — مرآة الزمان — ح ٣ ، طبع بيروت .

ياقوت الحموي :

٩٧ — معجم الأدباء .

٩٨ — معجم البلدان .

Lane Poole: History Of Egypt In Middle Ages.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الأول : حال الشعر والشعراء	٧
حال الشعر	٩
موضوعات الشعر	١٤
شعراء العصر	٣٨
الفصل الثاني : شعراء مصريون في القرن الرابع	٤٣
١- تميم بن المعز	٤٥
٢- الرّسبيون	٨٧
٣- ابن وكيع التنيسي	٩٦
٤- الشريف العقيلي	١٠٢
٥- شعراء مصريون آخرون في القرن الرابع	١١٥
الفصل الثالث : شعراء وافدون في القرن الرابع	١٢٥
١- أبو الرقعمق الأنطاكي	١٢٧
٢- الرقيق القيرواني	١٣٧
٣- صريع الدلاء البغدادي	١٤٤
٤- عبد المحسن الصوري	١٤٧
الفصل الرابع : شعراء مصريون من القرن الخامس	١٥٩
١- ظافر الحداد	١٦١
٢- ابن مكنسة	١٩٦
الفصل الخامس : شعراء وافدون من المشرق في القرن الخامس	٢٠٥
١- التهامي	٢٠٧
٢- داعي الدعاة شمس الدين	٢٤٠
٣- ابن حيوس	٢٤٧

٢٥٥	الفصل السادس : شعراء معاصرون بالشام
٢٥٧	١- أبو العلاء المعري
٢٩٦	٢- ابن سنان الخفاجي
٣٠٣	٣- ابن الحياط
٤١٥	٤- إبراهيم الغزي
٣٢٣	الفصل السابع : شعراء وافدون من المغرب
٣٢٥	١- التجيبي
٣٢٨	٢- ابن القطاع الصقلي
٣٣١	٣- أمية بن أبي الصلت
٣٤٢	٤- ابن أبي البشائر
٣٤٨	٥- شعراء وافدون آخرون
٣٤٨	٦- محمود بن عبد الجبار الطرسوسي
٣٥٠	٧- الرشيد الصقلي
٣٥١	٨- التلعي الأصم - محمد بن عبد الله
٣٥٥	٩- مجير الصقلي
٣٦٥	الفصل الثامن : شعراء مصريون في القرن السادس
٣٦٩	١- حسن بن زيد الأنصاري
٣٧٣	٢- ابن النضر
٣٧٧	٣- داود بن مقدام الحلبي
٣٨١	٤- ابن الضيف
٣٨٤	٥- ابن الكيزاني
٣٨٩	الفصل التاسع : شعراء نهاية العصر (ابن رزيك وجماعته)
٣٩١	١- ابن رزيك
٤٣١	٢- أسامة بن منقذ
٤٥٧	٣- القاضي الرشيد بن الزبير
٤٦٤	٤- المهذب بن الزبير

٤٧٩

٤٩١

٤٩٤

٤٩٩

٥ — عمارة اليمنى

٦ — ابن قادوس

٧ — القاضي الجليس

المصادر والمراجع